

مركز تحقيق التراث

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة

ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة

تأليف

على باشا مبارك

الجزء السابع

مدينة الإسكندرية

الطبعة الثانية

عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

إعداد
أحمد صلاح زكريا
باحث أول
مركز تحقيق التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرسة الجزء السابع

من الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة

مدينة الإسكندرية

صفحة

صفحة

صفحة

مطلب الفصل الأول ، فى مدينة إسكندرية .

صفحة

صفحة

مطلب الفصل الثانى ، فى الكلام على مينا إسكندرية .

مطلب الفصل الثالث
فى الكلام على ما عاد على مدينة إسكندرية
من فوائد السكة الحديد ، والإشارات التلغرافية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مدينة إسكندرية

/لم يوجد فى الأقطار المصرية من المدن الشهيرة التى حفظ المؤرخون حوادثها وقيدوها فى كتبهم مثل مدينة اسكندرية ، وإن لم يبق من آثارها القديمة إلا القليل ، ولعل سبب حفظهم لحوادثها وإطنابهم فى آثارها ، أهمية موقعها عند من حكموا الديار المصرية وغيرهم بالنسبة للتجارة ، التى بلغت فيها درجة علائقها الغاية عند جميع الأمم المتفرقة بسواحل البحر الأبيض ، فبتلك الواسطة صارت تحت المملكة متسعة الأطراف ، قد مدَّت شجرة العلوم فيها أغصانها ، واتسعت دائرة المعلومات البشرية فى مدارسها ، وانجلت غياهب الشك عن حوادثها من ذلك الحين ، وصار كل ما سُطِّر فى صحائف أوراق كتب التاريخ يكشف عن حقائق صحيحة بالنسبة لأحوال هذه المدينة وغيرها ، ويبين لنا أسباب خرابها وخراب ما حولها ، بذكر التقلبات والحوادث التى كانت تمتد من أطراف هذه الجهة إليها فتعطل أسباب الرزق من المزارع والمتاجر وغيرها . ٢

ولذا نجد فى الكتب وصف أبنية عجيبة وآثار غريبة كانت بهذه المدينة وغيرها من مدن الوجه البحرى ، وإن لم يبق الآن منها ما يدل على ماكانت عليه هذه المدينة من العزّ فى الأزمان الماضية .

ولنذكر لك نقلا عن السلف ما شاهدوه وما علموه من أمرها ، وكيف انقلب الدهر عليها على حسب الترتيب الزمانى ، ليعلم القارىء سلسلة تلك التقلبات وما حدث فيها من خير وشر ، ويعرف قدر ماكانت عليه من العز والأسباب التى أزالته عنها فنقول :

المدة الأولى

بقيت الديار المصرية رافلة فى حلل سعدها وعزها قرونا عديدة ، والعلوم فيها زاهية زاهرة حين كانت الأمم الأخر سابحة فى بحار الجهل ، وذلك كان قبل بناء إسكندرية ، التى لم يظهر ذكرها إلا بعد انحطاط درجة مدينة منف وخرابها .

وأقوال المؤرخين مضطربة فى تقدير مدة التقدّم فى هذا القطر ، والوقت الذى ابتدأ فيه ظهوره ، ولكنهم متفقون على أن منشأه شواطىء النيل ، ثم انتقل منها إلى ما جاورها من البلاد التى على سواحل البحر الأبيض .

وكانت مصر زمن الفراعنة كعبة[١] يحج إليها طلاب العلم من كل جهة ، ويقيمون بمدارسها ويتلقون عن علمائها وأحبارها ، إلى أن دخل قمبساس[٢] هذه الديار وجعلها ضمن مملكة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد فأخذت فى الخراب من ذلك العهد ، وتهدمت أبنيتها ، ودمرت مدنها ، وامتدت يد الظلم والجور على العلماء والمدرسين ، فتلاشى أمر التقدم والعلم ، وانحط قدر الأمة المصرية ، وصارت المعلومات والتقدمات ممنوعة عن السير - جميع مدة الفرس - كما أطبق عليه جميع المؤرخين .

والرومانيون تلك المدة كانوا فى أوائل ظهورهم ، فكانت دولتهم فى مهد الطفولية لا ذكر لها أصلاء بخلاف الأروام فإن التقدم الذى غرسه المصريون فى جزيرتهم - زمن الفراعنة - أخذ فى أهبة الظهور عندهم ، وكان لا يوجد فى موضع إسكندرية غير قرية صغيرة تسمى (رقودة) كان يسكنها قبل الفراعنة نفر[٣] من العرب .

---

(١) فى الأصل : كقبة .

(٢) يعنى : قمبيز .

(٣) فى الأصل : خفر .

المدة الثانية

وهى سنة ١٩٣ ؛ ومن حين استيلاء الفرس على هذه الديار إلى دخول اسكندرية وتغلبهم على مصر ، لم ير فيها غير فتن داخلية أضرت بالقطر ، وترتب عليها فقر الأهالى وإهانة العلم وأهله ، ولم يلتفت إلى أهمية موضع اسكندرية أصلاً ، وبقيت قرية (رقودة) خامدة الذكر . ومن النصر المتتابع للجيوش الرومية فى محاربتها جيوش الفرس قويت شوكتهم ، وعظمت صولتهم ، وزادت شهرتهم ، وأخذت شجرة العلم التى غرسها المصريون فيهم تتسع وتعظم تبعا لعظم قدرهم .

وعلى قدر عز الروم ذلت الفرس وتفرقت بها الفتن ، واضمحل حالها ، وساقها إلى الزوال سوء / تدبيرها . ولما حلّت الأروام محل الفرس أقاموا زمنا طويلا منفردين بالحكم على باقى الأمم . ٣

ثم انحطت دولة الروم بمثل الأسباب التى كانت للفرس ، ولمجاورة روما لهذه الأمة كانت تقتبس من معارفها ، وتتحلى بفضائلها ، حتى صارت تأخذ الروم فى التقهقر إلى أن ظهرت ظهورها ، وأخذت جميع ذكرها وملكها .

المدة الثالثة

وهى سنة ٣٠٢ ؛ فى تلك المدة زال ملك الأكاسرة من آسيا بالكلية ، ودخلت مصر فى ضمن فتوحات الإسكندر سنة ٣٢٢ قبل الميلاد ، بعد قمبساس بقرنين تقريباً ، ونشأ عن هذا الانقلاب تغير كلىّ فى أحوال جميع الأمم المتمدينة[1] التى تغلب عليها الإسكندر ؛ لأنه

---

(١) فى الأصل : بالمتدينة .

نظر فيما يوجب ربط علائق هؤلاء الأمم ، فلذا أسس مدينة الإسكندرية وسماها باسمه ، وجعلها مركزاً للتجارات بدل مدينة صور التى هدمها وخربها ، فوردت إليها التجارة ، وعمرت فى مدة يسيرة ، وملأها الأغراب ، سيما الأروام ، وبلغت فى مدة قريبة درجة عظيمة فى الثروة والعمار ، بسبب كونها مقرّ حكومة البطالسة ، وانحط بها قدر منف .

وبسبب تحلية ملوك البطالسة لها بالمبانى والمعابد والمدارس ، صارت مدينة إسكندرية مركزاً لجميع أمور العالم ، وشاع ذكرها حتى ملأ الآفاق ، وقصدها جميع الناس ، فاتسعت حدودها ، وعظم أمرها ، وفاقت جميع مدن الدنيا فى تلك الأزمان ، وانتقل إليها العلم والعلماء ، وصارت مركزا للعلم والأدب كما كانت مركزا للتجارة والسياسة ، وبقيت كذلك تلك المدة الطويلة رافلة فى حلل العزّ ، لما اشتملت عليه من علوم المصريين والروم وتمدنهم ، فكانت كالشمس يستضىء بها كل إنسان من أى بقعة ، ونُسى بها غيرها من المدن .

وفى أغلب تلك المدة كانت مدينة روما فى حال التبربر ، فأطلقت عنان طمعها ، وخربت مدينة قرطاجة وكرت بجيوشها على ما جاورها ، فاتسع سلطانها باستيلائها على القلواء وجزائر الروم . ولم تكتف بذلك بل قصدت الممالك المشرقية ، ومن ذلك الوقت بدا فى الكون ذكرها ، واستمر ذلك إلى وقت قيصر الروم (أغسطس) .

ولنذكر لك ملخص تاريخ تقلبات هذه المدة وحوادثها ، من ابتداء إسكندر الأكبر إلى زمن دخول قياصرة الروم فنقول :

مطلب تقلبات الأحوال من ابتداء إسكندر الأكبر إلى زمن قياصرة الروم

بعد موت الإسكندر صارت قسمة مملكته المتسعة بين رؤساء جيوشه ، فكانت مصر فى نصيب (بطليموس بن لاغوس) ، وكان أعظم الجميع عقلا وأكملهم فضلا ، فأسس دولة البطالسة سنة ٣٢٣ قبل الميلاد .

وذكر المؤرخون أن بطليموس المذكور أخو إسكندر من السّفاح ، لأن (أرسينوى)

والدة بطليموس هذا ولدته من (فليبش) الذى هو والد الإسكندر وملك مقدونيا ، وهو الذى زوّجها إلى (لاغوس) والده ، وكان من نسل أحد العامة ، وكان بطليموس هذا من أعز أحباب إسكندر ، وصاحبه فى جميع حروبه واشتهر بلقب (سونير) أى المنجى ؛ وسبب ذلك ـ كما قال بعضهم : أنه نجّى أهل جزيرة رودس من ظلم (ديمتريوس) ملكهم ، فلقبوه بهذا اللقب . وقال آخرون : سبب ذلك أن نجاة الإسكندر كانت على يديه فى وقعة من وقعات الهند ، فمن ذلك لقب بهذا اللقب .

وبطليموس هذا كان صاحب تدبير ، وعقل وافر غزير فلذا كان ابتداء جلوسه على تخت الديار المصرية آخذاً فيما يوجب لملكه الدوام والبقاء ، وصارفا جل همته فى استمالة قلوب المصريين ، فنشر فيهم ألوية العدل والإنصاف ، وأوسع لهم فى العطاء فأحبوه ، ولاذ بساحته أغلب الرجال من ذوى العقل من رجال الإسكندر وغيرهم ، وتوصل لعقد معاهدات مع حكام الجهات المجاورة لملكه ، فاستقام حال مصر ، واستبشر أهلها بالأمن والراحة ، ونمّت فيهم الثروة التى كانت رحلت من بلادهم منذ زمن مديد . ولم يمض عليه زمن يسير إلا وقد ظهرت ثمرة حسن رأيه وإصابته ؛ فإن (بيردنكاس) أحد أقرانه فى مدة الإسكندر ، رغب فى أخذ مصر منه وحزب عليه جيوشا ، لكن اخترمته المنية أثناء ذلك ، وبقى بطليموس مستريحا بعد هذه الفتنة التى كانت نتيجتها دخول بلاد القدس ضمن سلطنته لحفظ القطر المصرى من عدوّ يقصده من الشام ، وربط به معاهدات صار بها مستقلاً فى مصر وما والاها من بلاد العرب ، وبلاد ليبيا التى فى حدود مصر ، ومن ذاك الحين صار مالكاً متصرفاً لا يعارض ، وبذل الجهد فى إتمام مقاصد إسكندر من تمكين تجارة المشرق والمغرب من أرض مصر

وفى زمنة وزمن من أعقبه فى الملك ، كثر ورود التجارة الهندية إليها ، بسبب ما حدث فى سواحل البحر الأحمر من المين[1] العظيمة ، والمسالك الموصلة لتلك التجارة إلى نيل مصر ، لتمر فى مدنها حتى تصل إلى إسكندرية وتنقل إلى أوروبا . ومن تلك المسالك :

(١) جمع ميناء .

الخليج الذى كان يوصل إلى السويس بالنيل فى الأزمان القديمة ، والطريق المنتظمة فى الصحراء الشرقية فى الوجه القبلى ، بين النيل والقصير ، وجعل فيها الصهاريج والخفراء لأمن المارين والمترددين فى تلك الفيافى ، فكانت المصريون ترسل تجارتها ومحصولاتها المعتادة : كالصوف والحديد والرصاص والنحاس ، وبعض أوانٍ من الزجاج وغير ذلك إلى بلاد الهند وتستبدل تلك الأنواع / بالعاج والأبنوس والصدف ، والثياب الملوّنة وغير الملوّنة ، وأنواع الحرير واللؤلؤ والأحجار الثمينة ، والبهارات وأنواع البخور .

٤

مطلب بطليموس الثانى

كانت أيام بطليموس لاغوس كلها ، بالنسبة لمصر ، أيام رفاهية وتقدم ، وظللت أرض مصر أجنحة السعد ، وأخذت الأهالى فى ازدياد الثروة .

ثم لما تقدم فى السنّ خاف على ملكه من بعده ، فأشرك معه فى حكمه ولده من زوجته الثانية ، وقدمه على أولاده الذين قد رزقهم من الأولى ليدرّبه على سياسة الملك ، فكان الأمر بينهما بالسوية إلى أن توفى بعد ذلك بسنتين وذلك سنة ٢٨٣ قبل الميلاد ، فاستقل بالحكم بعده ولقب (بغيلادلفوس) أى محب الإخوة ؛ لأن بعض المؤرخين ذكر أنه اجتهد فى استمالة قلوب إخوته فلقب بذلك . وذكر بعضهم أنه قتلهم واحداً بعد واحد بحيل مختلفة ، فلقبه أهل إسكندرية بهذا اللقب ، تهكماً واستهزاء . ومع ما فيه فقد اقتفى أثر والده فيما يجلب لأهل مصر السعادة ، فنمت التجارة والمعارف فى أيامه نموا شهدت به التواريخ .

والمدة التى كانت ورثة إسكندر تشعل فيها نار الحروب وتسوق بها الجيوش ، إلى أن خربوا جميع جهات آسيا ، كان فيها بطليموس المذكور مشغولاً بما يوجب رفاهية أهل مملكته ، فأوسع دائرة التجارة والفلاحة ، ووزع مياه النيل على الأراضى بإنشاء خلجانٍ وجسور ، حتى اكتسب بذلك شهرة لم تمحها حوادث الزمن .

مطلب الكتبخانة

واعتنى بالعلم وأسس الكتبخانة ، التى أطنب فى مدحها المؤرخون ، وصارت فريدة يقصدها الناس من الآفاق ، ولم تزل فى ازدياد إلى زمن كليوباترا ، فحرق أغلبها فى محاصرة قيصر بمدينة إسكندرية .

وفى زمنه أحضر كتبا كثيرة من كتب العبرانيين ، بناء على إشارة رئيس الكتبخانة ، وكتب إلى رئيس أحبار بيت المقدس ، فطلب ستة أحبار من كل قبيلة من قبائل العبرانيين الإثنى عشرة ، ولما حضروا عنده أكرمهم وغمرهم بإحسانه ، فترجموا له توراة موسى عليه السلام سنة ٢٧١ قبل الميلاد بمدينة إسكندرية ، فى المكان المعروف بجامع الألف عمود ، وهى النسخة الأصلية التى أخذ منها جميع نسخ التوراة التى فى أيدى الناس .

وفى تلك الأيام كانت الأغراب كثيرة بديار مصر ؛ لأنه من وقت وفود إسكندر وبنائه إسكندرية كانت الأغراب تتوارد ، وكثرت الأروام وأهالى السواحل الشامية بالإسكندرية ، وكانت التجارة بأيديهم فتأكدت العلائق بين المصريين وغيرهم من أهل المغرب .

ومُلك الرومانيين حينئذ ، وإن كان قد أخذ فى الظهور ، لكن شهرته كانت محصورة بإيطاليا ، ولما اشتهرت حروبهم وشاعت ووصلت أخبارها مصر ، رغب بطليموس فى تجديد علائق المحبة بينه وبينهم ، فعمل معهم شرائط الإتحاد فمن ذلك الوقت دخلت الرومانيون ضمن من دخل مصر ، واتجروا واستوطن أكثر الواردين منهم إسكندرية كغيرهم .

وفى تلك المدة كانت الغلواء ، وهم المسمون الآن بالفرنساوية ، تشن الغارات على الأمم البعيدة ، وبالجملة أغاروا على الرومانيين ، ودخلوا أرض اليونان وآسيا وأرض مصر . وبسبب تجلدهم على القتال كان منهم قوم فى جيش بطليموس ، وقوم فى جيوش إسكندر . وفى مدة غياب بطليموس رفع أربعة آلاف منهم لواء العصيان عليه ، وهمُّوا بنزع الحكومة منه ، فلم ينجحوا وقهرهم بطليموس ، فحصروا أنفسهم فى إحدى جزائر النيل ، ولما تحققوا

عدم الخلاص قتل بعضهم بعضا ، حتى لم يبق منهم أحد وفى عقب ذلك جمع (انتكورس طيوس) ملك الشام عساكر كثيرة ، وهجم على ديار مصر لدولة البطالسة حسدا منه ، ثم انتهى الأمر على الصلح بينهما .

وسبب ذلك أن فئة من المصريين كانوا قد خرجوا عن الطاعة ، فعظم ذلك الأمر على بطليموس ولكنه تداركه بتزويجه بنته لملك الشام ، فانحسم أمر النزاع وزال ما كان فى النفوس .

لكن لم يتمتع بطليموس بثمرة هذا الصلح زمناً طويلاً ، فإن موت زوجته (أرسينوى) أخته أوجب تعجيل منيته ، لفرط حزنه عليها . وكان موته سنة ٢٤٦ قبل الميلاد .

مطلب بطليموس الثالث

وجلس بعده على تخت الملك ابنه بطليموس الثالث ولقبه (أويرجيت) أى المحسن ، وسبب تلقيبه بذلك ، وأنه أحضر معه بعد رجوعه من حرب الفرس أصناما كثيرة من أصنام آلهة قدماء المصريين ، وكانت أخذت من المعابد زمن (جمشيد) .

ومن ذلك يعلم أن المصريين ـ كانت فى تلك الأزمان ـ تغيرت عن حالها القديم وداخلها الطيش والخفة ، فإن بطليموس هذا كان غير مستحق لهذا اللقب ؛ فإنه كان مشتغلا بالحروب فى بلاد بعيدة ، ولم يسر سير أبيه ، بل أهلك مال الدولة فى تلك الحروب ، وأتلف رجالها ، ونقصت درجة ثروة الإقليم عما كانت أيام أبيه وجدّه .

وجميع هذه الحروب التى فى سواحل الشام ، والفرات ، والعجم ، وحدود آسيا منشؤها أمرٌ واهٍ ، كانت تسويته ممكنة بدون سفك دم ، وذلك هو الانتقام لأخته من زوجها ملك بلاد الشام ، لأنه كان هجرها . وهذه الحروب لولا أنهم تعصبوا عليه بمصر لدامت ، لكنه لما رأى ذلك رجع وأطفأ نار الفتنة ، وبعدها بقليل مات مسموما بواسطة أحد أولاده ، /٥ وذلك سنة ٢٢٠ قبل الميلاد .

مطلب بطليموس الرابع

وتولى بطليموس الرابع الذى قتل أباه وتلقب بـ (فيلوباتور) أى محب الأب ، لقبه بذلك أهل الإسكندرية تهكماً ، وكانوا من أشد الناس عنادا وأقربهم للفتنة انقيادا ، ومع ذلك فتلقيبهم له بهذا اللقب مما يدل على جراءتهم ، فإنه وإن لم يُرَ فى تواريخ تلك المدة ما يثبت بطريق قطعى أن هذه الفِعلة حصلت منه ، لكن ما وقع منه بعد جلوسه على التخت فى عائلته الملوكية يحقق ذلك ؛ لأنه لم يكتف بقتل أخيه وأخته ـ التى كان متزوجاً بها ـ بل قتل والدته أيضاً ، واحتظى بامرأةٍ فاجرة لجمالها ، فلقبوه أيضا بـ (تريفون) أى الجبار الشديد القسوة لقسوته وفجوره ، فلم يرتدع بل ازداد طغيانا ، وفسادا ، وفجوراً ، وفسوقا وقسوةً ، وانهمك فى اللذات والمعاصى ، وترك أمور الملك ، وأكثر من ظلم الرعية ، وأجحف فى طلب الأموال ، فتلاشى حال مصر .

وكانت أخبارها تصل إلى ملك الشام (انتيكوس الثالث) أولاً فأوّلاً . فظن أن الوقت وقت الانتقام من البطالسة ، فجرد على مصر . لكن لم تساعده المقادير فانهزم أشنع هزيمة .

وبقى بطليموس بعد ذلك سبع عشرة سنة وهو فى لهوه ولعبه ، وما عمل شيئا يستحسن ذكره ، غير تجديد المعاهدة التى عقدها أجداده مع الرومانيين ، إلى أن مات سنة ٢٠٤ قبل الميلاد .

مطلب بطليموس الخامس

وترك الملك لولده بطليموس الملقب بـ (أبيغان) أى المحترم ، وكان عمره حين موت أبيه خمس سنين ، فحدثت فتن واضطرابات داخل البلاد ؛ لأن والدته من فجورها أخفت وفاة أبيه مدة طامعة أن تكون السلطنة لها ، واتحدت مع أخيها وبعض أخدانها ، وهمت بقتل ولدها ، فعلم بذلك أهل الإسكندرية ، فأخذوه منها قهراً وجعلوه تحت رعاية الرومانيين ، وقتلوها مع من اتفق معها أشنع قتلة .

ومن ذلك يعلم أن كلمة الرومانيين كانت بلغت عند المصريين حد الاعتبار . وكانوا تداخلوا فى أمور بيت ملك المصريين ، حتى كان يحتمى بهم ، ويمتثل رأيهم .

ولصغر سن بطليموس أقاموا له ولياً ، وكانت الأمور فى اضطراب ، فنتج من ذلك أن صاحب الشام اهتم فى أن يسترد البلاد التى كانت بطالسة مصر اغتصبتها منه ، فرأى أنه إن زوَّج ابنته لبطليموس الخامس ، جمع بين العائلتين ووصل لمرغوبه ، ففعل ولكن خاب ظنه ؛ فإن كليوباترا ـ بنته ـ فضلت زوجها عليه ، ولم تساعده على قصده ، ومع ذلك لم تتحصل على شكر صنيعها من زوجها ، بل تمادى على الفجور ، والفسق ، واللهو واللعب ، إلى أن قتل مربيه ووزيره (أرسومين) بالسم ، وكان مربيه ـ هذا ـ شريفا فى قومه فاضلا .

ومن شدة قسوته وتجبره قامت الأهالى فى حياته مراراً ، وطفئت نار الفتن جميعها بواسطة رئيس جيوشه . وأخيرا اتفقت جماعة من رجال الدولة فقتلوه وخلصوا الملك من شره سنة ١٨٠ قبل الميلاد .

وأعقب من زوجته ولدين وهما (فلومطور) (وفسكون) وكان عمر الأول ـ حين مات أبوه ـ سبع سنين فاختارته الأهالى ، وجعلت أمر السلطنة موكولاً إليه .

مطلب بطليموس السادس

وكان بطليموس السادس لا يحب أمه ، لميلها لأخيه مدة ملكه ، ولذا لقب بلقبه الذى معناه : محب الأم . وفى صغره استحوذ ملك الشام على بلاد فلسطين وغيرها من بلاده .

ولما تملك مقاليد الملك جرَّد عليه وحاربه ، فلم يُنصر عليه وأخذ أسيرا ، وتغلب ملك الشام على قلعة الطينة ، ودخل مصر فقام أهل الإسكندرية وجعلوا عليهم (فسكون) ملكا ، فلم يحاربه ملك الشام ، وخلى سبيل بطليموس (فليوباتور) من الأسر ، وسلمه جميع البلاد ـ التى كان أخذها منه ـ سوى قلعة الطينة ، فإنه حفظها ليكون بسببها واقفا على حقيقة ما يصير بأرض مصر ، وما يقع بين الأخوين ، وينتهز فرصة عداوتهما لبعض .

هذا ماكان منه ، وأما هما ، فاتفقا وأقاما فى الملك سوية ، فخاب ظنه ، وقهره الرومانيون على ترك مصر والرجوع إلى بلاده .

ثم بعدة ذلك وقعت الفتن بينهما ، وحزّبا الأحزاب واقتتلا ، فغلب (فيلامتور) وطرد (فسكون) ففر إلى روما ، والتجأ بها ، فاغتنمت الرومانيون فرصة الشقاق ؛ لأنها كانت تطمع فى الاستيلاء على مصر ، فتوسطت بينهما ، وحكمت (لبطليموس فيلوباتور) بالأقطار المصرية وجزيرة رودس ، ولأخيه (فسكون) ببلاد ليبيا وبلاد السيرانك ، أى القيروان ، فلم يقنع بذلك بل ذهب إلى روما وطلب جزيرة قبرص ، فحكموا له بها .

كانت تلك الحالة باعثة حكومة الرومانية ، على أن تدخل فى أمر الديار المصرية دخولا تاما .

وبسبب فصلها قضايا البطالسة ، اتسعت دائرة سطوتها ، وقويت شوكتها فى هذه الديار . ومن ذلك الوقت نفذت كلمتها فى حكومة المصريين ، فمهدت طرق الطمع فى الاستيلاء عليها . وقد حصل ــ ولاشك ــ أن عدم الاستقامة وكثرة الظلم ينشأ عنهما كثرة الفتن .

وهذاكان حال مصر والشام ؛ فإن (اسكندر بلاص) أحد الأمراء ، طرد ملك الشام عن ملكه ، واتحد بملك مصر ، ورغبا فى تمكين علائق الإتحاد بين أولادهما بتزويج إسكندر المذكور بنت بطليموس ، فرضى بذلك ، ثم عدل عنه فيما بعد وزوجها من (سورتير) ملك الشام المطرود ، وجمع عسكره مع عسكره ، وطردوا (بلاص) المذكور ، واستقر صهره على ملك أبيه بالديار المصرية والديار الشامية ، ونشأ عنها استيلاء إسكندر بلاص .

٦ ثم / بعد تمهيد الأمر ، تزوج ملك الشام بإبنة ملك الملوك المجاورة له ، فحنقت عليه زوجته ، ودخل فى نفسها من جهته ما دخل . وبعد موته أرادت قتل ولدها ــ الوارث للملك عن أبيه . بالسم ، رغبة منها فى التصرف فى بلاد الشام ، وجعل ابنها الثانى الصغير بدله ، فلم ينجح مكرها ؛ فإن ولدها ــ ولىّ العهد ــ اطّلع على ذلك ، فأسقاها السم الذى كانت أعدته له .

ومن ذلك يعلم أن (بطليموس فيلاماتور) أراد أن يفعل بحكومة ملك الشام ما أراد فعله ملك الشام قبله بحكومته ، فخاب قصد كل منهما . وبعد ذا بقليل مات بطليموس سنة ١٤٥ قبل الميلاد ، وبعد ما بلغه موت إسكندر بثلاثة أيام جلس على التخت ، ولقب نفسه بالمحسن ، ولقبه أهل الإسكندرية بالمسيء ؛ لأنهم يعرفونه قبل بالفسق والقسوة .

والذى مكنه من الجلوس على التخت : أن بطليموس لم يترك غير ولد صغير ، وهو الحقيق بالجلوس ، لكنه أبعده وجلس هو . لكن شرط عليه أهل الإسكندرية شروطا منها : بأنه يتزوج بأخته زوجة أخيه ، وأن يكون ابن أخيه ولىّ عهده ، فأظهر القبول وفى يوم زفاف زوجة أخيه له ، ذبح ولدها فى حجرها ؛ فلما رأى أهل البلد ذلك قاموا عليه ، فهرب إلى جزيرة رودس ، فتنصبت بعده زوجته .

ثم بعد ذلك بمدة رجع وطلقها ، وقدم لها على المائدة قطع ولدها التى كانت أتت به منه ، وتزوج بإبنة أخيه (فيلاماتور) وبقى بعد ذلك يتنوع فى الفجور إلى أن مات قبل الميلاد سنة ١١٧ .

ومدة تملكه ، كانت تسعا وعشرين سنة ، ولم تنقطع الفتن فيها .

وذكر بعض المؤلفين ، أنه ألف تاريخاً لمصر ، لم تعثر الناس منه إلا على القليل .

وأعقب من ابنة أخيه ولدين ـ غير ولد له من السفاح ـ كان أعطاه بلاد القيروان ، ومات هذا الولد ولم يعقب ، وكان قد أوصى ببلاد القيروان للرومانيين ، فوضعوا عليها أيديهم ، وبهذه الطريقة كان أخذها من البطالسة ، وصارت من هذا العهد من ضمن ملك الرومانيين ، وبسبب قربها من الديار المصرية ، ازداد تداخلهم فى أمور مصر وقوى طمعهم فيها .

مطلب بطليموس الأصغر

وكانت الملكة كليوباترا ممتثلة لجعل الملك لأصغر ولديها بطليموس إسكندر ، وكان أهل الإسكندرية لا يوافقونها على ذلك ، بل يميلون إلى الأكبر ، فوافقتهم على ذلك ظاهراً

لا باطناً ، وأسرت إلى (إسكندرجانى) ملك اليهود أن يعينها ، فأجابها وأرسل لها عساكر ، وحصلت وقعة عظيمة بينه وبين بطليموس ، ثم انهزم ملك اليهود وخابت مساعى كليوباترا ، ومع ذلك فلم ترتدع ، بل أخذت فى ازدياد المكر والحيل ، حتى قهرت ولدها الأكبر على الفرار إلى جزيرة رودس ، وأقام بها ، وتخلى عن السلطنة لأخيه الأصغر . فلم يمض غير يسير حتى طلبته للحضور ، فلما حضر خاف على نفسه ، وخشى أن تكون والدته مضمرة له سوءا ، فعجّل عليها وقتلها ، ففزعت الأهالى من ذلك ، وقاموا عليه وطردوه سنة ٩١ قبل الميلاد ، وبعد مدة قليلة قتله أحد الملاحين ، وانقطع ذكره من ذاك الحين .

وبقى أخوه ــ بطليموس الأصغر ــ منفردا فى الملك ثمانية وستين سنة ، وحصل فيها سنة ٨١ قبل الميلاد فتنة عظيمة فى الجهات القبلية من مصر ، فجرد عليها جيوشا وحاربها ، وانتصر عليها . لكن من بقى من رجال الفتنة انحاز لقوم آخرين ، ودخلوا مدينة طيبة ، وتحصنوا بها ، فحاصرهم بطليموس ثلاث سنين ، على ما قيل . ثم انتصر عليهم ، وبدد شملهم ، وهدم المدينة وشتت أهلها .

مطلب كليوباترا

وبعد موت بطليموس لم يكن له غير بنت تسمى (برينيس) .

وسميت كليوباترا ، جريا على عادة بيت البطالسة ، فورثت والدها فى الملك ، وجلست على التخت وأقامت ستة أشهر بدون منازع . وبعدها حضر فى مدينة الإسكندرية من طرف (سلا) رئيس جمهورية الرومية ، أحد أولاد بطليموس ، وكان اسمه إسكندر الأول ، وكان قد ترقى عند ملك البون . ولما بلغه موت بطليموس توجه إلى روما ، والتجأ إليها وحضر بمساعدة إلى مصر ، ومعه مكاتبة بجعله ملكا على أرض مصر ، باسم بطليموس العاشر ؛ حيث أنه الأحق لأنه الأقرب لبطليموس من الرجال ، فلم ترض المصريون بذلك ، ولكن خافوا حصول فشل ، فاتفقوا على أن يزوّجوه بكليوباترا ، ويكونا معا فى الملك فتزوجها

وبعد قليل قتلها ، فغضب أهل المدينة وحقدوا عليه ما فعل . ومن خوفهم من (سلا) لم ينتقموا منه عاجلاً وما زالوا منتظرين الفرصة حتى مات سلا ، بعد أيام قليلة ، فقاموا عليه ، ففر منهم إلى مدينة (صور) سنة ٦٥ ، ومات فيها بعد زمن يسير ، وجعل فى وصيته الديار المصرية للرومانيين ، ومع هذا لم تتعجل الرومانيون وضع أيديهم عليها . وأسباب ذلك غير معلومة ، لكن يقال إن الأمة المصرية تلك المدة ، كانت آخذة فى الضعف ، والرومانيون كانوا منتظرين تمام ضعفها ، سيما ، وهى المتصرفة فى أمر الدولة المصرية وبيدها الحل والعقد ، فكانت آمنة من نقلها من يدها ، جازمة بأن مصر تؤول إليها ، حتى أنه لم يكن للبطالسة إلا الإسم ، والدليل على ذلك أن تولية البطالسة كانت برأى الرومانيين ، وأغلب أموال مصر تذهب إليهم على سبيل الرشوة ، وكانت أفراد العائلة الملوكية المصرية تتسابق فى العطايا فكان / الرومانيون ينتصرون للأكثر عطاء . ٧

وترك (بطليموس) غير ابنته (بيرنيس) ولدين من السفاح ، فأحضروا أحدهما وقلدوه الملك ، ولقب بأوليت (النايأق) وجُعلت جزيرة رودس للثانى ، وكانت ـ إلى ذاك الحين ـ لم تفصل عن حكومة مصر ، ولكن حكم الرومانيون بانفصالها ، وأسسوا ذلك الحكم على وصية إسكندر ، وأرسلوا من طرفهم (كاتون) لإتمام هذا الأمر ، فلم يقبل المصريون هذا الانفصال ، بل جعلوا رودس تابعة لمصر كما كانت ، وسعى (بطليموس) بالمال عند الرومانيين حتى تم له ذلك ، وتعاهد معهم ، وعد من أحبابهم بواسطة حبيبيه (قيصر وبومبيوس) فإنه دفع لهما ستة آلاف طالان هدية ، وهى عبارة عن مليون وخمسمائة ألف بينتو ، وضربها على البلاد المصرية ، فضجروا ضجراً شديداً ، ونتج من ذلك خروج الأهالى عن طاعته وطردهم له ، وتولية بنته (بيرنيس) بدله ، فذهب إلى روما وأقام بها زمنا ، حتى استمال قلوب أكثر أمرائها بالمال .

وطال عليه الحال هناك وابنته غير غافلة فإنها تزوجت بأكبر القسس بمملكة البون ، وتمكنت فى مكانها . ولما رأى والدها أن إقامته بروما غير مفيدة ذهب إلى الشام ، ودفع أموالا

إلى رئيس الجيش الرومانى ، ووعده بعشرة آلاف طالان إن هو ساعده ، فساق الجيوش على مصر ، فقابلتهم جيوش مصر واقتتلوا ، فمات فى تلك الواقعة زوج (بيرنيس) .

مطلب رجوع بطليموس إلى ملكه

ورجع بطليموس إلى ملكه ، وجلس على التخت ، وأخذ يظلم ويتعدى ويجمع ما وعد به من المال وقتل ابنته بيرنيس ، وبقيت الديار المصرية فى الهوان ، إلى أن مات سنة ٥١ قبل الميلاد ، وترك ولدين وبنتين . وكان قد أوصى قبل موته ، بأن الملك من بعده يكون للبكرىّ من أولاده وأكبر بنتيه .

وحيث أنه كان متعاهداً مع الرومانيين ، وتحت كنف (ديوبوس) ترجاه فى تنفيذ ذلك ، وجعل أولاده تحت رعاية الأمة الرومانية . فلما مات اتحد ابنه البكرىّ مع أحبابه وأقاربه ، واتفقوا على طرد أخته كليوباترا من حكومة مصر ، فانحاز لها طائفة من الأمراء والأعيان ، وتحزبوا ، وقاموا على أخيها ، فاشتعلت نيران الفتن فى جهات مصر .

وفى تلك المدة كانت نيران الحروب مشتعلة بين (بومبيوس) و(قيصر) رئيس الجمهورية ، وفى الواقعة الأخيرة كان المهزوم (بومبيوس) ففر إلى مصر . وبالنظر للألفة التى كانت بينه وبين بطليموس المتوفى ، ظن أنه يأمن على نفسه فى الإسكندرية ، وبناء على هذا وصل بمراكبه إلى الطينة ، وكان هناك (بطليموس) فحيا رسله ، وأكرمهم ، فأطمأن خاطر بومبيوس ، لكن فى الحال أحضر (بطليموس) (اشيلاس) أحد رجاله ، وأمره بأن يتوجه إليه ويكون معه ، وأمره بقتله عند انتهاز فرصة ، فتوجه إليه وقابله ، فكان الرومانى آمناليس محترسا ، وخرج من سفينته ، وركب زورقا بمفرده ، ورغب الخروج إلى البر ، فقبل أن يصل انفرد به (اشيلاس) وقتله .

ولما بلغ قيصر أن (بومبيوس) قصد جزيرة رودس ، ظن أنه يتوجه بعد ذلك إلى مصر ، فسبقه إليها لينتظره هناك ، وأخذ معه ثمانمائة من الخيالة سوى البيادة ، ولما وصل

صعد بعسكره إلى مدينة الإسكندرية ، فلما رآه أهلها لا يوقر ملكهم ، غضبوا وهجموا على عساكره ، فقتلوا منهم جملة فى طرق المدينة ، فعظم ذلك على (قيصر) وتحفظ على نفسه إلى أن تحضر العساكر ـ التى أمر بحضورها من جهة آسيا ـ للقصاص من أهل الإسكندرية ، ولأخذ حقوق الرومانيين منهم بناء على وصية (بطليموس) المتوفى ، وفصل النزاع بين الأخ وأخته فى الحكومة ، وأمر بترك القتال ، وطرد العساكر ، وإحضار الأخ وأخته ليفصل بينهما ، فلم يرض بذلك (قوتان) وكيل (بطليموس) حتى يصير رشيداً ، وظن أنه يقدر على طرد قيصر وعساكره ، وأرسل سراً إلى العساكر التى بالطينة لينجدوه . ولما حضروا ، وبلغه قدرها ، علم أنه لا يقدر على مقاومتها ، فتحصن بالمكان الذى كان به مع عساكره ، وحبس نفسه منتظراً حضور العساكر الشامية لنجدته .

وأما (اشيلاس) فوقع بينه وبينهم واقعات كثيرة ، حرق فيها جزء عظيم من الكتبخانة الكبرى التى جمعتها البطالسة فى المدد الماضية . وأما كليوباترا فلم تتأخر عن شىء يوصلها إلى قيصر ، وبذلت له المال وعرضت نفسها عليه ، وكانت ذات جمال ، فتعلق بها وواقعها فحملت منه ، وأتت بغلام وسمته (قيصروم) فمال إليها قيصر ، ودافع عنها ، وكان لكليوباترا هذه أخت تسمى (ارستوى) وكانت متحدة بأحد الأمراء ، فحصل منه ـ تحت ظل اسمها ـ أمور غيرت قلوب الأهالى ، فعرفوا أن مقصودهما زيادة اشتعال النار ، لتخلو لهما الدار .

ومن طول مدة الحروب تعطلت تجارتهم ، وكثرت المصائب ، وزاد اشتعال نار البغضاء بين بطليموس وأخته ، وصار قيصر يقلّب عليهم جميع أنواع الحيل ، التى لم تفده شيئا ، وأخيرا صار الاتفاق معه على أن يطلق ملكهم (بطليموس) فرضى بذلك وأطلقه ، فلم يسع بعد الاطلاق فى إخماد نار الفتن بل ازدادت . وكانت العساكر التى طلبها (قيصر) حضرت ، فقصدها قيصر بعساكره لينضم لها ، فتوسط بينهما (بطليموس) ليمنعها عن الانضمام ، فوقعوا وقعة قتل فيها كثير من الطرفين ، وهزمت العساكر المصرية ، وقتل / (بطليموس) غريقا سنة ٤٧ قبل الميلاد ، وبقى (قيصر) متصرفا فى مصر جميعها بما فيها الإسكندرية ، وأقام كليوباترا ملكة مع أخيها ، فما رضيت ، وطلبت منه أن يرسله إلى جزيرة رودس ،

٨

ويتزوج بأخته (ارستوى) فأرسله بعد زواجه . ثم بعد مدة قتل ، فقامت زوجته وأعلنت بالحرب مع قيصر ، فحاربها وغلبها ، وأخذها أسيرة إلى مدينة روما ، وطيف بها فى طرق المدينة فماتت غيظا ، وبقيت كليوباترا وحدها على سرير ملك مصر ، من ابتداء سنة ٣٧ قبل الميلاد بدون منازع .

وأعقب ذلك موت قيصر ، فاتهموها بأنها ساعدت من قتله ، فطلبها (انتوان) رئيس الجمهورية ، للمرافعة والمدافعة عن نفسها ، فقامت وتحلت بأحسن ما عندها من الحلى والملابس ، وركبت فى مركب مزينة بالذهب ، ومجاديفها من الفضة ، وقلوعها من الحرير ، وسارت فى نهر سيدنوس ، وكانت الفرش التى معها من أقمشة الذهب . وليلة دخولها صنعت وليمة فاخرة ، وتجملت بجميع ما يزيد فى جمالها ، ثم دعت (انتوان) فلما حضر ورآها ، أخذت بقلبه من أول وقوع بصره عليها ، ورغب فى تزوجها ، وإن كان متزوجا بـ (اوكتاف) أخت (أوغسطس) فكان ذلك داعيا لقيام الحرب بينهما ؛ محتجا (أوغسطس) بأنه ينتقم لأخته ، وكان قد أشركه (انتوان) معه فى الرئاسة ، فحصلت معركة انهزم فيها (انتوان) ففر إلى مصر ليكون مع صاحبته كليوباترا ، ويكتفى بها ، فلم يمكنه (أوغسطس) ولحقه فلم يتخلص (انتوان) منه إلا بقتل نفسه ، ولحقته كليوباترا أيضا ؛ لأنها لم تتحصل على صيد (أوغسطس) بشرك مكايدها ، واستعملت الطرق التى استعملتها مع (قيصر وأنتوان) فلم تنجح ، وخافت على نفسها أن يأخذها مع الأسرى إلى روما ، فقدّمت الهلاك على العار ، واستحضرت حية ، ووضعتها فى سبت فيه تين ، على ما قيل ، وعمدت إليها بيدها فلدغتها ، وماتت فى وقتها .

وبموتها انتهى ملك البطالسة ، ودخلت مصر تحت حكومة الرومانيين ، وصارت مديرية كباقى المديريات ، يحكم فيها والٍ من طرف الجمهورية الرومانية .

هذا ، وإن كانت الفتن فى المدد الأخيرة . لم تنقطع ؛ وسببها ذرية البطالسة ، وعداوتهم لبعضهم التى هى نتيجة الوراثة . وكانت الرومانيون دائما ، تتداخل فى أرض

مصر ، ووصلت لأن تجعل أمر تولى الوارث للملك بمعرفتها ، لكنها غير مانعة من تقدم العلوم والمعارف ، بل ما زالت مدينة الإسكندرية متقدمة فى العلوم فى مدة كل منهم . وكان التقدم سائراً لحو الأوج ، ولما انضمت إلى الرومانيين ، وصارت تابعة لدولتهم وقفت العلوم ، واضمحل حال مصر ، ورجعت إلى أسوأ ما كانت عليه فى زمن الفرس .

وكانت أعياد المصريين ومواسمهم ، فى زمن البطالسة ، على قديم عادتهم ، وكان المستعمل فى نقش الآثار والهياكل ، هو الكتابة المقدسة . ولما كثرت الأروام بتخت البطالسة ، كانت عقائد الروم داخلة معهم فى الديار المصرية ، سيما فى الإسكندرية ، وباختلاطهم بالمصريين ، تولدت عقائد جديدة ، تخالف عقيدة الأصليين ، فبذلك تبدلت الحِكم المصرية بغيرها ، وصارت أوهاما وشعوذة ، لا يمكن الوقوف على صحيح القواعد التى هى أساس الديانة المصرية فى الأزمان القديمة .

وفى مدة قياصر الرومانيين ، بلغ الظلم غايته ، واحتقروا الديانة المصرية ، حتى ضاعت من أصلها وابتدىء فى تخريب العمارات ، ونقلها إلى أوروبا ، من ابتداء استيلائهم ، فنقلوا الهياكل والأحجار المكتوبة ، والمسلات التى كانت مدن القطر الشهيرة متحلية بها ؛ كطيبة ، ومنف ، والإسكندرية ، وظهرت فى روما وفى القسطنطينية الآثار التى اعتنت بتشييدها الفراعنة أمام معابدهم .

المدة الرابعة

وهى سنة ٣٩٣ ، فى هذه المدة دخلت الديار المصرية فى حيازة القياصرة ، بدون أدنى مشقة ، ومع ذلك كانت الفتن الداخلية باقية ، فتسبب عنها تخريب بعض مبانى الإسكندرية ، سيما دار الكتب ، فإنها تلف منها مقدار عظيم ، بعضه بالحرق ، وبعضه بالنهب ، وذلك من أنفع الكتب ونادرها ، التى كانت البطالسة جمعتها مدة سلطنتهم بالديار المصرية . ولحق العلم وأمكنة تدريسه ، من الإهانة ما لحق غيره ، وانحطت درجة مدرسة

الإسكندرية ، التى كانت هى المشار إليها بأطراف البنان ، مدة اعتناء البطالسة بها ورعايتهم لها .

وبقى الاضمحلال يزداد ـ طول المدة الرابعة ـ إلى سنة ٣٦٤ ، فانقسمت المملكة الرومانية ، ولكن بقيت الإسكندرية حافظة لبعض مزاياها ، فكانت هى الثانية بعد روما ؛ لأن روما تقدمت عليها واستولت على سكانها .

وبظهور الديانة المسيحية ، وإقرار القياصرة لأهلها عليها ، وإحاطة قياصرة القسطنطينية برعايتها ، أخذت مدينة الإسكندرية تنتقل عن حالها القديم ، وكثر التغير فى جميع أمور أهلها ، بظهور المدرسة المسيحية ، المؤسسة فيها على المدرسة القديمة ، وباستمرارها على سيرها فى نشر العلوم والفوائد ، انفردت بالشهرة ، واشتهرت بذلك الإسكندرية بعض شهرة .

ولكن الفتن كانت دائمة فى خلال تلك المدة ، وكانت أمور العلم مضطربة ، وازداد الاضطراب بغارات (زنوبيا) ملكة تدمر ، على ديار مصر سنة ٢٦٥ بعد الميلاد ، وسبب ذلك أن (أودنيات) صاحب / تدمر كان ساعد جيوش الرومانيين مساعدة عظيمة ، حين حربهم (لسابور) ملك الفرس ، فمكافأة له على ما بذله ، عُدّ من الرومانيين ، وجُعِل ملكا على تدمر ، سنة ٢٦٤ ميلادية ، ثم توفى بعد مدة وترك ولدين ذكرين ، فلم تكتف والدتهما (زنوبيا) بملك تدمر ، بل طمعت فى مملكة الرومانيين المشرقيين جميعها ، ولقبت ولديها بالقيصرية ، وتلقبت بلقب القراليجة . وطمعت فى جميع الولايات المشرقية ، مع أنها كانت تحت يد الرومانيين ، وجهزت جيوشا وأغارت بها على مصر ، ووضعت يدها عليها ، ووقع بينها وبين القيصر (أورليان) وقعات ، انتهت على أخذ مصر من يدها وطردها ، فتبعها القيصر المذكور فى بلادها ، واستولى على تدمر نفسها وهدمها سنة ٢٧٠ .

فباشتغال دار الحروب الداخلية والخارجية ، توقفت أسباب الثروة والرفاهية بالديار المصرية . وحيث كانت إسكندرية ميدان حروب الأحزاب ، تخرب أغلب مبانيها ، وأزيل أغلب آثارها .

وفى تلك المدة كان تمام ظهور الديانة العيسوية ، فإنها ظهرت مدة قيصر الروم (أوغسطس) ثم اشتهرت وانتشرت بمملكة الرومانيين ، التى من ضمنها مصر .

وأول من حضر للديار المصرية ، ونشر بها الديانة المسيحية ، المقدس (مارك) تلميذ المقدس (القديير) وكان حضوره سنة ٤٣ ميلادية ، ونشر بها إنجيله ، الذى كان ألفه بروما ، تحت نظر المقدسين ، وتبعه خلق كثير من المصريين والإسكندرانيين ، فأسس لهم كنيسة عرفت بكنيسة إسكندرية .

وبسبب أن أعين المخالفين لهذه الديانة هم الأمة بتمامها ، ومنهم القياصرة ، كانوا ينظرون إليها نظر احتقار وإهانة ، فصارت من عهدها عرضة لجميع أنواع الإهانة والذل فى كل جهة ، وصدرت أوامر من الدولة بضبطهم وقتلهم ، فتركوا المعمور ، وفروا إلى الصحارى ، وسكنوا المغارات المنحوتة فى الجبل المقطم ، وجبال الأقاليم القبلية . واختاروا تلك الحالة على ترك اعتقادهم ، وبعضهم بنى ديورا وأقام بها ، وتعرف جميعها إلى الآن بـ (ديورانطون) .

والذى سل سيف الهوان على النصارى ، وبالغ فى أنواع تعذيبهم ، أكثر من غيره ، من القياصرة ، القيصر (ديوكليتيان) خصوصا فى أرض مصر ، وسيأتى شرح ذلك إن شاء الله تعالى .

المدة الخامسة

وهى سنة ٢٧٧ ، كان فيها تقسيم الدولة الرومانية ، ونتج من ذلك فوائد كثيرة للقطر المصرى ، سيما إسكندرية ، منها : إضمحلال الدولة الرومانية المغربية بقيام الأمم المتبربرة عليها . ومنها : إشتغال الأروام بالعلوم والتقدم ، فلم يمنعهم عنها تهاون القياصرة وإهمالهم لها ، وتصديهم للمجادلات الدينية . ومنها : تسلطن المعارف البشرية فى مملكة المشرق ، ومنها : حفظ مدينة إسكندرية لدرجة عظيمة فى التقدم مشتهرة بها بين المدن .

وأما الديانة العيسوية ، فكانت آخذة فى الانتشار فى مملكتى المشرق والمغرب ، وعظم شأنها بمدينة إسكندرية . ومن كثرة الجدال الذى كان يحصل بين علمائها وبينهم ، وبين أضدادهم ، تمكنت قواعدها وعظم حزبها بإسكندرية ومصر . ومن تسلط يد العدوان والقسوة على المتدينين بها فى جهات المغرب ، هاجر كثير منهم لمصر ، وسكنوا صحاريها وبنوابها الديور ، فنشأ عن ذلك وعن عداوتهم لديانة المصريين ، تهديم المعابد ، وتخريب الهياكل ، وتعذيب رجالها بأنواع العذاب ، فتضعضعت أركانها ، وزال بذلك أكثر مبانيها الفاخرة ، التى كانت تباهى بها مدن الأقطار ، خصوصا إسكندرية ، فإنه حصل بتخريبها إزالة الآثار القديمة منها .

فمن ذلك يعلم أن أكثر التخريب سببه لهذه الديانة الناسخة للديانة المصرية العتيقة والوثنية المتولدة عنها فى زمن البطالسة وقياصرة الروم الأول . فأغلب ما حصل فى القطر من الأمور ، التى تغيرت بها أحواله وأحوال أهله ينسب إليها ، فإن التغير الذى به دُمرت المبانى ، وَخُرِّجت الأهالى عن طباعها وعوائدها وأخلاقها ، لا ينسب إلا لها .

وبقيت الديار المصرية تتقلب على لظى المظالم المتنوعة ، إلى أن ظهرت فرقة دينية ، انفصلت عن كنيسة روما والقسطنطينية ، وأخذت تتقوى ، واستقلت بالإسكندرية ، وبعدها بقليل ، سرت إلى باقى الديار المصرية ، ونشأ عنها جميع المصائب لمدينة إسكندرية . ومع ذلك لم تنحط فى جميع هذه المدة عن درجتها التجارية .

وما سنذكره من الآثار ، هو ما بقى منها بعد المدد الثلاث ، التى تعاقبت على الإسكندرية ، أى مدة البطالسة ، والقياصرة الأول ، وقياصرة القسطنطينية .

وقبل ذلك نورد ما وقع من الديانة العيسوية بالديار المصرية ، فنقول : إن الديار المصرية ــ حين القسمة ــ صارت من نصيب (ديوكليتيان) فكان له مملكة الشرق ، وكان حاكم هذه الولاية قبل القسمة أميراً رومانياً ، اسمه (اشيى) وكان يطمع فى القيصرية ، ولما لم ينلها ، رفع لواء العصيان فى مدينة إسكندرية ، وتلقَّب بقيصر بين الأهالى والعسكر ، وبقى

متمتعا بهذا اللقب خمس سنين ، إلى أن صارت الدولة المشرقية من نصيب (ديوكليتيان) فحضر بالجيوش / إلى إسكندرية ، يريد الانتقام من حاكمها ، فدخلها ، وقبض على الحاكم وقتله ، ونهب بيوت الأهالى ، وجميع البلاد التى دخلت تحت لواء العصيان ، وعمّ النصارى بجبروته زيادة عن غيرهم ؛ فإن مأمورى الحكومة جمعوا منهم أناسا كثيرين ، نحو ثمانين ألف نفس ، وساروا بهم إلى مدينة إسنا ، وقتلوهم هناك عن آخرهم بأمر القيصر. ١٠

والكنيسة الموجودة هناك ، بنيت محل المعركة لتخليد ذكرها ، وهذه الوقعة كانت سنة ٢٨٤ من الميلاد ، وجعلتها نصارى مصر مبدأ تاريخ لهم .

ثم بعد موت (ديوكليتيان) المذكور و (عالير) الذى أخذ القيصرية بعده ، زالت السحب عن سماء الديانة العيسوية ، وسوعدت كل المساعدة بشمول نظر القيصر (قسطنطين) من وقت جلوسه على تخت قيصرية المشرق .

ومع هذا ، فقد تشعبت الديانة فى هذه المدة إلى مذاهب وفرق ، بسبب الاختلاف الذى حصل بين رجالها فى بعض قواعدها ، ونشأ من ذلك تعدى الفرق على بعضها ، وهلاك خلق كثيرين ، ونتج منه فشل عظيم بالديار المصرية وغيرها .

وكان عدد الفرق فى مبدأ القرن الرابع من الميلاد خمساً وخمسين ، ولكن ــ لهذا التاريخ ــ كانت جميعها متحدة فى الأصل ، ولو اختلفت فى الفروع . ومعظم الأسباب التى نشأ عنها تفرق تلك الديانة إلى فرق وشعوب : دخول قيصر الروم (قسطنطين) فى دين النصرانية ، وجعل هذا الدين وحده هو دين الحكومة القيصرية دون غيره من الأديان .

فمن ذلك العهد كثرت المجادلات الدينية ، وتضعضعت أركان الدولة ، واضمحلت قوتها ، وكان عاقبة ذلك طمع الأقوام المتبربرة فيها ، التى وفدت من الجهات الشرقية والشمالية وأول من قاسى مشاق هذه الشعوذات ع الديار المصرية .

مطلب فى ذكر أربوس ، ومناقضته مع غيره

ظهر فى إسكندرية رجل يقال له (أربوس) ، وفى كون أصله من القيروان أو من إسكندرية خلاف ، وكان قد بلغ درجة عالية فى العلوم وعرف بالفصاحة فى زمن (اسبين) وكان لين العريكة ، طلق اللسان ، عذب الألفاظ ، فبسبب هذه الأمور ، تحصل فى زمن هذا الحاكم على أن يكون قسيسا فى كنيسة من كنائس إسكندرية ، وبقى فيها إلى موت (اشيىّ) ثم قام وطلب أن يكون بطريقاً بإسكندرية لموت البطريق الذى كان فيها ، فاختلف الناس فى ذلك ، ثم اختاروا (إسكندر) وقلدوه البطريقية ، فبغضه وعاداه من ذلك الحين ، وصار ينسب إليه ما يشينه فى كل مجلس ، مع كونه متصفا بحميد الصفات ، وحسن العقيدة . فلما لم يجد (أربوس) بداً من نيل أغراضه ، غير أسلحة عدوانه ، وأخذ يذم عقيدته ، وينسبه للجهل .

وكان فيما يُدرسه (إسكندر) للقسس : أن الإبن يساوى الأب ، وأن مادة الاثنين واحدة ، فعلى هذا يكون التثليث وحدة بلا خلاف ، فنقض (أربوس) هذا عليه ، وقال : إن كان للولد علوق ، فبالضرورة يكون له أول ، وقد مر زمن لم يكن فيه موجوداً ، فيكون وجوده بعد عدم ، فلم تكن مادته مادة الأب .

وفى مبدأ الأمر نصح (إسكندر) (أربوس) لعله ينتهى ، فلم يزدد إلا طغياناً . ودخل معه فى رأيه ومذهبه كثير من الأهالى ، فلما رأى (إسكندر) منه ذلك طرده من وظائفه ، فنشأ من ذلك : أن قام كل حزب على الآخر ، فكان ذلك فى كل مدينة وقرية ، من القطر المصرى ، وصار لا يسمع غير محاورات ومناقشات فى هذا الشأن ، وصار كل بيت أو مجمع كأنه مدرسة ، لا يسمع فيه إلا المباحثة ، فأنتج ذلك كون عامة الخلق الذين عادتهم أن يميلوا مع الغالب ، صاروا تارةً مع هذه الفرقة ، وتارة مع الأخرى .

وحيث أن الحزب لايقوى إلا بميل الحكومة لمذهبه ، فكانت الأهالى عرضة للإساءة ، ودخل الفشل جميع البيوت ، وقامت أفراد العائلات على بعضها ، وعادى الأخ أخاه ، والأب ابنه .

وعمت هذه البلوى جميع الديار المصرية ، من أقصى الصعيد إلى إسكندرية ، فلما بلغ قسطنطين أمر بانعقاد جمعية من رؤساء الديانة ، لفصل الكلام فى المسائل الخلافية ، وكان ذلك فى سنة ٣٢٥ من الميلاد ، فاجتمع من الأحبار جمع عظيم بمدينة أزنيق ، التابعة لولاية بروسه ، وسألوا فى المسئلتين الموجبتين للاختلاف :

الأولى : فى أى يوم يكون عيد الباك (عيد الفصح) ؟

والثانية : هل مادة الإبن غير مادة الأب كما يزعم (أربوس) وحزبه ، أو هما من مادة واحدة ، كما تعتقد الطائفة الأخرى ؟

وكانت جميع الأساقفة ، وأحبار الأمة النصرانية ، مجتمعة ما بين مشرقيين ومغربيين ، وحضر (أربوس) وشرح مذهبه ، وأقام البراهين عليه ، فكان تارة يستدل بعبارات الإنجيل ، وتارة يسبح فى بحور الفصاحة ويغوصها ، ويستخرج منها درر المعانى ، ويكلل بها تاج مذهبه ، حتى بهر عقول الحاضرين .

وكان بالمجلس شاب من تلامذة بطريق إسكندرية ، والمقربين عنده ، يقال له (عطاناز) فقام ، وأخذ يقيم الأدلة على بطلان ما ادعاه (أربوس) ويتكلم على كل دعوى بما ينقضها من أسها ـ سواء كانت معقولة أو منقولة ـ حتى تحول جميع من/بالمجلس عن مذهب (أربوس) فيه ، وحكموا بفساد عقيدته ، وجعلوا لعنَهُ ولعن من اتبعه ، ضمن الصلوات فى جميع الكنائس .

١١

وأما عيد باك (عيد الفصح) فقرروا وقته يوم الأحد الذى يعقب الهلال الجديد ، الذى يهل بعد الاعتدال الخريفى ، ونشر ذلك فى جميع أرجاء المملكة الرومانية .

وكان المظنونُ أن تطفأ بذلك نار الفتن ، فلم يحصل ، لأن طائفة (أريوس) لم تترك معتقدها ، بل بقيت عليه وتمكنت فيه ، واشتغلت بنشره ، وترغيب الناس فيه وترجيحه ، فثارت الفتن فى الديار المصرية . وصار أهل إسكندرية فريقين : فريق على مذهب (عطاناز) ، وكان قد بلغ رتبة البطريقية ، وفريق على مذهب (أريوس) .

وأهل هذا المذهب ، كانوا دائما ينظرون فى الأسباب التى تقوى مذهبهم ، ويحتالون على استمالة قلوب الأمراء ، والأعيان ، وأرباب الكلمة ، فبلغوا بذلك إلى قبول كلامهم لدى القيصر ، وتكلموا فى حق البطريق بأمورٍ مخلة ، فغضب عليه ، ونفاه إلى ناحية طريف من بلاد الأندلس ، فأقام بها ستا وأربعين سنة ، يتقلب بين أنواع الإساءة .

ومع هذا لم يزل متمسكا بمذهبه ، مدافعا عنه ، إلى أن رضى عنه القيصر (قسطنطين) سنة ٣٣٦ ، ورده إلى وطنه ، فلم يقنع بذلك ، بل دبر فى إزالة البطريق عن وظيفته ، فجاءه هادم اللذات ، فمنعه عن إتمام ما أُضمر عليه فى تلك السنة .

وبقيت فرقته ــ بعدُ ــ تثير الفتن والشقاق ، وكان فيهم كثير من أصحاب الكلمة ، فبذلك لم تزل هذه الفرقة تزداد مدة ثلاثة قرون متوالية .

وكانت الديار المصرية ، تتقلب فى ثياب الشعوذات الدينية ، وخصوصا بدخول القياصرة ضمن هذه الفرق ، واشتراكها معها .

ومن حين انقسام المملكة الرومانية بين (ولانتينيان) وأخيه (والنص) سنة ٣٦٣ ، وانفصال مملكة قسطنطين من مملكة روما ، واشتهارها بالمملكة الشرقية ، اتسعت الفتن باستتباع كل من الأخوين فريقاً ، وعادى كل منهما أرباب المذهب الآخر ، فكان بمصر (والنص) وهو تابع مذهب (أريوس) ، فانحط قدر مذهب (عطاناز) وعُدّ أتباعه خوارج ، كفارا ، وقست عليهم الحكام وأمراء الدين .

ومن تفرقهم واختفائهم فى بلاد الريف ، لحق الأهالى ضررٌ لا مزيد عليه ؛ فإنه كان

لا يمر أحد ببلد إلا اتهمه أهلها بأنه من أتباعه ، وعاقبوه بالضرب ، والقتل ، ونهب المال ، فصار هذا لم يسمع بمثله فى مدة عبادة الأوثان ولا فى غيرها .

وفى عقب فتنة من الفتن ، صدرت أوامر من القيصر (طيوروز) سنة ٣٨٨ من الميلاد ، بهدم جميع المعابد القديمة بمدينة إسكندرية ، وأخذ ما فيها من حلىّ الذهب والفضة ، وإعطائه للكنائس .

والفرق التى ظهرت بعد فرقة (أربوس) ، وهى فرقة (نستيربوس) ، ومن اعتقادها : أن جوهر عيسى عليه السلام ، مركب من جوهرين : إلهى ، وبشرى ، وأن العذراء ليست والدة له .

وفرقة (انتيشيس) ؛ وهذه تجعل الجوهر الإلهى والبشرى واحداً فى المسيح عليه السلام .

وفرقة (مونواطيليط) ، وهذه لا تجعل للمسيح غير إرادة واحدة ، وقد انضم لها القيصر (هيراكليوس) وانتصر لها ، وجعلها المعتمدة فى جميع جهات مملكته ، وألف كتبا فى ذلك ، ونشرها بين الناس ، وشغل جميع أوقاته فى ذلك ، وترك أحوال المملكة وسياستها . وهو ـ وإن كان أصله من طائفة العسكر ، وخلّص الملك من يد الظالم (قوكاس) وتولى مكانه ـ إلا أنه كان يكره الحرب بطبعه ، فأهمل أمر الجيوش حتى تلاشت قوة المملكة ، وطمع فى ملكه خسرويه ـ ملك الفرس ـ وزحف بعساكره ، وأخذ من ملكه عدة ولايات منها : مصر ، والشام ، وبلاد فلسطين ، وذلك سنة ٦١٦ ، فخاطبه (هيراكليوس) فى الصلح ، ورضى أن يفرض له على نفسه جزية ، فلم يقبل خسرويه منه ذلك ، وزحف على بيت المقدس وأخذه ، ونقل خشبة الصليب منه إلى بلاده ، وطلب من (هيراكليوس) ورعاياه أن يتركوا الديانة العيسوية ، ويتدينوا بديانة الفرس . فغضب (هيراكليوس) وجرد جيوشه ، وتلاطم مع خسرويه فكسره وأخذ منه الخشبة ، ورجع إلى بلاده ، واشتغل

بالشعوذة أكثر من الأول ، وأهمل الحكومة ، فصارت المملكة الرومانية مضطربة ، فى جميع جهاتها ، بسبب الفتن الداخلية ، والحروب الواقعة بينها وبين الفرس ، إلى أن ظهر دين الإسلام بجزيرة العرب ، وابتدأ نوره يكشف غياهب الجهل عن عقول سكانها ، فاجتمعت كلمة المسلمين ، وصاروا يداً واحدة على نصر الحق ، وإعلاء كلمة الدين ، فعلا الحق على الباطل ، واستولى الإسلام على فارس والروم ، فمن عهدها ، تضعضعت أركان دولة الفرس والرومانيين ، وفى ... من قريب أزيلت الفارسية بالكلية ، وبقيت الرومانية على ولايات قليلة ، واستولى الإسلام على أرض النصرانية ، والديانة الوثنية ، واستولت المملكة الإسلامية على المملكتين المذكورتين . ثم بعد زمن يسير ، سطع نور الإسلام فى المشرق والمغرب ، كما سنورده فى محله ، إن شاء الله تعالى .

المدة السادسة

وهى سنة ٣٢٩ ، وفى جميع المدد الماضية كانت / إسكندرية تحت ملك الديار المصرية ، وإن كانت التقلبات الزمنية جلبت لها تغيرات كثيرة ، وصيرتها ميداناً لفتن متنوّعة ، لكنها مع ذلك ، كانت أول مدينة فى القطر ، إلى أن ظهرت الديانة المحمدية بأرض الحجاز ، وأخذت تمتد حتى علا قدرها ، وسار مسير الشمس فخرها ، وطمست معالم الديانة العيسوية ـ بل زالت بالكلية ، من جميع جهات المشرق ـ ودخلت الديار المصرية تحت تصرف العرب ، فانتقل الفخر الذى كان للإسكندرية ، إلى مدينة الفسطاط ، التى أُسست على شاطىء النيل . ١٢

ومن ذاك الحين ، أخذت الإسكندرية فى النقص والخراب ، وصارت لا تذكر ، إلا كما يذكر غيرها من المدن .

ولما دخلها عمرو بن العاص ، سنة ٦٤٢ ميلادية ، كان الخراب عم سراياتها الملوكية ، وأعظم شوارعها ـ المسمى بروشيوم ـ كان بلقعا ، لا يرى فى جانبيه غير تلال من أنقاض البيوت .

ومع ذلك فكانت معدودة من ضمن المدن العظيمة ، وكانت أسوارها قائمة ، محيطة بها من كل جهة ، على غاية من المتانة .

ومما يدل على ذلك أنها صدت الجيوش الإسلامية ، ومنعتهم عن دخول المدينة مدة .

ولكن بظهور الفسطاط ، وعدم إقامة الحاكم بها ، تلاشت مبانيها وهُدم سورها الذى بنته العرب ، عوضا عن السور القديم ، ولم يُعمَّر إلا فى القرن العاشرَ ، زمن أحمد بن طولونَ ، بناء على ما ذكره المكين[1] .

ثم إن ما بقى بها من المبانى والآثار الموروثة عن الديانة العيسوية ، تسلطنت عليه رجال الديانة المحمدية ، فخربوه كما أن الديانة العيسوية خربت ما كان للديانة المصرية من المعابد وغيرها ، وترتب على ذلك محو أكثر آثارها ، حتى صار لا يسمع به إلا فى الكتب .

وبعد انفصال الديار المصرية ، صارت مملكة المشرق عرضةً لتسلط الديانة المحمدية ، ومن غارات جيوش الإسلام المتوالية ، انفصل أكثر من نصف المملكة الرومانية المشرقية عنها ، وانضمت حدودها ، ومع ذلك لم تزل مملكة متسعة الأطراف إلى القرن الثامن من الميلاد .

وأما المملكة القيصرية المغربية ، فقد آل أمرها إلى تقسيمها ممالك صغيرة ، بعد إغارات كثيرة من المتبربرين الوافدين عليها من جهة الشمال ، فكانوا دائمًا فى محاربات ومناوشات لا تنقطع ، واستمر ذلك قرنين كاملين ، فحصل فيهما لتلك المملكة مصائب لا تُحصى ، واضمحل حالها ، وتضعضعت أركانها ، حتى أتى زمن (شارلكان) وصار لها بعض اعتبار ، ومع ذلك فهى فى طفولية وتوحش ، لأن أهلها كانوا بمعزل عن التجارة ، مع أنهم أحق بها من غيرهم ، لإقامتهم بالسواحل .

وكان مركز التجارة وقتئذ لأهل المشرق والمغربَ الإسكندرية ، وباختصاصها بهذه

(١) يعنى : جرجس بن العميد بن الياس المعروف عند الإفرنج بالمكين المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .
معجم المطبوعات العربية والمعربة ص ١٦١

المزية كانت متميزة ، ودائما تتجدد فيها المبانى الفاخرة ، وتزداد بها المدارس والعلوم . ولحقها من عناية الخلفاء العباسيين بعض شرف ، سيما المأمون ، وبقيت أعظم مدينة بالقطر إلى سنة ٨٦٨ ، ثم انفصلت عن الديار المصرية ، وخرجت عن تحت المملكة بخروج عاملها أحمد بن طولون عن طاعة مولاه ..

واستمرت الديار المصرية فى هذا الانفصال والاستقلال مدة تقرب من مائة سنة ، وتفصيل حوادث هذه المدة موجود فى كتب شتى مطوّلة ، فليراجعها من يريد ذلك .

وأما نحن ــ ههنا ــ فلسنا نذكر إلا ملخصًا لطيفًا ، يفهم منه سلسلتها ، وما نشأ عنها .

وحيث أن أعظم شئ وأهمه منها ، هو ظهور الديانة المحمدية ، بظهور نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكونها نتج منها جميع حوادث هذه المدة ، فيجب علينا أن نذكر سيرته بأخصر كلام فنقول :

مطلب ذكر السيرة النبوية

ولد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠ من الميلاد ، وتربى فى حجر جده عبد المطلب ، ثم بعد سنتين من عمره مات جده فكفله أبو طالب عمه ، وبقى عنده إلى أن اشتد وقوى ، فصار يسافر معه فى تجارته ، ثم تاجر لخديجة بنت خويلدَ ، وكانت من أغنى الناسَ ، وسافر بمتجرها إلى الشام ، فأعجبها استقامته وحسنِ معاملته ، فتزوجت به وعمره ــ إذ ذاك ــ خمس وعشرون عاما ، وعمرها أربعون ، وَأتت منه بثلاثة ذكور ، ماتوا فى حداثة السن ، وأربع بنات تزوّجن برؤساء المسلمين .

ولما بلغ عمره ، عليه الصلاة والسلام ، أربعين سنة ، بعثه الحق ، جل جلالهَ ، لهداية الخلق إلى طريق الحق ، فتبعه أبوبكر وابن عمه عليٌّ ، وزيد بن حارثة وزوجته خديجة ، ولحقهم غيرهم ، فأنكرت قريش على النبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعه معتقدهم ، وهموا بقتلهم ، فهاجر إلى مدينة يثرب ، التى بينها وبين مكة ٧٥ فرسخا ، فى الجهة البحرية من

مكة ، وهاجر بعض أتباعه إلى بلاد الحبشة ، فقام أهل المدينة مع النبى ونصروه ، وغيّر اسم المدينة فقال : (لا تقولوا يثرب إنما هى طيبة) ، ثم صار الناس يقولون : المدينة المنورة .

واتخذ المسلمون الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام ، وسمى بالتاريخ الهجرى .

وحيث كانت هجرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة الجمعة ستة عشر شهر يوليه الإفرنجى ، سنة ٦٢٢ من الميلاد ، جُعل هذا اليوم مبدأ تاريخهم . والسنة الهجرية : اثنا عشر شهرا قمرية ، فمن هنا تكون السنة الهجرية أقل من / الشمسية بأحد عشر يوما ، ويكون ١٣ الاثنان وثلاثون سنة شمسية ، قدر ثلاث وثلاثين سنة قمرية . فإذن ينبغى لمن أراد أن يستخرج السنة الهجرية من التاريخ الميلادى ، أن يطرح من التاريخ الميلادى ما مضى منه قبل الهجرة وهو ٦٢٢ ، ثم يضيف إلى كل ٣٢ سنة مما بقى منه سنة فما بلغ فهو التاريخ الهجرى ، مثلاً لو أردنا أن نعرف السنة الهجرية الموافقة لسنة ١٨٧٣ ميلادية ، نطرح منها ٦٢٢ سنة ، التى مضت قبل الهجرة ، فيبقى معنا ١٢٥١ ، نضيف إليه ٣٩ سنة ، وهى عدد احتواء ١٢٥١ على ٣٢ ، فما بلغ فهو التاريخ الهجرى .

وقد اتخذ عليه الصلاة والسلام المدينة مركزاً ، وصار يعّلم الناس ويهديهم ، ودخلت الناس فى دين الله أفواجاً ، وقدر سبحانه وتعالى أن يكون مبدأ نصرة دينه ، وإعلاء كلمته ، يوم هجرته من مكة ، فكان ذلك هو الأساس ؛ لعدول خلق كثيرين عن معتقدهم القديم ، واتخاذهم دين الإسلام دينا .

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك الحين يخطب الناس . ويبلغهم كلام الله ، ولكن كان أكثرهم ينكر عليه ولا يصغى إليه ، فجرّد المسلمون السيف لإعلاء كلمة الله وانتصار الدين القويم ، فرفعت كلمة الله على أقوى أساس ، وتمكن المسلمون بما حصل لهم من النصر المتتالى ، وكثرة الداخلين فى الإسلام ، ممن كانوا يعبدون الأوثان وغيرهم ، فلم يلبثوا غير يسير ، إلا وقد ظهر من صحارى جزيرة العرب ، رجال ذوو علم وبأس ، واجتمع منهم جيوش إسلامية ، سطت بقوّتها وحسن تدبيرها على الممالك المجاورة من ممالك الشرك ،

فعظمت سطوتها واتسعت دائرتها ، وظهرت المملكة الإسلامية ، وتسمى بالمملكة العربية ، لا يسمع فيها مشرقا ومغربا غير التوحيد ، وما يختص بدين الإسلام ، وتألفت قلوبهم ، وزال الشقاق والخلف من بينهم .

وفى السنة الثانية من الهجرة ، حصل بينه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين قريش وقعة ، كان لحزبه ـ عليه الصلاة والسلامَ ـ فيها النصر من الله ، ومع هذا ، فكان عدد جنوده ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وعدد جنود الأعداء ألف رجل ، ومعهم مائة فرس ، وسبعمائة بعير ، وبعدها دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة المشرفة ، وتمكنت قواعد الإسلام ، وخضع المخالفون وانقادوا .

ومن عهدها أقبلت جميع القبائل المنتشرة فى أرض الحجاز ، ودخلوا فى الإسلام ، وكسرت عصىّ المخالفة ، وصار الجميع تحت اللواء المحمدى ، وكبرت عصابة الإسلام ، وقويت شوكته ، وسُمع به فى أطراف البلاد المجاورة لأرض الحجاز .

مطلب معاهدة قيصر

وارتج تحت الرومانيين ، وخاف القيصر (هير اقليوس) على بلاده من المسلمين ، فتدارك الأمر ، واجتهد فى استمالة الإسلام إلى معاهدته ، وترك لهم جهة من الجهات ، التابعة لحكومته من بلاد العرب ـ وكانت هذه الجهة تجنح للفرس ـ حتى أنها ساعدتهم عليه فى المحاربات ، فأرسل النبى ـ عليه الصلاة والسلامَ ـ لأمراء تلك الجهة رسوله يدعوهم إلى الإسلام ، فقام من بينهم حاكم بوسترا ، واتحد مع حاكم مدينة مؤتة ، من مدن الشام خلف نهر الأردن ، وقتلوا الرسول ، فغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفعلهم ،

مطلب فى الوقائع التى جرت بين المسلمين والقياصرة

وأرسل لهم ثلاثة آلاف مقاتل تحت إمرة مولاه زيد ، وتقابلوا مع عساكر الرومانيين عند مدينة مؤتة المذكورة ، وكانوا أكثر منهم عددًا ، والتطم الفريقان ، وحصل بينهما مقاتلة

عظيمة ، فمات كثير منهما ، ومات أيضا جملة من رؤساء المسلمين منهم : زيدـ رضى الله عنه ـ فقام مقامه خالد بن الوليد ، فحصل منه ما يبهر العقول ، فإنه بعد أن كان يظن أن المسلمين مهزومون ، جمع المسلمين ، وقوّى قلوبهم ، وهجم بهم على عساكر الرومانيين هجمة بدد فيها شملهم ، وولوا الأدبار ، وتم النصر للمسلمين ، وغنموا ، ثم رجعوا إلى المدينة ، ومعهم السبى والغنيمة .

وهذه كانت افتتاح الوقعات ، التى جرت بينهم وبين القياصرة ، فى جهات آسيا وأفريقيا وجزء من أوربا ، وتمامها بزوال ملك القياصرة من بلاد المشرق ، ووضع الإسلام يده على الدولة الرومانية .

لكن بعد ثمانية قرون ، كلها مضت فى حروب ، هلك فيها من الفريقين ما لا يحصى .

ومن جملة الولايات التى توجه لها نظر المسلمين : ولاية مصر ، وكان حاكمها (المقوقس) المصرى الأصل ، من طرف قيصر ، وكان له شهرة عظيمة فى الرفعة والاعتبار ، وكان من فريق (أوتيشيس) ، وكان يكره الروم لإنكارهم على أهل فريقه ، وابطالهم اعتقادهم فى جميع ديار مصر والرومان وغيرها ، وكان الطمع وحب الاستبداد عنده يغلبان على الأمر الدينى ، لكنه اغتنم فرصة قيام الفتن على المملكة الرومانية فى بلاد العرب ، ولقب نفسه بلقب إمارة مصر ، وصار يأمر وينهى فى ديار مصر .

ومن مخافة تقلب الأيام ، أراد أن يعاهد المسلمين ، فلم يقبل النبى منه غير الدخول فى الإسلام ، وكتب كتابا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعترف له فيه بالرسالة ، ويطلب منه الإمهال زمنا ، ليتمكن مما يريده ، وكانت الحروب من المسلمين قائمة فى جهات كثيرة ، ما عدا / مصر ، فإنهم تركوها فى ذلك الوقت ، وبعد ذلك توجهت همتهم إلى محاربتها ، وشن الإغارات عليها ، فنظر عليه الصلاة والسلام أن هذا لا يتم إلا بالاستيلاء أولاً على ديار الشام ، لأنه ليس لمصر غير طريقين : الأولى : طريق البحر الأحمر ، وليس للمسلمين فى

٢٤

ذلك الوقت مراكب . والثانية : طريق البر ، التى فى الصحارى التى بين مصر والشام . فأخذ فى أهبة الدخول بالعساكر إلى أرض الشام .

ولكن لم يتم هذا الأمر ، لوفاته عليه الصلاة والسلام ، بالمدينة المنورة ، فى السابع عشر من شهر يونية الإفرنجى سنة ٦٣٢ ، الموافق لليلة الاثنين ، من آخر صفر سنة عشر من الهجرة ، وعمره ثلاثة وستون سنة .

مطلب خلافة أبى بكر الصديق

اتفقت الأمة الإسلامية على تولية أبى بكر رضى الله عنه ، فقام بأحوال المسلمين ، وسار على أثر صاحب المعجزات ، ففتح الله فى أيامه على المسلمين عراق العرب وبلاد الشام ، وأُخذت مدينة دمشق سنة ٦٣٤ ، واتسع الإسلام ، واشتهر ذكره فى الآفاق ، ومات رضى الله عنه يوم فتحت دمشق .

مطلب خلافة عمر بن الخطاب

تولى الخلافة بعده ، عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ولقب بأمير المؤمنين ، واستمر حرب الشام سنة ٦٣٥ ، وأُخذت مدينة بعلبك ، ومدينة قنسرين ، من المدن الشهيرة ، وبينها وبين حلب خمسة فراسخ .

وفى السنة التى بعدها ، فتحت مدينة درستيون (١) ، وحماة ، وشيزر ، وايميز (٢) .

ومن توالى النصر للمسلمين جُبر (هيراقليوس) على أن يتنبه من غفلته ، ويتوجه بنفسه مع جيوشه لمحاربتهم ، فذهب إلى سواحل الشام ، وأقام بمدينة ايمز مدة ، ثم انتقل إلى أنطاكية ، ولما بلغه أَخْذُ دمشق ، يئس من السواحل الشامية ، فتوجه إلى القسطنطينية ،

---

(١) لعله يقصد مدينة الرستن .

(٢) لعله يقصد مدينة حمص .

وجمع فيها ما تفرق من عساكره فى المشرق والمغرب ، فكان جيشًا جرارًا ، وأمّر عليه رئيسا من رجاله اسمه (منويل) فسار بهم حتى تقابل مع المسلمين عند مدينة يرموك سنة ٦٥٦ ، فحصلت بينه وبين المسلمين وقعة قتل فيها من الفريقين عدد عظيم ، وآل الأمر بنصر المسلمين النصر التام ، الذى خلت الديار الشامية بعده من جيش النصارى ، ودخلت جميعا فى قبضة المسلمين .

ثم سار المسلمون إلى مدينة القدس ، ومعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فدخلوها بلا حرب فى شهر مايو الإفرنجى سنة ٦٣٧ .

وبعد دخول هذه المدينة فى حوزة الإسلام ، دخل باقى البلاد الشامية فى الإسلام ، كما دخل جميع بلاد العرب فيه بعد دخول مكة ، لأن كلا من هاتين المدينتين له شرف على البلاد المجاورة له ، ومن قديم الزمان يتبركون بهما ، ويحجونهما فى مواسم معلومة ، فكان هذا هو الداعى لقصدهما فى الفتح أولا ، فإن الحكم لا يتمكن فى هاتين الجهتين إلا بالاستيلاء على هاتين المدينتين .

مطلب فى فتح مصر

ولما تم فتح الديار الشامية ـ كلها ـ للمسلمين سنة ٦٣٨ . أزيلت جميع الموانع عن قصد مصر . فخاف (المقوقس) من إغارة المسلمين على مصر . فاتفق مع بطريق إسكندرية (قيروس) ، وكتب إلى أمير المؤمنين كتابة ، طلب فيها أن لا يحارب مصر . وجعل له فى مقابلة ذلك مائتى ألف دينار يدفعها سنويا ، وأرسل بعض هذا المبلغ مع الكتاب ، فبلغ ذلك (هيراقليوس) فغضب على (المقوقس) وأرسل العساكر لتدافع عن مصر . وتمنع عساكر المسلمين من الدخول فيها . فشاع ذلك حتى بلغ أمير المؤمنين ، فأمر رضى الله عنه . عمرو بن العاص ، وكان وقتئذ عاملا على الجهات الشامية الملاصقة لوادى النيل ، أن يتوجه إلى مصر . وأرسل معه أربعة آلاف من المسلمين ، فقام وسار من وقته إلى أن وصل حدود مصر . وتقابل مع العساكر الرومانية هناك . فاصطدم الفريقان وفاز المسلمون بالنصر

ودخل عمرو بالمسلمين الديار المصرية . فلما وصلوا شاطئ النيل . حصل هناك وقعة أخرى . ونُصر على النصارى نصرة خلت له بها البلاد . وسهلت الطرق . فسار حتى وصل مدينة باب الأون . وكانت مكان مصر العتيقة الآن . وكان بها قلعة منيعة تعرف فى كتب العرب بقصر الشمع ، فحاصرها المسلمون . وحصروا من فيها حصراً شديداً

والمقوقس . وإن كان وقتها يدافع ، لكنه كان مائلا إلى الصلح مع المسلمين . حتى أنه فاتح عمراً فى ذلك . فرضى عمرو بما قرره المقوقس : من أن يدفع عن كل قبطىّ دينارين . غير الهرم والنساء والأطفال .

مطلب فى فتح إسكندرية

وبعد ما تم الكلام بينهما ، وعقدت الشروط ، ذهبت العساكر الرومانية إلى إسكندرية ، وتحصنت فيها لأنها هى التى بقيت فى حكمهم وحدها ، وجميع الجهات المصرية ـ بحرية وقبلية ـ صارت فى يد المسلمين . وكان أخذ إسكندرية أهم شئ عند المسلمين ، لأنها لو بقيت تحت يد الرومانيين لكانت معسكر رجالهم التى ترسل من القسطنطينية ، وتكون منبع الغارات على مصر .

فلما رأى المسلمون ذلك ، قام عمرو برجاله ، وحاصرها محاصرة عنيفة ، مدة أربعة عشر شهراً ، حتى فتحها فى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر الإفرنكى سنة ٦٤١ ، وكان المدد قُطع عنها من مدة موت (هيراقليوس) ، فأحاط الكرب بأهلها من الحصار . وجنحوا / للصلح ولما دخلها المسلمون منعهم عمرو عن نهب الأهالى ، والتعرض لهم بسوء .   ١٥

وكان بالمدينة كتبخانة ، لم يوجد مثلها فى الأقطار ، لما اشتملت عليه من نفائس الكتب العلمية والكنوز العقلية ، جمعها ملوك مصر السالفون . وادعى مؤرّخو الفرنج ، أنه كان بالمدينة قسيس يعرف بإسم (جان) ، تعرّف به عمرو وأحبّه لعلمه ، فرغب هذا القسيس أن يغتنم فرصة هذا الحب ، وطلب منه أن يعطيه كتب الفلاسفة ، فجنح عمرو لتنفيذ غرضه ، لكنه خاف أن لا يأذن له أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فحرر

له خطابًا ، يخبره فيه بما طلبه القسيس من الكتب بالكتبخانة الموجودة هناك ، فكتب له أمير المؤمنين «إن كانت تحتوى على ما فى القرآن فلنا حاجة بها ، وإلا فلا فائدة لنا فيها ، وعلى كلا الحالين ينبغى حرقها» فلم يسعه غير الإطاعة والامتثال ، وأمر بحرقها فحرقت .

وهذه الرواية الإفرنجية عارية عن الصحة ، لأن عمر رَضى الله عنه برئ من ذلك ، فإن احتراق الكتبخانة المذكورة كان قبل إشراق نور الإسلام ، ولم يكن عمر مولودًا إذ ذاك ، وأن الذى أعدم هذه الكنوز العقلية النفيسة هو (جول القيصر) ، وسبب ذلك أنه كان محصورًا فى المحلة ، التى كانت بها الكتبخانة ، ولما أحاطت به الأعداء من كل الجهات ، لم يجد له منجى سوى أنه أضرم النار فى جميع المنازل القريبة للكتبخانة ، فحرقها واحترقت الكتبخانة معها .

نعم ، إنه بعد مضىّ مدة من الزمن قد أهدى الملك (انطوان) إلى (كليوباترا) نحو أربعمائة ألف مجلد من كتبخانة (برجام) ، وأنشأ فى السيرابيوم كتبخانة جديدة سميت : بنت الأولى ، وهذه الكتبخانة الجديدة قد احترق أيضا معظم كتبها فى أثناء الفتن التى ظهرت بمدينة إسكندرية ، ثم انعدمت بالكلية فى عهد الملك (ديتوز) ، حيث سطت عليها أيدى الرعاع المتعصبين ، ومزقوا جميع ما كان فيها من الكتب المشتملة على المؤلفات الوثنية ، وفعلوا بها مثل ما فعلوا بالمعابد العتيقة ، والهياكل القديمة المصرية .

فبناء على ذلك ، لم يكن لهذه الكتبخانة وجود بالكلية حين افتتحها عمرو بن العاص ، رضى الله عنه .

ويعلم مما سبق ، كيفية انفصال مصر من حكومة القسطنطينية ، وصيرورتها ولاية تابعة لمملكة العرب . ومن ذاك الحين ، صار تاريخها ملحقًا بتاريخ المسلمين ، كما كان فى السابق ملحقًا بتاريخ الرومانيين . وهذا الانفصال ، قد خلص قلوب أهلها من أوحال الشرك والوساوس الشيطانية ، وملأها بأنوار الحق المبين بدخولها فى الإسلام ، كما تخلصت من أهوال تقلب الأحوال الزمانية عليهم ، فصارت أمورها مبنية على منهج العدل والإنصاف ، اللذين

هما أساس الدين المحمدى ، وقطعت يد الظلم ، وكسر عصا الجور والعدوان ، وذلك كله فى الصدر الأول ، وإن كان قد حصل بعد ذلك شغب كثير ، وفشل بين المسلمين نشأ منه اضمحلال حال ديار مصرَ ، سيما فى الحروب التى تولدت عن ذلك ، كما يعلم ذلك من تاريخ سلسلة حوادثها المتتالية .

مطلب عدد من تولى مصر من العمــال

فإنه من حين فتح المسلمين مصر فى سنة ٢٠ من الهجرة ، التى هى سنة تولية عمرو بن العاص عليها ، إلى سنة ١٣٢ ، التى هى سنة انتقال الخلافة من بنى أمية إلى العباسيين ، تولى عليها ثمانية وعشرون عاملا تناوبها اثنتين وثلاثين مرة ، لأن بعضهم كان يعزل ثم يعود كعمرو ابن العاص فإنه حكم مرتين ، ومدته فيهما إحدى عشرة سنة ، وكعبد الملك بن رفاعة الفهمى ، فإنه حكم مرتين أيضا ومدته فيهما ثمان سنين ، وكحفص بن الوليد ، فإنه حكم ثلاث مرات ومدته فيها أربع سنين .

ويظهر من طول مدة بعض العمال الأول ، أن الأحوال ابتداء كانت غير مضطربة ، وإنما اعتراها ذلك فيما بعد ، ويظهر أنه بتقادم الزمن كان الاضطراب متزايدًا ؛ فإنا نجد أنه تبدل على هذه الديار من سنة ١٣٢ ، التى هى ابتداء خلافة العباسيين ، إلى زمن فصل مصر عن بيت الخلافة . فى زمن أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ ستون عاملا ، فى ظرف مائة واثنتين وعشرين سنة . فتكون مدة العامل نحو عامين ، فكان العزل متقارباً ، بل ربما حصل فى العام الواحد تبادل عاملين أو ثلاثة .

ومن هذا يعلم أن قلة الأمن هى الباعثة على كثرة اضطراب أحوال البلاد ، من عدم استقامة الإدارة العامة . وعدم طول إقامة الحكام ذوى العدل بين أهلها ؛ لتطاول أيدى أهل البغى عليهم بكثرة الحروب والقتل ، إلى أن دخلت الفرنساوية أرض مصر ، وانجلوا عنها وحصلت العناية الربانية . واستولى مولانا العزيز محمد على باشا ، عليه الرحمة والرضوان ،

على الديار المصرية ، فزالت تلك الأكدار ، وتغيرت هذه الأحوال كما سنقصه عليك فى محله .

مطلب عدد من تولى مصر من الأتراك والجراكسة

وفى رحلة (ولين) الفرنساوى نقلا عن (ابن مرعى) أن الذى تولى الملك من الأتراك ٢٤ ، ومن الجركس مثلهم فالكل ٤٨ ، وأن مدة حكمهم جميعا ٢٦٣ سنة ، فتكون مدة الواحد بالتوسط ٥ سنين ونصفا تقريبا . ومن غريب الاتفاق أن الذين ماتوا بالقتل من التركمان ١١ ، والذين عزلوا / ستة ، وبالعكس فى الجركس ، فإن الذين ماتوا بالقتل منهم ٦ ، والذين عزلوا ١١ .

١٦

وتولى من حين استيلاء السلطان سليم ، إلى دخول الفرنساوية ٧٢ باشا . فى مدة ٢٨٧ سنة ، فلو جمعت حكام مصر من إنتهاء حكم البطالسة لوجدتهم ٢٠٠ حاكم . كل منهم له سير مخصوص . وفى تلك المدد كان الغالب عدم النظر . لرفاهية الأهالى وعمار بلادهم ، وإن حصل ذلك واستقامت الأحوال فلا يكون إلا بعض سنين ثم يتغير .

ومن كثرة الفتن الداخلية وإهمال المصالح العامة . تعطلت أسباب الثروة والصحة . وقلت الفلاحة ، وتطاولت الأيدى على جميع جهات القطر بالقتل والسلب . فقل بهذه الأسباب الأمان على النفس والمال . ومِنْ تركِ تطهير الترع والخلجان ، حُرمت أغلب الجهات من ماء النيل ، ونشأ عن ذلك غلوّ أسعار الأقوات ، بل وإنعدامها فى بعض السنين ، وتسلطنت الأمراض ، وسكن الوباء بأرض مصر ، حتى صار عوده دورياً منتظماً فى تلك الديار . ونزل بالناس من المصائب ما يبث الجبال ، فهاجر الخلق من بلادهم ، وملئت الطرق بجيف الأموات من مهاجرى المصريين .

وصار هذا الأمر شائعا فى جميع بقاع الأرض ، ووصفه مؤرخو العرب والفرنج بأوصاف تفتت الأكباد ، وتشيب منها الولدان .

وللمقريزى رسالة ، جمع فيها مرات الغلاء والقحط ، من دخول العرب مصر إلى سنة ٦٠٠ هجرية تقريبا ، فبلغت ثلاث عشرة مرة .

وفى رحلة (ولين) الفرنساوى ، نقلا عن كتاب (مرعى بن يوسف الحنبلى) ، الموجودة نسخته بكتبخانة باريس : أن عدد مرات القحط والوباء ، من ابتداء فتح مصر إلى سنة ٨٤٣ هجرية ، الموافقة سنة ١٤٤٠ ميلادية ، إحدى وعشرون أو ست وعشرون ، على قول العلامة (خليل بن جاهين الظاهر) وزير السلطان الأشرف .

وأسباب هذا الغلاء غالبا : إهمال الحكام تدبير ماء النيل ، وتوزيع المياه على الأراضى ، وكذا اتجار الحكام والسلاطين فى الأقوات ، فينشأ من إهمال النيل ، عدم زرع جميع الأراضى ، فلا يكفى ما يخرج من المحصول جميع أهلها ، وينشأ من الإتجار فى القوت غلوّ الأسعار غلواً فاحشاً ؛ فكانت أسباب البلايا كثيرة متنوعة ، تتفنن فيها ولاة الأمور بما كانوا يبتدعونه من المظالم وسوء التدبير .

ولولا الخوف من التطويل ، لذكرنا ما حصل للديار المصرية فى كل زمن ، ولكن ، هذا للقارئ أنموذج يعلم منه أحوال تلك الأزمان ، وما كانت تقاسيه الناس من حكامهم ، والمقصود أنا نقارن ذلك بزماننا ، فنجدنا الآن فى أرغد عيش بالنسبة لمن كان فى تلك الأزمان ، وليس ذلك إلا بهمّة الخديوى المعظم ، فإنه لا يشغله شاغل عن التفكر فى الأحوال الموجبة لرفاهية الرعية ، فبحول الله وقوّته ، وعناية الحضرة الخديوية ، لا نخاف من حصول مثل ماكان فى تلك الأزمان ، لأن الإكثار من الترع والخلجان والجسور ، وإحكام تقسيم المياه بالقناطر فى الجهات البحرية والقبلية ، صيرّ ريّ جميع الأراضى ممكنًا . إذا وصل النيل ستة عشر ذراعا ، بل يمكن بأقل من ذلك ، إذ تمت عمارة القناطر الخيرية . وبوجود سكك الحديد فى البر ، والسفن البخارية فى البحر الملح والحلو ، صار نقل ما يحتاج إليه من محصولات البلاد البعيدة فى أى وقت سهلا .

مطلب أول غلاء حصل فى مصر

وأوّل غلاء حصل بمصر فى الإسلام سنة ٨٧ هجرية ، وكان أمير مصر وقتئذ : عبدالله ابن عبدالملك بن مروان .

وبعد ذلك فى زمن الإخشيد ، ثم فى زمن أبى القاسم أبى الفوارس بن الإخشيد سنه ٣٣٨ . وبعدها بثلاث سنين كثرت الفيران فى أعمال مصر ، وأتلفت جميع الغلال والكروم ، ولم يرو النيل البلاد ، وغلا السعر واشتد الأمر إلى سنة ٣٤٣ ، وطُلب القمح كل ويبتين ونصف بدينار ، فلم يوجد ، واستمر هذا العذاب تسع سنين متتابعة ، وأمير مصر علىّ بن الإخشيد .

وفى سنة ٣٥٦ عظمت البلوى بعد موت كافور ، لأنه كان مجتهدا فى تدبير الأحوال ، ثم قامت الجند على الأمراء ، فهلك خلق كثيرون ، ونهبت الأسواق ، وأحرقت مواضع كثيرة من المدينة ، واختلفت العسكر ، فتبع أكثرهم الحسن بن عبدالله بن طغج ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب أغلبهم المعز لدين الله الفاطمى ، وصار الهول عظيماً واستمر إلى أن دخل جوهر القائد سنة ٣٥٨ ، وبنى مدينة القاهرة .

ولم ينقطع الغلاء إلى سنة ٣٩٠ ، فاشتد الوباء ، وكثرت الموتى ، وعجز الناس عن دفن موتاهم ، فكان من مات بطرح فى النيل والطرق ، واستمر هكذا إلى سنة ٣٦١ . ثم نزل السعر بعض النزول ، ثم غلا بعد ذلك فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٧ ، وبلغ النيل ستة عشر ذراعاً .

وفى سنة ٣٩٥ لم يتم النيل ستة عشر ذراعاً إلا فى آخر شهر مسرى ، وعم الكرب ، وتغيرت أصناف المعاملة ، وكثر فيها الغش حتى وصل الدينار أربعا وثلاثين درهما ، فى سنة ٣٩٧ . واشتد الكرب على الناس ، فصدرت الأوامر بضرب دنانير جديدة ، وفى يوم واحد وزعوا عشرين صندوقا منها على الصيارف ، بقصد جمع الدنانير القديمة ، وأمهلوا الناس

١٧

ثلاثة أيام ، وتلف للناس أموال كثيرة . لأن الدرهم الجديد صار يبدل بأربع دراهم قديمة . ونودى بأن / سعر الدينار الجديد ثمانية عشر درهمًا جديدة ، فخسر الناس خسارات كثيرة . وعلا سعر الغلال وجميع أصناف المأكول . حتى عز وجودها ، فضرب الحاكم الطحانين والخبازين . وقبض على مخازن التجار . وسعَّر أصناف الحبوب .

واستمر الغلاء إلى سنة ٣٩٩ ، فاجتمع الأهالى بين القصرين ، وشكوا إلى الحاكم ، فركب حماره وخرج من باب البحر ، ووقف هناك ثم قال : « أنا متوجه لجامع راشدة ، وإنى أقسم بالله ، إن عدت ووجدت مَوضعاً غير مستور بالغلة يطؤه حمارى ، لأضر بن عنق من يقال لى إن عنده شئ منها ، وأحرقن داره ، وأنهبن أمواله » .

ثم توجه وتأخر هناك لقريب المغرب ، فلم يبق أحدٌ من أهل مصر والقاهرة عنده غلة إلا وحملها من بيته أو مخزنه ، وجعلها كيمانًا فى الطرق ، وأمر بحصر ما يحتاج إليه الناس فى كل يوم ، فحصر وعمل به كشف عُرِض عليه ، فأمر بعرضه على أصحاب الغلال ، وخيَّرهم بين أن يبيع كلٌ بقدر ما يناسب تجارته بسعر معلوم قدّره لهم ، وبين أن يختم على غلالهم إلى حين دخول الغلة الجديدة . فنزل السعر ، وباعوا بما قدرَّه لهم .

وفى خلافة المستنصر غلت الأسعار ، سنة ٤٤٤ ، غلاءً شديداً ، وقصَّر النيل ، وخلت المخازن السلطانية من الغلال ، فحصل كربٌ شديد زاد على ما كان فى الأزمان السالفة . وكان من العادة الجارية ، فى ذلك الوقت ، أن السلطان يتجر فى الغلال ، فكان يُشترَى له منها كل سنة بمائة ألف دينار ليتجر فيها ، فدخل عليه وزيره ، أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن البارزى ـ رحمه الله ـ وكان قد أمر بترخيص الأسعار ، وعرّفه بما منَّ الله عليه به من رخص السعر ، وتوالى الدعاء من الناس للسلطان ، وذكر أن فى التجارة فى الغلال مضرّة على المسلمين وربما نزل السعر بعد شرائها ، فتباع بأقل مما اشتريت به ، أو تتلف بالمخازن . والأَوْلى التجارة فيما لا كلفة على السلطان فيه ، ولا مضرَّة بالناس ، وفائدة التجارة فيه أضعاف فائدة

التجارة فى الغلة ، ولا يخشى عليه من إنحطاط السعر ولا من غيره . وهو : الخشب ، والصابون والحديد ، والرصاص ، والعسل ، وما أشبه ذلك ، فأمضى السلطان له رأيه .

والغلاء الذى حصل فى أيامه أيضًا ، سنة ٤٤٧ ، زاد على ما سبقه ، ولم يكن وقته بالمخازن السلطانية إلا جرايات مَنْ فى القصور ، ومطبخ السلطان وحواشيه ، فقام الوزير أبو محمد ، وكتب إلى عمال النواحى بحجز الغلال وأخذها للديوان ، وتربيح التجار فى كل دينارين دينارًا . وبعد ذلك أرسل المراكب فأحضرت جميع الغلال من البلاد ، وأرسل إلى مصر سبعمائة أردب ، وإلى القاهرة ثلثمائة . فحصل الرخاء ، إلى أن قتل الوزير ، فصار بعده لا يُرى للدولة صلاح ولا استقامة حال .

واختلت الأمور ، ولم يستقر لها وزير تحمد سيرته ، أو يرضى تدبيره ، وخالط الناس السلطان ، وكاتبوه مكاتبات كثيرة ، وكان لا ينكر على أحد مكاتبته ، فتقدم كل شقشاق ، وحظى لديه الأوغاد ، وكثروا حتى كانت رقاعهم أكثر من رقاع الرؤساء الأجلة . وتنقلوا فى المكاتبة إلى كل نوع ، حتى كان يصل إلى السلطان كل يوم ثمانمائة رقعة ، فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ، ووقع الخلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدتهم ، فكان الوزير منهم – من توليته إلى خلعه – لا يفيق من التحرز ممن يسعى به .

وكانت الفترات بعد عزل من ينعزل منهم ، أطول من مدة وزارته ، فتعدوا الواجبات ، وتفننوا فى المصادرات ، فاستنفدوا أموال الخليفة ، وأخلوا منها خزائنه ، وأحوجوه إلى بيع عروضه ، فاشتراها الناس نسيئة ، وكانوا يعترضون ما يباع ، فيأخذ من له درهم واحد ما يساوى عشرة دراهم ، ثم زادوا فى الجراءة حتى تصدروا إلى تقويم ما يخرج من العروض ، فإذا حضر المقوّمون أخافوهم ، فيقوّمون ما يساوى ألفا بمائة فما دونها ، ويعلم المستنصر وصاحب بيت المال بذلك ، ولا يتمكنان من إجراء ما يجب عليهم ، فتلاشت الأمور ، واضمحل الملك ، وعلموا أنه لم يبق ما يلتمس إخراجه لهم ، فتقاسموا الأعمال ،

وأوقعوا التساهم على ما زادت فيه الرغبات ، وكانوا ينتقلون فيها ويتداولونها على حسب غلبة بعضهم لبعض .

ودام ذلك بينهم خمس أو ست سنوات ، ثم قصَّر النيل ، فغلت الأسعار غلواً بدد شملهم ، وفرق ائتلافهم ، وأوقع الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء ، فقتل بعضهم بعضاً حتى بادوا وعفت آثارهم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

ثم وقع فى أيام المستنصر ـ أيضا ـ الغلاء الذى فحش أمره ، وشنع ذكره ، ومكث بمصر مدة سبع سنين ، وسببه : ضعف السلطنة واختلال أحوالها ، واستيلاء الأمراء عليها ، وتوالى الفتن بين الأوغاد ، وعدم علو النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الرى ، وكان ابتداء ذلك سنة ٤٥٧ ، فعلا السعر ، وتزايد الغلاء وأتى عقبه الوباء ، حتى تعطلت الأراضى من الزراعة ، وعمَّ الخوف وخيفت السبل برا وبحرا ، وجاعت الناس ، وعُدِم القوت ، حتى بيع رغيف خبز ـ فى سوق القناديل من الفسطاط ـ بخمسة عشر دينارا ، وأُكلت الكلاب والقطط حتى قلّت ، وبيع الكلب بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا .

/ وكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم حبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحدٌ ، ألقوها عليه ، وأخذوه فى أسرع زمن ، وشرَّحوا لحمه وأكلوه . ١٨

ثم آل أمر المستنصر إلى أن باع كل ما فى قصوره من ذخائر ، وثياب ، وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور يخرجن ناشرات شعورهن ويصحن : الجوع الجوع ، يردن المسير إلى العراق ، فيسقطن عند المصلى ، ويمتن جوعا . واحتاج حتى باع حلية قبور آبائه .

وجاء الوزير يوما ـ على بغلته ـ فأكلتها العامة ، فشنق طائفة منهم ، فاجتمع الناس عليهم فأكلوهم . وأفضى الأمر إلى أن عُدِم ـ المستنصر نفسه ـ القوتُ .

وكانت الشريفة ، بنت صاحب السبيل ، تبعث إليه كل يوم قعبًا من فتيت ، من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى ذلك الغلاء ، حتى أنفقت مالها كله فى سبيل البر ـ وكان يجلُّ عن الإحصاء ـ . ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعثه إليه ، وذلك فى اليوم والليلة مرة واحدة .

ومن غريب ما وقع ، أن امرأة من أرباب البيوتُ أخذت عقداً لها قيمته ألف دينار ، وعرضته على جماعة ، فى أن يعطوها به دقيقاً ، فكان كلٌّ يدفعها عن نفسه ، إلى أن رحمها بعضٌ ، وباعها به زنبيل دقيق بمصر ، فلما أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النهب فى الطريق ، فلما وصلت باب زويله ، تسلمته من الجمالة ومشت قليلا ، فتكاثر الناس عليها ونهبوه ، فأخذت هى أيضا ـ مع الناس ـ من الدقيق ملْء يديها ، ولم يتيسر لها غيره ، ثم عجنته وسوته ، فلما صار قرصة أخذتها معها ، ووصلت إلى أحد أبواب القصر ، ووقفت على مكان مرتفع ، ورفعت القرصة على يديها بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتٍ : يا أهل القاهرة ، ادعوا لمولانا المستنصر ، الذى سعدت الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره ، حتى صار ثمن هذه القرصة ألف دينار . فلما بلغه ذلك أحضر الوالى ، وتوعده وهدده ، وأقسم له إن لم يظهر الخبز فى الأسواق ، ويرخص السعر وإلا ضرب عنقه ، ونهب أمواله . فخرج من بين يديه وذهب إلى الحبس ، وأخرج قوما استحقوا القتل ، وأفاض عليهم ثيابا واسعة ، وعمائم مدورة ، وطيالس سابلة ، وجمع تجار الغلال والخبازين والطحانين ، وعقد مجلسا عظيما ، وأمر بإحضار واحد من القوم الذين استحقوا القتل ، فلما مَثَل بين يديه قال له : ويلك ، ما كفاك أنك خنت السلطان ، واستوليت على مال الديوان ، حتى أخربت الأعمال ، ومحقت الغلال ، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة ، وتلاشى الأحوال وهلاك الرعية ، ثم قال للجلاد : اضرب عنقه ، فضُربت فى الحال ، ووقع على الأرض بين يديه ، ثم أمر بإحضار آخر منهم فقال : كيف قدرت على مخالفة الأمر ، واحتكرت الغلال ، وتماديت على ارتكاب ما نهيت عنه ، إلى أن تشبَّه بك سواك ، فهلك الناس ، اضرب عنقه فضُرب فى الحال ، واستدعى آخر ، فقام إليه الحاضرون من التجار ، والطحانين ،

والخبازين وقالوا : أيها الأمير ، فى بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة ، وندير الطواحين ، ونعمِّر الأسواق بالخبز ، ونرخص الأسعار على الناس ، ونبيع الخبز كل رطلٍ بدرهم ، فقال : ما يقنع الناس بذلك ، فقالوا : الرطلان بدرهم ، فأجابهم : بعد اللتيا والتى ، ووفُّوا بالشروط ، وتدارك الله الخلق باللطف ، وأجرى النيل ، وسكنت الفتن ، وزرع الناس ، وانكشفت الكروب .

ثم حصل الغلاء ، بعد ذلك ، أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، ولم تطل مدته ، فلم تعم بليته ، كما حصل بعده فى أيام الخليفة الحافظ لدين الله ، بوزيره الأفضل بن وحش ، ولكن الحافظ تدارك الأمر بنفسه ، إلى أن منَّ الله بالرخاء . وجاء بعده الغلاء ، فى مدة الفائز ، ووزارة الصالح طلائع بن رزيك .

وهكذا كان الغلاء والوباء ، شعار أكثر هؤلاء الخلفاء .

فلم يجلس أكثرهم على تخت هذه الديار ، إلا وجلس بجانبه بلوى من البلايا ، وحصل فى زمنهم خراب أكثر البلاد ، وتعطل أكثر الأراضى عن الزرع .

ولم يختلف الحال بزوال ملكهم ، بل تبدل فى صورة غير الصورة ، ولبس ثوبا غير الثوب .

وحصل فى زمن الأيوبيين مثل ما حصل فى زمن الفاطميين ، ولم يلتفت الكثير منهم إلى أحوال الصحة والرفاهية ، والسير على نهج السلف فى الحكم والإدارة ، وبقيت البلاد عرضةً للضرر ، الذى كان مستوليا قبل ، فكان الظلمْ والجور وتعدّى الحكام ، وغاراتهم ، وعدم الزرع ، والقحط ، والوباء ، والأمراض ، ومصائب آخر ، مما غرسه الطوائف الواردة على الديار المصرية ، إلى أيام استيلاء مولانا العزيز ، محمد على باشا ، على الديار المصرية . ولم يعمل أحدَ ممن تقدَّم فى هذه الديار أعمالاً تستحق الذكر.

وفى رسالة العلامة المقريزى ــ التى ألفها فى حوادث سنة ٥٩٠ هلالية ــ أنه حصل فى

هذه السنة جوع عم الخلق فى القرى والأرياف ، فتركوا بلادهم وانتقلوا إلى القاهرة ، ودخل فصل الربيع ، فهبّ هواء تبعه وباء ، وفناء ، وعدم القوت ، حتى أكل الناس أطفالهم شواء وطبخاً ، ثم نهوا عن ذلك ، فلم يُفِد ، فكان يوجد بين ثياب المرأة ، وكذا الرجل ، كتف طفل أو فخذه أو شئ من لحمه ، ويدخل بعضهم بعض حارات ، فيجد القدر على النار فينظرها فإذا فيها / لحم طفل ، وأكثر ما وجد ذلك فى بيوت الأكابر . وأغرق فى أقل من شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذلك .

١٩

ثم اشتد الأمر حتى صار أكثر غذاء الناس من لحم بعضهم ، ولم يمكن منعهم لعدم القوت ، من جميع الحبوب والخضراوات . فلما كان آخر الربيع ، انحسر الماء عن المقياس إلى بر الجيزة ، وتحوّل وتغير طعمه وريحه ، ثم أخذ فى الزيادة ـ قليلاً قليلاً ـ إلى الثانى عشر من مسرى ، فزاد إصبعاً واحداً . ثم وقف أياما وأخذ بعد ذلك فى الزيادة القوية ، وأكثرها ذراع ، إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعاً وستة عشر أصبعاً ، ثم انحط من يومه ، فلم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله . وكان أهل القرى قد فنوا ، حتى أن القرية ، التى كان أهلها خمسمائة نفر ، لم يبق بها غير اثنين أو ثلاثة .

ولم تعمل الجسور ولا مصالح البلاد لعُدم البقر ، فإنها فقدت حتى بيعت البقرة بسبعين ديناراً ، وملأت الجيف جميع الطرق بمصر والقاهرة ، وغيرهما من بلاد الإقليم ، والذى زرع ـ على قلته ـ أكله الدود ولم يمكن زرع غيره . وكانت التنانير لا يوقد فيها بغير خشب البيوت ، وكانت جماعة من أهل الستر يخرجون ليلاً ، ويحتطبون من المساكن الخربة ، فإذا أصبحوا باعوها . وكانت الأزقة كلها بمصر والقاهرة لا يرى فيها من الدور المسكونة غير القليل . وكان الرجل بالريف ـ فى أسفل مصر وأعلاها ـ يموت وبيده المحراث ، فيخرج آخر فيصيبه ما أصاب الأول .

واستمر النيل ـ ثلاث سنين ـ بدون أن يطلع منه غير قليل ، حتى بلغ الأردبَ أو المدُّمن القمحَ ثمانية دنانير . فأطلق العادل للفقراء شيئا من الغلال ، وقسّم الفقراء على أرباب

الثروة ، وأخذ منهم اثنى عشر ألفا ، وجعلهم فى مناخ القصر ، وأفاض عليهم القوت ، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة . وكان الواحد من أهل الفاقة إذا امتلأت بطنه الطعام ، سقط ميتا ، فكان يدفن منهم كل يوم العدّة الوافرة ، حتى أن العادل ــ فى مدة سيرة ــ دفن نحو مائتى ألف وعشرين ، فإن الناس كانوا يتساقطون فى الطرق من الجوع ، ولا يمضى يوم واحد إلا ويؤكل عدة من بنى آدم .

وتعطلت الصنائع فلما أغاث الله الخلق بالنيل ، لم يوجد أحد يحرث ولا يزرع ، فخرج الأجناد بغلمانهم ، وتولوا ذلك بأنفسهم . ومع ذلك لم يزرع أكثر البلاد ، لعدم الفلاحين والحيوانات ، وبيعت الدجاجة بدينارين ونصف ، ومع ذلك كانت المخازن مملوءة من الغلال ، وكان الخبز متيسر الوجود ، يباع كل رطل منه بدرهم ونصف .

وزعم كثير من أرباب الأموال ، أن هذا الغلاء كسنى يوسف ــ عليه السلام ــ وطمع أن يشترى بما عنده من الأقوات ، أموال أهل مصر ونفوسهم ، فأمسك الغلال ، وامتنع من بيعها ، فلما جاء الرخاء لم ينتفع بشئ منها ، بل رماها لأنها تلفت . وأكثر أرباب المال أصيبوا ، فبعضهم مات عقب ذلك شرّ ميتة ، وبعضهم أصيب فى ماله ، إن ربك لبالمرصاد ، وهو الفعّال لما يريد .

ثم بعد ذلك جاءت دولة الأتراك ، فكانت المصائب أشنع وأفظع ، وتسلحت بأسلحة أحدّ وأقطع ، فكان الغلاء والقحط فى سلطنة كتبغا سنة ٦٩٤ فى بلاد مصر ، وهجم عليها من سكان برقة ٣٠,٠٠٠ نفس من الجوع ، لقلة المطر ببلادهم ، وجفاف العيون ، فهلك جلهم جوعًا وعطشًا ، ووصل القليل منهم فى جهد وقل . وتأخر الوسمىُّ ببلاد الشام ، حتى فات أوان الزرع ، واستسقوا ثلاثا فلم يسقوا ، ثم اجتمع الجميع وخرجوا للاستسقاء ، وضجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه وتعالى فأغاثهم وسقاهم .

والنيل بمصر وقف عن الزيادة ، فتحولت الأسعار ، وتأخر المطر عن بلاد القدس والساحل حتى فات أوان الزرع ، وجفت الآبار ، ونضب ماء عين سلوان ، وكان مبلغ النيل

فى تلك السنة ـ أعنى سنة ٦٩٤ ـ ستة عشر ذراعا وسبعة عشر إصبعا ، ونزل سريعا ، وكسر بحر أبى المنجى ـ قبل أوانه بثلاثة أيام ـ خوفا من النقص ، فبلغ أردب القمح مائة درهم ، والشعير ستين درهماً ، والفول خمسين ، ورطل اللحم ثلاثة دراهم ، فأخرجت الغلال من المخازن ، وفرقت فى المخابز ، ورُتب لكل صاحب جراية ست جرايات فى شهرين . وكان راتب البيوت وأرباب الجرايات ـ كل يوم ـ ستمائة وخمسين أردبا ما بين قمح وشعير ، ومن اللحم عشرين ألف رطل .

وكان قد ظهر خلل فى الدولة ؛ لقلة المال وكثرة النفقات ، فتعددت المصادرات للولاة والمباشرين ، ووزعت البضائع بأغلى الأثمان على التجار .

ودخلت سنة ٦٩٥ ، والناس فى شدة من الغلاء وقلة الوارد ، لكنهم كانوا يمنون أنفسهم بمجئ الغلال الجديدة ـ وكان قد قرب أوانها ـ فعند إدراك الغلال ؛ هبت ريح مظلمة ، من نحو بلاد برقة هبوباً عاصفاً ، وحملت ترابا أصفر كسا زرع تلك البلاد ، فأتلف أكثرها ، وعم ذلك التراب إقليم الجيزة ، والغربية ، والشرقية ، وزرع الصعيد الأعلى ، وفسد زرع الصيف كالأرز ، والسمسم والقلقاس ، وقصب السكر ، وكل ما يزرع على السواقى ، فتزايدت الأسعار . وبعد تلك الريح جاءت حمى عمت الناس ، فغلا سعر السكر والعسل وما يحتاج إليه المرضى ، وعُدمت الفواكه ، وبيع فرخ الدجاج بثلاثين درهماً ، ووصل سعر أردب البُر مائة وتسعين ، والشعير مائة وعشرين ، والفول والعدس مائة وعشرة ، ورطل البطيخ درهمين ، وحبة السفرجل ثلاثة دراهم .

٢٠ وتزايد القحط فى بلاد / القدس والساحل ، ومدن الشام إلى حلب ، فوصلت غرارة القمح سعر مائتين وعشرين درهماً ، والشعير نصف ذلك ، ورطل اللحم عشرة دراهم ، والفاكهة أربعة أمثالها .

وكان ببلاد الكرك ، والشوبك ، وبلاد الساحل لما يرصد للمهمات والبواكير ما ينوف عن عشرين ألف غرارة ، فحملت إلى الأمصار .

وأجدبت مكة ، فبلغ أردب القمح بها تسعمائة درهم ، والشعير سبعمائة ، فرحل أهلها حتى لم يبق بها من الناس إلا اليسير.

وعُدم القوت ببلاد اليمن ، وكثر بها الوباء ، فباعوا أولادهم ، واشتروا بهم قوتا ، وفروا إلى حلل بنى يعقوب ، فتلاقوا مع أهل مكة ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، فأفناهم الجوع جميعا ، ما عدا طائفة قليلة .

وحصل القحط ببلاد المشرق ، وفنيت دوابهم ، وهلكت مراعيهم ، وأمسك المطر عنهم . واشتد الأمر بمصر ، وكثر بها الناس من الآفاق ، فعظم الجوع حتى كان الخبز ينهب من المخبز والحوانيت ، وكان العجين ــ إذا خرج به صاحبه ليخبزه ــ نُهب قبل أن يصل ، فكان لا يصل إلا إذا كان معه عدة يحمونه من النهابين .. ومع ذلك ، فكان من الناس من يلقى نفسه عليه ليأخذ منه بلا مبالاة ، بما أصابه من ضرر الضرب .

فلما تجاوز الأمر حده ، أمر السلطان بجمع الفقراء وذوى الحاجات ، وفرقهم على الأمراء ، فأرسل إلى أمير المائة مائة ، وإلى أمير الخمسين خمسين ، حتى وزع على أمير العشرة عشرة ، فكان منهم من يُطعم مَنْ خصه من الفقراء ثريد لحم البقر ، ومنهم من يعطى كل واحد رغيفين ، ومنهم من يعطى كعكاً ، ومنهم من يعطى رقاقاً ، فخف ما بالناس .

ولكن عَظُم الوباء فى الأرياف ، وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر ، وعظم الموتان ، وكثرت طلبة الأدوية ، حتى أن عطارًا بباب حارة الديلم ، باع فى شهر واحد باثنين وثلاثين ألف درهم ، وبيع من حانوت شخص ، يعرف بالشريف عطوف ، من سوق السيوفيين ، بمثل ذلك ، وكذلك حانوت بالوزيرية ، وآخر خارج باب زويلة ، باع أيضا بمثل ذلك . وطلبت الأطباء ، وبذلت لهم الأموال ، وكثر ما تحصلوا عليه ، فكان الواحد منهم يكتسب فى اليوم الواحد مائة درهم . ثم أعيا الناس كثرة الموتى ، حتى بلغت عدة من يصل اسمه الديوان السلطانى ــ فى اليوم الواحد ــ ما يزيد عن ثلاثة آلاف .

وأما الطرحى ، فلم يُحص عددهم بحيث ضاقت بهم الأرض ، وحفرت لهم حفر وآبار . وألقوا فيها ، وجافت الطرق والنواحى والأسواق ، وكثر أكل لحم بنى آدم ـ خصوصاً الأطفال ـ فكان يوجد عند رأس الميت لحم ابن آدم الميت ، ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف طفل ، أو فخذه ، أو شئ من لحمه .

وخلت الضياع من أهلها ، حتى أن القرية التى كان بها مائة نفس ، لم يوجد بها غير نحو عشرين ، وأغلبهم يوجد ميتا فى مزارع الفول ، لا يزال يأكل منه حتى يموت ، ولا يستطيع الحرّاس ردّهم لكثرتهم . ومع ذلك وجد المحصول ـ بعد الحصاد ـ أضعاف المعتاد .

ولقد كان للأمير فخر الدين الطنبغا المساحى ، من جملة زرعه مائة فدان من الفول ، لم يمنع أحداً من الأكل منها فى موضع الزرع ، ولم يُمكِّن أحداً أن يحمل منها شيئا زيادة عن أكله ، فلما كان أوان الدرس خرج بنفسه ، وقف على أجران المائة فدان المذكورة ، فإذا تلٌ عظيم من القشر الذى أكلت حبه الفقراء ، فطاف به وفتشه ، فلم يجد فيه من الحب شيئا ، فأمر به أن يدرس لينتفع بتبنه ، فلما دُرِس جاء منه سبعمائة وستون أردباً ، فعدّ ذلك من بركة الصدقة ، وفائدة أعمال البر ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

وكثرت أرباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد فى اليوم ثلاثين درهما ، وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع ، واكتفوا بذلك مدة الغلاء ، وأصيب جماعة كثيرون ممن ربح فى الغلال ، من الأمراء ، والجند ، وغيرهم ، مدة الغلاء ، إما فى نفسه وإما فى ماله ؛ فلقد كان لبعضهم ستمائة أردب باعها ، سعر كل أردب مائة وخمسون درهماً ، بل بعضها باعه بأزيد ، فلما ارتفع السعر عما باع به ، ندم على بيعه الأول حيث لم ينفعه الندم ، فلما صار إليه ثمن الغلال أنفق معظمه فى عمارة زخرفها ، وبالغ فى تحسينها ، حتى إذا فرغ منها ، وظن أنه قادر عليها ، أتاها أمر ربها فاحترقت ، وأصبحت لا ينتفع بها أصلاً .

مطلب أول وزن الفلوس

ولما ضربت الفلوس ، لعبت الناس فيها ، فنودى أن يستقر الرطل منها بدرهمين ، وزنة الفلس درهم ، وهذا أول وزن الفلوس .

واشتد ظلم الوزير الصاحب فخر الدين الخليلى ، لتوقف أحوال الدولة من كثرة الكلف ، فأرصد متحصل المواريث للغداء والعشاء ، وأخذ الأموال الموروثة ـ ولو كان الوارث أبا أو ابنا ـ فإذا طالبه الوارث بما يستحقه ، كلفه إثبات نسبه واستحقاقه ، فلا يكاد يثبت ذلك إلا بعد عناء طويل ومشقة ، فإذا تم الإثبات أحاله على المواريث .

وهكذا كان يفعل بتركة كل من مات ، فتضجر الورثة من الطلب ، فتترك المطالبة واشتد الأمر على التجار ، لرمى البضائع بالأثمان الزائدة ، والقيم الكثيرة ، وكثرت المصادرات ، وعظم الأمر ، واشتد الجور على أهل النواحى ، وحملت التقاوى السلطانية من الضياع ، واشتد الأمر على أهل دمشق ونابلس وبعلبك وغيرها ، فكانت تلك الأيام فى / غاية الشدة .

٢١

وهذا كله ، وجدته مسطوراً برسالة المقريزى ، ونقلت بعضه حرفياً ، ليعلم القارئ فظاعة تلك الأيام ، وسوء تدبير حكامها .

ولم تنته الشدة على أهل مصر ، بانتقال الملك من الدولة الأيوبية إلى التركية ، بل زادت زيادة فاحشة أضرت بالبلاد والعباد ، واستمر ذلك إلى عهد قريب منا .

وفى جميع هذه المدد ، كان القحط والوباء متعاقبين ، وحصل منهما خراب البلاد فى الأقاليم البحرية .

وهاك بيان مما حدث منهما ، فى الأقطار المصرية إلى سنة ١٢١٣ ، التى كان فيها دخول الإفرنج ديار مصر .

سنة ٦٩٤ : حصل طاعون وقحط ، وفتن وحرب ، فى زمن محمد بن قلاوون ، الملقب بالملك الناصر .

سنة ٧٤٨ : حدث وباء شديد فى زمن السلطان حسن ، وهلك فيه كثير من الناس .

سنة ٨٤٢ : حدث وباء عظيم فى زمن جكمك ، الملقب بالملك الظاهر .

سنة ١٠٠٧ : حدث طاعون عظيم ، وقحط أليم ، فى زمن على باشا السلحدار .

سنة ١٠٢٧ : حدث طاعون شديد ، فى زمن الوزير جعفر باشا ، فخربت البلاد ، وأقام أربعة أشهر ، وكان أغلب من يموت عمره من ١٥ إلى ٢٥ عاما ، وعدد من مات فيه ٦٠٠٠٠٠ نفس .

سنة ١٠٢٨ : حصل غرق عظيم ، تلاه وباء أليم ، وقحط مهين .

سنة ١٠٢٩ : حصل غلاء ووباء شديدان ، فى زمن ابراهيم باشا .

سنة ١٠٣٤ : طغى النيل ، وخافت الناس الغرق والقحط ، ولكن الله سلم ، وزرعت الناس ، وأخصب الزرع ، لكن حدث وباء .

سنة ١٠٣٥ : مات أكثر من ٣٠٠٠٠٠ نفس من القاهرة . ولتسكين روع الخلق ، حرَّج الباشا على الصياح ، فكان الميت يمر بالحارة ولا يسمع به ، وكان الباشا يستحوذ على التركات .

سنة ١٠٣٩ : جاء سيل عظيم إلى مكة المشرفة ، فخرب أغلبها ، وهدم حوائط الكعبة ، فكتب السيد مسعود ـ شريف مكة المشرفة ـ إلى الباشا والى مصر ، ومن طرفه كاتب الآستانة ، فأمر ببناء الكعبة ، وأرسل من مصر جميع ما يلزم من عملة ومهمات ، وصرف على ذلك مائة ألف قرش ، وقرش ذاك الوقت ، يعدل أربع فرنكات .

سنة ١٠٤٩ : قصَّر النيل فزادت الأسعار ، وتلاه وباء ، وكثر السارقون وقطاع

الطريق ، فكان لا تمضى ليلة إلا وتنهب فيها حارة من الحارات ، وذلك زمن الوزير مصطفى باشا البوستانجى .

سنة ١٠٥٠ : فى زمن منصور باشا ، حصل طاعون لم يسمع بمثله ، وكان ابتداؤه ببولاق ، ولم يظهر بالقاهرة إلا بعد شهرين ، والذين ماتوا وصلى عليهم ٩٠٠٠٠٠ نفس ، كما قال أبو السرور ، وكثر الموت ، حتى صارت الموتى تدفن بدون صلاة ، وخُرِب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الجهات البحرية .

وفى سنة ١٠٦٠ : قصَّر النيل ولم يبلغ غير ستة عشر ذراعا ، فشرق ثلث الأراضى القبلية ، ولم يرو غالب أرض الوجه البحرى ، وعلا السعر علوا فاحشا ، وتعطلت الأموال الميرية ، وكثرت المظالم ، وفشا النهب .

ثم من سنة ١٠٦٣ إلى سنة ١١١٢ : تبادل على حكومة مصر ٢٢ من الباشاوات ، فكان الأمر بين قتل ونهب ، ولم أعثر على أمرٍ يخص الأهالى .

سنة ١١٤٢ : حصل طاعون شديد ، يعرف فى كتب الإفرنج : بطاعون كاوى ، وذلك زمن شياخة ذى الفقار على القاهرة ، ولم أر أعظم منه .

وسبب تسميته بهذا الإسم ـ على ما ذكر المؤرخون ـ أن فقيراً زنجى الأصل ، كان يجرى فى الحارات ، وينادى . كاوى كاوى ، وبعد ذلك رمى نفسه فى النار فمات .

ثم حدث طاعون زمن شياخة عثمان بيك ، واستمر مدة مع قحطٍ شديد ، ولكن تدارك عثمان بيك أمر الناس ، فلم يحصل لهم كبير عناء .

ومن بعد هذا التاريخ حصلت حروب متوالية ، وفتن على سوقها قائمة متتابعة لا تنقطع ، لا داخلاً ولا خارجاً .

سنة ١٢٠٥ : حدث طاعون فظيع سماه أهل مصر : طاعون إسماعيل بيك ، وذكر المؤرخون أنه لم يحصل مثله فى الأيام السابقة ، فإنه كان يموت بالقاهرة ـ كل يوم ـ زيادة عن

ألف نفس ، وتغيرت الحكام فى اليوم الواحد أربع مرات من هوله وشدته ؛ فإنه كان يتعين الحاكم منهم فيموت من يومه ، فيتعين بدله ، وهكذا . ومات فيه إسماعيل بيك وأهل بيته ، وذريته وأتباعه ، وخلا بيته مرة واحدة .

وتلا ذلك قحط شديد ، وغلاء عظيم لم ير مثله ؛ بسبب أن إبراهيم بيك ، ومراد بيك احتكرا غلال الصعيد ، وصارا يتجران فيها فى الخارج .

هذا ، ولم أذكر من حوادث تلك الأيام غير المهم منها ، وإلا لما تركته أكثر مما ذكرته .

والآن قد أزال الله سبحانه وتعالى جميع ذلك ، وخلصنا من مهاوى هاتيك المهالك ، حتى صرنا لا نسمع به ، فلأى سبب كان يوجد فى الماضى ، ولأى سبب لم يوجد الآن ؟ ولأى شئ لم يكثر فى أرض مصر زمن الفراعنة ، ومن أتى بعدهم ، وفشا فى مدة العرب ومن عقبهم ؟ وكيف بعد أن كان تعداد أهالى مصر ثمانية ملايين ـ كما قال استرابون ـ وقبلهم ، صار يتناقص حتى وصل لثلاثة ملايين ، حين دخول الفرنسيس ؟ وكيف انتقل حتى صار الآن خمسة ملايين ، ولم يزل يزداد سنة فسنة ، فهل يعرف لذلك سبب غير سوء التدبير ، والجهل بسياسة أمور الأمة فى تلك الأزمان ؟

وزال ذلك كله والحمد لله فى الأزمان الحالية ، فإنا نعلم أن الطاعون كان يظهر فى القطر كل خمس أو أربع سنين / مرة ، والآن ذهب من أصله ، بسبب ترتيب مجالس الصحة ، ٢٢ وإزالة الأمور الضارة : كالبرك والمعاطن ، وإحكام المدافن ، واختيار المقابر فى المواضع اللائقة ؛ خصوصاً حين ابتدئ فى تلقيح الجدرى للأطفال ، فخلص منه كثير ، وأخذ تعداد الأمة يزداد كل سنة ، مع أنه كان فى السابق يموت الأغلب ويبقى القليل .

وكذلك لو سردنا الأمراض التى كانت قاطنة ببيوت الأهالى ، تحصد فيهم حصد الزرع ، لوجدنا أن أغلبها ذهب ، ونجى الله الخلق منه ، وليس هناك سبب ، غير عناية الحكومة المحمدية العلوية ، وتوفيق الله إياها لإجراء ما يصلح العباد ، فكم من مرة مررت ـ

وأنا صغير ـ بطرق القاهرة ، وكنت أفزع من النظر للمبتلين والمجذومين المنتشرين فى أزقة البلد والطرقات ، فانظر ما الذى صار ، حتى أنا لا نرى منهم الآن أحداً ؟ ، هل لذلك سبب غير ضبطهم ومعالجتهم بالمستشفى المنتظم فى كل بندر ومدينة ، فمن يمر الآن فى أزقة القاهرة لا يرى شيئاً مما ذكره أحد السياحين : من أنه رأى فى العشرة من أهل مصر ثمانية ، ما بين أعمى وأعور ، أو على عينه نقطة ، أو به رمد ، فهل ينبغى لنا تكذيب السياح المذكور ؟

بل الذى نقوله : إن الناس تشبثت بمعالجة أمراض العيون ، وكثر الكحّالون ، واتبعت طرق تلطفت بها أمراض العيون .

ولا ينكر أحد ماكانت الناس تعانيه فى الأرياف من أمر معالجة المرضى ، فإنه كان يندر وجود طبيب بالجهات البحرية ، وكان أمر المعالجة موكولاً للحلاقين وعجائز النساء ، أما الآن فقد صار بكل مديرية اسبتالية ، وأجزاخانة ، وأطباء ، وتمرجية ، وبكل قسم طبيب .

فمن ذلك الترتيب الحسن صفا الهواء من العفونات ، التى كان يحملها من مناقع الماء والبرك والمعاطن ، وتخلص أهل القرى من القاذورات ، ونظفت أماكنهم ، وأجروا بين مزارعهم ترعاً وأنهاراً ، وغرسوا أشجاراً ، فما يزرع الآن بأرض مصر أكثر مما كان يزرع بها زمن البطالسة والرومانيين ؛ فإن الأصناف المعتادة أخذت فى الزيادة ، باتساع أسباب دائرة النموّ والفائدة : كالإكثار من الجداول والأنهار والجسور والمساقى ، التى أوصلت مياه النيل إلى أطراف أراضى البلاد جميع فصول السنة ، وكانت ـ قبل ـ لا تصلها إلا نادراً ، وذلك كله ليس إلا من وجود المهنّدسين ، وتفننهم فى ريّ ماكان يتعسر أو يتعذر ريه ، فكان النيل وقت فيضانه لا يعم البلاد ، مع أنه يغرق بعضها ، ووقت النقصان تحرم منه .

فمن ينظر إلى حسن سير ولاتنا فى هذه الأزمان وسير الولاة السابقين ، يجد أنا وصلنا الآن إلى درجة عظيمة فى الثروة ، صرنا بها من ضمن الأمم المتمدنة ؛ خصوصاً بالتفات الخديو إسماعيل ، فإنه بذل مجهوده فى توسيع دائرة المنافع العامة ، وهذا بخلاف ماكانت عليه الحكام فى الأزمان الماضية ، التى ذكرتها لك آنفاً .

ولنورد لك أنموذجاً لتكون على بصيرة فى أمور الولاة ، بحيث إذا حكمت لهم وعليهم بشىء يكون حكمك عن تصوّر ، فإن الحكم على الشىء فرع عن تصوّره فنقول :

إنه فى سنة ٩٧١ من الهجرة ، كان الوالى على مصر على باشا الصوفى ، فبدلاً عن أن يحضر إليها ، ويولى أمورها من شاء من أمرائها وأهلها ، أحضر معه جملة من حلب ، ووظفهم فى قبض الأموال وضرب النقود ، فنزل سعر العملة من كثرة الغش الداخل فى العيار ، وضرر ذلك لا يخفى .

وفى زمنه كثر السارقون وقطاع الطريق ، لا سيما حول القاهرة ، فاضطر إلى بناء حائط من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض ، خوفاً من السارقين والأشرار أن يدخلوا البلد ، فإنهم كانوا لا يكترثون بشىء ، لا ليلاً ولا نهاراً .

وتولى بعده على مصر محمد باشا ، وكان مشهوراً بالظلم وسفك الدماء ، فكان لا يمشى فى البلد إلا ومعه الطوباش ؛ أى الوالى ، فيقتل بذنب وغير ذنب ، فمتى أشار إلى أحدٍ وقعت رأسه ، وكان له جواسيس تخبره عن أصحاب الثروة وأرباب الأموال ، فيحبسهم ويطلب منهم مبالغ يقرّرها عليهم ، وينوع لهم العذاب حتى يسلبهم أموالهم ، واستعمل المصادرة وضرب الجرائم .

وفى سنة ١٠٠٧ ، كان الوالى على مصر الوزير على باشا السلحدار ، وكان أيضاً غشوماً ظلوماً سفاكاً للدماء ، لم يعهد أنه خرج فى البلد مرة ورجع إلى بيته بدون سفك دم ؛ فإنه كان يقتل العشرة أو الأكثر ثم يدوس رممهم بفرسه ليعتاده . وكان يأمر بترك القتلى فى الطرق الأيام العديدة .

وفى زمن الوزير حسين باشا ، المتولى على مصر سنة ١٠٤٤ ، كثر الظلم ، وفشا الغدر حتى صار يضرب به المثل ، ولما حضر أحضر معه جملة من الدروز ، ثم سلطهم على نهب الأموال ، فكانوا يدورون فى البلد ، وينهبون الأموال جهاراً ، حتى أغلق الناس حوانيتهم ، وتعطلت الأسواق ، وقل الأمن فى جميع الرعية على المال والنفس .

وتفنن ذلك الباشا فى جوره ، واستحوذ على نقود التركات ، فكان أكثر من يقتله يستولى على ماله ، ووضع يده على إيراد الأوقاف ، ومرتبات الأرامل والفقراء .

ولنقتصر على ذلك لئلا يطول الكلام ، ونخرج عما نحن بصدده ، فمن أراد استيفاء أحوال تلك الأزمان ، فعليه بملخص تاريخها فى آخر هذا الكتاب ؛ ليعلم أن جميع الباشوات الذين تولوا / مصر كان مطمح نظرهم ، ومسرح فكرهم الحصول على المال ، بدون التفات إلى أحوال الخلق ، وقلّ من وجه منهم نظره لهذا الأمر . ٢٣

وأيضاً لو فرض أن لبعضهم رغبة وميلاً لفعل الخير ، لا يتيسر له ذلك لأمور منها :

أن القوانين فى تلك الأيام كانت موكولة إلى الديوان العالى ، لا استقلال للولاة بشيء منها ، فلم يكن لهم من الحكم إلا الاسم .

ومنها : أن البلد كانت بيد أمرائها ومشايخها ، فمن وافقهم أحبوه وأبقوه ، ومن خالفهم عزلوه ونفوه .

ومنها : أنه كان كل من يأتى إلى مصر من الولاة لا يستغنى عن بطانة من الآستانة ، وتكون له مستنداً يستند إليها فى أوقات شدته ، فكان مضطراً إلى مواساة بطانته ، فمن أين يتحصل على ذلك ــ بل على مؤنته ــ لو لم يتملق إلى كل من كان له فى البلد كلمة ؛ ولو اشتهر بالفجور أو كان أحد الظلمة .

ومنها : ما استقر فى أذهان ولاة ذلك الزمان ، وربما شاهدوه بالعيان . أن الوالى قد يولى فلا يصل إلى ديوانه ، إلا وقد لحقه الأمر بعزله ورجوعه إلى مكانه ، فلذلك كان من يلى مصر لا يستقر ، ولا يهدأ له سر ، حتى يدور مع الأيام حيث دارت ، ويوافق أعيان البلد فى كل ما به عليه أشارت ، ويداهن العدوّ والحبيب ، ويجامل البعيد والقريب ، ليطمئن على وظيفته ، ويحصل على ما يلزم لمؤنته .

وهناك ما هو أدهى من ذلك كله ؛ وهو علمه بأن روحه بيد البيكوات الذين كانوا

بمصر وقتئذ إذ كان من عوائدهم أنهم إذا غضبوا على والٍ أرسلوا له من يهدده ، فإن رجع إلى رأيهم ووافقهم على أغراضهم ، وإلا أرسلوا له الطوباش فيذهب إليه فى هيئة غير معتادة راكباً حماراً ، فإذا رآه العامة بهذه الحالة عرفوا ما هو بصدده ، واجتمعوا حوله وتبعوه إلى القلعة ، فيكون لهم هناك ضجيج وغوغاء ، فإذا أُدخل على الوالى قبّل الأرض بين يديه ، ثم سلمه الأمر ، وطوى طرفى البساط الذى هو جالس عليه ، فيقوم من فوره وينزل إما إلى منزله ، أو السجن أو القتل .

فكان كل من ولى مصر من هذا القبيل . ولا ينجو منهم من يد البيكوات ومشايخ البلد إلا القليل ، لأنه إن أرضى البيكوات أغضب الدولة ، وإن أرضى الدولة أغضب البيكوات ، وإن أرضاهما أغضب الأهالى .

ولا تسل عما يكون خلال ذلك مما يغضب المولى ـ جل جلاله ـ فأين ما كان فى ذاك الزمان مما نراه الآن ، فقد أمن الخلق ، واتسعت أسباب الرزق ـ خصوصاً أيام أفندينا إسماعيل ـ وفقه الله لكل أمر جليل جميل .

المدة السابعة

٢٠٢ سنة من ذاك الزمن نزلت مدينة الفسطاط عن درجتها ، وانحط قدر مدينة الإسكندرية انحطاطاً كلياً ، وانفردت مدينة القاهرة بما كان لهاتين المدينتين من المزايا العلمية والسياسية ، وصارت تتزين بالمبانى الفاخرة ، إلى أن حصل حرب الصليب فى منتصف القرن الحادى عشر ، الذى بعده اختلطت الأورباويون بالمشرقيين ، وظهر صلاح الدين سنة ١١٧١ .

فإنه فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، كانت أوروبا فى أرض الخمول ، ولا دخل للمعقول فى أحوالها ، وكانوا جميعاً فى انقياد تام للديانة ، تقتبس طباعها وأخلاقها وإدارة

احوالها من رجالها ، وكانت كلمة القسوس هى الكلمة النافذة ، لا يخالفها الملك ولا أحد من الرعية .

ولما اتسعت دائرة الإسلام وتتابع نصره وتمكن ببلاد المشرق ، انحصر النصارى ببلاد المغرب ، وكانت أهالى القسطنطينية ـ حينئذ ـ على وجل من قيام الساعة ، لا يتكلم فى مجالسهم إلا بقربها فمنهم من ينسبه إلى طوفان عام ، ومنهم من ينسبه إلى حريق عام .

وكانوا جميعاً قائلين بزوال هذا العالم ، موجهين أفكارهم نحو الديانة ، طالبين من الله الرحمة .

ثم قصدوا بيت المقدس ـ من كل ناحية ـ وفيهم رجل فرنساوى اسمه عندهم (بيراى الحجر) فتردد على بطرق بيت المقدس مراراً واتفق معه على أن يوصل مكاتيب يكتبها للبابا وملوك أوربا : أن يتعاهدوا على طرد المسلمين من القدس ، فتوجه إلى البابا وعرض عليه الكيفية فاستحسنها .

وفى سنة ١٠٥٥ حصل الاتفاق من كبار الديانة على محاربة المسلمين ، ولما أعْلنوا بالحرب صارت الناس تطلب الدخول فى المجاهدين تطوّعاً منهم ، وباع أغلب الناس ما يملكه ليصرفه فى سبيل الله .

مطلب حرب الصليب

ثم لما جاءوا وتصادموا مع المسلمين ، نجحوا أول مرة ونصروا على المسلمين ، واستولوا على بيت المقدس ، وانتصب (جودفروى) ـ أحد الرؤساء ـ على أرض القدس وذلك سنة ١٠٩٩ .

ثم طمع النصارى فى المسلمين ، ورغبوا فى الإستيلاء على باقى بلاد الإسلام ؛ لضعف الخلفاء وتساهلهم فى حفظ البلاد وذلك مدة العباسيين والفاطميين فقام (أمورى الأول) ـ

ملك القدس ـ وقصد الديار المصرية سنة ١١٦٨ بجيش عظيم ، واستولى على بلبيس ، وتوجه نحو القاهرة ، فصالحه الخليفة العاضد رغم أنفه ؛ لعجزه عن المدافعة ، وقرر على نفسه مليوناً من الدنانير ، ورغب الدخول فى المدينة للحصول على الدراهم ، فخاف أهل القاهرة خوفاً شديداً ، فاتفق أمراء الدولة مع الخليفة على أن يحرروا مكاتيب إلى الملك نجم الدين ، يطلبون منه النجدة ، فأرسل لهم صلاح الدين على جيش عظيم ، وكان صلاح الدين حاز شهرة عظيمة فى محاربة نورالدين مع النصارى ، لكن / بعد قدومه بالعسكر ، رأى العاضد أن إبعادهم عن مصر خير له ، فتمّم أمر المصالحة مع النصارى ، وصرف الجميع عن بلاده ، ثم اضطر ثانياً إلى طلب المعونة من نورالدين ؛ لأن (أمورى) وملك القسطنطينية كانا اتحدا معاً ، وأرسلا جيشاً عظيماً فى البحر إلى ثغر دمياط ، فأرسل له نورالدين ، يوسف صلاح الدين ، فلما حضر ثانياً جلا هم عن الديار المصرية بعد محاصرة دمياط شهرين ، فكافأه العاضد على ذلك ؛ بجعله أكبر وزرائه ورئيس جيوشه ، ولقبه بالملك الناصر . ٢٤

فلم يكتف بذلك صلاح الدين ، بل أخذ يبدى ما هو كامن فى ضميره ، وما أسرّ إليه سيده .

وأول شىء أظهره إبطال اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة ، وتعويضه باسم الخليفة العباسى الثالث والثلاثين من بنى العباس ، وإكرام من بقى من نسل العباسيين الذين بمصر ، فخصهم بجميع مزايا الأبهة والشرف ـ فى الأمور الدينية فقط ـ وبقيت لهم هذه المزايا فيما بعد ، ومن ذلك الحين صار لايسمع بذكر شيعة علىّ وجعلت الإمامة للشافعية .

وفى أثناء جميع تلك التغيرات ، كان العاضد مريضاً ثم مات ، فاغتنم صلاح الدين فرصة موته ، وجعل الملك باسم سيده ، ومحا ذكر الفاطميين من الديار المصرية ، واستولى على أموالهم وذخائرهم .

مطلب استقلال صلاح الدين بالحكومة المصرية

وبعد ذلك رأى فى نفسه القدرة على الإستقلال فاستقل بحكومة مصر ، وأسس بها العائلة الأيوبية ومات نور الدين سنة ١١٨٣ ، فطمع فى مملكته ، وأغار عليها ، واستحوذ عليها جميعها ، وجرد أولاد سيده نور الدين من ملك أبيهم .

ثم فى سنة ١١٨٨ توجه إلى بلاد القدس وحاصرها ، وتغلب عليها ، وطرد ملكها منها ، وسطا على ملك النصارى بالبلاد الشامية وبلاد فلسطين ، وجلاهم عنها ، وشاع ذكره ، واشتهر أمره ببلاد أوروبا والمشرق ، وخافه الخلق أجمعون ، لشهامته وحسن تدبيره ونظره فى الأمور .

وهو الذى لهج المؤرخون بمدحه ، من بين من جلس على تخت هذه الديار قبله وبعده ، ومع ذلك لما مات لم يوجد فى خزائنه إلا سبعة وأربعون درهماً ودينار واحد ، ولم يخلف ملكاً ولا عقاراً ، ولكن لا تخفى فعلته التى فعلها بسيديه الأول:نور الدين وأولاده ، والثانى:العاضد وأولاده ، لأنه لما توفى العاضد ، استحوذ على القصر بما فيه من نفائس الأموال ، واعتقل أقاربه من نساء ورجال ، ومنعهم عن نسائهم لئلا يتناسلوا ، ولكن أين صاحب فضل لم يغلب عليه الطمع ؟ ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟ .

ثم مات سنة ١١٩٣ ، فقسمت دولته بين ولديه العزيز والأفضل ، وعلت كلمة الأيوبية فى الديار المصرية .

ولكنها لم تبق على ذلك إلا زمناً يسيراً ، فالذى كان على تخت مصر من أولاده هو الملك العزيز ، وأما الملك الأفضل فكان على الديار الشامية ، والأول مات ولم يترك ذرية ، فصار الأفضل على الولايتين ، وجعل تخت ملكه القاهرة ، ولم تطل مدته بل طرده عمه الملك العادل وقام مقامه .

وهو الذى لجماله عشقته أخت (ريشار) وكان حصل الاتفاق بين صلاح الدين وأخيها على زواجها به ، لكن توقف المسلمون . ومن ذاك العهد صارت أولاده تتوارث ملكه إلى زمن الملك الصالح الملقب بنجم الدين . ثم حصلت وقعة سنلويز المشهورة ، وهاك بعض تفاصيلها .

مطلب وقعة سانت لويز[1] المشهورة

فى سنة ١٢٤٤ ، حصل لجيش النصارى ـ فى ضواحى غزة ـ هزيمة عظيمة ، وصل خبرها بلاد النصرانية ، فأمر البابا بانعقاد مجلس من أمراء الروحانيين ، وذلك سنة ١٢٤٥ ، فانحط الرأى على تجريدة سابقة على المسلمين .

وفى تلك المدة كان ملك قسطنطينية ، وملك ألمانيا ، وملك ايطاليا فى ارتباك تام ، فلم يمكنهم أن يرسلوا جيشاً ، فانفرد بهذا الأمر ملك فرنسا ، فجمع العساكر ووكل على المملكة والدته سنة ١٢٤٨ ، وسار بهم فى البحر ، وكان معه إخوته الثلاثة وجميع رؤساء دولته .

وفى شهر سبتمبر وصل جزيرة رودس ، فأقام هناك إلى فصل الصيف من السنة القابلة ، وهى سنة ١٢٤٩ ، ثم قام فوصل دمياط بعد خمسة عشر يوماً ، فاغتنم الصالح نجم الدين الفرصة ، وحصّن مدينة دمياط ، وجمع ما يلزم من السلاح ، والذخيرة ، والرجال ، وجعل على الساحل جيشاً من الخيالة رئيسهم فخر الدين ؛ لمنع النصارى من الخروج إلى البر ، وأغلق بوغاز النيل .

ومع هذا ، فقد هجمت النصارى وخرجت ، وانهزم فخر الدين بمن معه ، ودخل دمياط مرعوباً فاغتّم الأهالى والعسكر ففروا هاربين منها ، فدخلها الفرنسيس بدون ممانع ، واستحوذوا على ما فيها .

---

(١) فى الأصل : ستلويز .

ولولا غفلة الفرنسيس عن اتباع أثر المنهزمين لدخلت مصرفى قبضتهم ؛ لأنه لم يكن بها حينئذ جيش غير هذا الجيش ، ولكن قضى الله بذلك لأمرٍ يعلمه . وأقام الملك ينتظر حضور أخيه بمن معه من العساكر .

وأما نجم الدين أيوب ، فبعد أن أفاق من دهشته وتفكر فى الأمور ، أقام فى مدينة المنصورة ، وجعل الاستحكامات فيها بين المدينة والبحر الصغير ، وجمع من جميع جهات القطر ما تعظم به القوة ، وتتم به المدافعة .

وفى أثناء ذلك اشتدّ مرض السلطان ومات ، فأخفت زوجته شجرة الدر موته ؛ خوفاً من فتور همة الجيش عن الحرب ، وذلك باتفاقها مع رئيس الجيش عزالدين أيبك ، وعقد الكلام بينهما ، على أن ذلك الإخفاء يستمر إلى / حضور ولدها الملك ــ الملقب بطوران شاه ــ من ديار بكر .

٢٥

ثم حضر جيش النصارى من البر الشرقى إلى البحر الصغير ، ورغبوا مجاوزته والعبور عليه ، فمنعهم المسلمون من ذلك ، ثم دلهم بعض الناس على جهةٍ يخوضونه منها نظير مبلغ ألف فرنك جعلوها له ، فساروا إلى ذلك الموضع ، فعلم المسلمون بذلك فمانعوهم ، واقتتل الفريقان ولم يُجْدِ ذلك شيئاً ، بل جاز جيش النصارى البحر ، وساروا حتى دخلوا المنصورة ، فدخل أخو الملك داخلها مع جماعة من العسكر ، وانفرد عن الجيش فتفرق جمعه ، ولكن قيض لهم من جمع شملهم ، ولولا ذلك لأخذت مصر وقتها .

وفى هذه الواقعة ، نزل أهل المنصورة المقبرة الإسلامية ، وقاتلوا من دخل المدينة وأفنوهم عن آخرهم ، وفيهم أخو الملك ، وكان جيش النصارى متفرقاً بعضه فى البر البحرى ، وبعضه فى البر القبلى ، فكان المسلمون ينتهزون الفرصة ، ويحاربون هذا الفريق تارة والآخر تارة ، ومع ذلك لم يتم النصر لأحد الفريقين فى هذا اليوم . وكانت النصارى زحزحت المسلمين عن معسكرهم ، وفى اليوم الثانى حضر طوران شاه وتقلد بأعباء الملك ، فاصطدم الفريقان صدمةً هلك فيها كثير من الفريقين ، ولم يتم الفوز لأحدٍ من الفريقين على الآخر فى هذا اليوم أيضاً .

ثم إن طوران دبر تدبيراً ؛ وهو أن يمنع ما يرد إلى جيش النصارى فأرسل خلقاً إلى المراكب التى بها مأكلهم ، فلحق جيش النصارى من الكرب ما لا مزيد عليه ، وهجم عليهم الطاعون والأمراض ، فانهزموا فلحقهم المسلمون ، فجازوا البحر على قنطرةٍ من خشب كانوا صنعوها على البحر الصغير ، فالتقى الفريقان بفارسكور ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً ، انتصر المسلمون فيه على النصارى ، وأسروا ملكهم ومن معه من الرجال والعساكر ، وكر المسلمون راجعين إلى المنصورة ، فرحين بما أوتوا .

وهناك اشترطوا على ملك النصارى شروطاً ، منها : أنه يخرج من مصر ، وأن يسلم نظير فك أسره مائة ألف وزنة من الذهب ـ والوزنة خمسة ليورا باريزى ـ . وعلى هذا ذهب جيش النصارى من مصر ، وسلم دمياط .

ولما وصل ملك النصارى عكا ، أرسل ما فرض عليه .

وإنما خرجنا عن الموضوع ، وأطلنا فى تفصيل حوادث هذه الأوقات ؛ ليعرف القارىء ما ورد على الديار المصرية . ومع ذلك فالغارة الأولى التى كانت فى سنة ١٠٩٦ ، والثانية التى كانت فى سنة ١١٤٨ ، لم يحصل منهما إنتقال لمدينة إسكندرية عما كانت عليه .

ثم أنه يقال : إن الفرنساوية كانوا تحت إمرة (أمورى الأول) ملك بيت المقدس ، الذى أغار على الديار المصرية وحاصرها ، ولم يتمكن منها ؛ لمدافعة أهلها عنها وارتد خائباً ، كما صار له فى هجومه على القاهرة ودمياط . ثم أنه عقب تلك الغارات هجم صلاح الدين على بلاده فخربها .

المدة الثامنة

٧٩ سنة ، وهى دولة الأيوبيين والأكراد ، التى أعقبت الفاطميين ، وكان فى إمكان الفاطميين أن يبقوا الأسباب الموجبة لاضمحلال ملك العباسيين ، ويجعلوا العدل أساس

ملكهم ، ويسيروا على منهج الشرع لتتمكن حكومتهم فى الأرض وتبق ، وذلك إنما يكون بتأليف قلوب الأهالى .

ولكن لم يلتفتوا لذلك أصلاً ، بل تبعوا فى سيرهم الخلفاء ببغداد ، وأكثروا من الظلم والزهو ، واشتغلوا بالمحاورات الدينية ، واشتركوا مع العلماء فى المجادلات المذهبية ، وأكثروا من العدوان بقصد الحصول على رجال يدخلون فى مذهبهم .

وأضلهم الحاكم بأمر الله ، الذى ادعى الألوهية ، فأشعل النار بالقاهرة للتسلى ، فضاق الحال بالخلق ، وآل أمر الخلافة الفاطمية إلى ما آلت إليه من الإضمحلال ، وضعفت شوكتهم وطمع فى الخلافة المقربون منهم .

وفى زمن الخليفة العاضد ــ آخر سلسلتهم ــ توعده أحد رؤوس الجيش ــ وكان قد عزله ــ بأنه يخليه من الخلافة . فمن خوفه وعدم أمنه على حاشيته وأهله ــ لكثرة ظلمة استعان بالأجانب ، وطلب النجدة من نور الدين ملك حلب ، ولم يتفكر فى العاقبة ، فأرسل له جيشاً فخلصه مما رضى أن يدفعه للإفرنج بعد وقعته معهم فى الشام ، ونصره على القائمين عليه من رجاله ، وما علم أنه تخلص من عدوّ ضعيف ، ووقع فى مخالب من لا طاقة له به .

فبهذه الكيفية أنشب صلاح الدين ــ رئيس الجيش من طرف نور الدين ــ مخالبه بملك العرب ، فأزاله عنهم ، وانتقلت حكومتهم إلى طائفة من الأكراد والأتراك ــ عرفت بالطائفة الأيوبية ــ وأوّلهم صلاح الدين ، فإنه هو الذى أتى بجيوشه المركبة من الأكراد والأتراك ، وأزال الفاطميين من الديار المصرية ، وجلا الإفرنج عن الديار الشامية ، بعد أن كانوا مستولين عليها من زمن مديد .

وفى زمنه حصلت غارات منهم متعددة :

ففى الأولى ، وهى الرابعة بالنسبة لحرب الصليب ــ وكانت تكونت ببلاد الونديك سنة ١١٢٢ ــ أخذت مدينة قسطنطينية .

وتلاها غارة سانت لويز سنة ١٢٤٨ على الديار المصرية ، ولم تضر بالقطر إنما أضرت بإسكندرية ؛ لأن الفرنساوية والبندقين أضرموا فيها النار ، وتركوها حين علموا أنهم لا يمكنهم الإقامة بها ، وذلك سنة ١٢٥٠ .

وعلى نسق الفاطميين إتخذ الأيوبيون القاهرة تخت مملكة ، وزادوا فى زخارفها بما أحدثوه فيها من المبانى / العظيمة ، واتسعت دائرة العلم فيها بعناية صلاح الدين وخلفائه من حين إلى حين . ٢٦

وأما إسكندرية فإنها كانت آخذة فى الانحطاط .

مطلب واقعة التتار

وحيثما كانت مصر تتقلب فى شباك هذه التقلبات ، كانت جهة شمال آسيا عرضةً لأمر فظيع ، لم يسمع بمثله ، وهو أن (جانجيسخان) بعد أن آلت له الرياسة على جميع قبائل التتار ، كان يترقب فرصة الإغارة على البلاد المجاورة ونهبها . فلم يمض عليه زمن إلا وحصل ما يرومه ، وأغار على بلاد بَلْخ بدعواه أن ملكها تعدى على تجار تحت حمايته ، وسبى أهلها ودمر بلادها .

وكذلك أغار على الفرس ، وحصل من ذلك هولٌ عظيم لجميع سكان هذه البلاد .

وفى هذه الغارة الفظيعة ، حصل ما لم يُسمع بمثله ، وعم النهب والسبى والحرق والقتل جميع مدن هذه الممالك وقراها .

ولم يكتف بهاتين المملكتين بل تعدى إلى بلاد الروسيا وغيرها ، وأوجب الخراب لكافة بلاد هذه الجهات ، ونتج من ذلك دخول المماليك أرض مصر ، وزوال سلطنة الأيوبيين منها ؛ لأن التتار بعد أن فعلوا ما فعلوا ، ساقوا الأهالى على الأسواق المعلومة فى آسيا ، فملئت ، وصاروا يبيعونهم بأبخس الأثمان ، فاستحوذ سلطان مصر الملك العادل ـ بسبب

إغواء رجاله الأكراد ـ على مقدار عظيم منهم ليجعلهم جيوشاً له ـ سيا ـ وقد كان بين الأيوبيين وبين هذه الجهات علائق محبة .

وفى سنة ١٢٣٠ اشترى اثنى عشر ألفاً من الشبان ، فكانوا من الجركس والأباظة والجرج وغيرهم ، ورباهم وأحسن تعليمهم ، فصار جيشه بهم أحسن جيوش الإسلام ، وإنما سموا البحرية لأنهم أتوا مصر من طريق البحر .

ومن إعتنائه بهم وقربهم منه ، قويت شوكتهم ، وعلت كلمتهم ، حتى صار لهم الأمر والنهى فى المملكة ، وتصرفوا فى جميع أمور السلطنة ، وفى أحوال سيدهم ، ثم استولوا على الملك بقتلهم آخر سلاطين الأيوبية ، وأسسوا دولة عرفت بدولة المماليك وهى :

المدة التاسعة

وكان لرئيسهم[1] عزالدين أيبك ، شهرة عظيمة فى حربه مع الفرنج فى واقعة المنصورة ، وعلت كلمته عند شجرة الدر ورجال الحكومة .

وكان ذلك على غير مراد (طوران شاه) ، الذى تولى بعد موت أبيه ، فاجتهد فى إزالة هذه الشهرة عنه مع أصحابه الذين حضروا معه من ديار بكر . ولم ينجح فى ذلك لأنه كان مكباً على اللهو ، محباً للزهو . ولما طلب عمال أبيه من والدته ـ شجرة الدر ـ إلتجأت إلى (أيبك) المذكور ، فقام عليه وقتله ، وبعد ذلك بقليل استولى على الملك ، وأسس دولة بقيت زمناً مديداً ، تتصرف فى أحوال الديار المصرية ، على غير قانون معروف ، فكان كل فعلهم تبعاً لهوى النفس والشهوات .

ومن وقت ظهور هذه الطائفة بأرض مصر إلى زمن الغورى ـ أى سنة ١٢٦٧ ـ استولى ٤٧ ظالماً ، نتج من توالى أفعالهم : تضعضع حال ديار مصر ، وامْتُهِنَ العلم وهجرت

(١) رئيس المماليك البحرية .

مدارسه ، وهاجر منها السعد والعز الذى كان لا يفارقها ، وافتقر أهلها واضمحل حالهم ، وخربت البلاد ؛ من كثرة الفتن وتوالى الظلم والجور .

واستمر ذلك إلى دخول السلطان سليم هذه الديار سنة ١٥١٧ ، فتغيرت الحكومة ولم تتغير حالتها ، حتى دخل الفرنسيس .

وفى كل هذه المدة كانت البلاد الأورباوية آخذة فى التقدم ، واتسعت دائرة التجارة فيها ودائرة العلمُ ، بما ظهر من الإختراعات النافعة ـ لا سيما ـ بيت الإبرة ، فإنه كان سبباً قوياً أعانهم على السير فى البحار والتوصل للأقطار البعيدة ، بخلاف جهة المشرق فإنها دفنت نفسها فى أرض الخمول ، ونامت فى مهاد الجهل ، فكرَّ عليها الفقر بجيوشه .

وفى سنة ١٥٠٤ تفكرَّ الغورى ؛ الذى ولاه المماليك على حكومة مصر ، فيما يقطع به حبال عنادهم ويكسر به شوكتهم ، التى تسبب عنها إستمرار الفتن من إبتداء سنة ١٢٥٠ ، فأرسل منهم جيشاً إلى الهند قصد به طرد البرتغاليين عنها ، ورجوع التجارة إلى طريق مصر ، لأنها كانت أخذت تسلك طريق عشم الخير .

ولكن لم ينجح هذا القصد ، بل انكسرت عساكره البحرية ،

ومع هذا فكانت شهرته سارية فى جميع جهات المشرق ، وكان فى القدر مثل إسماعيل ـ شاه العجم ـ ، والسلطان سليم ـ سلطان آل عثمان ـ ، وهذا السلطان كان يحب أن تمتد غصون شجرته ، فاغتنم فرصة فرار ولد أخيه وإحتمائه بشاه العجم . فأعلن له بالحرب ، وسار له بجيش جرّار ، ولما وصل إلى حلب أغراه حاكمها (خيرى بيك) على محاربة المصريين ، فقبل منه ذلك .

وفى سنة ١٥١٦ كانت واقعة حلب ، التى مات فيها الغورى . وانهزمت العساكر المصرية ، فكر بعدها السلطان سليم بجيوشه على مصر القاهرة سنة ١٥١٧ ودخلها ، وأخذ

(طومان باى) ـ الذى ولته العسكر بعد الغورى على مصر ـ وَصلَبهُ على أحد أبواب القاهرة . وبه انتهت دولة المماليك .

المدة العاشرة

٢٩٩ سنة ، جاء بعد المماليك على مصر دولة العثمانيين ، ولم تخالف دولة المماليك ، ومن مبدأ ظهورها ـ فى صحارى الجهة العليا من آسيا ـ وهى تشن الغارات ، وتشعل نار الحرب .

٢٧

وأول شيء أغارت على ما بقى لدولة الرومانيين الشرقية فى سواحل البحر / الأبيض ، واستولت عليه فى أواخر القرن الثانى عشر . ثم دخلت أرض أوربا فى القرن الرابع عشر ، وأشعلت نيران الحروب فى نواحيها .

وفى القرن الخامس عشر استولى السلطان محمد على القسطنطينية ، وأزال ملك الرومانيين بالكلية من جهات المشرق . ثم بعد ذلك بقليل صارت مصر داخلة فى حكومة آل عثمان . وأما أهل البلاد الأوروباوية ، فأخذوا فى طريق المدافعة عن أنفسهم وبلادهم ، ووقفوا عند حدود لا يتجاوزونها ، فنجحوا بسبب ذلك .

ومن إجتهادهم وغيرتهم على أوطانهم ، نمت قوتهم العسكرية والسياسية ، حتى فاقوا على عدوهم وأدخلوا فى ملكهم ماكان للأوروباويين من بلاد أوروبا .

وفى خلال تلك الفتن والحروب ، عمَّ الخراب مدينة الإسكندرية ، ولم يبق شيئاً منها ، وصارت فى مدة البيكوات لا إعتبار بها بين المدن إلى زمن الفرنسيس . والذى أتم خرابها ، وأزال سعدها إتخاذ الأوروباويين طريق العشم للتجارة ، وتركهم طريقها ، فوقعت بذلك فى أسوأ حال ، وتجردت عن كل مزية .

مطلب تاريخ الحوادث من إستيلاء الدولة العثمانية

وحيث انجرّ بنا الكلام إلى ذكر تلك الحوادث ، فلا بأس أن نذكر ملخص تاريخ

الحوادث التى تقلبت فيها الديار المصرية ، من إستيلاء الدولة العثمانية عليها ؛ ليقف القارىء على أسباب إضمحلال الديار المصرية ، وسقوط هذه المدينة عن الدرجة التى كانت إكتسبتها فى الأزمان السالفة .

ونبدأ بالأهم منه فنقول : إن السلطان سليم لما أخذ مصر ، ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم ، رأى أن بُعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة وتطلبه الإستقلال ، فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام ، وجعل على كل قسم رئيساً ، وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة هى كلمته .

ورتب الديوان الكبير ، وجعله مركباً من الباشا ــ الوالى من قبله ــ ومن بيكين : السبع وجاقات ، وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان إلى المجلس ، وحفظ البلاد ، وتوصيل الخراج إلى القسطنطينية ، ومنع كل من الأعضاء عن العلو على صاحبه ، وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا بأسباب تبدو لهم ، وعزله إن رأوا ذلك ، والتصديق على جميع الأوامر التى تصدر منه فى الأمور الداخلية .

وجعل حكام المديريات الأربع والعشرين من المماليك ، وخصهم بمزية جمع الخراج من البلاد ، وقمع العربان وصدهم عنها ، والمحافظة على ما فى داخلها ، وكل ذلك بأوامر تصدر لهم من المجلس ، وجردهم عن التصرف من أنفسهم ، ولقب أحدهم المقيم بمصر : شيخ البلد .

ثم رتب الخراج ، وقسمه أقساماً ثلاثة :

وجعل من القسم الأول : ماهية عشرين ألف عسكرى بالقطر من المشاة ، واثنى عشر ألفاً من الخيالة .

والقسم الثانى : يرسل إلى المدينة المنوّرة ومكة المشرفة .

والقسم الثالث : يرسل إلى خزانة الباب العالى . ولم يلتفت إلى راحة الأهالى ، بل تركها عرضة للمضار كما كانت .

ومن هذا الترتيب تمكنت الدولة العلية ، من إبقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتى سنة ، ثم أهملت بعد ذلك القوانين التى وضعها السلطان سليم ـ من حين إستيلائه عليها ـ وكانت هى الأساس .

ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك من الأمور المخلة بالنظام ، فضعفت شوكة الدولة وهيبتها ، التى كانت لها على مصر ، وأخذت البيكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها ، حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية ، وآل الأمر والنهى لهم فى الحكومة ، وصارت حكومة الدولة صورية غير حقيقية ؛ وسبب ذلك إكثارهم من شراء المماليك .

ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق ، لكانت الأمور باقية على ما وضعها السلطان سليم ، ولكن غفلت عن هذا الأمر كما غفلت عن أمور كثيرة ، ومن ذلك لحق الأهالى الذل والإهانة ، وهاجر كثير منهم إلى الديار الشامية والحجازية وغيرهما

وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة الزرّاعين ، وعدم الإعتناء بتطهير الجداول والخلجان الذى عليه مدار الخصب ، ونتج من ذلك ، ومن خوف الدولة العلية من تمكن الباشا فى الحكومة ، أن تغلبت البيكوات ، وصارت كلمتهم هى النافذة ، وانفردوا بالتصرف ، ومن قرب الطائفة العسكرية منهم بالزواج ، دخلوا ضمن عيالهم وأهلهم ، وصاروا من حزبهم ، فكان مقرّر الوجاقات ـ من العلوفات والمرتبات ـ منحصراً فى صندوق واحد ، لا يصرف لأحد من البيكوات بإرادته ، بل كان التصرف للديوان .

وظاهر أن ذلك كان على غير رغبة الرؤساء ، فاجتهدوا فى تغيير هذا النظام ونالوا مرغوبهم ، وصارت لهم الأرض ، وتملكوا بلاداً من بلاد الأرياف .

ومن مساعدة حكام المديريات لهم داخلهم حب المال ، فتحولوا عن واجب وظيفتهم الأولى ، وأمكن البيكوات أن يضموهم إلى أحزابهم ، ويستعينوا بهم على نفوذ أغراضهم ، بعد ما كانوا معدين لردعهم وقهرهم على طاعة السلطان .

ومن ذاك الحين قويت شوكة البيكوات ، وضعفت شوكة الباشا ، واستقلوا بالكلمة ، وأكثروا من /جمع المال ونوّعوا المظالم ، وصار كل منهم يجعل لنفسه جيشاً من المماليك ، ويوسع فى دائرة سطوته بالإستحواذ على الوظائف لمعاتيقه فصارت الحكومة المصرية عبارة عن حكومات متعدّدة بعدد البيكوات ، وقوة كل بالنسبة لقوة حزبه والرؤوس المتفرعة عن رأيه ، وصارت كلمة الباشا منبوذة لا يُعَوَّل عليها ، واستقل الديوان بحكومة الديار المصرية ، وتصرف فيها بالطريق التى يستحسنها . ٢٨

وفى سنة ١٧٤٦ ، وصل إبراهيم كيخيا ، أحد أعضاء المجلس للإستحواذ عليها بكثرة رجاله وجيشه ، لأنه كان من مماليكه ثمانية حكام بالمديريات من ضمن الأربعة والعشرين بيكا

وحيث أن الباشا كان يتحصل من بيع الوظائف على مبالغ جسيمة ، كان ذلك داعياً لإبراهيم باشا إلى الإستيلاء على كل وظيفة خلت ، بأى سبب من الأسباب ، فعلت كلمته على أقرانه ، سيما بإنضمامه إلى رضوان كيخيا صاحب الكلمة .

ومن ذاك الحين سقط إعتبار الباشا المعين من قبل الدولة ، وصارت أوامر الدولة غير مسموعة ، وبقى له التصرف حتى مات سنة ١٧٥٧ . ثم انتقلت الكلمة لعتقائه ، ثم بعد طرد رضوان كيخيا وقتله بعصبة المماليك ، صارت الرياسة لمن غلب وحصلت فتن أدّت إلى حروب داخل القاهرة وخارجها ، فلحق الخلق من ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر والكرب ، وبلغت الشدّة منتهاها ، وعم الخراب المدن والقرى .

مطلب تمكين على بك أباظة

واستمر ذلك إلى زمن على بيك الذى أصله من الأباظية ، وكان قد أهداه الجركسى إلى إبراهيم كيخيا ، فحظى عنده لما كان يرى فيه من البسالة ، فأعتقه وزوجه ورقاه إلى رتبة الكشوفية ، ثم جعله من ضمن البيكوات حكام المديريات ، فكان جميع ذلك باعثاً له على الطمع وتمنى الرياسة ، فأخذ فى الأسباب ، وصار يكثر من البر للأصحاب وغيرهم ، فألفوه حتى صار له حزب عظيم ــ بعد موت سيده ــ مركب من مماليكه ومماليك غيره ، فاستعمله فى إيقاد نار الفتن مدة رضوان كيخيا ــ الذى أعقب سيده ــ ومدة عبد الرحمن كيخيا ، المتولى بعد رضوان كيخيا .

وبمكره واستمالته القلوب توصل إلى نفى عبد الرحمن كيخيا ، ومنعه من دخول مصر ، وكان توجه أميراً على الحاج ، ولكن لم يتمتع بثمرة هذا المكر زمناً طويلاً ، بل رجع عبد الرحمن كيخيا ونفاه إلى غزة .

وفى أثناء الطريق تحيَّل ورجع إلى الصعيد ، وهناك اجتمع بأصحابه الذين وصلوا له من القاهرة ، وصار يدبر أمراً يمكنه من الملك ، ولم يكن غافلاً عن ذلك فى مدة السنتين اللتين أقامهما بجدة ، وكان يبذل الأموال فى القاهرة لاستمالة القلوب ، فكثر حزبه وقوى ، ودخل القاهرة على حين غفلة ، وقتل فى ليلة واحدة أربعة من البيكوات ، ونفى أربعة وتمكن من أمر الرياسة .

ولم يكتف بذلك ، بل رغب فى الإستبداد ورفض حكومة الدولة العلية سنة ١٧٦٨ ، وضرب المعاملة باسمه ،وشاع أمر خروجه عن الطاعة . ولم تقدر الدولة العلية ــ حينئذ ــ على رده إلى إمتثاله لها ، لاشتغالها بحرب الموسكو ، التى كانت نيرانها مشتعلة وذلك سنة ١٧٦٩ .

والظاهر أن الداعى ــ لعلى بيك المذكور ــ على رفض الطاعة للدولة ، ما بلغه من عصيان عرب الشام ، وكان كبيرهم ــ إذ ذاك ــ رجل يقال له : ضاهر ، فاتحد معه البيك

المذكور ووافقه على ذلك ، وصار يجمع الرجال ، ويغدق عليهم المال حتى اجتمع حوله نحو ستين ألف مقاتل .

وأرسل محمد بيك أبا الذهب ، فاستولى على مكة والبلاد الشامية ، وكان ما صرفه على تجريد مكة ـ خاصة ـ ستة وعشرين مليوناً من الفرنكات ، وهى تعدل خمسمائة وعشرين ألف كيس من الدراهم ، فما بالك بما صرف على غيرها فاشتد الكرب وقحط الناس سنتين أولاهما : سنة ١٧٧٠ ، ولم يعد عليه من ذلك أدنى فائدة ، بل كان منبع المصائب التى غرق فى بحرها ؛ فإن أبا الذهب لما التقى بجيش الدولة فى حلب وغلبهم ، اجتمع برئيسهم عثمان باشا فوعده ومنّاه بإمرة مصر ، وأراه أن الإلحاق بالسلطنة أقرب لمقصوده من الإلحاق بأحد أتباعها ، وذكر له أموراً حوّلته عن صداقته لسيده وأصل غرس نعمته ، فقام وعزم على الرجوع إلى مصر ، فلحقه شيخ العرب ضاهر ، ولامه على ما حصل منه ، فلم يصغ لقوله وكر راجعاً ، وكان قد بلغ سيده ما حصل فصمم على الإنتقام منه ، فلم يتيسر له ذلك بما رآه من كثرة جيشه ، فكتم الأمر إلى أن تلوح له فرصة ، فلم ير طريقاً غير الغدر ـ وإن كان وقع فيه فيما بعد ـ لأنه لما أصدر أمره بغلق أبواب القاهرة ، وقتل كل من يخرج من المماليك ، خرج محمد بيك فلم يتعرض له أحد ؛ ظناً منهم أنه خارج لمأمورية من طرف على بيك ، فتخلص وذهب إلى الصعيد ، ونزل على أيوب بيك ، فأكرم نزله .

ولم يدر أن هذا الإكرام ربما يكون خداعاً ، فإن أيوب بيك من رجال على بيك ، وبقى عنده ، وكان أيوب يخاطب على بيك ، فوقعت مكاتبته فى يد محمد بيك ، فأخذه وقطع لسانه ويده وأرسله إلى القاهرة .

ثم جمع المتشتت من المماليك والهوّارة ـ رجال همّام الذى قتل بسبب قيامه مدة على بيك ـ وقصد بهم مصر ، فقابله على بيك بجيش من المماليك .

٢٩ ولخوفه وعدم إعتماده على / صداقة إسماعيل بيك ـ أمير جيشه ـ خرج بعياله من

القاهرة ، ولما بلغه إتحاد إسماعيل بيك بمحمد بيك ،فرّ بماله وعياله ومن بقى معه من المماليك إلى الشام ، واجتمع بالشيخ ضاهر ، وكتب إلى الدولة الموسكية أن تمده ، فوعدته بذلك . ولكن لم يصبر إلى أن يأتيه المدد ، بل رجع إلى مصر معتمداً على ما كتب له به رزق كيخيا ـ أمينه ـ من أن المنجمين حكموا بأنك لو عدت لمصر تمكنت من حكومتها ، وكان ذلك بإغواء محمد بيك وتدبيره ، فرجع ، وحين وصل الصالحية قام عليه ألف خيّال ـ كانوا كامنين له بمركب من طرف محمد بيك ـ فشتتوا شمل رجاله ، وقتل مراد بيك على بيك ، رغبة فى أن يأخذ إمرأته ـ فإنها كانت من أجمل النساء ـ وكان طلبها من محمد بيك فوعده بها إن قتل زوجها .

ولما قتل انقطع ذكره ، ولم تنقطع سلسلة الفتن ، بل أخذت فى الزيادة ، بتوالى الفجار من المماليك الذين أتوا بعده .

وأول من فتح أبوابها أبو الذهب ، لأنه من ابتداء قيامه بأحوال مصر سنة ١٧٧٣ ، أخذ فى أسباب إتساع دائرة الخراب ، حيث التزم بدفع الخراج المعطل مدة ست سنوات ليبين للدولة صداقته .

ثم إنه استأذن الدولة فى محاربة الشيخ ضاهر لينتقم لها منه على قيامه عليها ، فأذنت له ، فاستمرت سلسلة المصائب التى زرعها على بيك بديار مصر ، ولحق ذلك بلاد الشام أيضاً ، فإنه لما دخل يافا بعد حصارها ، أمر بنهبها وقتل أهلها عقاباً لهم على المدافعة عن وطنهم . وقتل فى هذه الوقعة أغلب أهل المدينة ، والذى نجا من القتل فرّ هارباً ، وتفرقت الناس بالطرق ، ومات أكثرهم جوعاً وعطشاً .

وفى هذه الوقعة تبينت شدة قسوته ، كما تبينت منه الخيانة ـ قبل ـ فإنه على ما يقال ، لم يكتف بما فعل بأهل المدينة من شنيع الأمور ، بل جمع رؤوس القتلى ، وجعل منها هرماً ، ثم سار خلف الضاهر ، وحاصر عكا وأخذها ، ونهب وسلب .

ولولا أخذ الموت له بغتة ، لألحق أهل هذه المدينة بأهل يافا . وبموته كفوا عن القتال .
ورجع فى الحال مراد بيك بالعساكر إلى مصر ، وكان يروم الإستقلال بحكومتها مكان سيده .
وإبراهيم بيك يرغب فى ذلك أيضاً ـ وفى مدة الحرب كان وكيلاً عن سيده ـ فاستعمل
ما تزيد به قوته ، فكانت الناس تخاف إتساع دائرة الفتن بينهما ، وحصول الحرب الموجب
إتساع دائرة الهموم بالقطر المصرى ، فحصل إضطراب عام فى القاهرة وسائر البلاد ، وكانت
الناس لا تتكلم ـ سراً ولا جهراً ـ إلا فى هذا الأمر ، وأخذوا فى طرق التحفظ على أموالهم
وعيالهم . ولكن لم يحصل شئ ممَّا تظنهُ الناس ؛ لتساوى قوتى إبراهيم بيك ومراد بيك .

مطلب إتفاق إبراهيم بيك ومراد بيك

فاتفقا على المشاركة فى الأمر بالتساوى ، مع إبقاء وظيفة مشيخة البلد لإبراهيم بيك ،
واشترطا شروطاً ، فكانت مصر كسفينة فيها رئيسان مختلفان فى الرأى : إن طلب أحدهما
الشرق يطلب الآخر الغرب ، فهى تسير تبعاً لريح الشهوات ، وما تقطعه بالأمس ترجعه
بالغد ، لأن كلاً منهما كان يرغب فى الإنفراد ، ويرى أن ذلك لا يتم إلا بموت الخصم ـ
طبيعة أو رغماً ، أو تخليته ، رغبة أو كرهاً ، الأول يستلزم الصبر أو القوة ، والتخلى رغبة
لا يتصوّر ؛ لعدم رضا النفس بذلك إلا بأحد أمور منها : أن الخصم يتخلى من نفسه ،
ويرضى بالتجرد من علائق الإمرة والعظمة والسلطنة ، ويكون تحتَّ الطاعة بعد أن كان آمراً
ناهياً ، متمتعاً بنفوذ الكلمة والجاه .

وحيث أن قوة الحرب تستدعى الإكثار من الرجال ، وهذا يستدعى كثرة المال ،
وبالطرق المعتادة كميته منحصرة فى حدود ، فلا يبقى إلا الطريق المعتاد التى أسسها الظلم
والغدر والعدوان .

فكانت هذه الفكرة ــ الأخيرة ــ فكرة كليهما ، وصار كل منهما يجمع المال بأى طريق سوّلتها له نفسه ، من الأهالى . برجاله ونفسه ، ويؤلف قلوب من يحب الفتن ، من باقى العائلات القاطنة بمصر ومدن القطر ، وبذلك وقعت الأهالى فى عميق بحور شهواتها .

ومن كثرة الفتن ، صارت أرض القطر جميعها ميداناً لحروب متتالية ، نشأ عنها ترك الأهالى أسباب الحصول على القوت ، وغرس أسباب الأمراض والعاهات بين الأهالى ، وكثر الموت من شدة القحط والوباء ، وهرع إلى القطر المصرى جميع أهوال الأقطار الأُخَر .

وفى أثناء هذه الفتن ، قامت فئة من مماليك على بيك ، ورأست عليها إسماعيل بيك ــ الذى مر ذكره ــ ورغبت فى رجوع الرياسة إلى بيت سيدها ، وبذلت جهدها فى ذلك ، وصرفت المال وحرضت الرجال ، فاجتمعت قوتها ولم يقدر إبراهيم ومراد على مقاومتها .

وبعد مناوشات ــ فى حارات القاهرة ــ بين الفريقين التجئوا إلى القلعة ، وبعد ذلك توجها نحو الصعيد ، وبعد أن جمعا ما تفرق من رجالها ومماليكها وصار جيشاً جراراً ، حضرا مصر وتحاربا مع إسماعيل بيك ، فغلبوه وفر إلى الشام ، ثم جاء مصر من جهة وزنة ، الواقعة فى الجهة الغربية من إسكندرية ، ومن هناك توجه إلى الوجه القبلى ، واجتمع بحسن بيك ، الذى كان نفى إلى جدة قبله وجاء إلى الصعيد ، وأقام هناك مدة ثوران الفتن ، وانضم لهما كثير من المماليك المطرودة ، وغيرهم من الهوارة والأشرار من كل طائفة ، فحدث من ذلك جيش سوء ، انتشرت رجاله بالقطر القبلى ، والفيوم ، والأقاليم الوسطى ، / وضربوا الجرائم على الأهالى ، ووضعوا أيديهم فى أرزاقهم ، وعم النهب للمقيم والمسافر ، فانقطع الأمان وصار لا يدخل القاهرة شىء من الغلال ، فشق ذلك على البيكوات أصحاب الإلتزام لحرمانهم من محصول إلتزامهم ، فألحوا على إبراهيم بيك ومراد بيك فى رفع أسباب هذه الأحوال ، فأمرا بتشكيل جيش من ثلاثة آلاف خيّال ، وضربا على التجار خمسمائة ألف ريال نظير مصرف العساكر ، فضج أهل القاهرة من ذلك ، ومن تسخير المراكب وأهلها لحمل الحملة

٣٠

انقطع ورود الميرة عن البلد بالكلية ، فصار لا يرد إليها شيء ، وغلت أسعار الحبوب ، وقهرت التجار على البيع ، وباعت المأكولات بثمن بخس .

فمن كل ذلك جرت أمور شنيعة ، ولم تنقطع إلا بفرار حسن بيك إلى اسوان سنة ١٧٨٣ ، بعد تشتيت شمل حزبه ، ورجوع مراد بيك بالعسكر إلى القاهرة .

لكنها لم تدم ، لأن بعض البيكوات المتروكين القاطنين بمصر ، اغتنم الفرصة فى أثناء هذه الحادثة ، وحزب حزباً رغب به الإستحواذ على الرياسة ، واشتعلت نيران الفتن فى القاهرة ، فكان سفك الدماء فى كل ناحية ، وآل أمرهم ـ كغيرهم ـ إلى الإلتجاء لجهة قبلى ، بعد رجوع مراد بيك لأن هذه الجهة كانت مطمح نظر العصاة ، وميدان المقاتلات . وبإنضمامهم إلى هذين البيكين حسن وإسماعيل صارت عصبة قوية .

وكان مركز الأفعال السيئة المنية فأخذت هذه العصبة فى قطع الميرة عن القاهرة ، ومنعوا المراكب ونهبوا وسلبوا ، فصالحهم إبراهيم بيك ، وأعطاهم أراضى وآمنهم ، فدخلوا القاهرة . فلم يوافق هذا التدبير رأى مراد بيك ، صاحبه ، بل ظن أن ذلك تقوية لحزبه ، وخاف منه الخيانة ، فقام برجال وتوجه نحو الوجه القبلى ، وجرد جيشاً لحرب صاحبه ، وحضر به فى الجيزة أمام جيش إبراهيم بيك ، الذى كان بالبر الآخر ، وأقاما بدون حرب أربعة أشهر ، وهما فى مكالمات .

فهذه المدة حصل فيها للناس ضرر عظيم ، فإن العسكر المقيمين بالبر الغربى أضروا البلاد التى على النيل والقريبة منه ، والذين بالشرق أضروا بمن فى الشاطىء الشرقى ـ ومن ضمن ذلك القاهرة ـ ، وانقطع السير فى البر والبحر من التسخير والسلب ، وبطلت التجارة ، وكثر الموت فى الناس . ولم تطفأ هذه الفتن إلا وتزداد . ولم يتم الصلح وقام مراد بيك بجيشه إلى المنية ليجمع من الأهالى الرجال والمال .

فكانت ولاية مصر بين هذين الظالمين الغشومين ، أحدهما يظلم فى الوجه البحرى والآخر فى الوجه القبلى . فبهذه الحالة كان الإنسان أينما توجه وجد المظالم والأهوال ، إلى أن حصل بينهم الصلح ، وأخذت البيكوات الخمس ـ بعد فرارهم ـ وخُرج عليهم بالقاهرة بعد مصادرتهم فى مالهم .

ومن النظر فيما تقدم من أخبار المدد السابقة ، والتقلبات التى مرت على تلك الديار ، علم أن مدينة إسكندرية ـ وغيرها من بلاد القطر ـ بعد أن كانت متوّجة بتاج المهابة والإجلال ، رافلة فى حلل السعادة والإقبال ، وكان وادى النيل مزيناً من كل جانب بالمدن الفخيمة ، ذات المعابد والهياكل المشيدة العظيمة ، تلوح على صغير أهلها وكبيرهم لوائح الثروة والابتهاج ، نالها من شدائد الأزمان ما أخرها عن هذه التقدّمات ، كلٌ على حسب حاله ، وتبدلت سرّاؤهم بالضراء ، واختلفت عليهم الأهوال والأهواء ، إلى أن منَّ الله عليها بالعائلة المحمدية العلوية ، التى نزعت عنها ثياب الأحداد ، وألبستها حلل الثروة والإسعاد .

مطلب الكلام على مدينة إسكندرية

ولنصف لك ـ الآن ـ المدينة وبعض ما بقى من آثارها ، تابعين فى ذلك طريق (أمبير) الفرنساوى الذى ساح فى الديار المصرية ، زمن العزيز المرحوم محمد على باشا سنة ١٨٣٠ ، فنقول :

مدينة إسكندرية بناها إسكندر الأكبر ، ولم تطل مدته حتى يتمم بناءها الذى تصوره فى اليقظة أو فى الرؤيا ، كما قال بعضهم . إن (أميروس) الشاعر ألهمه صورتها فى نومه ، وهو حضر تخطيطها لا غير. والمتمم لبنائها وتحليتها بفاخر البناء ، (بطليموس سوتير) فالإسكندر له الفكرة الأصلية ، وإلى بطليموس ينسب تجسيمها .

وزعم أكثر الناس أن بطليموس أخوه ، وقد بنى بها معابد ، ونقل إليها ما تمّم به

رونقها ، وأحاطها بالأسوار ، وحصنها بأمنع الحصون وحدودها من الشمال إلى الجنوب ، منحصرة بين البحر وبحيرة مريوط .

ويستفاد من كلام (استرابون) أن هذا الجزء من الأرض كان أقل مما هو عليه الآن ، فإن الإنتقالات التى حصلت لهذه المدينة ـ من الثروة والعز ـ تسبب عنها ردم بعض مواضع ، كانت مغطاة بالماء والبناء فوقها .

وكان طول المدينة من الشرق إلى الغرب ، قريباً من خمسة آلاف وستمائة متر ، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ثلث الطول تقريباً .

ومن حيث أن موقعها بين البحر وبحيرة مريوط ، كان شكلها ذا أربعة أضلاع غير منتظم ، ولذلك شبهه الأقدمون بشكل البرنس المقدونى ، جرياً على العادة القديمة من تشبيه صورة الإقليم أو المدينة بشىء يناسبها .

وكان على يمينها وشمالها حفرتان فى البحر : إحداهما بجانبها الغربى ، وثانيتهما بجانبها الشرقى ، وبينهما لسان من الأرض طوله سبع غلوات ، يوصل إليها بجزيرة صغيرة ، كان الأقدمون يسمونها جزيرة خاروس / والآن هى رأس التين ، وهذا اللسان كان قنطرة للعبور ، وفيه عيون لتوصيل الماء من الأرض إلى الجزيرة ، وكان فيه فتحتان : إحداهما بجانب الجزيرة ، والأخرى بجانب الأرض ، وكانتا مستعملتين لمرور المراكب من مينا إلى أخرى . والمينا الغربية كانت متصلة بالبحيرة ، وهذه متصلة بالنيل بخليج . ٣١

وبهذه الكيفية الحسنة ، سهلت الملاحة فى تلك المدينة وسائر بلاد القطر ، فكانت مينتها مملوءة بالمراكب جميع أوقات السنة ، حتى قال (استرابون) إنه لم يكن مثلها فى جميع مين الدنيا .

وداخل المدينة كان فى غاية الإنتظام ، من حيث التخطيط ، كما هو عادة المدن التى تتأسس على رغبة ملك أو أمة من الأمم ، بخلاف المدن التى أوجب اتساعها حوادث الأيام .

فى الوسط كان يشقها شارع مستقيم ، يمتد من باب من أبوابها إلى باب آخر ، وفى وسط ذلك الشارع شارع آخر عمودى عليه ، وأطول الاثنين كان فرسخا ونصفا ، وعرضه مائة قدم . وباقى الحارات كان بعضه موازياً لأحد الاثنين ، والبعض موازياً للآخر ، فكان رسم المدينة أشبه شىء بالضامة أو الشطرنج ، فأين هذا الشكل من شكلها التى اكتسبته فيما بعد ؟ فتأمل كيف تغيرت هذه الإستقامة التى كانت فى الشوارع والحارات ، وبدلت بغيرها معوجة فى كل ناحية ، على حسب سير الزمان وتقلباته ، من طورٍ إلى طور ، ومن حالٍ إلى حال .

ويقال إن حاراتها إستقامت حين كان الزمان مقبلاً عليها ، واعوَّجت حين أدبر عنها ، فنحمد الله تعالى ونشكره ، حيث ردّ لها إستقامة حالها ، لأنها الآن متحلية بشوارع مستقيمة ، وعمارات بهجة ، وكل عام تزيد عمارتها وبهجتها من جلوس العزيز محمد على باشا ـ عليه سحائب الرحمة والرضوان ـ .

وما تم حسن منظرها وعلوّ شأنها ، من أوّلها إلى آخرها ، إلا زمن الخديوى إسماعيل باشا ، فإنه لم يكتف بجعل استقامة الطرق دليلاً على استقامة أحكامه ، بل أدخل ذلك فى خليجها ومينتها .

وموقع هذه المدينة فيه فائدة عظيمة : هى مرور ريح الشمال فيها ، زيادة على تلطيف حرارة الجوّ فى فصل الصيف .

وفى القرن الرابع من الميلاد ، كانت من أحسن المدن وأبهجها ، وقد وصفها (أشيل تايتوس) فى رحلته بقوله : قد دخلنا مدينة الإسكندرية بعد سيرنا فى البحر ثلاثة أيام ، فمن حين دخولى من باب الشمس ، تعجبت كل العجب من حسن منظرها ، وكنت أرى وأنا سائر فى شوارعها ـ عن يمينى وشمالى ـ عمداً قائمة ، فوقها قناطر على حافتى الشارع الموصل باب الشمس لباب القمر ، لأن هذين النيرين هما مقدسا هذه المدينة . وفى وسط الشارع متسع ، يوصل لجهات متفرّقة ما بين شوارع وحارات كثيرة ، وكانت الناس تغدو وتروح فى الشارع الكبير والحارات ، أشبه بقوم مهاجرين . وبعد قليل وصلت إلى الباب المسمى : باب

إسكندر ، فنظرت مدينة أعظم من الأولى ـ شكلاً وصورة ونظاماً ـ ، فكنت أرى صفوف الأعمدة والبواكى بالميل ، فطربت من هذا المنظر مثل الطرب الأول . وكنت كلما وجهت نظرى نحو جهة من الجهات ، أرى عجباً يزيدنى طرباً ، وكلما نقلت قدماً زدت فرحا .

وليست همة الحكام والملوك ـ فى تلك الأزمان قاصرة ـ على الحسن فقط ، بل كانت تنظر إلى النافع والمفيد مع الحسن ، ولذا كان ماء النيل يصل المدينة من خليجٍ ، ويوزع داخلها فى مجارٍ متفرّقة فى جميع جهاتها .

وأحسن أخطاط المدينة ، الذى كان على ساحل المينا الشرقية ، وفيه كانت منازل البطالسة وسراياهم ، وبقيت كذلك لزمن القياصرة الرومانيين ، ودار التحف ، والسراية ، والكتبخانة العظيمة كانت تشغل بهذه المدينة سعة عظيمة من أرضها .

وقال (بلين) : كانت هذه السعة خُمس سعة المدينة . وقال (إسترابون) : ربعها أو ثلثها . ولا غرابة فى ذلك ، فإن هذه السعة كانت مملوءة بساتين وعمارات ، كعادة السرايات بالبلاد المشرقية .

وقريباً من وسط المدينة ، كان قبر إسكندر فإن (بطليموس سوتير) استحوذ على جثته ، وأخذها من (بيرديكاس) ، وقت أن كان مارّا بها فى طريق مصر على عربة عظيمة ، يسحبها أربعة وستون بغلا ، فى تابوت من الذهب الإبريز ، ثم إن هذا التابوت أخذ فيما بعد ، وعوّض بتابوت من الزجاج ، وبعد حين ذهبت جثة إسكندر .

وفى القرن الخامس عشر من الميلاد ، كانت أهالى الإسكندرية تفرّج السياحين على قبر إسكندر ، لكن من أين لنا إنه القبر الحقيقى ؟

ويقال : إن الإدريسى جعل قبر إسكندر فى جزيرة بعيدة فى حدود الغرب ، وسط بحر الظلمات . وهذا أيضاً أمر مستغرب جداً ، لأنه يبعد وصوله إلى هذا المكان ، ولا يدرى ما هذه الجزيرة ولا الأسباب التى أوجبت ذلك .

وهذا يدل على جهل تاريخ الإسكندر ، مع أن أمره معلوم من وقت ولادته إلى حين موته ، يوماً بيوم ، وشهراً بشهر ، وسنة بسنة وكذلك موته وموضع دفنه وكيفيته .

ومع ذلك ، نرى من يتكلم على أخباره يترك المهمّ منها ويذكر خرافات لا أصل لها ، ولابد أن منشأ ذلك شهرة إسكندر وأفعاله الخارقة للعادة ، فإنها ـ إلى الآن ـ تتكلم بها الأعجام والأعراب والأتراك ، ويسمونه بأسماء ما سمى بها ، وينسبون إليه أفعالاً ما فعلها ، وصفات ما اتصف بها ، ولو كان / حياً وسمعها لكذبها .

٣٢

والقادم من الشرق إلى الغرب يمرّ أوّلاً بمدينة البطالسة أو الأروام ، ثم يكون بمدينة العرب ، فعمود السوارى قائم على التل ، الذى هو مكان الإسكندرية القديمة ، وعليه كان معبد سيرابيس .

وفى الغرب كانت مدينة الأموات ، أو المقبرة المسماة سيرابيوم ، جرياً على عادة المصريين فى الزمن القديم ، من جعلهم مقابر الأموات غربى مدينة الأحياء ، لاعتقادهم أن محل إجتماع الأرواح المغرب . وفى تكلمهم وكتابتهم كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم : أمانتى .

وفى هذه الجهة الغربية من المدينة شاهد (استرابون) محلات تصبير أجسام الموتى قريب المقابر ، فكان ما يصنع بمدينة طيبة نقل إلى إسكندرية ؛ فإن المقابر وبيوت التصبير بها كانت بالجهة الغربية منها ، كما هى كذلك بالإسكندرية .

وبقى هذا المكان معداً لدفن الموتى من النصارى ، بعد زوال الديانة المصرية ، وقد بنى فيه (بطرس) بطريق إسكندرية مقبرة ودُفن فيها ، وإلى الآن تشاهد السياحون غربى البلد آثارها .

ثم إن المدينة زمن الإزدياد ترحزحت عن مكانها ، حتى صارت على المكان المعروف باللسان ، وملئت الأرض ـ التى كانت خارج البلد القديمة والحادثة ـ من تراكم الرمال ، وتركت مكانها الأصلى . وهذا الإنتقال لم يغير صورتها ، بل بقيت مستطيلة كما كانت قديماً .

وفى زمن حكومة العرب نقصت عن سعتها الأصلية نحو الثلثين ، فكانت الحوادث كلما زحزحتها عن موضعها زحزحتها عن سعدها ، حتى فارق الناس أرضها ؛ لأنها بعد أن كانت زمن (ديودور الصقلى) عامرة بثلثمائة ألف نفس من الأحرار أو ستمائة ألف ، على فرض أن عدد غير الأحرار كالأحرار ، كما فى مدينة أثينا بناء على ما ذكره (لاترون الفرنساوى) صار لا يوجد بها غير ستة آلاف نفس ، فكانت عصىّ الأدبار تسوقها ولا تفارقها ، حتى صار عدد سكانها جزءاً من مائة جزء ، من أصلها إلى زمن إستيلاء العزيز محمد على باشا على الديار المصرية ، فعمرت وازدادت ، وطلع نجم سعدها حتى بلغ عدد أهلها فى سنة ١٨٣٠ : ستين ألفا .

والآن فى زمن الخديو إسماعيل باشا بلغ عدد سكانها مائتين وسبعين ألفا ، قدر ما كانت تحتوى عليه زمن جده محمد على باشا خمسين مرة تقريباً .

وبسبب ما جبل عليه من تتبع أسباب العمار ، لم تزل سائرة فى طريق السعد والثروة ، وكل يوم تراها تتحلى بما يزيد فى فخرها ، ويتمكن به أساس ثروتها ، وتمتاز به فى زمن الخديوى عن سائر الأزمان السابقة حتى زمن إسكندر ؛ لأن أساس سعدها مرتبط بالتجارة ، وهى مرتبطة بالمينا ، فكلما تحسن أمرها تحسن أمر التجارة وتقدمت المدينة .

وليس فيمن سبق من السلاطين ، من ذكر المؤرّخون عنه أنه تصدى لما تصدى له هذا الخديوى ، من تنظيم الليمان بالأرصفة حوله وداخله ، وجعله مستوفياً لشروط الأمان على السفن ، وسهولة شحن البضائع وتفريغها .

ولاشك أن عين التجارة لاتغفل عن الفوائد الناتجة من هذا المشروع العظيم ، وترتقى ـ طبعاً ـ بالتدريج إلى أن تفوق الدرجة التى كانت قد بلغتها فى الأزمان العتيقة .

وخليج السويس لا يمنع من ذلك ، بل ربما كان أيضاً سبباً فى اتساع مدينة الإسكندرية ، وزيادتها عن حدودها الأصلية ، وامتلائها بالسكان ـ كما كانت قبل ـ بانتشار أسباب العمارة داخل الأقطار المصرية .

وفى الزمن القديم كان أهل إسكندرية ـ جميعاً ـ أهل تجارة كالآن ، وبهذا السبب كانت من أسعد مدن القطر . ومما كانت تفتخر به على غيرها : معامل الزجاج ، وأبسطتها المزخرفة بأنواع النقش ، فكانت تفوق أبسطة بابل الشهيرة .

وكان يوجد من ضمن حاراتها حارة تسمى : بزار ـ يعنى سوقه ـ كانت محلاً لبيع أمور الزهو والزخرفة . وكان أغلب سكان المدينة أرواماً وليس بها من المصريين إلا القليل ، ولكن كان يغلب على طبعهم الخفة والهزل ، فنشأ عن ذلك نقمتهم وإهانتهم عدة مرات بالحكام الذين تعاقبوا عليها ، بسبب الأشعار والقصائد التى كانوا يصرّحون فيها بألقاب وأسماء فظيعة لبعض البطالسة وغيرهم . وبعدما كانوا متصفين بالجراءة والقوّة العسكرية ، وكانت لهم درجة الفوقان على غيرهم فى فن مصارعة الديوك ، وفن الشعر ، وإنشاء القصائد والخطب ، مالت طباعهم عن هذه الأمور النفيسة إلى الأمور الخسيسة ، وذلك من خفتهم وطيشهم وعدم ثباتهم ، فكانت سجاياهم تقريباً آخذة من طباع الإفريقيين ، والبزانيون يتلوّنون بكآبة المصريين .

ولسان الروم كان هو اللسان المستعمل فى المحاكم والدواوين وغيره ، كان لا ينقش على المبانى والآثار والمعاملة . وبقى ذلك إلى زمن (ديوكليتان) ، وكذلك جميع الأعياد والرسوم الجارية فى الدواوين وبيوت الملوك والأمراء . كانت منقولة عن الروم .

فبكل هذه الأمور كانت مدينة إسكندرية ، كأنها بلد من الروم نقلت إلى مصر ، لأن جميع أمورها مأخوذة عن الروم ، ولو أن اليهود كانوا كثيرين بها . لأن عددهم كان يبلغ نحو مائة ألف نفس ، لكن كان الجزء الغالب الأروام . ولذا كانت طباع اليهود لا تخالط أهلها إلا مع الندرة . وأما الطبع المصرى فكان منحصراً فى مدن وادى النيل وأرضه ، ولم يؤثر فى أهل إسكندرية .

مطلب المسلتين

٣٣ وفى تلك المدينة / مسلتان لكيلوباترة إحداهما قائمة والأخرى مطروحة بجوارها ، وكانت قائمة ، قبل ، كأختها ثم أهديت لدولة الإنكليز ، كما قد أهدى محمد علىّ باشا إلى الفرنساوية مسلة من مسلات الكرنك ، وهى الآن قائمة بأحد ميادين باريس تجاه سراى الملك ، ولكن الإنكليز تنحوا عنها ، وتركوها ملقاة بسبب أنه كان اعترى كتابتها بعض تلف .

والمسلة القائمة إرتفاعها ٢٠,٤٦ متراً أى ٦٣ قدماً ، من نهاية القاعدة إلى آخر الهرم الصغير ، ومن هذه النهاية إلى قاعدة الهرم ١٨,٤٦ ، وطول ضلع القاعدة سبعة أقدام وثلاثة أصابع ، فجسمها عبارة عن ٧٠,٢٠[1] متراً مكعبة ، وزن ١٨٦٢٤٦[2] كيلو جرام . والأخرى مثلها تقريباً .

وقال (بلين) المؤرخ : إن إرتفاع كل من المسلتين ٤٢ ذراعاً ، وبمقارنة أجزاء المسلة إلى بعضها ، يرى إرتفاع الهرم الصغير قريباً من عرض القاعدة ، وهذا العرض منحصر بين التسع والعشر للإرتفاع الكلى . وقد إمتحنتُ جميع المبانى التى من هذا القبيل ، فوجدت جميعها على هذه النسبة ، ومن هنا يظن أنه كان للمصريين قواعد لا يخرجون عنها فى تفصيل أجزاء مثل هذه المبانى .

وباعتبار طول الذراع المصرى كما قدمنا : ٤٦٢ , متراً يكون ارتفاع المسلة إلى أصل الهرم ٤٠ ذراعاً ، وإلى آخره ٤٤ .

وفى زمن البطالسة كانت المسلتان قائمتين أمام المعبد ، الذى كان بنى بإسكندرية ، زمن الملكة كيلوباترة باسم القيصر والد ابنها ، وقد عاينه (استرابون) حين ساح فى بلاد مصر ، وذلك قبل الميلاد بأربعٍ وثمانين سنة ، فنسبتها حينئذٍ ـ إلى هذه الملكة ـ لا شك فيها بخلاف خليج إسكندرية ، وما يسميه الناس بحمامات كيلوباترة فإنهما لا ينسبان لها أصلاً ، فإن الخليج موجود قبلها ، والحمامات كانت مقابر لا غير .

---

(١) فى الأصل ٧٢٠ انظر ص ١٠٨ من هذا الجزء .

(٢) فى الأصل ٨٦٢٤٦ انظر ص ١٠٨ من هذا الجزء .

وقد اختلفت فى قصد المصريين من المسلات ، فقال (بلين) : كانوا يجعلون المسلة علماً على شعاع الشمس . وزعم (بيكانوس) أن المسلة كانت علما على الحياة السرمدية الكاملة الطيبة ، وفيها تكون الروح بعد مفارقتها الجسم ، وهكذا من هذا القبيل .

وفى اللسان العتيق المسلة إشارة إلى الثبات لا غير ، فإن كل مسلة تنتهى إلى هرم صغير ، دقيق من أعلاه . وفى هذه الصورة تكون المسلة أقرب شبهاً لهرم قاعدته طويلة ، وكان الهرم عند المصريين إشارة للبقاء والدوام ، ولابد أن هذا هو السبب فى جعل مقابر الفراعنة فى الصورة الهرمية ، والمسلات تقرب منها فى الشكل فلا تدل إلا على الثبات ، ولذا كانت توضع فى المعابد دائماً قبل الأبواب الجسيمة ، التى كان يكتب على جوانبها عبارة معناها : الباقى على الدوام .

وحينئذٍ فالمسلتان أمام كل معبد كحرفين من حروف الهجاء ، أو كلمتين معناهما ما ذكر .

ومن العادة القديمة فى مصر : بناءا المعابد باسم الآدميين ، وكان لهم فيها عبادة فى أوقاتٍ مخصوصة أشبه بالأعياد ، ويُبجِّلونهم فيهاويعظمونهم كما يُبجل الخالق سبحانه وتعالى ، فمن ذلك : معبد (منيس) مؤسس الدولة المصرية ، وكان له قسوس مخصوصة ، وكذا كان للفراعنة الذين بنوا الأهرام .

وبقيت هذه العادة إلى زمن البطالسة ، وأتبعها عقبهم ، وسار على آثارهم الرومانيون ، فكانت قسوس مختصة بـ (برنيس) وأخرى مختصة بـ (أرسنوى) من بنات البطالسة .

والرومانيون أخذوا عن المصريين عادة المسلات ، ولكن لجهلهم بما كانوا يقصدونه جعلوها بعيدة عن المعابد . وحيث كانت أفكارهم متجهة نحو المفيد النافع ، كانوا يجعلونها فى مقاصد نافعة ، مثلاً : المسلتان المنقولتان فى زمن (أغسطس) قيصر الروم من إسكندرية ، وضعت إحداهما فى الميدان المعروف بـ (شان دومارس) واستعملت كمزولة لبيان الوقت ، والأخرى جعلت حداً ، وصارت هذه العادة مستعملة فيما بعد ، وصارت المسلات توضع فى ميادين الألعاب ، فحصل فى ميدان قيصر الروم (تبرون) فى الوتيكان ، وفى ميدان إسكندرية ، وفى ميدان قسطنطينية .

ومع هذا فقد شوهد استعمالهم المسلات أمام العمارات الشهيرة ، كما حصل أمام مقبرة قيصر الروم (سيزار) وأمام معبد (أزيس سيرابيس) .

والمسلتان الموجودتان أمام هذا المعبد ، اللتان ليستا متساويتين فى الإرتفاع ، إحداهما : عملت زمن (سيزوستريس) . والأخرى : زمن (ابريس) ونقوشهما تدل على ذلك .

ومن هنا ظهر أن الذين وضعوا المسلات المذكورة ، حفظوا لها الكيفية التى كانت عند المصريين من دون أن يعلم الرومانيون الغرض من ذلك ، ولذا تراهم استعملوا المسلات للزينة . وبابات روما تبعت القياصرة ، وصارت تزين المدينة بالمسلات أيضاً ، من غير وقوف على الغرض منها .

ومسلات إسكندرية غريبة من أرضها ، أتت إليها من الجهات القبلية ، فكما نقلت لباريس وروما فى الأزمان الأخيرة ، كذلك نقلت إلى إسكندرية فى الأزمان السابقة ، أى زمن زهوها وزينتها ؛ لتزيين معابدها وميادينها .

مطلب الكتابة التى بالمسلات

وقد اختلف كثير فى الكتابة التى على المسلات ، فقال بعضهم : أنها القوانين الطبية ، وقال آخرون : قواعد فلسفة المصريين ، والقوانين المدبر بها هذا العالم .

٣٤ وهذا الإختلاف إنما هو بالنسبة للأزمان السابقة ، وأما / الآن فلا يعوّل إلا على ما يقرأ ويفهم منها ، بناء على المعلومات التى اكتسبها أهل عصرنا من معرفة اللسان القديم ، وبواسطتها لم يوجدُ مسطراً على صفحاتها إلا ما فيه مدح فرعون وقتها ، وحروبه ، ونصره ولقبه ، وما أشبه ذلك .

ووجد مكتوباً على المسلتين اسمان من أسماء الفراعنة وهما : (طوطموزيس) و(سيزوستريس) أو زمسيس الأكبر ، والأول : فى الصف الأوسط ، والآخر : فى الصفين المتطرفين ، ولا بُعد فى وجودهما معاً ، أو أن أحدهما هو المنشىء لها ، والآخر أتى بعده ووضع اسمه عليها .

وقد شوهد كثير من هذا القبيل ، والعادة أن اسم المنشىء يكون فى الوسط ، وحينئذٍ فهاتان المسلتان ينسبان إلى (طوطموزيس) فى المدة التى كان التقدم فيها لا مزيد عليه فى أمر العمارة ، وفيها بلغ النقش والتصوير عند المصريين ، درجة لم تكن عند السابقين ، ولم يصل إليها اللاحقون .

والذى ينبغى التنبه له ، أن من ضمن الكتابة المسطرة على أوجه مسلات الإسكندرية ، عبارة جديرة بالذكر ، لدلالتها على حادثة عظيمة ، حصلت فى الأزمان الماضية بالديار المصرية ، وهى : هجوم العربان عليها سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، وأقاموا حاكمين فيها ٥٠٠ سنة ، قاست فيها البلاد بلاء لا مزيد عليه .

وعلى المسلات يقرأ بعد ألقاب الفراعنة عند ذكر (طوطموزيس الثالث) كلمة معناها : المشهور بطرده للهيك ، ومعلوم أن اسم الرعاة الواردين مصر من العرب ــ فى لغة المصريين ــ هو : هيكوسوس ، ولابد أن لفظة (هيك) مختصرة منها .

والذى يغلب على الظن ، هو ما ورد عن المؤرخ (مانيتون المصرى) من أن هذه الكلمة مركبة من كلمتين : هيك وسوس ، الأولى : من اللسان المصرى العتيق ومعناها : الملك ، والثانية : من لسان العامة ومعناها : رعاة ، فمجموعها : ملك الرعاة ، فاكتفى بكتابة الكلمة الأولى لدلالتها على هذا المعنى .

وحيث أن المعروف أن الرعاة كان طردهم من مصر قبله بأحد ملوك عائلته ، يلزم أنهم هجموا عليها مرة أخرى فجلاهم عنها (طوطموزيس الثالث) ولذا اكتسب الذكر الجميل ، ونقشت هذه الفعلة ضمن افتخاره .

وبالتأمل لتاريخ هذه المدة المشحونة بالأهوال ، يرى ويستدل من الكتابة المنقوشة على مسلات إسكندرية ، أن امتيازها كان فى زمن (طوطموزيس الثالث) ، وذلك قبل الميلاد بسبعة عشر قرناً ، وأنّ المسلة التى بباريس . وأختها الموجودة بالكرنك ــ للآن ــ بعدها بقرنين ، وهاتان المسلتان ينسبان إلى (سوزستريس) .

عمود السوارى

الإفرنج تسمى هذا الأثر (عمود بومبى) والمصريون يسمونه (عمود السوارى) ، ويؤخذ من التسمية الأولى أن هذا العمود ينسب عمله إلى (بومبى) المذكور ، والحال أن هذا الأمير رومانى لم يطأ إسكندرية ، بل ثبت أنه قتل بمدينة الطينة ـ التى على ساحل مصر ـ بدسيسة زوج كيلوباترا الأول وأخيها .

والكتابة الرومية الموجودة على جلسة العمود ، تدل على إهدائه إلى قيصر الروم (ديوكليتان) فهل يقال إنه لم يرفع إلا فى زمنه ؟ وجُعل علما على فتحه مدينة إسكندرية ، ونصرته على الإسكندرانيين الذين كانوا رفعوا لواء العصيان ، وعاقبهم بعد نصره عليهم عقاباً شديداً ، سفك فيه كثيراً من الدماء .

لكن جميع الناس العالمين بتاريخ مصر وآثارها ، اتفقوا على أن البدن من أعمال المصريين السالفين ، وأن الجلسة من أعمال الرومانيين ، ومن هنا يعلم أن العمود نفسه قديم قبل هذا القيصر .

وغاية ما يقال إنه كان قد وقع أو تخلخل ، فأقامه على القاعدة الجديدة ، ونقش عليه الكتابة المذكورة لتخليد ذكره ، فإنه بعد قسوته عقب دخول المدينة فى الطاعة ، أحسن للأروام الذين كانوا بها ، وفرق عليهم الغلال ، وأدخل ضمن قوانين الحكومة بعض قوانين نافعة .

ويؤخذ من التسمية الثانية : أنه منسوب إلى قيصر الروم (سيزوستريس) ولكن التاريخ لم يذكر ذلك ، فهى غير صحيحة ، كنسبته عند الأروام إلى إسكندر مؤسس مدينة الإسكندرية .

والصحيح أن العمود المذكور من آثار الأروام ، حسب إتفاق كثير من أهل التاريخ ، وأنه أقيم فى مكانه زمن أحد البطالسة الذى فيه أنشىء المكان المعروف بالسيرابيوم ، وهو أعظم عمارات الإسكندرية فى زمن عزها ، وقد وصفه العالم الرومانى (أفتونيوس) السائح فى

بلاد مصر وإسكندرية ، فى القرن الرابع من الميلاد بقوله : « متى دخل المرء قلعة إسكندرية ، وجد مكاناً محدوداً بحدود أربعة متساوية ، وفى وسطه فضاء متسع ، محاط بأعمدة ، وبعده دهاليز فيها قيعان ، بعضها لحفظ الكتب المجعولة لمن يريد المطالعة فى العلوم والحكم ، وبعضها معدٌ لعبادة المقدسين ، وفى وسط هذا الفضاء عمود عظيم الارتفاع ، وهو علم يستدل به على هذا المكان ، لأنه تغير عن حالته الأصلية ، فيتحير الإنسان ولا يدرى أين يتوجه إذا أراد هذ المحل إلا بهذا العمود ، فهو دليل لمن أراد هذا المكان من أهل البر والبحر » .

وهذه العبارة تدل على أن هذا العمود فى وسط حوش السيرابيوم ، لأنه لم يوجد بالإسكندرية عمود بهذه الصفة إلا هو ، وتدل أيضاً على أن موضع السيرابيوم هو الموضع الذى فى وسطه العمود الآن ، ولا يقال إنه كان فى موضع غير هذا الموضع ثم نقل منه إليه ، لأن ذلك / من العمليات الجسيمة ، التى لا يغفل المؤرخون عن ذكرها والتنويه بمن حدثت فى مدته من القياصرة أو غيرهم ٣٥

والأرجح أن العمود المذكور قائم فى موضعه الأصلى ضمن عمارات السيرابيوم ـ كما ذكرنا ـ ، وكون الجلسة حدثت بعد العمود ، لا يؤخذ منه سوى حدوث حادثةٍ كزلزلة ـ مثلاً ـ أثرت فى الجلسة ، فأصلحها (ديوكليتان) فى زمنه ، وردّ العمود إلى الحالة التى كان عليها أولاً ، وكتب فوق الجلسة ما نوه فيه بذكره .

مطلب فى الكلام على التمثال الذى فوق عمود السوارى

ذكر كثيرٌ ممن تكلم على هذا العمود فى الأعصر الأخيرة ، أنه كان فوقه تمثال ، ولكن لم يذكره (أفتونيوس) فى تاريخه ، مع أن وقت سياحته كان قريباً من زمن (ديوكليتان) ؛ لأن هذا الوقت زمن القيصر (قسطنطين) والقيصر (جوليان) ، وكذا لم يذكر القبة ، التى ذكر عبد اللطيف البغدادى فى رحلته أنها كانت فوقه أيضاً .

ولا يقال إن التمثال المذكور حدث بعد (أفتونيوس) ، أو لم يكن موجوداً من أصله حتى أنه لم يتعرض له فى كلامه ، لأنه ذكر فى عبارة أغلب المؤلفين ، فلا بد أنه كان موجوداً قبل سياحته ، إلا أن يقال إن هذا التمثال أزيل عن العمود مدة سياحته ، ولذا لم يذكره فى كلامه .

وهذا التمثال كان للمقدس (أبيس) ، وليس تمثال (ديوكليتان) أو تمثال حصانه ، بناء على ما ذكره بعض المؤرخين من الإسكندرانيين ؛ لما اعترفوا بشفقة القيصر عليهم ، جعلوا لحصانه هذا التمثال ، بعد أن عثر به حين دخوله من أحد أبواب المدينة ، وكان ذلك سبباً فى رفع القيصر عنهم النهب والسلب والقتل ، بعد أن كان أصدر أمره بذلك عقاباً لأهل هذه المدينة ، على إرتكابهم العصيان والفساد ، فرأى أن ما حصل من الحصان المذكور كأنه أمر إلهى ينهاه عن إستمرار القسوة عليهم ، ويأمره بالشفقة عليهم .
ويؤكد هذا الإعتقاد ما حققه بعض السلف ، من أن (بطليموس فيلديلفوس) رفع تمثالاً عظيماً فوق الكثيب الذى كانت فيه القلعة والبلد القديمة ـ التى هى رقودة ـ وكان بها السيرابيوم ، وهو من أحسن العمارات وأجملها ، وكان يظهر من بُعدٍ عظيم ، لا يصل إليه الإنسان إلا بعد صعود مائة درجة . وقيصر الروم (كركلا) كان فى أعلى محل منه وقت أن أصدر أمره بالقتل وغيره لأهل الاسكندرية .

وجميع الفتن التى تولدت من عداوة الديانة العيسوية والديانة العتيقة ، كان مركزها هذا المكان ، ولهذا يرى أن هذه البقعة استمرت تسق بدم الخلق أزماناً عديدة ، فتارةً كانت القوة لحزب أبيس ، فيقتل جميع النصارى بغاراته ، وتارةً كانت لحزب المسيح ، فيقتل جميع رجال الآخر ، إلى أن كانت الكلمة للعيسوية فى زمن القيصر (طيو دوز) ، فهجمت النصارى على هذا المكان وهدمته وأزالته بالكلية .

ومع ذلك فى القرن الخامس من الميلاد ، زمن الفتن ، كانت أهالى الإسكندرية تحتمى فى بواقيه ، وفى زمن صلاح الدين كانت عدةٌ من أعمدة دهاليزه باقية ، وكانت من ضمن الآثار العجيبة التى وقرها الدهر ولم يَعتدِ عليها .

وكان هذا المحلّ قديماً مَركز الديانة الوثنية والرومية . وكذلك الديانة العيسوية فيما بعد ، فإنه بعد زوال عبادة أبيس ، حدثت الديانة المسيحية فى كنيسة بنيت فى هذا الموضع ، وكانت تسمى كنيسة (جان بابست) .

ويستفاد مما قدمنا ، أن الموضع القائم فيه عمود السوارى الآن ، هو المحل الذى كان به السيرابيوم ، والمحل الذى هو فيه هو محل القلعة وقرية رقودة ، التى كانت فى زمن الفراعنة لإقامة الخفراء والعساكر .

ويستفاد منه ـ أيضاً ـ أن العمود المذكور من أعمال الروم ، وأن الجلسة التى تحته من أعمال المصريين . ولابد أنه كان قبل وضع هذا العمود بهذا المحل مسلة أزيلت ووضع هو محلها ، ويدل على ذلك وجود كتابة عليها مضمونها : (شامبليون اسم سباماتيك الثانى من فراعنة صا الحجر الغربية من النيل) فلا بد أن هذا الأثر نقل من عمارات هذه المدينة .

ويستفاد من كلام بعض المحققين ، أن السيرابيوم كان فيه راهبات ورهبان لخدمة المقدسين ، ووجد شرح بعض قضايا هؤلاء الرهبان على بعض البابيروس[1] المحفوظ الآن بخزانة الآثار ، وعلم أنهم كانوا تحت رياسة أحد كهنة المصريين ، ومن هنا علم أن الرهبانية التى ابتدعها العيسوية ، كانت موجودة عند قدماء المصريين ، وكانت إحدى هذه الدعاوى لبعض المقدونيين .

وكان من ضمن خدم السيرابيوم (منفيس) وفيها يشتكى من الرئيس ومعاملته السيئة له ، بسبب أنه من الروم ، وفى هذا دليل على إحتقار الروم عند المصريين فى الأزمان القديمة ، وكانت الكتبخانة التى حرقت فى زمن القيصر (سيزار) فى السيرابيوم أيضاً ، وكان بها نسخة بالعبرانى من التوراة ، وفى هذا دليل على أن اليهود كانوا غير ممنوعين من دخولها .

(١) يعنى : أوراق البردى .

أسوار مدينة الإسكندرية

قد إستدل من البحث ، الذى أجراه العالم الفاضل محمود بيك الفلكى [١] ، على جدران السور القديم الذى كان لهذه المدينة ، أن عرضه كان خمسة أمتار ، وأنه كان مبنياً من قطع الحجارة والمونة المركبة من الجير والحمرة ، وقد تتبع أثره من إبتداء برج السلسلة ، الذى كان يسمى قديماً (رأس لوشباس)) إلى الحدرة ، وطول هذه المسافة ٣٠٠٠ متر ، وقد عثر بين ترعة المحمودية والتلول التى بجوارها على جملة نقط من السور / منحطة عن الأرض ، بعضها ثلاثة أمتار وبعضها أربعة وبعضها خمسة .

٣٦

وقد ظهر أن السور – من برج السلسلة إلى المينا الغربية – كان يتبع مسير الساحل ، وشاهد هناك آثاراً مغطاة بمترين وأكثر من الماء ، وقد تتبع هذه الآثار ، ورسم السور المذكور فى كل هذا الإمتداد .

ويظهر من الخرطة التى حررها ، أن السور القديم – من جهة رشيد – كان بعيدا عن السور الموجود الآن بنحو ١٦٠٠ متر ، ومن جهة المحمودية بعضه بمائتى متر ، وبعضه بأربعمائة ، وكان من جهة البحر ، بعضه يتبع اعوجاج الساحل ، وكان أغلب الضلع الرابع منه مستقيما وبعيداً عن جامع الألف عمود ، بنحو مائة متر .

وبناء على ذلك ، وجد أن محيط السور مع الاعوجاج ١٥٨٠٠ متر ، عدد الرؤوس الداخلة فى البحر التى إن أضيفت هذا المحيط ٦٠٠ متر ، وبلغ فى هذا الرسم أعظم طول للمدينة ٥٠٩٠ مترا . وأما العرض فأصغره الذى من جهة النكروبولس (مدينة الأموات) قدره ١١٥٠ مترا ، وأكبره ٢٢٥٠ مترا ، وبين هذين البعدين كان تارة ١٤٠٠ متر ، وتارة ١٥٦٠ ، وتارة ١٧٠٠ .

---

(١) انظر الأعلام للزركلى جـ ٨ ص ٤٠ الطبعة الثانية .
وله رسالة عن الاسكندرية القديمة وضواحيها . ترجمة محمود صالح . الاسكندرية ، دار نشر الثقافة ١٩٦٦ .

مطلب فى الكلام على أبعاد مدينة الإسكندرية

وتكلم كثير ، من المؤلفين على أبعاد هذه المدينة ، فجعل (إسترابون) عرضها ما بين سبع أستادات وثمانية ، وجعله (فلوبوس) و(يوسف) و(فيلون) عشر أستادات ، واتفق الجميع على أن طولها ٣٠ أستادة ، وقال (كانتكورس) : إن المعمار (دينكرات) جعل محيطها ١٨٠ أستادة ، وجعله (أثنين البيزانتى) ١١٠ أستادة ، العرض ٨ أستادات ، والطول ٣٤ أستادة .

وقد استنبط العالم المذكور من ذلك أن الأستادة الرومية ١٤٧،٩٥ مترا ، والميل الرومانى ١٤٧،٩٥ ، وأن الأستادة المستعملة فى أبعاد المدينة هى الأستادة الرومانية ، وقدرها بالمتر ١٦٥ مترا بأدلةٍ واستنباطات أوردها .

وفيما قاله نظر يحتاج بيانه ، لا يراد ما يخرجنا عن الغرض ، وسنذكر لك إن شاء الله ـ فيما بعد ـ تحقيق هذا المقام .

ولعل سبب هذا الاختلاف الواقع بين المؤلفين ، نشأ من تكلمهم عليها فى أوقات مختلفة ، أورد كل منهم قياسها فى زمنه ، أو أن ما اعتبره أحدهم لأطول بعدٍ لم يعتبره غيره ، وهكذا العرض .

وعلى كل حال ، فأقوالهم جميعا تفيد : أن المدينة كانت أكبر جداً من مدينة العرب ، وكانت التلول الموجودة قريباً من السور ـ بعد الاستحكامات ـ من ضمن هذه المدينة .

وفى خطط الفرنساوية ، أنه عملت مقارنة بين مساحة إسكندرية فى الزمن القديم ـ حال سعدها ـ وبين مساحة مدن أوروبا ـ فى ذلك الوقت ـ فوجد أن : مساحة باريس ٥٩٨٠٥٧٠ تواز مربع ، لوندره ٤٢٦٤٠٠٠ ، برلين ٣٤٧٩٨٦٠ ، ونينه ٣١٧١٨٥٠ ، روما ١٩٢٦٢٣٠ ، ومساحة مدينة الإسكندرية ـ بناء على قول (كانتكورس) من أن محيطها

ثمانون أستادة ـ يكون ٢٧٠٧٥٠٠ تواز مربع ، وبناء على قول (بولين) من أن محيطها ١٥٠٠٠ خطوة ، التى هى عبارة عن ١١٣٤٠ توازاً مربعا ، تكون المساحة ٦٠٢٧٩١٨ توازاً مربعا .

فعلى كل حال يظهر من هذا الفرق الجسيم ، أن مساحة المدينة ـ كانت بالأقل ـ تساوى برلين وونينة ، وإن أضيفت لها الضواحى زادت عن ذلك بكثير .

وقد عثر بها أيضا على أحد عشر شارعاً مبلطاً تقطعها عرضاً ، وسبعة شوارع تقطعها طولا ، وأحد الشوارع الطويلة هو المعروف بعضه الآن بشارع باب شرق ، وكان جامع العطارين من ضمن هذا الشارع ، وكذلك محل كنيسة (سنعطناس) . وقد صار الآن محل الجامع من ضمن الأملاك الأهلية ، وبجواره كنيسة الروم ، ويظهر أنه دخل فيها جزء من أرض الجامع .

والمسافة التى بين هذا المحل وعمود السوارى ١٢٨٥ مترا ، والذى بينه وبين المسلة ٨٠٠ متر ، وبينه وبين باب رشيد ١٨٣٥ مترا ، وقد يوجد بلاط أرضية الشارع القديم فوق استواء ماء المالح بقدر ٤٧ ، وتحت الأرض ـ الآن ـ بقدر ٣٠ .

مطلب فى الكلام على وصف الشارع المعروف قديما بشارع كانوب

وقد استدل بالبحث على نقط أخر غير هذه النقط ، علم منها أن الشارع المسمى ـ قديما ـ بشارع كانوب ، كان مستقيما ، وواصلا بين الضلعين المتطرفين من المدينة ، أحدهما من جهة رشيد ، وعرضه من الجزء المبلط ١١٤ مترا ، وطوله ٥٠٩٠ مترا ، واتجاهه من الشرق والشمال الشرقى إلى الغرب والجنوب الغربى ، وبينه وبين خط الشرق والغرب ٢٤° و١٥َ ، وبين محور هذا الطريق وعمود السوارى ١١٦٥ مترا ، وبينه وبين المسلة ٥١٧ مترا .

وعرض الحارات الطويلة الأخر ، نصف عرض شارع كانوب المذكور ، وجميعها موازية له ، وأبعادها الواقعة بينها متساوية وقدرها ٢٧٨ مترا .

وجميع الحارات العرضية متوازية وعمودية على الشارع الأصلى ، المسمى بشارع كانوب ، وبين كل منها وخط الشمال والغرب زاوية قدرها : ١٥َ ٢٤ْ ، وجميعها ممتد من البحر إلى المحمودية ، والأبعاد الأصلية التى كانت بينها وبين بعضها ٣٣٠ مترا ، وكان فيها أيضا حارات أخر متوازية ـ غير هذه ـ لكنها متقاربة ، فمنها المتباعد بقدر ١١٠ أمتار ، ومنها المتباعد بقدر ٩٦ مترا .

٣٧

وكان من ضمن الحارات العرضية ، شارع يخرج من برج / السلسلة ، بسبب أنه كان به سراية ملوكية ، تمر بالميدان الكبير ، عمودية على شارع كانوب ، وتمتد إلى مينا خارج السور على الخليج ، وكان عرضها ١٤ مترا ـ مثل عرض الشارع الأصلى ـ ، وكان على جانبها الشرقى بجمون لتوصيل المياه العذبة إلى السراية والصهاريج ، وكان فى الجهة الأخرى مجرى القاذورات .

ويظن من كثرة الأعمدة التى وجدت فى امتداد هذا الشارع ، أنه هو الشارع الذى تكلم عليه (أشيلبس تاتيوس) وكان بحافتيه من الجهتين بوائك .

ويظهر من الميزانية التى أجراها محمود بيك ، أن أراضى المدينة لم تكن مستوية ، وكانت منقسمة ـ بطبقة الأرض إلى قسمين ـ بوادٍ يختلف عرضه ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ متر ، وابتداء الوادى المذكور من برج السلسلة ، ويمتد إلى بحيرة مريوط ، فيكون الساحل فى هذا الوادى منقسماً قسمين : قسم من جهة أرض مصر ، وقسم من جهة أرض ليبيا ، ولا بد أن هذا سبب كون الإسكندرانيين يقولون : إن جزءاً من المدينة من مصر ، وجزءاً من ليبيا .

بجمونات إسكندرية وصهاريجها

يظهر من رؤية الباقى منها الآن ، أنها كانت كثيرة الصهاريج ، وكانت الخلجان المتفرعة من الخلجان الأصلية لتوصيل المياه إلى المنازل والحارات لا تنحصر ، ولا سيما ما كان منها

للبساتين والحدائق ، وماكان مختصا بامتلاء الصهاريج الموزعة فى جميع أرجاء المدينة ، لكفاية الأهالى ، والواردين ، والمترددين فى جهات القطر ، وسواحل البحر المالح .

وحيث أن أهالى إسكندرية كانوا ـ بالأقل ـ ٦٠٠ ألف نفس ، ولو أضيف قدر هذا العدد عليه نظراً للواردين عليها ، لكان اللازم لهم من الماء مليونا ونصفا فى مدة السنة ، وهذا غير ما يلزم للحيوانات والبساتين ، ولا يكفى لذلك أقل من ٤٠٠٠٠ متر مكعب كل يوم ـ أعنى قريبا من ٦٠٠٠٠٠ قربة .

ويوجد إلى الآن فى هذه المدينة خمسة خلجان ، من الخلجان الأصلية التى كانت مستعملة فى دخول مياه النيل لامتلاء الصهاريج التى كانت فى هذه المدينة ، وكانوا يسدون أفواه البجمونات لإمتلاء الصهاريج ، فإذا امتلأت فتحوها ، ويعملون لذلك موسماً مشهوراً .

والبجمون الأول منها : فى استقامة الخليج القديم إلى المينا الغربية .

والثانى : يبتدىء من الخليج ، ويكون فى استقامة الشارع المار بعمود السوارى .

والثالث : يبتدىء من الخليج ويستمر مع الشارع الداخل فى البلد ، بعيداً عن شارع العمود بقدر ٩٠٠ متر تقريبا .

والرابع : يسير مع الشارع المار ببرج السلسلة .

والخامس : خارج من سور البلد من جهة كانوب ، على بعد ١٣٠٠ متر منه ، وعلى بعد ٢٣٥٠ مترا من سيدى جابر .

والخلجان المذكورة كانت تتبع فى سيرها الحارات ، فتخرج منها فروع لتوصيل المياه إلى صهاريج المدينة ، وبعض هذه الخلجان كان يجتمع ماؤها ، ويسير تحت أرض الميدان الكبير ، ويدخل من هناك فى جزيرة فاروس من خليج واحد كان يمر فوق القنطرة التى كانت توصله بأرض المدينة .

وقال محمود بيك فى رسالته : إن ما عثر عليه من الصهاريج فى مدينة إسكندرية ، يبلغ ٧٠٠ بعضها مركب من طبقتين ، والطبقة العليا محمولة على أعمدة من الرخام أو الزلط ، وفى المواضع المرتفعة من المدينة كانت تبلغ طبقات الصهاريج أربعة ، ولم تكن جميعها تملأ من الخلجان ، بل كان يملأ أكثرها بالقرب .

وفى كتاب (جركى) الفرنساوى : أن جليس بيك عند إجرائه عمليات الاستحكامات ، كشف عن ٨٩٦ صهريجا مبنية جميعها بالحجر ، وواصلة لبعضها ، وتأخذ ماءها من خليج كبير يشق البلد ، ويمتد إلى بحيرة مريوط .

ولا بد أنه لم يعثر على جميعها ، وكانت تنظف كل سنة حتى لا يضر ماؤها بالصحة ، وقد استدل على ٣٠٠ صهريج داخل المدينة الجديدة ، ردم أغلبها ولم يبق منها الآن إلا القليل ، بعضه فى حيازة أهل الملك ، وبعضه فى حيازة الحكومة ، وكان الموجود منها فى زمن الفرنساوية ٣٠٨ ، ووجد فى واحد منها ٣٠ عامودا فوقها عقود من البناء .

جزيرة فاروس

كانت هذه الجزيرة فى الأيام الخالية محصنة بأسوار وأبراج فى دوائرها . وآثار المبانى القديمة التى كانت بها وقت دخول الفرنساوية ، تدل على أنها كانت عامرة بالسكان ، منفصلة عن المدينة بالكلية ، وكان طولها موازياً للساحل من ابتداء المينا الشرقية إلى نهايتها من جهة الغرب ـ الموجود بها الآن المنارة الجديدة ـ ٣٦٠٠ متر ، وعرضها المتوسط ٥٠٠ متر ، وكان فى نهاية الجزيرة من جهة الشرق ، صخرة طولها قريب من ٢٥٠٠ متر ، وكانت المنارة القديمة مبنية فوقها ، والبعد من وسط هذه الصخرة إلى المنارة الجديدة الآن ٣٠٣٠ ، وكان الماء يحيط بهذه الصخرة من جميع الجهات ـ كما ذكر ذلك إسترابون ـ والجزيرة الصغيرة الموجودة نحو الشمال ، لم تكن فى القديم إلا رأسا من الجزيرة الأصلية .

وشكل الجزيرة يشبه الساق ، والثلاثة ارتفاعات ـ المرتفع كل منها بقدر عشرة أو أحد عشر مترا ـ شبه الكعب ، والسمانة ، والركبة ، وأحدها يقع فى الشيخ الموازينى ، والثانية فى المدرسة ، والثالثة فى رأس التين والشعب / الممتد فى البحر بين برج السلسلة والجزيرة من جهة ، وبين العجمى والجزيرة من الجهة الأخرى ، فدل ذلك على أن هذه الجزيرة ـ والشعوب المذكورة ـ أصلها من الساحل ، وانفصلت منه بحادثة حدثت فى الأزمان العتيقة . ٣٨

وتكلم أميروس الشاعر على ما يتعلق بها قبل المسيح بعشرة قرون ، وترجمة عبارة أميروس هى هذه : (هنالك توجد مينا ، منها تخرج السفن بعد أخذ الماء ، وبينها وبين النيل يوم ملاحة ، يعنى ٥٤٠ أستادة ، لأن يوم الملاحة قدره هذا المقدار ، وتطابق هذه المسافة الجزيرة وفم الفرع القانونى . وكانت فى الأيام العتيقة من أحسن المواضع وأجملها ، وكان بها مواضع كثيرة للنزهة ، وجهاتها نحو الشمال فيكون هواؤها أيام القيظ رطباً لطيفاً ، وبعضها متوجه جهة الجنوب ، لسكن الشتاء ، وكان بها بساتين كثيرة ، فيها من جميع الفواكه ، لكنها مشتهرة بالتين ، ولذا كانت تسمى : روض التين ، وبقى ذلك إلى أكثر من نصف القرن الثانى عشر ، وكان يهاجر إليها فى كل سنة ـ زمن الخريف ـ الطير المعروف بالسمان ، فتأخذ الناس منه كثيراً حتى اكتفى عن اللحم) اهـ ملخصا من كتاب (مالى) .

ولا يعلم كيف كانت هذه البساتين ، لأن أرض جميع جهاتها حجر ، ولابد أن بعض مبانيها كانت تردم بالطين المنقول كما يشاهد الآن .

المنار القديم

قال المقريزى فى خططه ـ نقلا عن المسعودى ـ : أما منارة الإسكندرية ، فذهب الأكثرون من المصريين والإسكندرانيين ـ ممن عنى بأخبار بلدهم ـ إلى أن الإسكندر هو الذى بناها ، ومنهم من رأى أن (دلوكه) الملكة بنتها ، ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها . وقال : إن الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج ، على هيئة السرطان فى جوف البحر ، وعلى طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر .

وفى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان ، صار هدم أعلى المنارة بحيلة عملها عليه ملك الروم ، ثم بقيت على ما كانت عليه إلى سنة ٣٣٢ هلالية . وفى سنة ٧٧٧ سقطت رأسها من زلزلة .

وقال ابن وصيف شاه ــ عند ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح ــ وبنوا على البحر مدنا منها : رقودة ، التى كانت قبل الإسكندرية فى مكانها ، وجعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب ، ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من أخلاط شتى ، قطرها خمسة أشبار ، وكان ارتفاع القبة مائة ذراع .

ونقل السيوطى عن ابن فضل الله : أن هذه المنارة قد خربت وبقيت أثراً للأعين ، فزال الباقى فى أيام قلاوون وولده .

وبناء على قول مؤرخ النوبة : إن المنارة المذكورة كانت موجودة إلى القرن الثالث عشر ، كما ذكر أبو الفداء ــ فإنه كان موجوداً فى سنة ١٣٢٠ ميلادية ــ تكون المنارة المذكورة تخربت فى القرن الحادى عشر . ومحل هذه المنارة الآن البرج الزفر ، الذى هو محل طابية قائد بيك ، الذى فى النهاية البحرية الشرقية من جزيرة فاروس .

وما ذكره (استرابون) وغيره يؤيد ذلك ، فقد ذكر ما معناه : أن النهاية الشرقية من الجزيرة عبارة عن صخرة محاطة بالماء من جميع جهاتها ، والمنارة فوقها عبارة عن برج من جملة طبقات ، مبنية بغاية الإحكام من الرخام الأبيض ، واسم الجزيرة ، واسمه واحد ، والذى بناه (سوستران) محبوب الملوك لأجل أمن الملاحين ، لأن الساحل من جهة إسكندرية منحط ومجرد عن المينا وكثير الشعوب والصخور ، فكان من المهم جعل دليل مرتفع لأجل دخول الملاحين الواردين وعدم وقوعهم على الصخور .

والمدخل الغربى ــ ولو كان عسراً ــ لكنه لم يكن فى الأهمية كالشرق ، ومنه كان يتوصل إلى مينا تسمى : (أونست) ، من داخلها مينا محفورة بالآدميين مقفولة .

فالموجودة فى مدخلها المنارة هى المينا الكبرى ، والأخريان مجاورتان لها ، ولم يفصلها عنها إلا القنطرة المعروفة باسم (هبتا استاد) .

ومن هنا يعلم أن محل المنار القديم محل طابية قائد بيك ، فى النهاية البحرية الشرقية من جزيرة فاروس .

وقال المقريزى فى خططه : إن منارة إسكندرية أحد بنيان العالم العجيب ، بناها بعض البطالسة من ملوك اليونانيين ، بعد وفاة الإسكندر بن فليبش ، لما كان بينهم وبين ملوك روما من الحروب فى البر والبحر ، فجعلوا هذه المنارة مرقباً ، فى أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار الشفافة ، ليشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من روما ، على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها ، فيستعدون لها قبل ورودها .

وطول المنارة فى هذا الوقت ــ تقريبا ــ مائتان وثلاثون ذراعا ، بعد أن كان طولها أربعمائة ذراع ، فتهدمت من ترادف الأمطار والزلازل .

وبناؤها على ثلاثة أشكال ، فقريب من النصف وأكثر من الثلث ، بناؤه مربع الشكل بأحجار بيض ، وذلك نحو مائة ذراع وعشرة أذرع تقريباً ، ثم بعد ذلك يكون مثمن الشكل مبنيا بالحجر والجص ، وذلك نحو نيف وستين ذراعا ، وحولها فضاء يدور فيه الإنسان ، وأعلاها مدوّر .

ورمّ أحمد بن طولون شيئاً منها ، وجعل فى أعلاها قبةً من الخشب ، ليصعد إليها من داخلها ، وهى مبسوطة منحرفة / بغير درج . ٣٩

وفى الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاصٍ مدفون بقلم يونانى ، طول كل حرف ذراع فى عرض شبر ، ومقدارها على جهة الأرض نحو مائة ذراع ، ويبلغ ماء البحر أصلها ، وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر ، فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون .

وفى الخطط : أنه فى أيام الظاهر بيبرس ، تداعى بعض أركان المنارة وسقط ، فأمر

ببناء ما تهدم منها فى سنة ٦٧٣ ، وبنى مكان القبة مسجداً ، وهدم فى ذى الحجة سنة ٧٠٢ من زلزلةٍ ، ثم بنى فى سنة ٧٠٣ ، وهو باقٍ إلى يومنا هذا .

وبينها وبين مدينة إسكندرية فى هذا الوقت نحو ميل ، وهى على طرف لسان من الأرض قد ركبه البحر ، وهى مبنية على فم مينا إسكندرية ، وليست المينا القديمة لأنها فى المدينة العتيقة ، ولا ترسو فيها المراكب لبعدها عن العمران ، والمينا هى الموضع الذى ترسو فيه مراكب البحر إلى آخر ما قال .

وفى سنة ٣٤٤ تهدم من المنارة نحو ٣٠ ذراعاً من أعلاها ، بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب فى ساعة واحدة ، على ما وردت به الأخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر .

مطلب المجمع الذى كان للمنارة

وكان لهذه المنارة مجمع فى يوم خميس العدس ، يخرج فيه أهل إسكندرية إلى المنارة من مساكنهم ، ولابد أن يكون فيها عدس ، فيفتح باب المنارة وتدخله الناس ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ولا يزالون كذلك إلى نصف النهار ثم ينصرفون . ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدوّ .

وقال بعضهم : إنه قاسها فوجد طولها ٢٣٣ ذراعاً ، وهى ثلاث طبقات ، الطبقة الأولى مربعة وهى ١٢١ ذراعاً ونصفاً ، والثانية مثمنة وهى ٨١ ذراعاً ونصفاً ، والطبقة الثالثة مدوّرة وهى ٣١ ذراعاً ونصف ذراع .

وذكر ابن جبير فى رحلته أن منار إسكندرية يظهر على بعد ٧٠ ميلا فى البحر ، وأنه قاس أحد أضلاع المنارة فى سنة ٥٧٨ هجرية فوجده يزيد على ٥٠ ذراعاً ، وأن الارتفاع يزيد على ٥٠ باعاً ، وفى أعلاها مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه .

وذكر فلاوبوس يوسف فى وصف فزائل[١] بمدينة القدس ، الذى ارتفاعه ٥٠ ذراعاً ، وضلع مربع قاعدته ٤٠ ذراعاً ، أن شكل هذه المنارة يشابه شكل منار إسكندرية .

وذكر فى مواضع أخر : أن نور منار إسكندرية يرى فى البحر على بعد ٣٠٠ أستادة .

فيعلم من جميع ما تقدم : أن محل المنارة هو برج قائد بيك ، وأنه المنارة المذكورة قديماً ، وربما كان سابقاً على البطالسة ، وأنه من بناء الفراعنة ، وأجرى به الروم عمارات وزيادات ، وكان فى غاية الارتفاع لأجل مشاهدة المراكب من بعدٍ بعيد جداً عن المدينة ، حتى يتمكن أهلها من الاستعداد لمقابلة العدوّ .

وفى خطط الفرنساوية فى صحيفة ٢٢٥ : أن أحد شراح لوسيان ، ذكر أنها مشابهة لأهرام مصر ، وأن طول ضلعها أستادة .

فإن صح ذلك ، لزم أن تكون الجزيرة فى الأيام السابقة أكبر مما هى عليه الآن بكثير .

وذكر مؤرخ النوبة : أن ارتفاعه ٣٠٠ ذراع ، وعلى كل حالٍ ، فليست أقل من مائة أو مائة وعشرين مترا ، وإلا لما ظهرت من بعد ٣٠٠ أستادة ، يعنى قريباً من ٤٠٠٠ متر .

والمنار الجديد الذى بنى زمن العزيز محمد على باشا ، فى غربى رأس التين من جهة البحر ، يرى فى البحر من بعد ١٣٤٠٠٠ متر ، مع أن ارتفاعه عن سطح البحر الملح لا يزيد عن ٦٥ مترا ، وفى خطط الفرنساوية ما يدل على أن المنارة المذكورة كانت من أعظم المبانى ، لأن (بلين) قال :إن تكاليفها بلغت ٨٠٠ تالان ، يعنى ١٢٠٠٠٠ بنتو ، وهذا التالان هو تالان أتينه ، وقيمته ١٠٠٠ ايكو فرنساوى ، لأن الرومانيين كانت تستعمله ، ولو أراد التالان الإسكندرانى لبلغت التكاليف الضعف تقريبا .

---

(١) يعنى : برج فازائيل Phazal / وهو من الآثار اليهودية بالقدس .
انظر رسالة محمود الفلكى عن الاسكندرية وضواحيها ص ٩٥ ، ٩٦ .

وعبارة (أميروس) تفيد أن مينا إسكندرية ، كانت مطروقة قبل وفود إسكندر على أرض مصر ، وكان فيها كثير من الصهاريج ومجارى المياه ، وكانت السفن تأخذ مياهها منها .

ولا بعد فى ذلك ؛ لأنه لا يعقل وجود مدينة بدون وجود ماء ، وتردد السفن على المينا يقضى بوجود المنار لهدايتها ، فحينئذٍ لا يبعد كونها من مبانى الفراعنة .

وفى كتاب (جسكى) أن جزيرة فاروس كانت معلومة قبل بناء إسكندرية بستة قرون ، وذكرها (أميروس) بهذا الاسم ، ولابد أنه مأخوذ من اسم المنار ، لأن فاروس بالرومية معناها : محل النور .

واتفق جميع المؤرخين على أن رقودة سابقة على إسكندرية ، وأنها من مدة الفراعنة ، وكانت بلداً تجارية وحوصرت مراراً بسكان سواحل البحر ، وكان ــ قبل الآن بثلاثين قرناً ــ يمر بها الصوريون ، والكنعانيون ، وكثير من سكان جزائر البحر ، فلا بد أنه كان فى المينا شىء يهتدى به ، وليس ثم غير المنار ونوره ، ولابد أنه كان فى مينا رقودة كما كان فى غيرها ، وأن الجزيرة استعارت اسمها منه لا أنه استعار اسمه منها .

وفى كتاب (مانى) الفرنساوى : أنه فى زمنه ــ يعنى سنة ١٧٣٠ ميلادية ــ كان لا يوجد لمنار إسكندرية أثر بالكلية ، وكان محله قلعة صغيرة فيها برج صغير من مبانى المسلمين ، وكان هو المستعمل فى هداية المراكب القادمة على إسكندرية .

ولما دخل الفرنساوية مصر ، كان محل المنار سوراً ، والقلعة فى جزء صغير منه ، وكان السور فى محل أصغر من المحل / الذى كانت به المنارة القديمة ، كما كان يظهر ذلك من الآثار ، ويظهر أنه كان هناك جامع ، وكانت تسمى هذه القلعة عند الإفرنج القاريون .

ومن ضمن ما وجد محل المنارة ، حيضان قديمة من الرخام ، وعواميد ، وبعض أسلحة ، وجلل من الحجر ، وغير ذلك .

الجسر المسمى هيبتاستاد

هذا الجسر كان الطريق الموصل بين جزيرة رأس التين والمدينة . وكلمة هيبتاستاد مركبة من كلمتين : هيبتا التى معناها ٧ ، وأستاد التى معناها غلوة ، فعلم من ذلك أن هذا الجسر كان طوله سبع غلوات .

وذكر (استرابون) أن هذا الجسر كان متجهاً نحو النهاية الغربية من جزيرة رأس التين .

وكان به فتحتان لدخول المراكب من المينا الشرقية إلى المينا الغربية ، وكان طريقاً لمجرى ماء النيل إلى الجزيرة (وجول سيزار قيصر) قدرها ٩٠٠ خطوة ، وجعل (هيروتوس) هذا الطول ٨٠٠ خطوة فقط ، وذكر أنه كان عند كل فتحة طابيتان : طابية من جهة البلد ، والأخرى من جهة الجزيرة .

وقد عين محمود بيك فى البحث الذى أجراه على آثار المدينة القديمة ، أن محل الطابية التى كانت فى جهة البلد : كوم النادورة ، وأما الطابية الأخرى فمحلها الآن حمام صفر باشا ، وقد هُجر هذا الجسر من زمن مديد ، ورُدم بعضه وبنيت فوقه منازل كثيرة ، وهى ما بين كوم النادورة وحمام صفر باشا ، وكذلك ردم جزء من المينا القديمة وبنى فوقه منازل أيضا ، وبالإطلاع على خرطة إسكندرية يعلم قدر المردوم منها .

المينا الشرقية

هذه المينا هى التى كانت مشهورة فى الأيام العتيقة ، ويسميها الإسكندرانيون ـ الآن ـ بالمينا الجديدة ، وكان يسميها من قبلهم (مانيوس بورتوس) المينا الكبيرة ، وكان مدخلها ضيقا وبه شعوب وصخور كثيرة ، منها ما يظهر على سطح الماء ، ومنها ما هو مغطى به ، وكان فى داخلها سرايات كثيرة للملوك ، بعضها مبنى على الصخور الطبيعية ، وبعضها بُنى فوق صخور حادثة ، وكان ساحلها من ابتداء برج السلسلة ، إلى آخر السبع غلوات ، مزينا بالسرايات الفاخرة ، والمبانى البهجة والعمارات الميرية .

ويعلم مما ذكره فلاوبوس يوسف ، أنه على شمال الداخل فيها ، جسر فى غاية المتانة والصلابة ، وعلى يمينه جزيرة فاروس (رأس التين) ولذا كانت السفن التى تدخلها فى غاية الأمن ، وسعتها ٣٠ أستادة ، وهذا يطابق محيطها ـ الآن ـ وقدره قريب من ٥٠٠٠ متر .

وقد عثر محمود بيك ، أثناء بحثه عن آثار إسكندرية القديمة ، على بواقٍ من الجسر المذكور تحت سطح الماء بقدر ٣ بل ٤ أمتار ، وتلك البواقى متجهة من برج السلسلة إلى جهة مدخل المينا ، ويمتد إلى مائتى متر تقريبا .

ويظهر أن الحفر الموجودة الآن فى مدخل المينا كانت من ضمن الجسر المذكور ، فإن كان كذلك ، كان طول الجسر ـ من ابتداء برج السلسلة ـ نحو ٩٠٠ متر فى الطول ، و٦٠٠ فى العرض .

ومن هنا يعلم أن المينا كانت مقفولة من جميع الجهات ، ما عدا الفم الذى كانت السفن تدخل منه ، الذى هو من جهة المنار ، وعرضه ٦٠٠ .

والظاهر أنه كان منقسماً إلى قسمين : أحدهما صغير وهو الذى كان من جهة المنار وقدره ١٠٠ متر تقريبا ، والآخر عرضه ٢٠٠ ، وكانا منفصلين بصخرة وهى الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار .

وفى كتاب (مانى) الفرنساوى : أن الفتحة الكبرى كانت بقرب المنار ، وتنتهى بصخور بنى فوقها قلعة ومنارتان ، والفتحة الثانية : كانت بعد هذه ، وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منارٌ ثالث انهدم ، ولم يبق له أثر فى وقته ، وكانت المراكب تمر بين الثانى والثالث من المنارات ، ولكنه لصغره وكثرة صخوره ، كان لا يستعمل إلا للمراكب الصغيرة ، والآخر هو الذى كان يكثر استعماله . وكانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحديد .

وقد عثر محمود بيك ـ أيضا ـ على آثار المينا الصغيرة ، التى غربىّ برج السلسلة ومتصلة به ، وكانت معدة لمراكب الملوك ، وعلى جزيرة داخل المينا بعيدة عن نصف الساحل بقدر

٣٠٠ متر ، وموضعها غربي مينا الملوك على بعد ٤٠٠ متر منها ، وشكلها شكل حدوة الحصان ، والآن صارت كغيرها تحت سطح الأرض بقدر ٣ أو ٤ أمتار ، وظن أنها الجزيرة التي كانت فوقها سراية (التيمنوم) ، وكان يتوصل منها إلى البر بجسرٍ في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات ، وكذا على آثار غير هذه من آثار المباني والسرايات ، التي كانت داخل المينا .

والمسافة الكائنة بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات طولها ٢٢٠٠ مترا ، وكان به السرايات الملوكية ومباني البحرية ، وكانت إحدى السرايات المسماة بالسراية البرانية محل برج السلسلة ، ولعل سبب تسميتها بذلك خروجها عن المينا .

وعلى مقتضى ما ذكره (بلين) أنه كان مسلتان عند سراية السيرابيوم ، التي بنتها كليوباترا الملكة ، ومحلها الآن محدّد بالمسلة القائمة ، وهذه السراية كانت باقية زمن (استرابون) وكان إحدى المسلتين ــ عند دخول الفرنساوية ــ قائمة ، والأخرى ملقاة على الأرض ، وقيس ارتفاع القائمة من القاعدة إلى آخر الهرم الأعلى فوجد ٦٢ قدما ؛ أعنى ٢٠,٤٦ متر ، وعرض ضلع القاعدة ٧ / أقدام وثلاثة أصابع ، وحُسب مكعبها فوجد ٧٠ مترا مكعبا وعشرين من مائة ، ووزنها ١٨٦٢٤٦ كيلو جرام و٦٣ سنتجرام ، وهاتان المسلتان من آثار الفراعنة ، ونقلا إلى إسكندرية زمن البطالسة ، وكانا زينةً أمام السراية الملوكية فى مواجهة المعبد .

٤١

وكان بقرب السراية من جهة الشرق ، ما بين برج السلسلة والمسلة ، برج عظيم السعة ، مستدير مركب من ثلاث طبقات ، ويسمى عند الإفرنج بالبرج الرومانى ، ولابد أنه البرج المعروف ببرج المسلة .

والسرايات الأخر كانت بين هذه السراية وبرج السلسلة والتياترو .

والسراية التى أقام بها قيصر حين دخوله مصر ومحاربته مع (مارك انتوان) كانت فى مقابلة جسر التيمنيوم ، من جهة المدينة منحرفاً قليلاً إلى الشرق .

مطلب فى بيان محل السوق المعروف فى كتب الروم باسم النبريوم

ومن السيرابيوم إلى جسر السبع غلوات ، كانت السوق المعروفة فى كتب الروم باسم (النبريوم) وكان به معبد (نبتون) ويظهر أنه كان معداً لبيع أصناف التجارة الواردة والصادرة ، وأنه كان بالمدينة أسواق غيره ، وهذا السوق كان أشبه شيء بالبروسة الآن .

وفى خطط الفرنساوية لمصر : أن (أمزيس) أحد فراعنة مصر ، كان جعل عدة أسواق من هذا القبيل فى المدن المعتاد لتجارة الأروام فيها ، وكان ذلك قبل دخول الفرس أرض مصر ، وكان يجلس فى هذه الأسواق عرفاء وقضاة لفصل القضايا ، وكان بقرب السوق المذكور ، مخازن البضاعة المعدة للبيع فى السوق المذكور ، ثم بعد ذلك الترسانة

وكان أمام جسر السبع غلوات ميدان متسع من جهة المدينة ؛ على ما ذكره (هيرينوس) .

وقال (استرابون) ، بعد أن ذكر المينا الكبيرة وما اشتملت عليه ، أن مينا (أونست) فى الجهة الثانية من جسر السبع غلوات ، وكان بها مينا حفرها الآدميون تسمى (سيبتوس) وحولها ترسانات ، وفى آخر هذه المينا فم خليج كان موصلاً إلى الملاحة ثم إلى بحيرة مريوط ، وكان خلف الخليج المذكور جزء صغير من المدينة ثم خطط لنكروبوليس (مدينة الأموات) .

ثم قال : وفيها كثير من البساتين والقبور ، ومنازل لتصبير الأموات .

والخليج الذى تكلم عليه (استرابون) أثره يوجد الآن جهة المكس ، بعيداً عن البلد بخمسة آلاف متر وخمسمائة تقريباً ، ووجد من جهته البحرية أثر أرصفة تعين المينا التى كانت فى البحيرة ، وهو الذى جعله (جليس بيك) خندقاً من الجهة الجنوبية الغربية لاستحكامات الإسكندرية .

وقال محمود بيك : إن مينا (سيبتوس) التى معناها الصندوق ، بقرب جسر السبع غلوات ، وأن مينا (أونوس) بعدها . ولكن يخالفه ما ذكره (ميسومانى) الفرنساوى فى كتابه

على مصر المؤلف سنة ١٧٣٥ ميلادية ، حيث قال : إن أول مينا تقابل القادم على مصر من الجهة البحرية هى مينا (سيبتوس) ، التى هى شرقى برج العرب ، البعيدة عنه بقدر ٤ أو ٥ فراسخ ، وليست منفصلة عن مينا (أونوست) إلا بقدر ميلين أو ثلاثة ، وكان الخليج معدا للملاحة بينهما .

ولم تكن هذه المينا مستعملة إلا فى النادر ، بسبب أنها عرضة لتسلط الرياح الشمالية ، ولذا لا تدخلها المراكب إلا عند عدم إمكان الوصول إلى مينا (أونوست) ، فإن جزيرة رأس التين تحفظها من تسلط الرياح .

وعبارة (استرابون) تفيد أن الخليج يخرج من مينا (سيبتوس) ، وأن مينا (أونوست) بعد المينا الشرقية ، ومينا سيبتوس من ضمنها وهى بعدها أيضا .

وأظن أن هذه المينا ، كانت جهة المينا التى كان يقف بها وابور المرحوم سعيد باشا عند باب العرب ، والمينا المستعملة الآن هى مينا أونوست المذكورة ، ويوجد مدخلها بين الأرض والنهاية الغربية لجزيرة رأس التين ، وهو عسر العبور لضيقه وكثرة شعوبه ، لكن متى جاوزته السفن كانت فى مينا متسعة عظيمة آمنة ، وكانت فى الزمن القديم متحدة مع المينا الشرقية ، ثم انفصلتا بجسر السبع غلوات فى زمن الروم ، فصار ما فى جهة الغرب المينا القديمة ، وما فى جهة الشرق المينا الجديدة ، وهى المستعملة الآن .

وبعد أن كانت هذه المينا مختصة بالسفن الواردة من الجهات الأروباوية ، والمينا القديمة مختصة بسفن المسلمين ، صارت المينا القديمة مشتركة بين سفن المسلمين وغيرهم .

وجميع العمارات البحرية المختصة بعمارة المراكب ، والجمرك ، وديوان البحرية ، والحوض الذى عمل فى زمن المرحوم محمد علىّ باشا فى الجهة الشرقية البحرية منها ، وصار الشروع زمن الخديوى فى عمل مولص يمتد فى وسطها بأرصفة فيه وفى دائر المينا ، من ابتداء فم المحمودية إلى الحوض ، فقفل فمها من جهة البحر بجسر من الأحجار ، لسهولة تفريغ البضائع الواردة والصادرة ، وزيادة الأمن ، ومنع الموج وتسلط الرياح فى داخلها ، ليكون جميع السفن على غاية من الأمن .

وبهذه الوسائط مع الحوض الجديد ، الذى صنع فى زمن الخديوى ، لإصلاح المراكب عوضا عن الحوض القديم ، صارت هذه المينا من أعظم المين ، ويرى فيها كل يوم عددٌ كثير من السفن التجارية وغيرها ، الواردة من جميع الأقطار .

٤٢ ولا يوجد شىء من الآثار القديمة / حول المينا بل كل ما هو هناك حادث .

والرياح الكثيرة الهبوب فى السنة هى الرياح الشمالية البحرية ، وتيار المياه فى المينا من الغرب إلى الشرق ، وهما اللذان مع تمادى الأيام كانا سبباً فى ردم جزء عظيم بنى فوقه الناس ، ودخل ضمن أرض المدينة الجديدة ، وكان عند دخول الفرنساوية لا يوجد بها محلات لعمارة السفن ، فأحدثوا لذلك محلاتٍ وقتية فى محل الترسانة الحالية .

العمارات الملحقة بالسرايات

من ذلك مدفن البطالسة ، وقبر إسكندر ، وكانت الأروام تسمى ذلك سوما : يعنى (الجسد) وكان فى وسط المدينة ، بناءً على ما ذكره (تيتوس) .

وقد استدل محمود بيك ـ فى مباحثه ـ على أن كوم الدكة يوافق ذلك ، لأن كوم الإسكندرانيين يسمونه كوم الديماس ، ومن جملة مبانيه : السرداب والحمام ، ويظهر أن ذلك أحد السراديب التى كانوا يدفنون بها موتاهم ، ويؤيد قوله أنه عثر هناك على قبورٍ شتى فيها كثير من العظام ، وأن أصحاب المنازل المبنية هناك عثروا على كثير من ذلك .

مطلب فى تحقيق أن نبى الله دانيال لم يدفن بمدينة إسكندرية

أعتقد أهل الإسكندرية أن نبى الله ، دانيال ، دفن بالإسكندرية فى أسفل كوم الدكة ، واتخذوا قبره مزاراً . ولكن لم يقل أحد من المؤرخين ، لا من العرب ولا من غيرهم ، بأن هذا النبى دفن بها ، ومن المعلوم أنه مات فى مبدأ زمن (كيروس) قبل بناء الإسكندرية بثلاثة قرون ، وتقضى زمنه فى مدينة بابل ، ولذلك قال محمود بيك : إنه لم يدفن

بالإسكندرية ، والقبر الذى يعزى إليه يمكن أنه قبر الإسكندر ، وليس ذلك ببعيد .

وذكر (ليون) الأفريق ، وكان فى القرن الخامس عشر ، أنه رأى أهالى الإسكندرية تعظم قبر الإسكندر كتعظيمهم للنبى .

وفى سنة ١٥٤٦ ذكر (مرمول) أنه شاهده فى وسط المدينة ، قريباً من كنيسة سان مارك .

ومدفن البطالسة السابق الذكر كان ملحقا بالسراية ، وكذا المزيوم ، وهو عبارة عن محلٍ يجتمع فيه عدة من العلماء ، وكان به دار كتب حُرِّقت عند وضع سيزار ، أو قيصر النار ، فى سفن الإسكندرانيين .

وبناءً على ما ذكره (استرابون) ، كان به محل تنزه وذلك للجلوس ، يجتمع فيه العلماء لتعاطى الطعام ، وكان لهؤلاء العلماء إيراد مشترك ، ورئيسهم فى الأصل كان من الكهنة ، وكان توليته بأمر الملك ثم صار بأمر القيصر .

وبيت قنصل بروسيا الآن بالإسكندرية ، هو محل المزيوم المذكور ، وأما السيرابيوم فمحله على التحقيق عمود السوارى ، وهو من بناء (بطليموس ستير) فى قرية رقودة ، على ما ذكره (تاسيت) ، فى محل المعبد الذى كان للمقدس (ازيس) وللمقدسة (سيرابيس) معبودة أهالى هذه القرية قديماً .

وذكر المؤرخ المذكور : أنه فى زمن بطليموس ، أول مؤسس دولة البطالسة ، حين كان مشغولا بزينة المدينة ، رأى فى نومه شابا جميل الصورة عظيم الخلقة ، فأمره بأن يرسل إلى بلاد البون من يأتى بتمثاله ، ووعده ببقاء ملكه وسعادته ، ثم بعد ذلك صعد إلى السماء فى وسط سحابٍ من نار ، فتعجب بطليموس من ذلك ، وأرسل إلى المعبرين من المصريين ، وقصّ عليهم ما رآه ، فلم يدروا بلاد البون ، فأرسلوا أحضروا من ناحية ايلوزى (بتمونى الاثنين) وسألوه فى ذلك ، فبعد أن استفهم ممن لهم معرفة بهذه البلاد ، قال : إنه فى ضمن

الولاية مدينة تسمى (هيتوب) ، وبقربها معبد يقال له : معبد المشترى بلاتون ، فلم يلتفت بطليموس لذلك واشتغل بحظوظه ، فأتى له الشاب وضايقه وقال له : إن لم تنجز ما أمرتك به أضعتك وملكك ، فأرسل رسلاً من طرفه بهدايا إلى ملك البون ليطلب التمثال ، فحصل منه توقف ولكن بكثرة الهدايا والتهديد سلمه . فلما حضر التمثال بنى له معبد السيرابيوم

وذكر أغلب المؤرخين : أنه مصرى ، وذكر (جابيلونسكى) أنه (صنوب) بقرب منفيس اسمه (صنوبيوس) كان بقربه معبد سيرابيس ، وهو المراد فى عبارة (تاسيت) .

وكان المصريون يزعمون أن سيرابيس يشفى من الأمراض ، وكان له كتاب من القسوس ، يقيد ذلك فى دفاتر مخصوصة ، وكان لهذا المقدس معابد كثيرة بمصر أشهرها ما كان بمنفيس والإسكندرية ، وكان منها واحد بمدينة كانوب له شهرة عظيمة .

وكان بقرب السيرابيوم الملعب المعروف عند الروم بكلمة : استاد ، وكان يلعب فيه على رأس كل خمس سنين ومحله الجمناس ، على ما حققه محمود بيك ، وكان على الشارع الكبير المار فى وسط المدينة طولا ، ومن ضمنه الآن شارع باب شرق ، وعلى الشارع الكبير القاطع للمدينة عرضا وزاويته الشرقية البحرية تقاطع الشارعين . وباب شرق الآن ـ أو باب رشيد ـ يقع فى جهتها البحرية بقليل .

وكان الجمناس المذكور أو الملعب ، عبارة عن محل متسع محاط ببوائك محمولة على أعمدة فى طول استاد ، وكان بوسطه ـ على ما ذكره استرابون ـ المحكمة والبساتين .

وقد شاهد (مانى) الفرنساوى فى هذا المحل سنة ١٧٣٥ ميلادية عدة أعمدة ، بعضها قائم وبعضها ملقى على الأرض فى مسافة خمسمائة خطوة ، وجميعها على خط مستقيم تدل على أحد أضلاع الميدان ، وفى مقابلتها بعض أعمدة أخرى تؤيد ذلك ، وكان أثر بناء من الطوب فى الوسط يدل على بقايا نافورة ، فإن لم يكن ذلك / الجمناس فهو الميدان الملاصق له .

مطلب فى الكلام على دار الكتب الصغيرة التى كانت بالإسكندرية

قد ذكر أعيان مارسلان عند التكلم على السيرابيوم ، أنه كان به دار الكتب ، لكنها غير دار الكتب الكبيرة التى كانت ملحقة بالسرايات ، ويؤيد ذلك ما ذكره (وتروف) حيث قال : إنه كان بمدينة الإسكندرية داركتب غير الكبيرة ، ولم يكن ثم غير الموجودة فى معبد السيرابيوم ، ولبعدها عن المينا لم تصلها الحريقة ، التى احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الإسكندرانيين قيصر .

وقد قيل إن عدد ماكان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠٠٠٠ مجلد ، وفى زمن كليوباترا أضيف إليها مائتا ألف مجلد ، كانت بداركتب مدينة بيرجام ، فأخذها (أنتوان) معشوقها وأهداها إليها .

وبعد احتراق دار الكتب الكبرى ، صار لا يوجد بمدينة الإسكندرية غيرها ، وبعد أن كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ، ألحقا بمعبد السيرابيوم ، ومن ذلك الحين اتسعت شهرته إلى القرن الرابع من الميلاد .

ونقل (أمبير) الفرنساوى أن هذا المعبد احترق مرتين : مرة فى زمن القيصر (ماركوربل) ومرة فى زمن القيصر (كومور) .

وفى خطط الفرنساوية : أن إحراق السيرابيوم كان بأمر البطريق (بتوفيل) بعد توقف كثير من العلماء والأهالى ، ثم بنى محل السيرابيوم كنيسة سميت أركاديوم ؛ من اسم القيصر (أركاديوس) المتولى تخت القيصرية بعد القيصر (تيودوز الأكبر) وجعل فيها داركتب ، جمع فيها ما أبقته النار ، وشيئاً كثيراً من كتب النصرانية وهى التى ينسب إحراقها إلى عمرو ابن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك إليه ، فإن هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين فى عصره ، من النصارى وغيرهم ، ولم يظهر ذلك إلا فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، من كتابةٍ تنسب إلى أبى الفرج بطريق مدينة حلب ، مع أنه لم يذكرها فى تاريخه العام .

وفى النبذة السنوية لمجلس مصر اللانبستينو . أى المجلس العلمى ، من ضمن ما قيل فى جلسة أغسطس سنة ١٨٧٤ ميلادية ، أن (بولص أوروز) من تلامذة (ماراى أجستان) (ومارى جيزوم) لم يجد شيئا من الكتبخانة حين مروره بإسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد ، يعنى قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة ، فالظاهر أن القول بأن إحراق كتبخانة إسكندرية كان بأمر سيدنا عمر ، محض افتراء اختلقته قسوس النصارى ، فإنه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الإسلام ، والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية ، قد محتها أيدى النصارى .

مطلب فى الكلام على الجامع المعروف بجامع الألف عمود

ويقال له الجامع الأخضر ، وجامع السبعين ، كان الداخل من باب المدينة الغربى يشاهد الجامع المذكور عن يمينه ، وكان موجوداً بتمامه زمن دخول الفرنساوية ، وكان يتعجب من كثرة أعمدته ونظامه ، وكان شكله مربعا .

وإنما يسمى بجامع الألف عمود وجامع السبعين لأن الاثنين والسبعين حبراً الذين ترجموا التوراة من العبرية إلى الرومية ، فى زمن بطليموس فليدانوس ، كانوا مقيمين به مدة الترجمة .

ولكن يظهر مما ذكره بعضهم : أن الترجمة كانت فى جزيرة رأس التين بإسكندرية ، وظن بعضهم أنه من المبانى القديمة ، وأنه كان قبل أن تجعله المسلمون جامعاً ، كنيسة من كنائس إسكندرية فى زمن قياصرة القسطنطينية ، باسم الشهيد سان مارك ، وكان بطريق إسكندرية يقيم بها . وقبل ذلك ، فى زمن قياصرة روما ، كان محكمة أو ديواناً .

مطلب فى الكلام على وصف مدينة إسكندرية بعد فتح المسلمين لها وما فعلوه بها

لما فتح الله على المسلمين مدينة إسكندرية سنة ٦٤٠ من الميلاد ، أبقوا أسوارها على ماكانت عليه فى زمن الرومانيين ، وعمروا ما تهدم منها بالمحاصرة التى أقامت أربعة عشر شهرا ، واستشهد فيها من العرب ما يقرب من ٢٣٠٠٠ نفس .

لكن بسبب تركهم المدينة وإقامتهم بمدينة الفسطاط ، نقص أهل مدينة إسكندرية مع مرور الزمن .

وفى القرن التاسع من الميلاد ، أعنى بعد فتح مصر بقرنين ، أيام خلافة المتوكل وهو العاشر من بنى العباس ، والثانى والثلاثون من الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هدم أحمد بن طولون الأسوار القديمة وبنى غيرها ، فما كان جهة الغرب بقى على ماكان عليه مع بعض تغيير ، وأما ماكان من الجهة الشرقية والجهة القبلية فقد دخل كثير الخراب هاتين الجهتين . وذكر بعضهم أن ابن طولون إنما عمر الأسوار القديمة فقط .

ثم فى سنة ١٢١٢ اعترى المدينة والأسوار تخربٌ فاحش ، فبنى أحد من تولى على تخت الديار المصرية ، بعد صلاح الدين ، أسواراً أخر وهى التى بقيت إلى دخول الفرنساوية ، فعلى ذلك يكون قد بقيت أسوار مدينة الروم قريبا من ٦٠٠ سنة بعد الفتح ، وجميع المؤن التى بُنى بها سور ابن طولون أخذت من الأطلال والأسوار القديمة ، وكذلك جميع العمارات التى حدثت بعده فى أزمان السلاطين من المماليك ، إلى دخول السلطان سليم ، كلها كذلك من المبانى القديمة .

وبهذا الانتقال ، كانت مساحة المدينة فى زمن ابن طولون أقل من نصف مساحتها فى زمن الرومانيين ، وبقيت على ما وضعها عليه ابن طولون إلى زمن دخول الفرنساوية ، لكنها على حسب / الأزمان والأحوال كانت أخذت فى التخرب .

وفى سنة ١٧١٨ ميلادية ، بناء على ما ذكره (مابى) ـ قنصل فرنسا فى ذاك الوقت ـ فى وصف إسكندرية ، أن التخرب كان قد اعتراها وغيَّر معالمها ، حتى صار لا يوجد فى مدينة العرب أكثر من مائة بيت ، وتحول غالب الناس إلى ساحل المينا ، وبنوا منازلهم فوق الأرض ، التى حدثت من إنحسار البحر ، فى محل السبع غلوات ، وهُجرت مدينة العرب بالكلية ، فكانت خراباً بلقعا لا يأوى إليها إلا أشقياء الناس ، وتلك البلد التى حدثت بنيت بأنقاض مدينة الأروام .

وعلى هذا ، كان الخراب ممتداً من مكان مدينة كانوب إلى باب العرب على ساحل البحر ، ومن جهة الأرض إلى ساحل البحيرة وخليج إسكندرية ، وكان لا يزيد عدد أهل البلد الجديد عن أربعة آلاف نفس بمن وفد إليهم من سائر الولايات .

مطلب فى بيان مساحة مدينة إسكندرية فى أيام الفرنساوية

يظهر من رسم الفرنساوية لهذه المدينة ، أن محيط أسوار مدينة العرب أربعة آلاف وثلثمائة تواز ، أعنى قريباً من فرسخين ، وكان فى زمن الأروام ١٣٤٠ توازاً ، وكان يمكن مقارنتها بمدينة القاهرة لمعرفة عدد السكان ، لأن عوائد السكن واحدة فى المدتين ، فنقول : إنه قيس مساحة إسكندرية فوجدت ٨٠٠٠٠٠ تواز مربع ، وهو أقل من نصف المساحة القديمة ، وكان محيط القاهرة عند دخول الفرنساوية ٢٤٠٠ ألف متراً و١٢٠٠ تواز ، ومساحتها ٢٠٨٨٥٤٠ توازاً مربعاً ، وأهلها ٢٥٠٠٠٠ نفس .

فبناء على ذلك ، يكون أهل إسكندرية فى زمن ابن طولون قريباً من ٨٠٠٠٠ نفس ، أعنى أنه حصل ـ فى ظرف مائتى سنة ـ نقص سبعة أثمان أهلها ، مع ضياع شهرتها القديمة . ومع ذلك فكانت من المدن الكبيرة ، ولم تتحول عنها التجارة حتى يزول كل سعدها .

ويستفاد مما ذكره أبوالفداء ، أن كثيراً من حارات البلد ـ لغاية القرن الثالث عشر من الميلاد ـ كان باقياً على وضعه القديم ، وكذلك المنار ومبانيها العظيمة .

ونقل عن السلف من المؤرخين : أن أسوار المدينة ـ فى غير جهة البحر ـ كانت عبارة عن حائطين أو ثلاثة بينهما أبراج يبلغ عددها ـ على ما قيل ـ مائة ، بعضها من طبقتين ، وبعضها من ثلاث طبقات ، وكانت تبرز عن سمت الأسوار داخلاً وخارجاً ، لأجل كشفها بالمحافظين ، وكان بعض الأبراج المذكورة فى غاية من العظم والمتانة ، حتى كان يُرى ـ على حدته ـ كقلعة حصينة .

ولولا التراخى والإهمال ، وعدم النظر فى الأحوال ، ومعرفة (مابى) ؛ لكان فى الإمكان صد الفرنساوية ، ومنعهم عن الدخول إلى أن تستعد الحكومة وترسل لهم من يطردهم ، لكن يظهر أنه فى تلك الأوقات كانت أهمية إسكندرية منحصرة فى إيراد الجمرك لا غير ، ولذا لم يجد جيش الفرنساوية من يصده ويردعه ، وأُخُذت المدينة بقليل من العساكر بدون مكافحة ولا حرب ولا إطلاق مدفع .

ولما دخل الفرنساوية ، كان داخل المدينة أشبه شيء بمبانى الأرياف ، وكانت حاراتها ضيقة غير مستقيمة ، والمنازل متلاصقة قليلة الإرتفاع ، وأكثرها أرضى ، وكان لا يوجد بها غير جامعين للمسلمين وديرين للنصارى ، وكان ما حول البلد جميعه خراباً ، وكان إذا وجّه الإنسان وجهه إلى أى جهة ، يجد بعض قطع الأعمدة والصخور ملقاة على وجه الأرض أو مدفونة بها ، وكان يوجد فى وسط ذلك كثير من كوش الجير ، تدل على أن الأهالى كانت تحرق ما بقى من المنازل القديمة ، وكانت الأرض تحفر لإخراجها منها ، وترتب على ذلك وجود حفر كثيرة فى أرض المدينة ، فكم هلك من آثار المدينة العتيقة بهذه الأسباب .

مطلب فى بيان عدد أبواب إسكندرية التى كانت بسورها القديم

والأبواب التى كانت فى السور خمسة :

الأول : باب غرب ، ومنه كان الوصول بين القبارى والمدينة .

والثانى : باب القرافة ، فى مقابلة جسر السبع غلوات .

والثالث : باب الميدان ، وكان على المينا الكبرى محل باب القمر فى القديم .

والرابع : باب العمود أو باب سدرة ، وهو باب الشمس فى القديم .

والخامس : باب رشيد ، الذى يعرف الآن بباب شرق .

وجميع هذه الأبواب كانت مبنية من أحجارٍ وعمد قديمة ، وكان فى أعتابها أعمدة كاملة ، فكان فى عتبة كل باب عمود وفى أعلاه عمود يمتد بعرض العتبة .

مطلب فى الكلام على ضواحى مدينة إسكندرية

نيكروبوليس : يعنى مدينة الأموات ، وكانت خلف السور من الجهة الجنوبية الغربية ، ومحلها الآن القبارى مع المكس . وكلمة قبارى تحقق ذلك ؛ لأن معناها الدفن ، وكانت حدودها من الشمال الغربى الخليج الموصل بين المينا وبحيرة مريوط . وكان بين محل الدفن وسور المدينة بساتين ومنازل تنتهى إلى خليج يوصل ماء النيل إلى المينا ـ بناء على ما ذكره استرابون ـ .
ومحل إتصال هذا الخليج بالبحر يعرف بباب البحر ، وبعده باب العرب ؛ وسمى بهذا الاسم لدخول المسلمين منه وقت فتح إسكندرية .

وبإضافة طول الأرض المشغولة بالمقابر إلى طول المدينة ، يحصل ١٠٠٠٠ متر ، وهو الطول الكلى ، وبإضافة هذا الطول إلى نفسه ، وإضافة ضعف العرض إليه ـ وهو ١٥٠٠ متر ـ يتحصل على محيط المدينة القديمة وهو ١٢٣٠٠٠ متر تقريباً ، وهو موافق لما ذكره (بلين) من أنه ١٥ ميلاً رومانياً .

ولم يكن هذا المحل خاصاً بالقبور ، بل كان به أيضاً منازل / القسوس المعدة لدفن الأموات ، وبسبب كونها تشرف من جهة على البحر ومن جهة على البحيرة ، بنى بها كثيرٌ من الأهالى منازل وبساتين ، وكان هذا المحل ـ كغيره ـ مملوءاً بالناس ، وفيه محلات للبيع والشراء ، وكان يُعمل به كثير من الموالد يجتمع فيها كثير من الناس .

٤٥

وبعد الخليج ـ بقدر ٦٢٠٠ متر ـ يوجد العجمى ، وكان محله الرأس المعروف عند الأقدمين (شيروزنوس) وبينه وبين النهاية القبلية الغربية من جزيرة رأس التين ، كانت جميع الصخور الموجودة فى فم المينا ، ومنها كانت الثلاثة الأفواه المُعَدَّة للدخول فيها . والبعد بين هذا الرأس وبين سور المدينة ٧٠ أستادة ، على ما ذكره (إسترابون) ، وذلك بالمتر ١١٥٠٠ .

وفى الجهة الشرقية البحرية من المدينة ، على بعد ٣٠ أستادة ، كانت (نيكوبوليس مدينة صغيرة . وكانت الواقعة التى بين (قيصر وأنتوان) هنالك ، وكان بها سرايات الأمراء ، ومنازل الأعيان ، والبساتين النضرة الفاخرة .

ومعنى كلمة نيكوبوليس : مدينة النصر ، واستكشف بها فى هذه الأزمان معبد قريب من المحل المعروف عند الأهالى : بقصر قيصر ، والغالب أنه من ضمن النيكوبوليس ، وكان بعد هذه الناحية ناحية أخرى تسمى (بوكليس) ، وكانت منازلها منها ما هو على البحر ، ومنها ما هو على الخليج الحلو ، وكانت محل تنزه وتفسح ، وكان الخليج المذكور على يمين الخارج من باب كانوب ، بناء على قول استرابون ، وبساحل البحيرة الخليج الموصل إلى ناحية (شيديا) ، وكانت على خليج إسكندرية المتصل بالنهر الأكبر وقبل أن يصل إلى مدينة كانوب يصل إلى ناحية بيلوزه ، وهو محل قريب من إسكندرية ومن نيكوبوليس على شاطىء الخليج ، وكان بها أيضاً بساتين وحدائق ومحلات للنزهة ، يذهب إليها أهل اللهو والفجور من رجالٍ ونساء ، ومحلها الآن على ـ ما حققه محمود بيك ـ جنينة بستزيه ، والخضرة ، وكان به كثير من الدكاكين والمضايف ، وكان يوجد فيه دائماً خلق كثيرون من أهالى إسكندرية بالليل والنهار ، وكان فيه عدة أسواق وموالد سنوية يهرع إليها خلق كثيرون من جميع الجهات .

فلو أضفنا ضواحى إسكندرية إليها لوجدنا مساحة ذلك تبلغ ٢٥ كيلو متراً مربعاً ، وهو ربع مساحة مدينة باريز الآن .

مطلب فى بيان عدد أهالى إسكندرية

لو فُرض أن الأهالى كانت موزعة على أرض إسكندرية ، كما هى موزعة فى أرض باريس ، لوجدنا أن عدة الأهالى تنقص عن ٤٠٠٥٠٠ نفس ، وهذا يحقق ما ذكره (ديودور) وغيره من أن أهلها فى زمن أغسطس كانوا ٣٠٠٠٠٠ من الأحرار ، فبإضافة الأرقاء إليهم يكون ٥٠٠٠٠٠ ، إن لم يكن أكثر من ذلك .

والآن ـ أعنى سنة ١٨٧٢ ميلادية ـ بإضافة أهالى القبارى والمكس والمحمودية إليهم يبلغ عددهم ٢٠٠٥٠ ، وفى وقت جلوس العزيز محمد على باشا ، كان عدد الأهالى من سبعمائة ألف نفس إلى ثمانمائة ألف نفس ، وعند إنتقاله إلى رحمة الله بلغ ذلك ١٠٠٠٠٠ نفس .

مطلب فى الكلام على وصف مدينة إسكندرية

خليج إسكندرية

هذا الخليج كان محاذياً لسور المدينة القبلى ، على بعد ٣٠٠ متر منه ، وفمه الآن بحرى شرق فم المحمودية بقدر ألف متر ، وكان من داخل المدينة معقوداً غير مكشوف .

وترعة المحمودية التى حفرها العزيز محمد على باشا سنة ١٨٢٠ ميلادية كلها محل الخليج ما عدا الفم فإنه فى المينا هو وبعض تعديلات جليلة ، وكان على الخنيج القديم ثلاث قناطر ، بين الخضرة والبلد ، وعند حفر المحمودية تهدمت . وكانت القناطر المذكورة على أبعاد متساوية :

الأولى : من جهة البلد فى مواجهة الشارع الموصل لجسر السبع غلوات .

والثانية : فى مقابلة الشارع الموصل لرأس السلسلة .

والثالثة : قبل ناحية بلوزه على بعد ١٤ أستادة ، ولابد أنه كان فى مقابلتها شارع كبير يوصل إلى الميدان الكبير الذى كان خارج البلد فى الجهة الشرقية البحرية ، وهو الذى كانت الخلق تجتمع فيه للتفرج على الملاعب المعتادة فى كل خمس سنين ، بناء على قول مؤرخى الروم ، أو فى كل سنة بناء على أقوال مؤرخى العرب ، وهذا الشارع كان يوصل إلى المعبد الذى على البحر ومدينة النصر .

ووجود تلك القناطر وسعة المدينة وكثرة أهلها ، يدل على أنه كان فى دائر محيط البحيرة ، وبينها وبين الخليج أراض وبساتين كثيرة للنزهة فى جميع أوقات السنة .

والمسافر من إسكندرية فى خليج شيديا ، بعد أن يجاوز ايلزى بثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، يرى عن شماله فم ترعة كانت تخرج من خليج شيديا ، محاذياً لكثبان الرمل التى بنيت عليها نيكوبوليس ، ثم بعد ذلك تنتهى عند مدينة قانوب .

وكانت قرية شيديا على بعد أربعة وعشرين فرسخاً من إسكندرية ، بناء على ما ذكره (استرابون) وغيره ، وكانت كثيرة العمران تقرب من أن تعدّمن المدن لكثرة أهلها ، وكانت مركزاً لأخذ الجمرك من المراكب الحادرة والمقلعة ، ولذا قال (استرابون) إنه كان هناك قنطرة من المراكب على النهر واسم القرية مستعار من اسم القنطرة .

ويظهر من قول (استرابون) هذا أن شيديا كانت على فرع قانوب ، وعلى بعد ١٦٠ أستادة من إسكندرية ، لأن الشى [١] عبارة عن ٤٠ أستادة على قول المؤلف المذكور .

٤٦ وقد قاس محمود بيك البعد من القرية المعروفة بالنشوة الجديدة ، إلى إسكندرية / فظهر له أن هذه القرية يوافق محلها محل قرية شيديا ، وأن بينها وبين إسكندرية ٢٧ كيلو متراً ، فعلى ذلك تكون التلول الممتدة بقرب القرية فى طول ١٨٠٠ وعرض ٥٠٠ متر ، وقرية نشوة التى فى وسطها هى آثار هذه المدينة ، وأن فرع النهركان فى أسفل هذه التلول جهة الجنوب ، ممتد إلى قريب من ٢٠٠٠ متر ، يعنى قريباً من الكيريون وأن خليج الإتكاوية فى محله .

ويحقق ذلك ما نقله (استرابون) عن (بركوب) من أن النيل كان يأتى إلى ناحية (كيرو) ، وهى قريب من ناحية شيديا على بعد ٢٠ ميلاً من إسكندرية ، وكان يخرج من هذا الموضع خليج إسكندرية ، والنيل ينعطف إلى الشمال ويفارق أرض الإسكندرانيين ، ويكون المحل المسمى (كيرو) ، فى العبارة السابقة ، هو الكاريون لأن البعد من هذا المحل إلى إسكندرية على الخرطة بإتباع إعوجاج الخليج قريب من ٢٩ كيلو ونصفا ، وهو قريب من العشرين ميلاً ، التى عينها (بركوب) .

(١) هكذا فى الأصل ، وفى ص ١٤٨ من رسالة محمود الفلكى عن الاسكندرية القديمة (الشوين Schoene) .

فعلى ذلك يظهر من هذه العبارة ، ومما ذكره (استرابون) ، صحة كون شيديا على النيل ، وأن محلها النشوة الجديدة ، وأن ترعة الإتكاوية الآن بعض الفرع المذكور ، وأن مبدأ خليج إسكندرية كان بين هاتين .

وذكر المقريزى أنه فى سنة ٧١٠ من الهجرة فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، اشتغل ٤٠٠٠٠ من الناس فى تطهير خليج إسكندرية ، وبعد تطهيره قيس فوجد ثمانية آلاف قصبة حاكمية ، من ابتداء فم النيل إلى مشتيار[1] ، ومن مشتيار إلى إسكندرية كذلك ، وكانت فى القديم قرية مشتيار مبدأ خروج الخليج من النيل .

وحيث أن القصبة الحاكمية ٣,٨٥ ، فالثمانية آلاف قصبة بها هى البعد ما بين إسكندرية والمنشية تقريباً ، فتكون هذه القرية فى محل شيديا ، التى فى عبارات استرابون ، وشيتار ، التى فى عبارة المقريزى ، وتكون نقطها من نقط فرع كانوب ونقطة الكاريون ثانية ، ونقطة كانوب ثالثة .

وقد اختلف المؤرخون فى موضعها ، ولكن حقق محمود بيك رسالته ، أنه يقع فى منتصف جسر أبو قير على بعد ٦ كيلو مترات من رأس أبو قير ، وبقدرها من الكوم الأحمر الذى على الساحل ، وعلى بعد ٢ كيلومتر غربى فم بحيرة أتكو المسمى بفم المعدية . فبناء على ذلك يظهر أن البحر زحف على أرض المدينة ، وأن جميع محلها الآن أو أكثره مغطى بالمياه المالحة .

وفم فرع قانوب ، بناء على أقوال المؤرخين وقول الفاضل المذكور ، كان فى أسفل الكوم الأحمر على بعد ٢ كيلومتر من فم المعدية ، وفى هذا الموضع أعنى محل الكوم الأحمر ، كان معبد هيركول ، وكان بينه وبين جزيرة فاروس ، بناء على قول (استرابون) ، ١٥٠ أستادة وهو بالمتر ٢٥ كيلو متراً .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى ص ٣٠١ من خطط المقريزى طبعة لبنان (شنبار) .

وذكر المؤرخون أن هذا المعبد كان فى غاية الإحترام ، حتى كان من يدخله من الأرفاء لا يؤخذ منه ولا يتعرض له ، وبسبب هذه المزية كثرت عنده المساكن حتى صار حوله كمدينة أو قرية كبيرة .

ومن إبتداء الفم إلى قرية شيديا كثبان كثيرة على أبعاد مختلفة ، وبجميعها آثار قديمة تدل على أنه كان عليها بلاد كثيرة عامرة بالخلق ، ومن هذه الكثبان كوم الذهب . وهو على الشاطىء الأيسر من النهر على بعد ٤٠٠٠ متر من الفم فى الجنوب . وبعده كيمان مازين ؛ وهى كيمان متصلة ببعضها فى طول ١٥٠٠ متر ، وهى أيضاً على الشاطىء المذكور على بعد ٨٠٠٠ متر من الفم . وتل الكناس على بعد ١٥ كيلومتراً من الفم و٣٠ من دمنهور ، ولا مانع من أنه محل مدينة انتيل المذكورة فى مؤلفات (هيردوت) وكانت من المدن العظيمة .

مديرية مريوط

هذه المديرية منفصلة عن مديرية البحيرة ببحيرة مريوط التى فى جهتها الشرقية ، ممتدة إلى الشمال والشمال الغربى إلى حد البحر المالح ، وفى الجنوب والجنوب الغربى إلى وادى النطرون ، وبحر بلا ما بعد أبى قير بقدر ٥ ميريامترات ، وكان ماء النيل فى الأزمان القديمة يروى أغلب جهاتها ، وكان بها كثير من المدن والضياع ، وكانت كثيرة الأهالى وبها كثير من أنواع المحصولات ، وكانت مشهورة بجودة النبيذ وكروم العنب ، وكانت ترسل فى كل سنة من نبيذها مقداراً عظيماً إلى مدينة روما وغيرها من المدن ، ويؤيد ذلك ما ورد عن السلف فى مؤلفاتهم .

ولنذكر هنا ملخص ما حققه محمود بيك فى رسالته ، من غير أن ندخل فى تفاصيل

ما ذكره فنقول : قد قسم العالم المذكور أرض هذه المديرية إلى ٤ (١) مناطق مختلفة فى الإرتفاع ، وجميعها محاذ لساحل البحر .

الأولى : وهى ساحل البحر عرضها ٤ كيلو مترات بقرب الشيخ العجمى ، وواحد ونصف فقط بقرب أبى صير ، وفوق هذه المنطقة مدينة إسكندرية وأبوقير ، وهى كثيرة الخصوبة تنبت كثيراً من الخضراوات والبطيخ والتمر ، ويوجد بها إلى الآن كثير من الآثار القديمة التى تدل على أنها كانت معمورة بكثير من القرى والضياع ، وكان بها كثير من المبانى الشهيرة ، وبقيت كذلك أزماناً مديدة .

والمنطقة الثانية : هى المسماة بذراع البحر ، وهى ما ستمر من وادى البحيرة نحو أبى صير وبعده . ومبدؤها فى مواجهة المكس وفيما بين السواحل والجبل الذى فوقه / الشيخ المعروف بالشيخ على مرغب . وعرضها قريب من ٤ كيلومترات فى طول ٢٠ كيلو متراً ، ونصفها الأسفل مغمور بماء البحيرة ، فهو فيها الآن كما كان فى الأزمان السابقة ، والنصف الثانى يشاهد فيه كثير من الجزائر فى أرض مستملحة ، وكان بجميع هذه الجزائر قرى مسكونة فى الأزمان المختلفة ، متصلة بخراب كثير يمتد إلى الشيخ أبى الخير الكائن على بعد ٣٠ كيلومتراً من عمود السوارى فى الجهة الجنوبية الغربية . وعلى بعد ١٩ كيلومتراً من العجمى ، وبقرب أبى الخير يضيق الوادى حتى يكون عرضه كيلومتراً بين الشيخ المذكور وخراب مدينة مريا أو ماريوط ، وفى الجنوب الغربى من هذا الشيخ يتسع الوادى ويكون عرضه كيلو مترين ونصفا فى طول ١٣ كيلومتراً تقريباً من أبى صير ، ومن بعده إلى ٤ كيلومترات تقريباً .

وجميع أرض هذه المنطقة مستملحة لكنها جامدة منحطة عن إستواء ماء البحر ، من إبتداء أبى صير إلى ما بعد البحيرة وفيها كثير من الآثار التى منها خراب متسع فى الشمال الشرقى من أبى صير يمتد فى طول ٩ كيلو مترات ، والخراب الذى فى قرب أبى صير وبرج العرب هو

(١) فى الأصل ٥ وما اثبتناه هو الصواب بناء على ما ذكره محمود الفلكى فى رسالته ص ١٧٤ ، وما ذكره صاحب الخطط فى تقسيمه لمديرية مريوط .

خراب مدينة طابوزريس ، ومن هذا الموضع على بعد بعض ميريامتر فى الجنوب الغربى فى مواجهة منفذ بحر بلاما ، وعلى بعد ١٠٠ كيلو متر من مدينة إسكندرية . وفى هذه المنطقة أرض تعرف بالبردان ، وهى عبارة عن حوض تجتمع فيه مياه الأمطار الساقطة فى الأراضى المجاورة ، وفى جميع أوقات السنة على بعد قليل من سطح الأرض ينبع منه الماء ، ويكفى أن يحفر فى الصيف نصف متر فقط .

والمنطقة الثالثة : هى الجبل الذى فى نهايته البحرية الشرقية الشيخ على مرغب ، ويدخل فى البحيرة على هيئة لسانه ، وتنحصر هذه المنطقة بين هذا الجبل والمنطقة الأولى ، وعرض المنطقة الثالثة ٧ كيلو مترات وطولها نحو ١٠٠ كيلو متر ، وأرضها غير مستوية لكنها خصبة ، وإنحدارها من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وهى الأرض الأصلية للمديرية ، والغيطان الموجودة بها الآن تعرف بالكروم ، وكان بها بلاد كثيرة ، وقد عدّ منها محمود بيك ٤٠ قرية ، يشاهد فيها إلى الآن آثار معامل النبيذ وكثير من السواق والمعاصر . وجميع ذلك يدل على أن هذه المنطقة كانت حسنة كثيرة العمار .

وبين الشيخ على مرغب وأبى صير فى طول قريب من ٣٧ كيلو متراً تشاهد آثار خمس مدن ، من ضمنها خراب مدينة ماريوط ومدينة طابوزريس ، وتسمى العرب الأولى من هاتين بالمدينة ، ومحلها فى الشمال الشرقى من الجبل على بعد كيلو متر غربى الشيخ على مرغب ، وطول خرابها قريب من ١٠٠ متر وعرضه قريب من ٤٠٠ متر على سفح الجبل ، والمدينة الثانية ، قريبة من قصر المرحوم سعيد باشا ، وطول خرابها قريب من ٦٠٠ متر وعرضه ٥٠٠ متر ، وبينها وبين عمود السوارى ٢٠٠٠٠ متر ، ومنها إلى العجمى ١٣٦٠٠ متر ، ومن المدينة إليها ٨٨٠٠ متر ، وفى وسط هذا الخراب كثير من الآبار والصهاريج ومعامل النبيذ .

ويرى فى الشمال الغربى على بعد ٢ كيلو متر خراب تسميه العربان : القصر ، وفيه آثار كثيرة من معامل النبيذ . ويوجد قريباً من هذا المحل وادٍ متسع يقرب طوله من ٣ كيلو مترات ، وعرضه ٢ ، ومساحته تقرب من ١٥٠٠ فدان مصرى ، تسميه العربان بالغيط ، وأطلقت

عليها العساكر فى زمن المرحوم سعيد باشا برنجى مريوط ، واستكشف فيها زيادة عن ١٠٠ ساقية من مبانى الرومانيين والعرب ، وجميعها فى غاية من المتانة ، وبعضها عبارة عن ثمانية آبار تحيط بالبئر الأصلى متصلة به بمجار تحت الأرض .

والخراب المعروف بالقرية ، بينه وبين الخراب الثانى ٤ كيلومترات ، ومنه إلى العجمى ١٥ كيلومتراً ، وإلى الشيخ على مرغب ١٣ كيلومتراً ، وطوله مثل عرضه ، وقدر الواحد ٥٠٠ متر ، ومساحته تقرب من ٧٥ فداناً ، وفيه آثار معامل النبيذ ومعاصر الزيت ، وتقرب مساحة أرض القرية من ٢٥٠٠ فدان ، وقد وجد بها ما يزيد عن ١٠٠ ساقية أيام المرحوم سعيد باشا ، وأطلقت عليها العسكر فى وقته اسم (ايكنجى مريوط) وأرضها منقسمة إلى الآن إلى عدة كروم ، يعرف بعضها بأسماء مخصوصة ، وذلك يدل على أن هذه الأرض كانت كثيرة الكروم .

ثم يوجد خراب آخر يعرف بالسر وهو على ساحل البحيرة على بعد ١٠٠٠ متر تقريباً ، وبينه وبين الخراب السابق ٢٨٠٠ متر فى جهة الغرب ، وعلى بعد ٨ كيلومترات من شرق مدينة مريوط ، ويطلق على أغلب كرومه : كروم السر .

ويوجد غير ما ذكر خراب بينه وبين أبوصير قريب من ٧ كيلومترات ، ومنه إلى مدينة مريوط ١٣ كيلومتراً . ومن ضمن هذه المنطقة أيضاً مدينة قوموتيس القديمة .

والمنطقة الرابعة : تشتمل على جميع الأراضى الواقعة بين المنطقة الثالثة وصحارى ليبيا ، وتمتد إلى فم وادى النطرون وبحر بلاما ، وفيها كثير من آثار القرى والبلاد ، وتعرف أرضها أيضاً بالكروم .

فمن جميع ذلك يعلم ما كانت عليه هذه المديرية فى الأيام السالفة من كثرة العمرات ، وكانت فى / القرون الأولى من النصرانية وزمن قياصرة القسطنطينية ، بناء على ما ذكره (جراثيان لوبير) ، مسكونة بالنصارى الفارّين من الفتن والمنازعات المذهبية ، وبنى بها كثير من الديور ، وورد إليها كثير من الخلق حتى أن القيصر (ولانس) أمر حاكم إسكندرية فى

٤٨

القرن الرابع من الميلاد بأن يجمع كل من كان يصلح للعسكرية من هذه المديرية ومن صحارى الوجه القبلى ، فجمع من مديرية مريوط ومن خط وادى النطرون ، الملاصق له فى جهة الجنوب ، خمسة آلاف ، وأرسلهم إلى القسطنطينية فأدخلهم العسكرية .

مدينة مريوط

هذه المدينة كانت من المدن القديمة ، ذكرها (هيردوت) وغيره ، وذكرها مؤلفو العرب . وهى بقرب إسكندرية وموضعها الآن فى مقابلة الشيخ أبى الخير ، وسعة أرضها ١٥٠٠ متر طولاً و٨٠٠ متر عرضاً .

ومن أمعن النظر فى خرابها وما به من آثار المبانى العظيمة ، عرف أنها كانت من المدن الكبيرة من ضمنها آثار أرضة ومولص ، وهذا يدل على أنها كانت تمتد إلى البحيرة ، وأنها كانت من مراكز التجارة المشهورة .

وكانت فى جميع التقلبات الزمانية عرضة لحوادث شتى أعقبت خرابها وخراب ما حولها من البلاد ، ويعلم من موقعها الجغرافى أنها من أهم النقط العسكرية ، وأن أهميتها بالنسبة لديار مصرفى الأزمان القديمة ، كانت كأهمية مدينة الطينة أو الفرما بالنسبة لبلاد الشام ، وقد مر بها عمرو بن العاص عند توجهه إلى فتح إسكندرية ، ومر بها قبله قيصر الروم فى محاربته لمتريدات ، وكانت فى هذه الأزمان الأخيرة طريق جيش الفرنساوية مع بونابارته بعد أخذه إسكندرية . وكانت فى الأزمان السابقة حصينة ويرى إلى الآن بعض آثار أسوارها .

ونقل المقريزى عن الذين ينظرون فى الأهوية والبلدان ، وترتيب الأقاليم والأمصار ، أنه لم تطل أعمار الناس فى بلد من بلدان كورة إسكندرية كطول أعمار أهل مريوط .

طابوزيريس

كانت هذه المدينة قريباً من برج العرب فى الجنوب الشرقى منه ، وتسمى بين الناس

أبو صير ، وبينها وبين مدينة الأموات ٢٥ ميلاً رومانياً ، أعنى ٢١ كيلومتراً وذكر بعضهم أن هذه المدينة كانت مشهورة بالأقمشة النفيسة .

مدينة فوموتنيس

هذه المدينة توجد آثارها فى الجنوب الغربى من أبى صير على بعد ١٦ كيلومتراً ، وبينها وبين آثار مدينة مريوط ٣٠ كيلومتراً ومنها إلى الخراب الموجود بقرب قصر المرحوم سعيد باشا ٤٣ كيلومتراً ، وتسمى الناس موضع هذه المدينة الآن (بومنه) ، ويرى فيها إلى الآن عدد وافر من السواقى والصهاريج المبنية بالحجر ، وعقود كثيرة فى آثار بيوتها تدل على أن أكثر بيوتها كانت معقودة .

بحيرة مريوط

يستفاد مما ذكره (مانى) فى كتابة على مصر : أن هذه البحيرة حفرت فى زمن الفراعنة ، وكان ماء النيل يصل إليها من الجهات القبلية والبحرية فتسير فيها السفن بأنواع البضائع والتجارة ، وتمر بإسكندرية والبلاد والمدن التى على ساحلها ، كان يخرج منها عدّة فروع : منها ما هو للرى ، ومنها ما هو للرى والملاحة ، وكان كثير من الخلجان مقبوّاً فى داخل المدن ولإمتلاء الصهاريج .

ومكان هذه البحيرة بقرب مينا إسكندرية كمينا بلتة ، تتردد المراكب الصغيرة إليها وإلى مينا سيبوتوس .

والخليج الذى تقدم ذكره ، لابد أنه الخليج الذى كان قديماً يوصل لها الماء ، المسمى فى المقريزى بخليج الحافر ، وهو المنهى .

ولم تختلف سعة البحيرة ـ الآن ـ عما كانت عليه فى الأزمان العتيقة ، إلا أن السفن لا تجرى كما كانت قديماً ، وقد تجف فى بعض السنين ، كما وقع ذلك سنة ١٨٠١ ميلادية ، فإنها جفت بالكلية ثم امتلأت بالمياه المالحة الواردة إليها من قطع أبوقير بالإنكليز وسببه :

مطلب دخول الفرنساويين أرض مصر

أنه لما دخل الفرنساويون أرض مصر ، حاصرهم الإنكليز ، وكانت مراكبهم تتردد فى سواحل البحر ، فحصل بين الإنكليز ومحافظى إسكندرية فى بعض الواقعات واقعة انتصر فيها الإنكليز ، وانهزم الفرنساوية ودخلوا المدينة ، فعمدوا إلى جسر بحيرة المعدية وقطعوه ؛ لأجل قطع الزخرة والذخيرة والإمداد التى ترد إليهم من مدينة القاهرة ، فملأ المالح جميع بحيرة مريوط ، ودخلها مراكب الإنكليز ، وساروا بها إلى جهات كثيرة ، وانقطع الاتصال بين خارج المديرية وداخلها .

ولما ارتحل جيش الفرنساوية بعد المصالحة التى صارت مع الدولة العلية ، سد الترك القطع ، فجفت البحيرة قليلاً ، وقطعه الإنكليز ثانياً بعد وقعة رشيد التى حصلت سنة ١٨٠٧ من الميلاد ، فإنهم لما حبسوا أنفسهم داخل المدينة ، أدخلوا ماء البحر فى البحيرة فامتلأت بالماء ، وبقيت كذلك إلى خروجهم ، وسُد القطع المذكور ، وبقى على ذلك إلى الآن ، وفى كل سنة تصرف الحكومة عليه مبلغاً جسيماً .

مطلب واقعة رشيد

وملخص واقعة رشيد المذكورة هو أنه بعد خروج الفرنساوية ، كانت الفتن كثيرة وكان ثورانها من الإنكليز ؛ لأنهم كانوا يرغبون فى رجوع مصر إلى حكم المماليك ، بسبب ما كان حاصلاً بينهم من الإتفاق ، وإلى ذلك الوقت كان العزيز آخذاً بزمام الأحكام بمقتضى الفرمان العالى .

٤٩

وفى سنة ١٨٠٧ أحضروا ٢٥ سفينة إنكليزية ، وبخيانة أمين أغا المحافظ وتواطئه معهم ، فتح لهم أبواب المدينة ، وكان العزيز فى ذلك الوقت بالأقاليم القبلية خلف المماليك ، ولم يكن بمدينة رشيد إلا قليل من المحافظين ، فأرسل الإنكليز إليها عسكراً ، فلما بلغ المحافظين قدومهم خرجوا منها وتركوها لهم .

ولكن لما توطنت العساكر الإنكليزية بها ، هجموا عليهم دفعة واحدة بمعونة الأهالى ، فقتلوا منهم عدداً وافراً وأسروا منهم ١٢٠ نفساً ، وأرسلوهم مع رؤس المقتولين إلى القاهرة ، فطيف بهم حول البلد ، ثم وضعت الرؤس حول ميدان الأزبكية فوق المزاريق ، فبلغ خبر هذه الواقعة العزيز فحضر سريعاً من الوجه القبلى ، وجهز ٤٠٠٠ مقاتل من المشاة ، و١٥٠٠ من الخيالة ، وتوجه بهم إلى ناحية قوة بعد أن حصّن القاهرة ، وكانت الإنكليز أرسلت فرقة أخرى من العسكر إلى رشيد ، حاصرتها ١٦ يوماً إلى أن حضر العزيز بعساكره ، فوقع بينه وبينهم محاربة عظيمة انهزم فيها الإنكليز بعد موت كثير وأسر كثير منهم أيضاً ، والذى سلم رجع إلى الإسكندرية .

ولخوفهم قطعوا جسر بحيرة مريوط من جهة البحر ، وبعد ذلك بقليل صولحوا وردّت إليهم الأسرى ، وخرجوا من مصر وبقى العزيز بعد ذلك متمكناً فى الديار المصرية .

مطلب حدّ جزء البحيرة الأول والثانى

وجزء البحيرة الأول ، الواقع بين المنطقة الأولى والمنطقة الثانية من أرض مديرية مريوط ، محدود من جهة الجنوب الغربى بخراب مديرية مريوط .

والجزء الثانى من البحيرة ، وهو أكبر من الأول ، محدود من الجنوب بجزيرة الطفلة ، وتل بلال ، وتل احفين ، وتل الحنش ، ومن جهة الشرق بكيمان الريش ، وكوم البركة ، وكفر الدوّار .

وبين هذا الكفر وكثبان الإسكندرية تتحد البحيرة – فى وقتنا هذا – من جهة الشمال الشرقى ومن جهة الشمال الغربى بخليج المحمودية ، وتمتد البحيرة الآن نحو الشمال الشرقى ، وكان من ضمنها جزء عظيم من بحيرة أبى قير .

ونقل المقريزى عن ابن عبدالحكم ، وكان فى القرن الثانى من الهجرة ، أن الماء كان يدخلها من (اشتوم) فى بحر الروم ، ويخرج جزء منه فى بركة بقربها بواسطة خليج عليه مدينتان : إحداهما : الهدبة ، والأخرى : الكر .

ويظهر من هنا أن بحيرة أبى قير لم تكن موجودة فى القرن الثانى ، وأن الذى كان موجوداً وقتئذ بحيرة اتكو ، ولابد أن الخليج الموصل لها هو الذى تسبب عنه ـ فيما بعد ـ بحيرة أبى قير الواقعة بين بحيرة اتكو وبحيرة مريوط ، ولابد أن الخليج المذكور بعيد عن شيديا ، وكان فى ذلك الوقت فرع رشيد قد جف وانقطع جريانه .

ومما يحقق أن هذه البحيرة كانت تمتد فى الطرف الباقى من المحمودية ، ما قاله (بولين واسترابون) حيث ذكر الأول : أن طول البحيرة ٣٠ ميلاً رومانياً ، أعنى ٤٤ كيلو متر ونصفاً تقريباً ، وذكر الثانى : أن هذا الطول أقل من ٣٠٠ أستادة ، عبارة عن ٤٩ كيلو متراً ، وكل من هذين البعدين لو قيس من مدينة مريوط لجاوز المحمودية بأربع كيلومترات فأكثر .

وأما عرض البحيرة فقدره (استرابون) بنحو ١١٥٠ أستادة ، وهو عبارة عن ٢٤ كيلو متر ونصف تقريباً ، وهو إلى الآن كذلك ، ومحيطها ١٢٠ كيلو متر ، ينتهى بالسكة الحديد وكان فى القديم ١٢٠ كيلو متر و٢٥ ميلاً رومانياً تقريباً .

مطلب الجزائر السبع

وذكر (استرابون) أنه كان بها ثمان جزائر ، والمعروف منها الآن سبعة :

الأولى : جزيرة الطفلة ، وهى على بعد ٤ كيلومترات من جنوب الشيخ علىّ مرغب .
والثانية : يقال لها كوم المحار ، وكوم الخرز ، وهى الأرض التى فيها الشيخ غازى .
والثالثة : تسمى جزيرة السعران ، وهى تجاه كفر الدوّار ، ومن ضمنها كوم الويلى ، وكوم العبسة ، وربما دلت آثارها على أنها كانت أكبر الجميع .
والرابعة : تجاه بركة أبى الخير ، على يمين المتوجه من الإسكندرية إلى السكة الحديد .
وأما الثلاثة الباقية : فهى فى المكان المسمى بذراع البحر .

وأرض بحيرة مريوط ، منحطة عن ماء البحر بمترين ونصف ، ولابد أن ارتفاع الماء فى القديم كان يصل فيها إلى قريب من ٣ أمتار ، لإمكان الوصول منها إلى البحر ، ومنه إليها .

الكلام على الإسكندرية فى عهد العائلة المحمدية

كانت الإسكندرية . بل وسائر الديار المصرية ، قبل استيلاء المرحوم محمد على باشا عليها وتوجيه نظره إليها فى غاية من الإضمحلال وسوء الأحوال ، مع قلة العدد والعدد ، قليلة المتاجر والأسفار ، كثيرة الفتن والأشرار ، قعدت أعرابها على أذناب الطرقات ، واستعملت القتل والسلب فى كل الأوقات ، ليس لأهلها فكرة فى اكتساب أنواع المعارف والصنائع ، ولا لهم خبرة بما يستوجب كثرة محصولات المزارع ، فلما جلس على التخت ، وذلك لإثنى عشر يوماً خلت من ربيع الأول سنة ١٢٢٠ من الهجرة ، الموافقة لسنة ١٨٠٥ من الميلاد ، التفت إليها ، بل إلى القطر جميعه ، ووجه إليه جميل أفكاره ، وشمله بجليل أنظاره ، وأخذ فى إصلاح ما أفسدته التقلبات الدهرية .

وحيث كان غير خفى على ذكائه أهمية موقع الإسكندرية من الديار المصرية ، وأنها بالنسبة للقطر جميعه كالرأس / بالنسبة للإنسان ، سيما وهى من أعظم ثغور الإسلام عليها المدار فى تحصين القطر وسدّ عوراته ، صرف إليها همته العلية ، واحتفل بها إحتفالات سنية ، وأجرى فيها من محاسن الترتيبات والتنظيمات ما أوجب لها العمارة وتزايد الخيرات ، وكثر فيها الصادر والوارد فعاد إليها وسيم نضرتها وقديم شهرتها . ٥٠

مطلب فى بيان عدد أهالى إسكندرية فى عهد محمد على وفى عهد خلفائه من بعده

فبعد أن كان ما بها من الأنفس ، قبل أيام المرحوم محمد على ، لا يزيد عن ٨٠٠٠ نفس ، وذلك وقت دخول الفرنساوية الديار المصرية ، سرت فيها العمارة سريان الماء فى العود الأخضر ، وأورق غرس سعدها وأثمر ، حتى بلغت عدة أهلها ٦٠٠٠٠ نفس . ثم فى سنة ١٨٣٠ ، بلغت ١٣٠٠٠٠ نفس .

وهكذا لم تزل فى الزيادة فى عهده وعهد خلفائه من بعده ، إلى أن صارت من أمهات الأمصار ، وهرع الناس إليها من سائر الأقطار ، حتى بلغت عدة أهلها فى عصرنا هذا ، أعنى سنة ١٢٩١ هجرية ـــ ٢٧٠٠٠٠ نفس .

وبعد أن كان لا يرى فى ميناها القديمة غير مراكب شراع قليلة ، ترد إليها فى بعض الأوقات ببضائع قليلة من نحو البلاد التى على سواحل البحر الرومى وجهات إيطاليا ، صارت كل يوم يرد إليها عدد وافر من المراكب ، شراعية وبخارية ، تجارية وحربية ، من جميع الجهات ، تجلب إليها مبالغ جسيمة من أنواع محصولات الأقطار ، وذلك بسبب ما جدده بالإسكندرية من الآثار السنية والمنافع الوطنية . فإنه قد نزع عنها جلابيب الأحداد ، وكساها حلل الإقبال والإسعاد ، وأحدث فيها مبانى جميلة وعمائر جليلة . وأمر بإصلاح ما تهدم من أسوارها ، وتجديد ما اندرس من آثارها ، واحتفل بذلك إحتفالاً زائداً تحسيناً لهيئتها وحرصاً على عمارتها .

مطلب دخول الفرنج بالمينا

ولأجل حرصه على جلب العمارة لها . صرح لمراكب الفرنج بالدخول فى المينا الغربية ، التى كانوا قبل ذلك ممنوعين منها ، وكانت المينا الشرقية هى المعدة لرسيان مراكب الفرنج ، مع أنها كانت مخوفة وعلى غاية من الخطر ، وكثيراً ما كان يحصل منها التلف للسفن التى ترسو بها ، من كثرة تسلط الرياح الشرقية والشمالية عليها سيما لقلة عمق المياه التى بجوار المرسى ، بخلاف المينا الغربية التى كانت مختصة بسفن المسلمين ، فإنها فى غاية الأمن من ذلك كله ، وكان الأغراب كثيراً ما يطلبون الدخول منها فلا يجابون . فلما صدر الإذن لهم بذلك فرحوا فرحاً شديداً ، وكان سبباً فى كثرة جلب الخيرات إليها ، وإقبال التجار وأهل الأسفار عليها ، فإنه من وقت بلوغ هذا الخبر إلى الأقطار ، أخذت السفن تتوارد بالتجارات من كل مدينة ومن كل قطر ، حيث لم تختص ملة دون أخرى بمزية ، حتى تكاثرت التجارات والأغراب فيها ، وتيسرت بها أسباب المكاسب ، وغرّدت فيها بلابل الثروة من كل جانب .

ولما كان المقصود من تمدين تلك المدينة وتكثير خيراتها لا يتم إلا بكثرة المياه العذبة فيها ، وسهولة وصول أهل القطر إليها بمتاجرهم ، وكان خليجها القديم ، بسبب إهماله وعدم الإعتناء بشأنه ، قد ردم وارتفع قاعه ، زيادة على ضعف عمقه الأصلى ، حتى كان فى كثير من السنين لا يدخله الماء إلا فى وقت إنتهاء زيادة النيل ، ثم يجف فى باقى السنة ، وذلك سبّب فى حصول مشقات زائدة لأهل المدينة والطارئين عليها من أهل القطر والأغراب ، سيما ومجاورته للبحائر التى تكتنفه من الجانبين : مثل بحيرة أبى قير ، وبحيرة المعدية ، وبحيرة مريوط ، كانت تستوجب سرعة ملوحة مائه ، وتعطل منفعته ، وربما لا تكفى الصهاريج بقية السنة ، خصوصاً مع كثرة الناس فيها جداً ـ كما علمت ـ .

مطلب تاريخ حفر ترعة المحمودية

صدرت أوامره السنية سنة ١٢٣٣ هجرية ، الموافقة سنة ١٨١٩ ميلادية ، بحفر ترعة المحمودية ، وأن تعمق حتى تجرى صيفاً وشتاء ، وتوسع بحيث يسهل لجميع مراكب النيل الوصول منها إلى المدينة بأنواع المحصولات فى زمن قريب ، بلا كبير مصرف ولا مشقة ، مع حصول تمام النفع للآدميين وسائر الحيوانات والمزروعات .

وكانت قبل ذلك تجارات القطر لا تصل إلى تلك المدينة إلا من ثغر رشيد أو دمياط ، وذلك مستوجب لكثرة المصرف وزيادة المشقة جداً ، فإن سفر البحر الملح لا يخلو عن الخطر ، فكانت لا تخلو سنة عن حصول غرق لبعض المراكب والبضائع والآدميين .

ولأهميتها جمع لها عدداً كثيراً من الأهالى من جميع مديريات القطر ، حتى تمت فى أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها ، وقد بلغ ما صرف عليها إلى أن تمت ، ثلثمائة ألف جنية ، على ما نقله قولوط بيك ، وهذا بالنسبة لما ترتب عليها من المنافع شىء يسير ، كما هو مشاهد ، ولم يجعل فمها فى مكان فم الخليج القديم عند ناحية الرحمانية ، بسبب ما حدث أمامه من الإرتدام والرمال ، فنقل بالقرب منه فارتدم أيضاً ، وفعل ذلك مراراً فلم ينفع ، فجعل عند

ناحية العطف فصلح وأنتج المطلوب فاستمر على ما هو عليه الآن ، وكان ذلك سبباً فى عمارة ناحية العطف واتساعها وكثرة خيراتها حتى ألحقت بالبنادر ، حيث كانت مرسى للسفن التجارية الداخلية والخارجية ، وجعل انتهاؤها البحر الأبيض بحيث تصب قريباً من مصب الخليج القديم . الذى كان فى زمن البطالسة .

٥١ وبتمامها على هذا الوجه / حصل منها المقصود من المنافع العميمة والفوائد الجسيمة ، مما ذكرنا وخلافه ، كإحياء غالب الأراضى التى بجوانبها من ناحية العطف إلى الثغر ، بعد أن كانت ميتة غير صالحة للزراعة ، بسبب هجرها من قلة وصول الماء إليها ، مع أنها كانت فى قديم الزمان معمورة بالناس وأصناف المزروعات ، بل حصل بحفرها إحياء كثير من الأراضى البعيدة عن شواطئها بواسطة المساق والترع التى تفرعت عنها من الجانبين على توالى الأزمان ، حتى بلغ ما أحيى بها ١١٥٤٥ فداناً وكان الصالح قبل ذلك لا يزيد على ٤٠٠٠ فدان .

مطلب ذكر تاريخ عمل هويسات المحمودية

وهكذا لم تزل المزارع والأحياء تتزايد بسبب تلك الترعة ، إلى وقتنا هذا فقد بلغ الصالح للزراعة زيادة عن مائة ألف فدان ، حتى استوجب عدم كفاية ماء المحمودية بجميعه ، واحتيج إلى تركيب وابورات العطف . ثم أنه عند تمام حفرها جعل فى فمها وفى مصبها قناطر فكانت مانعة لمراكب النيل من الدخول فيها وكانت التجارات الآتية من القطر إلى إسكندرية تنقل عند فمها إلى مراكب أخر من مراكب المحمودية وعند وصولها إلى الثغر ينقل ما كان منها على ذمة الأجنبيين إلى مراكب البحر الملح ، وما كان على ذمة الأهالى يخرج إلى البر ، وكذلك التجارات الآتية من الأقطار الأجنبية فكانت تنقل مرتين ولا يخفى ما فى ذلك من الضرر والخطر فصدرت أوامره السنية بإزالة تلك القناطر .

وعمل هويسات فى فمها وفى مصبها وذلك سنة ١٨٤٢ ميلادية موافقة سنة ١٢٥٨ هجرية فعملت على هذا الوجه الذى هى عليه الآن بأن جعل فى فمها هويسان أحدهما صغير عرضه أربعة أمتار للمراكب الصغيرة والآخر كبير سعته ثمانية أمتار للمراكب الكبيرة وفى مصبها كذلك فارتفعت بذلك الصعوبات وخفت المصاريف .

مطلب فى ذكر أبنية عديدة جوامع وغيرها

وقد ألحق بذلك أبنية عديدة منها أنه بنى جامعين : أحدهما عند فمها والآخر عند مصبها قرب الميناء ، وجعل محراب كل واحد منهما قطعة واحدة من الرخام الأبيض ، وكتب عليه تاريخ البناء ، ورقم عليه اسم السلطان محمود .

والجامع الذى عند مصبها يعرف الآن بجامع التاريخ ، وكذلك الشارع الذى عنده يسمى بشارع التاريخ .

ومنها : أنه جدد عدة أشوان لخزن الغلال الميرية .

ومنها : حفر مجرى تحت الأرض لتوصيل الماء الحلو إلى جهة الترسانة والجمرك ، قد فتح فى مواضع منه موارد لأخذ السقائين والأهالى فى أى وقت شاءوا ، ولحرصه على دوام نفع تلك الترعة ، جعل لها ما تتغذى منه عند الحاجة ، فجعل (ملقة ديسة) مخزناً للماء يملأ وقت فيضان النيل ويبقى مملوءً حتى يصرف فيها على حسب الحاجة ، وجعل فيه قناطر للصرف . والمخزن المذكور هو ما يعرف الآن بخزان الزرقون ، وكان قريباً من عشرين ألف فدان ، ولما استغنى عنه بوابورات العطف جعله المرحوم سعيد باشا جفلكا ، وهو الآن فى ملك نجله المرحوم طوسون باشا .

وقد حدث على جوانب تلك الترعة وبعيداً عنها فى ضواحى المدينة ، عدة بلدان عامرة ، وقصور مشيدة ، وبساتين مملوءة بأشجار الفواكه والرياحين ، وغير ذلك من المحاسن المشاهدة هناك . ثم إن من أسباب جعل قاع الخليج القديم مرتفعاً حتى كان لا يجرى فيه النيل إلا وقت الفيضان ، مجاورته للبحائر المالحة كما علمت ، فلذا لما عمل العزيز ترعة المحمودية ، أمر بسد أفواه تلك البحيرات من جهة البحر المالح ، فصارت المحمودية آمنة مما يغيرها ويعطل منافعها .

فهذه الأعمال الجليلة من أعظم أسباب العمارة بتلك المدينة ، وكثرة الأهالى والأغراب فيها .

وبسط الكلام على الخليج القديم وترعة المحمودية ، مذكور فى تاريخنا لمصر فليرجع إليه من أراد الوقوف عليه .

ولأهمية ميناء الإسكندرية بواسطة أنها أعظم الثغور ، وعليها تردد السفن بالبضائع وغيرها من جميع الأقطار ، إلتفت إليها العزيز فوجدها غير كافية للمصالح ، إذ لم يكن بها مواضع تكفى الصادر والوارد من التجارات ، ولا أماكن لتحصيل الجمرك ، ولا ترسانة لإنشاء المراكب وترميمها ، ووجد مراكب التجارات لا تصل إلى البر لعدم عمق مياه المينا ، وذلك موجب لمشقات ومصاريف جسيمة فى الشحن والتفريغ ، فأمر بجلب كراكات من البلاد الأورباوية لأجل تعميقها ، واشترى من جانبيها بعض أماكن من خط الصيادين ، وهدمها لأجل توسيعها وذلك سنة ١٢٤٢ هجرية ، أعنى سنة ١٨٢٩ ميلادية ، فكان من ضمنها بيت يقال له : بيت البطاس ، وهو جد الشيخ محمد المهدى لأمه ، وكان التصميم على البناء فى ٩ شهر يونيه الإفرنجى من السنة المذكورة ، وفى ذلك اليوم صار شروع العساكر فى حفر الأساسات ، ثم صار الشروع فى البناء حتى تمت على الوجه المطلوب سنة ١٨٣١ ميلادية ، وأول سفينة نزلت بها كان فى ٣ يونيه من السنة المذكورة ، وكانت تحمل مائة مدفع ، وقد رخص لأرباب الأملاك فى أخذ أنقاض أملاكهم ليستعينوا بها فى بناء منازل غيرها ، فى الأماكن التى أنعم بها عليهم من الأراضى التى كانت إذ ذاك من زاوية خطاب من / الجهة البحرية إلى البحر المالح ، وكانت قبل ذلك كلها مزروعة تيناً برشومياً ، ومقسمة إلى زربيات متنوعة ، فاتسع بذلك دائر المينا وحدث بها ترسانة تشتمل على جميع ما يلزم لإنشاء وترميم المراكب الحربية وغيرها . ٥٢

ولما لم تستوف تلك المينا جميع ما يلزم لضبط الجمرك وخزن البضائع وغير ذلك من المصالح ، صدرت أوامره السنية سنة ١٢٥١ هجرية ، بعمل رصيف داخل البحر ، فعمل وملىء ماخلفه بالأتربة والأحجار وغيرها ، فحصل من ذلك أرض عظيمة الإتساع ، فأنشأ فيها جميع ما تحتاج إليه المينا من مخازن ومحلات للجمرك ، ومساكن لخدمة المصالح ، فأمنت التجار على بضائعهم ، وتمكنت الحكومة من ضبط الجمرك فزاد إيراده ، وكان المباشر ، إذ

ذاك ، شاكر أفندى الإسلامبولى ، إلى أن توفى فقام مقامه المرحوم مظهر باشا إلى أن تم ،
وكان العزيز ، إذ ذاك ، مشتغلاً بأمور الحرب التى كانت قائمة بينه وبين الدولة ، موجها همته
نحو العمارات البحرية كإعداد الحصون والقلاع وتقويتها ، فأحضر لها سنة ١٨٢٩ ميلادية ،
من مدينة طولون من مملكة فرنسا ، المهندس الحاذق الماهر موسيو (سريزى) وجعله
باشمهندس الترسانة ، ورقّاه إلى رتبة البيكوية ، وصار يعرف (بسيريزى بيك) ثم وصل إلى
درجة لواء ، وبإمتحانه للمينا وجد عمق الماء بها قدر مترين فقط ، ممتداً ذلك فى داخل
البحر نحو مائتى متر ، وذلك مستوجب لصعوبة الشحن والتفريغ ، فظهر له أن الأولى أن
يكون محل الترسانة عند العجمى ، لعمق الماء هناك ، لكن لبعده عن المينا ، وتسلط الرياح
على تلك الجهة عدل عنها إلى المحل الذى عنده الترسانة الآن ، فعمقه حتى تمكنت السفن من
الرسوّ هناك بقرب البر.

وقبل حضور المهندس (سيريزى) المذكور ، كان الرئيس على إنشاء وعمارة السفن
بتلك المينا رجلاً من الأهليين ، يسمى الحاج عمر ، وكان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية
وإقدام على مثل هذه الأعمال ، مع الإصابة ، فلما حضر موسيو (سيريزى) إتحد معه وساعده
فى جميع أعماله.

وفى ظرف خمس سنين من إبتداء سنة ١٨٢٩ ميلادية ، تم جميع مواضع الترسانة
مثل : ورشة الحبالة المعروفة بالتبالة ، وورشة الحدادين والقلوع والسوارى ، والبصل ،
والنظارات والمخازن ، وفى أثناء هذه الأعمال قد صار جلب كثير من شبان الأهالى من جميع
المديريات ، لأجل تحصيل الكمية الكافية للقيام بلوازم المراكب ، وتعليمهم جميع ما تحتاج
إليه السفن على أيدى معلمين من البلاد الخارجية ، فاختص كل جماعة بفرع من فروع مصالح
المراكب حتى أتقنوها ، ونتج من تحت أيديهم فى زمن قليل سفن كثيرة حربية وغيرها مع غاية
الإتقان ، بحيث تضاهى سفن الجهات الخارجية ، فكان الحبالة مثلاً يفتلون كفاية المراكب
من الحبال المتقنة فى أقرب وقت ، وهكذا كل أهل فرع يحتفلون به حتى يتم على أكمل
وجه ، فاستغنت الحكومة المصرية بذلك بعض استغناء عن جلب السفن من البلاد
الأجنبية

إلا أن جميع ما يلزم لإنشاء المراكب وعمارتها مثل : الحديد والنحاس والخشب ، كان يجلب من البلاد الأجنبية ، وبسبب أهميتها وإحتياج الأمر إليها ، كان أربابها يتغالون فى أثمانها جداً ، وليتها كانت من الأنواع الجيدة ، بل كانت رديئة ، فإن الخشب كان يأتى من الكرمانى ، وبلاد إيطاليا غير مستوفٍ لشروط الإنتفاع به فى مثل هذه الأعمال ، ولهذا كانت المراكب التى تصنع منه يسرع إليها التخريب وتحتاج للرمّ فى زمن قريب .

ومع كل ذلك لم تقف همة العزيز عن إنشاء المراكب ، وكثيراً ماكان تجار المراكب يثبطونه عن إنشائها ويبدون له ما لا مزيد عليه من الصعوبات وكثرة المصاريف ، ويدخلون عليه بكل حيلة ليصرفوه عن هذا العزم ، وذلك أنهم كانوا يربحون أرباحاً كثيرة من بيعهم المراكب للحكومة المصرية ، مع أن المراكب التى كانت تشترى منهم ، مع إرتفاع أثمانها جداً ، كانت إما قديمة ، أو غير جيدة الصنعة ، فلم يلتفت إلى تثبيطهم ، ولم تقعد همته بل إزدادت رغبته فى تلك الأشغال ، ورتب لها مجلساً أناط به جميع لوازم المراكب ، وجعل رئيسه موسيو (سيريزى) المذكور وأنشأ مدرسة لتعليم صنعة السفن وما يتعلق بها .

وكان المشتغلون بإنشاء المراكب وتعميرها إذ ذاك ، نحو ٨٠٠٠ نفس ، من الأهليين الذين تربوا على أيدى المعلمين من الإفرنج وغيرهم ، وقد أتقن الصنعة منهم نحو ١٦٠٠ نفس ، فاستغنت بذلك الحكومة المصرية عن شراء المراكب من الخارج ، وكان المعين لها على هذا العزم موسيو (سيريزى) فكان دائماً يبدى له من محاسن تلك الأعمال ونتائجها ، ما يحمله على تنجيزها ، وإعراضه عن تثبيط المثبطين له عنها ، فلذا تعصب الإفرنج على موسيو (سيريزى) وضيقوا عليه ورمقوه بعين العداوة ، حتى ألجؤه إلى الإستعفاء من تلك الوظيفة ، فعوفى منها وألحق ببلاده .

وقد بلغ ما أنشىء وعمّر فى مدته وعلى يديه ، من السفن الحربية وخلافها ، وما تحمله كل سفينة ، على ما ذكره قولوط بيك فى تاريخه لمصر ، ما نبينه لك فنقول :

بيان السفن التى كانت موجودة تحت الحكومة المصرية وقت استعفاء سيريزى بيك إنشاء وتعميراً وبيان ما تحمله /من المدافع

٥٣

السفينة المسماة مصر تحمل ٩٨ مدفعاً ، عكا حمولة ٩٨ ، المحلة الكبيرة حمولة ١٠٠ ، المنصورة ١٠٠ ، إسكندرية ١٠٠ ، أبوقير ٧٨ ، طنتدا ٢٤ ، العزيزية ١٠ ، سفينة صغيرة للنزهة ٤ ، سفنية لرمى البنب ...[1] ، سفينة لنقل الأخشاب ...[1] ، ببلان ٨٦ ، حلب ــ كانت بالورشة ــ حمولة ١٠٠ ، دمشق ــ كانت بالورشة أيضاً ــ ١٠٠ ، وغير ذلك فرقطون .

والسفن التى كانت محتاجة لكثرة العمارة ، وتأخذ زمناً طويلاً هى : البحيرة ، وأصلها من مرسيليا ٦٠ ، الجعفرية وأصلها من ليفورنه ٦٠ ، رشيد وهى من بنديك ٣٠ ، كابشيك وتم عملها فى لونبرة ٣٠ ، شيرجهاد وأصلها من ليفورنه ٦٠ ، الدمياطية ٢٤ ، واسطة جهاد من الجزائر أعطتها فرنسا ٢٨ ، جن بحرى أصلها من جنوا ٢٤ ، جهاد بيكر أصلها من جنوا أيضاً ...[1] ، فوّة ...[1] ، ومراكب أخرى حمولتها ٤٠٠ ، سمندجهاد من مرسيليا ...[1] ، شبرجهاد من أمريكا ...[1] ، بادى جهاد من أمريكا أيضاً ...[1] ، أربع مراكب أخر ...[1] ، وجملة مراكب صغيرة وسفينة بخارية تسمى النيل .

وأنشأ أيضاً مدرسة البحارة ، وجلب لها من شبان الأهالى ١٠٠٠٠ نفس وجعل رئيسها موسيو (بيسون بيك) وبعد موته تولى ذلك موسيو (حصار) حتى حصلت بهم الكفاية فى تركيب الدونانمه اللازمة .

---

(١) هكذا فى الأصل بدون بيان ما تحمله من مدافع .

ولأجل تتميم جميع منافع الترسانة ، وتحصيل زيادة الأمن على السفن الصادرة والواردة ، أنشأ الفنار الموجود الآن برأس التين ، وعين له مظهر باشا فبناه على أحسن هندام ، وجعل إرتفاعه ستين متراً ، ونوره يشاهد من ثمانية فراسخ فى البحر ، فعمت منافعه وكثرت فوائده .

مطلب عمل الحوض

ولما كانت سفن الدونمه وغيرها من المراكب لا تستغنى عن حوض فى المينا لأجل عمارة ما يحتاج منها إلى العمارة ، لا سيما مينا الإسكندرية ، لكثرة توارد المراكب عليها ، صدر أمره بعمل حوض فى ليمان تلك المدينة .

ولقلة المهندسين إذ ذاك بالديار المصرية ، عين لعمله شاكر أفندى ، المتقدم ذكره ، فصار يعمل فيه أعمالاً غير منتجة ، لأنه فضلاً عن عدم مهارته فى الأعمال الهندسية كانت أرض ذلك المحل رخوة يبلغ عمق رخاوتها نحو ستين قدماً تحت إستواء الماء ، فكان يعمل صناديق كبيرة من خشب ويملؤها بالبنيان ، ثم ينزلها فى الماء فى المحل الذى يلزم رميها به ، وهكذا ، واستمر على ذلك زمناً والعمل لا يتقدم ، وربما انقلبت الصناديق بما فيها وتحوّلت عن أماكنها ، حتى استوجب ذلك صرف كثير من الأموال بلا كبير فائدة ، فعين لذلك كلاً من المرحوم مظهر باشا ، والمرحوم بهجت باشا ، وكانا قد قدما من بلاد أوربا ، وجعل ثالثهما لبنان بيك ، وأمرهم بعقد مجلس للنظر فى ذلك ، وبعد عقد المجلس والنظر فيه عملوا قراراً مضمونه ، أن هذا العمل لا ينتج ، وعرضوه عليه وبعد مضى زمن أحضر (موجيل بيك) من بلاد فرنسا وناط به عمل ذلك الحوض ، فعمل أولاً رسماً وعرضه على العزيز فاستحسنه ، ثم شرع فى البناء فجعل يدق خوازيق فى محله بعد حفر الطين منه بالكرّاكات ، وكلما نزح موضعاً ملأه بالخرصان ، وهكذا إلى أن تم على وفق المرام ، وانتفع به الخاص والعام .

وهذا الحوض عبارة عن ناحية من البحر متسعة ، عميقة أو تعمق بالكراكات ، تختار بقرب البر وتحاط بالبناء المتين المصنوع من المواد الجيدة والمؤن الطيبة ، ويجعل طوله بحيث يسع أكبر سفينة فى البحر ، وعرضه بنسبة ذلك ، وله فم من جهة الماء يسد بباب بهيئة مخصوصة ، وتجعل فيه منافذ صغيرة تفتح وتقفل بحسب الحاجة ، فإذا أريد إدخال سفينة فيه للعمارة يفتح الباب فتدخل السفينة بسهولة ، ثم يسد فينزح الماء منه بواسطة وابور حتى يجف ، وبعد تمام العمارة يملأ الحوض ثانياً ويفتح الباب فتخرج السفينة .

وسيأتى لذلك مزيد بيان عند الكلام على الحوض الذى أنشأه حضرة الخديو إسماعيل باشا هناك . فجميع تلك الأعمال كان سبباً لقوة السفن الحربية وكثرتها ، ولم تزل تكثر ويجلب لها من البلاد الخارجية ما يلزم لها من الأسلحة وخلافها حتى قويت الدونانمة المصرية ، وأحرزت ما كانت فاتتها به دوننمة الدولة العلية من العدد والعُدد والمدد والتعليمات النافعة الغريبة التى لم تسمح الديار المصرية بمثلها فى الأعصر الخالية .

وجعل موسيو (بسيون ويس) أميراً عليها جميعها ، وأعطاه رتبة ميرألاى ، وكان قبل ذلك أحد ضباط الدوننمة الفرنساوية ، وحاصل أمره أنه كان سنة ١٨١٥ ميلادية فى مينا رشفور بسفينته حين كان نابليون نوريت يريد الهروب من بلاد فرنسا ، فتعهد له أن يوصله إلى بلاد الأمريكا ، وقبل منه نابليون ذلك فأستعد (بسيون) لهذا الأمر ، ووضع فى سفينته جملة براميل فارغة مصفوفة بعضها بجوار بعض ليخفيه فيها ، فهيأ نابليون جميع ما يلزم لسفره ، وتواعد مع (بسيون) على أن ينتظره بجزيرة اكس ، فلما اجتمع معه فى الميعاد وجده قد رجع عن العزم على السفر معه ، وأخبره أنه كتب إلى أمير الدولة الإنكليزية أن يأخذه عنده .

٥٤ ثم شاع خبر توافقه معه على إخفائه فخاف (بسيون) عاقبه ذلك ، وقد حصل / بالفعل رفته لهذا السبب ، فصار يشتغل بالتجارات والأسفار فى سفينة لزوجته ، إلى أن حضر سنة ١٨٢٠ ميلادية بمدينة الإسكندرية ، وكان العزيز إذ ذاك مهتماً بإنشاء السفن ، فعرض له بطلب الخدامة والمعيشة تحت ظله ، فجعله ملاحظاً للسفن الجارى إنشاؤها فى بلاد أوربا ثم

جعله قبطاناً للفرقطون المسمى بالبحيرة الذى أنشىء بمرسيليا ، وكان به ٦٤ مدفعاً ، ولم يزل يترق إلى أن أخذ رتبة البيكوية ، ثم صار ميرألاى على الدوننمة المصرية بتمامها ، ولما عدمت الدوننمة الأصلية فى وقعة مورة ولم ينجح منها إلا القليل ، ركب العزيز دوننمة أخرى من المراكب التى أنشئت بمينا الإسكندرية على أيدى أولاد الوطن ، مع ما بقى من الدوننمة الأولى ، فكانت أعظم من الأولى قوة وترتيباً ومهابة .

الدوننمة المصرية

وبيان السفن الحربية والمدافع والرجال التى تركبت منها الدوننمة المصرية ، على ما ذكره قولوط بيك ، فى هذا الجدول .

مراكب كبيرة ، وعدد رجالها :

المحلة الكبيرة ١٠٣٤ رجلاً ، المنصورة ١٠٣٤ ، إسكندرية ١٠٣٤ ، أبوقير ٧٣٦ ، مصر ١٠٩٧ ، عكا ١١٤٨ ، حمص ١٠٣٤ ، بيلان ٩٠٠ ، حلب ١٠٣٤ ، فيوم ١٠٣٤ ، بنى سويف ١٠٣٤ ، منوفية ٥٥٨ ، بحيرة ٥١٠ ، دمياط ٤٧٠ ، سرجهاد ٥١٠ ، رشيد ٥١٠ ، وابور النيل ١٥٢ ، خمس كورومت ٩٢٢ ، وخمس جوبليت عدد رجالها ٤٤٢ ، مركبان صغيرتان ٦٠ ، وخمس مراكب عدد رجالها ٣٩٠ .

مجموع العساكر البحرية المصرية ١٥٦٤٣ ، شغالة الترسانة بإسكندرية ٤٠٧٦ ، المجموع ١٩٧١٩ ، والمدافع التى كانت بها وقتئذ ٣٦٤ مدفعاً ، ومنصرف العساكر والرجال البحرية ٧٥٠٠٠٠٠ فرنك ، والمنصرف على المبانى العسكرية ١٨٧٥٠٠٠ ، والمنصرف على ترسانة بولاق ٤١٢٥٠٠ ، يكون المنصرف على الجميع ٩٧٨٧٥٠٠ .

ولأجل عدم إهمال جميع الأعمال وخلافها من العمائر النفيسة التى أبدتها فكرة العزيز بمدينة الإسكندرية ، مع محبته للإطلاع على الأخبار التى ترد من البلاد الخارجية ليحيط علماً بأحوالها وأخبارها فيتمكن بذلك من القيام بمصالح الرعية وسياستها ، وتحصين جهات حكومته ، إتخذ تلك المدينة مركز إقامته فى غالب أوقاته ، فبنى برأس التين بجوار الترسانة ثلاث سرايات : ثنتين على المينا الغربية إحداهما للمسافرين ، والأخرى لدواوينه ، والثالثة لخاصته بجوار المينا الشرقية ، ولم يشغله ذلك عن مصالح الرعية ، بل لم يزل ساعياً فى جميع ما يصلح القطر وأهله ، حتى خلصّ الديار المصرية من الأشرار ، وعم الأمن جميع جهاتها .

واستلزم ذلك كثرة وفود الأغراب على الديار المصرية بالبضائع ، وانتشروا فى جميع جهات القطر ونشروا بها معارفهم من الحرف والصنائع ، وعاد نفعهم على جميع أبناء الوطن ، ولم يزالوا آخذين فى الإزدياد حتى كان الموجود منهم فى الديار المصرية سنة ١٨٤٠ من الميلاد ما تراه :

شوام ٥٠٠٠ نفس ، أروام رعية ٣٠٠٠ نفس ، أرمن ٢٠٠٠ ، أروام إفرنج ٢٠٠٠ ، تليانيون ٢٠٠٠ ، مالطيه ١٠٠٠ ، فرنساوية ٨٠٠ ، إنكليز ١٠٠ ، نمساوية ١٠٠ ، مسكوف ٣٠ ، اسبانيوليون ٢٠ ، سوسيه وبلجيكية وهولنديه واسبانية ١٠٠ ، وغيرهم . الجميع ١٦١٥٠ .

وفى سنة ١٨٤٦ بلغ عددهم ٥٠٠٠٠ ، وفى سنة ١٨٧٠ بلغ ١٥٠٠٠٠ ، سيما وقد خصتهم العناية الداورية بالإكرام الزائد ، فاستوطنوا هذه الديار خصوصاً مدينة الإسكندرية ، وبنوا بها المنازل الفاخرة والقصور المشيدة على هيآت قصور أوربا ، قد أكثروا فيها من الشبابيك ، وركبوا عليها ألواح القزاز وغيرها ، وصنعوها بالألوان المفرحة .

مطلب فى بيان
هيئة الأبنية التى كانت بالقطر المصرى قبل
جلوس العزيز محمد علىّ باشا على التخت

ولما رأى أهل الإسكندرية ذلك ونفاسته تركوا ما كانوا عليه من الأوضاع القديمة ؛ وذلك أن جميع أبنية القطر كانت بأوضاع وهيآت غير ما هى عليه الآن ، فكانت المنازل العظيمة مشتملة على دور أرضى ، وفوقه دور أو دوران ببناء بارز عن سمت الدور الأرضى بمقادير مختلفة من ذراع إلى ثلاثة أذرع ، ولها متكآت ودعائم من الأحجار والأخشاب ، ولا يجعلون فيها شبابيك ولا يستعملون القزاز ؛ لقلة وجوده فى الديار المصرية حينئذٍ بسبب قلة توارد البضائع الخارجية فى تلك الأزمان ، وإنما يجعلون فيها مشربيات من الخرط ، ثابتة فى البنيان ، ذات خروق ما بين صغيرة وكبيرة ، وبتلك المشربيات طاقات صغيرة مطلة على الحارات ، لها أبواب من الخشب تقفل وتفتح على حسب الحاجة ، وكانوا يتنافسون فى ذلك ويصرفون فيه مصاريف جسيمة ، ومنهم من ينقشها نقشاً نفيساً مع أنها كانت لا تقى من الحر ولا من البرد ولا من الأتربة ، بل كانت فى الصيف عرضة للرياح الحارة والأتربة الثائرة ، وفى الشتاء عرضة للبرد والمطر ، وربما ألصقوا بتلك المشربيات فى زمن الشتاء أوراقاً فيتسبب عن ذلك إمتناع الهواء عن المرور فى المساكن ، فتتولد من إحتباسه عفونات ربما أضرت بأبدانهم وأبصارهم ، خصوصاً / الفقراء الذين لا إعتناء لهم بشأن النظافة . ٥٥

ومع أن هذه الأوضاع الجديدة ، ربما كانت مع نفاستها وجلبها لأسباب الصحة أقل كلفة ومصرفاً من تلك الأوضاع القديمة ، فلذلك تجد أبنية إسكندرية الآن ، وغيرها من جميع مدن القطر ، غالبها من الأوضاع الجديدة تضاهى الأوضاع الأورباوية ، بصورٍ حسنة ، وشوارع معتدلة متسعة ، محفوفة من الجانبين بشبابيك القزاز وغيرها .

وكانت منازل تلك المدينة جميعها ، قبل جلوس المرحوم محمد على باشا على تخت ديار مصر ، ما بين المينا الشرقية والغربية فى أرضٍ تعرف بالجزيرة ، فى مقابلة رأس التين خارج السور البحرى ، وجميع الأرض المحددة بشارع أبى وردة ، قبلى عمارة صفر باشا وعمارة شرين باشا ، إلى أبى العباس وإلى رأس التين ، كان بعضها مدافن للموتى وبعضها نقعاً ، ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت للصيادين ذات أبنية خفيفة كانت بالجهة المعروفة بالسيالة ، وكان يتوصل من هناك إلى برج قائد بيك وطابية الأضا ، فكان حد تلك المدينة ، قبل ذلك من الجهة القبلية ، الحارة المعروفة بحارة المغاربة قريباً من المكان المسمى الآن بميدان محمد على .

وكان فى خلال البلد فضاء وتلول ، واستمر ذلك إلى سنةٍ ١٢٥٢ هجرية ، ثم أذن للأهالى فى الفضاء ، الذى بين رأس التين وشارع أبى وردة وأبى العباس ، فبنوا فيه قصوراً ومنازل ، وفى ذاك الوقت كان مجلس التنظيم تحت رياسة الخواجة (توسيس) وكان متشكلاً من بعض التجار والمهندس (منشنى) وهو الذى رسم خرطة إسكندرية التى عليها العمل الآن .

وكان ما بين الأسوار خالياً من الأبنية ، ليس فيه إلا الصهاريج ، وأربعة كفور مسكونة بخَدَمَة البساتين التى بداخل تلك الأسوار ، وبرجال القلاع والأبراج :

أحد تلك الكفور ، عن شمال الداخل من باب شرق .

والثانى : فوق كوم الديماس .

والثالث : قرب باب سدرة ، وهو باب عمود السوارى .

والرابع هو المعروف الآن بالنجع ، وهو قريب من باب المحمودية .

ولما كثرت الرغبة فى العمارات ، وتزاحم الناس على البناء فى أرض الجزيرة ، صدر أمر الداورى المفخم ، بتقسيم ما بين الأسوار على الراغبين .

مطلب فى تاريخ فتح الشارع الأخضر
المار من شرق الإسبتالية إلى المحمودية

وفى سنة ١٢٦٠ هجرية ، فتح شارع الباب الأخضر المار من شرقى الإسبتالية إلى المحمودية . وهدمت لأجله جملة من المساكن . ومن المحاسن التى أنخذ التنظيم فيها حقه الشارع العمومى ، والمنشية المشاهدة الآن بين باب رشيد ورأس التين .

فأما المنشية وبعض الشارع فكان فضاء ، وأما بعضه الآخر فكان منازل اشتريت من أربابها ، وكان فى محل المنشية سوق تنزل فيه العرب لبيع الأغنام والتمر السيوى ، والحطب . والصوف والسمن وغير ذلك . وكان يعرف بكوم الجلة ، وحدُّه الشرقى الوكالة المحروقة . والبحرى وكالة المراكشى ، ووكالة الجمال المبرية ، ووكالة الصوف ، ومنزل الشيخ إبراهيم باشا والمنقعى .

ومن هذه الأماكن إلى جهة الجنوب كان فضاء وبعض بساتين . وأوّل ما أنشىء بالمنشية جامع الشيخ إبراهيم باشا ، ووكالة محرم بيك التى تحتها الآن خان شاكولانى ، ثم بنى منزل ضانستاظى ، ومنزل جبارة ، وهو الآن فى ملك الخديوى ، وأما سوق الخضار والجزارين ـ الآن ـ فهو محل حارة الجمال سابقاً،فرّقه العزيز على بعض الأمراء ، فبنوا فيه تلك الأبنية والحوانيت الموجودة الآن .

وأما مقابر الموتى ، فكانت داخل البلد خلال المساكن ، فكان يتصاعد منها روائح كريهة ، فنهى العزيز عن الدفن ، فيها وأمر بجعل القبور خارج المدينة بعيداً عنها .

وهكذا كانت عادته فى جلب كل ما فيه نفع ، ودفع كل ما فيه ضرر ، فكان ـ عليه سحائب الرحمة ـ لا يشغله بعض المصالح عن بعض ، ولا تتعطل فكرته فى أمر مّا ، ولم يسمع بمثله فى عصره فى اتساع دائرة أفكاره وإصابة أنظاره ، ولذلك لما تراكمت عليه

الحوادث فى مبدأ الأمر ، إذ كانت المماليك مستولية على القطر بصورة غير مرضية ، وكان الفساد قائماً فى جميع بلاد القطر ، بالقتل والنهب وقطع الطريق ، وغير ذلك ، مما أوجب إضمحلال الديار المصرية ، وجه همته العلية إلى ذلك كله ، وأعمل فكرته وبذل جده واجتهاده فيما يزيل به تلك الحوادث : فمنها ما استعمل فيه الرفق واللين ، ومنها ما استعمل فيه بذل الأموال ، ومنها ما استعمل فيه القهر والغلبة والسيف ، حتى تمكن من جميع أغراضه ، وأمن البلاد وخلص العباد من ربقة الإسترقاق ، وأجلى المماليك بالكلية من الديار المصرية : فنهم من قتل ، ومنهم من أخرج منها حياً ، ومنهم من أبقاه بها ضعيفاً ذليلاً .

مطلب القوة العسكرية

واحتفل من يومئذ بجلب شبان الأهالى من جميع بلاد القطر ، ورتبهم عساكر حربية بحرية وبرية ، وجعلهم أصنافاً مختلفة ، بتنظيمات وتعليمات مفيدة .

وهكذا لم يزل الأمر آخذاً فى الإزدياد حتى بلغت العساكر البرية المصرية سنة ١٨٣٩ ميلادية هكذا :

ألاى غارديا فى حمص	١٣٧٢
ألاى طوبجية فى الإسكندرية	٢٣٤٩
أربع بلوكات طوبجية متفرقة فى عكا	٣٣٧
أورطة طوبجية فى الحجاز	٣٧٩
ألايات بيادة غارديا	٨١٢٨
ألاى ثانى طوبجية بيادة	١٩٤٩
ألاى طوبجية سوارى فى حمص	٩٨٢
ألاى سوارى غارديا	٧٩٦
ألاى زرخ	٨٤٤
ومجموع عساكر تلك الألايات	**١٧١٣٦**

عساكر البيادة

٣٥ ألاى بيادة ومجموع عساكرهم	٩٠٤٩٥
١٥ ألاى سوارى ومجموع عساكرهم	١٠١١٤
٤ أورط إمدادية فى القاهرة	٣٩٨٠
٢ ألاى بلطجية فى عكا	٨١٢
١ أورطة مهندسين فى عدليب	٧٥٨
١ بلوك لغمجية فى القاهرة	٩٤
١ أورطة بلطجية فى الإسكندرية	٣٠٨
١٦ بلوك موزعة فى الأقاليم	١٦٧١
عساكر خفر بالقاهرة	٢٨٥
عساكر جبهجية بمصر القديمة	١٨٥
١ ألاى سر عسكر	١١٥٢
١ أورطة إمدادية بطرابلس	١٦٤١
١ أورطة بدنجلة	٨٥٥

وفى بلاد الحجاز: ٢ بلوكات من الإمدادية ٢٠٠،

١ بلوك بالقربان ١٠٦ .

ومجموع العساكر المنتظمة الموجودة تحت السلاح خلاف الرديف	
على ما ذكره قولوط بيك فى تاريخه لمصر	١٣٠٣٠٢
ومجموع العساكر الباش بوزوك	٤١٦٧٨
العرب وعساكر الرديف فى مصر وإسكندرية ودمياط ورشيد	
ومصر القديمة وبولاق	٤٧٨٠٠
ومدرسة الطوبجية والسوارى والبيادة والبحرية	١٢٠٠
وهذا بخلاف الورشجية وقدرهم	١٥٠٠٠
ومجموع ذلك	**٢٣٥٩٨٠**

وبناء على ذلك تكون القوة العسكرية المصرية ، منتظمة وغير منتظمة كما ترى :

عساكر منتظمة	١٣٠٣٠٢
عساكر غير منتظمة	٤١٦٧٨
الرديف	٤٧٨٠٠
رجال الورش	١٥٠٠٠
تلامذة المدارس الحربية	١٢٠٠
مجموع العساكر المصرية البرية	**٢٣٥٩٨٠**
الدوننمة المصرية	١٩٥٢٩
دوننمة الدولة العليه التى استولى عليها العزيز ـ كما سيأتى	٢١١٠٧
ومجموعها	٤٠٦٣٦
فإذا ضمتا إلى العساكر البرية وهى	٢٣٥٩٨٠
كان الجميع	٢٧٦٦١٦

وبيان منصرف العساكر البرية سنة ١٨٣٣ ، على ما ذكره قولوط بيك :

منصرف المدارس العسكرية فرنك	٢٠٠,٠٠٠
منصرف العساكر البرية المنتظمة	١٥,٠٠٠,٠٠٠
ماهيات الذوات ورؤساء المصالح	٥,٠٠٠,٠٠٠
ماهيات الخيالة الباش بزوك	٨١٢,٠٠٠
ماهيات العرب	٦٥٠,٠٠٠
مصروف المهمات البحرية	١,٧٥٠,٠٠٠
مرتبات الخيول والبغال والجمال	٣١٢,٠٠٠
يكون مصروف العساكر البرية	**٢٣,٧٢٤,٠٠٠**
وتقدم أن مصروف العساكر البحرية والمسيين	٩,٧٨٧,٥٠٠
يكون مصروف جميع القوة العسكرية	**٣٣,٥١١,٥٠٠**

ومع ذلك كانت له إلتفاتة تامة لعمل الإستحكامات اللازمة ، حتى أحضر لها من الممالك الفرنساوية ، موسيو (حليس) أحد المهندسين الحربيين المهرة ، ورقاه إلى رتبة البيكوية ، فلما حضر أخذ فى إختبار الأرض من جميع نواحى المدينة وضواحيها وجميع السواحل المصرية ، ثم عين مواضع الإستحكامات والحصون اللازمة ، فأسست على ما هى عليه الآن ، وأحضر لها المدافع والآلات اللازمة ، ورتبت لها العساكر الكافية والمعلمون بالقوانين المقررة المدوّنة ، فتحصنت بذلك الديار المصرية وازدادت قوّتها أضعافاً ، حتى قاومت الدولة العلية ، بل انتصرت العساكر المصرية على العساكر / التركية مراراً فى وقعات سارت بها أوراق الحوادث ، وتخلدت فى الدفاتر والتواريخ عند جميع الملل ، بل فى بعض

٥٧

الرقعات قد استولى العزيز على دوننمة الدولة العلية ، ودخلت تحت طاعته ، وكانت إذ ذاك تحت قيادة أحمد باشا فوزى ، وكانت عدد سفنها ورجالها ما هو مذكور فى هذا الجدول :

	عـدد رجالها
٩ مراكب كبيرة	٩٤٤٣
١١ فرقطين	٦٠٤٠
٥ لريتيات	٦٢٤
وهذا خلاف ألايين عساكر قدرهم	٥٠٠٠
ليكون	**٢١١٠٧**

فإذا ضممتها إلى الدوننمة المصرية يكون الجميع ٤٠٦٣٦ ، فإذا ضم الجميع إلى العساكر البرية المتقدم بيانها ٢٣٥٩٨٠ كان الجميع ٢٧٦٦١٦ .

وكل ذلك قد تجدد فى الديار المصرية فى مدة يسيرة بعد جلوس العزيز على تختها ، فاكتسبت بذلك قوة يمكنها أن تقاوم بها من عداها من الدول ، ولذلك اضطروا إلى معاهدة الدولة العلية ليأمنوا بذلك من صولة الديار المصرية .

مطلب أول دخول الفرنساوية فى الإسكندرية

وإنما ذكرنا هنا ما يتعلق بالقوة العسكرية لتعرف أنها كغيرها من غرس فكرة العزيز وسعة دائرة عقله وعلوّ همته ، ويظهر لك الفرق بين الحالة التى إنتقلت إليها الديار المصرية فى أيامه ، من العمران والثروة والقوّة حتى رجعت إلى حالتها الأولى ، التى كانت عليها زمن البطالسة ومؤسسها الذى تسمت باسمه وبين الحالة التى كانت عليها قبيل جلوس هذا العزيز

على تختها ، فإنها كانت فى غاية من الضعف وقلة من العَدد والعُدد ، حتى أن فئة قليلة من الإفرنج استولت عليها فى ثمانية وعشرين يوماً ، لرخاوة حكامها وقتئذ وذلك أنه حين إستيلاء الفرنسيس على جزيرة مالطة ، كما نقل عن قولوط بيك ، كان موسيو (روسيتى) قنصلاً للدولة النمساوية وغيرها بالديار المصرية فتوجه إلى مراد بيك ، حاكم مصر إذ ذاك ، وأخبره أن الفرنساوية استولوا على جزيرة مالطة ولا يبعد أن يقصدوا الديار المصرية ، فلم يعبأ بخبره بل إستهزأ وقال : كيف نخاف من هؤلاء الرعاع الذين لا فرق بينهم وبين الواقفين على أبوابنا ؟ وإن فرض وصولهم لأرضنا فمماليك الخزنة وحدهم يكفوننا المؤنة ويقطعون دابرهم ، فحاول القنصل (روسيتى) صرفه عن هذا الرأى فلم يزدد إلا إستهزاء وسخرية ، ثم أمر بإرسال قنطارين من البارود إلى الإسكندرية إحتياطاً .

فلم يمض إلا القليل حتى جاء الفرنسيس فدخلوها ، فلما بلغه ذلك أمر بإحضار مسيو (روسيتى) وطلب منه أن يكتب من عنده للفرنسيس بالخروج من هذه الديار ، فقال له (روسيتى) : هم لم يحضروا إليها بإذنى حتى يخرجوا منها بإذنى ، فإن كان ولا بد فأرسل إليهم مع المكتوب خمسين ألف فرنك حتى يرتحلوا .

فانظر كيف كان حال أمراء تلك الأيام ، وعدم إستعمالهم للحزم والتدبير بالنسبة إلى ذلك العزيز ، الذى قمع الأشرار وحمى هذه الديار ، وجيَّش الجيوش ووجههم إلى الأقطار الخارجية مثل جزيرة موره وجزيرة العرب ، وأرض السودان ، أليس ذلك باعثاً لجميع أهل الديار المصرية على إدامة الدعاء له : بتخليد دولته ودولة أنجاله ؟ .

وكان مما مَن الله به عليه ، أنه لا يقتصر على الأعمال الكبيرة ، بل كانت جميع موجبات الثروة والتقدم تشغل فكره ، فإنه أحدث فى البلاد طرقاً متسعة وشوارع معتدلة ، وجعل قوانين لتنظيم المبانى ــ سيما الإسكندرية ــ فإنه فتح بها عدة شوارع متسعة ، وبنى باب رشيد للمرور بحارة النصارى ومحلات التجار لأغراض حسنة ، وفى خارجها عدل طرقاً كثيرة ، وغرس بجوانبها أشجاراً على أوضاع فائقة .

مطلب عدد بيوت التجارة التى انشئت بالإسكندرية فى عهد العزيز محمد على

وكان له إلتفاتات تامة إلى ما يوجب رواج الفلاحة وأنواع الصنائع والمتاجر ، حتى تجدد فى عهده بيوت كثيرة تجارية لأهل الوطن وغيرهم ، فإن العلائق التجارية صارت مرتبطة بهمته مع سائر الدول ، فنشأ بالإسكندرية تسعة بيوت للفرنساوية ، وسبعة للإنكليز ، وتسعة للنمساوية ، وثمانية لأهل بلاد التسكار ، وبيتان للسردينيا ، وواحد لبلاد سويد ، وواحد للهند ، وواحد لبروسيا ، وستة لعمد تجارة الأهالى .

وكذلك حدثت مراكز كثيرة بالقاهرة وغيرها من المدن والبنادر ، ومن ذلك إحتفاله بأمر الزراعة الصيفية وغيرها ، سيما زراعة القطن ، فإنها سبب كبير فى زيادة ثروة الأهالى .

ومن أكبر دواعى الإكتساب ، الباعثة على بذل الهمة فى تحصيل الحرف والصنائع ، فتح باب تغيير الهيآت فى الأبنية والملابس والرفاهية ، فإنها فتحت / باباً للمصرف كان مقفلاً من قبل .

٥٨

وبالجملة ، فمحاسن العائلة المحمدية لا تحصى ، وعوائد فوائدها لا تستقصى .

فمنها تربية أولاد الوطن بالمكاتب والمدارس ، والسعى فى كل ما فيه للرعية فائدة ، كعمل الترع والخلجان والجسور ، حتى إتسعت أرض الزراعة وصلح زرعها ، وكثرت العلوم والمعارف فى أولاد الوطن الذين تربوا تحت ظله ، وحفهم بعنايته حتى قاموا بمصالح القطر ، واستغنى بهم عن غيرهم ، كما هو جل قصده بتلك الغراسة ، فهم غرس فكرته وأولاد نعمته ، وكل ذلك مما يحمل أبناء الوطن على إدامة الدعاء له ولأنجاله حيث اقتنفوا أثره فى آرائه وأفعاله .

مطلب ماكان يتحصل من الجمارك

ولنورد لك بيان قدر ماكان يتحصل من جمرك الإسكندرية وغيرها ، من الثغور المصرية ، فى مبدأ أخذ العزيز بزمام أحكام تلك الديار ، ثم ماكان يتحصل فى آخر أيامه السعيدة ، لتعلم ما حصل بهمته لهذا الفرع ، وتقيس عليه غيره من باقى فروع الثروة فى الديار المصرية فنقول :

كانت محلات الجمرك فى تلك الديار فى زمن المماليك والفرنساوية هى : القصير ، ومصر القديمة ، والقاهرة ، وبولاق ، والسويس ، ودمياط ، ورشيد ، والإسكندرية .

فأما جمرك القصير فكان متروكاً لحكام الجهات القبلية ، وأما جمرك باقى الجهات فكان بين إبراهيم بيك ومراد بيك ، وبقى الأمر على ذلك مدة ، ثم بعد ذلك اقتسما تلك الجهات خوفاً من حصول النزاع بينهما ، فاختص مراد بيك بجمرك القاهرة ، وبولاق ، ومصر القديمة ، ورشيد ، ودمياط ، والإسكندرية ، وأما إبراهيم بيك فاختص بجمرك السويس فقط ، وكان يجعل من طرفه عمالاً يحصلون الجمرك ، بخلاف مراد بيك فإنه أعطى جمارك الثغور الأربعة التى خصته لأربعة من الملتزمين ، وجعل على كل منهم شيئاً معيناً يؤدّيه إليه فى أوقاته . والملتزمون جعلوا من تحتهم عمالاً وكتبة فى كل ثغر ، على حسب الوارد قلة وكثرة ، فكان فى ثغر دمياط ثمانية من الكتبة وخمسون من العمال . وفى رشيد ثلاثة من الكتبة وعشرون عاملاً ، وفى الإسكندرية اثنا عشر كاتباً وستون عاملاً ، وفى بولاق ومصر القديمة ستة من الكتبة وأربعون عاملاً ، فالجملة تسعة وعشرون كاتباً ومائة وسبعة وستون عاملاً ، وكانت مرتباتهم تدفع لهم من طرف الملتزمين فى كل سنة على هذا الوجه :

بولاق ٢٤٠٠ ريالاً بطاقة ، دمياط ٤٠٠٠ ، رشيد ١٠٠٠ ، إسكندرية ٤٠٠٠ ، منها مربوط الكاتب كل يوم من ٦٠ إلى ٣٠٠ نصف فضة ، ومربوطه كل سنة ٣٧٠ بطاقة ، يكون مرتب هذه الوظيفة كل سنة ٢١,١٧٠ ، ومربوط العامل كل يوم ٤٥ نصف فضة ، مربوطه كل سنة ١٨٢,٥ بطاقة ، ومرتب الجميع فى السنة ٣١٠٢٥ ، فيكون مرتب المصلحة فى السنة ٦٥٥٩٥ بطاقة .

وكان مرتب الإلتزام الذى يدفع إلى مراد بيك فى كل شهر ٢١٠٠٠ ، وفى كل سنة ٢٥٢٠٠٠ ، فيكون الجميع ٣١٥٥٩٥ .

ولا يخلو الحال ، على حسب العادة ، من تداخل الخدمة والكتبة فى الجمرك بالإختلاس وإخفاء بعض المتحصل ، فيصل المبلغ تقريباً إلى ٤٨٠٠٠٠ بطاقة ، يكون ما يخص الشهر ٤٠٠٠٠ بطاقة ، وهذا ما كان يدفع من طرف الملتزمين ـ وقت دخول الفرنساوية ـ إلى مراد بيك فى إلتزام الثغور الأربعة .

وحيث أن المنصرف للخدمة من طرف الملتزم يقرب من الثُمْن ، فإن فُرِض أن ما كان يصرفه فى الهدايا والرشا مثل ذلك أيضاً ، يكون المنصرف من طرفه كل سنة ١٢٠٠٠٠ ، يضاف إليه مرتب الإلتزام ٢٥٢٠٠٠ ، فيكون الجميع ٣٧٢٠٠٠ ، ويكون الباقى من ٤٨٠٠٠٠ هو ١٠٨٠٠٠ ، وهو أرباح الملتزم بعد المصاريف ، وهذا المبلغ يعادل ٣٣٤٠٠٠ فرنك تقريباً .

وأما المتحصل من جمرك السويس فهو ٤٠٩٣٦٥ بطاقة ، وهو قريب من المتحصل من الثغور الأربعة المذكورة ، وبالضرورة هو لا يحتاج لمصرف قدر ما تحتاجه الثغور الأربعة من ماهيات الكتبة والعمال ، ولذلك كانت أرباح إبراهيم بيك تزيد كثيراً عن أرباح مراد بيك .

وبناء على هذا الذى تبين لك ، يمكن تقدير جمرك الديار المصرية على هذا الوجه المشروح كما ترى : الثغور الأربعة ٤٨٠٠٠٠ ، السويس ٤٠٩٣٦٥ ، القصير ١١٠٦٥٥ ، الجملة ١٠٠٠٠٢٠ وهو عبارة عن ثلاثة ملايين فرنك ، من ضمنها جميع المصاريف وأرباح الملتزمين .

وقد علم من الكشف المبين للمتحصل من هذا الفرع ، زمن الحكومة الفرنساوية ، أن متحصل جمرك الإسكندرية من إبتداء سنة ١٢٠١ هجرية إلى سنة ١٢١٠ ، يعنى فى مدة عشر سنين ، هو ١٣٧٦٠٩٨ بطاقة ، ومجموع المصاريف فى هذه المدة هو ٣٤٤٠٤ ، فالباقى لجهة الخزينة بعد المصاريف هو ١٠٣٥٦٩٤ بطاقة ، فينتج أن المتحصل السنوى هو ٣٢٢٨٧٢ فرنك ، وهو عبارة عن ستة عشر ألف بينتو وكسور ، هى متحصل جمرك الإسكندرية فى سنة ١٢١٠ هجرية ، وبالضرورة هو الذى كان يتحصل حين جلوس / العزيز على تخت الديار المصرية ، وكان الريال البطاقة ـ إذ ذاك ـ عبارة عن تسعين نصف فضه ، وكان القرش ثلاثين نصف فضة .

٥٩

وبعد أن تمهدت الأمور ، وإنتظمت الأحوال ، زاد المتحصل أضعافاً حتى بلغ بعد إنعقاد الصلح سنة ١٨٤١ ميلادية قريباً من ثلثمائة ألف جنية ، أعنى نحوا من تسعة عشر ضعفاً مما كان أوّلاً ، وما ذاك إلا من تدبير العزيز وإتساع دائرة الأمنية ، التى أوجبت إتساع دائرة التجارة . وكثرة توارد الأغراب بمحصولات الأقطار الخارجية .

ومن أعظم أسباب ذلك ، ما حصل من مساعدة الفلاحين على فلاحة الأراضى ، مع إجراء الطرق المصلحة للأرض كالترع والجسور ، فإزدادت محصولات الزراعة ، وإتسعت الأرض الصالحة لها حتى زادت المحصولات عن كفاية القطر ، وانتفعت الأهالى ببيع الزائد لأهل الأقطار الخارجية ، فأورثهم ذلك رفاهية وتحسيناً للهيئات والمساكن والركائب ، وراجت التجارات الداخلية والخارجية ، كما يعلم ذلك من الجدول الآتى ، الدال على قيم المحصولات الواردة على الديار المصرية ، من ثغر الإسكندرية ، والمحصولات الخارجة عنها إلى الديار الأوروباوية وغيرها من إبتداء سنة ١٨٢٣ إلى ١٨٤٢ ميلادية .

وهذا هو الجدول

سنة ميلادية	قيمة الوارد بالقرش	قيمة الصادر بالقرش
١٨٢٣	٨٠٤٥١٩٧٥	١٥٨٤٧٦٤٦٠
١٨٢٤	١١٩٥٢٠٩٧٥	٢٤٣١٦٧٧٥٠
١٨٢٥	....	١١٥٥٦٦٤٣٠
١٨٢٦	....	٨٠٨٥٥٩١٠
١٨٢٧	....	٨٥٣٨٣٤٠٠
١٨٢٨	....	٣٠١٥٩١٥٠
....	....	....
١٨٣٤	٨٢٤٥٤٠٢٥	٨٥٨٠٦١٨٥
١٨٣٥	١٠٢٤١١٩٤٥	١٣٦٧٠٢٢٦٠
١٨٣٦	١٣٠١٣٨٤٣٠	١٧٦٢٠٧٠٨٠
١٨٣٧	....	....
١٨٣٨	٣٨.......	....
١٨٣٩	٣٠٣......	....
١٨٤٠	....	....
١٨٤١	١٧٠٦١٢٠٠٠	١٥٤٠٨٠٠٠٠
١٨٤٢	٢٤٧٠٩٢٠٠٠	١٨٠٦٨٨٠٠٠

فمن هذا الجدول يعلم أن حركة التجارة ، من إبتداء إستيلاء العزيز على تلك الديار ، كانت كل سنة فى ازدياد ، وفى مدة تسع عشرة سنة تضاعف الصادر والوارد جداً ، وبعد أن بلغت قيمة الصادر والوارد فى سنة ١٨٢٣ ميلادية ٢٣٨٩٢٨٤٣٥ قرشا صاغا ، وهو قريب من أربعمائة وثمانين ألف كيسة ، صارت تبلغ فى سنة ١٨٤٢ ميلادية ٤٢٧٧٨٠٠٠٠ ، وهو قريب من ثمانمائة ستين ألف كيسة ، وهذا أدل دليل على علوّ همته وسعيه فى مصالح الرعية ، فكان ـ عليه الرحمة ـ رحمة عامة لهذا القطر .

الكلام على الإسكندرية فى زمن العزيز إبراهيم باشا

لم تزل هذه المدينة حين جلوس العزيز إبراهيم باشا على تخت الديار المصرية ، آخذة فى السير فى طرق التقدمات والشهرة والقوة ، بسبب ما جدّده ورسمه فيها والده العزيز محمد على باشا من المحاسن التى تقدم ذكر بعضها ، فلما جلس هذا العزيز على كرسيها زاد فرحها وإبتهاجها ، لما كانت تؤمله فيه من بلوغها على يديه أوج السعادة وتمام الشهرة اللذين مهدهما لها بحروبه ونصراته ، ومعاناته للشدائد من شبيبته إلى مشيبه ، حتى حصلت على يديه فتوحات كثيرة ، واكتسب هذا القطر بسببه هيبة عند جميع الممالك ، فهو فى الحقيقة مشارك للمؤسس الأصلى فى تقدم هذه الديار ، وإن كانت مدّة حكمه قصيرة لا تزيد على سبعة أشهر ، فإنه ـ عليه سحائب الرحمة ـ تولى هذه الديار بطريق الوكالة عن والده فى ربيع الآخر سنة ١٢٦٤ ، وفى رمضان من تلك السنة توجه إلى الآستانة ، فخلع عليه الملك فرمان الأصالة ورجع مستولياً / على التخت ، وقد اشتغل بمجرد إستيلائه بأمور مهمة فى إسكندرية وغيرها ، ذات منافع عمومية من ضمنها : تكميل طوابى إسكندرية وإستحكاماتها على الوجه الذى أسست عليه فى عهد العزيز والده ، وشحنها بالعسكر والأسلحة والآلات . ٦٠

ومرّ بالساحل من إسكندرية إلى رشيد ، ثم إلى دمياط واستكشفه بنفسه ، ورتب لبغازىْ رشيد ودمياط ، بمعرفة جليس بيك ، جميع ما يلزم لحفظ الثغور من الطوابى والآلات والعساكر ، وهكذا إستحكامات القناطر الخيرية ، وترعتى العطف وأبى حماد ، وبرنبال ، والعريش ، والسويس ، والقصير وما يلزم لحفظ الآبار والعيون التى بطرق تلك الجهات ، وأمر فى ثغر إسكندرية بإنشاء مائتين وخمسين شولو باطوبجية ، كل واحدة تحمل مدفعين لحفظ البغازات والملاحات ، وكان عازماً على تخطيط سكة تبتدىء من إسكندرية وتمر بناحية أبى قير وتستمر إلى رشيد ، ليسهل السير على العساكر والمهمات عند الحاجة ، وعلى ترتيب ضابطان أركان حرب .

وكان له إلتفانة تامة لتنظيم القوّة العسكرية . فجدد أورط المهندسين الحربية والكبورجية ، وأحضر لذلك رجالاً من الدولة الفرنساوية . فكان هو أول مؤسس لهذا الأمر المهم ؛ فإن الجيوش لا تستغنى عن ذلك عند سيرها داخل القطر وخارجه . لتعدية البحور والأنهار والخلجان ، سيّما عند مزاحمة العدوّ .

وكان موجهاً همته لتحصيل ما به التربية العامة والأسباب الصحية . وسلك ذلك بالفعل فى سلك التنظيم . من جملة أعمال خيرية لجميع الوطن ، لكن لم تمهله الأيام حتى يتم ما شرع فيه وما عزم عليه . وتوفى إلى رحمة الله تعالى فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هلالية ، عوّض الله أبناء الوطن فيه خيراً . فمدة جلوسه على التخت وإن كانت قليلة فى الحس . لكنها كثيرة فى المعنى ، بما نالته إسكندرية وغيرها من آثار همته . ولو طالت به الأيام لنالت على يديه ما كانت تؤمله وزيادة . ولكن قد عوضنا الله تعالى أضعاف ما فاتنا منه . بأن أوجد لنا من ولده لصلبه ، حضرة الجناب الخديوى إسماعيل باشا . فقد حصل لنا على يديه ما أزال أسفنا وحزننا ، فإنا بحول الله وقوّته وعناية هذا الجناب ، فضلاً عن حوزنا لجميع ما قصده المؤسس الأصلى . قد وصلنا الآن إلى درجة من التقدم لم تكن لدولة من الدول المشرقية . ولا يبعد أنَّا نناظر بها الدولة الأوروباوية . فإنه بأرض مصر الآن جميع نتائج الإختراعات النافعة العلمية والعملية المستعملة على الوجه الأرجح فى تنمية الأرزاق . وما من أحد من أهل القطر والطارئين إلا وقد أخذ بحظ من ذلك . وكلهم شاهدون له مثنون عليه وعلى آبائه وأبنائه .

*** *** ***

الكلام على الإسكندرية فى زمن المرحوم عباس باشا

كان جلوسه ـ رحمه الله ـ على تخت الديار المصرية فى سنة ١٢٦٤ هجرية ، ومن ذاك الحين إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى ، لم يغير السير السياسى ـ الذى كان رسمه جده وعمه من قبله ـ لسياسة هذه الديار ، بل سار فى هذا الطريق بقلبه وقالبه ، لأنه كان لا يرى وجهاً للعدول عنه إلى غيره ؛ لما اشتمل عليه المنافع والفوائد الجمة للقطر وأهله .

وقد نشأ عن هذا السير ، التقدم فى التجارة والثروة فى الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر ، ومن محافظته على القوانين الموضوعة لرواج الفلاحة نما محصولها ، ومن جودته كثرت الرغبة فى الفلاحة حتى من الأمراء والأعيان ، فزرعت أراضى كثيرة من الأراضى المتروكة ، واتسع زمام القطر ودائرة الرزق ، وسرى بشير الثروة فى نواحى القطر ، فعم القاصى والدانى ، وكان ـ رحمه الله ـ لا يكثر من الإقامة بالإسكندرية ، إلا أنه كان مهتماً بشأنها ، لما كان يعلمه من أهميتها وعظم موقعها من هذا القطر ، فشملها بعنايته واجتهد فى تتميم ما شرع فيه زمن جده وعمه ، رحمهما الله تعالى ، وبنى برأس التين سراية أعدّها لإقامة مجلس التجار ، وصمم على عمل خمسة ميادين فيها لتكون فى زمن الهدنة محلاً للتفسح والألعاب ، وفى زمن الحرب مجتمعاً للعساكر لتوجيهها إلى محل إقتضائها ، وصدرت أوامره بفتح شارع مستقيم يقسم مدينة الإسكندرية نصفين ، من باب شرق إلى باب المحمودية ، على أن يكون هو الشارع العمومى ، واشترى جميع ما بجانبه من الأملاك ، وفتح منه بالفعل جزءاً عظيماً من باب شرق إلى جنينة (جرجس حزام) وبعد وفاته صرف عنه النظر ، فأنعم به المرحوم سعيد باشا على الأهالى ، فبنوا به المنازل والخانات المشهورة الآن ، وجدد فى المنشية عمارة جسيمة ، فى محل سبيل قديم من زمن العرب ، وكانت هذه العمارة تعرف بالإلهامية نسبة إلى ابنه إلهامى

باشا ، فلما توفى إلهامى بيعت من ضمن متروكاته بخمسين ألف جنيه سوى التى إشتراها التاجر (انطونيازس) الرومى وهى على ملكه إلى الآن ، واعتنى اعتناء زائداً بتنظيم القوّة العسكرية ، فأدخل فى ترتيب الألايات نوع تغيرات ، منها : أنه جعل الألاى الواحد خمسة آلاف عسكرى / أعنى قدر ألآيين مما كان قبل ، ونظم العساكر الهجانة ، وأورطتين مهندسين ، وكان تعليمهم بواسطة الصف ضابطان ، الذين كان طلبهم المرحوم إبراهيم باشا من بلاد فرانسا لهذا الغرض . فحضروا ومعهم جميع الآلات والأدوات ، وأنشئت بمعرفتهم ستون مركباً لتعليمهم كيفية تعدية الأنهار والخلجان ، وكيفية عمل الألغام والحيل العسكرية فنشأ من ذلك ما انتفع به القطر .

ومن ضمن الضابطان (موتى بيك) رئيس الإستحكامات زمن المرحوم سعيد باشا و(ديبرنرزى بيك) و(مجاكية باش) مأمور ورشة الحوض المرصود ، وكانت رتبته باشجاويش .

وكان مما وجه همته إليه ـ زيادة على غيره ـ تتميم الإستحكامات والطوابى والقلاع ، طبق ما رسمه رئيس هندسة الإستحكامات (جليس بيك) ، ووافقه عليه ذو الدراية والخبرة وأقره الخديوى ، فأقام معظم حصونها وأضاف إليها بعض حصونٍ رأى أهميتها فأدخلها فى النقط المهمة ، ومن ذلك : قلعة مقابر اليهود ، وقلعة أبى قير ، وقلعة العجمى ، مع إنشاء مبانٍ ملحقة بتلك القلاع للوازمها ، فأنشأ فى قلعة مقابر اليهود جبخانة جسيمة تسع تسعة آلاف قنطار من البارود ، وهى إلى الآن مستعملة فى حفظ البارود .

وعمل فى قلعة أبى قير مخبزاً وطواحين تدور بالهواء ، واسبتاليا لمرضى العساكر المقيمين بهذه القلعة وما جاورها من القلاع ، فكانت العساكر المقيمة فى تلك الجهات لا تحتاج لشىء يأتى من الخارج .

ولم يزل ملتفتا إلى الإستحكامات والقلاع والحصون ، عازماً على إتمامها ، فيلحق بها ما يلزم من الورش والبطاريات الطوبجية وقشلاقات العساكر المحافظين ، والإسبتاليات وغير ذلك ، حتى انتظم أكثر القلاع التى كان جده وعمه مهتمين بها ، وبنيت ورشة للطوبجية فى وسط المدينة فى شرق المحل المعروف بكوم الناضورة ، طولها مائتا متر فى مثلها عرضًا ، مشتملة على جميع محلات التشغيل : كمحلات النجارة ، والحدادة ، والبرادة ، والسبك ، وغير ذلك كالمخازن ، وجلب لها جميع آلات التشغيل والعمال والمعلمين ، فصارت من أحسن ما يعمل من هذا القبيل ، وعمل بها عدة بطاريات ، يعمر بها كثير من آلات السواحل وغيرها ، ثم أبطلها المرحوم سعيد باشا ، وأمر ببيع أرضها للأهالى ، فبنيت منازل وغير ذلك ، ومن ضمنها الآن : حمام هلندى .

وأنشئت القشلاقات داخل الطوابى فمن ذلك : قشلاق فى طابية الأداء لإقامة خمسمائة عسكرى ، وقشلاق فى قلعة أم كبيبة كذلك ، وقشلاق فوق باب الصورى المعروف بباب محرم بيك لإقامة أورطة من العساكر .

ولما أنشئت سكة الحديد الواصلة إلى الرمل مرت فى وسط القشلاق فقسمته نصفين والآن به عساكر محافظة الضبطية ، وبنى الاسبتاليا الملكية فى حوش مقابر اليهود بجوار المسلة المعروفة بمسلة كيلوبترا ، ووفّاها جميع لوازمها من مفروشات وملبوسات وأدوية وآلات ، وجعل بها أجزاخانة وبيتاً لتركيب الأدوية ، ونوّع محلاتها بحسب أنواع الأمراض والعلل ، ورتّب لها حكماء وجراحجية فجاءت من أحسن الإسبتاليات ، وحصل بها النفع العام ، وصار يدخلها الأهالى والغرباء للتداوى بدون مقابل ، واستمرت على ذلك حتى هدمتها سكة حديد الرمل أيضاً ، والآن عمل من فيض المكارم الخديوية إسبتاليا عوضاً عنها فى محل قريب منها .

مطلب استكشاف عن السواحل

ولأجل الوقوف على ما اشتملت عليه الأراضى المجاورة لثغر الإسكندرية ، أمر باستكشاف ما حوله حيث كان لذلك دخل فى المحافظة ، فكشف سواحل البحر من الإسكندرية إلى العريش ومنها إلى مطروح ، وكشف بحيرة مريوط إلى حدود المزارع من مديرية البحيرة ، وإلى حدود الأرض المرتفعة من جهة وادى النطرون وسيوة ، وجميع الجزائر التى بالبحيرة ، وعمل لكل ذلك رسوم ، وظهرت الآبار والسواقى القديمة ـ المكشوفة وغيرها ـ والآثار والرؤوس ، والمين ، والمرتفع والمنخفض من الأرض ، والطرق التى كانت تصل إلى الإسكندرية من كل جهة .

واهتم أيضاً بكشف الصهاريج التى بداخل الإسكندرية وخارجها ، وما تشتمل عليه ، وقدر ما تسعه من الماء والمجارى التى توصل الماء إليها ، وصار التنبيه على أصحاب الأملاك أن لا يتلفوا شيئاً من ذلك ولا يتصرفوا فيه ، وجعل لذلك قوانين معمولاً بها إلى الآن ، وكانت قد بطلت مدة فنشأ عن بطلانها تصرف أصحاب الأملاك فى كثير منها بالنقض والهدم .

وحيث كان الماء من أهم لوازم المينا ، ولا يستغنى عنه زمناً مّا،لاسيا لو فرض حصول محاصرة تقطع ماء المحمودية عن الثغر ، صدرت أوامره السنية بعدم التعرض للصهاريج بوجهٍ ما ، والرجوع إلى تلك القوانين ، فامتنع الناس من هدمها ، ولا يخفى أهمية ذلك فإن تلك الصهاريج مبنية من قرون عديدة ولا شك أنها صرفت فيها أموال جسيمة ، وهى من الآثار القديمة التى نوه التاريخ بقدرها وأهميتها / بالنسبة لهذه المدينة لبعدها عن النيل ، والماء الواصل إليها من الخليج يمر فى وسط بحائر ملحة ومنحطة ، وفى أى وقتٍ يمكن صرفه إلى البرارى أو البحر وحرمان المدينة منه ، فيقع أهلها فى الضرر ، وتفارقها العمارية مع أنها مفتاح القطر ، فلم يكن أهم مما يوصل إلى عماريتها وراحة أهلها .

٦٢

ومن ذلك كشف المسالك الموصلة إليها ، ومعرفة ما اشتملت عليه تلك الطرق مما هو من لوازم الحياة : كالمياه العذبة ، والمراعى ، وحطب الوقود ، وجلب الميرة ، ومنع الأعداء ، فكل ذلك معرفته مهمة فى وقت السلم لينتفع به عند حصول ضده .

فهذا هو ملحظه ـ رحمه الله ـ وملحظ المؤسس الأصلى ، وملحظ سر عسكر ، جزاهم الله عن الوطن خيراً ، ومن هذا الإستكشاف ظهرت ثمرات جمة منها :

عمل سكة عسكرية من طابية القبارى إلى باب العرب لتسهيل مرور العساكر والواردين على المدينة من جهة الغرب ووادى سيوه ، وكانوا قبل ذلك يقاسون مشقات زائدة ، لعدم إنتظام المسالك فكانوا تارة يتبعون فى سيرهم الجبل ، وتارة الأرض الغربية مع كثرة الصعود والهبوط المستلزم لطول المسافة وكثرة المشاق .

ومنها : معرفة الحدّ بين قطر مصر وإيالة تونس ، وكان قبل ذلك مبهماً فزال إبهامه ، وعين ما بينه وبين الإسكندرية من المحطات المعروفة عند العرب ، يحطون فيها فى أسفارهم ، وقد رسم ذلك كله فى خرط الإستحكامات حتى لا تتطرق إليه شبهة فيما بعد .

وقد نشأ من هذا التعيين الجزم بأن المحطة المعروفة بالمطروح ، هى حد ما بين الأقطار المصرية وإيالة طرابلس ، والمحطة المذكورة مرسى للمراكب على البحر الملح ، بينها وبين إسكندرية مسافة مائة وعشرين ميلاً إلى جهة بحرى .

وبقى الأمر على ذلك إلى زمن الخديوى ، ثم اتضح أن الحد الحقيقى هو ناحية السلوم بحرى إسكندرية بمائتين وخمسة وعشرين ميلاً ، فبينها وبين المطروح مائة وخمسة أميال .

مطلب بيان المحطات التى بين إسكندرية وإيالة طرابلس

وهذا بيان المحطات المذكورة وبيان أبعادها إلى جهة بحرى بالميل :

فمن أبى صير ، وهى قلعة قديمة بها إشارة جديدة إلى المحل المعروف بالعميد ، وفيه الآن فنار وضع فى زمن الخديوى ٢٠ ميلاً

ومن العميد إلى المحل المعروف باسم سيدى عبد الرحمن ، وهو محل قديم خرب ٢٠ .

ومن سيدى عبد الرحمن إلى تنوب ، وهى قرية قديمة خربة ١٠ .

ومن تنوب إلى المحل المعروف باسم جميمة ، وهو مرسى المراكب المعتاد ٨

ومن جميمة إلى المحل المعروف باسم أبى جراب ، وهو محطة عرب ٩ .

ومن أبى جراب إلى المحل المعروف برأس العقيلى ، وهو محل منقطع ٦ .

ومن رأس العقيلى إلى المحل المعروف برأس الكناس ، وهو مينا لرسوّ المراكب الكبيرة ١٢

ومن رأس الكناس إلى مطروح ، وهو محل إجتماع التجار الواردين من الغرب وبه قبيلة من العرب ٣٥

ومن مطروح إلى محل يعرف بجرجوب ، وهو محل خرب ٣٠ .

ومن جرجوب إلى السلوم– التى هى الحد بين مصر وإيالة طرابلس ٧٥ .

وفى هذه الأيام صار الشروع فى إستخراج صنف السفنج من البحر ، من إبتداء أبى صير لغاية السلوم ، وذلك بمعرفة ملتزم إلتزمه من الحكومة على شروط مقررة بمدة عشر سنين ، أوّلها سنة ١٢٩١ هجرية .

ولما كثرت الإفرنج والأغراب فى مدينة الإسكندرية واستوطنوها ، واستحوذوا على كثير من الفضاء الذى كان بداخل المدينة وضواحيها ، رغبوا فى سكنى الرمل وهى قرية شرق المدينة ، بينها وبين أبى قير ، وأكثروا من شراء الأملاك فى هذا المحل لقلة ثمن الأرض هناك إذ ذاك ، فتيقظت الحكومة لذلك لما لتلك الجهات من الأهمية ، لوقوعها فى المناطق العسكرية الممنوع البناء فيها ، فأمرت بضبط ما بيع من هذه الأراضى ، وبيان ما بنى وما لم يبن منها ، ومنعت التصرف فى أراضى الرمل وغيرها إلا بإذنٍ من الحكومة ، وجعلت لذلك قوانين تتبع فى هذه الأمور .

وبسبب قرب الرمل من المدينة وإتساعه وطيب هوائه ، رغب المرحوم فى إتخاذه معسكراً تجتمع فيه العساكر فى المناورات وغيرها ، وأمر بردم الملاحة المجاورة لقرية الرمل لمنع العفونة ، وعمل لذلك رسوم وميزانيات ، ولكن بموته لم يتم ذلك .

وقد اشترى الإفرنج بالحيلة والخداع كثيراً من تلك الأرض ، وشيدت به قصور ومنازل ، وغرست فيه بساتين حتى أشبه الآن المدينة كما سنذكره .

مطلب قسمة الفضاء

ولم تكن همته ـ عليه سحائب الرحمة ـ قاصرة على الأمور العسكرية ، بل كانت أيضاً متوجهة إلى ما يوجب رفاهية لأهل ولايته ، فقسم الفضاء الذى فى مينا البصل ومينا الشراقوه بين أهل المدينة ، فبنوها مخازن لتلقى البضائع المصرية والمشرقية ، فراج كثير منهم من هذه العطايا الوافرة .

وبعد أن كانت هذه الجهة من الضواحى القليلة القيمة لا يرغب فيها إلا القليل من الخلق ، صارت بما لحقها من عناية العائلة المحمدية رفيعة القيمة ذات أبنية / مشيدة ومركزاً لعموم تجارات القطر .

٦٣

ولم تزل إلى الآن على هذا الحال لقربها من المينا الغربية وساحل المحمودية ، فتقف عندها المراكب الواردة من جهات القطر والخارجة من هويس المحمودية ، فيتأتى هناك تفريغ بضائع القطر وشحن البضائع المسافرة إلى البلاد الخارجية .

وقبل وجود السكة الحديد كانت قد بلغت من الأهمية ما لا يمكن وصفه ، فكانت المراكب بها لكثرتها كأنها كوبرى يمكن المرور من فوقها من شاطىء المحمودية إلى الشاطىء الآخر ، وكانت تمتد فى الجانبين بعيداً عن أماكن الشحن والتفريغ نحو ألف متر .

وهى الآن بعد وجود السكة الحديد ، وإن لم تكن بهذا الوصف ، لكنها دائماً مشحونة بمراكب الشحن والتفريغ ضرورة إزدياد ثروة الديار المصرية فى زمن الخديوى عما كانت عليه فى الأزمان السابقة ، بسبب إلتفاته إلى موجبات سعادة الوطن .

ولما كان قد ترتب على إنصباب ترعة المحمودية فى المينا ، مع خلل الهويس الذى بها ، رسوب الطمى فى كثير من مواضعها ، وقلة عمق الماء فى تلك المواضع ، وعدم إمكان تقريب السفن من البر ، صدرت الأوامر بإصلاح الهويس وتوسعته ، وتطهير فم الترعة والمينا لتتمكن جميع المراكب النيلية من أغراضها بسهولة ، ولذلك صار جلب الماء العذب من المجارى إلى سيف[1] البحر فى المينا لتأخذ المراكب المياه بسهولة ، وهى المستعملة إلى الآن مع غاية النفع ، وتطهير الترعة جميعها أيضاً لأن الطمى الذى كان بها مع كثرة المزروعات التى تسق منها ، كان موجباً لتعسر مرور المراكب بها فى كثير من الأوقات ، وكانت المراكب كثيراً ما تقسم حمولتها على مراكب صغيرة فى طريقها .

فبهذه العناية زال هذا العناء عن التجار ، وجعل أمام الجمرك القديم الذى أنشىء فى زمن العزيز عمارة متسعة لإقامة الخدمة وتخزين البضائع .

---

(١) سيف البحر ــ بكسر السين ــ ساحله .

ولزيادة إعتنائه بأمر التجارة بنى قصراً فى ناحية العطف ، وكان يقيم فيه أحياناً ، فحصل إهتمام المستخدمين فى إصلاح الترعة حتى استقامت أحوالها ، وسهّل مرور التجارة .

ومع إقامته فى هذه الجهة أو غيرها ، كجهة رشيد ، كان لا يغفل عن مصالح مدينة إسكندرية .

مطلب عمارة البلاد الخمسة

ومن إعتنائه بها أمْره بعمارة البلاد الخمسة الواقعة شرقيها ، وترغيبه فى زراعة أرضها ، لينتفع أهل المدينة بما تنتجه تلك الأرض من المحصولات .

وكان بقرب هذه البلاد بحائر فأصلح كثيراً من أرضها ، وكذلك أصلح أراضى بحيرة مريوط قبلى المحمودية ، وذلك أنه أنعم به على الراغبين بشرط إصلاحه وزرعه ، فتناول الناس من الإفرنج والأمراء ، وأهل المدينة والقرى ، واجتهد كلٌّ فى زرع أرضه أصناف المزروعات ، ما عدا الأشجار الكبيرة ، على حسب ما تجدد فى قوانين الإستحكامات ، فانصلح بذلك أغلب الأراضى المشاهدة فى جانبى السكة الحديد والمحمودية .

ولما ذاق أربابها حلاوة أرباح محصولاتها ، من الخضراوات والفواكه ، اجتهدوا فى خدمتها حتى صارت من أجود الأراضى بحيث لا يرضى أحد من أربابها ببيع الفدان الواحد بعشرين ألف قرش ميرية ، مع أنها فى الأصل لا قيمة لها .

وكذلك القرى الخمسة وهى :

قرية الحضرة : وهى عبارة عن أربعة كفور صغيرة متقاربة ، بجوار التلول التى بين رشيد وقرية الرمل .

ومنها قرية الرمل : وهى معروفة ، وبها الآن سرايات الجناب الخديوى .

ومنها قرية السيوف : شرقى قرية الرمل ، وسكة الحديد الجارى عملها الآن الذاهبة إلى رشيد وأبى قير ، المارة فى أراضى القرية المذكورة .

ومنها قرية المندرة : شرقى قرية السيوف ، وبحرى سكة الحديد .

وهذه القرى الآن على غاية من العمارة لا تخلو أرضها من الزرع ، فيزرع بها من أنواع الخضراوات والفواكه أصناف كثيرة من الحبوب والبرسيم ، وبها بساتين كثيرة .

وكان أهل هذه القرى - فى الزمن السابق - قد ارتحلوا عنها لضيق الحال بهم ، ككثير من أهل البلاد المصرية ، ولما جاد الله على هذا القطر بإيجاد العزيز ، وبدت منه أعلام الشفقة والرحمة ، أخذ الناس فى العود إلى أوطانهم فتوطنوها واشتغلوا بإصلاح أراضيهم وزرعها ، حتى صارت إلى ما علمت ، وسكنها كثير من أصحاب الحرف والصنائع ؛ لما رأوا بها من كثرة الأرباح بسبب مجاورتهم لمدينة إسكندرية ، التى إنتقلت عما كانت عليه فى سالف الأزمان ، وكثرت بها الأعمال والعمال فى المصالح الميرية ، والدوائر السنية ودوائر العائلة ، والأمراء والأعيان والتجار ، حتى بلغ عدد المحترفين بتلك المدينة خُمس تعداد أهلها ، كما يعلم مما سيأتى .

وهذا يدل على علوّ شأنها فى الثروة ، وزيادتها على مدن الأقطار المشرقية ، ومعادلتها لمدن الديار الأوروباوية مع الإزدياد كل سنة ، حتى أن من رآها فى سنة ثم رآها فى السنة التى تليها ، يرى إتساع مساحتها من كل جهة ، وانتقالها فى التقدم إنتقالاً كبيراً فى الأبنية والمتاجر ، والأوضاع الجديدة الجميلة الرونق .

/ وهكذا فى كل سنة ، وكان قد صمم على عمل ترعة يكون فمها من المحمودية تجاه الرمل ، بجوار ترعة بغوص ، ومصرفها فى وسط أبى قير ، فيما بين قلعة كوم الشوشة القديمة والقلعة التوفيقية الجديدة ، ولكنها لم تعمل فى زمنه . ٦٤

وحيث أن لها تأثيراً فى خصوبة تلك الأراضى ، وإحياء كثير من أراضى البحيرة ، توجهت الهمم الخديوية لإنشائها ، وعما قليل يصير الشروع فيها بمشيئة الله تعالى ، وتكون من المآثر الخديوية التى يتحلى بها جيد الديار المصرية .

وما تجدد بهمة المرحوم عباس باشا ، وإن كان كله نافعاً ، إلا أن أنفعه وأهمه السكة الحديد ، فإن ذلك مما يستوجب تخليد ذكر العائلة المحمدية ، لما لها من الفوائد التى لا تحصرها الأقلام ، ولا تحيط بها الأوهام .

وغاية ما يدرك الوهم أنها قوة عظيمة بخارية أوجدها الإنسان بفكره ومعارفه ، لتبلغه أوج السعادة ، وتمكنه من حظوظ وغايات فى عمره القصير كان لا يمكنه إدراكها ولو بلغ من العمر ألوفاً من السنين ، كيف وهى تقطع مسافة عشرة أيام فى أقل من يوم ، مع جرها نحو مائة عربة محملة بالأحمال الثقيلة ، والألوف المؤلفة من الآدميين وغيرهم ، مع السهولة وعدم حصول أدنى مشقة أو ضرر ، ومع قلة الأجرة والمصرف جداً ، بخلاف ما كان عليه الإنسان قبلها من عدم تحصيل الأغراض ، مع إقتحام ما لا مزيد عليه من المشاق وكثرة المصرف فى عشر معشار أغراضه ، فجزاه الله خيراً عن هذه الأقطار ، بل وجميع الأقطار المشرقية ، لأن منافع هذا الأثر سارية فى جميع الجهات المجاورة لمصر ، حتى الصحارى والبرارى الشاسعة ، وبه أمن المسافرون من كثير من الآفات التى كانت تعرض لهم براً وبحراً فتذيقهم الآلام ، وتطول عليهم الأيام ، وربما دمرت أعمالهم ، وأتلفتهم وأتلفت أموالهم .

ثم إن هذا الأثر ، وإن كان أول ظهوره أيام المرحوم عباس باشا ، لأنه هو الذى أنشأه ومدّ الفرع الطوالى من مصر إلى إسكندرية ، لكن لا يخفى أنه كان قد حصل من الإنكليز مفاتحة العزيز محمد على باشا فى عمل سكة حديد بهذا الوضع سنة ١٨٣٧ ميلادية ، بعد إتمام سكة حديد ليوربول من بلادهم ، لكن كان مطلوبهم مدّها من القاهرة إلى السويس فقط ، لتسهيل نقل البضائع الهندية المارة بمصر إلى بلاد أوروبا ، فأجابهم العزيز لذلك لعلمه

ما يصل إلى القطر من منافعها ، وربط الكلام مع أحد بيوت تجار الإنكليز بجلب ما يلزم لذلك من القُضب والآلات ، وأحضر بالفعل نحو النصف منها ، إلا أنه فى أثناء ذلك طرأت موانع عطلت إتمام هذا المشروع ، فاستعملت القضبان التى جلبت فى سكة حديد أنشئت فى ناحية طرابين الجبل والبحر ، لنقل الحجارة والدبش للقناطر الخيرية .

واستمرت التجارة الإنكليزية ـ على عادتها ـ من حملها من السويس إلى مصر على الجمال ، ثم تحمل فى المراكب إلى إسكندرية ، ثم تنقل إلى مراكب البحر الرومى إلى بلاد أوروبا .

وكانت إدارة ذلك منوطة بالإنكليز ، فكان يحصل فى كثير من الأوقات دعاوى تضطر الحكومة إلى فصلها ، فرأى العزيز أن إحالة إدارتها على طرف الحكومة المصرية أرجح لها ، فعملت مع الكبانية الشرقية شروطاً ، جرى العمل على مقتضاها فى نقل البضائع والسرر بالحكومة .

مطلب مصلحة البزابرت

ورتبت لها مصلحة عرفت بمصلحة البزابرت ، وجعل لها دار إدارة فى السويس ، ومثلها فى مصر وفى إسكندرية ، ورتب لها ما يلزم على أتم وجه من الأشخاص والحيوانات والعربات .

وبقى الأمر على ذلك إلى زمن المرحوم عباس باشا ، فتكرر من الحكومة الإنكليزية طلب عمل سكة الحديد ، وكان الوقت مساعداً ، ولم تكن الموانع التى كانت زمن العزيز موجودة ـ لأن دولة فرنسا هى التى كانت تعارض الإنكليز ـ فانتهز الإنكليز الفرصة وتحصلوا من الباب العالى على فرمان التصريح بالعمل ، ولكن كان غرضهم قاصراً على عملها من مصر إلى السويس ، وهذا خلاف غرض المرحوم عباس باشا ، لأن السكة ـ على رأيهم ـ تكون قاصرة على المرور فى الصحراء الشرقية ولا تتبع البلاد .

وهذا ليس فيه كبير فائدة ، وأما هو فكان مرغوبه أن تمد أوّلاً من إسكندرية إلى القاهرة فى وسط البلاد ، ثم من القاهرة إلى السويس ، فحصل التراضى على ذلك وعقدت الشروط مع المهندس الماهر (استيفنسون) على تعيين مهندسين إنكليزيين من طرفه لعمل الجسر وتركيب القضبان ، فى نظير خمسين ألف جنيه يأخذونها من الحكومة دفعة واحدة ، فحضروا وانضم إليهم جملة من مهندسى الحكومة .

مطلب الشروع فى عمل السكة الحديد

وشُرع فى العمل ، والذى تم من ذلك قبل وفاة المرحوم عباس باشا هو نحو من ٧٠ ميلاً ، ولم يهمل خلفاؤه هذا الأمر الجليل بل اعتنوا به وحفّوه بعنايتهم ، حتى صار من الأمور التى أوسعت إدارة إنتفاع الأهالى والحكومة ، وتممت إرتباط القطر المصرى بجميع أقطار الدنيا ، وجلبت / إليه خيراتها ، كما كانت السبب فى نقل خيرات مصر إلى جميع أنحاء الأرض ، وجعلت مصر كعبة تحجها الناس من البلاد البعيدة والقريبة . ٦٥

وقد تكلمنا فى الفصل الثالث من هذا الجزء على جميع ما تم من السكك الحديدية فلينُظر هناك .[1]

(١) انظر ص ٢٤٣ وما بعدها من هذا الجزء.

الكلام على الإسكندرية فى زمن الخديوى إسماعيل باشا

إعلم أن مدينة إسكندرية ، وإن كانت بلغت من العز والثروة وحسن الرونق ما بلغت ، لكن لا يخفى على ذى بصيرة ما حصل فى عصرنا هذا من التقدم فى العلوم والمعارف ، إذ ما من يوم إلا ويحصل فيه إختراعات جديدة وأشياء مفيدة ، لم تكن من قبل ، ولما لم يكن ذلك خافياً على فطنة الخديوى وذكائه احتفل بتوسعة دائرة ثروة القطر وتمدينه .

فمن مبدأ جلوسه على تخت الديار المصرية وذلك فى ٢٨ رجب سنة ١٢٧٩ هجرية ، موافقة لسنة ١٨٦٣ ميلادية ، أخذ يفكر فيما يعود نفعه على الأهالى ويزيد فى رفاهيتهم ، فرأى أن أس ثروة هذا القطر إنما هو نشر ألوية الأمن ، فأعمل فى ذلك جدّه واجتهاده حتى وصل إلى الغرض المطلوب ، وانتقل القطر بما اكتسبه من الأفكار العلية عن جميع أحواله الأولية إلى ما هو أحسن منها ، كما هو مشاهد .

فمن ذلك : تمكين العلائق بين أهل هذه الديار وما جاورها من البلاد المتمدنة ، حتى هرع إليها كثير من الأغراب ، ورغبوا فى الإقامة بها ونشر معارفهم وعلومهم فيها ، ولم يقصروا سكناهم على إسكندرية بل سكنوا سائر مدن القطر وانتشروا فى جميع قراه ، كما يظهر ذلك من الجدول المستخرج من كتاب الإحصاءات المصرية لسنة ١٨٧٢ ميلادية وهو هذا :

أغراب متوطنون بالإسكندرية	٤٧٣١٦
أغراب متوطنون بالقاهرة	١٩١٢٠
أغراب متوطنون بالوجه البحرى	١٣٢٦٠
الجميع	٧٩٦٩٦

ويظهر من هذا الجدول أن مزية الإنتفاع بالأغراب لم تكن قاصرة على بعض القطر ، بل كانت عامة فى جميع نواحيه عائدة على طوائف أهاليه .

ولا شك أن هذه المنقبة ليست إلا للحضرة الخديوية فإنها هى التى مهدت طرق هذا الغرس ، وهيأت ما به نجاحه فكان ذلك من جملة دواعى زيادة رغبة الدول المتحابة فى تمكين العلائق بينها وبين مصر ، ونشأ عن ذلك شهرة الديار المصرية حتى طار صيتها فى جميع الآفاق وإنعقد على فضلها الإتفاق .

وحيث كان من أسباب هذه السعادة ما أحدثته الهمم الخديوية والأفكار الإسماعيلية مما يضيق الوقت عن ضبطه وإحصائه ، ويعجز القلم عن تقييد بعضه فضلاً عن إستقصائه ، فمن الواجب أن نتكلم على المهم منها فنقول :

الفصل الأول فى إسكندرية

قد علم مما سبق أن مدينة إسكندرية كانت لم تزل كل سنة تزيد فى العمارة ، ولما جلس الخديوى على التخت كان قد بلغ تعداد أهلها قريباً من مائة وسبعين ألف نفس ، وبسبب ضيق أرضها على سكانها كان قد ابتدأ كثير من الناس ، فى آخر زمن المرحوم سعيد باشا ، فى السكنى جهة الرمل ، الواقع فيما بين إسكندرية وأبى قير ، فرخص لبعض الناس فى بناء منازل خارج الأسوار فى المناطق العسكرية التى كان الناس لذلك الوقت ممنوعين من البناء بها ، على حسب القوانين العسكرية المقررة من زمن المرحوم محمد على باشا ، فاتسعت المدينة وكثر سكانها حتى بلغ عددهم سنة ١٨٧٢ ميلادية ٢١٢٠٤٣ نفساً ، من ضمنها ٤٧٣١٦ أغراب من ملل مختلفة .

ومن كثرة الراغبين فى سكناها مع زيادة الثروة ، ارتفعت قيمة الأرض داخل المدينة وخارجها حتى بلغت قيمة الذراع الواحد فى داخل البلد جنيهاً ونصفاً ، وقد كانت حين جلوس العزيز محمد على باشا على التخت لا تزيد فى تلك الجهات عن عشرة فضة ، فأين هذا من ذاك ، وفى دائر المنشية بلغت قيمة الذراع الآن أربعة جنيهات ، بعد أن كانت لا تزيد عن ثلاثين نصف فضة ، وهكذا الفرق فى خارجها فقد بيعت فى الزمان السابق ضيعة فوق المحمودية تسمى : غيط غربال ، بثمانين كيسة ، ثم فى سنة ١٣٨٤ هجرية أرادت الدائرة السنية شراءها بعشرة آلاف جنيه فأبى مالكها فانظر الفرق ، وكذلك التلول ، التى كانت لا قيمة لها ، صار الآن بعضها يباع ذراعه بثلاثة فرنكات وبعضها بأكثر ، ولم تزل القيمة تتزايد والرغبات تقوى والخلق تكثر ، وعما قليل تتصل مبانيها بمبانى المحمودية مع إمتدادها إلى ناحية الرمل وأبى قير.

فهذه المدينة فوق ساحل البحر ، أول شاهد للعائلة المحمدية ، سيما الحضرة الخديوية ، باستحقاق الثناء وتخليد الذكر ، فإن كل من شاهد محاسنها التى هى عليها الآن وتذكر الحالة التى كانت عليها قبل ، نطقت جميع جوارحه بشكر تلك الشجرة المباركة التى إستضاء بها جميع الوطن ، سيما تلك المدينة ، وكيف لا وقد كانت تجردت قبل هذه العائلة عن محاسنها ، وعرت عن العلم وأهله ، فكان لا يرى بها إلا بعض وعاظ فى شهر رمضان والشهرين قبله إلى أن بنى الشيخ إبراهيم باشا جامعه / سنة ١٢٤٠ ، فأخذ العلم فى الظهور والإنتشار بسبب شمول مرحمة العزيز جميع أهله ، وجعل يتسع بإتساع الرزق حتى صار يدرس فى أكثر مساجدها مثل مسجد سيدى أبى العباس المرسى ، ومسجد البوصيرى فى جميع فصول السنة .

٦٦

وكذلك لم يكن بها من المتاجر إلا شىء قليل ، فكانت أماكن البيع منحصرة فيما حول جامع الشيخ إبراهيم باشا فى دكاكين لا تزيد عن خمسة عشر دكاناً ، وكذلك اليهود الصيارفة كانوا قليلين محصورين فى حارتهم المعروفة بهم فى مساكن من ضمن رباع الأهالى ، وكان

الغريب لا يجد من يأويه ولا مكاناً يطمئن فيه ، بخلاف ما هى عليه الآن ، فقد رفلت هى وسائر جهات الوطن فى حلل السعادة ، وكثرت بها المتاجر والحوانيت والخانات ، ووصلت إلى ما يتعسر حصرة ، وكثرت بها بنوك الإفرنج التجارية ، وهذا بخلاف عدد وافر منهم صيارفة يتجرون فى النقود ، وبخلاف عدد آخر منتصبين لشراء محصولات القطر وجلب البضائع الخارجية . وفى كل يوم تتجدد بها البنوك ويرد إليها الأغراب من كل جهة .

مطلب بيان عدد ما يذبح كل سنة بمذبح إسكندرية

وقد أحصى ما يذبح بسلخانة تلك المدينة كل سنة من بهيمة الأنعام فى لوازم الأكل فوجد ١٠٠٩٩٦ بهيمة ، منها الأغنام ٢٧١٥٧ شاة ومنها من صنف البقر ١١٦١٢ ، مع أنها كانت قبل العائلة المحمدية ليس بها من الجزارين غير اثنين فى حارة المغاربة ، وكان أكثر أهل الميسرة يشتركون فى شاة يقتسمونها بينهم ، فهذا الفرع وحده من أكبر أدلة الثروة .

وقد كثرت بها أيضاً اللوكندات ، حتى صار الغريب يتخير لنفسه ما شاء ، مع الأمن على النفس والمال .

ومن آثار الثروة أنك ترى الناس فى كل موضع من المدينة فى حركة : مشاة وركباناً ، لا فرق بين ليل ونهار بسبب الغازات الحافة بجوانب الطرق والشوارع ، ذات السعة والإعتدال ، مع كثرة العربات المعدة للركوب على رؤوس الشوارع والميادين ، ومنها الذاهبة والآيبة على خيول كأنها الرياح المرسلة على هيآت مختلفة فى المحاسن والدرجات .

مطلب عدد العربات المعدة للأجرة وغيرها

وقد أحصى ما وجد منها فى هذه المدينة فوجد كما ترى : عربات الركوب المختصة

بأربابها ١٣٨،مزدوجة ٨٦،مفردة ٨،هنتور ٣٤٦ ، عربات ركوب بالأجرة وعربات كارلو لنقل البضائع ٣٤٧ ، مزدوجة ١٨٧ ، مفردة ٥،عربات أوس ٣ ، عربات لرش المياه ١٧ ، عربات حمير ٢٩٤ ، عربات صندوق ، فجميع ذلك من عربات الركوب وخلافه ١٤٣١ .

هذا كله خلاف عربات العائلة المحمدية وتوابعها ، وخلاف عربات الإفرنج .

ومعلوم أن أس هذه الثروة إنما هو المرحوم محمد على باشا المؤسس الأصلى ، وبلوغ أوجها إنما هو بالعناية الخديوية ، فإنه بما بثه فيها من أسباب التنعمات أنساها البؤس والخشونة التى كانت عليها الأعصر الخالية ، فلم يبق سبباً يستوجب تمدن أهل وطنه ورفاهيتهم إلا وجّه إليه همته وحصله .

مطلب شوارع اسكندرية وما بلط منها ومساحة ذلك

ومن ذلك إلتفاته إلى الطرق والشوارع ، فقد كانت لا تفى بالمقصود منها من تسهيل المرور بالمتاجر وخلافها ، وكانت غير مبلطة ففى الشتاء تراها كثيرة الوحل بسبب المطر ، وفى الصيف كانت كثيرة الأتربة وكان ذلك يضر بالمارّين والسكان ، فصدرت أوامره السنية بفتح عدة شوارع وحارات أهمها :

شارع إبراهيم الممتد من مدرسة البنات إلى ترعة المحمودية ، وطوله ١٠٠٠ متر فى عرض ٢٤ متراً ، فتح جميعه فى التلول ، وعمل أولاً بالدبش والدقشوم ، وجعل فى جانبيه طويقان للمشاة وترك وسطه للعربات والحيوانات ، وبعد ما استعمل كذلك زمناً تبينت ضرورة تبليطه ، فحصل ذلك سنة ١٢٩١ .

ثم شارع الجمرك ، الممتد من حارة الشمرلى إلى شارع الشمرلى العمومى ، وطوله ٢٠٠ متر فى عرض ١٠ أمتار ، ثم شارع تصدير الغلال ، وشارع تصدير الأقطان ، وقد صار تبليط هذه الثلاثة شوارع وفتح ستة شوارع جديدة ، ممتدة بين سكة باب شرق وسكة العسكرية المارة ، حول سور المدينة ، طول كل واحد منها ٦٠٠ متر ، وصار تبليط بعضها .

وقد جدد أهل المدينة حولها أبنية فاخرة ، ولم تزل هممهم قوية فى التجديد حولها ، ثم صار تبليط الجهات المهمة العامة مثل الترسانة والجمرك ، والطريق الموصل بينهما وبين محطة السكة الحديد وعدة حارات وشوارع ، ومينة البصل ، ومينا الشراقوه ، والمنشية ، وميدان محطة السكة الحديد ، وقد بلغ مساحة ما تم من ذلك لغاية سنة ١٢٨٧ هلالية ، الموافقة سنة ١٨٧٠ ميلادية ١١٦٦٨٨ متراً مربعاً .

وهذا خلاف ما صار تبليطه على ذمة الدائرة السنية ، وما صار تبليطه أيضاً فى جهة الجمرك والترسانة ، وشارع العطارين ، وشارع المسلة ، والآن جار التبليط فى شوارع أخر .

وعملية التبليط ـ هذه ـ قد جعلت بالمقاولة ، والبلاط المستعمل فيها مجلوب من جهة تريسته ، وهو من الحجر الصلد الذى بلونه زرقة ، وطول البلاطة الواحدة قريب من ذراع معمارى ، وعرضها على النصف من طولها ، وسمكها يقرب من نصف العرض ، وقيمة المتر المسطح بعد وضعه فى الأرض من ١٨ إفرنكا إلى ٢٠ .

٦٧

ولما كان/صرف مياه الأمطار ونحوها من أهم الأمور ، أمر بعمل المجارى تحت الشوارع والطرقات ، وقد عين لجميع ذلك مهندسين وحكماء ،وبمعرفتهم جاءت الشوارع والمجارى على أحسن وضع ، وقد بلغ طول المجارى التى بنيت بالمدينة ـ تحت الحارات والشوارع لغاية سنة ١٢٨٧ هلالية ـ ١١٩٠١ متراً .

مطلب تمثال محمد على باشا وما صرف عليه من الفرنكات

وقد وضع فى المنشية تمثال المرحوم محمد على باشا ، المصنوع من التوج فى البلاد الأوروباوية على قاعدة من الرخام ، وصرف عليه قريب من ٢٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات ، ودواماً ينظره المارون ويترحمون على غارس التمدن فى الديار المصرية ، ويدعون للحضرة الخديوية التى لم تأل جهداً فى تنمية هذا الغرس .

مطلب ما أنعم به الخديو إسماعيل من الفضاء خارج إسكندرية وما أنشئ فيه من المبانى وغيرها

ولأجل توسعة دائرة العمارية ، أعطيت للمتطلبين من لدن المكارم الخديوية قطع من الفضاء والتلول خارج المدينة ، وصرح لهم بالبناء فيها فكثرت المبانى حولها ، وجعل فيها من أول الشروع فى عمارتها عشرة شوارع فى أحسن وضعٍ يقرب طول الواحد منها من ١٥٠٠ متر فى ١٢ متراً ، وتحلى دائر المدينة بالبساتين النضرة ، وصار من يغدو للنزهة فى تلك الجهات يرى ما يسره ويشرح صدره .

ثم مما زاد فى تحسين دائرها ، وتنمية فوائدها ، وتكثير محلات النزهة ، الرخصة التى أعطيت لشركة من الإفرنج رأس مالها ٨٠٠٠٠٠ فرنك ، بإنشاء وابور على المحمودية لتوصيل المياه الحلوة إلى جهة الرمل وما جاورها ، فإن هذا الأمركان سبباً فى بناء المنازل والحوانيت بعيداً عن تلك المدينة ، فاتسعت بذلك مساحة العمران ، وفى أقرب وقت صار ما حدث من الأبنية جهة الرمل يشبه مدينة قاسمة ما بين ناحية أبى قير وثغر الإسكندرية ، بما حوته من

الإنتظام والرونق والبهجة فى منازلها ، وقصورها الجمة ، وشوارعها وحوانيتها المشتملة على نفائس التجارات ، بعد أن كانت هذه البقعة عبارة عن كثبان من الرمل وأرض غير منتفع بها ، وما كان يزرع منها إلا القليل ، وبعد أن كان الغيط الذى سعته ثمانية أفدنة أو تسعة أو عشرة لا يزيد حكره عن ثلاثة قروش ، صار الآن أرضاً لا يباع منها إلا بالذراع والمتر من ريال إلى نصف بينتو ، وما ذاك إلا لكونها صارت من أعمر الأماكن لسكنى المعتبرين من التجار والأمراء بها .

وبها البساتين المشتملة على جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين ، وقد بلغ عدد سكانها الذين يقيمون بها ــ فى وقت الصيف ــ قريباً من ٧٠٠٠ نفس ، وفى وقت الشتاء على نحو النصف من ذلك .

وأول من اشترى فى الرمل الخواجا (سيزينيا) فإنه اشترى من ملك عائلة أبى شال ، وكان لهم أرض متسعة . جانباً عظيماً بمبلغ ٦٠ كيسة ، والآن قد اشترت منه الحكومة شريطاً من الأرض لوضع السكة الحديد عليه ، ودفعت فى قيمة المتر ٥ فرنكات ونصفا ، فعلى ذلك تكون قيمة الفدان الواحد ٢٣١٠٠ فرنك .

ومما زاد فى الرغبة فيها وأكد أمر السكنى بها ، إحداث السكة الحديد بينها وبين المدينة الأصلية ، فإنها سهلت على الناس الإنتقال منها وإليها وبالعكس ، ففى كل أوقات السنة لا ينقطع التردد إليها ، ومن يقيم بها من الأغراب يجد جميع ما تطلبه نفسه ، خصوصاً اللوكاندة التى أحدثت هناك فإن بها كل ما يلزم مع الراحة والأمن ، وفى الرمل نادٍ تجتمع فيه الناس يومى السبت والأحد من كل أسبوع ، ويُشَنِّفون مسامعهم بسماع الألحان والأصوات الحسنة ، وبها أيضاً ثلاث كنائس : واحدة للكاثوليكيين ، وواحدة للأروام ، وواحدة للأمريكيين .

ومن المدارس ثلاثة لتربية الصبيان : واحدة على ذمة الأروام ، وأخرى للفرنساوية ، وأخرى للتليانيين .

وفى كل ساعة يقوم من إسكندرية قطر إلى الرمل ، وفى كل نصف ساعة يقوم قطر من الرمل إلى إسكندرية ، وفى كل قطر عمال من طرف البوستة ، لنقل المكاتيب وأوراق الحوادث وغيرها ، وأجرة الركاب بحسب الدرجات ، فعلى من يركب فى عربات الدرجة الأولى خمسة قروش ، ومن يركب الدرجة الثانية أربعة قروش ، ومن يركب الدرجة الثالثة ثلاثة قروش .

مطلب الشارع الذى أوّله باب رشيد وآخره حدود الملاحة

ومما أكد الرغبة فى سكنى جهة الرمل ، ما أحدثه الخديو من المبانى هناك ، بقصد إقامته وإقامة الفاميلية فى فصل الصيف ، فإنه نشأ عن ذلك فتح شارع عظيم فى وسط التلول المقابلة لباب رشيد ، وأوله باب رشيد . وينتهى إلى حدود الملاحة بأول أطيان قرية المندرة ، ويمر بسراى الرمل الخديوية ، وطوله من باب شرق إلى السرايا ٤٠٠٠ متر فى عرض ١٢ متراً ، ومن السرايا إلى الملاحة ٤٠٠٠ متر فى عرض ٨ أمتار ، وقد غرس فى جانبيه الأشجار المظلة ، وعمل طريق من الملاحة إلى ترعة المحمودية إلى أوله من الرمل وطوله ٢٠٠٠ متر وعرضه ١٠ أمتار ، فقربت بذلك المسافات فى المدينة ولواحقها ، وسهلت على الراكب والماشى ، وزاد الأمن وزالت الوحشة بما رتب فى الطريق من البسط العسكرية وزيادة الخفر ، وتنظيف الطرق والمسالك القاطعة لهذا الشارع والمتفرعة منه إلى ما حول المدينة وشاطىء المحمودية .

ومن الأعمال الجليلة ، تجفيف جزء عظيم من البحيرة قريب / من تلك الجهة لتزول العفونة ، وتقل الرطوبة وتتسع أرض المزارع التى حول الإسكندرية ، وتتجدد بساتين وحدائق تزيد فى رونق المدينة وبهجتها ، وتكثر بها ميادين النزهة .

٦٨

وبعد تمام هذه الأعمال لو جعل جزء البحيرة العميقة القريبة من الطريق الموصل إلى المحمودية بحيرة ، وغرس حولها شجر ، لصار هذا الموضع من أحسن المتنزهات ، وأظن أن ما يصرف على ذلك يستعوض بأضعافه مما يتحصل من قيمة الأرض التى تستجد بسببه ، لأن الرغبة فيها حينئذ ربما تزيد عن الرغبة فى سكنى الرمل ، لاشتمالها على الماء والخضرة والسمك على اختلاف أنواعه ، مع القرب من المدينة .

ولتوسيع دائرة الفسحة ، حصل التصريح من لدن المكارم الخديوية بجعل جنينة بسرايته ، التى بقرب سراية نمرة ٣ ، سكن الجناب المفخم ولى العهد ، وقتئذ ، وهو الآن مولانا الخديو المعظم ، سعادة محمد توفيق باشا ، منتزهاً عاماً زيادة على المتنزهات الأخر مثل جنينة : لانبروز والمنشية والمحمودية وغيرها ، بحيث يتنزه فيها فى جميع أيام الأسبوع . ورتب لها موسيقى تحضر إليها فى جميع الأيام ، وجعل لها من يقوم بلوازمها من الخدم والنظار ، وربط لها من النقود ما يفى بلوازمها ، فقابل الناس ذلك الصنع الجليل بالثناء الجميل ، فتراهم فى أوقات الإجتماع يهرعون إليه أفواجا من سائر الطوائف ، ويرتعون فى فضائه وأنحائه ، ويستنشقون بطيب هوائه حيث كان أحسن بساتين المحمودية وأوسعها ، والذى أنشأه فى الأصل الخواجا (بستريه) ثم اشتراه منه الجناب الخديوى .

فمن هذه الأعمال الجليلة وأمثالها ، صارت مدينة الإسكندرية مزينة الظاهر والباطن ، فأينما يسرح الإنسان طرفه ، لا يرى إلا ما يسر ناظره ويشرح خاطره ، ففى داخلها تشاهد المبانى الفاخرة ، والمساجد العامرة ، والدواوين المعدة للنظر فى مصالح الرعية العمومية : كديوان الحقانية ، الذى تم تنظيمه بالهمم الخديوية فى سنة ١٢٩٢ هجرية ، والضبطية ، وديوان المحافظة ، ومجلس التجار ، ومجلس الابلو ، ومجلس الصحة وغيرها .

وفى جانبى كل شارع وفى الميادين ، يتعجب من كثرة البضائع ، واختلاف أجناسها وأصنافها ، مما يحث الناظر على إدامة الثناء على العائلة المحمدية ، حيث بذلت همتها فى إحياء ما كانت فقدته مدينة إسكندر الأكبر من الشهرة .

ومما يحمل على زيادة الثناء ، ما يشاهد خارج البلد على شاطئ المحمودية من العمارات والبساتين الفائقة ، فى محل الأرض القحلة السبخة : التى كانت فى عهد قريب بعضها مغمور بمياه البحائر المالحة ، وبعضها تلول ، مع ما فى ذلك من الإضرار بالصحة ، فسطت على ذلك كله الهمم الخديوية فحولته إلى النفع المحض .

وكما حصل احتفال الهمم الخديوية بتلك المدينة ، بما ذكرنا بعضه من الأعمال الجميلة ، والعمائر الجليلة ، كذلك احتفلت بجميع السواحل المصرية ، لا سيما سواحل الإسكندرية ، فأصبحت تبدى للناظرين ما يبهر العقول من مبانى المدافعة والأسلحة المانعة ، فترى فى كل موضع من تلك السواحل ما يناسبه من ذلك ، على حسب التقدمات الوقتية ، والتجديدات العصرية ، فدائماً ترى الحضرة شاملة بأنظارها جميع أهل القطر ، بجلب ما يسر ودفع ما يضر ، لا يعوقه أمر عن أمر ، حتى صار المستظل بساحته يجد ما يستعين به على السعى فى طلب رزقه ، آمنا على نفسه ، مطمئناً على أهله ، قد رفع أكف الضراعة والدعاء للحضرة الخديوية وأسلافه ولنسله بتخليد دولتهم وتأييد صولتهم .

وبالجملة فمآثره أشهر من أن تذكر ، ومبتكرات أفكاره لا تحصى ولا تحصر :

لـه همٌ لا منتهى لِكبارِها   وهمتهُ الصغرى أجلُّ منَ الدهر

مطلب تقسيم مدينة اسكندرية

ثم إن هذه المدينة من حيث الضبط والربط ، تنقسم إلى ثمانية أثمان ، فى كل ثمنين معاون من طرف الضبطية للنظر فى الدعاوى وغيرها ، وآخر للنظافة وحفظ دواعى الصحة العامة ، ولكل ثمن قلق به العساكر الكافية ، وشيخ ثُمن من الأهالى لإجراء الرسوم السياسية ، وتنفيذ مقتضيات الأحوال .

ومن حيث المساكن وأهلها إلى قسمين : القسم الأول : منهما يشتمل على جميع مساكن الأهلين ، وهو ما بين الغرب والشمال الغربى ، وينقسم هذا القسم إلى قسمين :

أحدهما : وهو ما بين المينتين ، غالب حاراته ومنازله على الهيئة القديمة ، لم يتغير منها إلا القليل ، وطرقه ضيقة غير مستقيمة .

وثانيهما : وهو المعروف بين أهل المدينة بجزيرة الفنار ، حاراته أوسع وأعدل وأجمل من الأول .

والقسم الثانى من المدينة ، وهو ما تسكنه الإفرنج ، جميع منازله جديدة حسنة الهيئة مزخرفة ، ذات وجهات جميلة ، ومساكن جليلة ، أدوارها السفلى محلاة بالدكاكين المتسعة ، المشتملة على جميع أنواع البضائع الثمينة ، وتلك المنازل مبنية بالأحجار والطوب المحرق والمونة القوية والأخشاب المتينة ، وفى داخلها أنواع المفروشات الإفرنجية ، وأودها مزينة بأنواع الزينة .وفى هذا القسم منازل وكلاء الدول المتحابة :

مطلب بيان وكلاء الدول المتحابة بإسكندرية

٦٩

قنصلاتو دولة الإنكليز فى حارة المسلة ، قنصلاتو الدولة النمساوية بجوار / جامع العطارين ، قنصلاتو دولة البلجيكا فى حارة العطارين ، فى بيت باغوص ، قنصلاتو دولة البريزيليا فى حارة شريف باشا نمرة ٢٧ ، قنصلاتو دولة المانيا ، قنصلاتو دولة الديماركة فى وكالة دومر شمير ، قنصلاتو اسبانيا فى حارة حنفى أفندى نمرة ٤١ ، قنصلاتو الاتيازونى من الأمريقا ، قنصلاتو فرانسا فى ميدان محمد على ، قنصلاتو الروم فى حارة النبى دانيال ، قنصلاتو انتاليا فى شارع اسماعيل . ، قنصلاتو هولانده فى حارة صهريج الفرن نمرة ٣١ ، قنصلاتو البرتغال فى شارع اسماعيل فى بيت رغيب ، قنصلاتو الروسيا فى حارة المسلة نمرة ٩٧ ، قنصلاتو سويد ونوريج فى حارة محمد توفيق ، قنصلاتو العجم .

ومن العادة أن وكلاء الدول تسكن مدينة إسكندرية فى زمن الصيف ؛ لطيب هوائها ونقص درجة الحرارة بها عن مدينة القاهرة ، بسبب تلطيف البحر نسيم الجو الذى يهب فى هذا الفصل صباحا ومساء ، وفى فصل الشتاء ينتقل أغلبهم بعيالهم إلى القاهرة ، لقلة الرطوبة والبرودة فيها بالنسبة إلى إسكندرية ، وأجرة الإنتقال فى السكة الحديد على طرف الميرى ، من فيض المكارم الخديوية .

وللآن الحكومة الخديوية ، وكذا من سبقها من العائلة المحمدية ، جارية على هذا السنن الذى سنه محمد على باشا ، من الإنتقال إلى مدينة إسكندرية فى زمن الحر ، ويتبع ذلك إنتقال الدواوين ، فيقيمون مدة ثلاثة أشهر فى رأس التين ثم يعودون إلى القاهرة .

ولا يخفى ما فى هذا الانتقال من المزايا والمنافع الخاصة والعامة ، لانتفاع أهل المدينة بذلك إنتفاعاً كبيراً .

وبالجملة فما اشتملت عليه هذه المدينة من الأمور النفيسة ، على يد الجناب الخديوى وبأنفاسه ، وكذا على يدى أسلافه من العائلة المحمدية ، شىء كثير يحتاج ذكر جميعه إلى مجلدات ، فإنها بما ورثته من الهمم المحمدية والإغداقات الخديوية ، صارت مشتملة على جميع ما تتحلى به المدن العظيمة من مدن الدول الفخيمة .

وهكذا لا تزال تترقى فى أوج السعادة على يد الخديوى الأعظم ويد خلفائه ، خلّد الله أيامهم ، فلذا لم نذكر مما اشتملت عليه من المحاسن إلا الأهم منها ، لأجل إثبات ما اكتسبته هذه المدينة ، وعاد نفعه على غيرها من مدن القطر ، من مبدأ أخذ العائلة المحمدية بزمام الحكم ، إلى الآن ، أعنى فى ظرف سبعين سنة ، حتى صارت إلى هذه الدرجة العالية بعد أن كانت قد آل أمرها إلى الإضمحلال حتى صارت شبيهة بقرية من قرى الأرياف ، وعم الخراب داخلها وأحاط بخارجها ، وفارقها عزها وشهرتها بسبب التقلبات الدهرية التى دمرت مبانيها ، وفرقت أهلها فى المدد السابقة التى سبق الكلام عليها .

مساجد إسكندرية

وبها من المساجد الجامعة ٤٩ جامعا ، ومن الزوايا ٩٧ زاوية ، منها ما فيه ضريح ولىّ ، ومنها ما هو خالٍ عن ذلك ، فمن أشهر جوامعها :

جامع سيدى أبى العباس المرسى (رضى الله تعالى عنه)

بجوار القرافة ، كان فى الأصل مسجداً صغيراً ، وفى سنة ١١٨٩ جدد فيه بعض المغاربة القاصدين الحج جزأه الذى يلى القبلة والمقصورة والقبة ، ثم أخذ نُظاره فى تجديده وتوسعته شيئاً فشيئاً ، بأخذ قطعة من المقابر وبعض من المنازل التابعة لوقفه ، وجُعلت ميضاته فيما هدم من تلك المنازل ، حتى صار إلى ما هو عليه الآن من السعة والمتانة والمنظر الحسن .

وشعائره مقامة على الوجه الأتم ، ويصرف عليه من طرف ديوان الأوقاف بالإسكندرية ، كما أن ريعه ومرتباته مضبوطة به .

ترجمة سيدى أبى العباس المرسى رضى الله عنه

وكان سيدى أبو العباس ـ رضى الله عنه ـ من أكابر العارفين بالله تعالى ، أخذ الطريق عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، وهو أجل تلامذته وأول خلفائه ، ومع وفور علمه وجمعه بين علمى الحقيقة والشريعة لم يؤلف كتابا ، وكذلك شيخه أبو الحسن رضى الله عنه ، وكان يقول : «كتبى قلوب أصحابى» .

وكلامه كله حكم ، ومناقبه جليلة ، ذكر الشعرانى فى طبقاته من ذلك جملة عظيمة فعليك بها ، مات رحمه الله تعالى سنة ٦٨٦ ، ودفن فى جامعه ، وقبره به فى غاية الشهرة يزوره أهل الإسكندرية وغيرهم من المترددين عليها ، ولهم فيه اعتقاد زائد ، لاسيما المغاربة ، وله خدمة يقتسمون وظائف الخدمة كما يقتسمون النذور على شروط مسجلة فى ديوان الأوقاف ، وكل سنة يعمل له مولد ثمانية أيام ، بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وليلة فى نصف رمضان .

مسجد سيدى ياقوت العرشى رضى الله عنه

كان قد تهدم وهُجر ، فجدده أحمد بيك الدخاخنى ، شيخ طائفة البنائين بالإسكندرية ، سنة ١٢٨٠ هجرية ، وأقام شعائره ووقف عليه أوقافاً .

ترجمة سيدى ياقوت العرشى رضى الله عنه

وكان سيدى ياقوت إماما فى المعارف ، عابدا زاهدا ، وهو من أجل من أخذ عن سيدى أبى العباس المرسى ، وهو حبشى ولد ببلاد الحبشة ، وكانت له بنت فزوجها للإمام شمس الدين بن اللبان ، ماتت فى حياة زوجها ، فعند وفاته أوصى أن يدفن تحت رجليها احتراما لوالدها .

ومناقب سيدى ياقوت شهيرة بين الطائفة الشاذلية ، توفى رضى الله عنه سنة ٧٠٧ ، ودفن فى مسجده ، وقبره مشهور يزار ، وله مولد كل سنة ليلة واحدة فى رمضان .

٧٠ مسجد سيدى تاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى / رضى الله عنه

مشهور بها لكنه لم يدفن بها ، وإنما دفن بمصر بقرافة الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، وقبره هناك مشهور يزار .

ترجمة ابن عطاء الله الإسكندرى

وكان تلميذاً للشيخ ياقوت العرشى ، ومن قبله للشيخ أبى العباس المرسى ، وكان زاهداً كبير القدر ، ولكلامه حلاوة وتأثير فى القلوب ، وله مؤلفات كثيرة منها (كتاب التنوير فى إسقاط التدبير) و(كتاب الحكم) و(كتاب لطائف المنن) وغير ذلك ، مات رضى الله عنه سنة ٧٠٧ .

مسجد نصر الدين

كان أولاً زاوية صغيرة فيها ضريحه ، وقد جدده ووسعه المرحوم على بيك جنينة ، أحد مشاهير إسكندرية ، فى سنة ١٢٧٠ هجرية ، وجعل له أوقافاً ، وله مولد فى كل سنة ليلة فى رمضان .

مسجد سيدى على الموازينى

كان أيضاً صغيراً ، وقد جدّده بعد هجره وتهدمه المرحوم مصطفى هنيدى ، أحد مشاهير المدينة سنة ١٢٧٢ ، وأحيا شعائره ، وهو مدفون فى داخله هو وولده .

مسجد البوصيرى

كان قديماً جدّده المرحوم سعيد باشا ببناء حسن ، ورتب له ما تقام به شعائره ، ورتب به دروساً دائمة .

ترجمة البوصيرى

والبوصيرى ، هو شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى ، صاحب البردة والهمزية ، وله تآليف غيرهما ، وكان أبوه من دلاص وأمه من بوصير ، قرية بقرب دلاص بمديرية بنى سويف .

مسجد الشيخ تمراز

كانت أرضه منخفضة ، ففى سنة ١٢٦٢ جدده المرحوم حسن باشا الإسكندرانى ، ناظر ديوان البحرية فى ذلك الوقت ، وردم أرضه وصار يصعد إليه بسلم ، وبه ضريح الشيخ على التمرازى المذكور ، وله مولد كل سنة ثمانية أيام وقت زيادة النيل .

مسجد أبى سن

أصل أرضه مقبرة ، بها ضريح الشيخ عبد الرحمن بن هرمس ، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بُنى ما حوله ودخل فى تنظيم المدينة ، بُنى ذلك المسجد ، وجعل فى داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذى بناه المرحوم درويش أبوسن ، وهو مسجد تام المرافق ، حسن المنظر ، مقام الشعائر ويصرف عليه من الوقف .

مسجد الحجارى

كان فى الأصل ضريحا للحجارى ، وبه بئر معينة قليلة الملوحة ، يعتقد أهل إسكندرية أن لها منافع وهى : أن من كان مريضاً بداء الحمى . وداوم على الاستحمام بمائها أياما ، زالت عنه الحمى .

وفى سنة ١٢٨٧ ، جدّدته المرحومة والدة الجناب الخديوى إسماعيل باشا ببناء حسن ومنظر لطيف ، وهو عامر مقام الشعائر ، وكان قد جدده قبلها سنة ١٢٤٠ المرحوم بلال أغا ، باش أغوات المرحوم محمد على باشا ، وجعل به صهريجا،مصرفه الآن من الوقف .

مسجد سيدى عبد الله المغاورى

به ضريحه ، وهو مسجد قديم ، وقد جدده المرحوم الحاج طاهر القردلى ووسعه ، وجعل له مئذنة ، وبعد وفاته دفن به بجوار ضريح المغاورى ، وكذلك دفن به العالم الشهير الشيخ محمد البناء الرشيدى ، وكل سنة يعمل فيه ليلة فى شهر رمضان لسيدى عبد الله المغاورى ، وهو مقام الشعائر من طرف الوقف .

مسجد سيدى على البدوى

بجهة كوم الدكة ، كان صغيراً فجدده ووسعه الحاج طاهر الذى بنى مسجد المغاورى فى سنة ١٢٧٠ ، ثم فى سنة ١٢٨٩ بناه أولاد الشيخ ابراهيم باشا .

مسجد سيدى عبد الرزاق الوفائى

جدد بناءه ناظره أحمد النقيب سنة ١٢٨٠ ، وهو أمام مسجد النبى دانيال .

مسجد الحلوجى

كان صغيراً ، وفى سنة ١٢٦٠ جدد بناءه ووسعه المرحوم السيد محمد بدر الدين الكبير ، ومصرفه من الوقف .

مسجد الصورى

كان أولا ضريحا عليه مقصورة من خشب ، فبناه الميرى مسجداً مع بناء سور الاستحكامات ، والضريح داخله ، وله حضرة كل ليلة سبت ، ويصرف عليه من الوقف .

مسجد البرق

جدده المرحوم محمد على باشا ، وهو فى داخل سراى رأس التين .

مسجد سيدى وقاص

كان أولا ضريحاً وجدد بناءه مسجداً على المصرى ، أحد مشاهير إسكندرية سنة ١٢٨٠ ، ويقال إنه جددت بناءه المرحومة والدة الجناب الخديوى إسماعيل باشا .

مسجد القبارى

كان فى الأصل صغيراً ، فجدده وأوسع فيه المرحوم سعيد باشا زمن ولايته ، حتى صار حسن الهيئة .

مسجد يقال له مسجد سيدى جابر الأنصارى

هو مسجد قديم بجوار سراى الرمل ، ولم يجدد فيه سوى القبة ، وله مولد كل سنة ثمانية أيام .

مسجد مشهور بمسجد النبى دانيال

كان صغيراً فجدده ووسعه العزيز محمد على باشا سنة ١٢٣٨ ، وله ليلة كل سنة فى شهر رمضان ، وهو تابع الوقف ، وبهذا المسجد مدفن مخصوص بالعائلة الخديوية ، مدفون فيه المرحوم محمد سعيد باشا ونجله طوسون باشا وغيرهما .

مسجد الطرطوشى

صاحب سراج الملوك ، كان متخرباً ، فأصلحه المرحوم السيد ابراهيم مورو سنة ١٢٧٠ ، وقد تممت إصلاحه وتنظيمه المرحومة والدة الجناب الخديوى ، وهو الآن مقام الشعائر من الأوقاف .

مسجد سيدى مجاهد

فى داخل الترسانة ، كان إنشاؤه سنة ١٢٥٥ ، منذ كان لطيف باشا ناظر الترسانة/ ٧١ بالإسكندرية ، وقد أصلحه الأمير المذكور سنة ١٢٨٣ ، وقت أن كان ناظر البحرية .

فهذه المساجد كلها بها أضرحة من تنسب إليه .

وأما المساجد التى لا أضرحة بها فكثيرة ، مثل :

مسجد طاهر بيك ، ومسجد المدرسة ، ومسجد سلطان ، ومسجد كرموس ، ومسجد محرم بيك ، ومسجد القاضى ، ومسجد الشيخ ابراهيم باشا ، بناه المذكور سنة ١٢٤٠ ، وبه دروس العلم لا تنقطع ، فهو فى الإسكندرية كالأزهر فى مصر ، ومسجد عبد اللطيف ، بناه الشيخ عبد اللطيف المغربى سنة ١١٧٠ ، وهو الآن معد لصلاة الجنازة .

ومن أشهر مساجدها : المسجد الذى بناه الخديوى اسماعيل باشا بجهة كوم الشقافة البرانى ، وأتم بناءه فى سنة ١٢٨٨ ، وجعله تابعا للأوقاف .

ومن إحساناته الدائمة بهذه المدينة ، أنه أمر بإيصال مجارى ماء النيل إلى مساجدها ، فما له ريع يصرف عليه من ريعه ، وما لا ريع له فعلى طرف الميرى ، كما أنه أمر بإيصالها إلى القلاع والإستحكامات ، وقد حصل ذلك على أتم وجه .

ومن إحساناته أيضا ، أنه أمر بعمل سور على طرف الحكومة ، يحيط بجميع مقبرة إسكندرية ، واشترى أيضا قطعة أرض وأمر بجعلها أربعة مدافن لعموم أموات المسلمين ، وجميع ما يصرف عليها من بناء ونقل أتربة ، وردم حفائر ، وتنظيم سلك وغرس أشجار ، على طرف الحكومة .

*** *** ***

كنائســـها

وبالإسكندرية كنائس كثيرة ، المشهور منها ثلاث عشرة كنيسة : عشرة منها للنصارى ، وثلاثة لليهود .

فالتى للنصارى منها : كنيستان للكاتوليكيين ، أحداها : كنيسة سانت كاترين .

والثانية : كنيسة اللازرنبة ، كلتاهما فى حارة ابراهيم نمرة ١٦ .

والثالثة : الكنيسة الرومية الإيوانجيلسة ، فى حارة الكنيسة الرومية .

والرابعة : الكنيسة الرومية الكاتوليكية ، فى حارة حمام أبى شهبة نمرة ١٤ .

والخامسة : الكنيسة الأرمنية ، فى جنينة الأرمن ، فى حارة عمود السوارى ، فى مقابلة شارع اسماعيل .

والسادسة : الكنيسة المارونية ، فى حارة الحبالة .

والسابعة : الكنيسة القبطية ، فى حارة كنيسة القبط .

والثامنة : كنيسة الإنكليز فى ميدان محمد على .

والتاسعة : كنيسة البروتستان فى حارة الكنيسة الإنكليزية .

والعاشرة : كنيسة لايكوسة فى حارة كنيسة الإيكوسية نمرة ١٢ .

وأما الثلاثة التى لليهود فهى : كنيسة رأس التين ، وكنيسة فى حارة النبى دانيال ، وكنيسة فى حارة الوكالة الجديدة نمرة ٤٦ ، أحدثها الخواجا (منشى) وبذل وسعه فى إتقانها حتى صارت أحسن الثلاثة .

بيوت الضيافات المسماة باللوكاندات

وبيوت الضيافات بها كثيرة ، والمشهور منها اثنتان :

إحداهما : لوكاندة أوربا فى ميدان محمد على .

والثانية : لوكاندة ابان فى وسط المدينة تقريبا ، وتطل على ميدان ابراهيم ، وهى أقدم الجميع ، ينزلها الفرانساويون والإنكليز ، وبها تراجمة من جميع الألسن ، وبها عربات معدة لركوب من يرد إليها من ركاب السكة الحديد .

وهناك لوكاندات أخر ، تقرب منهما فى الشهرة والانتظام وهى : لوكاندة المسافرين فى حارة الشيخ محمود نمرة ٧٧ ، مائدتها عامة ، وبها أود مفروشة وغير مفروشة ، على حسب رغبة المسافرين ، ومقدار ما يدفع الشخص فيها كل يوم ـ فى نظير إقامته ومؤنته ـ سبعة فرنكات .

واللوكاندة الكبيرة الفرنساوية فى حارة الشيخ محمود نمرة ٥٨ ، وهذه يجد المسافر فيها راحته من حيث السكنى والمأكل ، تحتوى على ٤٣ أوده ، والنازل فيها مخير بين أن يكترى الأوده باليوم أو بالشهر ، وعليه فى اليوم نظير أكله وإقامته ستة فرنكات ، وفى الشهر ١٥٠ فرنكا .

الإسبتاليات

ويقال لها المارستانات ، وهى المحال المعدة لمعالجة الأمراض ، ستة :

واحدة للحكومة المصرية ، وهذه عامة يدخلها الأهالى وغيرهم ، وجميع ما يصرف عليها من فيض المكارم الخديوية ، وبها كل ما يلزم لها من الحكماء والأجزاجية ، وأجزاخانة مشتملة على أنواع الأدوية ، وهى فسيحة / تسع عدداً وافراً من الأسرّة ، وأغلب الفقراء لا يجدون معالجتهم فى غيرها ، ومحلها عند محطة السكة الحديد ، وبها محل لتربية اللقطى الذين لا يعرف لهم أهل ، وقد رتب لهم فيه من طرف الحكومة المصرية من يقوم بتربيتهم حتى يكبروا ، وقد بلغ عددهم سنة ١٨٣١ ميلادية ٣٤ لقيطا ، منهم اثنا عشر من الإناث والباقى ذكور .

٧٢

وأما الإسبتاليات الأخر فهى للدول المتحابة ، وبيانها :

الإسبتالية العمومية الأوروباوية : فى شارع إبراهيم ، بها مجلس إدارة وثمان أود ، للرجال سبعة ، وللنساء واحدة ، وفى كل أوده سريران ، هذا لأهل الدرجة الأولى والثانية .

أما أهل الدرجة الثالثة والرابعة فللرجال تسع أود وللنساء أربعة ، وفى كل أوده عشرة سرر ، وتخدم النساء المرضى من الراهبات وعدّتهن ثلاث عشرة .

ومن الإحصاءات السنوية تحقق أن الذى دخل هذه الإسبتاليا فى سنة ١٨٧١ ميلادية بلغ ١٠٨٩ مريضا ، شفى منهم ٩٨٢ ، وتوفى بها منهم ١٠٧ .

إسبتالية ديماكونيس : فى حارة محرم بيك ، ومعالجة المرضى بها بمقابل ، فإن كان من ذوى الإعتبار وأراد الإقامة بها فى أودة مخصوصة ، فعليه كل يوم خمس شلنات ، قريب من

خمسة وعشرين قرشا صاغا ، وإن كان من البحارة أو الخدم فعليه كل يوم ثلاث شلنات ، وأما الفقراء فيعالجون بها من غير مقابل .

وفى سنة ١٨٧٠ ميلادية ، بلغ عدد من صار علاجه بالأربع إسبتاليات ٥٨٠٠ ، من ذلك فى الإسبتالية الأوروباوية ١٣٦٦ ، وفى إسبتالية الحكومة ٣٣٠٠ ، وفى الإسبتالية الرومية ٧٧٣ ، وفى إسبتالية ديماكونيس ٣٠٤ .

وعدد من مات فى الجميع ٤٩٠ ، وفى إسبتالية الحكومة ٢٥٠ ، وفى الإسبتالية الأورباوية ١١٥ ، وفى الإسبتالية الرومية ٩٤ ، وفى إسبتالية ديماكونيس ٢٩ .

مطلب الحمامات

وفى مدينة الإسكندرية حمامات كثيرة ، المشهور منها : حمام صفر باشا ، وهو بجوار الترسانة ، مستعمل للرجال والنساء .

وحمام المحافظ : أمام الضبطية بشارع رأس التين ، وهو مستعمل للرجال والنساء فى جميع أيام الأسبوع على عادة الحمامات .

وحمام أبى شهبة : بالشارع الإبراهيمى الخارج من المنشية إلى السكة الحديد .

وحمام المرحوم الشيخ إبراهيم باشا : بشارع عمود السوارى ، الخارج من المنشية إلى الجبانة .

وحمام الصافى : بالشارع الإبراهيمى بجوار ورشة مورو .

وكذلك الحمامات الإفرنجية هناك كثيرة ، المشهور منها :

حمام لوكاندة أوروبا: فى ميدان محمد على ، والأجرة فيه ٢ فرنك .

وحمام توران : فى حارة العمود ، والأجرة فرنك ونصف .

وحمام البحر ، والأجرة فرنك ونصف .

وحمام السيد على المصرى ، أحد تجار إسكندرية ، وهو على الشارع الموصل من السكة الحديد إلى الجمرك ، وهو للرجال والنساء .

وحمام جمعى .

مطلب قهاوى إسكندرية

القهاوى البلدية بمدينة إسكندرية كثيرة بالشوارع وأكثر الحارات ، إلا أنها على وضعها القديم تقريبا .

أما القهاوى الإفرنجية فهى كثيرة ، وتشتمل القهوة منها على عدة محلات ، من ضمنها محل أو محلان للعب البلياردو وطرانيران ، وبها خلاف القهوة أنواع المشروبات والدندرمه ، وفى بعضها الأكل والفرش الثمينة ، والدكك المحشوة والكراسى ، وجرنالات الحوادث فى البلاد الأوروباوية والمحلية العربية والتركية والإفرنجية والرومية .

والمشهور منها : القهوة الفرنساوية : بميدان محمد على ، وقهوة لدومند (الدنيتين) فى الميدان المذكور ، وقهوة أوربا : فى حارة رأس التين نمرة ١١ أو نمرة ١٢ ، وقهوة البرادى

(الجنة) : فى حارة البوسطة الفرنساوية فى ساحل البحر ، وقهوة البحر : فى شاطىء البحر بقرب الكنيسة المارونية ، وقهوة المدرسة المشرقية : فى حارة الشيخ ابراهيم ، وقهوة الحظ : فى حارة الشيخ ابراهيم ، وقهوة ويجو : فى حارة جامع العطارين نمرة ٢٧ ، وقهوة المشرف : فى حارة انستطازى نمرة ٢١ ، والقهوة الفرنساوية : فى حارة ابراهيم نمرة ١٥ ، وقهوة البورصة : فى حارة الكنيسة الإنكليزية نمرة ١ ، والقهوة الأمريكانية : فى حارة جبارة ، وقهوة بيكانو : فى حارة السوق الجديد ، وقهوة هركول : فى حارة أرسلان سكر ، على شاطىء البحر ، وقهوة مغنى : يلعب فيها التياترو .

تياترات

فى الإسكندرية تياترو واحد وهو تياترو (زنزينيا) ملك ورناه ، وله وقت معلوم من السنة ، ويحضر له فى كل سنة من يلعب فيه بأنواع الألعاب المضحكة والمطربة .

مطلب أسواق إسكندرية

المشهور من الأسواق بمدينة إسكندرية :

سوق شارع رأس التين ، وبه عدة وكائل يباع بها الأرز والبندق والجوز والفستق ، وما أشبه ذلك من البضائع التركية .

وسوق الشوام : يباع فيه أصناف البضائع الشامية .

وسوق العجم : يباع فيه الكشمير .

وسوق الصيارف : يباع فيه النقود ، وهو مركز للصيارف .

وسوق الجزمجية ، وسوق المنشية : فى آخر المنشية فى شارع رأس التين ، يباع فيه البضاعة الإفرنجية ، والملبوسات والمفروشات ، وحلى الذهب والفضة والجواهر والثياب الثمينة ، مثل : المقصب والحرير والمرايات ونحو ذلك .

٧٣ وسوق الأقمشة : بشارع السكة الحديد ، يباع فيه الشيت وأنواع القماش : كالدبولان / والشاش والصوف .

وسوق اللحم الكبير : بجوار مسجد الشيخ ابراهيم باشا .

وسوق الفواكه مثله ، وسوق الكانتو ، تباع فيه الأشياء القديمة من كل جنس .

وسوق الفخار : بشارع الميدان ، يباع فيه الصينى وغيره .

وسوق البراذعية والسروجية : بنهاية شارع الميدان بقرب مسجد الشيخ ابراهيم باشا .

وسوق بشارع العطارين ، يباع فيه الحرير والمقصب والأشياء التى تناسب النساء ، يتوصل إليه من المنشية .

وسوق الترك ، وهو يشبه خان الخليلى بمصر يباع فيه بضاعة تركية ، وهو بجوار سوق الطباخين .

وسوق الترسانة : يباع فيه فواكه وخضراوات وبقول وما أشبه ذلك .

وسوق زاوية الأعرج ، وسوق حارة الشمرلى : بطريق الترسانة ، فيهما جزمجية وكتبية وسمكرية وحدادون ودخاخنية ، وأمثال ذلك .

وبها أسواق غير ما ذكرنا ، إلا أنها ليست مثلها فى الشهرة .

بيوت الصدقه

وتسمى التكايا ، وفى الإسكندرية تكية يدخلها فقراء المسلمين بأولادهم ، ويجرى عليهم من طرف الحكومة جميع ما يلزم لهم من مؤنة وكسوة وغير ذلك حتى الماء والزيت ، فإذا بلغ الذكور من أولادهم سن التمييز ألحقوا بالمدارس الميرية ، فيربون بها أحسن تربية ، ومنهم من تشمله أنظار المكارم الخديوية فيكون من أرباب الخدامات الشريفة الميرية .

شركات الإعانة

شركة الإعانة الفرنساوية

وهى عبارة عن طائفة من أغنيائهم ، اتفقوا على أن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من النقود ، ليتصدق منه على فقرائهم ـ وهكذا مشتروات الطوائف الآتية :

وكان ابتداء عقد هذه الشركة سنة ١٨٦٦ من الميلاد ، ومحلها القنصلاتو الفرنساوى ، وقد انتفع بها فى سنة ١٨٦٩ من فقرائهم المقيمين ثلثمائة وخمسة وثلاثون نفسا ، وممن أعين على الرجوع إلى بلاده مائتان وتسعة وتسعون نفساً .

وفى سنة ١٨٧٠ : من المقيمين خمسمائة نفس وعشرة ، وممن أعين على الرجوع إلى بلاده ثلثمائة وثمانية وخمسون نفساً .

وفى سنة ١٨٧١ : من المقيمين ستمائة وسبعة وعشرون نفساً ، وممن أعين على العود إلى بلاده خمسة وسبعون نفساً .

وبلغ ما صرف من هذه الشركة على المحتاجين فى سنة ١٨٦٩ : ثلاثين ألف فرنك وأربعمائة وثلاثة .

وفى سنة ١٨٧٠ واحدا وثلاثين ألف فرنك ، وتسعمائة وأربعة وأربعين فرنكا .

وفى سنة ١٨٧١ ثلاثة وأربعين ألف فرنك ، وتسعمائة وثمانية وتسعين إفرنكا .

شركة الإعانة التليانية

لإعانة المحتاجين خاصة .

شركة الإعانة العبرانية

لإعانة المرضى ، والزمنى ، وذوى العاهات منهم خاصة ، وكان انعقادها سنة ١٨٥٩ ميلادية .

شركة الراهبات المحسنات

وهى أنفع شركات الإعانة ، لأنها قائمة بتربية ٧٨٠ طفلا ، وبها تكية للفقراء والأيتام ، ومحل لتربية اللقطى ، ومراضع يرضعنهم فى بيوتهن ، وقد بلغ المتحصل بها من الصدقات فى سنة ١٨٧١ نحو ٢٤٩٢٤ فرنكاً ، جميعه صرف على اللقطى ، وعلى ١٥١ عائلة من الفقراء ، تشتمل على ٨٤٣ نسمة .

شركة لوبير التليانية

فى حارة رأس التين فوق قهوة أوروبا ، وهى تتركب من أرباب الصنائع والحرف من التليانيين خاصة ، وكان انعقادها سنة ١٨٦٢ ميلادية ، والغرض منها تشغيل من لا شىء عنده من البضائع التجارية .

ومثل هذه الشركة شركة أخرى فى حارة انسطازى نمرة ٣٦ ، إلا أنها ليست خاصة بقوم ، بل عامة لكل محتاج من أهل أى ملة .

الشركة السويجرية

الغرض منها إعانة المحتاج من ملتهم فقط ، وقد أعين منها فى سنة ١٨٧٠ ميلادية : ٣٣ شخصا ، بمبلغ ٩٨٨ فرنكا .

وفى سنة ١٨٧١ : ٢٣ نفسا بمبلغ ١٤٠٥ فرنكات ، وفى سنة ١٨٧٢ : ١٦ نفسا بمبلغ ١٫٠٠٠ فرنك .

السكرتات

تشتمل الإسكندرية على أربعة بيوت للسكرتات ، والمشهور منها :

شركة السكرتات البحرية ، رأس مالها عشرون مليونا من الفرنكات ، وشروطها أنها تضمن السفن والبضائع من غوائل البحر فى مقابلة مبلغ معين يدفع إليهم من طرف من يرغب ذلك .

وكذا تضمن لأصحاب الأملاك فى المدن أملاكهم ، وللتجار بضائعهم وتجاراتهم من الغرق والحرق براً وبحراً ، وكذا تضمن للشخص الراغب فى تضمنيها إيراده السنوى ، وغير ذلك من الأمور والإصطلاحات المقررة فى شروطها ، ومحلها فى حارة العطارين فى بيت أرتين بيك .

بورصة

يوجد بالإسكندرية بورصة للمعاملات التجارية ، وهى ملك لجماعة من البنكير ، مشتركين فيها ومتساهمين فى القيمة الأصلية ، وهى المبلغ الذى صرف فى البناء والغرس والزينة والزخرفة ، وعدد سهومها ٢٤٠ سهماً ، قدر السهم منها مائة جنيه ، فتكون القيمة الأصلية ٢٤٠٠٠ جنيه .

والأسهم نوعان :

نوع بدون اسم مخصوص ، بل هو لكل من يوجد بيده هذا المبلغ .

والنوع الآخر : بأسماء الشركاء خاصة ، وكل شريك معه من النوعين .

وفى آخر كل سنة تبعا ـ لشروط معقودة بين الشركاء ـ يدفع مبلغ من متكون النوع الأول بالقرعة ، وعدد الشركاء أربعة وستون ، ولهم مجلس متركب من بعضهم لإدارة تلك المصلحة ، والقانون الجارى بينهم أنه يرخص بالدخول فيها من أربع جنيهات / فأكثر لكل شخص ، وعشرين جنيها عن كل بنك ، وخمسة وعشرين جنيها عن كل بيت تجارى . ٧٤

وللبورصة كومسيون مركب من المأذون لهم بالدخول ينظرون فى الإدارة .

بورصة مينا البصل : ملك الدائرة السنية ، وهى معدة لأشغال التجارة من قطن وقمح وما أشبه ذلك .

بيـت الـرهـن

هذا المحل فتح بأمر الحكومة الخديوية ، والغرض منه إقراض المحتاجين مبالغ من النقود إلى أجل قصير ، ويؤخذ منهم رهان توضع فى هذا المحل ، وبه جميع ما يلزم لحفظ الرهان وصيانتها مثل صناديق ودواليب وغير ذلك .

وفى أول سنة من افتتاحه ، بلغ عدد الرهان التى وضعت فيه ٣٥٦٠ رهناً ، منها جانب لم يستخلص بل جددت رهنيته فى آخر السنة وقدره ٣٨٥ ، والذى استخلص واستلمته أربابه ١٦٣٤ رهناً .

وفى السنة الثانية بلغ عدد الرهان ٥٠٢٩ ، والذى تجدد منها آخر السنة ١٥١٤ ، والذى خرج واستلمته أربابه ٣٧٤٢ ، وبيع منه فى الدين مبلغ ٤٣٧ رهنا .

وفى السنة الثالثة بلع عددها ٦٠٢٦ ، تجدد منها آخر السنة ١٩٨٦ رهنا وخرج منها ٤٨٤٤ ، وبيع منها ٤٥٥ .

وفى السنة الرابعة بلغ عددها ٦٦٢٥ ، تجدد منها ٢٧٧٤ ، وخرج لأربابه ٥٨١٧ ، وبيع منها ٥٦٢ .

الشركات التجارية بالإسكندرية

تشتمل مدينة الإسكندرية على عدة شركات ، كل شركة مركبة من جملة من التجار وأصحاب الأموال بشروطٍ يرتضونها بينهم : إما على عمل يعملونه بأموالهم لأنفسهم ، وإما على عمل يعملونه لغيرهم .

فمن النوع الأول : شركة الطحين ، والغاز ، ومجارى الماء .

ومن النوع الثانى : أنواع المقاولات ، والمشهور منها الآن : شركة تقسيم المياه للمدينة ولجهة الرمل ، وإن اختصت الآن بتلك المصلحة ، وقد تقدم الكلام على هذه الشركة عند الكلام على مدة المرحوم سعيد باشا .

وشركة الغاز : هى المتكفلة بتنوير حارات الإسكندرية وشوارعها ، وهى باسم (أوجين ليون وشركائه) ، ومحل العمل فى الكارموس على شاطى المحمودية ، ومحل إدارتها فى حارة صهريج الفرن ، وافتتاحها للإيقاد كان فى سنة ١٨٦٥ ميلادية ، ومعملها كافٍ لصرف مليونى متر مكعب ، ولها شروط مسجلة بديوان الأشغال العمومية ، وقد تقرر فيها قيمة غاز المتر المكعب ، ولكل من يرغب تنوير منزله أو دكانه ، أن يأخذ منها بشروط على السنة أو الشهر .

وشركة الطحين التجارية : لها وابور على شاطى المحمودية ، ووابور آخر فى بولاق ، ووابور فى بندر إخميم من الأقاليم القبلية ، وهى من أعظم الشركات ، ولها وابورات أيضا فى مدن كثيرة من بلاد أوروبا وتتجر فى الدقيق .

الورش التى اشتملت عليها إسكندرية

ورشة كبريت للخواجة (تلازاك) ، ورش ثلج : إحداها تعلق الخواجه جرجس ، ورشة سيجارة تعلق قومبانية ، وابورات دقيق وهى كثيرة ، ورش حديدة ، وابور زيت تعلق الخواجه (بوسيل) ، معصرة الزيت التجارية ملك (انطونياس) على شاطىء المحمودية فى الكارموس ، وهى من المعامل المكلفة ، ويستخرج فيها زيت الكتان وزيت القطن ، ويباع منها بالجملة ويستعمل للإستصباح والأكل .

طوائف الصنائع والحرف

عدد الطوائف الآن بمدينة إسكندرية ١٤٢ طائفة ، تشتمل على ٢٦٩٠٠ نفس ، أعنى زيادة على مقدار أهل إسكندرية ، حين استولى عليها العزيز المرحوم محمد على باشا ، ثلاث مرات ، وعدد أنفار كل طائفة ما هو مبين :

برابرة خدامين ١٧٦١ ، حمارة ١٠٨٦ ، عتالين فى المينا ١٠٦٦ ، بياعين خضار ٩٩٩ ، عربجية جر ٨٢١ ، سوّس ٣١٢ ، قهوجية ٧٦٤ ، جزارين بالأسواق ٣٠٨ ، بنائين ومناولين ٦٩٢ ، بنائين مقابر ٢٩٢ ، زياتين وعصارين ٦٢٧ ، دخاخنية ٢٧١ ، نجارين ٥٩٦ ، قماشة ٢٧١ ، طحانين ٥٠٣ ، صيادين سمك ١٧٣ ، كيالين ٤٩٧ ، قبانية ٢٢٧ ، مراكبية ٤٩٠ ، حدادين وبرادين ٢٢٢ ، حلاقين ٤٨٤ ، شغالة فى القطن ٢٢٢ ، نحاتين حجر ٤٧٣ ، آلاتية ومركجية ٢١٣ ، سقائين ٤٢٤ ، براسمية وعلافين ٢١٢ ، عربجية ركوب ٤٠٩ ، طباخين ٢٠٣ ، خفراء مخازن ٣٧٢ ، خدمة بالسلخانات ٢٦١ ، خياطين ٣٦٩ ، زراعين ٢٠٠ ، خدمة صعايدة ٣٤١ ، أصحاب حمير أجرة ١٩٤ ، صباغين ٣٢٧ ، فرانين ١٩١ ، خبازين ٣٢٧ ، جزمجية ١٨٧ ، تجار غلال ١٨٢ ، فحامين ١٢٤ ، سراحة خضار ١٨١ ، سمكرية ١١٩ ، نجارين مراكب ١٧٨ ، مرخمين ١١٤ ، دهانين جزم ١٦٢ ، تبانة ١١٣ ، نجار بلطه ١٦٤ ، تجار بهائم ١١١ ، نقاشين بيوت ١٦٤ ، تجار سوق الدقيق ١١١ ، بياعين ليموناتو ١٦٢ ، لبانة ١٠٩ ، عطارين ١٦٤ ، عقادين ١٠٨ ، حطابة ١٥٠ ، بياعين سكر ١٠٧ ، صواغين أولاد عرب ويهود ١٤٤ ، بياعين فراخ وطيور ١٠٤ ، بياعين ثياب قديمة ١٤٤ ، صيادين أبى قير ١٠٠ ، مبيضين نحاس ١٤٠ ، خبابتة الرمل ٩٤ ، سرباتية ١٧٨ ، مغربلين ٩٠ ، حصرية ١٣٧ ، بياعين خشب ٨٨ / ، تجار نحاس ١٣٦ ، تجار حرير ٨٧ ، منجدين ١٢٦ ، بحارة المينا ٨٧ ، فطاطرية ١٢٤ ، نجارين ٨٦ ، حمالة النقل ٨٤ ،

سقائين فى البيوت ٥٥ ، حامية ٨٢ ، مركوبجية ٥٠ ، بياعين فواكه يابسة ٧٦ ، بياعين حمص ٤٧ ، صنايعية فى الكتان ٦٩ ، بياعين سمك مالح ٤٤ ، طربوشجية ٦٧ ، بياعين عسل ٤٤ ، بياعين سلطه ٦٦ ، بياعين فخار بلدى ٣٩ ، أصحاب حميراكاف ٦٦ ، شبكشية ومسلكاتية ٣٨ ، فراشين ٦٣ ، مبلطين ٣٣ ، بياعين سمك ٦١ ، بياعين كنافة ٣٢ ، عرضحالجية ٦٠ ، دلالين فى الحمير ٣٢ ، بياعين جلود ٥٩ ، خردجية ٣٠ ، بياعين أقمشة مقاعدية ٥٨ ، زراعين خضار ٣٠ ، بياعين فى الحارات ٥٧ ، بياعين حلويات تركى ٣٠ ، دلالين سوق الترك ٥٧ ، تراجمة ٢٩ ، سباكين ٥٦ ، بياطرة ٢٩ ، بوابين ٥٦ ، محدثين فى القهاوى ٢٨ ، دلالين فى الخيول ٢٨ ، ساعاتية ٢٠ ، بياعين براميل ٢٨ ، خفر المغالق ٢٠ ، دلالين فى العقارات ٢٧ ، حبالة ١٩ ، خراطين ٢٧ ، مرخمين ١٨ ، قفاصه ٢٥ . قبانية الحطب ١٤ ، بياعين محار افرنكى ٢٤ ، نقاشين على المعادن ١١ ، سماسرة ٢٣ . صيارف ٧ ، برامين حرير ٢١ ، قرجوز وحواة[1] ٦ ، كتبية ٢٩ .

وهناك أشخاص محترفون لم تندرج أسماؤهم فى دفاتر الطوائف ، لو أضيفوا إلى ما ذكرنا لكان عدد الجميع ٥١٠٥٨ تقريباً .

المدارس والمكاتب بالإسكندرية

لما كان مبنى الأمور الدنيوية ، بل والأخروية ، ليس إلا على حسب التربية الأولية ، إذ على حسب البداية تكون النهاية ، ومن لم يكن له فى بدايته قومة ، لم يكن له فى نهايته نومة .

(١) فى الأصل : قرجوز وحداد .

وكان ممن أحاط علما بذلك ، ورغب فى تربية أبناء وطنه والاقتفاء بهم أقوم المسالك ، حضرة الخديوى إسماعيل باشا ، أحسن الله أعماله وأنجح فى سبيل الخير آماله ، وضع لذلك قوانين سلكت بأبناء الوطن طريق التقدم ، حتى وصلوا بها فى أقرب زمن إلى ما لم يصل إليه من مضى وتقدم .

وقد وضعنا فى ذلك كتابا ، بسطنا فيه الكلام على كيفية التربية فى الديار المصرية والأقطار الأوروباوية ، فليرجع إليه من أراد الإطلاع عليه ، إذ ليس غرضنا الآن إلا ذكر المكاتب والمدارس الموجودة فى مدينة الإسكندرية ، وبيان الشهير منها من غيره ، سواء كانت إدارته منسوبة للحكومة المصرية أو غيرها على وجه الاختصار فنقول :

مدرسة رأس التين الميرية

وهى صنفان : صنف تجهيزية ، وصنف مبتديان .

فالمبتديان : تتعلم فيها الأطفال التهجى ، والكتابة والقراءة ، والقواعد الأولية فى الحساب ، والنحو ولغة أجنبية ، وقبول الأطفال بها من سبع سنين .

والتجهيزية : تتعلم فيها الأطفال ، المنتخبون لها من المبتديان ، الحساب ، والهندسة العادية ، والجبر إلى الدرجة الثانية ، والرسم النظرى ، وعلم العربية ، ولغة من اللغات الأوروباوية ، والخط الثلث والنسخ ، والرقعة ، ومبادىء اللغة التركية .

وعدد تلامذة الصنفين ٢٧٩ تلميذاً ، وتقيم الأطفال بتلك المدرسة ليلاً ونهاراً ، وجميع ما يلزم للصنفين من أدوات التعليم ، وماهيات المستخدمين ، وأكل وكسوة وغير ذلك على طرف الديوان العامر بالأنفاس الخديوية ، أدامها الله تعالى .

ومن المكاتب الأهلية ، مكتبان منتظمان ، تتعلم بهما الأطفال بالنهار ويبيتون عند أهلهم ، وجميع ما يصرف على هذين المكتبين من طرف الأوقاف الميرية ، ومن الإحسانات الخديوية ، مع ما هو مفروض على أهل الأغنياء منهم ، طبق قانون المكاتب الأهلية ، وعدد أطفالها ثلثمائة طفل فأكثر ، ويتعلمون فيهما من الفنون مثل ما يتعلمونه فى مدرسة المبتديان ، وكسوتهم على أهليهم ، وكذلك أكل الأغنياء منهم .

مكاتب أهلية كبيرة وصغيرة ، يتعلم بها الأطفال مدة النهار ، ويبيتون عند أهليهم ، ويتعلمون القراءة والخط وبعض الحساب ، والصرف عليهم من طرف أهليهم ، وليس للديوان عليهم إلا التفتيش فقط لأجل النظافة والإنتظام[1] ، وعدد أطفالها ٣١٣٦ طفلاً .

ومجموع المدارس والمكاتب الإسلامية بمدينة الإسكندرية ٩١ ، وعدد الأطفال ٣٧٠٥

وأما المدارس والمكاتب الأوروباوية فكثيرة ، منها ما يقبل فيه كل من أتى إليه من دون نظر إلى ملة أو ديانة ، ومنها ما لا يقبل فيه إلا أطفال أهل ملة مخصوصة .

وفى كثير من هذه المكاتب تكون الأطفال الذكور مع الإناث ، ومنها ما هو مختص بالذكور ، ومنها ما هو مختص بالإناث فمنهن من يتعلم الصنعة اليدية ، ومنهن من يتعلم الفنون العقلية ، ومنهن من يتعلمها جميعا .

والمشهور من هذه المدارس :

---

(١) فى الأصل : الانتقام .

مدرسة اللازاربن

وهى مشتملة على تعليم الفرنساوى ، واللاتينى ، والرومى القديم والجديد ، والعربى ، والتليانى ، والإنكليزى ، والرسم .

ومن الأطفال من يقبل فيها مجاناً كالفقراء ، ومنهم من يقبل بنصف مصروف ، ومنهم من يقبل بمصروف كامل وقدره ألف وستمائة فرنك ، ولا يقبل فيها إلا من سبع سنين إلى خمس عشرة سنة ، ويشترط عند دخوله أن يكون عنده بعض إلمام بالقراءة أو الكتابة فى لغة ما ، وعدد أطفالها ٦٠ وخوجاتها ١٢ .

الثانية المدرسة التليانية

/ فى حارة العمود وعدد الأطفال بها ٥٥٥ طفلاً .

٧٦

الثالثة مدرسة الإخوان الكاتوليكيين

كان إفتتاحها فى سنة ١٨٤٧ ميلادية ، والأطفال الذين يتعلمون فيها منهم من هو بمصروف كامل ، ومنهم من هو بنصف مصروف ، ومنهم من يعلم مجاناً ، كما مر ، وعدد أطفالها ٦٠٠ ، المجانى منهم ٣٥٠ ، والباقى بمصاريف .

الرابعة المدرسة المجانية

وهى تحت رعاية سعادة الخديوى الأعظم محمد توفيق باشا ، وكان إفتتاحها سنة ١٨٢٨ ميلادية ، وبها من اللغات : الفرنساوى ، والإنكليزى ، والتليانى ، والعربى .

ومن التلامذة نحو سبعمائة وثلاثة ، منهم من يحضر ليلاً فقط ، وهم الكبار ، ومنهم من يحضر نهاراً فقط وهم من عداهم .

الخامسة مدرسة الكنيسة الايكوسية

وهى ملحقة بالكنيسة وعدد أطفالها ٥٢ .

السادسة المدرسة الأمريكانية

يقبل فيها الأطفال الذكور فقط مجاناً ، ومحلها حارة المحكمة ، وعدد أطفالها مائة وستون .

السابعة المدرسة الرومية

وهى ملحقة بالكنيسة أيضاً ، وعدد أطفالها ١٩١

الثامنة مدرسة بانصو المختلطة

يقبل فيها الأطفال ، الذكور والأناث ، ومحلها بحارة جامع العطارين نمرة ٨١ ، وعدد أطفالها الذكور ٥٦ ، وأطفالها الإناث ٥٥ ، ومنهم من يدخل بمصاريف كاملة ، ومنهم من يدخل بنصف مصاريف .

التاسعة مدرسة بودير

يقبل فيها الأطفال الذكور والإناث ، ومحلها حارة العطارين نمرة ٥٨ ، وعدد الأطفال بها مائة .

العاشرة مدرسة ترنينا مانيا

فى سوق البصل ، وتقبل أيضاً الذكور والإناث من الأطفال ، وعدد الجميع ٤٥ .

الحادية عشرة المدرسة العبرانية

تحت رعاية الدولة النمساوية ، وإدارتها موكولة لإثنى عشر نفساً من العبرانيين ، وتتركب من مكتبين أحدهما للذكور والآخر للإناث ، وتقبل بها الأطفال مجاناً ، وعدد من بها من الذكور ١٣٠ ، ومن الإناث ١٠٠ ، ومن مزايا هذه المدرسة أنها تمهر من طرفها من تتزوج من البنات الفقراء .

الثانية عشرة مدرسة البنات

بشارع إبراهيم نمرة ٥ تحت إدارة الراهبات ، وتقبل بها البنات بمصروف كامل ، وتارة بنصف مصروف ، والفقراء يقبلن مجاناً ، والحضور فيها للتعلم مدة النهار فقط ، وعدد من يدفع مصروفاً كاملاً ١٨٠ ، ومن يدفع نصف مصروف ٦٠٠ ، والأيتام ١٢٠ ، واللقطى ٧٥ ، وعدد الراهبات المعلمات ٢٦ ، والراهبات الخادمات ١٤ .

الثالثة عشرة بيت الصنعة

فى حارة حننى أفندى نمرة ٥٣ ، وجميع من يدخل فيها بمصروف وعدد أطفالها ٧٠ .

الرابعة عشرة

فى محل الست سريونى ، عند الكنيسة الإنكليزية نمرة ٣٥ ، وعدد أطفالها البنات ٦٥ ، يدفعن جميعاً مصروفاً كاملاً .

الخامسة عشرة

فى محل يعقوب ، فى وكالة إبراهيم بيك عند السوق القديم ، وعدد من بها من الأطفال ٣٠ ، وجميعهم بمصروف .

السادسة عشرة

المدرسة الإيكوسية تحت نظر (الست اشلى) ويقبل فيها بمصاريف ومجاناً ، وعدد الجميع ٧٠ ، ومحلها الكنيسة نفسها .

*** *** ***

الفصل الثانى فى مينا الإسكندرية

من بعد الأعمال التى تقدم الكلام عليها ، زمن المرحوم محمد على باشا ، لم تعمل أعمال مهمة فى المينا إلى زمن الخديو إسماعيل ، مع أنه قد حصل قبل جلوس حضرته على التخت أمور جسيمة ، كان يخشى منها تحويل التجارة عن ثغر إسكندرية ، لولا أن تداركها بهمته العلية منها :

الترعة المالحة المتصلة بالبحرين الأحمر والرومى ، فإنه لولا ما عمل بمينا الإسكندرية ، لإنتقلت المتاجر المشرقية والمغربية إليها ، لما يرى التجار بها من السهولة بالنسبة لمينا إسكندرية ، فإنهم كانوا بعد وصولهم إليها ينقلون بضائعهم بالسكة الحديد ، ثم منها إلى البحر الأحمر ، وفى ذلك من المشقة وكثرة المصاريف ما لا يخفى بخلاف طريق القنال ، ولذلك لما تم أمرها ، وجرت السفن بها ، تحول كثير من التجار إلى بورت سعيد ، الذى أنشىء على شاطىء البحر الرومى ، عند فم القنال شرقى مدينة دمياط ، وجعلوه مركزاً لتجارتهم ، وبنوا به منازل لإقامتهم لما رأوه من السهولة وقرب المسافة ، فلما كان ذلك كله معلوماً لدى الحضرة الخديوية ، وجه إليه أنظاره الصائبة ، وأعمل فيه أفكاره الثاقبة ، وعوّض إسكندرية عن ذلك مزايا حسنة ، حوّلت الرغبة فى طريق القنال إلى ذلك الثغر بما أبدع فيه من الأعمال .

مطلب حوض المينا

وأوّل مزية جادت بها همه العلية على المينا ، عمل حوض بها من الحديد لعمارة السفن يعرف بالدوك ، اصطنعه فى بلاد فرنسا سنة ١٢٨٥ هجرية ، طوله ١٤٠ متراً ، وعرضه ٣٣ متراً ، وعمقه ١١ متراً ، وزنته ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف كيلو جرام ، وبه آلتان بخاريتان

لنزحه قوّتها ٢٥ حصاناً بخارياً ، وقيمة ما صرف فى إصطناعه مائة وستة وعشرون ألفاً وثلثمائة وستة وثلاثون جنيهاً مصرياً ، وله باب يفتح ويقفل بحسب الطلب ، وخوخ لإدخال الماء فيه بعد إتمام العمارة ليتأتى خروج السفينة منه ، فحصل من ذلك السهولة التامة والمنافع العامة ، لأن الحوض الأول الذى كان معمولاً من البناء لم يكن قابلاً لكافة السفن ، بسبب عظم أبعاد بعضها ، فضلاً عما تجدد فى هذا العصر مما هو أعظم منها ، ومع ذلك / كان يستغرق ٧٧ زمناً طويلاً فى إستعداده عند الحاجة إليه ، بخلاف الحوض الحديد فإنه وافٍ بجميع ذلك ، وفى الزمن اليسير يصير إستعداده ، ودخول السفينة فيه وتعميرها بمصرف أقل من الأول .

ولا يخفى أن وجود الحوض فى المين من ضرورياتها اللازمة ، سيما المين الكبيرة المطروقة كمينا إسكندرية ، لأن السفن دائماً عرضة لغوائل كثيرة مثل ملاطمتها للصخور ، وإصطدامها بالشعاب أو ببعضها ، وقد يزول طلاؤها بالماء وبالعوارض الجوية ، فيضر ذلك بها . ومن إقامتها الأزمان الطويلة فى البحر ، عادة ، يلتصق بظاهرها المحار ، ويتراكم على بعضه فيورثها ثقلاً ، ويعطلها عن سيرها .

فبواسطة تلك العوارض لا تستغنى عن العمارة ، أو الدهن أو المسح ، ولا يتيسر ذلك إلا بانكشاف الماء عنها ، لأن خللها غالباً يكون فيما غمره منها ، فلا يتمكن من إصلاحه ـ كما يجب ـ إلا بانكشافه ، وأما عمل الغطاسين فلا ينفع إلا فى الخزوق الصغيرة وما أشبهها .

ولاشك أن المبادرة بسدّ خلل السفن وعمارتها من أهم الأمور ، إذ لو تركت بلا إصلاح ، لأسرع إليها التلف ، وربما إنخرقت فى حال سيرها . فيحصل فضلاً عن غرقها وضياعها على أربابها تلف أنفس وأموال جسيمة . ومن غير الحوض يتعذر أو يتعسر إخراج السفن إلى البر ، سيما الكبيرة جداً مع إحتياج ذلك إلى مصرف زائد وأعمال شاقة ليست فى طاقة كل إنسان .

وبالجملة فلم يجد أصحاب الأفكار السليمة ، من قديم الزمان ، لهذه المعاناة الشديدة أنفع من الحوض .

وتقدم فى الكلام على الإسكندرية فى مدة أصل هذه الشجرة المباركة ، المرحوم العزيز محمد على باشا . أن الحوض عبارة عن محل فى البحر قريب من البر ، يختار لذلك بحيث يكون عميقاً أو يعمق بالكرّاكات بحيث يصلح لدخول المراكب الكبيرة فيه ، يحاط ببناء متين بأحجار ومؤن جيدة ، أو يجعل من حديد ، وعادة يجعل طوله يسع أكبر سفينة فى البحر وعرضه بنسبة ذلك ، ويجعل له فم من جهة الماء يُسد بباب بهيئة مخصوصة ، وفيه خوخات تفتح وتقفل على حسب الإرادة ، فإذا أريد إدخال سفينة به للعمارة ، مثلاً ، يفتح الباب فيدخل الماء ويمتلىء الحوض إلى حد إستواء الماء فتدخل السفينة من غير مشقة ، ثم يسدّ الباب وينزح الماء منه بواسطة وابور يحرك طلونبات تأخذ الماء من الحوض من مجارٍ مجعولة لذلك فى جدرانه ، وعادة تتم هذه العملية بعد ساعات ، بحسب كبر الحوض وصغره ، حتى تقف السفينة على مراكز من أخشاب مجعولة فيه تسمى : اسقرين قائمة فوق الأرض وتكون فى هذه الحالة مستندة على أخشاب أخر تسمى : المناطيل ، تحفظها من الميل ، وتستمر واقفة كذلك مدة عمارتها ، طالت أو قصرت ، وبعد فراغ العمارة تفتح خوخات الباب فيدخل الماء حتى يملأ الحوض فترتفع السفينة مع الماء ، ولا يكون لها مانع من الخروج من الحوض سوى فتح الباب .

ومزية الحوض الحديد على حوض البناء ، أنه ينتقل من موضعه إلى أى موضع أريد من المينات ، وأعماله أسهل من أعمال حوض البناء بكثير ، فلذلك حصل بوجوده فى تلك المينا دخول سفن كثيرة من سفن البلاد الأجنبية لعمارتها فيه ، فترتب على ذلك ، فضلاً عن الإيراد المتحصل بسببه لجهة الحكومة استمرار دخول السفن الأجنبية بالمتاجر إلى ذلك الثغر ، وتمكنت الحكومة بهذا الأمر الجليل من المداومة على صيانة سفنها الحربية والتجارية من الخلل ، وصار بالمينا حوضان ، فحصلت السهولة أكثر مما كان ، وعم النفع المراكب الأهلية أيضاً ، وقبل ذلك كانت المراكب الميرية ربما شغلت الحوض مدة طويلة فتتعطل مراكب الأهالى .

مطلب الجسر الذى عمل لسد المينا من الجهة الغربية

ومما أكد الرغبة فى مينا إسكندرية تنظيمها وأمن السفن بها من فعل الرياح المختلفة ، وذلك بسد المينا من جهة الغاطس بجسر عريض من الدبش والصخور الصناعية ، ممتد بين جزيرة رأس التين والعجمى ، وجعل طريق فيه لسلوك السفن الواردة إلى المينا والصادرة منها ، ولتسهيل الشحن والتفريغ جعل فى دائرها من إبتداء مرسى الإنكليز ، الواقع على شريط السكة الحديد من جهة القبارى ، إلى الحوض المبنى فى الترسانة ، وطول محيط ذلك ٢٦٦٤ متراً ، ولأجل ذلك أيضاً عمل مولص من الدبش والصخور ، وممتدّ فى المينا من إبتداء مرسى الإنكليز المذكور إلى جهة رأس التين ، فى طول ٩٩٠ متراً ، وعرض ٢٧ متراً ، ولأجل وقاية السفن التى ترسو خلف الأرصفة من الأهوية مع تسهيل نقل البضائع إلى محل الجمرك على أشرطة السكة الحديد التى وضعت عليه .

فهذه الأعمال كلها محاسن الأفكار الخديوية ، لأنها فضلاً عن تنظيم المينا وجعلها فى صورة حسنة ينشأ عنها الحصول على أرض متسعة فى دائر المينا ، تتمكن الحكومة من أن تبنى فوقها ما هو لازم لمصالحها : كديوان الجمرك والسانتا وما أشبه ذلك ، مع زيادة السهولة وقلة المصرف على التجار فى نقل بضائعهم ، فلذلك إزدادت رغبتهم فى مينا الإسكندرية ، وصرفوا النظر عن التحول إلى غيرها . لأن العاقل لا يؤثر على/ جهة نفعه غيرها ، سيا وقد ملكوا فى الثغر أملاكاً عظيمة تحملهم على ملازمتها ، مع كثرة منتزهات تلك المدينة والمزايا الخاصة بها كطيب الهواء ، ووجود الماء العذب ، وكثرة المزارع على تعدد أنواعها من رياحين وخلافها مما يحمل كل إنسان على حب التردد إليها ، وتسريح طرفه فى محاسنها . ٧٨

وأيضاً قد ترتب على هذه الأعمال ، وعلى وجود الفنارات التى جعلت فى ساحل المينا وفى أماكن كثيرة من سواحل القطر ، من أبى صير غربى العجمى إلى بورت سعيد ، وعلى

شاطىء البحر الأحمر زيادة الأمن على السفن السابحة فى البحرين ـ الغربى والرومى ـ وكثرة وفودها على الثغر ، وهذا بخلاف ما كان يظن أوّلاً عند حدوث القنال من نقص عددها أو نقص مقدار منقولاتها ، فلم يعترها شىء ، ولم تزل كل حين تتحلى بما يتجدد فيها من المبانى الفاخرة ، وتتزين المينا بالسفن العظيمة المختلفة الهيئة ، الواردة من بلاد أوربا وأمريكا وسائر الجهات ، وما ذاك إلا لكون التجار عرفوا مزيتها على غيرها فى كثير من الأمور ، وشاهدوا بها أشياء لم تكن بها من قبل حتى اشتهرت بالمحاسن شهرة أوجبت تخليد ذكر الحضرة الخديوية .

ولأهمية هذه الأعمال والتصميم على إتمامها فى أقرب مدة ، أعطيت إلى شركة إنكليزية تعرف بشركة (جرلعلد) وجعل لذلك شروط ورسوم للعمل على مقتضاها مؤرخة فى سنة ١٨٧٠ ميلادية ، مشتملة على بيان الأعمال اللازمة والكميات من كل نوع ومقدار المصاريف ، وهو قريب من خمسين مليوناً من الفرنكات .

مطلب إنقسام المينا

ومتى تمت هذه الأعمال ، على حسب الشروط المعقودة ، تكون مينا الإسكندرية منقسمة إلى ميتين : إحداهما كبرى جهة الخارج ، والأخرى صغرى وهى فى الداخل .

والأولى معدّة لوقوف السفن الحربية والتجارية ، ومساحتها ٨٣٤ فداناً مصرية ، مقدار كل فدان ٤٢٠٠ متر وكسور ، وعمق الماء بها عشرة أمتار ، ومنها تخرج السفن إلى الغاطس .

والجسر الذى سبق الكلام عليه يقيها من الأمواج والأرياح وطوله ٢٨٨٨ متراً ، وعرضه من أعلاه ستة أمتار ، وإرتفاعه فوق الماء قريب من ثلاثة أمتار ، ومن القاع إلى سطحه الأعلى ثمانية أمتار ، وعدد الصخور المغطى بها سطحه المعرّض لصدم الأمواج عشرون

ألف صخرة صناعية ، مركبة من مونة من الرمل والجير المائى ـ المعروف بجير توى ـ ومن الدبش ، ومكعب الصخرة عشرة أمتار مكعبة ، ووزنها عشرون طونولاتو ، عبارة عن أربعمائة وأحد وأربعين قنطاراً .

وأما الدبش ، فمنه الكبير ووزنه يختلف من ألف وخمسمائة كيلوجرام إلى ألفى كيلوجرام ، وهو مجعول للكسوة ، وأما الصغير فهو فى الباطن :

والمحجر المستخرج منه ذلك هو محجر المكس ، وكان أولاً فى يد كومبانية قنال السويس ، واشترته الحكومة الخديوية ، وأنعمت به على شركة (جرنقلد) مع بعض الآلات والمواعين والعدد .

مطلب مساحة المينا الصغيرة

والمينا الصغيرة مساحتها مائة وأحد وسبعون فداناً مصرياً ، وعمق مائها ثمانية أمتار ونصف متر ، فى أعظم حالة للجزر ، والمولص المتقدم ذكره يقفلها من جهة المينا الكبيرة ، والسفن تدخلها من فتحة جهة الترسانة ، عرضها ما بين الحوض ونهاية المولص ألف متر لأجل الشحن والتفريغ على الأرصفة المحيطة بها من جهة الجمرك والمحمودية والسكة الحديد .

والموادّ التى تركيب منها المولص هى : صخور صناعية مثل التى تقدم ذكرها ، ودبش مستخرج من محجر المكس .

وفى الشروط جعلت مدّة العمل خمس سنين ، وأن ما يصرف كل شهر للمقاولين يكون بنسبة المشغول الشهرى وهو يقرب من خمسة وعشرين ألف جنية ، وترتب لهذه العملية مهندس إنكليزى مخصوص ، وجعل معه بعض من مهندسى الأشغال لملاحظة الأشغال وإجرائها على الوجه المنصوص فى الشروط ، وتقدير كمياتها الشهرية .

وفى الأصل كانت الشروط على عمل رصيف من الصخور الصناعية ، فى دائر المينا الداخل من جهة المولص من جهة البر ، لكن صار الرجوع عنه بعد الشروع لما ظهر فيه من الصعوبات وزيادة المصاريف ، لأنه ظهر أن أرض قاع المينا مغطاة بطبقة كثيفة من الطمى والطين ، فكان كلما زاد إرتفاع المولص هبط ، فخيف من وقوع الرصيف بعد إتمامه إن بنى على الدبش ، كما هو التصميم الأول . وإن صار نزح الطين والطمى ووضع أساسه على الأرض الصلبة زاد الصرف ، وبلغ قدر المقرّر فى الشروط مرتين ، فمن بعد المداولة فيما يلزم حصل الإتفاق بين الحكومة والشركة على إستعواض الرصيف بأسكلة من الحديد ، تتكىء على أعمدة تصل إلى الأرض الصلبة ، ويملأ فارغها بالخرسانة ، لتحمل الاسكلة المعدّة للشحن والتفريغ .

مطالب السكة الحديد على أرصفة المينا

ومما تقرر عمله أيضاً بالشركة سكة حديد على الأرصفة والمولص ، وعيارات لتسهيل شحن وتفريغ المثقلات ، ومخازن للبضائع التجارية .

وكان البدء / فى هذا العمل فى شهر مايه الإفرنجى سنة ١٨٧٠ ميلادية ، وأوّل حجر رمى فى الأساس كان فى ١٥ من الشهر المذكور . واجتمع له محفل شامل حضره ولى النعم وأنجاله . والذوات الفخام والعلماء الأعلام . والأحبار العيسويون . والروم . واليهود . ووجوه التجار . ووكلاء الدول المتحابة . وعمل فى ذلك اليوم ألعاب وشنك . وهو وإن تحدد لإنهائه تاريخ سنة ١٨٧٦ ميلادية . ٧٩

وقد بقى على ذلك مدة بدت بشائر ثمرات هذا الغرس النافع ، وتحقق من نجاح هذا المقصد الناظر والسامع ، فمن منذ ستين حصل نمّو محسوس فى عدد السفن الواردة على الثغر ، وفى كمية البضائع الواردة والصادرة ، وهذا ينبىء بكثرة فوائده الجليلة ، ومتى تم واستعملت الأرصفة تحصلت الحكومة من عوائدها على إيراد يزيد عن ربح ما صرفته عليه ، ومع طول الزمن يستحصل منه على الفائض ورأس المال ، وبعد ذلك تكون العملية جميعها ربحاً .

ومن ثمراته أيضاً حفظ عوائد الجمرك وضبطها ، زيادة عما هى عليه الآن ، إذ لاشك أن ما يتحصل بسببه من عوائد ما هو معتاد إخفاؤه الآن ، من دفع العوائد بسبب عدم تمكن الحكومة من إجراء جميع ما يلزم لضبطه يكون ربحاً يضاف إلى ما تربحه السكة الحديد مما يتجدّد من الشركة التجارية التى تروم حينئذ إستعمالها فى نقل بضائعها ، وكل ذلك يزيد فى إعتبار الحكومة المصرية وشهرتها ، ويمنع عن مدينة الإسكندرية ماكانت تخافه من الغوائل ، وتستمر حائزة لجميع المزايا القديمة مع ما يضاف إليها من المزايا التى تحصل من تداخل الحوادث الزمانية بعضها فى بعض .

ولأجل إمكان مقارنة درجات تقدم الثغر ، فى زمن الحضرة الخديوية بما سبقه ، ومعرفة سير هذا التقدم مع الزمن ، نورد هنا جدولاً يتضمن عدد السفن التى دخلت مدينة إسكندرية ، من إبتداء سنة ١٨٣٧ ميلادية ، ليتمكن الواقف عليه من المقارنة ومعرفة الفرق ، ويعلم أن القنال لم يؤثر فى ثغر إسكندرية تأثيراً محسوساً ، بل من الأعمال الخيرية المدبرة بالأفكار الخديوية حصل نمّو الإيراد بنموّ الزمن ، وها هو الجدول :

سنة ميلادية	سفينة	سنة ميلادية	سفينة	سنة ميلادية	سفينة
١٨٣٧	١١٦١	١٨٤٩	١٦٥٠	١٨٦١	٢٣٧٢
١٨٣٨	١١٤٣	١٨٥٠	١٨٣٤	١٨٦٢	٢٦٣١
١٨٣٩	١٠٦٨	١٨٥١	١٨٣٧	١٨٦٣	١٨٠٢
١٨٤٠	١١٤٥	١٨٥٢	١٧٦٦	١٨٦٤	٤٣٠٩
١٨٤١	١٦٩٩	١٨٥٣	١٥٧٨	١٨٦٥	٢٢٨٣
١٨٤٢	١٤٠٨	١٨٥٤	١٠٢٣	١٨٦٦	٣٦٩٨
١٨٤٣	١٥٧١	١٨٥٥	٢٣٦٨	١٨٦٧	٣١٨١
١٨٤٤	١٥٤٧	١٨٥٦	٢٣٩٩	١٨٦٨	٢٦١٦
١٨٤٥	١٤٠٠	١٨٥٧	٢٢٠٩	١٨٦٩	٢٨٨١
١٨٤٦	١٥٤٦	١٨٥٨	٢٠٤٣	١٨٧٠	٢٨٨٦
١٨٤٧	١٠٦٤	١٨٥٩	٢٠٦٠	١٨٧١	٢٩٢١
١٨٤٨	١٧٤٥	١٨٦٠	٢٠٤٢	١٨٧٢	٢٩٥٣

وبالإطلاع على هذا الجدول ، يعلم أن المراكب الواردة على تلك المينا آخذة دائماً فى الزيادة ، من إبتداء سنة ١٨٣٧ ميلادية إلى وقتنا هذا ، حتى أنه فى سنة ١٨٦٢ ميلادية بلغ زيادة عن ذلك التاريخ مرتين وزيادة .

وفى سنة ١٨٧٢ بلغ قدر ما كان فى سنة ١٨٦٢ مرة وثمناً ، فهذا شاهد واضح على أنه لم يحصل من فتح القنال ما يشوّش عليها فى سيرها المعتاد ، إذ فى السنة التى فتح فيها القنال ، وهى سنة ١٨٦٩ ميلادية ، بلغ عدد السفن الواردة على مينا إسكندرية ٢٨٨١ ، ثم أخذ فى الزيادة حتى بلغ سنة ١٨٧٢ ميلادية ٢٩٥٣ ، يعنى أن الزيادة فى ظرف ثلاث سنين اثنان

وسبعون سفينة ، والمأمول أنه متى تمت الأعمال الجارية فى المينا المذكورة ، يزيد الوارد عليها كثيراً ، وتلك النتيجة حاصلة أيضاً فى السفن / الخارجة من تلك المينا إلى مين الدول الأخرى . ٨٠

والزيادة حاصلة من سنة إلى سنة ففى سنة ١٨٧٠ ميلادية بلغ عدد الخارج منها ٢٨٤٥ ، وفى سنة ١٨٧١ ميلادية بلغ ٢٨٧٢ ، وإن نظرت إلى حركة الواردين على هذا الثغر من جميع الأقطار ، كما هو مبين فى الجدول الآتى ، يتحقق عندك ذلك بدون شبهة .

مطلب جدول الواردين من الأغراب

جدول الواردين على ثغر الإسكندرية من الأغراب وغيرهم من سنة ١٨٣٧ إلى سنة ١٨٧٢ .

سنة ميلادية	عدد السياحين	سنة ميلادية	عدد السياحين	سنة ميلادية	عدد السياحين
١٨٣٧	١٠١٧٦	١٨٥٠	٧٥٧٤	١٨٦٢	٣٢٧٢٢
١٨٣٨	١٤٤٣٨	١٨٥١	١٧٦٠٣	١٨٦٣	٤٣٣٣٣
١٨٣٩	١٥٠٦٦	١٨٥٢	١٨٣٠٣	١٨٦٤	٥٦٢١٢
١٨٤٠	١٥٠٦٥	١٨٥٣	١٩١٣٨	١٨٦٥	٧٤٩٩٠
١٨٤١	١٠٨٥٧	١٨٥٤	٢٢١٧٢	١٨٦٦	٥٠٣١٧
١٨٤٢	١٨٧٠٠	١٨٥٥	٢٦٦٨٠	١٨٦٧	٤٥٩٥٠
١٨٤٣	١٣٠٩٧	١٨٥٦	٣٣٤٢٩	١٨٦٨	٤٣٥٣٨
١٨٤٤	١٣٠٩٧	١٨٥٧	٣٦٦٨٥	١٨٦٩	٧٧٧٧٦
١٨٤٥	١٤٠١٥	١٨٥٨	٣٥٤٨٧	١٨٧٠	٦٤٣٢٨
١٨٤٦	١٨٩١٣	١٨٥٩	٢٩٠١٥	١٨٧١	٥١٤٨٢
١٨٤٧	١٥٦٥٣	١٨٦٠	٢٨٩٢٤	١٨٧٢	٦٧٧٧٢
١٨٤٩	١٧٤٣٥	١٨٦١	٢٨٦٦٣	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠

وبالتأمّل فى هذا الجدول ، يعلم أن عدد الواردين بالثغر على إختلاف مقاصدهم بلغ فى سنة ١٨٧٢ ميلادية قدر الواردين عليه فى سنة ١٨٣٧ ست مرات ، وإذا أخذت متوسط الواردين على الثغر من إبتداء إستقرار الخديوى إسماعيل على التخت وهو ٥٩١٩٦ ، وقابلته بعدد الواردين فى السنة السابقة على توليته وهو ٣٢٧٢٢ ، تجد الزيادة السنوية المتوسطة ٢٦٤٧٤ ، وهى لا تنقص عن الأصل إلا بقدر خمسة تقريباً .

ويظهر من ذلك أن عدد الواردين بلغ عدد الأصل مرتين إلا خمساً ، وربما فاقها فى السنين التى لم يعمل فيها الإحصاء ، وهما سنتان ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٤ .

وفى تلك النتائج دلالة على متانة الإرتباطات والعلائق الحاصلة بين الديار المصرية والأقطار الأجنبية ، ومما يؤكد ذلك حركة التجارة نفسها ، فقد بلغ مشحون السفن الواردة على الثغر فى سنة ١٨٧١ (١٢٧٥٦١٩) طونولاتو ، وبلغ مقدار الوارد من البضائع فى جميع المين ٤٢٥٥٦ طونولاتو وبيانه :

	سفينـة	طونولاتـو
مينا أبى قير............	٥٣٨	٤١٢
فى السويس............	٥٥٤	٣٢١
فى رشيد..............	٩٠٩	٩٠٥
فى دمياط.............	٧٧٧	٤٠٩١٨
	٢٧٧٨	٤٢٥٥٦

والخارج من القطر من هذه المين إلى بلاد السواحل الشامية والرومية وغيرها ، يقرب من ذلك ، وهذا خلاف الوارد على مينا السويس من جهة السواحل السودانية ، والحبشية ، والحجازية ، وغيرها .

مطلب

وقيمة ما خرج من البضائع المصرية المتنوّعة من مينا إسكندرية فى سنة ١٨٧٠ ميلادية بالقروش الرومية ٦٩٩,٥٣١,٧٩٩ ، وهو عبارة عن / عشرة ملايين من الجنيهات المصرية ، وقيمة الوارد عليها بالقروش المصرية فى السنة المذكورة ٣٦٦٠٥٧٦٥٠ ، وقيمة الوارد من البلاد الأجنبية على جميع مين القطر المصرى بالقروش ٤٠٠١٥٦٩٣ ، وبيان ذلك :

٨١

قيمة الوارد من مين البلاد الأجنبية للقطر المصرى		قيمة الخارج من المين المذكورة هوكالمبين فى هذا	
الوارد على مينا إسكندرية	٣٦٦٠٧٥٦٥٠	قيمة ما خرج من إسكندرية	٨٦١٩٣٢٦٠٠
الوارد على مينا دمياط	٣٤٥٦٦٢	قيمة ما خرج من دمياط	٥٩١٣٤٨٠٠
الوارد على بورت سعيد	١٠٩٥٧٧٦٢	قيمة ما خرج من بورت سعيد	١١١٢٢٢٠٠
الوارد على مينا السويس	٢٠١٤١٩٤١	قيمة ما خرج من السويس	٨٠٥٦٧٧٦٦
الوارد على مينا العريش	٢٣٥٥٢١٢	قيمة ما خرج من العريش	٥٣٦٤٤٧٠٠
الوارد على مينا القصير	٨٩٤٦٦	قيمة ما خرج من القصير	٣٤٣٤١٧٠٠
الوارد على مينا سواكن	١٠٠٠٠٠	قيمة ما خرج من سواكن	٤٥٧٨٨٩٣٣
الوارد على مينا مصوع	١٠٠٠٠٠	قيمة ما خرج من مصوع	٢٢٨٩٤٥٣٣
	٤٠٠١٦٥٦٩٣		

ومجموع قيم المبادلات الداخلة والخارجة فى نفس هذه السنة . التى انتفعت منها الجمارك المصرية ، وتداولتها أيدى التجار من أهليين وغيرهم قدره : ١٥١٩٥٥٢٩٢٥ . وهو تقريباً عبارة عن خمسة عشر مليوناً من الجنيهات المصرية .

مطلب

ولم تقف التجارة عند هذا الحد ، بل هى دائماً فى الزيادة ، حتى بلغ مقدار قيمة الوارد من البضائع على مينا الإسكندرية فى سنة ١٨٧٢ ميلادية ٥٩٠٢٩١٤٨٩ ، وبلغ قيمة الخارج من الثغر المذكور إلى الجهات فى تلك السنة ١٣٣٠٤٨٣٨٠٩ ، ومجموع الحاصلين ١٩٢٠٧٧٥٢٩٨ قروش مصرية ، وهو عبارة عن تسعة عشر مليوناً من الجنية المصرى وربع مليون ، بمعنى أنه فى ظرف ستين زادت قيمة ما ورد وما خرج من الثغر المذكور أربعة ملايين وربع مليون جنيهات .

ومما زاد أنواع المتاجر فى هذا الوقت نجاحاً ، إشتراك جميع الملل فى هذا الأمر ، كل أمة بحسب حالها وسعة إقتدارها ، فإنا نرى المبلغ السابق بيانه موزعاً بهذه الكيفية :

	قيمة الوارد منها	قيمة الصادر إليها		قيمة الوارد منها	قيمة الصادر إليها
البلاد الإنكليزية	٢٦٨٧٧٣٣١٩	٩٩٩٤٤٣٦٥١	البلاد النمساوية	٦٠٥٧٦٤٢١	٥٩٨٦٠٤٦٢
البلاد الفرنساوية	٦٢٩١٥١٩٩	١٢٥٤٢٢١٢٣	البلاد التليانية	٤٥٥٥٠٦٥٧	٨٣٢٣٠٤٤٣
الدولة اليونانية	١٢٧٤٣٢٢١	١١٤٥٥٢٠	بلاد البلجيكا	٧٥٠٩٩٢	٦١٣٣٦٨
بلاد الاتيازونى من الأمريكا	٧١٦٨٠٠٠	٢٩٠٧٥٧٥	بلاد الروسيا	١٤٧١٨٦٠	٢٦٣٢٤٣١٠
بلاد السويد	٢٠١٣٦٠٠	٠٠٠٠٠٠٠٠٠	بلاد الألمانيا	٥٣٥٦٠٠	٠٠٠٠٠٠٠٠
بلاد الترك بأوروبا وآسيا الصغرى	٦٦٦٠٨٢٩٩	١٦٧٤٨٧٥٩	بلاد الشام	٣٣٦٤٠٦٤٨	١٣٢١٣٣٧٥
بلاد المغرب	٢٧٦٨٧٦٥٧	١٥٧٤٢٢٣			

وبالتأمل فى هذا الجدول يعلم أن قيمة الوارد والصادر من البلاد الإنكليزية إلى الديار المصرية ، يبلغ ضعف قيمة جميع البضائع الصادرة والواردة من كل دولة على حدتها ، وأن كل دولة على نحو النصف منها .

وبمقارنة أحوال التجارة فى هذا الزمن بأحوالها فى المدد السابقة ، تجد بينهما بونا بعيداً ، فإن قيمة البضائع الواردة على الثغر والصادرة منه فى سنة ١٨٢٣ ميلادية ، أعنى قبل الآن بخمسين سنة ، كان قريباً من مليونين وثلث مليون جنيه مصرى ، وهو قريب من تسع قيمة بضائع سنة ١٨٧٢ ، وأن نسبته إلى قيم الوارد والصادر فى سنة ١٨٦٢ ميلادية ، تجده فى هذه السنة قريبا من اثنى عشر مليونا وثلث مليون جنيه مصرى ، وهو أقل من قيمة التجارة فى سنة ١٨٧٢ بأكثر من نصفه / فقد ظهر لك أن التجارة والأرباح لم تزل آخذة فى الزيادة من سنة إلى سنة ، من إبتداء جلوس المرحوم محمد على باشا على التخت ، واستمرت على ذلك فى زمن من خلفوه على هذه الديار ، وأن بلوغها الدرجة العظمى كان بالهمم الخديوية .

٨٢

*** *** ***

مطلب فى بيان عدد السفن الواردة على مينا السويس من سنة ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٧٢

وكما أن كمية الوارد والصادر آخذة فى الزيادة فى ذلك الثغر ، كذلك فى المين الأخر ففى مينا السويس مثلا حركة السفن الواردة عليه كهذا المبين فى الجدول :

سنة ميلادية	عدد السفن	سنة ميلادية	عدد السفن
١٨٤٩	١١٩	١٨٦١	٤٠١
١٨٥٠	١٤٦	١٨٦٢	٣٧٧
١٨٥١	٢٠٥	١٨٦٣	٣٤٧
١٨٥٢	٢٠٤	١٨٦٤	٣٦٣
١٨٥٣	٢٢٥	١٨٦٥	٤٢٥
١٨٥٤	٢٦٩	١٨٦٦	٣٥٣
١٨٥٥	٢٩٨	١٨٦٧	٣٧٠
١٨٥٦	٣٠٧	١٨٦٨	٣٣٥
١٨٥٧	٣٧٤	١٨٦٩	٣٥٨
١٨٥٨	٣٧٢	١٨٧٠	٣٢٦
١٨٥٩	٣٧١	١٨٧١	٣٧٦
١٨٦٠	٣٦٨	١٨٧٢	٨٥٨

وبعد مضى أربع وعشرين سنة ، من ابتداء سنة ١٨٤٩ ميلادية ، بلغ عدد السفن الواردة على ذلك الثغر فى سنة ١٨٧٢ ميلادية قدر ماكان يرد قبل ذلك ثمان مرات .

وكما أن القنال لم يعطل حركة التجارة فى هذا الثغر ، لم يعطلها فى غيره من الثغور .

وبسبب المساعى المثمرة من الحكومة الخديوية فى الأقطار المصرية والسودانية كثر سير التجارة فى البحر الأحمر ، وعما قليل تقارن تجارة البحر الأبيض ، وتعود إلى هذا الطريق شهرته القديمة التى أضاعتها حوادث الزمان ، لأن السواحل السودانية بلغت بهمته السنية ما لم تبلغه فى زمن قبله ، فإنك ترى السفن الحربية والتجارية داخلة وخارجة من مين البحر الأحمر .

مطلب فى بيان عدد السفن الواردة على مينا سواكن والقصير ومصوع

وقد بلغ عدد السفن المترددة على هذه المين فى سنة ١٨٧٢ ميلادية ١٦٤٠ سفينة ، ما بين بخارية وشراعية ، وبلغ ماكان بها من البضائع فى ظرف هذه السنة ٨٥٥٨٠ طونولاتو وبيان ذلك :

	سفينة	حمولة
مينا سواكن	٣٥٢	٨١٠٣
مينا القصير	٨٧٢	٤١٢٢٤
مينا مصوع	٤١٦	٣٦٢٥٣

وأما المراكب الصغيرة ذات الشراع ، فقد دخل منها إلى مينا مصوع فى هذه السنة ١٤٠٢ ، حاملة ١٤٢ طونولاتو ، وبلغ عدد الركاب فى تلك السنة قريبا من ستة عشر ألف نفس غير العساكر ، وينسب إلى المين الأخر ما يقرب من ذلك .

ولا يخفى ما فى ذلك من الدلالة على اتصال منافع جهات البحر الأحمر بمنافع جهات البحر الأبيض ، وغرس حبة التمدن فى سواحل أرض السودان كغرسها فى أرض مصر ، حتى ترعرع زرعها وأثمر ، وذاق طعم ثمراتها كثير من الأهل والأغراب ، فعرفوا مزية هذا الغرس وألفوه ، وأوسعوا فى زرعه ، وباستمداده من طرف الحضرة الخديوية لابد أن يسرى / إلى البلاد السودانية ، ويؤثر فى أرضها وطباع أهلها ، وينقلهم من الخشونة والتوحش إلى التنعم والتأنس ، حتى يصبحوا بما نالوا من الثروة مقرين لحضرته بالشكر الجميل ، داعين له ولأنجاله بتخليد دولتهم وتوفيقهم إلى أقوم سبيل .

٨٣

مطلب الكلام على البوسطة الخديوية وعلى ما نشأ عنها من المنافع

ومن الأعمال السديدة التى تقدمت بها التجارة على سالف سيرها : إحداث البوسطة الخديوية ، فإنه حصل بوجودها فى البحرين استمرار ورود ماكان يرد على القطر من بلاد كثيرة ، من جهات السواحل الرومية والغربية والسودانية ، ولو بقى الأمر على ماكان عليه قبل لانقطع ذلك أو قل .

وقد دلت جداول الإحصاءات على أن هذه المصلحة نقلت فى سنة ١٨٧٢ ميلادية من نوع المكاتيب فقط ٢٠٧٥٣١٤ ، من ضمنها ٧٧٣٩٦ مكتوبا من البلاد الأجنبية وإليها من الديار المصرية ، ومن صنف النقود والحوالات مابلغ قدره بالقروش المصرية الميرية ١٦٣٣٣٥٨٤٢٠٩ .

ولولا البوسطة لاختل نظام بعض الثغور المصرية ، خصوصا ثغر الإسكندرية ، فهى فكرة جليلة من الحضرة الخديوية ترتب عليها زيادة عمارية سائر الثغور المصرية ، لاسيا وقد

جعلت بورت سعيد معتبرا اعتبار الثغور الأصلية ، لما حصل منه من الفوائد الجليلة العائدة على ما جاوره من البلدان ، لأن هذا الثغر بالنسبة لما جاوره ، كثغر الإسكندرية بالنسبة لسائر الجهات ، إذ يرد عليه من مديريات الشرقية والغربية ، والدقهلية من متجرات أهل تلك الجهات ، كما يرد إلى الإسكندرية من مديريات البحيرة والغربية ، وإن كان باعتبار حالته الراهنة لا يبلغ معشار ما عليه مدينة الإسكندرية من الرفاهية ولكن لكونه مرسى السفن الواردة من الجهات الشرقية والغربية ، استدعى ذلك أن يكون به حركة تجارية ، ومعلوم أن تغذية هذه الحركة إنما تكون فى الغالب من أهل الجهات المجاورة له ، ولا يخفى ما فى هذا من الفوائد العائدة عليهم وعلى غيرهم .

وقد أحصى عدد السفن المارة بالقنال فى سنة ١٨٦٠ ميلادية فكان ١٠٥ ، وعدد السياحين المارين به فكان ٤٠١ ، ثم أخذ يزيد حتى بلغ الوارد به من السفن فى سنة ١٨٧٢ ميلادية ١٤٤٣ ، ومن السياحين ٦٢٠٦٢ ، والمتوسط فى ظرف الثلاث عشرة سنة من السياحين ١٧٦٤٦ ، ولا بد أن ذلك يزيد على طول الزمن ، وكذلك الحال فى المسافرين الذين نزلوا بهذا الثغر ثم ارتحلوا منه إلى الديار المصرية ، لأن عددهم فى سنة ١٨٧٠ ميلادية كان ٢٨٢٩ ، وفى سنة ١٨٧٢ كان ٢١٣٧٦ ، ولا ينكر أحد أن نزولهم بهذا الثغر وقيامهم منه إلى أى جهة من القطر يستوجب من طرفهم مصاريف ، بحسب أحوالهم وثروتهم واختلاف مقاصدهم ، فتقع فى أيدى الأهالى ، وتزيد بذلك حركة التجارة لأنها تابعة للأخذ والإعطاء قلة وكثرة .

*** *** ***

مطلب فى بيان عدد السفن البخارية للبوسطة ، وفى بيان قوتها وما تحرقه فى السنة الواحدة من الفحم الحجرى

وتشمل البوسطة الخديوية على ستة وعشرين سفينة بخارية ، تحرق فى السنة الواحدة ٦٥٥٠٠ طونولاتو من فحم الحجر ، منها فى البحر الرومى ٥١٢٠٠ طنا ، وفى البحر الأحمر ١٤٣٠٠ طنا .

وبيان تلك السفن ومقدار قوتها هو ما فى هذا الجدول :

عدد	أسماء السفن	قوتها حصان بخارى	عدد	أسماء السفن	قوتها حصان بخارى
١	الرحمانية	٣٠٠	١	مشير	١٤٠
١	تاكا	٣٠٠	١	المنصورة	١٤٠
١	الفيوم	٣٠٠	١	المحلة	١٢٠
١	البحيرة	٣٥٠	١	السجلية	١٢٠
١	الشرقية	٣٥٠	١	دمنهور	١٢٠
١	الدقهلية	٣٥٠	١	الزقازيق	١٢٠
١	طنطا	٣٥٠	١	الحجاز	١٥٠
١	شبين	١٤٠	١	حديدة	١٣٠
١	دسوق	٢٠٠	١	الينبع	٩٧
١	كوفين	٣٠٠	١	سواكن	٨٥
١	سمنود	٢٥٠	١	مصوع	٨٥
١	المنيا	١٧٠	١	القصير	٩٧
١	الجعفرية	١٦٠			

مطلب

وهذا خلاف الدونـنمة المصرية المشتملة على أربع عشرة سفينة بخارية ، قوة آلاتها ثلاثة آلاف وتسعمائة وثمانون حصانا بخاريا ، تستهلك من الفحم الحجرى كل سنة عشرة آلاف طونولاتو ، منها فى البحر الرومى ستة آلاف طن ، وفى البحر الأحمر أربعة آلاف ، ومقدار حمولتها كلها ١٦٤٧٦ طن .

وبيان السفن المذكورة هكذا :

عدد	أسماء السفن	قوتها حصان	عدد	أسماء السفن	قوتها حصان
١	المحروسة ركوبة الخديوى	٨٠٠	١	دنقله شالوب	٨٠
١	مصر ركوبة المعية الخديوية	٦٠٠	١	الطور شالوب	١٨٠
١	الغربية ركوبة الفامليا الخديوية	٥٠٠	١	سناد شالوب	١٢٠
١	محمد على فرقطين	٤٥٠	١	الخرطوم شالوب	٢٠٠
١	سرجهار	٤٥٠	١	سيوط وثلاث مراكب صغيرة	٣٠٠
١	لطيف كرويط	٣٠٠			

وبإضافة جميع السفن التجارية المترددة على المين بما فيها من ملك الأهالى ، خلاف وابورات النيل ، إلى ما سبق ، يتحصل على ٥٥٠ سفينة ، كافية الشحن ٥٣٧١١ من الطونولاتو ، وهو عبارة عن ١١٨١٦٤٢ قنطاراً مصرياً ، فإن أضيف إلى ذلك مقدار ما تحمله مراكب الشراع الموجودة فى البحرين الرومى والغربى ، يكون قدر ما يحمل على المياه المصرية هو :

سفن	قنطار	
٥٥	١١٨١٦٤٢	بالسفن البخارية
٥٥٥	٦٧٩٩٩٨	بمراكب الشراع فى الأحمر والأبيض
٩٠٦٣	٣٥١٨٥٨	فى مراكب النيل

وعدد السفن البخارية الموجودة على بحر النيل ٥٨ سفينة ، منها ٢٨ خاصة بمصالح الدائرة السنية ، والباقى مستعمل فى المصالح العمومية .

ومقدار قوة تلك السفن ألف وأربعمائة حصان ، ونحرق فى السنة الواحدة ٢٦٢٥٠٥ طونولاتو من الفحم الحجرى .

وجميع هذه القوى حادثة بالهمم الخديوية ، وهى من أعظم أسباب الثروة ، ومن أكبر أدلة التقدم لهذه الأقطار ، إذ ما حصل بسببها من الفوائد داخلاً وخارجاً لا ينكر ، وبها يتيسر نقل الأثقال الكبيرة فى أقرب وقت بأقل كلفة ، مع إختراقها جميع البحار فى سائر الفصول ، آمنة من عواصف الرياح وتلاطم الأمواج ، فقد عم الأمن جميع الطرق براً وبحراً ، وأخذت تلك القوى فى النمو شيئاً فشيئاً من غير فتور إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن وهكذا لا تزال ترقى فى درج التقدم .

وبعد أن كانت الديار المصرية أسيرة السفن الأجنبية ، لم تقتصر على التخلص من هذا الأسر ، بل اجتهدت حتى زاحمت جميع الدول فى مزاياها ، وجعلت لها خطوطاً تجارية تسير فيها صادرة وواردة ، وتمر فى البحار المجاورة لها على الجهات الواقعة عليها ، وتشترك مع غيرها فى وجوه الانتفاع إلى أن صار لها خطوط تمر ببلاد اليونان ، وبلاد آسيا فى البحر الرومى ، وتمر فى البحر الأحمر لجهة مصوع ، وسواكن ، وجدة وبلاد العرب ، وهذا غير ما لها فى بحر النيل ، وخط اليونان يمر ذهاباً وإياباً بجزيرة سيرا ، وجزيرة شيو ، ومدينة أزمير ، وميلتين ، وتندوى ، والدردنيل ، وحالبلولى والقسطنطينية .

أما الشركات البحرية البخارية المعدة لركوب السياحين ونقل البضائع ، غير البوسطة الخديوية ، فهى كثيرة وطريقها الديار المصرية ، وأشهرها الشركات الآتى بيانها : ٨٥

الشركة المعروفة بالمساجرى انبريال

وهى فرنساوية ، ومن قوانينها قيام وابور من الإسكندرية فى كل يوم سبت بعد كل أسبوعين ، وحضور وابور آخر من مرسيليا فى يوم الأحد التالى لقيام الوابور الأول ، وعادة وابوراتها المرور بمدينة بورت سعيد ، ويافا ، وبيروت ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وإسكندرية ، ومرسيليا ، ورودس ، وأزمير ، والدردنيل ، وجيبلولى ، والقسطنطينية .

ولهذه الشركة وابورات تتوجه إلى الصين الغربى ، المعروف بالكوشانشين ، وفى كل يوم سبت تقوم سفينة من مدينة بورت سعيد إلى هذه الجهات ، وتحضر سفينة أخرى من هذه النواحى .

الشركة الشرقية الإنكليزية

هذه الشركة من أعظم الشركات الإنكليزية ، لكثرة وابوراتها وتعدد وكلائها فى جهات كثيرة مثل أوربا ، وآسيا ، وأفريقيا ، ولها عدة خطوط تمر فى البحر الرومى إلى مصر ، وديوان وكيلها فى الديار المصرية بالإسكندرية ، فى ميدان محمد على .

وقبل حدوث القنال كانت جميع البضائع المنقولة بمراكبها ، سواء كانت من البلاد الأوروباوية أو المشرقية أو الهندية ، تنقل من البحر إلى السكة الحديد ، فكان يتحصل من ذلك إيراد عظيم لتلك المصلحة .

ومن بعد إتمام القنال ، صار أغلب مراكبها يمر بأحماله فيه ، ويرسو على مينا السويس والإسكندرية لنقل بضائعه على السكة الحديد .

والخط الأول من خطوطها المارة بمصر : أوله مدينة (سوتامتون) وآخره اسكندرية ، ويمر بجبل الطارق وجزيرة مالطة ، ومسافة الطريق ٢٩٥١ ميلا إنكليزيا ، كل ميل ألف وستمائة متر وبعض أمتار ، ومدة السفر تستغرق ٢٩٥ ساعة ، والقيام من(سوتامتون)كل يوم سبت ، والحضور إلى إسكندرية كل يوم جمعة والقيام منها كل يوم أحد .

والخط الثانى من خطوطها إلى مصر : أوله مدينة (نرندنرى) من إيطاليا وآخره الإسكندرية ، والمسافة ٨٢٥ ميلا إنكليزيا ، ومدة السفر ٨٢ ساعة ، وقيام الوابور من (نرندنرى) كل يوم ثلاثاء وحضوره إلى إسكندرية كل يوم جمعة ، والقيام منها كل يوم أحد أو ثلاثاء .

والخط الثالث أوله : بُنْبِى وآخره مدينة السويس ، ويمر بناحية عدن من سواحل العرب ، والمسافة ٢٩٧٢ ميلا إنكليزيا ، ومدة السفر ٣١٣ ساعة .

والثلاثة خطوط المذكورة تشتغل مرة واحدة فى كل أسبوع .

شركة لويد النمساوية

هذه الشركة كانت تنقل بضائعها إلى السكة الحديد المصرية ، قبل إتمام القنال ، وبعد إتمامه انقطع استعمالها لها ، ولم تكن كثيرة السفن ، وإيرادها كان أقل بكثير من إيراد الشركة المشرفة ، على السكة الحديد ، ومع ذلك كانت هى الثانية فى الإيراد ، ووكيل إدارتها محله فى ميدان محمد على ، ومراكبها تسافر من (ترسينة) إلى الإسكندرية فى كل يوم جمعة بعد نصف الليل ، وتحضر بجزيرة (كورفو) بعد يومين ، وإلى الإسكندرية بعد خمسة أيام ،

وتقوم وابوراتها من الإسكندرية فى كل يوم إثنين وقت الظهر ، ولها سفن تمر بين الإسكندرية والقسطنطينية ، وتبتدىء من مدينة أزمير ، وتمر بميلتين ، وتندوس ، والدردنيل ، وجيبلولى ، والقسطنطينية ، وقيامها من الإسكندرية كل يوم ثلاثاء ، ولها خط لجهة الشام يمر بمدينة بورت سعيد ، ويافا ، وبيروت ، وجزيرة قبرص ، وجزيرة رودوس ، وجزيرة شيو ، وأزمير ، وميلتين ، وتندوس ، والدردنيل ، وجيبلولى ، والقسطنطينية ، والقيام من إسكندرية يوم الجمعة بعد كل أسبوعين .

الشركة المسكوبية

هذه الشركة ، طريقها ما بين مدينة أوديسا المسماة عندنا : خوخة بيكر ، من سواحل البحر الأسود ، ومدينة الإسكندرية ، ومحل وكيلها فى ميدان محمد على من الإسكندرية ، وتقوم من أوديسا مرتين فى كل شهر ، ووابوراتها القائمة من الإسكندرية تمر بمدينة بورت سعيد ، ويافا ، وبيروت ، وجزيرة رودس ، وجزيرة شيو ، وأزمير والقسطنطينية .

شركة روباتينو

أصحاب هذه الشركة من الجونيين ،ووابوراتهم طريقها ما بين مصر وبنبى ، والقيام فى خامس كل شهر وفى الخامس والعشرين منه ، وتمر فى طريقها ذهاباً وإياباً بمدينة (ليورفه) من إيطاليا ، ومدينة نابل ، ومدينة ميسين ، ومدينة الإسكندرية ، والقيام من إسكندرية عادة فى السابع والسابع عشر والسابع والعشرين من كل شهر ، ومدة السفر ثمانية أيام ، والقيام من مدينة جنوة إلى بنبى فى الرابع والعشرين من الشهر ، والوصول إلى بورت سعيد فى أول كل شهر .

شركة فرسيني

سفن هذه الشركة سائرة ما بين مدينة مرسيليا ومدينة إسكندرية ، ومحل وكيلها بالديار المصرية فى ميدان محمد على ، وتقوم وابوراتها من مرسيليا فى الخامس عشر وفى الثلاثين أو الواحد والثلاثين من كل شهر ، ومسافة الطريق ١٤١٠ أميال بحرية ، ومدة السفر ثمانية أيام ، ومن عاداتها المرور بمالطة والوقوف بها ، وقدر الأجرة بها فى الدرجة الأولى ٢٢٥ فرنكاً ، وفى الدرجة الثانية ١٦٠ فرنكاً ، وفى الدرجة الثالثة ٦٠ فرنكاً ، وأجرة الدرجة الأولى ذهاباً وإياباً معا ٤٠٠ فرنك ، والدرجة الثانية ٢٨٠ ، والثالثة ١٠٠ .

شركة جام موسى

سفن هذه الشركة جارية بين ليوربول ــ من جزائر الانكليز ــ وبين الإسكندرية ، وتمر بجبل / الطارق ، وجزيرة مالطة ، وسواحل الشام ، وقيامها فى كل أسبوع ، ومحل وكيلها بمدينة إسكندرية ، الوكالة الجديدة نمرة ١٥ .

٨٦

وهناك شركات أخرى لم نذكرها ، منها ما تمر سفنه بالسواحل الرومية ، ومنها ما تمر سفنه بها وبالسواحل الشامية ، ومَرْسى الجميع هو الإسكندرية .

سفن البوسطة الإنكليزية

البوسطة الإنكليزية ، تقوم وابوراتها من إسكندرية بعد وصول البوسطة الواردة من الهند بثمان عشرة ساعة ، أو أربع وعشرين ساعة ، على حسب الأحوال ، والقيام من (برندزى) يوم الثلاثاء ، فى الساعة الخامسة من النهار .

البوسطة الهندية

الواردة من الطين[1] ، ومن يابونيا[2] ، والأسترالى تسافر فى مراكب البوسطة المتوجهة إلى الأتبازونى ، والممالك المجتمعه الأمريقانية .

البوسطة النمساوية

محلها فى حارة شريف باشا من مدينة إسكندرية ، ولها قوانين ولوائح ، وهى مختصة بتوصيل المكاتبات والكتب والجرانيل ، والأشياء الثمينة .

البوسط اليونانية

محلها حارة المسلة .

البوسطة التليانية

محلها حارة محمد توفيق .

*** *** ***

(١) يقصد : الصين .

(٢) يقصد : اليابان .

الفصل الثالث

فيما عاد على الإسكندرية من فوائد السكة الحديد ، والإشارات التلغرافية

من المعلوم أن هذه الأعمال ، التى تقدم الكلام عليها ، وإن كانت فوائدها كثيرة منها :

بلوغ مدينة الإسكندرية الدرجة التى وصلت إليها ، لكن أعظم هذه الأعمال وأحق ما يصرف فيه نفائس الأموال ، هو السكة الحديد والإشارات التلغرافية ، لأن هذين الإختراعين من بين سائر الإختراعات البشرية ، قد رفعا عن الإنسان أنواعاً من المشاق وقرّبا له ما بَعُد من الآفاق ، حتى أمكنه فى أقرب زمن أن يتحصل على ما كان يحاوله فى آلاف من الناس ، وكثير من الوسائط فى زمن طويل ، وهيهات إن وصل إلى مقصده ، أو تحصل على مقصوده ، وقد تيسر بهمة الدولة المحمدية العلوية اشتمال الديار المصرية ، كغيرها من البقاع المتمدنة على هذين الاختراعين والانتفاع بهما ، غير أن كمال أعمالها ، وبلوغ ما يحصل منهما من الفوائد لم يتم إلا فى عهد الخديوى ، أفندينا اسماعيل باشا حفظه الله ، فإنه من حين جلوسه على تخت الحكومة المصرية ، وجه كل أفكاره إلى تنظيم السكك الحديد والتلغرافات المصرية ، وتحصيل لوازمها ، وتوسيع دائرة عملها ، وتوزيع فروعها فى جميع أرجاء قطره حتى عم نفعها ، وعما قليل بواسطتها تلتحق الأمم السودانية ـ التى لم تغيرها المؤون من السنين عن التبربر والتوحش ـ بالديار المصرية ، وتذوق لذة ثمرة التمدن والعمارية ، وتزول من بين سكانها دواعى النفرة وأسباب الفقر ، وتعمر أرضها الواسعة ونواحيها الشاسعة بأنواع المزارع ، وتكثر بها المدن والقرى ، ويسكنها الأغراب مع الأمن ، ويطوفون بقاعها ، ويختبرون خواصها ، ويستخرجون خباياها ، وتتصل البلاد المصرية بالسودانية ، فيكتسب كل منهما طبع الآخر ، وتتسع دائرة المنافع فى كلا القطرين .

وبالإستمرار على ذلك تحسن أحوال البلاد السودانية ، وتسرى رفاهيتهم وتمدنهم إلى من جاورهم من الأمم المتوحشة ، المنتشرة فى داخل أفريقة وفى سواحلها .

ومع تردد المصريين والأغراب من سائر الملل على بلادهم بأنفاس ومساعى الحضرة الخديوية ، تتخلص بقعة أفريقة من ربقة أسر الجهل والتوحش ، كما تخلصت بلاد أمريكا من توحشهم بدخول الأندلسيين والإفرنج ببلادهم ، وكما تخلصت جهات من الهند والسواحل الصينية والأوقيانوس بدخول الإنكليز بها .

وتكون هذه النتيجة وحدها كافية فى تخليد ذكر الحضرة الخديوية ، كافلة له بسبقه على من تقدمه فى هذه المزية ، فإنه أول من تفكر فى أحوال الأقطار السودانية ، وسمح لها بنصيب من المنافع الجمة التى تعم سائر الأقطار ، فعلى كل إنسان أن يدعو له بطول أيامه ، وتوفيقه لطريق الصواب فى أحكامه ، إذ من فوائد ذلك إمكان السياحة فى هذه القطعة من الدنيا ، والإطلاع على ما تشتمل عليه بأقل كلفة فى أقرب زمن ، بعد أن كان من يقصد ذلك ، مع عدم بلوغه لتمام مقصوده ، يستغرق زماناً طويلاً ، ويقاسى من الغوائل والعوارض ما يضر بصحته ، وربما اعتراه من المرض ما يؤدى إلى هلكته ـ إن سلم من الحيوانات المفترسة وسكان تلك الجهات ـ فكان المتصدى للوصول إلى هذه البقعة مخاطراً بنفسه ، غير خافٍ عليه ما هو أمامه من الأهوال ، وإنما يحمله على إقتحام تلك المشاق طمعه فى تحصيل أغراضه ، وقصده نفع النوع الإنسانى .

فالآن قد هانت بالهمم الخديوية مستصعبات أمور السياحة ، بما تمهد من وسائط الأمن كالحراسة والخفارة من قبل إتمام السكك الحديد ، وسهلت طرق السير فى جميع أرجاء الأقطار السودانية الممتدة إلى دائرة الإستواء طولاً ، ومن ساحل البحر الأحمر إلى بلاد دارفور عرضاً ، وبما صرف من طرف الحضرة الخديوية من الأموال ، وما بذله رجاله من الأعمال ، أخذت أحوال أهل تلك البقاع المتفرقة فى الإستقامة ، وقد سمع المتبربرون من أهل تلك الجهات بالشهرة الخديوية فخافوها ، كما سمع بها من سامتهم من متمدنى تلك البقاع فعظموها .

٨٧

وإنما خرجنا فى هذا / المقام عما نحن بصدده من الكلام على ما يتعلق بإسكندرية ، لأن عظم فوائد هذا الأمر حمل جواد الفكر على الجولان فى ميدانه . على أنه لا يخلو من المناسبة والإرتباط بذلك ، فإن مدينة إسكندرية كانت من قديم الزمان معتبرة بالنسبة للتجارات الجارية فى جميع بقاع الأرض ، كالروح بالنسبة للحيوان ، وهى الآن حائزة لهذا الاعتبار ، وثروتها وعزها ينتجان ثروة الأقطار المصرية وتقدمها ، فلا يبلغ القطر غاية ثروته إلا ببلوغ التجارة شأوها .

وفى الأزمان القديمة كانت طرق التجارة الواصلة إلى إسكندرية كثيرة ، فكانت طرق التجارة العربية بحر القلزم ، وطريق عيذاب ، وطريق القلزم أو السويس ، وكان النيل طريق التجارة السودانية ، والواحات طريق التجارة السودانية والمغربية ، وكانت التجارات الشامية ، مع الملحق بها من تجارات الأقاليم الأخر ، طريقها البحر الرومى وطريق الفرما ، وتجارة السواحل الأفرنجية وجزائر البحر طريقها البحر الرومى أيضاً .

وكان مرسى هذه التجارات مدينة الإسكندرية ، فتجتمع بها وتتفرق منها ، وهذا هو الذى أوجب ثروتها وكثرة أهلها .

فمتى وصلت الأقطار السودانية إلى درجة التمدن والأمن ، تعظم تجارتها وتتسع ، ويعود على الأقطار المصرية منها ما لا حصر له من الفوائد ، لأن أهل تلك الجهات متى تحلوا بالمزايا الإنسانية ، وتخلوا عن جلاليب الحالة الخشنة الوحشية ، وذاقوا لذة ثمرات المعارف والعلوم ، وانتشرت فيما بينهم موجبات تقدم البضائع والحرف ، يكسبهم ذلك كله معرفة ثمرة الإنضمام والإتحاد مع الغير ، للتعاون فى الأعمال ، واكتساب الفوائد الظاهرة والباطنة ، فيحرصون على إجتناء ثمرة الألفة والتقارب ، وتدب فيهم الطباع الحسنة والعوائد المألوفة ، ويسعون فيما به تنظيم أحوالهم وتحسين هيآتهم ، فحينئذ يكبون على خدمة أرضهم ، فيكثر محصولها ويتنوع ، وبما يكتسبونه من المعارف ربما يستكشفون المستور بها من المعادن :

كالذهب والفضة والنحاس ، ويستعملون ذلك فى حوائجهم وضرورياتهم ويتجرون فيما يزيد عن لوازمهم . ومتى وصلوا إلى هذه الدرجة بلغت التجارة بين أهل تلك البلاد وبلاد مصر درجة لم يسمع بها من قبل ، ويعود إلى إسكندرية فخرها التليد ، وتكون مركزاً لجميع تجارات بقاع الأرض ، كما مر .

وقد علمت أن كثيراً من تلك التجارات طريقة الديار المصرية ، فتمر بها التجارة السودانية طولاً ، والتجارة الهندية والمشرقية والأوروباوية عرضاً ، وبمرورها تنال منها المدن والبنادر والقرى حظوظا وفوائد ، تكسبهم زيادة الرفاهية وحسن الحال .

فإذا تأملت ما تلوناه عليك ، تقف على حقيقة محاسن المغارس الخديوية ، وما ينشأ عنها للقطر فى العاجل والآجل ، فإن مقصده تعميم المنافع من غير نظر لزمن معين ، فلذا نتج من أفكاره الجليلة السامية ، من ابتداء جلوسه على التخت إلى سنة ١٢٩٢ هجرية ، أعنى فى ظرف ١٣ سنة ، إشتمال القطر على سكك حديد توزعت فى نواحيه وامتدت فى جهاته بطول ألف وثلثمائة وخمسة وعشرين ميلاً إنكليزياً ، وهذا غير الخطوط المستعملة فى نقل محصولات الزراعة .

وقد كان الموجود من السكة الحديد ، إلى آخر زمن المرحوم سعيد باشا ٢٤٥ ميلاً إنكليزياً ، وكان جميعه فى الوجه البحرى ، فيكون والذى زاده الخديوى فى ظرف هذه المدة اليسيرة هو ١٠٨٥ ميلا ، أعنى أنه زاد فى كل سنة فى السكك الحديد ٨٣ ميلاً إنكليزياً تقريبا .

مطلب فى بيان فروع السكة الحديد

وبيان فروع السكة الحديد كما ترى :

	ميـــل
السكة الطوالى من إسكندرية إلى القاهرة خطان	١٣١
من بنها إلى الزقازيق خطان	٢٤
من قليوب إلى المنصورة	٨٨,٧٥
من الزقازيق إلى أبى حماد خطان وإلى السويس خط واحد	١٠٣,٥٠
من طنطا إلى المنصورة بالمرور من سمنود	٣٣
من طنطا إلى شبين الكوم	١٨,٧٥
من ميتبره إلى بنها	٨
فرع القناطر الخيرية من قليوب	٧,٥٠
فرع العباسية والقبة	٣
من طلخا إلى شربين ودمياط	٢٥
من القاهرة إلى المنية	١٥١
من الجيزة إلى إيتاى البارود	٨٥
من المنية إلى الروضة	٢٥
من الروضة إلى أسيوط	٥٣
فرع الفيوم من الواسطة	٢٥
فرع أبى الوقف	٨
فرع بنى مزار	٩
فرع أبواكسه	١٦

٨٨ /والهمم كانت متوجهة إلى تركيب خط السودان ، وقد حصل بالفعل تركيب بعضه ، وتعين من يلزم من المهندسين والعمال بمعية سعادة شاهين باشا لمباشرة عمل الخط الواصل إلى شندى ، ولكن صار الإعراض عن ذلك الآن ، والرأى الذى كان صار التصميم عليه بمعرفة المهندس الإنكليزى (فلولر) أن التجارة تسير على النيل فى المسافات السهلة الخالية عن الموانع ، وتسير على السكك الحديد فيما عدا ذلك ، وحيث أن أصعب طريق السودان هو خط العطمور لطوله ، وخلوه عن الماء ، وشدة حره ، جعل فى هذا الطريق شريط يبتدىء من وادى حلفه ويمشى على الشاطىء الأيسر من النيل فى ناحية مطامه ، فى مواجهة ناحية شندى الواقعة على الشاطىء الأيمن ، وطول هذا الخط ٨٨٩ كيلو متر.

والخط المذكور يصير تكميله ، فيما بعد ، من جهة بحرى بخطٍ يوصله إلى ناحية أسوان ، ومن الجهة الشرقية القبلية بخط يوصله إلى ناحية مصوع ، وفى طريقه يمر بناحية كسله . والمسافة التى بين وادى حلفه ومطامهُ جعلت أربعة أقسام .

صمم فى القسم الأول على عمل ست محطات :

الأولى	:	وادى حلفة نفسها تكون رأس الخط	
الثانية	:	فى ناحية ساروس على بعد	٥٢ كيلومتر من وادى حلفة
الثالثة	:	انسيجول على بعد	١٠٢ كيلومتر
الرابعة	:	عكاشة على بعد	١٤٧ كيلو متر
الخامسة	:	عمارة على بعد	٢٠٣ كيلو متر
السادسة	:	كوهى على بعد	٢٥٧ كيلو متر

والقسم الثانى : يشتمل على تعدية النيل عند ناحية كوهى .

والقسم الثالث : من كوهى إلى ناحية أبى عاقول ، وطوله ٣٤٩ كيلومتر ، وفيه عشر محطات :

الأولى	:	فى كوهى بالشاطىء الأيسر على بعد	٢٥٨ كيلو متر
والثانية	:	مقر بندر على بعد	٣١٠ كيلو متر
والثالثة	:	حلك على بعد	٣٥٢ كيلو متر
والرابعة	:	عرضه أو دنقله الجديدة على بعد	٣٩٦ كيلو متر
والخامسة	:	لميتى على بعد	٤٣٢ كيلو متر
والسادسة	:	خاندك على بعد.	٤٦٢ كيلو متر
والسابعة	:	دنقلة القديمة على بعد	٥٠٨ كيلو متر
والثامنة	:	ضبة على بعد	٥٤٢ كيلو متر
والتاسعة	:	أبو دهين على بعد	٥٩٦ كيلو متر
والعاشرة	:	أبو عاقول على بعد	٦٠٦ كيلو متر

والقسم الرابع : من أبى عاقول إلى شندى ، وطوله ٢٨٣ كيلومتر ، ويمر بصحراء بهندى ، وينتهى إلى محطة مطامه على بعد ٨٨٩ كيلو متر .

وتقف الوابورات فى الطريق خمس مرات لأخذ المياه :

الأولى : فى كوفوكا كار .
والثانية : فى الهويجات .
والثالثة : فى أبى حلفة .
والرابعة : فى جبل النوس وأبى كلا .

وفى التصميم المذكور جعل عرض الشريط ١.٢٨ متر ، وثقل القضبان ٢٤.٨ كيلو جرام فى كل متر ، والميل ١/٥ فى النهاية الصغرى ، ونصف قطر الإنحناء للأقواس فى هذه النهاية ٥٠٠ قدم إنكليزى ، عبارة عن ١٥٢,٤ مترا ، وقدر للعمل ثلاث سنين ، والمصرف أربعة ملايين جنيهات إنكليزى ، منها : ٢٥٠٠٠٠٠ لما يشترى من الخارج ، والباقى وهو ١٥٠٠٠٠٠ ، لما يتحصل من القطر.

ومقدار الحفر والردم اللازم عمله لوضع الشريط ـ وذلك فى أراض متنوعة من أحجار وصوان ورمل وطين وغيره ٣٣٨٤٦٩٠ متر مكعب ، وتوزيع المصاريف على هذه العمليات هكذا :

فى عملية الأتربة والأحجار	٢٨٠١٤٤
ثمن القضب باعتبار ٩٧ طونولاتو	٢٦٧٤٥١٢
تكاليف قنطرة حديد على النيل عند ناحية كوهى	٢١٢٧٥٠
ثمن مبانى مكعبها ٥٤٥١٣ متر مكعب	١٢٣٢١٨
آلات ومهمات تلغراف	٤٤٥٣٧
تكاليف عدد ٢٢ محطة	١٧٩٤٠٠
ثمن الوابورات عدد٦٦ والعربات عدد١١	٣٣٠١٦٥
ماهيات المهندسين والمفتشين	١٥٥٢٧٢
تقريبا	٤٠٠٠٠٠٠ /

وبالجملة فإن مقدار ما تم الآن من خطوط السكك الحديد ، بنسبته إلى أرض الزراعة وأهل القطر ، شىء كثير جداً ، إذا قارناه بالموجود من ذلك عند بعض الدول الأوروباوية نجده أكثر منه ، وذلك أن ١٣٢٠ ميلا الموجودة الآن بهذه الديار ، وهى عبارة عن ٢١١٢ كيلو متر ، هو أكثر من ٤٥٨ كيلو متر الموجودة فى بلاد الفلمنك ، وأكثر من ٤٧٢ الموجودة فى بلاد سويجرة ، وأكثر من ٨٧٦ الموجودة فى بلاد الدينمارك ، ومن ٧٨٧ الموجودة فى بلاد البرتغال.

وبمقارنة الموجود فى الديار المصرية بعدد أهلها يخص المليون من الأهالى ٤٢٢ كيلومتر ، وهذه النسبة فائقة فوقاناً كلياً على مثلها من ممالك كثيرة ، فإن المليون من الأنفس فى مملكة إيطاليا يخصه ٢٣٩ كيلومتر ، وفى بلاد النمسا يخصه ٣٣٥ ، وفى أسبانيا ٣٣٠ ، وفى البرتغال ١٩٧ ، ويقرب من ذلك بلاد البلجيكا فإن المليون فيها يخصه ٥٩٨ ، وكذا بلاد الألمانيا فإن المليون من أهلها يخصه ٥١٤ ، وكذا مملكة فرانسا إذ النسبة فيها ٤٨٣ .

وبالنظر للمنقولات على السكة الحديد ، يعلم أن فائدتها بمصر من أعظم الفوائد للقطر ، وأن حركتها لا يضاهيها غيرها من البلاد الأخر ، مثلاً إذا قارنا الجارى عندنا بالجارى فى بلاد الروسيا ، نجد أن منقولات الأشخاص فائقة فى مصر عن تلك المملكة ، ومنقولات التجارة بالعكس ، لأن ما نقل من الأشخاص بالخطوط المصرية فى سنة ١٨٧١ ميلادية ، إذا وزع على عدد الكيلومترات يخص الكيلومتر الواحد ١٠٠٧ أشخاص ، وإذا طرحت من متحصل المنقول من الأشخاص جميع الواردين على مصر من الجهات الهندية إلى جهة أوروبا وبالعكس ، يكون ما يخص كل كيلومتر واحد من عدد المنقولين فى هذه السنة من المقيمين بالديار المصرية وأهلها ٩٩٣ .

وبتوزيع المنقولين على سكك الحديد المسكوبية فى سنة ١٨٧١ ميلادية وهو ٧١٨٧١٤٦٩ ، وعلى طول الخطوط الموجودة يكون ما يخص الكيلومتر الواحد ٨٤٠ شخصاً ، وهو أقل مما خص هذه المسافة بمصر بقدر ١٥٣ شخصاً .

وأما المنقولات من البضائع فما يخص الكيلومتر الواحد فى مملكة الروسيا ٦٧٩ طونولاتو ، وفى مصر ثلث ذلك .

محطات السكة الحديد

من المعلوم أن كل عمل لابد له من صعوبات فى مبدأ الشروع فيه ، ولاشك أن السكك الحديد من أجسم الأعمال لاحتياجها إلى كثير من العمليات والمبانى اللازمة لتوطينها ،

وإدارة حركتها ، وإجراء مقتضياتها وسكنى مستخدميها وغير ذلك من مصالحها ، وكل ذلك يحتاج فى عمله لزمن ومصرف ، وتكثير المستخدمين ، واستدامة الفكر فيه حتى يتم وينتظم أمره .

وفى ابتداء الشروع فى هذا الأمر الجليل ، لم يمكن أبناء الوطن القيام بكافة الأعمال التى تلزم لإدارة هذه المصلحة ، لعدم معرفتهم فى ذلك الوقت بإتقان لوازمها ، لقرب عهدها بينهم ، فلزم استخدام الأجانب معهم لتتميم ضرورياتها ، فإنه بعد إتمام الجزء الذى استعمل من السكة الحديد إلى وقت جلوس الخديوى اسماعيل باشا على التخت لم تستوف الشروط الضرورية لهذا العمل ، ولم يبن إلا محطة مصر وإسكندرية ، وأما باقى المحطات فكان فى بعضها أخصاص من خشب ، وفى بعضها بناء من الطوب النىء والدبش على هيئة غير هندسية .

وفى جميع المحطات كان الإقتصار على رصيف للركاب ، من غير أن ينظر لراحتهم ووقايتهم من حر الصيف وبرد الشتاء ، ولا إلى ما يلزم للمحطات من الفرش وأدوات الجلوس والإستراحة ، بل كانت مجردة عن ذلك ، ولا إلى حركة الوابورات الواردة والصادرة ، على وجهٍ يجلب منافعها ويدفع مضارها .

والمحطتان المبنيتان ، وهما محطة مصر وإسكندرية ، وإن وجد فيهما بعض من المبانى اللازمة لتلقى أمتعة الركاب وبضائع التجار ، لكن لم يكن ذلك كافيا ما يلزم لهذه المصلحة ، فكان ما فيهما من الأبنية إما غير كافٍ للبضائع ، وإما غير مستوفٍ لشروط حفظها ، وإن أضيف إلى ذلك أن جميع المستخدمين بالمحطات ، كالوكلاء والمعاونين ، وجميع خدمة الوابورات والقطورات والمخازن ، كانوا بهيآت لا يتميزون بها عن بعضهم ، وأن أكثرهم كان من الأجانب الذين لا معرفة لهم بلغة هذه الديار ولا بأحوال أهلها ، يعلم أن الحالة التى كانت عليها السكة الحديد المصرية ــ فى تلك المدة ــ غير مستحسنة ، فلذا كانت عديمة الأرباح ، كثيرة الخسارة والمضرات ، داعية إلى النفور ، وليس ذلك هو الغرض المقصود من إنشائها .

وكان رؤساء المصلحة دائما حريصين على إستقامة أمورها ، لكن لما لم يزدد إيرادها ويحصل المقصود منها ، لم يتم لهم ذلك بل كانت النتيجة السنوية دائما بالعكس ، ولعل سببه : إما عدم وقوفهم على ما يناسب من الأعمال وإما أن الأعمال كانت لا تتم على الصورة المرغوبة لهم ، بسبب جهل المأمورين بمباشرة العمل ، فنتج من ذلك تلف أكثر المهمات والعربات والوابورات ، ولم تتدارك المصلحة تعمير ذلك فى أوقاته لأن إيرادها كان دائما فى النقص بخلاف / مصرفها ، وكانت ورشة العمليات المجعولة للعمارة غير كافية ولا مستوفية لشروط العمارة كما يجب ، إما لنقص بعض العدد والآلات ، وإما لقلة العمال .

٩٠

ومن كثرة الوارد على الورشة المذكورة من جميع الخطوط ، إمتلأت حتى لم يبق فيها متسع لما يعمر بها ، فاضطرت المصلحة لخزن بعض ذلك فى جهة القبارى وباب العزب ، وعلى الأشرطة المجعولة مخازن لذلك فى بعض المحطات المتوسطة .

ولم يكن سبب التلف ، ما ذكر فقط ، بل من أسبابه أيضا : رداءة الفحم ، وعدم السقائف فوق أشرطة المخازن ، لأن شدة حرارة الشمس فى فصل الصيف كانت تؤثر فى خشب العربات فتفصل ألواحها عن بعضها ، وكذلك إهمال دهنها ، وتراخى المفتشين والملاحظين ووكلاء المحطات ، حتى ترتب على ذلك ضياع أموال عظيمة باسم العمارة فى ورشتى بولاق و إسكندرية .

ومع ما كان يظهره المأمورون من الغيرة والإجتهاد ، كان التلف دائماً فى الازدياد ، حتى احتيج فى آخر زمن المرحوم سعيد باشا إلى الإستعانة بورشة (كازستين) ، الواقعة على شاطى المحمودية بالإسكندرية .

ولما عظم مقدار المحتاج من الوابورات إلى التعمير ، وشوهد أن بقاء الأمر على ما هو عليه يضر بإدارة السكة الحديد ، ويوجب تأخرها وربما ينشأ عنه تعطيلها عن الحركة بالكلية ، صار القرار بإرسال جملة وابورات إلى بلاد الإنكليز لأجل تعميرها هناك .

وصدر الأمر بذلك من المرحوم سعيد باشا ، وشرع فى إرسالها بالفعل ، فلم ينتج من ذلك إلا ثمرات جزئية .

ولما آل أمر الحكومة إلى جناب الخديوى اسماعيل باشا ، وجه جل أفكاره السنية إلى تكميل السكة الحديد بما يلزم لها مما يجلب إليها رغبة الركاب والتجار ، لعلمه أن إيرادها تابع لقدر الرغبة فيها ، قلة وكثرة ، ومن المعلوم أن الرغبة لا تتم إلا بإتمام موجبات الحفظ والوقاية فى كل محطة ، مع مراعاة ما يلزم للركاب من الرفق بهم ، وحسن المعاملة معهم ، وتأمين أرباب البضائع على بضائعهم ، فصدرت أوامره السامية بما يلزم لهذه المصلحة والإعتناء بشأنها .

وفى أواخر سنة ١٨٦٨ ميلادية ، الموافقة سنة ١٢٨٥ هجرية ، قد حفَّنى العزيز بأنظاره السنية ، وشملنى بإحساناته البهية ، وقلَّدنى نظارة هذه المصلحة ، مع ما كان محالا علىّ من لدن سدّته من المصالح ، فأعملت فى ذلك جل أفكارى ، وصار الإهتمام ببناء جميع المحطات بسائر ملحقاتها وما يلزم لها ، حتى ظهرت فى أقرب وقت .

وكان أول ما حصل الإهتمام به على الخطوط القديمة والجديدة التى حدثت فى الوجه البحرى والقبلى محطة إسكندرية ، لأنها مجمع المتاجر الواردة والصادرة ، فمتى استوفت لوازمها وسهل الشحن والتفريغ بها ، وأمن التجار على بضائعهم من التلف ، أقبل الناس على استعمال السكة الحديد ، خصوصا إذا قلت الأجرة بها عن أجرة البحر .

وفى ذاك الوقت لم يكن بتلك المحطة مخازن للبضائع ، بل كان جميع الصادر منها وإليها مطروحا على أرض المحطة ، بين القطورات والوابورات ، حتى كانت براميل الزيتون والمائعات والأدهان مرمية مع الأخشاب ، وفى خلالها طرود الأقمشة ، وأصناف المنسوجات ، وأكياس القطن ، وزنابيل الحبوب فكان يعسر على المستخدمين نقلها ، وتكرر من أصحاب البضائع الشكوى ، لما كان يلحقهم من المصرف الزائد فى أجر العتالين والعربات ، لأن الأجرة ـ إذ

ذاك ـ كانت كثيرة ، وكانت العربة ـ إذ ذاك ـ لا تحمل إلا نصف حملها الآن بسبب عدم استواء أرض المحطة مع كثرة الأتربة ، الموجب كل ذلك لتعب الحيوانات وتعطيل السير ، لاسيما فى فصل الشتاء لزيادة بلل البضاعة بماء المطر ، وتلويثها بالطين والوحل .

ومع وجوب الإلتفات لهذه الأمور كلها ، كان هناك ما هو أهم منها ، كحفظ مهمات السكة كالعربات والوابورات من فعل الحرارة والرطوبة والأتربة ، وعماراتها بأوقاتها .

ولكون هذه المحطة ، كما قلنا ، مجمع جميع العربات والوابورات ، كان يجتمع بها الصحيح والمتخرب ، فكان خدمة المحطة إذا وجدوا المجتمع هناك قد زاد زيادة فاحشة يخفونه فى جهة القبارى ، وباب العزب ، وفوق سكة مريوط ، حتى إنى رأيت ـ وقت توجهى إلى تلك المصلحة ـ أربعمائة عربة متخربة فى تلك الجهة خاصة ، وكان الذى يعمر منها ـ مع قلته ـ يعمر بمهمات عربات أخرى ، فكانت عمارة العربة الواحدة تستوجب تخريب عربتين وأكثر ، وعمارة الوابور الواحد تستلزم تخريب وابور مثله .

وهذه الأمور كانت جارية من سنة إلى سنة ، وكثر التلف وعم حتى كان قطر الركاب يغير له الوابور مراراً ، من إسكندرية إلى مصر ، واشتهر هذا الأمر ، وكثر لغط الناس به ، واستوجب زيادة النفرة عن السكة الحديد ، وعدلوا إلى ركوب البحر ، فرأيت أن الواجب علينا ، لتحقيق ما أملته الحضرة الخديوية ، أن نبذل غاية الجهد فيما يقوم بشعائر تلك المصلحة ، ويزيل النفرة عنها ويجلب الرغبة فيها ، فشمرت عن ساعد الجد ، وبذلت الجهد وشرعت فى عمل الطريق الجالبة للرغبة ، وصيانة المهمات وعمارتها .

وأول أمر إلتفت اليه تنظيم الطرق الموصلة للمحطة ، ودكها بالدقشوم وملئها بالرمل ، ليسهل على عربات الكراء السير عليها مع تمام حملها ، وتزول / المشقة التى كانت قبل ، ثم تسوية المحطة جميعها ودكها أيضا بالدقشوم والرمل ، مع تجديد أرصفة غير القديمة ، بعضها فى الجهة المجاورة للمحمودية ، وبعضها فى الجهة المجاورة للقبارى ، وتخصيص كل بما يليق من

٩١

البضائع ، وأعطيت تلك الأرصفة من الأبعاد والإمتداد ما يلزم لها ويكفى الصادر والوارد ، حتى أمكن رسوّ ست قطورات أو ثمانية عليها فى آن واحد ، وجعلت موصلة لطرق عربات الكرّ ، وبحيث لا يكون عائق للعربات عن أن تصل إلى محل البضاعة ، فيستغنى بذلك عن العتالين فى كثير من الأحوال ، وصار نصب سقيفتين عظيمتين فوق تلك الأرصفة وجدت إحداهما فى المصلحة نفسها ، كانت ملقاة من زمن مديد على ساحل البحر ، حتى أكل الصدأ والتراب كثيراً من قطعها ، فاشترى لها مهمات كملت بها ، ونصبت هناك على يسار الوارد على المحطة .

والثانية جلبت من البلاد الأجنبية فى ضمن مهمات وآلات ، وسقيفة أخرى لمحطة الحوض بالسويس صارت التوصية على الجميع من الحكومة الخديوية ، وهى المشاهدة فى جهة المحمودية عن يمين الداخل على المحطة ، وجُعلت أرصفة منها لشحن أخشاب العمارات والأخشاب الداخلة فى جهات القطر ، وأرصفة للأقطان والأبزار والحبوب وغير ذلك ، فنتج من هذه الأعمال ثمرات عظيمة للمصلحة ، وكثر إيرادها لأن التجار لما علموا سهولة الشحن والتفريغ وصيانة بضائعهم ، أقبلوا على السكة الحديد وقلّ سفر البحر .

ولكن دفع جميع المضار كان متوقفا على نصب سقائف فى محطات مجمع الوابورات مثل محطة كفر الزيات وبنها ، والزقازيق ، والمحروسة ، وعلى تعدد ورش العمارة ، لكن عظم المصرف اللازم لذلك أوجب تأخير بعضه والإقتصار على الممكن منه .

وقد رُخِّص فى محطة إسكندرية بإحداث ورشة مؤقتة ، وجلب ما يلزم لها من العمال والأسطوات ، وأحيل عليهما العمارة الخفيفة ، وحصل مثل ذلك فى محطتى بندر السويس وكفر الزيات ، وفى ورشة العربات فى محطة مصر ، وأجرى تكميل الآلات الناقصة بما جلب من الخارج بالشراء وما وجد فى المصلحة نفسها ، وترتب وابور لوكوموبيل لإدارة الجميع ، وصار امتداد أشرطة حديد داخل الورشة متصلة بالسكة الأصلية .

ولأجل استقامة العمل وظهور نتيجته ، عمل لذلك استمارات وزعت على كافة الورش ، وصار ترتيب ملاحظين على جميع الخطوط من المهندسين الميكانيكيين ، ليشاهدوا الوابورات والعربات فى حال الحركة والسكون ، ويكتبوا جميع ما يشاهدونه مما يخص المصلحة ثم يعرضون ما كتبوه لديوانها ، لتأمر بما يلزم من عمارة ، أو إيقاظ السواقين لصيانة العدد ، أو تنبيه الوكلاء وخدمة المحطات على زيادة الإلتفات وإجراء ما يلزم فى حفظ المهمات وصيانتها ، فكان ذلك يحمل المستخدمين على زيادة الملاحظة وإعمال الأفكار فيما هو مطلوب منهم ، فحصل من ذلك نتائج حسنة .

لكن لم تعظم المنافع إلا بعد تنظيم ورش العمارة الوقتية ، واستيفاء أشرطة لتخزين الوابورات فى محطة الإسكندرية وفى المحطات الوسطى ، وبناء المساكن الكافية للمستخدمين .

وأهم من ذلك إتمام تنظيم ورشة العمليات ، فإنها لذلك الحين كانت عبارة عن أرض متسعة ، مشتملة على كثير من المبانى الخربة خلال العنابر والمخازن ، وبها برك عفنة وليست مستوفية للأشرطة اللازمة ، وكان الموجود من ذلك على هيئة غير مرضية بحيث كان يحتاج فى إخراج كل عربة أو وابور ، مما هو مخزون به ، إلى ضياع كثير من الزمن واستعمال جملة من الأنفار .

وكانت المهمات ، على اختلاف أنواعها من صالح وغير صالح ، مختلطة ببعضها بحيث يتعسر أخذ ما يلزم منها لكثرتها وتراكمها فوق بعضها حتى صارت تلولا ، وكانت تحتاج إلى العتالين فى نقلها من المخازن أو إليها ، وعنابر العدد ، وإن كان بها كثير من العدد والآلات ، إلا أنها كانت معطلة لنقص بعضها ، وعلو الصدأ والأوساخ على الباقى لإهماله ، وكان كل ما تجدد بها شىء رجع إليها ثانيا متخربا بعد أيام قلائل ، بل ربما رجع إليها فى يومه .

ولم يكن هناك استمارات لبيان عمل كل عامل ولا قوانين لبيان ما يلزم السواقين فى الخطوط ، والملاحظين فى الورش ، وكان أغلب السواقين ليس فيه الإستعداد اللائق لوظيفته

وكثير منهم دخل بلا إمتحان وشهادة تدل على أهليته لتلك الوظيفة ، وأكثرهم كان من أولاد العرب العطشجية ، لا يدرى ما يختص بالبخار وأحواله ، بل يجهل جميع ما يتعلق بالسكك الحديد والوابورات ، ويندر فيهم من يعرف الكتابة والقراءة ، وكل ذلك مما لا يخفى ضرره .

وكانت المصلحة ، مع عدم خفاء ذلك عليها ، تغض الطرف عما يقع منهم بسبب قلة مرتباتهم ، وترى أن فى ذلك وفرا وربحا عن استخدام المتقنين للصنعة من الإفرنج وغيرهم ، بسبب زيادة مرتباتهم ، مع أنها لو نسبت ما يوفره المتقنون للصنعة مع زيادة مرتباتهم إلى ما يصرف فى عمارة ما يفسده غير المتقنين لها ، لعلمت أن كثرة مرتبات المتقنين قليلة بالنسبة لذلك ، فكانت ترجع عن هذا الرأى ، وتأخذ فى إبعاد كل جاهل بالمصلحة ، وتنتخب من / تلامذة المدارس جملة ، تربيهم فى الورش حتى يتقنوا ذلك الفن ، ويتأهلوا للقيام بتلك المصلحة على الوجه المرغوب ، ولا تستعمل من الخدمة إلا من له قدرة على القيام بما فيه الأرجحية إلى حين تمام تربية التلامذة واستعدادهم .

ولو قدّر وشرع فى هذه الفكرة من وقت إنشاء السكة ، لصار الاستحصال بعد ذلك بسنين قليلة على جميع اللازم من المستخدمين ، فتزول المضار ، وتجلب المنافع والفوائد العظيمة من تلك المصلحة ، ولكن حصل السكوت عن ذلك إلى زمن الخديوى إسماعيل باشا ، فصدرت أوامره السنية بإنشاء مدرسة العمليات ؛ بقصد تربية تلامذة من أبناء الوطن ، يقومون بوظائف هذه المصلحة وأمثالها من سواقين ومهندسين للوابورات البرية والبحرية .

وفى أثناء تلك المدة صار الإهتمام بتعمير المتخرب من الوابورات ، البعض فى ورشة المصلحة والبعض أرسل إلى بلاد الإنكليز ليعمر هناك بالأجرة ، ورتبت رجال العمارة بالنسبة لدرجاتهم فى الإستعداد ، وكذا السوّاقون ، وعملت جداول لجميع الوابورات مشتملة على تاريخ مشتراها ، وبيان الورش التى جلبت منها ، وعدد العمارات التى حصلت لكل وابور على حدته ، ومقدار الأميال التى مشاها ، وكمية ما نقله من البضائع ، وكل ذلك ليتأتى مقارنة

بعضها ببعض ، ومعرفة درجات إستعداد السواقين ، وتقرر عدد الوابورات التى يلزم إدامة حركتها على الخطوط بالنسبة لطول الأشرطة المصرية ، وعدد الوابورات اللازم بقاؤها بالمخازن لوقت الحاجة ، ولا تشغل إلا بأوامر مخصوصة تصدر من ناظر مصلحة العموم .

ثم صار النظر فى ترتيب المحطات ، وعملت لوائح الإجراءات ووزعت عليها ، وصار ترتيب المعاونين للأرصفة والمخزنجية ونقلهم بحسب الإستعداد وأهمية المحطات ، وجعل أغلبهم من أبناء المدارس المتعلمين فى ظل الحضرة الخديوية ، الذين صار لهم معرفة بفن التلغرافات ، ونقل كثير من الإفرنج إلى وظائف تليق بهم ، فحسن بذلك حال المصلحة ، وسارت فى طريق الإستقامة حيث صار جميع خدمة تلك المصلحة عارفين بحدود وظائفهم ، وما لهم وما عليهم ، على حسب مقصود الحضرة الخديوية التى غمرتهم فى بحار إحسانها ، وأخذ الإيراد ينمو والتلف يضمحل حتى كأنه لم يكن .

ومن الاعتناء بأمر راحة الركاب فى كافة المحطات وفوق الخطوط ، إزدادت رغبتهم ومالوا بكليتهم إلى ركوب السكة الحديد ، لاسيما بعد نقص الأجرة المقدرة من قديم لكل درجة ، فقد كانت عالية خصوصاً الدرجة الثالثة ، فإنها كانت مع كثرة أجرتها لا راحة فيها للركاب ، فإن أغلبها كان يشبه عربات البهائم ، وكانت مكشوفة للرياح والأتربة وحر الصيف وبرد الشتاء ، مع عدم تلطف خدمة القطورات بهم ، فكانوا دائما ساخطين على المصلحة ، لا يرغبون فى ركوبها إلا لضرورة شديدة . بخلاف ما هى عليه الآن ، فقد جعل لأغلبها سقائف ودرابزينات ، وتوزعت على الخطوط واستعملت فى الدرجة الثالثة بأقل من الأجرة الاولى ، وصار إلزام خدمة القطورات بملاطفتهم وحسن معاملتهم .

ولما كان مدار إيراد المصلحة على التجارة كان الإعتناء بشأنها ألزم من غيره ، لأن أجرة الركاب قد لا تفى بالمصاريف خصوصاً قطارات الدرجة الأولى ، فإن مصاريفها أكثر من

إيرادها ، فصار النظر فيما يوجب رغبة التجار فى إستعمال السكة فى متاجرهم ، فوجد أن اللازم لذلك ثلاثة أشياء :

الأول : نقص أجرة البضاعة فى السكة الحديد عما يصرف عليها لو سافرت براً أو بحراً .

والثانى : الإسراع بها حتى تصل المحل المنقولة إليه فى زمن أقل مما كان يلزم لنقلها بغير السكة الحديد .

والثالث : حفظها من جميع الغوائل كالحرق والسرقة والبلل وغير ذلك .

فأما الثانى والثالث ، فقد تما بما عمل من الاستمارات التى نشرت فى جميع المحطات ، وبما بنى من السقائف ، وما جعل لتغطية العربات .

وأما الأمر الأول ، وهو أهمها ، فقد عمل بخصوصه جميع وسائط الترغيب مثل : عقد تعهدات مع التجار بنقص قدر معلوم من أجر بعض الأصناف لمشاهير التجار ، وبنقص عشرة أو أكثر فى المائة من جملة أجرة المنقول فى كل ثلاثة أشهر أو ستة أو سنة ، وربطت لها درجات ، وحررت بذلك تعريفة مؤقتة طبعت ونشرت على المحطات والدواوين وأكابر التجار ووجوه الناس ، وحدد لكل عربة قدر ما تحمله ، ورتبت جملة ملاحظين لمباشرة ذلك بالضبط ، حتى لا تسير العربات إلا بأحمالها الكاملة

ومع كون هذه المسألة من أهم المسائل كانت غير ملتفت إليها ، وكثيراً ما كان القطر المركب من أربعين عربة وحمولته مائتا طن ، لا يحمل إلا ربعه أو نصفه ، مع أن المصلحة تصرف على الوابور مصرفه كاملا .

وهذا ضرر بيّن ، موسع لدائرة الخلل ، معطل للتشهيل .

فبتلك الأعمال الجليلة ، عظمت رغبة التجار فى إستعمال السكة الحديد ، وانهلّت البضائع على إختلاف أنواعها على جميع المحطات تجارية وزراعية ، حتى البطيخ ، والخيار ، والأسماك ، والحجر ، والدبش ، والرمل ، والحطب ، والسباخ .

٩٣ لكن لم يكمل مرغوب / المزارعين من نقل محصولاتهم إلى الاسواق أو إلى بلد أخرى من مراكز التجارات الريفية ، لأن هناك موانع كثيرة تمنعهم من هذه الأغراض مثل : بعد الخطوط عن البلدان فى كثير من الجهات ، وبعد كثير من البنادر والقرى الشهيرة والأسواق عن تلك الخطوط ، وكذلك بعد بعض المحطات عن بعض ، أو كونها فى مواضع غير موافقة وغير ذلك .

وهذه المسألة لأهميتها تستوجب على المأمورين إدامة البحث والنظر فيما يرفع هذه الموانع ويوفى برغبة الأهالى ، حتى يتمكنوا من جميع أغراضهم ، وهذا لا يكون إلا بقدح الفكر ومباشرة العوائد زمناً . وكثيراً ما قدح نظار هذه المصلحة أفكارهم فى ذلك ، ولم يفوزوا بالمقصود إلى الآن ، ولم تنتفع مصلحة السكة الحديد إلا بنقل شىء يسير من محصولات الزراعة ، مع أنها لو توصلت إلى ذلك لنما إيرادها به نمواً عظيماً ، وربما كان قدر الموجود الآن مرتين أو أكثر .

وما فضل المصلحة إلا باتساع دائرة أعمالها داخل بلاد القطر ، إذ كان يحصل النفع لها بكثرة الإيراد ومنها لأهل الوطن بتوفير الأجرة عليهم ، فيتحصلون على أرباح عظيمة من البيع بالأثمان الموافقة فى الأوقات اللائقة ، فإن سير التجارة الآن لم يكن كسيرها السابق ، بل فى اليوم الواحد أو الأسبوع بسبب التلغراف الكهربائى الواصل لجميع البقاع ربما تتغير قيمة الصنف والرغبة فيه مراراً ، فيحصل الإسراع للمقصود والفوز به فى وقته بواسطة السكة الحديد ، ومن يتأمل يرى حقية ذلك ولا ينكره .

ولم نذكر جميع ما صار فى باقى المحطات ، لأنا سنذكر كلاً فى محله ، ونكتفى هنا بما ذكرنا ، وإنما نورد الجدول الآتى لبيان محطات السكة بالإختصار :

مطلب بيان عدد خطوط ومحطات الوجه البحرى

الخط الطولى من مصر إلى إسكندرية

الزمن الذى يستغرقه السفر على هذا الخط ، بوابورات الأكسبرس ، أربع ساعات ونصف ، وبغيره ٦ ساعات ، وعدد محطاته اثنا عشر ، وبيانها :

محطة الإسكندرية ، محطة كفر الدوار ، محطة أبى حمص ، محطة دمنهور ، محطة إيتاى البارود ، ومنها يبتدىء خط قبلى ، محطة كفر الزيات ، وعادة يتعاطى فيه السياحون الطعام ، محطة طندتا ــ وهى طنطا ــ محطة بركة السبع ، محطة بنها العسل ، محطة طوخ ، محطة قليوب ، محطة القاهرة .

خط السويس من بنها

الزمن الذى يستغرقه السفر على هذا الخط ٩ ساعات أو ١٠ ، وعدد محطاته ١٢

محطة بنها العسل ، محطة منية القمح ، محطة الزقازيق ، وفيها يتعاطى المسافرون الطعام ، محطة أبى حماد ، محطة التل الكبير ، محطة المحسمة ، محطة النفيشة ، محطة السيرابيوم ، محطة فائد ، محطة جنيفة ، محطة الشلوفة ، محطة السويس .

خط قليوب إلى الزقازيق

يشتمل هذا الخط على سبع محطات :

محطة قليوب ، محطة نوى ، محطة شبين القناطر ، محطة انشاص الرمل ، محطة بلبيس ، محطة بردين ، محطة الزقازيق .

خط المنصورة من الزقازيق إلى المنصورة

زمن السفر فيه ثلاث ساعات ونصف ، ويشتمل على ست محطات كذلك : محطة الزقازيق ، محطة هيهيا ، محطة أبي كبير ، محطة أبي الشقوق ، محطة السنبلاوين ، محطة المنصورة .

خط دمياط من طندتا

زمن السفر فيه أربع ساعات ، وعدد محطاته ثمانية وبيانها :

محطة طندتا ، محطة محلة روح ، محطة المحلة الكبيرة ، محطة سمنود ، محطة طلخا ، محطة شربين ، محطة كفر الترعة ، محطة دمياط .

خط دسوق من محلة روح

مدة سفرة ساعتان ، وعدد محطاته خمسة ، بعد محلة روح ودسوق .

محطة محلة روح ، محطة قطور ، محطةنشرت ، محطة شيامى ، محطة دسوق .

خط زفته من محلة روح

مدة سفره ساعة ونصف ، وعدد محطاته أربعة :

محطة محلة روح ، محطة القرشية ، محطة الصنطة ، محطة زفته .

خط ميت بره من بنها

مدة سفره نصف ساعة ، بما فيه من تعدية البحر ، وهو خط واصل من بنها إلى ميت بره ، من دون محطات بينهما ، سوى تعدية البحر .

خط القناطر الخيرية من قليوب

هذا الخط واصل من قليوب إلى القناطر ، من دون توسط محطات بينهما .

مطلب بيان عدد خطوط
ومحطات الوجه القبلى

خط المنية من انبابه

مدة السفر فيه تقرب من عشرة ساعات ، وعدد محطاته إحدى عشرة محطة ، وبيانها :

محطة انبابة ، محطة الجيزة ، محطة البدرشين ، محطة الواسطة ، محطة اشمنت ، محطة بنى سويف ، محطة مغاغة ، محطة بنى مزار ، محطة قلوصنا ، محطة سملوط ، محطة المنية .

خط الفيوم من الواسطة

مدة سفر هذا الخط ساعة وربع ، وليس بين مدينة الفيوم والواسطة إلا محطة واحدة هى : محطة أبى قصا .

خط أسيوط من المنية

هى تسع محطات وبيانها :

محطة المنية ، محطة قرقاص ، محطة الروضة ، محطة ملوى ، محطة ديروط ، محطة نزالى أبى جنوب ، محطة أبى قره ، محطة منفلوط ، محطة أسيوط .

التلغراف المصرى

جملة الخطوط التلغرافية فى الحكومة المصرية ، الممتدة فى داخل الأقطار المصرية والسودانية ، إلى غاية سنة ١٢٩١ هجرية ، مبلغ ٨٣٥٩ ميلاً إنكليزياً ، وهى عبارة عن ١٠٩٩٤ / كيلو متر ، والذى كان موجوداً من ذلك لغاية مدة المرحوم سعيد باشا ، كما تقدم ، هو ٢٣٤٩ كيلو متر ، فيكون ما صار تجديده فى عهد الخديوى اسماعيل هو ٨٦٤٥ كيلو متر ، وهو قدر الموجود من قبل أربع مرات تقريباً .

وهذا خلاف ما هو مشروع فيه من مدة ، من مصر إلى أسيوط وإلى إسكندرية بطريق الساحل ، وخلاف الجارى من مدة أيضا فى الأقطار السودانية ، مثل خط اسفار والمكسه وكردفان وغيره .

وبمقارنة طول ما هو موجود الآن فى الحكومة المصرية ، بطول الموجود من ذلك فى كثير من ممالك أوروبا ، يعلم أن الموجود من ذلك بالحكومة المصرية يفوق الموجود منها فى بلاد : سويد ، والبلجيك ، والدينمارك ، وبلاد الفلمنك ، والبرتغال .

وعدد المحطات بالديار المصرية فقط ٧٧ ، وإن صار مقارنة حركة التلغرافات المصرية بحركة غيرها فإنها توجد غير بالغة غايتها ، كما هو حاصل فى أكثر بلاد أوروبا ، وأسباب ذلك أن كثيراً من المصريين لم يتحولوا عن عادتهم القديمة ، بل مستمرون على حرمان أنفسهم من استعمال هذه الواسطة المفيدة ، ولو ذاقوا ثمراتها لازدحموا عليها .

ومع ذلك فقد بلغ عدد الأخبار التى تناولتها التلغرافات المصرية فى سنة ١٨٧١ ميلادية ٥٧٠ ألف خبر ، وهى أكثر من الأخبار التى تناولتها تلغرافات بلاد الدينمارك وهى ٤٢٠ ألف خبر ، وقريب من الأخبار التى تناولتها تلغرافات بلاد نورويج وهى ٦٠٣ ألف خبر ، وتقرب أيضا من ٦١٢ ألف خبر تناولتها بلاد البرتغال .

وبإسقاط عدد الأخبار الخارجية من المجموع السابق ، والإقتصار على الأخبار المختصة بأهل الديار المصرية ، يكون عددها ٥٦٠ ألف خبر ، وبنسبته إلى تعداد الأهالى يخص كل ألف نفس مائة وعشرون خبراً .

وإن عملت المقارنة فى بلاد آسيا ، يوجد أن الألف من أهل تلك المملكة يخصها ٦٢ خبرا ، أعنى نصف ما خص أهالى مصر ، وإن فعل مثل ذلك فى ايتاليا ، يوجد أنه يخص الألف ١١٨ فبواسطة ذلك يعلم أن مصر قد فاقت هاتين المملكتين .

وبيان جملة خطوط التلغرافات المصرية كما ترى :

	ميل إنكليزى		ميل إنكليزى
ستة خطوط من مصر إلى إسكندرية	٨٣٤	خطان من قنا إلى اسوان	٣٢٠
خطان من خطوط كتريق بدائر مصر	١٠٠	خطان من أسوان إلى وادى حلفه	٤٢٠
خطان من مصر إلى القناطر الخيرية	٣٦	خطان من وادى حلفه إلى قبةسليم	٢٩٠
خطان من مصر بطريق بنها	٥٦٦	خطان من قبة سليم إلى الأوردى	١٢٠
خط واحد من مصر إلى السويس	١٥١	خطان من الأوردى إلى أبى دوم	٢٣٠
خطان من مصر إلى المنصورة	١٩٢	خطان من أبى دوم إلى بربر	٤٩٠
ثمانية سلوك متوسط عدد دوائر كل من مصر وإسكندرية	٢٤٠	خطان من بربر إلى شندى	٢١٠
		خطان من شندى إلى الخرطوم	٢٢٤
خطان من بنها إلى ميت بره	١٨	خطان من كسله إلى سواكن	٦٠٠
خطان أو سلكان من بنها إلى الزقازيق	٢٤٦	من بربر إلى كسله	٤٠٠
خطان من طنطا إلى سمنود	٢١	خطان من قنا إلى القصير	٢٣٤
خطان من سمنود إلى دمياط	١٢٣	خطان من كسله إلى مصوّع وفروعه	٤٤٠
خطان من طنطا إلى زفته	٦٦	خطان من الخرطوم إلى المسلمه	١٦٠
خطان من طنطا إلى ميت أبوالكوم	٣٨	من السويس إلى الإسماعيلية وبورت سعيد	١٠٠
خطان من طنطا إلى دسوق	٩٢	خطان من بيا إلى الروضة	١٨٠
من الإسماعيلية إلى بورت سعيد	٤٦	خطان فرع أبى تيج قبلى اسيوط	١٠
من القنطرة إلى بورت سعيد	٢٦	فرع الفيوم هو من الواسطة إلى الفيوم ومنها إلى أبى اكساه	٤١

خطان من دمنهور والعطف إلى رشيد	١١٢		
خطان من أبى كبير إلى الصالحية	٥٠	من مصر إلى إيتاى البارود بالبر الغربى	٧٤
خطان من مصر إلى حلوان	٤٠	خطان من محطة السويس إلى محطة الحوض	٣
خطان من مصر إلى المنية	٣٤٤	خطان من مكتب الكبانية الشرقية بمينة إسكندرية إلى مكتبها بالقبارى	١٢
خطان من المنية إلى أسيوط	١٨٠		
خطان من أسيوط إلى قنا	٢٨٠		

ومجموع ذلك ٨٣٥٩ ميلاً إنكليزياً ، وهذا هو الجارى استعماله لغاية سنة ١٢٩١ هجرية .

وأما الخطوط المشروع فى تركيبها فى وقتئذٍ فهى :

	ميل إنكليزى		ميل إنكليزى
خط كردفان سلك واحد	٤٠٠	خط سنار مثله	١١٠
خط السلمية إلى أبى حراز	٥٠	من مصر إلى اسيوط	٢٥٠
من مصر إلى اسكندرية بطريق إيتاى البارود	١٥٠	من اسكندرية إلى رشيد بطريق الساحل	٩٠

ومجموع ذلك ١٠٥٠ ميلاً إنكليزياً إذا أضيف إلى ما تقدم بيانه يكون مجموع سكك التلغراف المصرى ٩٤٠٩ أميال إنكليزية ، وهى عبارة عن ١٥٠٥٤ كيلومتر ، كل كيلومتر ألف متر .

وخلاف تلغراف الحكومة تلغراف تعلق قومبانية القنال ، من بورت سعيد إلى السويس على طول القنال وقدره ٢٠٥ أميال إنكليزية ، وتلغراف آخر تعلق كبانية مالطة ، وأخباره منها ما يصل من إسكندرية إلى السويس باتباع السكة القديمة الخارجة من مصر مارة فى الصحراء ، وهى خطان طولها ٤٥٨ ميلا ، ومنها ما يصل باتباع السكة الجديدة ، وطوله ٤٥٠ ميلا إنكليزيا ، فيكون مجموع أميال تلغراف الكبانيتين ١١١٣ ، وبإضافته إلى تلغراف الحكومة المصرية ، يكون جميع الخطوط التلغرافية بالديار المصرية والأقطار السودانية ١٠٥٢٢ ، عبارة عن ١٦٨٣٥ كيلومتر .

تم الجزء السابع ويليه الثامن أوله

ذكر مدن مصر وقراها الشهيرة . التى لها ذكر فى التواريخ وغيرها . مرتبة على حروف المعجم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٢٤/٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٧٨ - ٢

مركز تحقيق التراث

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة

ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة

تأليف

على باشا مبارك

الجزء الثامن

[من آبة إلى أيلة]

الطبعة الثانية

عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

إعداد
عزت عبد المجيد شلقامي
باحث أول
مركز تحقيق التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرسة الجزء الثامن

من الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة
ومدنها وقرآها

ذكر مدن مصر وقراها الشهيرة التى لها ذكر فى التواريخ وغيرها مرتبة على حروف المعجم

(حرف الهمزة)

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

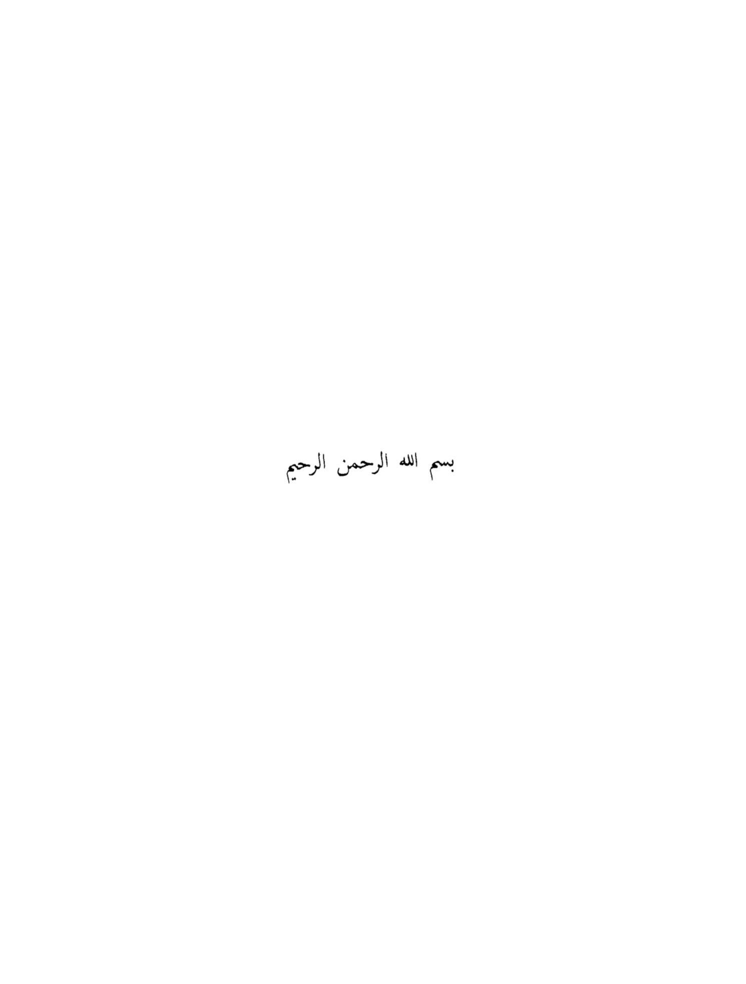
الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

« تمت »



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

/ ذكر مدن مصر وقراها الشهيرة التى لها ذكر فى التواريخ وغيرها مرتبة على حروف المعجم

حرف (الهمـــزة)

آبة الوقف

بهمزة فى أوله بعدها ألف لينة فموحدة فهاء تأنيث ، قال فى مشترك البلدان : هى ثلاثة مواضع ليس فى مصر منها إلا واحدة وهى آبة الوقف من كورة البهنسا انتهى .

وهى من مديرية المنية بقسم بنى مزار فى غربى النيل بنحو ساعة ، وفى الشمال الغربى لبوجرج كذلك ، وفى الشمال الشرقى لبطوجة بأقل من ذلك ، ويمر عليها جسر الجرنوس كجملة قرى مثل : قفادة ، وطنبدى ، والشيخ زياد .

وفيها أبنية جيدة وقصر مشيد وبستان عظيم وجفلك تبع الدائرة السنية وفيها دكاكين وقهاو عامرة ونخيل وأشجار ومساجد مقامة الشعائر وفيها بيت مشهور بالثروة قديما منه : الحاج حسين أغا ، كان أشهر أهل بلاده وكان ناظر قسم زمن العزيز المرحوم محمد على ، ومن بعده أخوه الحاج مهدى أغا كان ناظر قسم أيضا زمن العزيز المذكور ، وكان كثير من أهل البلد وغيرهم يتجرون فى أموالها فلذا تجد أكثر أهل هذه القرية تجارا فى الأغنام ويسافرون إلى آخر الصعيد الأوسط لاشترائها ويعلفونها بالفول ونحوه والماء البارد حتى تسمن فيسافرون بها إلى المحروسة فيربحون فيها كما يفعل أهل ناحية سنبو .

وكان تجارهم إذا ذهبوا إلى بلاد الصعيد تروج البضائع هناك يقول الناس : جاء الآبية وراجت السلع ، ويسمون كل من جاء من تلك الجهة آبيا . وقد ترك الحاج مهدى ولدا لم يحسن سيره ولا سيرته ، فأذهب الأموال وتضعضع حالهم بسببه .

وفى البلد أضرحة أجلها وأشهرها ضريح الولى العارف بالله تعالى الآمى الخلوتى الشريف الحسينى . سيدى الحاج إبراهيم الشلقامى العمرانى من ذرية سيدى أبى عمران ، وهو من أهل القرن الثانى عشر مولده بشلقام قرية صغيرة بجوار قرية آبة هذه . وقد جدد ضريحه عمدة الناحية أحمد بن الحاج حسين أغا ، وجعل له قبة عالية ويلحق به جامع متسع متين ، مستوف لجميع لوازمه من مطهرة متسعة ومنارة مرتفعة .

وأهل تلك الجهة يعتقدون فى هذا الولى اعتقادا زائدا ، وينذرون له النذور ويترددون إليه للزيارة ، ويعملون له كل سنة فى فصل الصيف مولدا جامعا ينتصب نحو نصف شهر ، ويؤتى إليه من كل جهة حتى من المحروسة للزيارة والتجارة ، فيباع فيه كل شىء مما فى القطر

من حيوانات ونحاس وبز وحرير وغير ذلك ، وتنصب فيه الخيام بكثرة وتجتمع أرباب الأشائر وأهل الأذكار وأولاد الفقراء وأهل الأهواء وأصحاب الملاعب وآلات اللهو ، فليلاً ونهارا ترى الأذكار حَلَقاً حلقا فى الخيام وفى الجامع وقراءة القرآن والصلوات والأوراد ، وترى حلق الألعاب كالحاوى والطبول والكوسات والمزمار وميادين ملاعب الخيل وغير ذلك ، وتذبح فيه الذبائح الكثيرة وتكثر المدَّات والقهاوى ، وربما كان فيه الخمارات والبوزة وكثير من المنكرات ، وهكذا أكثر الجموع والموالد فى سائر القطر ، تشتمل على الطاعات والمعاصى وأكثر ما يستعمل بين الناس فى المجامع هو القهوة للخاص والعام ، حتى يكون شربها فى مولد سيدى إبراهيم ونحوه مثل شرب الماء أو أكثر ، وكذا تستعمل فى المضايف للإكرام فيجعلونها تحية القادم ، وقد لا يستغنى عنها معتادها إلا بضرر يلحقه وعم استعمالها فى أكثر بقاع الأرض .

وقد تكلمنا على القهوة بطرف مما يناسبها فى كتابنا علم الدين ، كما تكلمنا هناك أيضا على الحشيشة المسماة حشيشة الفقراء ، والآن قد عثرنا فى كتاب دساسى المسمى (بالأنيس المفيد للطالب المستفيد ، وجامع الشذور من منظوم ومنثور) على نبذة تتعلق بالقهوة للشيخ عبد القادر بن محمد الأنصارى الجزيرى / الحنبلى فأردنا إيرادها لتكثير الفائدة فنقول : ٣٣

قال فى ذلك الكتاب : الباب الأول فى معنى القهوة وصفتها وطبعها وفى أى بلدة بَدَا انتشارها ولأى معنى طبخت وشربت وعلا منارها .

اعلم أن القهوة هى النوع المتخذ من قشر البن أو منه مع حبة المُحَمَّص . بضم الميم وفتح الحيم وتشديد الحاء المهملة المفتوحة أيضا : أى المقلى ، وصفتها أن يوضع القشر إما وحده وهى القشرية ، ومع البن المحمص المدقوق وهى : البنية فى ماء ، ثم يغلى عليه حتى تخرج خاصيته ، ومنهم من يجد غاية اعتدال استوائها بطعم مذاقها : أى المرارة وتسمى عندهم فى اصطلاح ذوى معرفتها المحكّمة الاستواء بتشديد الكاف وتركه ثم تشرب .

فمن قائل بحلها : يرى أنها الشراب الطهور المبارك الموجب للنشاط والإعانة على ذكر الله تعالى وفعل العبادة . ومن قائل بحرمتها مفرط فى ذمها والتشنيع على شرابها ، وكثر فيها من الجانبين التصانيف والفتاوى ، وبالغ القائل بحرمتها فادّعى أنها من الخمر وقاسها به ، وبعضهم نسب إليها الإضرار بالعقل والبدن إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصّبات المؤدية إلى الجدال والفتن واتلاف النفوس والمحن بمكة ومصر القاهرة ، وحكم بمنع بيعها وكسر أوانيها الطاهرة ، بل وتعزير باعتها بالضرب وغيره من غير حجة ظاهرة ، وتأديبهم بإضاعة مالهم وإحراق القشر المتخذة منه وإيذاء بعض شرابها رجاء مصلحة تعود عليه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

وهاجت لأجلها جنود الشياطين وثارت حظوظ النفوس التى لا طائل تحتها من المؤمنين ، وبالغ الذام لها فزعم أن شاربها يحشر يوم القيامة ووجهه أسود من قعور أوانيها ، وكثر التقاطع والتدابر بين الفريقين ، وسيرد عليك ما قيل فى حقها من الأسئلة والأجوبة مما يكشف عن وجه حلها النقاب ويمنع من خالف بحجج سالكة فى جادة الصواب .

وأما اشتقاق اسم القهوة فقال : العلامة الفخر أبوبكر بن أبى يزيد فى مؤلفه (إثارة النخوة بحل القهوة) إنها من الأقهاء وهو الاجتواء : أى الكراهة أو من الإقهاء بمعنى الإقعاد من : أقهى الرجل عن الشىء : أى قعد عنه ، وكراهة كل شىء والقعود عنه بحسبه ؛ ومنه سميت الخمرة قهوة ؛ لأنها تقهى : أى تكره الطعام أو تقعد عنه حسبما نقل عمن يعرف أحوالها ، فكذلك هذا المعنى المذكور فتكره أو تقعد عن النوم الموضوعة فى الأصل لإذهابه لما يترتب عليه من قيام الليل المطلوب شرعا ، ثم قال : وبعضهم كان يكسر القاف ويقول القِهوة فرقا بين القهوتين .

وأما طبعها فذكر كثير من الأطباء والحذاق الألباء : أنها حارة يابسة وقال آخرون : باردةيابسة ، وهو من مذهب أهل الذم لها ، ومن أعظم منافعها إذهاب النوم وإن كان للسهر أسباب كثيرة غيرها . من تقليل الأكل وترك التعب فى النهار والقيلولة وغير ذلك مما تقرر فى كتب الصوفية ثم قال فائدة :

سمعت من قاضى القضاة علامة زمانه تاج الدين عبد الوهاب بن يعقوب المكى المالكى رئيس الأقطار الحجازية فى ليالى اجتماعى به زمن الموسم بداره بالسويقة بمكة المشرفة : أن شرب الماء البارد قبل القهوة مما يفيدها رطوبة المزاج ويقل يبسها ولا يكون السهر حينئذ شديدا ، وكنت أراه يفعل ذلك دائما لهذا المعنى ، وهو من ذوى المعرفة والتجارب وله الخبرة والسياسة الحسنة فى سائر الأمور ، وأما مبدأ حدوث القهوة فقال الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ما لفظه : إن الأخبار قد وردت علينا بمصر أوائل هذا القرن بأنه قد شاع فى اليمن شراب يقال له : القهوة تستعمله مشايخ الصوفية وغيرهم للاستعانة به على السهر فى الأذكار قال : ثم بلغنا بعد ذلك بمدة أن ظهورها باليمن كان على يد الشيخ جمال الدين أبى عبد الله محمد بن سعيد الذبحانى بفتح الذال المعجمة وسكون الموحدة وفتح المهملة وبعد ألفه نون مكسورة ، نسبة إلى ذبحان بلدة باليمن وهو عالم مشهور بالولاية والفتوى ، وكانت وفاته سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، ونحن الآن فى عام ست وتسعين وتسعمائة ، وأما ظهورها فى بلاد الحبشة والجبرت وغيرها من بر العجم فلا يعلم متى أوله .

وقال فخر الدين بن بكر بن أبى يزيد المكى إن الذى اشتهر وبلغ حد التواتر : أن أول من أنشأها بأرض اليمن الشيخ العارف على بن عمر الشاذلى ، وأنها كانت قبل من الكفتة أعنى الورق المسمى بالقات ، لا من البن ولا من قشره ، وأما أول ظهورها بمصر فقال العلامة

ابن عبد الغفار : إنها ظهرت فى حارة الجامع الأزهر المعمور بذكر الله تعالى فى العشر الأول من هذا القرن (العاشر) وكانت تشرب فى نفس الجامع برواق اليمن يشربها فيه اليمانيون ، ومن يسكن معهم فى رواقهم من أهل الحرمين الشريفين ، وكان المستعمل لها الفقراء المشتغلون بالرواتب من الأذكار والمديح على طريقتهم المذكورة ، وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة يضعونها فى ماجور كبير من الفخار الأحمر ويغترف منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الأيمن فالأيمن مع ذكرهم المعتاد عليها وهو غالبا « لا إله إلا الله الملك الحق المبين » .

٤ وكان يشربها معهم موافقة لهم من يحضر الرواتب من العوام ، / وغيرهم قال : وكنا ممن يحضر معهم وشربناها معهم فوجدناها فى إذهاب النعاس والكسل كما قالوا . بحيث إنها تسهرنا ليالى لا نحصيها إلى أن نصلى الصبح مع الجماعة من غير تكلف ، وكان يشربها معهم من أهل الجامع من أصحابنا وغيرهم خلق لا نحصيهم ، ولم يزل الحال على ذلك ، وشربت كثيرا فى حارة الجامع الأزهر وبيعت بها جهرا فى عدة مواضع ، ولم يتعرض أحد مع طول المدة لشرابها ، ولا أنكر شربها لا لذاتها ولا لوصف خارج عنها من إدارة وغيرها مع اشتهارها بمكة وشربها فى نفس المسجد الحرام وغيره ، بحيث لا يعمل ذكر أو مولد إلا بحضورها ، وفشت فى المدينة الشريفة دون فشوّها فى مكة ، بحيث إن الناس يطبخونها فى بيوتهم كثيرا ثم حدث الانكار عليها بمكة المشرفة فى عام سبعة عشر وتسعمائة ، من أخوين أعجميين مشهورين بالحكيمين ، لهما فضيلة فى المنطق والكلام ومشاركة فى الطب ، ويدعيان مرتبة فى الفقه لم تسلم لهما ، ثم رحلا إلى مصر فى أواخر دولة الغورى وأقاما بها حتى قدم إليها السلطان المظفر سليم شاه فقتلهما توسيطا لما كانا يرميان به ، وأعانهما على القيام فى أمرها الشيخ شمس الدين محمد الحنفى الخطيب نقيب قاضى القضاة سرىّ الدين بن الشحنة وناس آخرون ، فأغرى الشيخ شمس الدين المذكور الأمير خير بيك المعمار باش مكة ومحتسبها إذ ذاك على إبطالها من

الأسواق ومنع الناس من شربها ، وعقد لذلك مجلسا عنده وكتبوا به محضرا،أنشأه لهم الشمس الخطيب وأرسلوه إلى مصر وأرسلوا معه سؤالا وطلبوا مرسوما سلطانيا بمنعها بمكة المشرفة .

ثم أشهر الأمير خير بيك النداء بمنع شربها أو بيعها ، وشَدَّد فى ذلك وعَزّر جماعة من باعتها ، وكبس مواضعهم وأحرق ما فيها من قشر البن ، فبطلت حينئذ من السوق . وكان الناس يشربونها فى بيوتهم اتقاء شره .

ثم ورد المرسوم السلطانى على خلاف غرضهم ففتر خير بيك عن التسلط على الناس فتجاسروا على شربها وقال فى هذا المعنى بعض أهل المجون :

قهوة البن حُرِمّت * فاحتسوا قهوة الزّبيب
ثم طيبوا وعربدوا * وانزلوا فى قفا الخطيب

وقال غيره :

قهوة البن حرمت * فاحتسوا قهوة العنب
واشربوها وعربدوا * والعنوا من هو السبب

وفى عام ثمانية عشر وتسعمائة قدم الأمير قطلباى إلى مكة المشرفة صحبة الرّكب الشريف عوضا عن خير بيك فأكثر من شربها فاشتهرت أضعاف اشتهارها الأول .

وفى ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وثلاثين قدم إلى مكة العارف بالله سيدى محمد بن عراق ، فبلغه أنه يفعل فى بيوت القهوة المنكرات فأشار على الحكام بإبطال بيوتها مع تصريحه

بحلها فى ذاتها ، ولما توفى الشيخ سنة ثلاث وثلاثين رجع الحال إلى ماكان عليه ، ولم تزل أولياء الشيخ من بعده على القول بحلها والمواظبة عليها ، وكان أجل ما يحضرونه لمن يرد عليهم من الأكابر ومن دونهم القهوة خصوصا فى زمن الموسم ، وقد منعها الشيخ شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطى وأفتى بحرمتها وقام معه العامة .

وفى ذلك قال بعضهم :

إن أقواما تعدوا * والبلا منهم تأتى
حرموا القهوة عمدا * قد رووا إفكاً وبهتا
إن سألت النص قالوا * ابن عبد الحق أفتى
يا أولى الفضل اشربوها * واتركوا ماكان بهتا
ودعوا العزال فيها * يضربون الماء حتى

وفى عام خمس وأربعين بينما جماعة فى بيوت القهوة يستعملونها فى شهر رمضان بعد العشاء ، إذ وافاهم صاحب العسس ، إما من تلقاء نفسه أو لأمر أوحى إليه فباتوا فى منزل السوباشاة (الضابط) وأخرجهم منها على هيئة شنيعة ، بعضهم فى الحديد وبعضهم مربوط فى الحبال ، ثم اطلقوا صباحا بعد أن ضرب كل واحد منهم سبع عشرة ضربة ، ثم لم يلبث أن ظهر الحق وعاد الحال إلى ماكان بعد نحو يومين .

وقد منعت بالقاهرة مرارا فلم تطل المدة وعلا منارها ولم يزل أمرها ظاهرا يشربها العلماء والصلحاء ، وطلبة العلم وأماثل الفقهاء ، ويقر عليها أهل الافتاء والتدريس فى سائر الأيام والأوقات والاجتماعات للأذكار فى ليالى الخيرات ، ويلتمس بها إذهاب الكسل وقوة النشاط .

قال والذى أقوله إن الحق الذى لا مرية فيه : إنها فى حدّ ذاتها حلال ، وأما الأمور المستجدة من هيئة بيوت باعتها واجتماع أهل المحظور فيها وإضافة ما لا يباح إليها فإنها تحرمها ، والخمر إنما حرمت بعد حلها لاشتمالها على قبح الأوصاف التى يحدث منها إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة .

ثم قال : من الباب الثانى فى سياق المحضر الذى كتب فى شأنها بمكة المشرفة ، وشرح المرسوم السلطانى الوارد جوابا عما نعت من صفتها إلى غير ذلك من نحو فتاوى العلماء فيها :
أما المحضر / فنص المقصود منه : هذه صورة واقعة شرعية مضمونها : أن مولانا الشريف ٥
أبا النصر قانصوه الغورى . لما أقامه الله تعالى خادما للحرمين الشريفين جعل الجناب العالى خير بيك المعمار ناظر الحسبة الشريفة بمكة المشرفة ، وباشا على المماليك السلطانية بها ، فلما اتفق له أنه فى ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة سبع عشرة وتسعمائة طاف بالكعبة الشريفة ، ثم شرب من ماء زمزم ثم توجه إلى بيته ، فرأى فى طريقه ناسا مجتمعين فى ناحية من نواحى المسجد الحرام ، قد جمعهم السيفى قرقماس النّاصرى ، يزعم أنه قد عمل مولدا للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقبل وصوله إليهم اطفئوا الفوانيس التى كانت موقدة فاتهمهم فى ذلك وأرسل إليهم ، فوجد بينهم شيئاً يتعاطونه على هيئة تعاطى الشراب المسكر،ومعهم كأس يديرونه بينهم وقرقماس هو الساق لهم ، فأنكر خاطر الأمير ذلك ، سيما وموضوع وظيفة الحسبة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسأل عن هذا الشراب فقيل له : إنه شراب اتخذ فى هذا الزمان يسمى القهوة،يطبخ من قشر حب يأتى من بلاد اليمن يقال له : البن وأنه قد كثر وفشا بمكة وصار يباع فى أماكن على هيئة الخمارات ، ويجتمع عليه الرجال والنساء بدفٍ ورباب

وغير ذلك ، ويجتمع فى تلك الأماكن من يلعب بالشطرنج والمنقلة ونحوها بالرّهن وغيره مما هو ممنوع فى الشريعة المطهرة حماها الله من الفساق إلى يوم التلاق ، فأنكر على هؤلاء الجماعة المجتمعين وفرق جمعهم وشتت شملهم ، فلما أصبح جمع القضاة والعلماء المقتدى بهم ، وحضر مولانا قاضى القضاة النجمى المالكى ، وتعذر حضور قاضى القضاة نسيم الدين المرشدى الحنفى ، وحضر الشيخ شهاب الدين فاتح بيت الله الحرام والشيخ عفيف الدين عبد الله اليمانى الحضرمى الشافعى المعروف بأبى كثير وجماعة كثيرون ، وأحضر القهوة فى مركن كبير والكأس معه وفاوضهم الأمير فى أمر القهوة واجتماع الناس عليها على هذه الهيئة ، فأجابوا أجمعون ؛ بأن ذلك حرام اتفاقا يجب إنكاره ، وأما الحب المسمى بالبن فحكمه حكم النباتات ، والأصل فيه الإباحة ، فان كان يحصل من مطبوخ قشره ضرر فى البدن أو العقل ، أو يحصل به نشوة وطرب فإنه حرام ، ولو استعمله الإنسان بمفرده فى داخل بيته ، والمرجع فى ذلك إلى الأطباء ، فأحضر الأمير خير بيك الشيخ نور الدين أحمد العجمى الكازرونى وأخاه

علاء الدين عليا ، وهما من أعيان السادة الأطباء بمكة وسألهما عن هذا البن ، فذكروا أنه بارد يابس مفسد للبدن المعتدل ، فاعترض عليهما شخص من الحاضرين ممن ليس لهم إلمام بالطب وقال : إن البن مذكور فى « منهاج البيان » وإنه محرق للبلغم ، فقال الطبيبان : إن المذكور فى « المنهاج » ليس هو هذا فإن هذا جزء مفرد بسيط وذاك مركب من أبازير ، وأبانا شهادتهما بصيغة (أشهد) المعتبرة لدى القضاة ، ثم ذكر جماعة من الحاضرين أنهم استعملوا القهوة فتغيرت حواسهم وانكروا هيئتهم وتغير عقلهم وحصل الضّرر فى أبدانهم وأقاموا شهادتهم بذلك عند القاضيين الصّلاحى الشافعى والنجمى المالكى ، ثم روجع فى ذلك قاضى القضاة نسيم الدين الحنفى فى داره فقال : إنه أقيم عنده البينة بمثل ذلك ، ولما تحقق الأمير خير بيك المحتسب عدم حلها أشهر النداء بمكة المشرفة بمسعاها ونواحيها بالمنع من تعاطى القهوة ، وجعل ذلك فى الصحائف الشريفة ، كل ذلك فى ضحوة يوم الجمعة إلى هنا انتهت عبارة المحضر ببعض حذف .

وأما صورة كتابة القضاة والعلماء فكتب قاضى القضاة صلاح الدين بن ظهير الشافعى : الحمد لله وتوكلت عليه الأمر كما شرح وبَيّن ونقّح .

وكتب القاضى عبد الغنى بن أبى بكر المرشدى الحنفى : أحمد الله وأفوض أمرى إلى الله الأمر كما شرح من مراجعتى فى دارى بسبب عذر شرعى ، وقد قامت البينة عندى بما ثبت من حرمة القهوة المشروحة فيه : اللهم اهدنا الصواب .

وكتب القاضى نجم الدين بن عبد الوهاب بن يعقوب المالكى : الحمد لله العادل فى قضائه ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾[1] والطف بنا فى كل حركة وسكون ، ونعوذ بالله من قول الزور ، والتعاطى بحرم الله أسباب الفجور ، وقد شهد عندى جماعة من الأعيان ذوى المعرفة والاتقان بافسادها للأبدان ، وبين ذلك غاية البيان . والأمر كما شرح فيه من غير شىء ينافيه ولا حاجة إلى نقل صور كتابة الباقين ، إذ ليس فيها غير الموافقة بناء على الصّفات المشروحة التى لا حقيقة لها على أن معظمهم كانوا عارفين بحقيقة الحال بل كانوا من شراب القهوة المواظبين عليها ، وإنما كتبوا اتقاء فحش الأمير ، لأنه كان متعصبا فى المسئلة جدا ، وقد تقرر عنده أن له فى منعها فخرا عظيما وثوابا جزيلا ، وكان مع ذلك سفيه اللسان جريئاً على القضاة وغيرهم ، ولم يستطع أحد أن يثبت للبحث مع المتعصبين بالباطل لحرمتها إلا الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعى مفتى مكة ، ولكنه سمع ما لا يحب بل كَفّره بعض أهل المجلس من أجل كلام صدر منه فى غاية الصحة لا محيص عنه ؛ فضلا عن أن يترتب عليه أدنى محظور ثم / جهزوا سؤالا وأرسلوه إلى الديار المصرية عرضوا فيه للشيخ نور الدين صورته ٦

(١) سورة الدخان آية رقم ١٢ .

ما قولكم رضى الله عنكم فى مشروب يقال له : القهوة ، شاع شربه فى مكة المشرفة وغيرها بحيث يتعاطونه فى المسجد الحرام وغيره ، ويدار بينهم بكأس ، وقد أخبر خلق ممن تاب عنه ؟ بأن كثيره يؤدى إلى السكر ، وأخبر عدول من الأطباء بأنه مضر بالأبدان ، وقد منع من شربه من يعتد بقوله من العلماء والزهاد بمكة ، وهناك شاهد جاهل جعل نفسه واعظا وأفتى الفساق بحل شربه .

فقيل له : ما تقول فى هذه الإدارة على هذه الصفة ؟ فقال الشارع أدار اللبن فقيل له : أخطأت لم يكن إدارة اللبن على هذه الصفة فهل يحل شربه على الوجه المذكور أم يحرم مطلقا لكونه مسكرا ومضرا بالأبدان ، وماذا على الجاهل المبيح لشربه ، وهل يجب على ولى الأمر إزالة هذا المنكر والمنع منه وردع هذا الجاهل ومن يقول بقوله أم لا ؟ وما الحكم فى ذلك أفتونا مأجورين وابسطوا الجواب أيدكم الله .

فبرز أمر السلطان المرحوم قانصوه الغورى من بيوردى بكتابة مرسوم وتجهيزه إلى مكة المعظمة ، فجهز ونص المقصود منه : وأما القهوة فقد بلغنا أن أناسا يشربونها على هيئة شرب الخمر ، ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون ، ومعلوم أن ماء زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حراما ، فليمنع شرّابها من التظاهر بشربها والدوران بها فى الأسواق انتهى .

وهذه عبارة صريحة فى النهى لكن إنما هو على حسب الانهاء ، ومع ذلك فليس فيها ما يدل على المنع من شربها بوجه بل من التظاهر بها ، ومن فعله على الهيئة المخصوصة التى بلغتهم فقط ، وذلك لا يدل على حرمة ذاتها بل تشبيهها بماء زمزم نصّ أو كالنصّ فى حلّها على غير تلك الهيئة ، ولذا لم يمنعها السلطان من مصر التى هى محل الكرسى والولاية ، ولعله إنما منع من التظاهر بها سدّاً للذريعة ، مخافة أن تشرب على تلك الهيئة الممنوعة .

ومما روى من نظم بعض أعيان العلماء القائلين بحلها وكثرة فوائدها :

يا قهوة تذهب همّ الفتى * أنت لحاوى العلم نعم المراد
شراب أهل الله فيها الشفا * لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشرا فتأتى لنا * فى نكهة المسك ولون المداد
ما عرف الحق سوى عاقل * يشرب من وسط الزبادى زباد
حرّمها الله على جاهل * يقول فى حرمتها بالعناد
فيها لنا تبر وفى حانها * صحبة أبناء الكرام الجياد
كاللبن الخالص فى حله * ما خرجت عنه سوى بالسّواد

انتهى باختصار كثير وتصرف قليل .

وفيه أيضا بالخط الفرنساوى عن بعض مؤلفى الأتراك ما ترجمته :

شجرة القهوة تنبت باليمن فى كورتين ، منها فوق الجبال التى تعلو زبيدا فى مقابلة بيت الفقيه فى الخط المعروف بوصاب ، والخط المعروف بنهارى ، وهما قريبان من نينا جيزان ، وشجرها مغروس على خطوط مستقيمة ، ولها شبه بشجرة الكريز ، وورقها ثخين واخضراره معتم ، وتستمر آخذة فى الكبر إلى ثلاثين سنة ، وغاية ما تبلغ فى الارتفاع إلى ثمانية أذرع ، وزهرها أبيض ويخرج ورق الزّهر اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة ، وهو أكبر من ورق زهر الكريز وثمرها يشبه ثمر الكريز أيضا ، وفى وقت خضرته يكون غضّا بمرارة فإذا إحمرّ يكون فى طعم اللبن الحامض ، وعند إدراكه وانتهاء استوائه يكون أحمر اللون يضرب إلى السواد كالوشنه ،

بحيث لو خلط بها لم يعرف إلا بالطعم والرائحة ، وشكل الجوزة المنقسمة فلقتين وطعمه أشهى من الكريز ، ويجمع قبل استوائه وينشر فوق الأسطحة المستوية فينشف ويسودّ لونه ثم يدش على الأرحية ، ثم يخلص من قشره بالتذرية ، وهذا هو البن الذى يباع فى جهات الدنيا .

وأما الذى يبقى على أصوله حتى يتم استواؤه فلا يحتاج إلى الدش بل يفصل قشره باليد ويُنشَف كالزبيب ، وأهل اليمن يغلونه ويستعملون منقوعه مُبردا فى الصيف وهو نافع للصحة ، وهذا النوع يبقى فى اليمن ولا يخرج إلى بلاد غيرها ويكون غالى القيمة ، وأحسن البن ماكان حبّه غليظا مع الخضرة .

والقشر الذى تكلمنا عليه حار رطب فى الأولى ، والشراب المصنوع منه إن شرب صيفاً يرخى البطن وينعش القلب ويزيل الثقل والفتور الحاصل فى الصباح ، والأحسن فى قلى الحب عدم الجور عليه لئلا تضيع خاصيته ، وشرب القهوة بعد الأكل بساعة نافع للصحة لهضمه الطعام ، ولها نفع فى الزكام وآلام الرأس ، وفى كل سنة يخرج من بلاد العرب ثمانون ألف فرد من البن ، منها إلى جدة أربعون ألف ، والباقى يخرج إلى البصرة وغيرها .

والفرد ثلاثة قناطير وكل أربعة قناطير منها مع زيادة عشرة أرطال قنطار بالدمشقى ، وكان دخولها فى بلاد الروم خصوصا القسطنطينية سنة تسعمائة واثنتين وستين هجرية ، وفى هذا الوقت ظهرت أماكنها المعهودة لها ، افتتح ذلك رجل من دمشق بنى قهوة فاجتمع فيها الناس حتى العلماء ، وأول استكشافها كان سنة ستمائة وست وخمسين هجرية انتهى .

٧

/ مطلب الكلام على بلاد الجبرت

وإنما أطلنا الكلام فى القهوة لما فيه من الفائدة وحيث تقدم ذكر الحبشة والجبرت فلا بأس بذكر طرف مما فى الجبرتى مما يتعلق بها فنقول :

قال الجبرتى فى تاريخه : بلاد الجبرت هى بلاد الزيلع بأراضى الحبشة تحت حكم الحطى ملك الحبشة ، وهى عدة بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة المسلمون بذلك الأقليم ، ويتمذهبون بمذهب الحنفى والشافعى لاغير ، وينسبون إلى سيدنا أسلم بن عقيل بن أبى طالب ، وكان أميرهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم النجاشى المشهور الذى آمن به ولم يره وصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الغيبة كما هو مشهور فى كتب الأحاديث .

وهم قوم يغلب عليهم التقشف والصلاح ويأتون من بلادهم بقصد الحج والمجاورة فى طلب العلم ، ويحجون مشاة ولهم رواق بالجامع الأزهر بمصر .

وللحافظ المقريزى مؤلف فى أخبار بلادهم وتفصيل أحوالهم ونسبهم . ومنهم القطب الكبير المعتقد الشيخ إسماعيل بن سودكين الجبرتى تلميذ ابن العربى ويسمى ، قطب اليمن ، والشيخ عبدالله المترجم فى حسن المحاضرة للسيوطى ، وهو الذى كان يعتقده الملك الظاهر برقوق ، وأوصى أن يدفن تحت قدمه بالصحراء .

ومنهم العارف الشيخ على الجبرتى الذى كان يعتقده السلطان الأشرف قايتباى وارتحل إلى بحيرة أدكو فيما بين رشيد والإسكندرية ، وبنى هناك مسجداً عظيماً ووقف عليه عدة أماكن

وقيعان وأنوال حياكة وبساتين ونخيلاً كثيرة قال : وهو موجود إلى الآن عامر بذكر الله والصلاة إلا أن غالب أماكنه زحفت عليها الرّمال وطمّتها وغابت تحتها وفيه إلى الآن بقية صالحة .

وبنى أيضاً مسجداً شرق عمارة السلطان قايتباى ودفن فيه ، وقد تخرب وانطمست معالمه ، ولم يبق إلا مدفنه ، وحوله حائط متهدم من غير باب ولا سقف ، وبابه ظاهر مكشوف يزار ،

ومنهم الإمام الحجة المجتهد فخر الدين ابن عمرو عثمان الحنفى الزيلعى شارح الكنز المسمى « بتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق » المدفون بحوطة عقبة بن عامر الجهنى .

والنجاشى أول من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم من الملوك ولم يره ، وأخباره مع النبى صلى الله عليه وسلم والمهاداة بينهما وبعض أخبار الحبشة وما ورد فيهم من الآيات والأحاديث والآثار مشهورة مبسوطة فى كثير من الكتب : مثل كتاب (الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش) لعلاء الدين محمد بن عبدالله البخارى الخطيب ، وكتاب (رفع شأن الحبشان) للعلامة جلال الدين السيوطى ، (وتنوير الغبش فى فضائل السودان والحبش) إلى غير ذلك .

وفى الحبوش أخلاق لطيفة وشمائل ظريفة ، وفيهم الحذق والفطانة ولطافة الطباع وصفاء القلوب ؛ لكونهم من جنس لقمان الحكيم ، وهم أجناس منهم السحرتى والأمحرى ، وهم أحسن أجناس الحبوش الموصوفين بالصباحة والملاحة والفصاحة والنعومة فى الخدّ والرّشاقة فى القدّ ، والأمحرية تفوق على السحرتية باللّطف والظرف ، والسحرتية تفوق على

/ لأمحرية بالشدّة والعنف . وقيل : إن النجاشى منهم ويقرب من هذين النوعين نوعان آخران الداموت وبلين ، ونوعان آخران وهما قووفتر ، ونوع آخر يسمى أزاره وللقاضى عبد البر بن الشحنة :

حبشيّة سألتها عن جنسها فتبسمت عن درّ ثغر جَوْهرى
فطفقت أسأل عن نعومة ما خفى قالت فما تبغيه جنسى أمحرى

وللشيخ شهاب الدين البراذعى :

وخذ ما حلا من بنات الحبو ش من جلب زيلع أو من أزاره

إلى غير ذلك انتهى .

ترجمة والد الشيخ الجبرتى

وقد ترجم[١] الجبرتى قبل ذلك والده : بأنه الإمام العلامة ، والنحرير الفهامة ، حامل لواء العلوم على كاهل فضله ، ومحرر دقائق المنطوق والمفهوم بتحريره ونقله ، من تكحلت بمداده عيون الفنون وتشنفت المسامع بما عنه روى الراوون ، وارتفع من حضيض التقليد إلى نور الفضائل وسابق فى حلبة العلوم ، فحاز قصب الفواضل ، الروض النضير الذى ليس له فى سائر العلوم نظير ، وهو فى فقه النعمان .

الجامع الكبير عمدة الأنام وفيلسوف الإسلام سيدى ووالدى بدر الملة والدين أبى التدانى حسن بن برهان الدين إبراهيم ابن الشيخ العلامة حسن ابن الشيخ نور الدين على ابن الولى الصالح شمس الدين محمد ابن الشيخ زين الدين عبد الرحمن الزيلعى الجبرتى العقيلى الحنفى المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة وألف رحمه الله تعالى .

ثم قال : والشيخ عبدالرحمن وهو الجد السابع لجامعه وإليه ينتهى علمنا بالأجداد ، هو الذى ارتحل من بلاده ووصل إلينا خبره سلفاً عن خلف إلى جدة وانتقل إلى مكة فجاور بها وحج مراراً وجاور بالمدينة المنوّرة سنتين وحضر إلى مصر من طريق القلزم وجاور بالأزهر فى الرواق ، واجتهد فى التحصيل وتولى شيخاً على الرواق وكذلك / ابنه من بعده الشيخ شمس الدين محمد ، وكان على غاية من الصلاح وملازمة الجماعة ولا يبيت عند عيالة إلا ليلة أو ليلتين فى الجمعة وباقى الليالى بالرواق للمطالعة على السهارة والتهجد آخر الليل ، ومات ٨

(١) انظر ترجمة كاملة فى عجائب الآثار للجبرتى ٣٨٩/١ ط الشرفية القاهرة .

وخلف ابنه الشيخ على فنشأ على قدم أسلافه فى العلم والعمل ، وصار له شهرة وثروة وتزوّج بزينب بنت القاضى عبدالرحيم الجوينى ، ومات وخلف ولديه الشيخ حسنا المتوفى سنة سبع وتسعين وألف ، وأخاه الشيخ عبدالرحمن المتوفى سنة تسع وثمانين وألف .

ولما توفى الشيخ حسن أعقب الجد إبراهيم رضيعاً فكفلته والدته الحاجة مريم بنت الشيخ محمد بن عمر المنزلى الأنصارى فنشأ نشوأ صالحاً حتى بلغ الحلم ، فزوجته بستيتة بنت عبدالوهاب أفندى الدلجى ، فى سنة ثمان ومائة وألف ، وبنى بها فى تلك السنة فولدت الوالد المترجم فى سنة عشر ومات والده وعمره شهر واحد ، وسن والده إذ ذاك ست عشرة سنة ، فربته والدته بكفالة جدته المذكورة . ووصاية الشيخ محمد النشرتى ، وقرروه فى مشيخة الرواق كأسلافه ، والمتكلم عنه وصيّة ، وتربى فى حجورهم حتى ترعرع وحفظ القرآن وعمره عشر سنين ، واشتغل بحفظ المتون فحفظ الألفية ، والجوهرة ، ومتن كنز الدقائق فى الفقه ، ومنظومة ابن الشحنة فى الفرائض وغير ذلك .

واتفق له وهو ابن ثلاث عشرة سنة أنه مرّ مع خادمه بطريق الأزهر فنظر إلى شيخ مقبل منوّر الوجه والشيبة وعليه جلالة ووقار طاعن السن ، والناس يزدحمون على تقبيل يده ويتبركون به ، فسأل عنه فعرف أنه ابن الشيخ الشرنبلالى فتقدم إليه ليقبل يده كغيره فنظر إليه الشيخ وقبض على يده وقال : من يكون هذا الغلام ؟ فعرّفوه عنه فتبسم وقال : عرفته بالشبه ، ثم قال : إسمع يا ولدى أنا قرأت على جدّك وهو قرأ على والدى ، وأحب أن تقرأ علىّ شيئاً وأجيزك وتتصل بيننا سلسلة الإسناد وتلحق الأحفاد بالأجداد ، فلازم الحضور عنده كل يوم ، وقرأ عليه متن نور الإيضاح تأليف والده فى العبادات ، وكتب له الإجازة والسند فقال فيها بعد أن حمد الله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ما نصه : وبعد .

فقد حضر إلىّ الولد النجيب الموفق اللبيب الفطن الماهر الزكى الباهر سليل العلماء الأعلام ، ونتيجة الفضلاء العظام ، نور الدين حسن ابن برهان الدين إبراهيم ابن مفتى المسلمين حسن الجبرتى الحنفى رحم الله أسلافه ، وقرأ علىّ متن نور الايضاح من أوله إلى آخره تأليف والدى المندرج إلى رحمة الله الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالى ، وأجزته بجميع ما يجوز لى روايته إجازة عامة ، كما أجازنى به الوالد وتلقى هو ذلك عن الشيخ على المقدسى شارح نظم الكنز عن العلامة الشلبى شارح الكنز ، عن القاضى عبدالبر ابن الشحنة ، عن الكمال ابن الهمام ، عن سراج الدين قارىء الهداية عن علاء الدين بن عبد العزيز البخارى ، عن حافظ الدين صاحب الكنز عن شمس الأئمة الكردرى ، عن برهان الدين صاحب الهداية ، عن فخر الإسلام البزدوى ، عن شمس الأئمة السرخسى ، عن شمس الأئمة الحلوانى ، عن القاضى ابن على النسفى ، عن الإمام محمد بن الفضل البخارى ، عن عبد الله السندمونى عن الأمير عبد الله بن أبى حفص البخارى ، عن أبيه عن الإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، عن الإمام أبى يوسف عن الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمانى بن ثابت رضى الله عنه ، عن الإمام حماد بن سليمان عن إبراهيم النخعى عن الإمام علقمة عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، عن أمين الوحى جبريل عليه السلام عن الله عز وجل وأوصى الولد الأعز بالتقوى ومراقبة الله فى السر والنجوى ، والله تعالى يوفقه وينفع به وبعلومه ويهدينا وإياه لما كان عليه السلف الصالح فى أساس الدين ورسومه .

قال ذلك الفقير إلى الله تعالى حسن بن حسن الشرنبلالى الحنفى فى ثالث ربيع الأول من سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف إنتهت الإجازة .

واجتهد المترجم فى طلب العلوم وحضر أشياخ العصر وتفقه على السيد على السيواسى الضرير ، وعلى الشيخ أحمد التونسى الدقدوسى ، والشيخ على الصعيدى الحنفى ، وتلقى عنه

النزهة فى علم الغبار والقلصادى ومنظومة ابن الهائم ، وعلى الشيخ الشهاب أحمد بن مصطفى الإسكندرى الصباغ : شرح الكبرى وأم البراهين ، وشرح العقائد والمواقف ، وشرح المقاصد للسعد ، والكشاف ، والبيضاوى ، والشمائل ، والصحيحين ، والأربعين النووية ، والمشارق والقطب على الشمسية ، والمواهب اللدنية .

وعلى الشيخ عيد النمرسى ، الورقات ، وآداب البحث والعضدية ، وعلم الجبر والمقابلة والعروض ، وأعمال المناسخات ، والكسورات والأعداد الصم والحساب والمساحة وغير ذلك ، ولم يدع شيخاً من أشياخ عصره ، إلا أخذ عنه ، ولا كتاباً إلا تلقاه وجدّ فى التحصيل حتى فاق أهل عصره وباحث وناضل ودرس بالرواق وبالسنانية ببولاق .

وكان لجدته أم أبيه مكان مشرف على النيل بربع الخرنوب عندما كان النيل ملاصقاً لسدته فسكنها مدة ، فكان يغدو إلى الجامع ثم يعود إلى بولاق وله حاصل بربع الخرنوب يجلس / فيه حصة ثم يعود إلى السنانية فيملى هناك درساً ، ثم احترق ذلك المنزل بما فيه وتلفت أشياء كثيرة من المتاع والصينى القديم فانتقلت إلى مصر ، وكانوا يذهبون إلى مكان لها بمصر العتيقة فى أيام النيل بقصد النزهة ، وهى التى أعانته على تحصيل العلوم حتى أنه كان يقول : ما عرفت المصرف واحتياجات المنزل والعيال إلا بعد موتها ، ومع اشتغاله بالعلم كان يعانى التجارة والمشاركة والمضاربة ، وكانت جدته ذات غنى وثروة ، ولها أملاك وعقارات ووقفت عليه أماكن منها : الوكالة بالصنادقية والحوانيت بجوارها وبالغورية ومرجوش ، ومنزل بجوار المدرسة الآقبغاوية ، ورتبت فى وقفها عدة خيرات ومكتباً لإقراء الأيتام بالحانوت المواجهة للوكالة المذكورة ، وربعة تقرأ كل يوم وختمات فى ليالى المواسم وقصعتى ثريد كل ليلة من ليالى رمضان ، وثلاثة جواميس تفرق على الفقهاء والأيتام والفقراء فى عيد

الأضحية ، وبعد موت جده تزوجها الأمير على أغا باش اختيار متفرقة المعروف بالطورى وتزوج المترجم بابنته ، وله حكم قلاع الطور والسويس والمويلح وكانت تلك المواضع إذ ذاك عامرة وبها المرابطون ويصرف عليهم العلوفات والإحتياجات .

ولما مات على أغا سنة سبع وثلاثين تقلد ذلك بعده المترجم مدة مع كونه فى عداد العلماء وربى معتوقيه عثمان وعليا ولم يزالا فى كنفه حتى ماتا ، وأرسل خادماً له يسمى سليمان الحصافى بجوربجيا على قلعة المويلح فقتلوه هناك ، فترك هذا الأمر وأقبل على الاشتغال بالعلم ، وماتت زوجته بنت الأمير على فتزوج ببنت رمضان جلبى بن يوسف الخشاب ، وهم بيت مجد وثروة ببولاق ولهم أملاك وأوقاف ، من ذلك وكالة الكتان وربع وحوانيت تجاه جامع الزردكاش ، وبيت كبير بساحل النيل وكانت تلك الزوجة من الصالحات المصونات .

ومن برّها له وطاعتها أنها كانت تشترى له السرارى الحسان من مالها ويتزوج عليها كثيراً من الحرائر ولا تتأثر ، واشترى مرة جارية بيضاء فأحبتها حباً شديداً ودفعت له ثمنها وأعتقتها وزوجتها إياه وجهزتها وفرشت لها مكاناً على حدتها وبنى بها فى سنة خمس وستين ، وكانت لا تقدر على فراقها ساعة مع كونها صارت ضرتها .

وفى سنة اثنتين وثمانين مرضت الجارية فمرضت لمرضها وثقل عليها المرض ، فقامت الجارية فى ضحوة النهار فنظرت إلى مولاتها وكانت فى حالة غطوسها فبكت وقالت : إلهى إن كنت قدّرت موت سيدتى فاجعل يومى قبل يومها ثم رقدت ، وزاد بها الحال وماتت تلك الليلة فسحبوها من جانبها فاستيقظت مولاتها آخر الليل وجستها بيدها وصارت تقول : زليخا زليخا فقالوا لها إنها نائمة فقالت : إن قلبى يحدثنى أنها ماتت ، ورأيت فى منامى ما يدل على

ذلك ، فقالوا لها : حياتك الباقية فقامت وجلست ، وهى تقول لا حياة لى بعدها وصارت تنتحب حتى طلع النهار ، وجهزوها بين يديها وحملوا جنازتها ورجعت إلى فراشها ودخلت فى سكرات الموت ، وماتت آخر النهار وخرجوا بجنازتها فى اليوم الثانى .

قال : وهذا من أعجب ما شاهدت وسنى إذ ذاك أربع عشرة سنة واشتغل الوالد فى أيام اشتغاله بتجويد الخط ، فكتب على عبد الله أفندى الأنيس ، وحسن أفندى الضيائى ، طريقة الثلث والنسخ حتى أحكم ذلك ، وأجازه الكتبة وأذنوا له أن يكتب الإذن على اصطلاحهم ، ثم جود فى التعليق على أحمد أفندى الهندى النقاش لفصوص الخواتم حتى أحكم ذلك وغلب على خطه طريقته ومشى عليها .

وكتب الديوانى والقرمة وحفظ الشاهدى واللسان الفارسى والتركى ، حتى أن كثيراً من الأعاجم والأتراك يعتقدون أن أصله من بلادهم لفصاحته فى التكلم بلسانهم ولغتهم .

ثم فى سنة أربع وأربعين اشتغل بالرياضيات فقرأ على الشيخ محمد الجناجى رقائق الحقائق للسبط الماردينى والمجيب والمقنطر والدر لابن المجدى ومنحرفات السبط ، وإلى هنا انتهت معرفة الشيخ الجناحى ، وعند ذلك انفتح له الباب وانكشف عنه الحجاب وعرف السمت والارتفاع والتقاسيم والأرباع ، والميل الثانى والأول والأصل الحقيقى وغيره ، واستخرج نتائج الدر اليتيم والتعديل والتقويم ، وحقق أشكال الوسائط فى المنحرفات والبسائط والمحلولات وحركات التداوير والنطاقات والتشهيل والتقريب والحل والتركيب والسهام والظلال ودقائق الأعمال ، وانتهت إليه الرياسة فى الصناعة وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة ، وسلم له عطارد وجمشيد الراصد وناظره المشترى ، وشهد له الطوسى والأبهرى وتبوأ من تلك الفنون مكاناً عليا وزاحم بمنكبه العيوق والثريا .

وقدم الشيخ حسام الدين الهندى وكان متضلعاً من العلوم الرياضية والمعارف الحكمية والفلسفية فنزل بمسجد فى مصر القديمة واجتمع عليه بعض الطلبة مثل : الشيخ الوسيمى والشيخ الدمنهورى وتلقوا عنه أشياء فى الهيئة وذهب إليه الوالد فاغتبط به الشيخ وأقبل بكليته عليه ، ونقله الوالد إلى داره وأفرد له مكاناً وأكرم نزله وطالع عليه الجغمينى وقاضى زاده والتبصرة والتذكرة وهداية الحكمة لأثير الدين الأبهرى وما عليهما / من المواد والشروح مثل السيد والميبدى قراءة بحث وتحقيق وأشكال التأسيس فى الهندسة وتحرير اقليدس والمتوسطات والمبادىء والغايات وعلم الارثماطيقى وعلم المساحة وغير ذلك ، ثم أراد أن يلقنه علم الصنعة الآلهية وكان من الواصلين فيها ، فأبت نفسه الاشتغال بسوى العلوم المهذبة للنفس ، وكان يحكى عنه أموراً تشعر بأنه كان من الواصلين ولم يزل عنده حتى سافر إلى بلاده ، وقدم أيضاً الشيخ محمد الفلانى الكشناوى فاجتمع عليه المترجم وتلقى عنه علم الأوفاق وقرأ عليه شرح منظومة الجزئيات للقوصانى ، والدر والترياق ، والمرجانية فى خصوص المخمس الخالى الوسط ، والأصول والضوابط ، والوفق المثينى ، وعلم التكسير للحرف وغير ذلك .

١٠

وسافر الشيخ للحج ورجع فأنزله عنده بزوجته وجواريه وعبيده وكمّل عنده غالب مؤلفاته ولم يزل حتى مات ، ولقى المترجم فى حجاته الشيخ النخلى ، وعبدالله بن سالم البصرى ، وعمر بن أحمد بن عقيل المكى ، والشيخ محمد حياة السندى ، والسيد محمد السقاف وغيرهم ، وتلقى عنهم وأجازوه وهم أيضاً تلقوا عنه ولقنه أبوالحسن السندى طريق السادة النقشبندية والأسماء الأدريسية ، ثم قال بعد أن ساق صورة إجازة الشيخ عمر بن احمد بن عقيل للمترجم بما فيها من ذكر سنده المتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم من عدة طرق .

وللوالد أشياخ غير هؤلاء كثيرون اجتمع بهم ، وتلقى عنهم وشاركهم وشاركوه ، مثل على أفندى الداغستانى ، والشيخ عبد ربه بن سليمان بن أحمد الفشتالى الفاسى ، والشيخ عبداللطيف الشامى ، والجمال يوسف الكلارجى ، والشيخ رمضان الخوانكى ، والشيخ محمد النشيلى والشيخ عمر الحلبى ، والشيخ حسين عبدالشكور المكى ، والشيخ إبراهيم الزمزمى والأستاذ عبدالخالق بن وفا ، وكان خصيصاً به وأجازه بالأحزاب .

وهو الذى كناه بأبى التّدانى وألبسه التاج الوفائى والشيخ أحمد الدلجى ابن خال المترجم ، والشيخ إبراهيم الحلبى صاحب حاشية الدر ، والسيد سعودى محشى منلامسكين وغيرهم من الأكابر أهل الأسرار ، حتى كمل فى المعارف ورمقته العيون بالإجلال ، وعلا شأنه على الأقران ، وأذعنت له الأذواق وشاع ذكره فى الآفاق ، ووفدت عليه الطلاب من كل فج ، ولزموا الطواف بكعبة فضله ، فمنهم من ينفر بعد بلوغ أمنيته ومنهم من يواظب على الاعتكاف بساحته .

وكان رحمه الله عذب المورد للطالبين طلق المحيا للواردين ، يكرم كل من أمَّ حماه ، ويبلغ الراجى مناه ، والمقتفى جدواه ، والراغب أقصى مرماه ، مع البشاشة والطلاقة ، وسعة الصدر والرياقة ، وعدم رؤية المنة على المجتدى ، ومسامحة الجاهل والمعتدى مع حسن الأخلاق والصفات :

له صحائف أخلاق مهذبة منها العلا والحجا والفضل ينتسج

وكان وقوراً محتشما مهيباً فى الأعين ، معظماً فى النفوس ، محبوباً للقلوب ، لا يعادى أحداً على الدنيا ، فلذا لا تجد من يكرهه ولا من ينقم عليه فى شىء ، ومكارم الأخلاق والحلم والصفح والتواضع والقناعة وشرف النفس وكظم الغيظ والانبساط مع الجليل والحقير ، كل ذلك سجية له من غير تكلف ولا يعرف التصنع فى الأمور ، ولا يرى لنفسه مقاماً ولا علماً ولا مشيخة على التلاميذ ، ولا يرضى التعاظم ولا تقبيل اليد ، وله منزلة فى قلوب الأكابر والأمراء والوزراء ويسعون إليه ويذهب إليهم لبعض المقتضيات ، ويرسل إليهم فلا يردون شفاعته ولا يتوانون فى حاجته لمعرفته بلسانهم واصطلاحهم ورغبتهم فى مزاياه ومعارفه المختص بها دون غيره ، سيما أكابر العثمانية مثل على باشا الحكيم ، وراغب باشا وأحمد باشا الكور ، كل ذلك مع العفة والعزة وعدم التطلع لشىء من أسباب الدنيا ، كوظيفة أو مرتب أو فائظ ، وكان له صحبة مع عثمان بيك ذى الفقار ، وحج فى إمارته على الحج ثلاث مرات من ماله ، ولم يصله منه سوى ما كان على سبيل الهدية ، وكان منزل سكنه الذى بالصنادقية ضيقاً من أسفل وكثير الدّرج ، فعالجه إبراهيم كتخدا على أن يشترى أو يبنى له داراً واسعة فلم يقبل ، وكذا عبدالرحمن كتخدا ، وكان له ثلاثة مساكن أحدها هذا بالقرب من الأزهر ، وآخر بالأزبكية بشاطىء النيل ، ومنزل زوجته القديمة تجاه جامع مرزه ، وفى كل منزل زوجة وسرارى وخدم ، فكان ينتقل فيها مع أصحابه وتلامذته ، وكان يقتنى المماليك والعبيد والجوارى البيض والحبوش والسود .

وله من الأولاد نيف وأربعون ولداً ذكوراً وإناثاً كلهم دون البلوغ ، ولم يعش له من الأولاد سوى الحقير ، وكان يرى الاشتغال بغير العلم من العبثيات وإذا أتاه طالب فرح به وأقبل عليه وأكرمه خصوصاً إذا كان غريباً ، وربما دعاه للمجاورة عنده وصار من جملة عياله ، ومنهم من أقام عشرين عاماً لا يتكلف شيئاً من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه من غير ملل ولا ضجر .

وأنجب عليه كثير من علماء وقته طبقة بعد طبقة ، مثل الشيخ أحمد الراشدى ، والشيخ إبراهيم الحلبى ، وأبى الاتقان الشيخ مصطفى الخياط ، والشيخ أحمد العروسى ، ومن الطبقة الأخيرة التى / أدركناها الشيخ أبوالحسن العكنى والشيخ عبدالرحمن البنانى ، ومن الملازمين له الشيخ محمد النفراوى ، والشيخ محمد الصبان والشيخ محمد عرفة الدسوقى ، والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد الجناجى والشيخ مصطفى الرئيس والشيخ محمد الشوبرى والشيخ عبدالرحمن القرشى والشيخ محمد الفرماوى ، وكان يباسط أخصاءه منهم ويمازحهم بالأدبيات والنوادر والأشعار والمواليات والمجونيات والحكايات والنكات وينتقلون معه فى مواطن النزهة ، فيقطعون الأوقات فى دراسة العلم ومطارحات المسائل والمفاكهة والمباسطة .

وممن تلقى عنه شيخ الشيوخ الشيخ على العدوى ، تلقى شرح الزّيلعى على الكنز فى الفقه الحنفى ، وكثيراً من المسائل الحكمية ، ولما قرأ كتاب المواقف كان يناقشه فى بعض المسائل المحققون من الطلبة ، فإذا توقف فى مسئلة يقوم من حلقته ويقول لهم : اصبروا حتى أذهب إلى من هو أعرف منى بذلك ، فيأتى المترجم فيصوّرها له بأسهل عبارة فيرجع فى الحال إلى درسه ويحققها لهم ، وهذا من أعظم الديانة والإنصاف ، وقد تكرر منه ذلك ، وكان يقول عنه : لم نر ولم نسمع من توّغل فى علم الحكمة والفلسفة وزاد إيمانه إلا هو رحم الله الجميع .

وتلقى عنه من الآفاقِيِّين وأهل بلاد الروم والشام وداغستان والمغاربة والحجازيين خلق لا يحصون ، وأجل الحجازيين الشيخ إبراهيم الزّمزمى ، وأما ما اجتمع عنده وما اقتناه من الكتب فى سائر العلوم ، فكثير جداً قلما اجتمع ما يقاربها فى الكثرة عند غيره من العلماء وغيرهم ، وكان سموحاً بإعارتها وتغييرها للطلبة وذلك كان السبب فى إتلاف أكثرها وتخريمها وضياعها ، حتى إنه كان أعدّ محلاً فى المنزل ووضع فيه نسخاً من الكتب التى يتداول علماء

الأزهر قراءتها للطلبة ، مثل الأشمونى ، وابن عقيل ، والشيخ خالد والأزهرية والشذور ، وكذا كتب التوحيد مثل : شروح الجوهرة ، وشروح السنوسية الكبرى والصغرى ، وكتب المنطق ، والاستعارات والمعانى ، وكتب الحديث والتفسير والفقه وغير ذلك ، فكانوا يغيرون منها من غير إستئذان ، وقد أرسل إليه السلطان مصطفى نسخاً من خزانته ، وكذلك أكابر الدولة بالروم ومصر وباشا تونس والجزائر واجتمع لديه من كتب الأعاجم ، الكلستانى ، وديوان حافظ شاه نامه ، وتواريخ العجم ، وكليلة ودمنة ، ويوسف زليخا وغير ذلك ، وبهذه الكتب تصاوير بديعة الصنعة غريبة الشكل ، وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس التى كان أعتنى بوضعها حسن أفندى الروزنامجى ، بيد رضوان أفندى الفلكى ، اشترى جميعها من تركة حسن أفندى ، وكذلك غيرها من الآلات الإرتفاعية والميالات ، وحلق الأرصاد ، والإصطرلابات والأرباع والعدة الهندسية ، وأدوات غالب الصنائع من النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين والصاغة وآلات الرسم والتقاسيم ، ويجتمع به كل متقن فى صناعته مثل : حسن أفندى الساعاتى ، وعابدين أفندى الساعاتى ، وعلى أفندى رضوان من أرباب المعارف فى كل فن ، ومحمد أفندى الإسكندرانى وإبراهيم السكاكينى ، والشيخ محمد الزبدانى .

وكان فريداً فى صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والأدهان وغير هؤلاء ممن رأيت ومن لم أره ، وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرءوا عليه علم الهندسة سنة تسع وخمسين وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من حينئذ ، وأخرجوه من القوّة إلى الفعل ، وإستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه ، وفى أيام إشتغاله بالرسم رسم ما لا يحصى من المنحرفات والمزاول على الرخام والبلاط ونصبها فى أماكن كثيرة مثل : الأزهر والأشرفية وقوصون ومشهد الأمام الشافعى والسادات .

وفى الآثار منها ثلاثة واحدة بأعلى القصر ، وأخرى على البوابة ، وأخرى بسطح الجامع كسرها فراشوا الأمراء الذين كانوا ينزلون هناك للنزهة ليمسحوا بها صوانى الأطعمة الصفر وغير ذلك من منازله وغيرها ، حتى أن الخدم تعلموا ذلك فصاروا يقطعون البلاط بالمناشير ويمسحونه بالمماسح الحديد والمبارد ويهندسونه .

وأما ما كان على الرخام فيباشر صناعته وحفره صناع الرخام بالأزمير بعد التعليم على مواضع الرسم ومقادير أبعاد المدارات، والظلال وما عليها من الكتابة والتعاريف ، ولما تمهر الآخذون عنه ترك الاشتغال بذلك وأحال الطلاب عليهم ، فإذا كان الطالب من أبناء العرب تقيد بالشيخ محمد النفراوى ، وإن كان من الأعاجم تقيد بمحمود أفندى الفيشى ، واشتغل هو بمدارسة الفقه وانكب عليه الناس يستفتونه وتقرر فى أذهانهم تحريه الحق حتى أن القضاة لا يثقون إلا بفتواه ، وكان لا يعتنى بالتأليف إلا فى بعض التحقيقات المهمة منها : نزهة العينين فى زكاة المعدنين ، ورفع الإشكال بظهور العشر فى العشر فى غالب الأشكال ، والأقوال المعربة عن أحوال الأشربة ، وكشف اللثام عن وجوه الصنف الأول من ذوى الأرحام ، والقول الصائب / فى الحكم على الغائب ، وبلوغ الآمال فى كيفية الاستقبال ، ١٢ والجداول البهية برياض الخزرجية فى العروض ، وإصلاح الأسفار عن وجوه بعض مخدرات الدر المختار ، ومأخذ الضبط فى إعتراض الشرط على الشرط ، والنسمات الفيحية على الرسالة الفتحية ، وحقائق الدقائق على دقائق الحقائق ، وأخصر المختصرات على ربع المقنطرات ، والثمرات الجنية من أبواب الفتحية ، والمفصحة فيما يتعلق بالأسطحة ، والدر الثمين فى علم الموازين ، وحاشية على شرح قاضى زاده على الجغمينى لم تكمل ، وحاشية على الدر المختار لم تكمل ومناسك الحج وغير ذلك ، حواش وتقييدات على العصام والحفيد والمطول والمواقف والهداية فى الحكمة والبرزنجى على قاضى زاده وأمثلة وبراهين هندسية شتى وماله من الرسومات والآلات النافعة المبدعة . ومنها الآلة المربعة لمعرفة الجهات والسمت والانحرافات بأسهل مأخذ وأقرب طريق ، والدائرة التاريخية .

واتفق فى سنة اثنتين وسبعين أنه وقع الخلل فى الموازين والقبانيين وجهل أمر وضعها ورسمها وبعد تحديدها واستخراج رمامينها وظهر فيها الخطأ واختلفت مقادير الموزونات ، وترتب على ذلك ضياع الحقوق وفسد على الصناع تقليدهم الذى درجوا عليه ، فعند ذلك تحركت همة المترجم لتصحيح ذلك ، وأحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل والصنج الكبار والصغار والقرسطونات ورسمها بطريق الاستخراج على أصل العلم العملى والوضع الهندسى ، وصرف على ذلك أموالا من عنده ابتغاء وجه الله تعالى ، ثم أحضر كبار القبّانية والوزانين ، وبيّن لهم ما هم عليه من الخطأ وعرفهم طريق الصواب فى ذلك ، وأطلعهم على سرّ الوضع ومكنون الصنعة وأحضروا العدد وأصلحوها وابطلوا ما تقادم وضعه وفسدت مراكزه وقيدوا بصناعة ذلك الأوسطاء مراد الحداد ومحمد بن عثمان ، حتى تحررت الموازين وانصلح شأنها وسرت فى الناس العدالة الشرعية واستمر العمل فى ذلك أشهراً ، وهذا هو ثمرة العلم ونتيجة المعرفة والحكمة المشار إليها بقوله تعالى ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾[1] .

ثم قال : بعد أن ذكر جملة من نظمه فى موضوعات شتى وقصائد مما مدحه به الناس وبعض فوائد عنه .

وفى سنة تسع وسبعين توفى ولده أخى لأبى أبوالفلاح علىّ وقد بلغ من العمر اثنتى عشرة سنة فحزن عليه وانقبض خاطره وانحرف مزاجه وتوالت عليه النّوازل وأوجاع المفاصل ونقل العيال من بيت بولاق ولازم بيت الصنادقية وفتر عن الحركة إلا فى النادر ، وصار يملى

---

(١) سورة البقرة آية /٢٦٩ .

الدروس فى المنزل ويراجع المسائل الشرعية مع مراعاة الأصول والقواعد ، وتلقى الوافدين ومراعاة الأقارب والأجانب مع لين الجانب ، ويخدم بنفسه جلساءه ولا يبخل بالموجود ولا يتكلف المفقود .

ومن أخلاقه أنه كان يجلس بآخر المجلس على أى هيئة كانت بعمامة وبدونها ويلبس أى شىء كان ، وينام كيفما اتفق ، وكان دائم المراقبة والفكر يتهجد كثيرا حتى يصلى الصبح ويجلس فى مصلاّه إلى طلوع الشمس ويحاذر الرياء ما أمكن ، وكان يصوم رجب وشعبان ولا يقول إنى صائم ، وربما دعى إلى وليمة فلا يردّ القهوة والشربات ويوهم الشرب ، وكان مع بشاشته عظيم الهيبة فى نفوس الناس ذا جلال وكمال وسمعت شيخنا محمود الكردى يقول : أنا عندما كنت أراه يداخلنى هيبة عظيمة ، وكان مربوع القامة ضخم الكراديس أبيض اللون عظيم اللحية منوّر الشيبة واسع العينين غزير شعر الحاجبين وجيه الطلعة ، ولم يزل على طريقته الحميدة إلى أن آذنت شمسه بالزوال وغربت من بعد ما طلعت من مشرق الإقبال ، وتعلل إثنى عشر يوما بالهيضة الصفراوية ، فكان كلما تناول شيئاً قذفته معدته عندما يريد الاضطجاع إلى أن اقتصر على المشروبات ، وهو مع ذلك لا يصلى إلا من قيام ولا يغيب عن حواسه ، وكان ذكره فى هذه المدة أن يقرأ الصّمدية مرة ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بالصيغة السنوسية كذلك ، ثم الاسم العشرين من الأسماء الإدريسية وهو : يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه ، هكذا كان دأبه ليلا ونهارا ، حتى توفى يوم الثلاثاء قبيل الزوال غرة شهر صفر وجهز فى صبيحة يوم الأربعاء وصلى عليه بالأزهر بمشهد حافل جدا ، ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار الشمس البابلى والخطيب الشربينى وله من العمر سبع وسبعون سنة ، ورثاه تلميذه العلامة الشيخ محمد الصّبان بقصيدة أنشدت وقت حضور

جنازته مطلعها :

ويحك يانفسى كيف القرار ودولة الفضل بها البين سار
وكيف يصفو العيش من بعدما كأس الردى بين ذوى المجد دار

ورثاه الشيخ أحمد السخامى بقصيدة مطلعها :

/ بكت العيون لفقد هذا الأمجد العالم الحبر الهمام الأوحد
شيخ الشيوخ ومعدن الجود الذى كانت به كل الأفاضل تقتدى

١٣

ولغيره أيضا قصيدة مطلعها :

لحا الله دهرا كل أيامه محن وكل سرور فى أو يقاته حزن
وما الناس فى ذا الدهر إلا شواخص وكل له من دهره ما به افتتن

إلى أن قال :

وأفجعنا فى مفرد العصر شيخنا كريم السجايا صاحب المجد والسنن
وذاك الجبرتى الذى كان قدوة على منهج التحقيق والشرع يؤتمن
لقد كان هذا الحبر قطب زماننا فأحرمنا من شخصه ذلك الزمن

ورثاه أيضا السخامى بقصيدة منها :

ويح دهرى فكم أذاب قلوبا وبرى أعظما وأضنى وأسقم
لا يبالى وليس يرعى ذماما وعلى ما جناه لم يتندم
ورمانا فصادف الهمّ قلبا كان أقوى القلوب دينا وأقوم
خاننا فيه ذا الزمان فلا كا ن زمان على الخيانة يقدم
كان بدرا فأسرعت كسفه الأر ض فزال الضياء والجوّ أظلم
لهف قلبى على امرىء كان فينا عقله بالورى يقاس وأعظم
حسن الاسم والصفات كريم الـ خلق والخلق ذى العطاء المفخم

إلى آخره انتهى باختصار من كلام طويل من تاريخ ابنه العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى الذى وضعه فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر وذكر فيه تراجم الأعيان المشهورين ، من الأمراء والعلماء المعتبرين ، وبعض تواريخ مولدهم ووفاتهم وسماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وانتهى فيه إلى حوادث سنة ست وثلاثين من القرن الثالث عشر من قرون السنين الهجرية ، وكانت ولادة الشيخ عبد الرحمن المذكور كما يؤخذ من ترجمته لوالده سنة ثمان وستين ومائة وألف من الهجرة ، وعاش نحو سبعين سنة ، ومؤلفاته عديدة تشهد بفضله وأجلها تاريخه هذا وقد نقلنا عنه كثيرا فى مواضع شتى من كتابنا هذا .

الإبـراهيميـــة

بلدة من قسم القنيات بمديرية الشرقية سميت بذلك لأن إنشاءها كان فى عهد سر عسكر المرحوم إبراهيم باشا عند عودته من مُورة ويقال لها : العمارة والمرلية أيضا ، لأن تأسيسها كان على أيدى المهاجرين المرلية حيث أنعم عليهم بأطيانها المرحوم إبراهيم باشا وقسمها بينهم ، فجعل لكل عائله منهم ثلاثين فدانا ، فأقاموا بها وبنوا فيها منازل وصارت بلدة عامرة من وقتئذ ، بعد أن كانت مستنقع مياه يكثر بها الحلاليف فتضر بما حولها من المزارع ، فضلا عن ضرر الأبخرة المتصاعدة منها ، فلما حضر هؤلاء المهاجرون وأعطيت لهم أصلحوها وعمروا أرضها ، وكان عليهم أربعة من أعيانهم كالعمد فى بلاد الأرياف فلما ماتوا خلفهم أخلافهم ولم يزالوا على ذلك إلى الآن ، وبقيت أطيانها فى أيديهم بلا مال إلى أن ترتبت العشور فى سنة ١٢٧٢ هـ ، وفى تلك السنة ربط عليها العشور وتفرعت منها كفور وبها منازل حسنة وقصر مشيد لناظر المالية سابقا المرحوم إسمعيل باشا صدّيق ، أصله من بناء المرحوم المشار إليه ، وبجواره وابور له أيضا لسقى الزرع ووابورات أخر للسقى والحلج ، وبها حوانيت بوسطها عامرة بالتجار ومساجد ومكاتب أهلية وأرباب حرف وسوقها العمومى كل يوم خميس ، وبها مجلسان للدعاوى والمشيخة وموقعها بالبر القبلى على ترعة أم الريش الخارجة من بحر مويس وهى بحرى الزقازيق بنحو عشرين ألف متر وأطيانها ألفان وخمسمائة وستة وخمسون فدانا وكسر ، وأهلها جميعا ثلاثة آلاف وتسعمائة وأثنان وعشرون نفسا ، واستوطن باقى المهاجرين من المرليين إذ ذاك ناحية الكليسة .

إبريـــم

بلدة من بلاد النوبة واقعة على شط النيل الشرقى على مسافة مائة وعشرين ميلا فى جنوب أسوان وهى إبريمس برو القديمة كما فى كتب الإفرنج ، فتحها السلطان سليم الأول سنة ألف وخمسمائة وسبع عشرة ميلادية لما استولى على مصر وفرّ المماليك إليها حينما نكبهم العزيز محمد على المشهور بالشجاعة ، وذلك سنة ألف وثمانمائة وأحد / عشر ميلادية فتركها أهلها ١٤ ولذلك تكاد تكون بدون سكان ، وتسمى فى دفاتر التعداد القبض ويباع فيها الحصر الحلفاء ، ونخيلها كثير جدا ينيف عن ثمانية عشر ألف نخلة ، والبلح الإبريمى الناشف الذى يوجد فى جميع بلاد القطر يجلب منها ومما جاورها من البلدان إلى قريب أسوان ، وهو أنواع أكثره يسمى القندينة، وفيها نحو ستين ساقية وأطيانها العالية ثلاثمائة وخمسة وأربعون فدانا ، وعلى جانب النيل نحو أربعة وخمسين فدانا ، ويزرعون البصل كثيرا والقرع البلدى والقرع العوّام ويعملون من هذا أوعية تسمى عندهم بخسة ، يضعون فيها الزيت والسمن ويضعون عليها غلافا من الليف أو من اللياف وهو شجر العوثر ويجعلون لها علاقة ، ويقتنون الغنم والبقر والحمير وقليلا من الإبل ، ويوجد عندهم الدجاج والحمام ، وأبنيتها ومشتملاتها وملابس أهلها وعملتهم وعوائدهم مثل ناحية الشلال وقد بسطنا ذلك هناك .

أبسنبول

وتسمى أيضا أبوسنبول : بلدة فى بلاد النوبة على صفحة النيل الغربية فى اثنتين وعشرين درجة واثنتين وعشرين دقيقة من العرض الشمالى وإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من الطول الشرقى ، مشهورة بوجود هيكلين عظيمين قديمين بها منحوتين فى الصخر ، ولكل منهما جدران أمامية مبنية بالحجارة الرملية وداخلها منحوت فى الصخر ، ويقال : إنهما بنيا فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ويقال : إنهما من زمن رمسيس الثانى ، وأصغرهما منحوت فى مكان يرتفع عشرين قدما عن النيل ، ولم يكن مطموسا بالرمال ولا يزال محفوظا وقد سبق بوركهاروت الجميع إلى اكتشافه فى أذار (مرث) سنة ألف وثمانمائة وثلاث عشرة ، ووصفه وقال :

إنه للمعبود أوزريس ، وفى مكان خلفه على مسافة مائتى قدم وجد رؤوس أربعة أصنام كبيرة وأجسادها مدفونة بالرمل ، وقال إنها من أتقن مصنوعات المصريين ، وفى الحائط الخلفى كتابة مصرية قديمة على شكل رأس أوزريس ذى الرأس الطيرى ، فقال : إنه بإزالة الرمل يظهر هيكل لأوزريس .

وفى بعض كتب الإفرنج أن أبسنبول على بعد أربعة وخمسين كيلو متر من أبريم ومعبداها من أحسن معابد المصريين زينة ، وهما من زمن رمسيس الثانى ، أحدهما للمقدسة هاتور المصورة بصورة البقرة المقدسة ، وواجهته مزينة بصور رمسيس وزوجته نوفرياري وأولاده ، وهى ست صور ارتفاع كل منها نحو أحد عشر مترا وبداخل المعبد إيوان على ستة أكتاف مربعة تيجانها على هيئة رأس أزيس ، ودهليز فى نهايته أودتان صغيرتان وفى جدرانه

نقوش كثيرة ، وثانى المعبدين وهو الأكبر فى جنوب الأول ووجهه منحوت فى الصخر بارتفاع ثلاثين مترا فى عرض أربعين ، وعليه أربعة تماثيل لرمسيس الثانى نقر فى الحجر ، ارتفاع كل تمثال وهو جالس عشرون مترا ، وفوق التماثيل سطر من الكتابة القديمة يعلوه كرنيش مزين بأثنتين وعشرين صورة ، وفوق تمثال المقدسة فريه وجلسة أحد التماثيل القبلية كتابة رومية قرأها الأميرالاى لياك فوجد تاريخها قبل المسيح بثلاثمائة وستين سنة ، وأنها بخط دمياركون بن امبيكوس ودلفوس بن أودamوس ، كلاهما من عساكر يونانية كانوا فى خدمة الملك بسماتيك .

وفيها أن هذا الملك حضر فى جزيرة الفانتين وأن العساكر الذين كانوا مع بسماتيك بن تيوكليس كتبوا ذلك وركبوا البحر فوصلوا إلى كركيس ، وبالمعبد أربعة أواوين متعاقبة فى طول ستين مترا وبه عشر أود والإيوان الأول على أكتاف بلا تماثيل ، وبداخل المعبد تماثيل رمسيس فى حضرة المقدسين أمون وراء وأفتاه ، وعلى الشاطىء الشرقى للنيل على بعد ألف متر من أبسلبول قرية فرايج بها معبد صغير منحوت فى الصخر من زمن أمينوفيس الثالث من العائلة الثامنة عشرة من الفراعنة ، وهو أقدم من معبدى أبسلبول بقرن ونصف انتهى ، من الكتاب المسمى ، دليل المسافر فى المشرق ، لبعض الإفرنج .

وفى سنة ألف وثمانمائة وسبع عشرة أزيل الرمل فظهر فى عمق إحدى وثلاثين قدما باب الهيكل الأكبر وهو أعلى من سطح النيل بمائة قدم ، وواجهته طولها مائة وعشرون قدما وارتفاعها تسعون وتحيط بها نقوش فى الحجارة ، وفى جهتها الأمامية أربعة تماثيل عظيمة جالسة على أربعة فرش ارتفاعها خمسة وستون قدما ، وهى من أعظم تماثيل مصر والنوبة ، وقد كسر التمثال الثالث من الجهة الشمالية بسقوط قطعة كبيرة عليه من ثلج الجبل وقطعة من

رأسه فى حضنه ، ولأحدها وجه طوله سبع أقدام وعرضه عند الكتفين خمسة وعشرون قدما وأربعة قراريط ، وقد قال والكنسون : إنها تماثيل الملك رمسيس الثانى المصرى وقال : إن المظنون أنه كان للمعبود أثور (هاتور) .

وواجهته مزينة بستة تماثيل عظيمة جدا ، وفيه قاعة داخلية فيها ستة أعمدة مربعة وممشى عرضى ، فى كل من جانبيه مخدع صغير وملجأ ، وفى داخله العمد وعليها تماثيل أوزريس فى / علو ثلاثين قدما ، وفى الجدران صور مواقع وانتصارات ، ثم القاعة الكبيرة داخله فى الصخر مائتى قدم ، وفى داخلها صفوف عمد مربعة عظيمة مزينة بالأصنام ، ووراءها مخدع داخلىّ ومكان للعبادة وعلى جوانبها مخادع كثيرة وفيما وراء ذلك تمثال عظيم جالس على مقعد وفى مخادع الجوانب تماثيل كذلك ، وفى وسط مكان العبادة الذى كانوا يسمونه بالمقدس مصطبة . وقد قال هيرن : إن المظنون أن تابوتا كان موضوعا عليه وأن تلك البنية الغريبة مدفن وليس بهيكل . وقد استنتج من صور الحروب والانتصارات التى على الجدران ولاسيما من صور أربع إحداها حمراء ، وأن البنية الصغيرة مدفن ملك أيضا ، وقد قال بوركهاروت : إن أبسنبول كانت ملجأ لأهالى بليانى ، التى كانت تبعد عنها بثمانية أميال ، من حملات سنوية لقبيلة بدوية ، وفى سنة ثمانمائة واثنتى عشرة أى قبل ذهابه إليها بسنة ، التجأ الأهالى إلى هناك بمواشيهم وعجز أهل البدو عن فتح المكان مع أنه قتل كثيرون منهم .

١٥

أبســـوج

قرية بالصعيد الأوسط بمديرية المنية من أعمال بنى مزار فى الشمال الغربى للفشن : بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، وفى الشمال الشرقى لبنى مزار كذلك ، وبها زاوية للصلاة ونـخيل قليل وليس لها سوق ، ولها ذكر فى بعض كتب التواريخ ، ففى كتاب دائرة المعارف قال بعضهم : توجهت إلى الصعيد سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين ومررت بقرية تدعى بسوج ، شارعة على النيل بين القيس والبهنسا فرأيت على بابها صورة فأرة فى حجر ، والناس يجيئون للطين من طين النيل فيطبعون فيه تلك الصورة ويحملونها إلى بيوتـهم ، فسألت عن ذلك فقيل : ظهر عن قريب منَ سنيَّاتِ هذا الطلسم ، وذلك أن مركبا فيه شعير كان تحت هذه البيعة ، فقصد صبى من المركب ليلعب ، فأخذ من هذا الطين وطبع الفأرة ونزل بالطين المطبوع المركب فلما صار فيه جعلت فئران المركب تظهر وترمى بنفسها فى الماء ، فعجب الناس من ذلك وجَرَّبوه فى البيوت ، فكان أىّ طابع حصل فى دار لم تبق فيها فأرة إلا خرجت ، فتقتل أو تنفلت إلى موضع لا صورة فيه . وأكثر الناس أخذ الصورة فى الطين وتركها فى منازلهم ، حتى لم تبق فأرة فى الطريق والشوارع ، وشاع ذلك فى البلاد ذكر ذلك ياقوت والقزوينى انتهى .

أبشـادة

هذه البلدة كانت من المدن المشهورة فى زمن النصرانية ، وكانت كرسى أسقفية ومن أساقفتها على مانقله كترمير عن مؤرخى الأقباط : سريامون الذى مات فى زمن ديوقليتان ، وأعقبه فى الأسقفية مقرب الذى مات إلى غير ذلك من الأساقفة ، وكانت كرسى حكومة ، ولم يتكلم عليها الرومانيون ولا اليونان مع أنها تذكر كثيراً فى كتب القبط ، ولم يتكلم عليها المقريزى أيضا ولا ابن حوقل ولا غيرهما من مؤرخى العرب ، فلعلها كانت تذكر باسم غير هذا الاسم ، ويظن أنها هى المدينة التى كانت تسميها الروم انطقيوس وذكر بطليموس أنها كانت كرسى قسم پروزوبتيس الذى يلى قسم صا الحجر ، وقد ذكر طوسديد أن پروزوبتيس سميت فيما بعد نكوس (نيقوس) .

وذكر المؤرخ هيرودوط أن پروزوبتيس جزيرة من الدلتا محيطها تسع سينات (فراسخ) ، وفيها عدة مدن من ضمنها اطربشى ، وكان فيها معبد للزهرة وقال طوسديد : إن الأثينيين المستخدمين بمصر التجئوا إلى هذه الجزيرة ، وأن ميجاباظ رئيس العساكر العجمية حاصرهم بها ستة أشهر وحوّل فرع النيل حتى جف ، ثم استولى على تلك الجزيرة .

وذكر المؤرخ وبلين أنه كان يضرب بها مداليات فى زمن قياصرة الروم أدريان وأنطونان ومركوريل ، ومما يقوى أن مدينة انطقيوس هى مدينة ابشادة ، ما ذكره الأب سيكار من أنه

عاين فى خراب مدينة نيكوس كنيستين باسم سربامون أسقف هذه المدينة ، وقال : بذلك أيضا غيره من مؤلفى الأقباط ، وكذلك ينسب إليها الأسقف مقرب ، فمن ذلك مع ما أورده كترمير يظهر أن اسمى أبشاتى وأنطقيوس موضوعان لمدينة واحدة ومما يؤيد ذلك أيضا أن اسم انكوس لم يذكر فى دفاتر تعداد مصر المحفوظة فى كتبخانة باريس ، والذى فيها هو اسم أبشادة باللغة العربية وهى بلا شك محرفة عن أبشاتى القديمة ، واعتنى كثير من جغرافى الإفرنج بتحقيق موضعها فجعلها دنويل فى خرطة مصر فى موضع الدلتاء على فرع النيل المار بناحية منوف ، وسماها بنسيا أو انطقيوس ، وقال : زنبيل إنه يسمى بهذا الاسم مدينتان أحداهما على فرع منوف والأخرى على فرع رشيد وسمى هذه نيسيو وأنكر ذلك كترمير ، وقال : إن الإسمين لمدينة واحدة على بحر الغرب ووافقه على ذلك بطليموس ، وحدد طولها وعرضها فجعلها فى طول إحدى وستين درجة وعشرين دقيقة ، وعرض ثلاثين درجة وعشرين دقيقة وفى وقتنا هذا أى سنة ١٢٩٢ هـ ، يوجد تلال قديمة حدثت بجنبها زاوية رزين الجديدة التى هى عوض عن زاوية رزين التى أكلها البحر ، والأهالى يقولون : إن هذه التلول محل مدينة دقيانوس فلعلها محرفة عن نيكوس وكون محلها على بحر الغرب وقريبا من ترعة / منوف وهى الترعة الفرعونية ربما كان مقصود هؤلاء الجغرافيين .

وذكر المقريزى فى خططه فى باب مذاهب أهل مصر بعد نحو ثلاث ورقات من ذلك الباب ، أن محمد بن أبى بكر لما تولى عمل مصر من قبل علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه وجمع له صلاتها وخراجها سنة ٣٧ هـ ، بعث إلى ابن خُديج والخارجين معه ، وهم أهل خربتا وكانوا نحو عشرة آلاف يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فبعث إلى دورهم ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فرفعوا له أولوية الحرب وهموا بالنهوض إليه ، فلما علم أن لا قوة له بهم أمسك عنهم ، ثم صالحهم على أن يُسيّرهم إلى معاوية وأن ينصب لهم جسر أنطقيوس يجوزون عليه ولا يدخلون الفسطاط ، ففعلوا ولحقوا بمعاوية .

وحيث إن خربتا من مدن البحيرة فالقنطرة ضرورة كانت على فرع رشيد فتكون مدينة أنطقيوس أو بشاتى على الشاطىء الشرقى منه ، والذى يشاهد الآن أن المقابل لخربتا من الجانب الشرقى إنما هى قرية تسمى أبشاى من غير تاء من قسم بلاد مديرية المنوفية ، وكان من خط بشاتى قرية شطنوف ، وكانت واقعة على مفرق البحرين وفيها قتل مارى ماقير.

ومما يدل على أن شطنوف فى مفرق البحرين ما هو مذكور فى كتب القبط أن مارى نوب أرسله صبريان حاكم أتريب إلى الإسكندرية ، فركب النيل وصعد به الملاحون مقلعين إلى أن وصل شطنوف ، ثم انحدروا به من هناك فى بحر الغرب وبعد أن قتله حاكم الإسكندرية وصبره وكفنه ووضعة فى مركب مع أربعة من عبيده ، فسافروا به أربعة أيام مع ليلتين حتى وصلوا شطنوف فانحدروا إلى جهة بحرى ، ويدل على ذلك أيضا أن القيصر قسطنطين لما أرسل من طرفه الوبح إلى مصر لابطال عبادة الأوثان ، إبتدأ بإبطال ما كان ذلك بالإسكندرية ، ثم ركب النيل مصعداً إلى جهة قبلى ، فجعل يهدم المعابد ويكسر الأوثان فى طريقه إلى أن وصل مفرق البحرين ، فرأى قرية كبيرة فسأل عنها فقيل له : هى شطنوف قرية من خط بشاتى .

وذكر ابن حوقل فى مبدأ خططه لمصر أنه جعل رسمين للديار المصرية ، الأول يشتمل على الصعيد إلى الفسطاط وشطنوف التى يفترق عندها البحر ، والثانى من مفرق البحرين إلى آخر القطر من جهة بحرى ، ويشتمل على الفرع الشرقى المبتدأ من شطنوف وجريه نحو تنيس ودمياط ، والفرع الثانى الذى هو غربى شطنوف وجريه نحو رشيد ، وقد وصف الطرق

الموصلة من شطنوف إلى رشيد ، فجعل لها طريقا من البحر وطريقا من البر ، فطريق البر تبتدأ من شطنوف فتمر بسيال العبيد ومنوف ومحلة سرد وسخا وشبرا مياه ومسير وسنهور ونجوم ونستروه والبرلس وعجنا ورشيد ، غير أن طريق البر تتعطل فى مدة النيل ضرورة أن الماء يغطى الأرض .

وأما طريق البحر فتبتدأ من شطنوف وتمر بالجريسات وأبى يوحانس وهى غربى أبى حنس وطرنوت هى الطرانة وشابور ومحلة نقيدة ودنشال وقرطزى ، وهى (قرطسا) . كفر من كفور دمنهور وشبرى أبى مينا وقرنفيل وابرشيل وكريون وقرية الصير وإسكندرية .

وذكر أبوالفداء فى وصف النيل أنه ينقسم إلى فرعين عند شطنوف . فالغربى جريانه إلى رشيد حتى يصب فى البحر ، والشرقى ينقسم عند وصوله إلى ناحية جوجر إلى قسمين ، أحدهما يمر غربى دمياط ويصب فى البحر ، والآخر يجرى نحو أشمون طناح وذكر المقريزى مثل ذلك أيضا .

وقال الشريف الإدريسى أن من سرد إلى شلقان خمسة أميال وأن ناحية زفيتة بعد شلقان على خمسة عشر ميلا وعند شلقان ينقسم النيل ، وفى مقابلتها شطنوف فى رأس فرع دمياط وتنيس ، فبقرب شطنوف ينقسم النيل إلى فرعين وكل منهما يتفرع فرعين وجميع هذه الفروع تصب فى البحر ، فالفرع الشرقى من الفرعين الأصليين يجرى إلى تنيس ويتولد عنه ثلاثة فروع .

الأول منها المنفصل إلى جهة الغرب عند الناحية المعروفة بانطوهى وبعد أن يرسم قوسا فى سيره يجتمع مع أصله عند ناحية رمسيس ، وبعد ذلك إلى جهة بحرى مع غرب يتفرع خليج آخر يجرى نحو دمياط .

وأما الفرع الثانى من الفرعين الأصليين فيبتدأ من شطنوف ويجرى نحو الغرب إلى أن يصل إلى ناحية تنس (صان) فيتولد عنه خليج يجرى إلى الغرب ، ومن فوق ناحية بجيج وهى قبلى شابور من مديرية البحيرة يتفرع الخليج الجارى إلى الإسكندرية ويعرف بخليج شابور ولا يجرى الماء فيه إلا فى زمن الفيضان ثم يجف .

والفرع الأصلى يجرى إلى نحو رشيد وينفصل عنه خليج مبدؤه تحت ناحية سنديون وسمديس وفوه ، ويكون فوق رشيد ويصب فى بحيرة قريبة من البحر تمتد إلى الغرب ، بحيث يكون ما بين نهايتها والإسكندرية ستة أميال ، وفى وقتنا هذا قرية سنديون وفوه كلاهما من مديرية الغربية ، وقرية سمديس من مديرية البحيرة .

وذكر أبو الفداء أيضا فى موضع آخر أن الذاهب من الفسطاط يصل إلى زفيتة فى مقابلة شطنوف الواقعة على الشاطىء الغربى من النيل وبين شطنوف وشنوان خمسة وعشرون ميلا / ١٧ وهى من مديرية المنوفية .

وذكر أيضاً أن من دروة إلى شطنوف عشرين ميلا ومن شطنوف يتوصل إلى أم دينار على الشاطئ الغربى للنيل ، ومن شطنوف أيضاً إلى طرنوت ـ (طرانه) ـ خمسون ميلاً .

وذكر المقريزى أن عبد الله بن طاهر كان مقيما بعسكره فى زفيتة فنصب على النيل قنطرة لتوصله إلى شطنوف ، وفى دفاتر التعداد لبلاد مصر أنها تسمى زفيتة شطنوف ، وهى من بلاد القليوبية ، وفى تاريخ بطارقة الإسكندرية أن ميخائيل أسقف ناحية سهرجت بنى كنيسة فى ناحية زفيتة ، وذكر المقريزى أن الوزير مأمونا البطائحى بناها جامعا .

فتحصل من جميع ما تقدم أن شطنوف كانت فى مفرق البحرين وأنها من خط أبشاتى وأن أبشاتى وأنطقيوس اسمان لمدينة واحدة .

وفى تاريخ بطارقة الإسكندرية أن شطنوف كانت محل أسقفية ومحل إقامة حاكم الجهة ، وفى دفاتر تعداد مصر أنها من مديرية المنوفية ، وبقربها قريتان هور ، وكوارى .

وذكر المؤرخ حسن بن إبراهيم أن السلطان نجم الدين أيوب بنى فيها قصرا للنزهة ، ومن قرى قسم أبشاتى أيضا قرية أشمون جريس وكانت بحرى مدينة أبشاتى ومنها مارى مقرب ونقل إليها بعد قتله ، وكان بها معبد شاهده حاكم الإسكندرية لوج وقت توجهه إلى الأقطار القبلية وتعجب من زينته وسأل عنه ، فأجابه بعض نصارى أشمون أنه من بناء ديوفانس ، وفى كثير من مؤلفات الأقباط أن اسم هذه القرية أشمون جريسات وهى باقية إلى الآن على الشاطىء الشرقى من بحر الغرب بقرب مفرق البحرين .

وفى دفاتر التعداد أيضاً أنها من ضمن بلاد المنوفية ومكتوبة باسم أشمون جريسات وهى قريبة من أم دينار بحرى أبشاتى أو أنطقيوس بدليل ماكتبه سيناكزار : أن المركب التى كانت بها جثة مقرب وقفت عند أشمون جريس ولم يمكن تصعيدها إلى أعلى ، فإنه يعلم من ذلك أن انطقيوس التى هى بلدة مقرب بين شطنوف وأشمون بقرب مفرق البحرين ، ولم يذكر فى دفاتر التعداد العربية اسم أبشاتى كما تقدم وإنما المذكور أبشاده ، وهذا الاسم منه ثلاث بلدان واحدة عند الأشمونيين من الأقاليم الوسطى ، والثانية الغربية ، والثالثة فى جزيرة بنى نصر ، وتلك الجزيرة حدها البحرى خليج منوف والشرقى والغربى فرعا النيل والقبلى مفترق الفرعين .

وذكر خليل الظاهرى أن جزيرة بنى نصر من مديرية منوف ومن أعلاها افتراق البحرين وفى وقتنا هذا قرية أبشاده التى هى من قرى الغربية موضوعة شرقى مدينة صا الحجر وواقعة على بُعد من البحر بينه وبين ترعة الباجورية ، والتى فى قسم منوف فى مقابلة جزيرة الحجر ، ويقابلها على الشاطىء الغربى من بحر الغرب قرية علقام ، ويوجد بين أشمون جريس وشطنوف فى جهة طليا تل قديم مربع الشكل ، طوله تقريبا نحو مائتى قصبة ويعرف بين الأهالى بتل وسيم الكفرى ، وموقعه على الشاطئ الشرقى من بحر الغرب ، وهو إلى أشمون أقرب منه إلى شطنوف وربما كان هو أثر مدينة أنطقيوس ، ويستأنس لذلك بما تقدم من الأدلة مع عدم وجود أثر لها غيره .

والثالثة بجرى أشمونين بالأقاليم الوسطى على البعد منها بنحو ساعة ، وهى بلدة كبيرة عتيقة فوق بحر يوسف من شاطئه الشرقى ، وكان بها تلول من جهتها الشرقية أخذتها الأهالى لتسبيخ أرض الزراعة ، ومساكنها الآن فى محل تلك التلول ، وكانت فى الزمن الأول تابعة لمديرية المنية ، وكانت إذ ذاك مركزًا للقسم ، والآن صارت تابعة لمديرية أسيوط ، وقامت مقامها ناحية ساقية موسى من مديرية المنية ، وفى مقابلة أبشاده ، هذه على الشاطىء الغربى ناحية بنى خالد ، وبجرى أبشاده بنحو ربع ساعة ناحية القصر وشرق القصر بقليل ناحية هور ، وتلك البلاد الأربع مشهورة عند أهالى تلك الجهة باسم المربع ، ومشهورة أيضاً من قديم الزمان بزرع قصب السكر وغيره ، وفوق بنى خالد بالجبل الغربى على نحو ربع ساعة من المزارع محل به آثار قديمة تشبه قباب المشايخ ، يعمل به كل سنة ليلة تشتمل على المسابقة والألعاب ، وكان به محل يستريح فيه الصناجق والغز عند المرماح .

إبنــاس

بكسر الهمزة وسكون الموحدة ونون وألف وسين مهملة قال فى القاموس : إبناس بلدة بمصر انتهى .

وهى قرية من مديرية المنوفية بقسم سبك غربى السكة الحديد الطوالى من مصر إلى الإسكندرية على بعد خمسمائة متر ، وفى شمال بنها العسل بنحو اثنى عشر ألف متر وفى جنوب بركة السبع بنحو ثمانية الآف متر ، وبها مساجد أحدها بمنارة ومعمل دجاج وقليل أشجار ، ولها سوق فى كل أسبوع ومنها شيخ العرب أيوب فوده كانت له وقائع عديدة فى أيام الغز .

ترجمة الشيخ إبراهيم الإبناسى

وإليها ينسب الشيخ إبراهيم الإبناسى وقد ترجمه صاحب كتاب درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » فقال : هو الشيخ برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب الإبناسى ذكره المقريزى فى « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » فقال : ولد سنة خمس وعشرين وسبعمائة تخمينا وبرع فى الفقه / وتصدى للإفتاء والتدريس عدة سنين ،

فانتفع به كثير من الناس ، وحدث عن الوادياشى بالموطأ وعن جماعات كثيرة ، وأخذ الفقه عن الشيخ عبدالرحيم الإسنائى ، والشيخ ولى الدين الملوى ، وله زاوية خارج القاهرة وانقطع إليه جماعات كثيرة من أهل الريف وطلاب العلم ، فكان يعود عليهم بالبر وكان رفيقا لين الجانب بشوشاً متواضعاً ترجى بركته ، وكان يكثر من الحج ، ومن أمره أنه طلبه الأمير الكبير برقوق لقضاء الشافعية عوضا عن برهان الدين بن جماعة فوعده وقتا يأتيه فيه ، ثم توجه إلى

خلوته وفتح المصحف لأخذ الفأل منه ، فأول ما ظهر له قوله تعالى ﴿ **رب السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه** ﴾[1] فتوجه من وقته إلى منية السيرج واختفى بها ، حتى ولى البدر بن محمد أبو البقاء ، وولى مشيخة الخانقاه الناصرية سعيد السعداء ، ومات بطريق الحجاز وهو عائد من الحج والمجاورة فى يوم الأربعاء ثامن المحرم سنة اثنتين وثمانمائة بمنزلة كفافة ، فحمل إلى المويلح وغسل وكفن وصلى عليه يوم تاسوعاء وحمل إلى عيون القصب فدفن فى هذا الموضع على ميمن الحاج ، فى يوم الجمعة وترجمه الحافظ السخاوى فى تاريخه فقال :

هو إبراهيم بن موسى بن أيوب البرهان أبوإسحق وأبومحمد الإبناسى ثم القاهرى المصرى المفتى الشافعى الفقيه ، ولد فى أول سنة خمس وعشرين وسبعمائة بإبناس وهى قرية صغيرة بالوجه البحرى من مصر ، قدم القاهرة وهو شاب فحفظ القرآن وكتب وتفقه بالأسنوى وولى الدين الملوى وغيرهما ، وبرع فى الفقه والعربية والأصول ، وتخرج بالعلائى وسمع الحديث على الوادياشى والمبدولى ومحمد بن إسمعيل الأيوبى وجماعة كثيرين يطول تعدادهم بالقاهرة ومكة والشام ، وتصدى للإفتاء والتدريس دهراً ، ولبس منه غير واحد الخرقة ، بلبسه لها من البدر أبى عبد الله محمد بن الشرف أبى عمران موسى ، والزين مؤمن بن الهمام ، والسراج الدمرالى بسند نسبته إلى أبى العباس البصير الذى جمع الشيخ مناقبه ، ودرس بمدرسة السلطان حسن ، وبالآثار النبوية وبجامعة المنشا مع الخطابة به وغيرها .

(١) سورة يوسف آية رقم /٣٣ .

وولى مشيخة سعيد السعداء مدة واتخذ بظاهر القاهرة فى المقس زاوية ، فأقام بها يحسن إلى الطلبة ويحثهم على التفقه ويرتب لهم ما يأكلون ويسعى لهم فى الأرزاق ، حتى كان أكثر فضلاء الطلبة بالقاهرة من تلامذته ، ووقف بها كتبا جليلة ، ورتب بها دروسا وطلبة ، وحبس عليها رزقة ونحو ذلك .

وممن أخذ عنه الولى العراقى ، والجمال بن ظهيرة ، وابن الجزرى ، والحافظ ابن حجر والعز محمد بن عبد السلام المنوفى ، وآخر من تفقه به الشمس الشنشى والزين الشنوانى ، كل ذلك مع حسن الأخلاق وجميل العشرة ومزيد التواضع والتقشف والتعبد وطرح التكلف وحسن السّمت ومحبة الفقراء بحيث قلّ أن ترى العيون مثله .

وذكره العثمانى فى الطبقات فقال : الورع المحقق مفتى المسلمين شيخ الشيوخ بالديار المصرية ومدرس الجامع الأزهر ، له مصنفات يألفه الصالحون وتحبه الأكابر وفضله معروف ، وللناس فيه اعتقاد وقدحجّ كثيراً وجاور وحدث هناك وأقرأ ثم رجع فمات فى الطريق فى يوم الأربعاء ثامن المحرم سنة اثنتين وثمانمائة بمنزلة كفافة فحمل إلى المويلح ، ثم حمل إلى عيون القصب فدفن بها وقبره بها يتبرك به الحجيج وعملت له قبة .

قال الشمس السخاوى:قد زرته وأصل القبة لبهادر الجمالى الناصرى ، أمير الحاج كما قرأته على لوح قبره ، وأنه مات فى رجوعه من الحج فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين وستمائة ، وقبل الدخول إليها مكان آخر ، وأظنه محل دفن الشيخ ولا قبة تعلوه اهـ .

أبنـــوب

قرية من مديرية أسيوط ويقال لها : أبنوب الحمام ، واقعة على الشاطىء الشرقى للنيل ، بينها وبين الجبل الشرقى أكثر من ساعة ، وهى رأس قسم وأبنيتها من أحسن أبنية الأرياف لجودة أرضها ، وفيها جوامع عديدة وكنيسة ومكاتب لتعليم أطفال المسلمين ، ومكاتب لأطفال النصارى ، فيها معمل دجاج وأقباط بكثرة ، ومنهم النّحالة الذين يولدون النحل ويستخرجون عسله ، ومنهم الحاكةّ الذين ينسجون الصّوف ، ومنهم التجار وباقى أهلها يتكسبون من الزرع ، ولها سوق كل يوم خميس ، وفى بحريها قرية تسمى سوالم أبنوب .

ومن قرية أبنوب نشأ الفاضل أحمد بيك جمعة مأمور هندسة تقسيم مياه قسم أول من الوجه البحرى ووكيل مجلس عموم الزراعه ، أخبر عن نفسه أنه دخل مكتب أسيوط الذى أنشىء على طرف الميرى سنة تسع وأربعين ومائتين وألف ، فتعلم به فى حال صغره الخط العربى وشيئاً من القرآن ، ثم نقل منه فى سنة خمسين إلى مدرسة قصر العينى بالمحروسة ، ثم فى سنة اثنتين وخمسين نقل منها إلى مدرسة التجهيزية فى أبى زعبل ، وفى سنة ثلاث وخمسين نقل إلى مدرسة المهندسخانة الخديوية ببولاق مصر ، فأقام بها نحو خمس سنين ، فتعلم بها العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من فنون تلك المدرسة .

وكان فى كل مدرسة من نجباء فرقته وفى سنة ثمان وخمسين أعطى رتبة ملازم ثان بوظيفة معاون بقلم الهندسة ، وفى سنة تسع وخمسين أعطى رتبة ملازم / أول وجعل معاونا فى ١٩

معية بهجت باشا رئيس هندسة بحر الغرب يومئذ ، وفى سنة خمس وستين ترقى إلى رتبة اليوزباشى وجعل باش مهندس مديرية القليوبية ، فأقام كذلك خمس سنين ، وفى سنة سبعين أضيفت مديرية الشرقية إلى مديرية القليوبية تحت هندسته ، فكان باش مهندس المديريتين ، وفى سنة إثنتين وسبعين أحرز رتبة صاغقول أغاسى ، وبقى كذلك إلى سنة ثمانين ، فأنعم عليه برتبة بيكباشى وجعل باش مهندس مديرية الغربية ، وفى سنة اثنتين وثمانين أضيفت إلى هندسته مديرية المنوفية ، فكان باش مهندس عليهما ، وفى سنة سبع وثمانين أحسن إليه برتبة

قائم مقام وجعل وكيل مدرسة الزراعة التى أنشئت فى تلك السنة ، وفى سنة ثمان وثمانين جعل مفتش عموم تنظيم المحروسة ، وفى سنة تسع وثمانين جعل وكيل تفتيش الوجه القبلى وباش مهندس الترعة الإبراهيمية ، وفى سنة تسعين زيدَ له فى جامكيته فجعلت أربعة آلاف قرش عملة ميرية ، وجعل مأمور تقسيم مياه الوجه البحرى ووكيل مجلس الزراعة .

ثم توفى إلى رحمة الله تعالى : وهو رجل عالم فى فنونه فاضل ناصح فى وظائفه راجح العقل قليل الكلام إلا فيما يعنيه جزى الله العائلة المحمدية خيرا ، حيث كفلت كثيرا من أبناء الوطن وربّتهم فى المعارف والآداب وغمرتهم بالإحسانات حتى نالوا المناصب والرتب .

أبو تيج

فى تقويم البلدان إنها بضم الموحدة بعد الألف فواو ساكنة فمثناة فوقية مكسورة فتحتية فجيم انتهى .

وفى المقريزى عند ذكر الأديرة أنها مبدوءة بالباء الموحدة وهى مدينة بالصعيد الأوسط ، قال أبو الفداء : هى على الشاطىء الغربى من النيل قبلى أسيوط بينها وبين أسيوط مسيرة ساعات قليلة واسمها القبطى تابوتوكة ، وكانت أرضها تنتج مقداراً عظيماً من الخشخاش يصنع منه أهلها الأفيون الصعيدى انتهى .

ونقل عن المقريزى أنه كان فى خط هذه المدينة كنائس كثيرة تهدمت الآن إلا قليلا ، وكان النصارى عند إرادة الصلاة يجتمعون فى بيت من بيوتهم إلى أن تطلع الشمس فيذهبون إلى الكنيسة ، وكانت محوّطة بزريبة يخفون بذلك معالمها خوفاً من المسلمين ، وكان بقربها دير باسم الحواريّين أصحاب المسيح يعرف بدير الجمل فى مكان قفر اختط بجواره الشيخ أبوبكر الشاذلى بلدة سماها منشأة الشيخ ، وقد عثر فيها أثناء الحفر على بئر وجد فيها دفين ذهب قال :

وقد قال لى بعض من شاهدهأن شكل النقود مربع ، وعلى أحد وجهى كل قطعة صورة الصليب ، وكل واحدة تزن مثقالا ونصفا انتهى .

وقال كترمير : إن هذه النقود ضربت فى الديار المصرية فى زمن النصرانية واستشهد على ذلك بخطاب موجود إلى الآن فى الكتبخانة الكبرى بباريس .

إن فى زمن دخول الفرنساوية أرض مصر كتبه بطريرك من ناحية قفط وقت دخول عمرو بن العاص أرض مصر وقال فيه : بعد أن تكلم على جملة حوادث وقعت بمصر من المسلمين وقت دخولهم تلك الديار .

إنهم يستولون على الذهب المصرى المرسوم عليه صورة الصليب وصورة سيدنا المسيح ، ولابد أنهم يزيلون تلك الصورة ، ويرسمون مكانها اسم نبيهم ويسمونه الإمام واسمه « محمد » الذى إذا كتب بالحروف القبطية كان عدد جمله ٦٦٦ ، ويضيفون إلى ذلك اسم الخليفة وكذلك يكتبونها على الأوانى والمراكب والزوارق ، ثم إن هذه المدينة الآن بلدة عامرة تشتمل على ما تشتمل عليه من البنادر من القيساريات والخانات والدكاكين العامرة بالمتاجر والقهاوى والخمارات ويكثر بها تجارة القماش والعقاقير ، وهى رأس قسم وعليها مرسى ترد عليه كثير من المراكب ، ولها سوق سلطانى كل يوم أحد تباع فيه المواشى وغيرها ، وفيها كنيستان إحداهما خارج البلد باسم أبى مقار فوق تل عال به مقابر النصارى ، والأخرى فى داخلها تجددت فى زمن العائلة المحمدية ، وبها عدة مساجد جامعة أشهرها وأعظمها جامع الفرغل ، فإنه حرم من أعظم جوامع الصعيد له مئذنتان ومفروش بالبسط ويوقد فيه النجف البلور ، ويدرس فيه على الدوام فنون الفقه والحديث والتفسير وقل أن يخلو من العبادة ليلا ونهارا .

ترجمة سيدى محمد بن أحمد الفرغل

وبه مقام سيدى محمد بن أحمد الفرغل صاحب الكرامات التى لا تحصى والفضائل التى لا تستقصى ، كان من الرجال المتمكنين أصحاب التصريف ، توفى رضى الله عند سنة نيف وخمسين وثمانمائة ودفن بهذا الجامع ، قاله الشعرانى فى طبقاته ، ومقامه مشهور فى بقاع الصعيد وغيرها ، وتأتى إليه الزوّار من كل فج ، وكان يعمل له مولد كل سنة مرتين كمولد سيدى أحمد البدوى ، ثم صار الآن يعمل له مرة واحدة كل سنة يمكث ثمانية أيام .

وفيها قباب كثيرة قديمة ما بين متهدم وقائم سيما جنوبها الغربى ، يظهر منها أنها كانت مسكنا لكثير من الصالحين ، وكذا مقبرتها التى فى نصفها البحرى داخل العمران ، فيها قباب كثيرة .

وهى مقبرة متسعة مسورة من كل جهة ، وبهذه البلدة أسقف للنصارى وبها قاضى ولاية / وعدد أهلها قريب من ٨٠٠٠ نفس ، وبها شونة للميرى لتوريد الغلال من مزروعات الأهالى بنيت فى زمن العزيز محمد على باشا ، وبها ديوان القسم والتلغراف ووابور بخارى لطحين الغلال ومخبز ومدابغ ومعمل دجاج وأنوال لمنسج القطن ، ملا آت ومحازم وغزليات ، وبها معاصر لاستخراج زيت السلجم وبذر الكتان ، وفى غربى تلك المدينة قناطر بنى سميع ، وهى تسعة عيون فى ترعة السوهاجية تروى حوض بنى سميع وتصب فى قناطر أسيوط ، وكان بناؤها سنة ١٢٥٦ هلالية ، وغربيها أيضا من جهة قبلى تل كبير قديم تأخذ منه الأهالى السباخ للزراعة ، ويقابلها من الجانب الشرقى للنيل قرية ساحل سيلين ، وأرض ما يجاور هذه المدينة من البلدان مثل دوينة وبنى سميع ، وباقى

٢٠

البلاد تسمى بلاد الزنّار بتشديد النون ، من أعظم أراضى القطر وأجودها محصولا وأرفعها قيمة وآمنها ريًّا ، وفى كثير منها يزرع الكتان والدخان المشروب والخشخاش والكمونان ، وكثير من الأبزار ، ولهم معرفة تامة بتعريق الدخان وتحسينه حتى يؤثره بعض من يتعاطاه على أنواع الدخان .

وربما زرعت هناك أيضا الحشيشة المخدرة التى تسمى حشيشة الفقراء التى أطال المقريزى فى خططه الكلام عليها وهى طاهرة ، وحكم الشرع فى تعاطيها حرّمه القدر الذى يغيب العقل منها ، وهو يختلف باختلاف الناس والاعتياد ، وأما القليل جدا الذى لا يغيب العقل فليس بحرام ، لكن اجتنابها مستحسن بالطبع ، وقد أصدر بونابرت رئيس الجيوش الفرنساوية أمرا فى تسعة من شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠ مسيحية بمنع تعاطى الحشيش والبوزة وهذه ترجمته .

البند الأول : المشروب المسكر المستعمل لبعض المسلمين من النباتة المعروفة بالحشيشة واستعمال حب القنب كالدخان المشروب ممنوع فى جميع أرض مصر ، لأن من يعتاد تعاطى ذلك يضيع عقله ويحمله ذلك على ارتكاب كل فاحشة .

البند الثانى : يمنع فى جميع أرض مصر تقطير الحشيش وجميع القهاوى والبيوت التى يعمل فيها ذلك تسدّ بالبناء وتضبط أصحابها وتسجن نحو ثلاثة شهور .

البند الثالث : جميع بالات الحشيش التى ترد جهات الجمارك تضبط وتحرق علنا اهـ .

فانظر كيف حصل التشديد على منعها من مِلَل غير الإسلام ، أليست ملة الإسلام أولى بمنعها ؟ وهذه الحشيشة تسمى بالشهدانج ، وقد ذكر لها ابن جزلة خواص فى كتابة (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة) وهو كتاب جمع فيه جميع الأدوية والأشربة والأغذية وكل مركب وبسيط ومفرد وخليط رتبه على حروف المعجم فقال : إنها تطرد الرياح ودهنها نافع لوجع الأذن من برد مزمن ، ولبن الشهدانج البرى يسهل البلغم والصفراء برفق ، وقدر ما يؤخذ منه إلى ثلاثة دراهم وإلى ثلاثة مثاقيل والشهدانج يدر البول ، وهو عسر الانهضام ردىء الخلط ردىء للمعدة مصدع يقطع المنى ويجففه ويظلم البصر ، وإذا قلى كان أقل ضرراً وإذا أكل ينبغى أن يؤكل مع اللوز والخشخاش ويشرب بعده السكنجبين .

وكلمة شهدانج مركبة فى الإصل من كلمتين فارسيتين وهما شاه ودانه ومعنى الأولى ملك والثانية حب فمعناها حب الملوك .

وقال ابن جزلة أيضا فى لفظ قنب : هو نوعان بستانى وبرى بذر الشهدانج وقال حنين : البرى شجرة تخرج فى القفار على قدر ذراع يغلب على ورقها البياض وثمرها كالفلفل يشبه حب السمنة ، وهو حب يخرج منه دهن ، وطبخ أصول البرى منه ضماد للأورام الحارة والحمرة وعصارته لوجع الأذن اهـ .

وأما الخشخاش فقال فى تذكرة داود : إنه إذا أطلق يراد به النبات المعروف فى مصر بأبى النوم ، وهو أبيض هو أجوده ، وأحمر أعدله ، وأسود أشدّه قطعا وأفعالا ، وزهر كل كلونه وقد يزهر أصفر وله أوراق إلى خشونة ما ويطول إلى نحو ذراع ، ويخلف هذا الزهر رُؤوسًا مستطيلة غليظة الوسط يجمع آخرها قمعا يشبه الجلنار لكن أدق تشريفا ، وداخلها نقطة كأن تلك التشاريف خطوط خارجة منها ، وداخل هذه بزر

مستدير صغير كما ذكرنا من الألوان ، وقد تكون الحبة الواحدة ذات ألوان كثيرة ، وكل مما ذكر إما برى مشرف الورق مزغب كثيراً أو بستانى ، ويزرع الخشخاش بأواخر طوبة إلى تمام أمشير ويدرك ببرمودة ، ومنه يستخرج الأفيون بالشرط كما مر .

والخشخاش بارد يابس لكن الأسود من البرى فى الرابعة ، والأبيض البستانى فى الأولى وغيرهما فى الثالثة هذا من حيث جملته ، فإن فصل كان بزرة حاراً رطباً فى الثانية على الأرجح وقشره كما سبق ، فإذا دق بجملته رطبا وقُرصّ كان مرقداً جالباً للنوم ، مجففا للرطوبات محللا للأورام قاطعاً للسعال وأوجاع الصدر الحارة وحرقة البول والإسهال المزمن والعطش شربا وطلاء ونطولا ، وكذا إن طبخ بجملته بعد الانضاج لكن يكون أضعف ويفعل قشره كذلك .

أما بزره فنافع لخشونة الصدر والقصبة وضعف الكبد والكلى مسمن للبدن تسمينا جيدا ، إذا لوزم على أكله صباحاً / ومساءً ، أو خبز مع الدقيق ، ومتى أضيف إلى مثله من اللوّز وعمل حَسْواً وشرب سمن المهازيل ، قوّى الكلى وأذهب الحرقة وولد الدم الجيد ، وقشره يقطع الزحير والثقل مع النيمبرشت شربا ، ويحلل الأورام بدقيق الشعير طلاء ، وإذا نقع فى ماء الكزبرة وعمل طلاء على الحمرة والقروح والنملة الساعية أذهبها ، ويصب طبيخه على الرأس فيشفى صداعه وأنواع الجنون كالبرسام والماليخوليا ، وزهره عظيم النفع فى المراقد ، ويقع فى الأكحال لأجل الحرقة وقروح القرنية والإكثار يسدر ويسبت ، والأبيض يضر الرئة ويصلحه العسل أو المصطكى ، والأسود يضر الرأس ويصلحه المرزنجوش ، والشربة من زهره إلى نصف درهم ومن قشره إلى درهم ومن بزره إلى عشرة والأسود نصف ما ذكر ، وبدله الخس والخشخاش الزبدى ، نبت طويل الأوراق مزغب الساق أبيض جلاء حار مقطع ، والخشخاش المقرن نبت له ورق

٢١

كالجرجير يشبه المنشار فى تشريفه ، له زهر أصفر يخلف قرونا معوجة فيها بزر كالحلبة ، حار يابس فى الثالثة يقطع الاخلاط الغليظة اللّزجة بالقىء والإسهال وينفع من الاستسقاء ، وربما اشتبه بالجبلهنك والفرق بينهما عدم صفرة هذا ، والمعروف بـجلجلان الحبشة هو الخشخاش البرى لا المقرن والزبدى خلافا لمن زعمه اهـ .

ويزرع فى أرض تلك البلاد أيضا القرطم وهو حب العصفر ويخرج من حبه الزيت الحلو ويؤخذ نوره الذى هو العصفر ويستعمل فى الصبغ ، ويتجر به إلى بلاد الفرنج ليدخلوه فى صباغة الجوخ وغيره ، ولونه مفرح يجعل منه أطفال الصعيد فى طواقيهم نكتا صفراء فاقعة اللون .

ترجمة الشيخ عبدالرحمن البوتيجي

وينسب إلى هذه المدينة الشيخ عبد الرحمن البوتيجي الذى ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع [١] فقال هو : عبد الرحمن بن عنبر بنون وموحدة كجعفر ابن على بن أحمد بن يعقوب بن عبد الرحمن الزين العثمانى ثم القاهرى الشافعى الفرضى ويعرف بالبوتيجى ، ولد فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة بأبو تيج من الصعيد ، فإنه كان يقول : إنه دخل القاهرة مع أبيه فى السنة التى ملك فيها الظاهر برقوق وهى سنة أربع وثمانين وهو مميز ، ونشأ بأبو تيج فقرأ القرآن عند جماعة منهم الفقيه بركة قال :

وكان من الأولياء وحفظ التبريزى وقدم القاهرة فحفظ أيضا العمدة والمنهاج الأصلى والملحة والرحبية ، وعرض سنة ست وتسعين على الإنباسى والبلقينى وابن الملقن والدميرى وأجازوا له وقطن القاهرة ، وأخذ الفقه عن الشمس العراقى وأكثر عنه ، وانتفع به فى الفرائض والحساب بأنواعه مثل : الجبر والمقابلة وما سواها ، وكذا تفقه بالشهاب ابن العماد وقرأ عليه أشياء من تصانيفه وأخذ الأصول عن الشمس البرماوى وغيره .

ثم لازم الولى ابن العراقى فحمل عنه علوما جمة من حديث وفقه وأصول وغيرها ، وسمع على المطرزى والهيثمى والشريفين القدسى وابن الكويك ، وأذن له الولى ابن العراقى فى إقراء تصانيفه فى الفنون كلها وكذا فى الافتاء ، وتكسب أولا بالشهادة

---

(١) انظر الضوء اللامع ٤/١٥ا١ا ط المقدسى ١٣٥٤ هـ القاهرة .

فى بعض حوانيت الحنابله ، ثم ناب فى القضاء بأعمال القاهرة عن الجلال البلقينى فى سنة تسع عشرة ، وكتب بخطه الكثير من الكتب المطوّلة وغيرها ، ولزم الإقامة بالمدرسة الفاضلية متصديا للتدريس والافتاء فكثرت تلامذته ، وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى وصار فى طلبته من الأعيان جمله ، خصوصا فى الفرائض والحساب بأنواعه لتقدمه فيه ، حتى كان شيخه الولى يستعين به فى كثير من المناسخات ونحوها ويقول : المسئلة التى أعملها فى ساعة يعملها هو فى ثلث ساعة قال السّخاوى : وقرأت عليه جملة وحضرت دروسه فى الفقه والفرائض وغيرهما ، وكف بصره بأخرة وانقطع بالمدرسة عن الناس متدرعا ثوب القناعة عنهم واليأس ، وهم يترددون إليه للقراءة والزيارة حتى مات بعد يسير فى ليلة الإثنين الثالث والعشرين من شوّال سنة أربع وستين وثمانمائة ودفن من الغد بالقرافة بتربة الشيخ محمد الهلالى العريان جوار تربة أبى العباس رحمه الله تعالى انتهى .

ترجمة الشيخ محمد بن أحمد السميعى

ومحمد ابن أحمد السميعى [١] ـ نسبة لقرية من قرى أبو تيج يقال لها : قرية بنى سميع ـ البوتيجى ويعرف بالفرغل رجل مجذوب له شهرة فى الصعيد وغيره ، وله زاوية بأبو تيج وأخرى بدوينة كان ينتقل بينهما ، وأكثر إقامته بالأولى وبها دفن ، وتحكى له كرامات قدم القاهرة أيام الظاهر جقمق شافعا فى ابن قرمين العزال أحد مشايخ العرب فأجابه وأكرمه وأمر بإنزاله عند الزين الإستادار ، ورجع فأقعد وأخر إلى أن مات رحمه الله تعالى ا هـ ولم يذكر تاريخ موته .

(١) انظر الضوء اللامع ١٣٠/٧ ط المقدسى ١٣٥٤ هـ القاهرة .

أبو خـراش

قرية من مديرية البحيرة بقسم شبراخيت واقعة فى بحرى الكوكبة بنحو ستمائة متر، وفى قبلى محلة نابت بنحو ثمانمائة متر، وأبنيتها باللّبن وبها جامع وضريح ولىّ عليه قبة، وفى شرقيها ضريح سيدى عطية، وبها أبعادية لمنصور باشا ابن أحمد باشا يكن، وفيها لعمدتها محمد عَمر دوّار ومضيفة وزراعة متسعة نحو ألف فدان، وبها / بستان نضر ٢٢ وأكثر أهلها مسلمون.

ترجمة سيدى محمد الخرشى

ومنها نشأ الإمام القطب القدوة الشيخ الخرشى المالكى، ترجمه الشيخ على الصعيدى العدوى فى حاشيته التى جعلها على شرحه الصغير لمتن الإمام خليل. فقال: هو العلامة الإمام والقدوة الهمام شيخ المالكية شرقاً وغرباً، قدوة السالكين عُجْماً وعرباً، مُربّى المريدين كهف السّالكين سيدى أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن على الخرشى، لأن بلده يقال لها: أبو خراش: قرية من البحيرة ببلاد مصر، اشتهر نسبة ونسب عصبته بأولاد صباح الخير، إنتهت إليه الرياسة فى مصر، حتى إنه لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته وطلبة طلبته، وكان متواضعاً عفيفاً واسع الخلق كثير الأدب والحياء، كريم النفس جميل المعاشرة حلو الكلام كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم، مهيب المنظر دائم الطهارة كثير الصّمت كثير الصيام والقيام زاهداً ورعاً متقشفاً فى مأكله

وملبسه ومفرشه ، ولا يصلى الصبح صيفاً وشتاء إلا بالجامع الأزهر ، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته فى منزله يقول من عاشره : ما ضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه ، وكان إذا دخل منزله يتعمم بشمله صوف بيضاء وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية ، واشتهر فى أقطار الأرض كبلاد الغرب والتكرور والشام والحجاز والروم واليمن ، وكان يغير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب مع السهولة إيثاراً لوجه الله تعالى ، ولا يمل فى درسه من سؤال سائل لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقانى وأبى الضياء على الأجهورى .

وكان أكثر قراءته بمدرسة الآقبغاوية ، وكان يقسم متن خليل نصفين ، نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن ، ويقرأ النصف الثانى فى اليوم الثانى .

وكان له فى منزله خلوة يتعبد فيها ، وكانت الهدايا والنذور تأتيه من أقصى الغرب وبلاد التكرور وغيرها فلا يمسك منها شيئاً ، بل أقاربه ومعارفه يتصرفون فيها .

أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام كالعلامة الشيخ على الأجهورى وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقانى والشيخ يوسف الفيشى ، والشيخ عبدالمعطى البصير ، والشيخ يس الشامى ووالده الشيخ عبدالله الخرشى .

وتخرج عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو مائة ، منهم العارف بالله الشيخ أحمد اللقانى ، وسيدى محمد الزرقانى والشيخ على اللقانى ، والشيخ شمس الدين اللقانى ، والشيخ داود اللقانى ، والشيخ محمد النفراوى ، وأخوه الشيخ أحمد والشيخ أحمد الشبرخيتى ، والشيخ أحمد الفيومى ، والشيخ إبراهيم الفيومى ، والشيخ أحمد الشرفى ، والشيخ عبدالباقى القلينى والشيخ على المجدولى . مات رحمه الله صبيحة يوم الأحد

السابع والعشرين من ذى الحجة ختام سنة إحدى ومائة وألف ، ودفن مع والده بقرب مدفن الشيخ العارف بالله سيدى محمد البنوفرى بوسط تربة المجاورين وقبره مشهور ، وما رأيت فى عمرى أكثر خلقاً من جنازته ، إلا جنازة الشيخ سلطان المزاحى ، والشيخ محمد البابلى .

هذا ما انتهى جمعه من مناقبه فى أواخر شهر صفر الخير سنة مائة واثنتين وألف من الهجرة النبوية ، جمعه الشيخ محمد المغربى رحمه الله تعالى انتهى بإختصار .

وله مؤلفات مقبولة فى سائر الأقطار ، منها شرحه الكبير على متن الشيخ خليل ثمانية أجزاء ، وشرحه الصغير على خليل أيضاً أربعة أجزاء ، وجزء فى الكلام على البسملة نحو أربعين كراسة وغير ذلك .

أبـو رجوان

من هذا الإسم قريتان بالقسم القبلى من مديرية الجيزة واقعتان غربى النيل المبارك ، إحداهما البحرية فى غربى الشوبك بنحو خمسمائة متر ، وبها جامع بدون منارة ، والثانية القبلية فى شمال مزغونة بنحو نصف ساعة ومبانيها بالآجر وبها جامع بمنارة ، وكلاهما فى شمال دهشور بنحو ساعة ، وبكل منهما نخيل كثير من نخل الامهات ، وعند القبلية محطة السكة الحديد وبعدها عن المحروسة نحو خمسة فراسخ ، وكفاها شرفاً أنه قد نشأ منها .

ترجمة السيد صالح بيك مجدى

الأمير الجليل ذو المجد الأثيل حضرة السيد بيك صالح مجدى ، وهو كما أخبر عن نفسه محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن الشريف مجد الدين ، مصرى المولد مكى الأصل .

ولد بقرية أبى رجوان القبلية فى منتصف شعبان سنة اثنتين أو ثلاث وأربعين من القرن الثالث عشر من الهجرة .

وكان أبوه من قرية مزغونة وهى قرية بقرب أبى رجوان ، كان قد نزل بها جده الأعلى الشريف مجد الدين ـ المكى المولد والأصل ـ عند وفوده على الديار المصرية فى أوائل القرن التاسع واستوطنها وتأهل فيها بكريمة بعض أعيانها ، واشتغل بالتجارة خصوصاً فى المواشى ، وعلى منواله نسج أولاده من بعده وكان بيتهم فيها مشهوراً ببيت الأشراف .

قال المترجم ولعل هذه النسبة صحيحة إن شاء الله تعالى . قال : ثم انتقل الوالد من مزغونة إلى أبى رجوان سنة ثلاثين بعد المائتين والألف لنزاع وقع بينه وبين أخويه أحدهما العالم الفاضل الشيخ محمد صالح المتوفى سنة أربعين ، وثانيهما على صالح أحد المزارعين المتوفى سنة سبع وأربعين ولم يعقبا قال : وقد تأهل الوالد فى أبى / رجوان بكريمة من أهلها ، فرزق أولاداً ووجاهةً وقبولاً ، لأنه كان كاسمه صالحاً كريماً وكان

٢٣

جسيماً صاحب شهامة وبسالة وإقدام ، حتى إنه خرج عليه ليلاً فى بعض أسفاره جماعة من قطاع الطريق فلم يكترث بهم وحمل عليهم فى ثلاثة رجال كانوا معه فبدّد شملهم وفرق جمعهم ، لكن أصيب منهم فى فخذه الأيمن برصاصة ارتهن بها فى فراشة نحو شهرين . ولازال منعم البال مرفه الحال إلى أن ماتت زوجته فى سنة خمسين فتكدّر عيشه وأخذت أحواله فى الاضمحلال لاسيما بهلاك مواشيه التى كان يتجر فيها ، وقد مات أولاده فى حياة أمهم ، ولم يبق سوى المترجم وكان أصغرهم : قال : فكان الوالدان يترددان بى فى كل عام بعد موت أخوتى إلى زيارة سيدى أحمد البدوى ، ويقولان لى : أنت السيد فاشتهرت بهذا الإسم من وقتئذ ، وقد دخل المترجم مكتب قرية أبى رجوان وهو ابن ست سنين فقرأ به إلى سورة يس ، ثم أخذ بعد موت والدته بدون علم والده إلى المكاتب الميرية ، التى أنشأها العزيز محمد على باشا فى جميع مديريات حكومته ، فأدخل مكتب حلوان على طرف الميرى ، فلم يمكث به إلا سنة واحدة .

ثم حول فى خامس عشر صفر سنة اثنتين وخمسين إلى مدرسة الألسن بالأزبكية فى القاهرة المفتتحة فى سنة إحدى وخمسين فاشتغل فيها بتحصيل اللغة الفرنساوية تحت نظارة الفاضل الشريف السيد رفاعة بيك الطهطاوى ، فاشتغل فيها بتحصيل اللغة الفرنساوية على مهرة المعلمين ، وتلقى اللغة العربية بأصولها وفروعها عن جماعة من أفاضل الأزهريين ، منهم الأستاذ المحقق الشيخ محمد قطه العدوى المالكى المترجم فى الكلام على بنى عدى ، ومنهم شيخ المشايخ السيد محمد الدمنهورى الشافعى صاحب التآليف العديدة المتوفى سنة أربع أو خمس وثمانين ، ومنهم السيد حسنين الغمراوى الشافعى المتوفى سنة ثلاث بعد ثلاثمائة وألف والشيخ محمد أبو السعود الطهطاوى المتوفى سنة ثمانين ، والعلامة الشيخ على الفرغلى الأنصارى الطهطاوى المتوفى على عمل القضاء بطهطا سنة إحدى وثمانين .

ولما تضلع المترجم من لغتى العربية والفرنساوية أخذ فن التراجم عن أستاذه رفاعه بيك المذكور ، فلما أنشأ العزيز محمد على باشا قلم الترجمة سنة ثمان وخمسين تحت نظر رفاعة بيك المذكور .

كان المترجم من رجال هذا القلم المشكل من ثلاثة أقسام ، أحدها قسم ترجمة الرياضيات بفروعها ، وكان رئيسه محمد بيومى أفندى المهندس النظرى ، المتوفى بالأقطار السودانية فى بندر الخرطوم سنة سبع أو ثمان وستين .

وثانيها قسم ترجمة الطبيات بفروعها وكان رئيسه مصطفى أفندى الواطى المتوفى سنة ثمانين أو إحدى وثمانين .

وثالثها قسم ترجمة التواريخ والأدبيات ، وكان رئيسة خليفة محمود أفندى صاحب التراجم الكثيرة فى التواريخ والأدبيات ، منها ترجمان مفيد باللغة العربية والتركية والفرنساوية ، وقد توفى سنة إحدى وثمانين فكان صاحب الترجمة وكيل رياسة ترجمة القسم الأول وهو قسم الرياضيات وفروعها ، وقد ترجم فيه من اللغة الفرنساوية إلى العربية كتابين : أحدهما جداول المهندسين ، وثانيهما تطبيق الهندسة على الميكانيكا والفنون المستظرفة ، وترقى بقلم الترجمة فى أواخر سنة ثمان وخمسين إلى رتبة ملازم ثان ، وفى سنة ستين انتقل برتبة ملازم أول إلى مدرسة المهندسخانة الخديوية ببولاق تحت نظارة الأمير الفرنساوى المنعم عليه برتبة البيكاوية وهو فى المدرسة المذكورة .

ولما انفصل عنها فى سنة ست وستين وأراد التوجه إلى بلاده ، ربط له على الحكومة المصرية معاش عاش به إلى أن مات بوطنه سنة إحدى وثمانين ، وتعين المترجم

بالمدرسة المذكورة لتدريس اللغتين الفرنساوية والعربية وتعليم نجباء تلامذتها فن الترجمة وتعريب فروع الرياضيات التي تدرس بها على القواعد العربية ويقول واضع هذا الكتاب :

إني قد كنت من رجال هذه المدرسة فعرفت المترجم فيها واتخذته لى صاحباً وصديقاً ، وكنت قد تعينت فى سنة ستين التى التحق هو فيها بتلك المدرسة للسفر مع عدة من أمثالى إلى مملكة الفرنسيس لتكميل العلوم الرياضية وتحصيل الفنون العسكرية المتعلقة بالطوبجية والإستحكامات ، فلما رجعت إلى مصر بعد خمس سنين وجدته قد وصل إلى رتبة يوزباشي ، وأخبرنى أنه أحرزها فى سنة اثنتين وستين ، وأنه عرّب فى هذه المدة عدة كتب فى فروع الرياضيات .

منها كتاب : فى الطبوغرافية والجيودوزية وكتاب ميكانيكا نظرية وكتاب ميكانيكا عملية وكتاب أدروليكا وكتاب حساب آلات وكتاب طبيعة وكتاب هندسة وصفية وكتاب فى حفر الآبار ورسالة فى الأرصاد الفلكية تأليف الشهير أرجو ، ولما أحيلت على عهدتى نظارة المهندسخانة وما معها سنة ست وستين بعد انتقالى من رتبة صاغقول أغاسى إلى رتبة أمير ألاى كان لى المترجم رفيقاً مع قيامه بوظائفه ، وطالما استعنت بقلمه على تأليف كتب متنوعة فى فنون شتى ، وقد ترجم فى تلك المدة عدة كتب فى الرياضة / منها ٢٤ كتاب فى الحساب وكتاب فى الجبر ، وكتاب فى تطبيق الجبر على الأعمال الهندسية ، وكتاب فى الظل والمنظور وكتاب فى حساب المثلثات ، وكتاب فى الهندسة الوصفية ، وكتاب فى قطع الأحجار والأخشاب ، وهي كتب جار عليها العمل إلى الآن فى المدارس ، وله غير ذلك من الكتب التي تجل عن الحصر.

ثم انتقل من المهندسخانة بعد إقامته بها عشر سنوات وإمتحانه فيها وإعطائه الشهادات التى تحت يده الدالة على كمال فضله إلى ألاى المهندسين والكبورجية عند وفاة عباس باشا سنة ٧٠ فكان فيه بوظيفتى باش مترجم ومصحح تعريب الفنون العسكرية ، فترجم فيه فى أقرب وقت عدة كتب منها : كتاب استكشافات الترع والأنهر ، وكتاب ميادين الحصون والقلاع ، وكتاب استكشافات عمومية ، وكتاب استحكامات خفيفة ، وكتاب تذكار ضباط المهندسين ، وكتاب استحكامات قوية .

وتعلم بالآلاى المذكور ما لابد منه من الأصول العسكرية وعرف اصطلاحاتها ، ثم ترقى إلى رتبة صاغقول أغاسى فى أواخر شهر صفر سنة اثنتين وسبعين ، ثم انتقل من هذا الآلاى إلى مأمورية أشغال الطوابى بالقلعة السعيدية ، وتقلد بوظيفة توكيلها مع وظيفة ترجمة الكتب العسكرية ، ثم فى رجب سنة ثلاث وسبعين ، انتقل إلى مباشرة طبع الكتب العسكرية بمطبعة بولاق ، وترقى فى آخر جمادى الثانية سنة أربع إلى رتبة بكباشى بأمر المرحوم سعيد باشا مباشرة بدون توسط أحد .

وقد كنت فى إقامتى فى الأوردى بتعليم الجنود العسكرية ألفت كتاباً صغيراً جامعاً لأصول الرياضيات والهندسة فصدر أمر الجناب الداورى بطبعه وأحيلت على المترجم مباشرة تصحيحه فطبع بتصحيحه فجاء فى غاية التحرير .

ثم تعين وهو مباشر فى طبع الكتب العسكرية لنظارة قلم الترجمة الذى كان بقلعة الجبل تابعاً للمدرسة الحربية تحت نظر رفاعة بيك ، وبعد إلغاء تلك المدرسة والقلم اقتصر على مباشرة الكتب العسكرية كما كان ، وقد تم على يديه طبع عدة كتب من التى ترجمها وهو بالآلاى المهندسين والكبورجية فى الفنون العسكرية .

منها : كتاب تذكير المرسل بتحرير المفصل والمجمل ، وكتاب طوالع الزهر المنيرات فى استكشاف الترع والنهيرات ، وكتاب ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابر باليد والقلاع ، وكتاب المطالع المضيفة فى الاستحكامات الخفيفة .

ثم انتقل فى أول جلوس الخديوى إسماعيل باشا على سرير هذه الديار إلى قلم الترجمة المستجد الذى أحيلت على رجاله ترجمة قوانين نابليون ، وفى هذه الدفعة ترق إلى الرتبة الثالثة الرفيعة بتاريخ الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وسبعين .

وقد ترجم فى هذه القلم المستجد قانون تحقيق الجنايات وطبع فى ضمن القوانين الخمسة التى طبعت ونشرت ، ثم انتقل إلى المعية السّنية فى سنة ثمانين فأقام بقلم ترجمتها نحو سنتين ترجم فيهما معظم نظامات القومبانية العزيزية ، فضلاً عن الأمور المتنوعة اليومية ، ثم انتقل من المعية إلى ديوان المعاونة ، وبعد إقامته به مدة يعرب الأمور اليومية تحول إلى ديوان الداخلية ، وبعد إقامته به مدة لا تزيد على شهرين رجع إلى ديوان المدارس ، وانتظم فى سمط رجال قلم الترجمة ، فاشتغل فيه زيادة عن الأمور اليومية بتعريب قوانين عسكرية ورسائل بعضها فى استحكامات خفيفة وقوية ، وبعضها فى مواد وأصول حربية ، وبعضها فى تهيئة الجيوش وسيرها ، وبعضها فى التحفظ والهجوم .

وكان قد عرض له فى سنة اثنتين وثمانين وهى السنة التى رجع فيها إلى ديوان عموم المدارس بطلب رتبة أمير ألآى وتقليده بنظارة قلم ترجمة الكتب العسكرية اللازمة لتعليم تلامذة المدارس الحربية فلم يتم له ذلك لموانع .

وفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين بعد الألف أحيلت على عهدتى ، وأنا إذ ذاك ناظر القناطر الخيرية بمأمورية تأليف كتاب الهجاء والتمرين ، فطلبت المترجم من ديوان المدارس بأمر عال فحضر عندى واشتغل معى بالكتاب المذكور حتى تم على أحسن حال .

وهو الآن مطبوع متداول بين الأيدى وتكرر طبعه حتى زادت نسخه على خمسة عشر ألفاً ، ورأيت معه عند حضوره لدى بالقناطر الخيرية رسالة جليلة القدر جمعها فى التقدمات العصرية فى الأيام الخديوية ، وهى فى غاية الإيجاز والبلاغة ، نثرها فائق وسجعها رائق ، فسألته عن الحامل على جمعها ، فأخبرنى أنه مأمور بتأليفها لتطبع . وأظن أنها لم تطبع .

وباشر معى أيضاً بعض التاريخ الذى عملته للديار المصرية فى عدة مجلدات ، وبعض رسائل جمعتها وطبعت بمعرفته فى جرنال روضة المدارس ، التى أنشأتها فى نظارتى على ديوان المدارس الملكية ، وله من بدائع النظم والنثر فى هذا الجرنال عدة مقالات أدبية تدل على تفننه فى ضروب الأدب .

وقد ألف فى مناقب المرحوم رفاعه بيك بعد وفاته رسالة ختمها بمرثيه بديعة ، ثم تقلد فى سنة ست وثمانين بوظيفة توكيل إدارة المدارس المصرية وبلغ مرتبه فى هذه الوظيفة أربعة آلاف من القروش الديوانية المصرية ، واشتغل بمزاولة تربية أبناء المدارس الميرية وأخذ فى تلك / المدة فى تعليم اللغة الإنكليزية حتى تيسر له قراءة كتبها وفهم معانيها ٢٥ إلا أنه لم يتكلم بها إلا نزرا ، كما أنه يتكلم نادراً باللغة التركية عند إضطراره إليها ، ثم فى سنة سبع وثمانين أحيلت عليه مأمورية الإدارة مع نظارة دروس المدارس فقام

بالوظيفتين ، ولما أحيلت على عهدتى نظارة عدة دواوين ومصالح فى آن واحد استعنت بقلمه على تحرير عدة لوائح وترتيبات نافعة لإدارة هذه المصالح ، وفى سنة ثمان وثمانين لقب بلقب البيكوية بأمر صدر من المكارم الخديوية فى جمادى الثانية من تلك السنة ، واستمر فى أداء هاتين الوظيفتين فى ديوان عموم المدارس الملكية إلى أن ألغيت مأمورية الإدارة فى حادى عشر شوّال سنة ٩٠ ،فانتقل إلى ديوان المالية ومنه تعين بوظيفة تحصيل المتأخرات بمديرية البحيرة ، ثم رجع إلى ديوان عموم المالية بوظيفة معاون ، وفى أثناء إقامته به جمع بأمر عال رسالة بديعة فى مولد الخديوى ومحسناته وموالد أنجاله الصدور الكرام وتاريخ والده سمى نبى الله الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام وسماها بحلية جيد العصر بدور محسنات خديوى مصر .

وبالجملة فله من التراجم والمؤلفات ما يزيد على خمسة وستين كتاباً ورسالة ، وقد كتب بيده من الكراريس ما لا يدخل تحت حصر ، ثم صار من ضمن قضاة محكمة محروسة مصر المستجدة فى رجال الحقانية والمحاكم الجديدة العدلية ، التى اهتم الخديوى إسماعيل باشا ابن إبراهيم بتشييد أركانها وتمهيد قواعدها وترصيين بنيانها ، ثم توفى بالقاهرة ودفن بها رحمه الله رحمة واسعة

أبو الريش

قرية من قرى دمنهور البحيرة كانت تسمى طموس ، وكان بينها وبين دمنهور نحو خمسمائة متر ، ثم اتسعت دمنهور حتى اختلطت بها وصارت الآن من ضمن دمنهور ، وفيها مقام سيدى عطية أبى الريش ، مشهور يزار ويعمل له مولد كل سنة بعد مولد سيدى إبراهيم الدسوقى .

ترجمة السيد عبدالله الطبلاوى

وهذه القرية ولد بها السيد عبدالله الطبلاوى المترجم فى خلاصة الأثر ، بأنه السيد عبدالله بن محمد بن عبدالله الحسينى المغربى الأصل ثم القاهرى الشافعى المعروف بالطبلاوى ، لنزوله بمصر عند الشيخ العلامة ناصرالدين الطبلاوى الشافعى .

وكان أعظم شيوخه الشيخ المذكور أخذ عنه عدة علوم . منها : علم القراءات وساد فيها سيادة عظيمة بحيث إنه كتب فيها حواشى على شرح الشاطبية للجعبرى بخطه ، جردها تلميذه الشيخ سليمان اليسارى المقرىء ، وانفرد بعلم اللغة فى زمنه على جميع أقرانه ، بحيث إنه كتب نسخاً متعددة من القاموس واختصر لسان العرب وسماه (رشف الضرب من لِسَان العرب) لم يكمل .

وكان عارفاً بارعاً بعلم العروض وله شرح على تأنيس المروض فى علم العروض ، وله شرح عقود الجمان فى المعانى والبيان ، تأليف الجلال السيوطى ، وله حاشية على حاشية العلامة البدر الدمامينى ، على مغنى اللبيب لابن هشام ، وسئل عن معنى بيت النهروانى وهو :

فيك خلاف لخلاف الذى … فيه خلاف لخلاف الجميل

فأجاب بقوله من أبيات :

إن كلام النهروانى الذى … ذكرتموه فيه مدح جليل
تراه من لفظ خلاف حوى … أربعة منها خلاف الجميل
يعنى قبيحاً قبله ثالث … خلافه وهو جميل نبيل
خلافه الثانى قبيح فنى … خلافه الأول مدح جميل

ورأيت له ترجمة بخط صاحبنا الفاضل اللبيب مصطفى بن فتح الله قال فيها :

فرع نما من أفخر نسب … جامع بين فضيلتى العلم والحسب
إلا أنّ مخزوما لها الشرّف الذى … غدًا وهو مابين البريّة واضح
لها من رسول الله أقرب نسبة … فيالك عزا نحوه الطرف طامح

كان من المشتغلين بالعلم فقهاً وأُصُولاً ، ومن أعيان الأدباء نثراً ونظماً ، وكان خطه يضرب به المثل فى الحسن والصحة ، وكتب بخطه من القاموس نسخاً هى الآن مرجع المصريين لتحريه فى تحريرها ، وكان كريم النفس حسن الخُلق والَخلْق من بيت علم ودين وله شيوخ كثيرون .

منهم العلامة أبوالنصر الطبلاوى والشمس الرملى والشهاب أحمد بن قاسم العبادى وغيرهم من أكابر المحققين ، واستمر حسن السيرة جميل الطريق إلى أن نقل من مجاز دار الدنيا إلى الحقيقة ، وشعره مشهور ونثره منثور ولواء حمده على كاهل الدهر منشور .

وله قصيدة مدح بها أستاذه الطبلاوى المذكور والتزم فى قوافيها تجنيسَ الخال وهى مشهورة ومطلعها :

* يا سلسلة الصدغ من لواك على الخال *

وذكره الخفاجى وأخاه سيدى محمداً ، وأثنى عليهما كثيراً ، وكانت وفاة السيد عبدالله فى صبح يوم الأثنين مستهل ذى الحجة سنة سبع وعشرين وألف ، وصلى عليه بالأزهر ودفن بالقرب من العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض وقد ناهز السبعين انتهى .

أبو الصير

قرية من مديرية الدقهلية بمركز السنبلاوين فى الشمال الغربى لناحية المقاطعة بنحو ثلاثة آلاف ومائتى متر، وفى الجنوب الشرقى للسنبلاوين بنحو ثمانية آلاف متر بها جامع، وزمامها نحو مائتى فدان وتكسب / أهلها من زراعة القطن وباق الحبوب . ٢٦

أبو طوالة

هذه القرية من مديرية الشرقية بقسم العرين واقعة غربى بحر مويس وقبلى قرية نيدوق إلى غرب، بينهما نحو ستة آلاف متر، بجوارها فى الجنوب الشرقى تل قديم مرتفع نحو عشرين متراً، وبأعلاه مقام ولىّ يقال له : أبو طوالة وله مقابر أيضاً ، ويؤخذ إلى الآن منه السباخ .

وهو متسع نحو خمسين فداناً وبها مجلس دعاوى وآخر للمشيخة ومكاتب ومساجد وتكسب أهلها من الزرع وزمامها أربعمائة واثنان وثمانون فداناً وكسر، وجملة أهلها ألف وثمانون نفساً .

أبو الغيط

قرية من أعمال قليوب فى الجانب الشرقى لبحر دمياط وفى جنوب الخرقانية بنحو ألفى متر، وبها جامع بمنارة ومعامل دجاج ودار مشيدة لبعض كبرائها ولها سوق كل أسبوع..

ويزرع فى أرضها البطيخ والشمام كثيراً ويكون غاية فى صدق الحلاوة وطيب الرائحة ، وأكثر ما يباع منه بالقاهرة والإسكندرية ونحوهما مجلوب من هذه القرية ، ومن قرية بيسوس وما جاورهما من القرى .

ترجمة الشيخ نجم الدين الغيطى

والظاهر أن الشيخ العلامة نجم الدين الغيطى ينسب إلى هذه القرية ، وكان إماماً ذا أخلاق حسنة وأوصاف جيدة .

قال الشعرانى : فى ذيل الطبقات صحبته نيفا وأربعين سنة ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل نشأ فى عفة وعلم وأدب وحياء وكرم نفس وحسن أخلاق .

أخذ العلم عن جماعة من الفضلاء منهم : الشيخ زكريا الأنصارى ، والشيخ عبد الحق السنباطى ، وابن أبى شريف ، والشهاب والرملى ، وأفتى ودرس فى حياة أشياخه بعد الإجازة وانتهت إليه الرياسة فى الحديث والتفسير والتصوّف ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولما وقعت فتنة أخذ وظائف الناس بغير حق إنتدب لها وكان خمود الفتنة على يديه وشكره أهل الروم والحجاز والشام على ذلك .

وتولى مشيخة الصلاحية والخانقاه السرياقوسية وكتب على بعض مؤلفاتى كتابة حسنة لم يسبق إليها أحد ، لأنى جمعت فيه نحو ثلاثة آلاف علم ، لا يكاد يصدق بتلك العلوم إلا من رآه .

وله تهجد عظيم فى الليل وبكاء وتضرع وخشية يصبح فى بعض الليالى وجهه يضىء كالكوكب لاينكر ذلك إلا عدوّ أو حاسد .

وكانت وفاته رضى الله عنه نهار الأربعاء سابع عشر صفر سنة إحدى وثمانين وتسعمائة انتهى باختصار .

ومن مؤلفاته قصة المعراج المشهورة فى عدة كراريس ، نفعنا الله بعلومه آمين .

أبـو كـبـيـر

هذه الناحية عبارة عن عدة كفور من قسم الصوالح بمديرية الشرقية وجميعها ذات نخيل بكثرة ، وهى واقعة فى جزيرة مرتفعة عن المزارع بنحو مترين ، ويجاورها من الجهة الشرقية السكة الحديد الذاهبة إلى المنصورة ، وبها محطة المرور وديوان التفتيش التابع للجفالك ، وبها بساتين مشتملة على الليمون والأترج والنفاش ، والكباد ، ويزرع بها البطيخ فى البواطن ، وبها دكاكين وتجار من الدول المتحابة يتجرون فى القطن والأبزار ونحوها . وبها أرباب حرف ومكاتب أهلية ومجلسا مشيخة ودعاوى .

وأبنية البلد باللّبن الرملى وسقوفها من خشب النخل والجريد ، ولها سوق كل يوم أربعاء ومساجدها بدون منارات ، وبحريها خط السكة الحديد الموصل إلى الصّالحية ، وبعدها عن قرية فاقوس نحو عشرة آلاف متر إلى جهة الجنوب الغربى ، وفى شرقيها جزيرة أبى كبير وهى : رمال غير صالحة للزرع ومرتفعة عن المزارع من ثمانية أمتار إلى ثلاثة ، وتكسب أهلها من الزراعة سيما البطيخ وثمر النخل وعدتهم ذكوراً وإناثاً ثلاثة آلاف ومائتان وثلاث وأربعون نفساً ، وأطيانها ثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنان وثلاثون فداناً وكسرا .

أبوكسا

قرية من مديرية الفيوم بقسم سنور فى الشمال الغربى لقرية سنور بقدر خمسة آلاف متر ، وفى الشمال الشرقى لقرية بشيه الرمان بقدر ثلاثة آلاف وستمائة متر .

وفيها جامع قديم مبنى باللبن وأبنيتها باللبن وقليل من الآجر ، وفيها كثير من شجر الكرم والمشمش والتين ، وفيها تفتيش للدائرة السنية يشتمل على فوريقتين لعصر قصب السكر واستخراج السكر الأبيض والأحمر منه .

أحداهما تسمى فوريقة أبى كسا ، والأخرى تسمى فوريقة الدودة ، وعند الفوريقتين فروع من السكة الحديد لنقل القصب من الغيطان إلى المعاصر بالعربات المخصصة لذلك كما هو جار فى جميع فوريقات الدائرة السنية .

وبجوارهما مساكن المستخدمين ومسجد لصلاتهم وسوق بحوانيت تبع الدائرة ، وهناك محطة عمومية للسكة تسمى محطة أبى كسا ، يخرج من عندها فرع إلى أراضى المسيد ، وفرع إلى أراضى أبشواى ، ثم أراضى ترسة وطوله ثمانية أميال ، وهناك ستة مفاتيح تنتقل عليها الوابورات من فرع إلى آخر .

وكان المخصص لعصر الفوريقتين ثلاثين ألف فدان من القصب ، وفى سنة ألف ومائتين وتسعين قل المتزرع هناك فبطلت حركة فوريقة الدودة وأكتفى بالأخرى .

أبوكلس

بلدة بمديرية المنوفية فى جنوب أبشادة بنحو ألفى متر وفى شرق بحر رشيد بقليل ، وأبنيتها باللبن وبها جامع / بمنارة تقول العامة إنه من بناء الست فاطمة بنت أحمد أغا وزير السلطان أحمد بن طولون وليس بصحيح ، وبها ثلاث قباب على أضرحة تزار ، وبها قليل نخيل وساقية وست طواحين تديرها الحيوانات وينسج بها ثياب الصوف وأكثر زرعها الكتان والذرة وأكثر أهلها مسلمون .

٧ / ٣

ترجمة الشيخ محمد أبى كلس

وقد نشأ منها الشيخ محمد عسكر الكلسى ، كان يكنى باسم هذه البلدة وهو : محمد بن محمد بن محمد بن محمد إلى سبعة أجداد كل منهم اسمه محمد ، كما أخبر بذلك ابنه الشيخ محمد طالب العلم بالأزهر ، وأحد خوجات المدرسة الخيرية التى كانت بالقلعة ، قال : قرأ الوالد القرآن ببلده فى حجر والده ثم جاور بالأزهر سنة ست وثلاثين ومائتين وألف ، بملاحظة عمه الشيخ سليمان الكلسى ، واجتهد وحصل فى كل فن وتفقه على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وتصدر للتدريس سنة تسع وخمسين ،

وشهدت له الأشياخ بالفضل والتحصيل ، وفى سنة تسع وسبعين فى أول عهد الخديوى إسمعيل توظف بتدريس فن العربية بمدرسة التجهيزية مع تدريسه بالأزهر إلى أن توفى يوم الأثنين رابع عشر شهر الله الحرام سنة ثلاث وثمانين ، ودفن بقرافة المجاورين بالقرب من قبر الشيخ النجارى .

ومن مشايخه الشيخ يوسف الصاوى المالكى ، والشيخ مصطفى البولاقى ، والشيخ محمد عليش شيخ السادة المالكية ، والشيخ ابراهيم البيجورى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ إبراهيم جابر المالكى رحمهم الله أجمعين .

مطلب عوائد ناحية أبى كلس

ومن عوائد هذه الناحية وما قاربها من البلدان فى أفراح الزواج ، أن أم الزوج بعد الخطبة وتسمية المهر تصنع فطيراً وكعكاً وترسله إلى بيت الزوجة ، فإذا قبلوه فقد تمت الخطبة ومضت الشروط ، وإلا كان لهم الرجوع .

ثم يجعلون فى قرنى ثور الطاحون منديلين وفى عنقه جرسا إلى تمام طحن غلال الفرح ، ثم يطوفون البلد بالدُّف والمزمار لجمع المسكة من البيوت ، ويعملون الفرح على عادتهم ، وقبل ليلة البناء يجلسون الزوجة ليلا على جدار ارتفاعه قدر قامة الإنسان ،

وهى مكشوفة الصدر مستورة الوجه إلى شفتها السفلى ، وحولها النساء والرجال وآلات اللهو وعلى رأسها مهرجان فتمكث كذلك قطعة من الليل ، ثم يخرج أبوها الأكل للحاضرين فيأكلون ، ثم تزف إلى بيت الزوج فتجتمع عندها النساء ويلصقن على صدرها ونهديها الدراهم المسماة بالنقطة .

وأما الزوج فيدعوه بعض أصحابه إلى داره وقد أعدّ له حماماً ، وهو عبارة عن قالبين من الآجر يوقد عليهما طول النهار ، ثم يجعلان فى طشت أو نحوه ويجعل على الطشت لوح من خشب ، ويجرد الزوج من ثيابه ويجلس فوق ذلك ويغطى بشىء كثيف ، ثم يصب الماء على القالبين فيخرج بخارهما عليه حتى يعرق عرقاً كثيراً يحلل أدرانه ويفعل أكثر مما يفعله الحمام العمومى المعروف ، ثم يرفع عنه الغطاء ويغسل بالماء المسخن والصابون وهو عريان مكشوف العورة وحوله الرجال والنساء ، ويعدّون استتاره حينئذ عيبا ، ويكون غسل الزوجة أيضا بهذه المثابة غير أنها لا يحضرها الرجال .

ثم يتسابق الغلمان والشبان فى الاغتسال عقبه ، لاعتقادهم أن من فعل ذلك أوّلا يتزوج أوّلا ، وبعد ليلة البناء يشرع أهل البلد فى دعائه إلى منازلهم ، فيأخذه أهل كل حارة يوما ومعه أحبته فيهيىء لهم أهل الحارة موائد واسعة ، وقد يفعل ذلك واحد بانفرادة ، وفى آخر النهار يجتمع الناس وينصبون حانة فيها الدف والمزمار والرقص والزغاريد ويرمون على الطبال نقطة ، ثم يمشى الزوج أمامهم وهم يصفقون خلفه ويغنون بقولهم : روّح يا زين العرسان ، حجة وتروّح فرحان ، روّح عقبال البكرى ، روّح عقبال الغلمان ، حتى يصل إلى داره وهكذا كل ليلة حتى يطوف حارات البلد .

وعادتهم فى المآتم أنه إذا عقر للميت فلا يهيأ لأهله طعام فى أول ليلة ، وإن لم يعقر له هيأ أهل البلد لهم الطعام وأرسلوه إليهم ، وإن كان الميت من الأغنياء فإنه يعقر له قبل دفنه ، وبعد دفنه يرجع من شيعه إلى خيمة داره ويصطفون صفين جلوسا فيؤتى لهم برغفان كبيرة ويوضع أمام كل رجل رغيف عليه قطعة لحم من العقيرة ويقول ولىّ الميت : باسم الله فلا يأكل أحد ويعدّ الأكل حينئذ عيباً ، ويعرض عليهم القهوة فلا يشربونها ، ويكرر عرضها إلى آخر النهار من أول يوم ، ثم لا يؤتى بالقهوة إلى آخر الأيام بخلاف الأكل فيأكلون فى غير أول يوم ولا يعد عَيّبًا

ثم إن غالب أكل تلك الجهة الذرة الشامية وطبيخ البيسارة والخبيزة والكشك والعدس ، ويلبس نساؤهم ثياب القطن السرساوية ويتحلين بأطواق الفضة والحلى المعتاد .

أبو المشط

قرية من مديرية المنوفية بقسم منوف واقعة بين ترعة النعناعية وبحرى الفرعونية فى الشمال الغربى لمدينة منوف ، وبها ثلاثة مساجد ومنزل ضيافة لعمدتها أحمد أغا الجنزورى ، وله بها أيضاً بستان ذو فواكه ووابور على ترعة النعناعية ، وبها أيضاً معمل دجاج وأبراج حمام ، وفى بحريها بالقرب من ترعة النعناعية قنطرة بثلاث عيون تعرف بقنطرة الجبن ، ورى أطيانها من الترعة المذكورة وبها سواق / معينة لسقى المزروعات الصيفية ، وتكسب أهلها من الزرع وغيره . ٢٨

ترجمة الزين المنوفى

وإلى هذه القرية ينسب كما فى الضوء اللامع للسّخاوى : خالد بن أيوب بن خالد الزين المنوفى ثم القاهرى الأزهرى الشافعى ، ولد بعد القرن بيسير فى أبى المشط من جزيرة بنى نصر الداخلة فى أعمال المنوفية ، وانتقل منها إلى منوف فقرأ القرآن والعمدة .

ثم قدم القاهرة فقطن بالجامع الأزهر وحفظ فيه المنهاج الفرعى والأصلى وألفية النحو واشتغل بالفقه على الشمس بن النصار المقدسى ، وكذا أخذ عن الشمس البرماوى وغيره ولازم القاياتى حتى كان جل انتفاعه به ، وقرأ فى المنطق والمعانى على الشمنّى وغيره وتصدى لنفع الطلبة ، فأخذ عنه جماعة وحج ، وولى مشيخة سعيد السّعداء بعد ابن حسان ، وكان خَيِّرا متواضعا كثير التلاوة والعبادة ملازما للصمت مع الفضل والمشاركة فى كل فن .

مات فى ثانى شوّال سنة سبعين وثمانمائة ودفن بتربة طشتمر حمص أخضر . رحمه الله تعالى وإيانا انتهى .

أبو منـــاع

قريتان من قسم قنا متقابلتان كلتاهما تسمى بهذا الاسم والقبلية منهما تسمى الحجاريد أيضا .

وهما واقعتان فى حوض فاو بفاء فى أوّله قريبا من الجبل الشرقى ، وبين القريتين نحو ثلث ساعة والنيل بعيد عنهما بنحو ساعة ونصف .

وفى قبليهما قريةَ فاوْ ، وفى غربيهما قرية القصر والصياد وأغلب أبنيتهما باللبن ، وأهلهما من عرب أولاد يحيى .

ويقال : إنهم أولاد رجل واحد ، وعمدهما من عائلة أحمد بيك أبى مناع من أشهر عرب الصعيد ، وكانوا سابقا ملتزمين ببلاد قنا وكلهم ذوو كرم وشجاعة وفروسية . ولهم آداب وعوائد حسنة .

منها : أن صغيرهم يوقر كبيرهم فلا يجلس معه ولا يشرب الدخان بحضرته ويقوم إجلالا له ، ولو كان الصغير ذا ثروة والكبير فقيراً .

ويحرصون كل الحرص على صيانة النساء فلا يخرجن ولا يتبرجن ويتولى الرجل منهم قضاء المصالح الخارجية مثل الاستقاء والتسوق إما بنفسه أو خادمه ، فإذا جاء السّقاء إلى المنزل أخذ منه الماء خادم صبى أو نحوه ، وإذا أرادت المرأة زيارة أهلها خرجت ليلا ومعها زوجها وتعود ليلا .

وإذا بلغ الأطفال الحلم فلا يدخلون منازل آبائهم ولو على محارمهم ، وقد ترقى منهم جماعة فى درجات الحكومة ، فمنهم أحمد بيك محمد أخذ رتبة أميرألآى سنة ١٢٧١ هـ ، وكان من أعضاء مجلس الأحكام وتوفى سنة ١٢٧٩ هـ وخلف ثمانية أولاد ذكور ، ثم ترقى أكبر أولاده عمر بيك فجعل مدير جرجا ثم أسيوط ثم توفى سنة ١٢٩٠ هـ ، ثم ابنه الآخر على أحمد إلى رتبة قائم مقام وجعل وكيل مديرية قنا وتوفى فى رتبته سنة ١٢٨٩ هـ ، ثم ابنه الثالث محمد أفندى فجعل وكيل مديرية قنا ثم وكيل مديرية إسنا .

وقد نسج على منوال أبيه وأخويه فى الإنصاف والكرم . وهذا غير من وظفّ منهم ومن أقاربهم ناظراً أوحاكم خط .

وفيها نخيل كثير ولهم قصور ومناظر ومضايف مشيدة وحدائق وسَواق . ولهم كرم زائد ، ويقال : إن الرغيف عندهم يخرج من ربع ويبة قمحاً .

وفى هاتين القريتين وما جاورهما يوجد جياد الخيل الكحائل ككثير من بلاد مصر ، وذلك أمر قديم فى هذه الديار كما ذكر ذلك الكندى وغيره .

قال الكندى : وبمصر نتاج الخيل والبغال والحمير يفوق نتاج سائر البلاد ، وليس فى الدنيا موضع فرس يشبه العتق إلا فرس مصر ، ولا يوجد فى الدنيا فرس يردف إلا فرس مصر ؛ بسبب ارتفاع صدره .

وكانت الخلفاء ومن تقدمهم يؤثُرون ركوب خيل مصر على غيرها ؛ فإنها تجمع فراهة العتق مع اللحم والشحم ، وذكر أحمد بن حمدان أن الوليد بن عبدالملك بن مروان أمر أن تجرى الخيل ، فكتب إلى كل بلد أن يتخير له خير الخيل بها ؛ فلما اجتمعت عنده عرضت له فَمرَّت به خيول مصر فرآها رقيقة العصب ، ثم تأملها فوجدها لينة

المفاصل والأعطاف فقال : إن هذه خيل ما عندها طائل ، فقال له : عمر بن عبد العزيز ليس الخير كله إلا لهذه وعندها فقال : يا أبا حفص ما تترك تعصبك لمصر ، فلما أجريت جاءت خيل مصر كلها سابقة ما يخالطها غيرها ، ومن خيلها أشقر مروان ، قلت : هو الذى يضرب به المثل ويشبه سدير فرس كسرى ، ولا يدخل عليه سائسه ويقرب إليه إلا بإذنه ، يقرب إليه المخلاه فإن حمحم دخل وإلا وثب عليه ، اشتراه مروان بثلاثمائة ألف درهم ، ثم صار إلى السفاح بعده وهرم وتحطم .

وكان لكرامته عليهم يحمل فى محفة عاج وينقل من مرج إلى مرج ، ومنها الزعفرانى وهو فرس مراد معروف بالجودة وله جنس ، وهو فرس لمحصب وله قصة مشهورة فى يوم الرهان ، وكان بمصر دور الخيل عليها ضياع موقوفة يبلغ مالها فى كل سنة ثلاثمائة ألف دينار سوى خيل أهل الجهاد والرباط انتهى .

أبيـــار

بفتح الهمزة وسكون الموحدة فتحتية مفتوحة فألف فراء مهملة كما يؤخذ من القاموس ، بلدة قديمة من مديرية الغربية بقسم محلة منوف ، واقعة على بحر سيف شرق كفر الزيات بنحو ساعة ، أبنيتها من الآجر واللبن وفيها غرف كثيرة وقصور مشيدة منها أربعة للأمير أحمد بيك الشريف مفتش سخا ومسير وفيها / مساجد بمنارات ومنابر تقام فيها الجمعة والجماعة .

٢٩

منها جامع الشيخ خليفة قديم ، وقد جدده أحمد بيك المذكور سنة خمس وسبعين ومائتين وألف كما جدد زواية فى سنة خمس وثمانين ، ومنها جامع الشيخ بنهاج ، وجامع الشيخ قصود قديمان جددهما محمد أفندى الشريف سنة تسعين ، وفيها معمل دجاج وأنوال ومصابغ نيلة وسوق دائم بحوانيت وسوق عمومى كل يوم خميس ، وساقيتان وجنتان « ذواتا أفنان » ونخيل ، وبقربها على نحو سبعمائة متر تل قديم مساحته نحو خمسة أفدنة ، ويخرج منها طريقان أحدهما إلى طندتا على ثلاث ساعات يمر بشبرى النملة وكفر الجريجى ، والآخر إلى كفر الزيات يمر بناحية دلجمون ، وفيها عائلة مشهورة بالعلم والشرف من عدة أجيال .

قال فى الضوء اللامع للسخاوى إن الشيخ محمد بن على بن أحمد بن عبدالواحد بن عبدالمغيث الأبيارى ثم القاهرى الشافعى ، ولد بهذه البلدة سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

وكان يعرف بابن المغيربى بالتصغير نسبة لجده ؛ فإنه كان مغربيا فنشأ بأبيار وحفظ القرآن وبعض المنهاج الفرعى ، ثم قدم القاهرة فأكمله وألفية النحو والملحة والشذرة الذهبية والمقصورة الدريدية ، وبحث بأبيار ألفية ابن معطى على التاج القروى ، وبحث بالقاهرة المنهاج على الإنباسى ، ولازم البلقينى فى بحثه بل بحث العضد والتلخيص على قنبر ، وناب عن الصدر المناوى بالقاهرة وفى أبيار وعملها عن البلقينى ، ثم أعرض عن ذلك مع حلفه بالطلاق على عدم قبوله .

وكذا عرض عليه ضبط الشئون السلطانية فأبى تعففا مع كثرة تحصيل هذه الجهة ، وتكسب قبل ذلك بالشهادة ، وباشر الشهادة بالأسطبل .

ولما تملك الظاهر جقمق اختص به فصار من ذوى الوجاهات ، وكذا اختص به ولده الناصرى مع مزيد رغبته فى التقلل من التردد إليهما ، وحج مراراً وجَاورَ ، وكان خيرا دينا ساكتا منعزلا عن أكثر الناس حسن المحاضرة ، مات وقد أسن ليلة الأربعاء عاشر المحرم سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن بحوش جوشن انتهى .

ترجمة الأستاذ الشيخ عبدالهادى نجا الأبيارى

ومن علمائها الحبر الهمام وفخر العلماء الأعلام ، الإمام الأريب ، واللوزعى الأديب ، الشاعر الناثر الحافظ الماهر العلامة الشيخ عبدالهادى نجا ابن العلامة الشيخ رضوان الأبيارى الشافعى الأزهرى ، محط رحال الأدب وقاموس لسان العرب .

ولد مدَّ الله فى أجله سنة ست وثلاثين ومائتين وألف كما يؤخذ من عبارته الآتية ، وحفظ القرآن وجاور بالأزهر وتخرج على مشايخ عصره منهم شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم البيجورى ، والشيخ محمد الدمنهورى ، والشيخ أحمد المرصفى والشيخ الشيبينى ، والشيخ مصطفى المبلط ، والشيخ محمد التاودى ، والشيخ فتح الله الخلوتى ، والشيخ الدمياطى والجزائرلى والشيخ محمد عليش شيخ المالكية ، والشيخ إبراهيم السقا .

ومن شبيبته إلى شيبه لم يشغله عن التدريس والتأليف شاغل مع كثرة إقامته ببلده ، ولم يتول شيئاً من الوظائف إلا تعليم أنجال الخديوى إسماعيل باشا ، وله من المؤلفات ما ينيف عن أربعين كتاباً .

منها كتاب : نفحة الأكمام فى مثلث الكلام ، وطرفة الربيع فى أنواع البديع ، والحديقة فى البيان ولها شرحان ، والقصر المبنى على حواشى المغنى ، مجلدان ، ونيل الأمانى شرح مقدمة القسطلانى ، ورشف الرّضاب فى المصطلح ، وشرحه كشف النقاب ، وزهر الروابى شرح وضعية الأنبابى ، والمورد الهنى وشرحه سرور الغنى ، والفواكه الجنوية فى الفوائد النجوية ، وصحيح المعانى شرح منظومة البيبانى فى

المصطلح ، وسعود القران في نظم مشترك القرآن ، والثغر الباسم فى مختصر حاشية البيجورى على ابن قاسم ، وزكاة الصيام فى إرشاد العوام ، وفاكهة الإخوان فى مجالس رمضان ، والكواكب الدرية فى الضوابط العلمية ، والبهجة التوفيقية فى اللغة والأدب ، وزهرة الحمدلة فى الكلام على البسملة ، وحاشية حصن الحصين فى علم الحديث ، وسعود المطالع شرح سعود المطالع جزآن فى واحد وأربعين فنًا فى إسم إسماعيل ، وحجة المتكلم على متن مختصر النووى لصحيح مسلم ، نحو خمسين كراسة ، والنجم الثاقب فى المحاكمة بين برجيس والجوائب ، ودورق الأنداد فى جمع أسماء الأضداد ، وشرحه رونق الأسياد نحو أربعين كراسة .

قال فى ذلك الشرح عند قوله قال ابن رضوان الأبيارى : رضوان اسم أبى وأستاذى السيد رضوان بن محمد كان رحمه الله علم الكمال وروض الفضل والأفضال ، ذا ذهن لا يذبل نواره ، ولا تكسف أقماره واستحضار لا يفلت قنيصه ، ولا يخلق قميصه ، ولا تقصر معارفه ، ولا تحصر مصارفه ، مع تقى تتضوّع أردانه ، وورع لا تضعضع أركانه ، ونزاهة لا ترخص لها قيمة ، ولا تلين لها عزيمة ، وجدّ فى العبادة كلما قيل خلق ثوبه جدّ ، وحد من الزهد لا يبلغ حدّه فيه من معاصريه أحد ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقلما رأيته بالنهار إلا وهو صائم ، ولا بالليل إلا وهو قائم ، وكان من دأبه أن لا يذوق لإنسان طعاماً قط ، ولا يغفل عن ذكر الله إلا وقت الدروس أو ضرورة الأكل / فقط ، حتى إنه كان يسمع منه ذكر الجلالة حال النوم ، وشوهد له من الكرامات حيًّا وميتاً ما لا يُعرف لأحد اليوم ، تخرج بالأزهر على العلامة الجوهرى صاحب النهج ، والأستاذ الشيخ الشرقاوى ، والقطب الدردير والهمام الأمير الكبير وغيرهم ، وأخذ القراءات عن الشيخ العبيدى شيخ الشيخ أحمد سلمونه شيخ القُرّاء فى عصره .

٣٠

وأخبرنى العلامة المرحوم شيخنا الشيخ القويسنى أنه صادف إبتداء مجاورته بالأزهر ابتداء مجاورة االشيخ وأنهما اصطحبا معاً من حينئذ مطالعة وحضوراً من سنة إحدى وسبعين ومائة وألف إلى مائتين وتسعة ، ولذا كان رحمه الله يلاحظنى كثيراً لذلك ، ويقول : أنت ابن أخى ، وحضرت أنا على الشيخ الوالد سحّت عليه سحائب الرحمة فى الحديث الجامع الصغير ، والبخارى ، والمواهب ، وفى التفسير الجلالين ، وفى الفقه إلى المنهج ، وفى النحو إلى الأشمونى ، وفى الفرائض والتوحيد وغيرهما جملة .

ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة الجمعة فى رجب سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف ، فجئت إلى الأزهر وجاورت به إلى سنة خمس وخمسين ، وكان سنى عند وفاته خمس عشرة سنة ، ودفن رحمه الله تعالى بمسجد الشيخ النجم بقبة ولده التى تحت المنارة ، والأبيارى نسبة إلى أبيار بلد أبى وأجدادى عدد أبنائها أربعة آلاف نفس وكسور .

وكانت قبل الآن من المدن العظيمة العامرة بالأعيان والأكابر والأفاضل ، وإلى أن عمل جسر الحديد كانت محل تخت القضاء يتبعها نحو مائة وخمسين بلداً ومركز حكومة قسمها ، وسوق عكاظ جميع ما حولها منوفية وغربية وبحيرة ، وبها من المساجد التى تقام بها الجمعة سبعة ، وبها مركز نقابة أشراف المنوفية ، كما فى بعض حجج عقاراتنا القديمة إذ يعنون فيها عن أحد أجدادنا السيد عامر نجا بنقيب أشراف المنوفية .

نبغ فيها نبغة من الأخيار ، وبزغ منها جملة من الشموس والأقمار ، منهم كما فى تاج العروس : أبو الحسين على بن إسماعيل الأبيارى ، روى عنه أبو طاهر السّلفى ، ومنهم أبو الحسن على بن إسماعيل بن عطية شارح البرهان فى الأصول ، كان ابن الحاجب من

تلامذته والشيخ محمد القبانى ترجمه الشهاب فى الريحانة وأنشد له :

وهيفاء تسقى الراح قالت لصبها .. الخ قال ولـه :

رونق البدر فى صفا الماء لما جعلته أيدى الصّبا كالأسـارى
شبْه جام من لؤلؤ يتـلألأ فوق صرح مُمرّد من قـوارى

ولـــــه :

لقَد حلّ فى مصر بلاء من البرش به غدت الأرواح والمال فى أرش
وكان بها حرث ونسل فـمزقوا وأهلك ذاك الحرث والنسل بالبرش

وفيه تورية بما يسميه الفلاحون برشا وهو حرث الأرض أول مرة .

ومنهم العلامة الشيخ فائد بن مبارك شارح الجامع الصغير والكنز ، وعم والدى المرحوم السيد على نجا ، له شرح مقدمة التثبت للسيوطى رأيته بخطه وعليه تقريظ للشيخ الدردير ، والشيخ الكفراوى وغيرهما ، ومختصر متن البخارى مع شرحه للقسطلانى .

ولم يزل بها ولله الحمد الآن من العلماء والصلحاء والأعيان ، وغالب أهلها حفظة للقرآن ، إذ كل من درج من أطفالها فإلى المكتب ، إلا أن ذلك تضعضع بسبب تسلط مشايخها المتلقبين بالأشراف على أولاد المكاتب أيتاماً أو غير أيتام ، بعد أن كانوا فى أمن

منهم إلى أن توطنا مصر ولذا قال من قال :

غدت أبيار شر مدينة من أكابرها الذين طغوا شرورا
فما للزور فيها قط زور وإن يك زورهم زورا كبيرا

الزور الأول العاقل الرئيس ، والثانى لذة الطعام وطيبه ، والثالث الباطل وقال :

أرى كل فضل بين أبناء أبيار كمثل سنمار بدا بسنمار
وليس يجازى الفضل من شرفائها لعمرك إلا من جزاء سنمار

السنمار بكسر السين المهملة والنون وتشديد الميم فى الأول اللص ، وفى الثانى القمر ، وفى الثالث رجل بنى للنعمان قصرا فى عشرين سنة لم يعمل مثله وجعل فيه حجراً إن أخرج منه انقض جميع القصر معه ، فلما تم بناه وأراه إياه ألقاه من أعلاه فضرب به المثل لمن يجازى على أحسن الأعمال بأسوء الجزاء .

ولبعضهم فيهم قصائد يستعذب السمع مبانيها لكنه يستغيث من عذاب معانيها ، ومقالات هى وإن كانت صحيحة لا شك فيها ، إلا أنه لعدم جراءة أحد على أمثالها يكذب خبر ناقليها ، ولله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين انتهى .

ترجمة الشيخ على بن إسماعيل

وقد ترجم فى حسن المحاضرة على بن إسماعيل شيخ ابن الحاجب فقال : هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن على أحد العلماء الأعلام وأئمة الإسلام ، برع فى علوم شتى الفقه والأصول والكلام ، وكان بعض الأئمة يفضله على الإمام فخر الدين فى الأصول ، تفقه بأبى الطاهر بن عوف وألف ودرس / بالإسكندرية وانتفع به الناس ٣١ وتخرج به ابن الحاجب ، ولد سنة ٥٥٧ هـ ، ومات سنة ٦١٨ هـ ، رحمه الله تعالى انتهى ـ وفى ذلك نوع مخالفة لما مر عن تاج العروس .

أتريب

قال فى القاموس أتريب كأزميل كورة بمصر ، وقال فى موضوع آخر الإزميل بالكسر شفرة الحذاء وحديدة فى طرف رمح لصيد البقر والمطرقة ، ومن الرجال الشديد والضعيف ضدًا انتهى .

وفى كتب الفرنج أن أتريب مدينتان بمصر إحداهما مدينة كانت قديما من المدائن العظيمة على الشاطىء الشرقى للنيل بقرب مدينة بنها من مديرية القليوبية .

ويقال لها أيضا : أتريبس طولها اثنا عشر ميلا وعرضها كذلك ، وكان لها اثنا عشر بابا ، وكان بها خليج تجرى به مياه النيل تتفرع منه ترع صغيرة يحيط منها الماء بالمساكن ، وكانت بساتينها مملوءة بالأشجار المثمرة كما نقل ذلك عن ابن إياس ، وبيوتها فى غاية الحسن وكانت قاعدة إقليم يعزى إليها قُراه وهى مائة قرية وثمانية ، وكان يسمى فى زمن الرومانيين إقليم أو غسطمنيقه الثانى ، وكان فيها كرسى أسقفية نصرانية ودار إقامة الحاكم وأطلالها الباقية إلى الآن تعرف بتل أتريب وهى مشهورة .

وقال ابن الكندى : إن كورة أتريب كانت أحد الأقاليم المصرية التى لا نظير لها على وجه الأرض ككورة سمنود ، وكورة الفيوم ، وكورة أتريب من جملة كور أسفل الأرض ، وكان يقال : مدائن السحرة من ديار مصر سبع وهى : أرمنت ، وببا ، وبوصير ، وأنصنا ، وصان ، وصا ، وأتريب ، وكان بها دير للعذراء البتول يعرف بدير مارى مريم على شط النيل بقرب بنها ، وعيده فى حادى عشر بؤونه .

وذكر الشابسطى أن حمامة بصنا تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح لا يدرون من أين جاءت ولا يرونها إلى مثل ذلك اليوم ، وقد تلاشى أمر هذا الدير ، حتى لم يبق به إلا ثلاثة من الرهبان ، لكنهم يجتمعون فى عيده وكان يجتمع به عالم بكثرة من جميع الأقاليم ، وقد عزم مروان الجعدى المنبوذ بالحمار آخر خلفاء بنى أمية على إحراق أتريب حين وصل إلى جهتها ، فنجاها الله من تلك المصيبة بهربه منها إلى وسط مصر .

وملخص ما نقله كترمير عن مؤرخى بطارقة الأسكندرية أن الخليفة مروان لما بلغه وصول الفرنسيس إلى ناحية الفرما وجه جملة من العساكر فى المراكب إلى الجهات البحرية وأمرهم بحرق كل ما يجدونه من السّفن ، ووجه مثلهم من البر وأمرهم بحرق المدن والقرى والمزارع والكروم ففعلوا ما أمروا به ، حتى أتوا إلى مدينة أتريب فهموا بإحراقها .

وكان بها خمسة مجار للماء غير الخلجان ، وكان قد رأى أن تخريب البلاد وقلة المراكب التى يعبرون بها البحر يمنعهم عن دخول أرض مصر ، لكنه أخطأ فيما دبره ، فإنه بلغه أن أعداءه قد اجتازوا النيل خوضا من أماكن متعددة ، ووصلوا إلى أماكن كثيرة فخاف وطلب العساكر ، فقاموا من غير أن يحرقوا المدينة .

وذكر هذا المؤلف أيضا أن العرب دخلوا مدينة أتريب وهدموا كنيسة العذراء البتول ، وذكر المقريزى فى رسالته على قبائل العرب : أن أتريب من ضمن المدن التى استوطنتها العرب ، وطول الباقى من آثار هذه المدينة ستمائة تؤازة ، وعرضها أربعمائة تؤازة ، والتؤازة متران .

وكان فيها شارع عظيم يخترقها طولا ومحل منتزه باهر ، وكان سكان ما حولها كأهل بنها يحفرون فى تلالها فإذا وجدوا رخاما أو أحجارا أحرقوها وعملوها جيرا ، فأتلفوا بذلك أشياء عتيقة كثيرة .

وفيها آثار حفر مقببة تشبه قبور المسلمين ، ولعلها كانت قبور أمواتها ، وكان شارعها الأكبر عموديا على خط النيل ، وكان فيها شارع أصغر منه يخترقها جنوبا وشمالا ، ثم إن فرع النيل المعروف قديما بفرع تانيتقه بقرب هذه المدينة ، وهو بحر صان المعروفة قديما بتانيس ، ويعرف ذلك البحر اليوم ببحر مويس .

وأتريب الثانية مدينة كانت ببلاد الصعيد ، وكانت تسمى فى كتب الأقباط أتريبى أو أتريبة ، وهى بإقليم أخميم تجاه دير مارى شنودة المعروف بالدير الأعظم الأبيض الذى بجانب الدير الأحمر .

وفى كتاب لطرون الفرنساوى الذى ألفه فى النقوش الرومية واللّاتينية المرقومة على الجدران المصرية ما ترجمته : إنه كان فى الأقاليم القبلية مدينة بهذا الإسم ، وكانت واقعة فى الجنوب الغربى من مدينة بانوبوليس (إخميم) .

على الشاطىء الثانى من النيل وكانت فى جنوب دير مارى شنودة على قرب منه وتسميها الأروام فى كتبهم مدينة كروكوديلوبونيس ـ يعنى مدينة التمساحَ ـ وهى مدينة المنشأة .

وفى تحقيقات جامبليون أن أتريب كانت مقدسة وسمى على أسمها مدينتان بمصر إحداهما سماها الروم كروكوديلوبونيس بقرب إخميم وجبلها كان يعرف بجبل أتريبس ؛ لأن أتريب كانت تعرف أولا بتريفبس ، ثم عرفت بتريبس ، ثم عرفت بأتريبس بأتريب والثانية هى التى فى الوجه البحرى انتهى .

وقد وجد والكنسون الإنكليزى فى سياحته فى خراب هذه المدينة ثم آثار معبد قديم طوله أحد وستون مترا وعرضه ثلاثة وخمسون ، وكان على اسم المقدسة اتريفيس أوتريفيس ، وقد / ، عثر فيه السياح المذكور على كتابة رومية علم من ترجمتها : ٣٢

إن هذا المعبد إبتدأت عمارته فى زمن آخر البطالسة ولم يتم إلا فى زمن القيصر تبير ، وقت أن كان الحاكم على مصر من طرف الرومانيين قايوس جالريوس فى السنة التاسعة من قيصرية تبير المذكور ، قال : والذى ذكر اسم هذا الحاكم من ضمن من حكم مصر من الرومانيين هو يلين من بين كافة المؤلفين .

ومن تحقيقات لطرون فى كتابة ظهر أن الذين حكموا مصر فى زمن القيصر تبير ستة خلافاً لمن زعم أنهم خمسة أولهم مرقوس أمليوس رقطوس ، حكم بعض أشهر من السنة الرابعة عشرة من الميلاد .

والثانى سيجوس استرابون حكم كذلك بعض أشهر من السنة المذكورة .

والثالث وابرازيوس بليون حكم سبع سنين .

والرابع قايوس جالريوس حكم سنة واحدة ثم عزل ، وتولى بعده واترازيوس بليون ثانياً وأقام تسع سنين فمدته أولاً وآخر ست عشرة سنة . .

والخامس تبيريوس جليوس سويزوس أقام سنة واحدة .

والسادس وهو آخرهم أوايليوس أفلاقوس أقام خمس سنين ، فعلى هذا يكون مدة الجميع أربعاً وعشرين سنة ، وقد حقق كترمير أن مارى شنوده المذكور مات سنة ٣٩٥ من الميلاد ، وكان عمره إذ ذاك مائة وثمان عشرة سنة ، وكان له شهرة عند

الأقباط حتى أنهم اعتقدوا نبوّته وجعلوا له مولداً يشهر كل سنة فى السابع من أبيب ، وكان تحت رياسته ثلاثة آلاف راهب من النصارى .

وذكر أبو البركات أنه ترك كتباً كثيرة من تآليفه كانت جميعها فى ديورة الصعيد ـ وقواه المقريزى ـ وبنيت على اسمه كنائس وديورة بكثرة فى الديار المصرية .

منها : الكنيسة التى كانت له فى الفسطاط المعروفة بكنيسة السّباع وكانت له أخرى فى الجيزة بقرب دير الشمع ، وأخرى فى انصنا ، وواحدة فى الأشمونين ودير بقفط ، وكنيسة بأرض قاو ، وأخرى قريباً من دلجة وغير ذلك انتهى .

والآن لم يبق من أطلال أتريب البحرية إلا القليل ونقلت الأهالى ما يصلح لتسبيخ الأرض من تلولها ومساحة محلها قريبة من ثلاثمائة فدان ، وفى نهايتها البحرية من جهة النيل بنى المرحوم عباس باشا فى هذا القرن الثالث عشر قصراً وزرع الأرض التى بينه وبين بحر مويس أشجاراً ، ثم آلت من بعده بالشراء الشّرعى إلى ورثة المرحوم سعيد باشا ومدرسة بنها فى جزء منها .

وفى الجهة القبلية من أطلالها محطة السكة الحديد المتفرع عنها خط الزقازيق والسويس والمنصورة والخط الطوالى بين مصر والإسكندرية ، وهى من أعظم المحطات ويجتمع فيها كثير من الرّكاب والبضائع وكانت قبل جلوس الخديوى إسماعيل على التخت عبارة عن مبان قليلة مجردة عن التنظيم .

أتليدم

قرية بالصعيد من مديرية أسيوط بقسم ملوى على الشط الغربى للترعة الإبراهيمية وفى جنوب ناحية سفاى بنحو ألفى متر ، وفى غربى ناحية ساقية موسى بأقل من ذلك ، بناؤها باللبن وفيها ثلاثة مساجد ومعملاً دجاج وأربعة أضرحة ذات قباب لبعض الصالحين ، وبها سواق وبساتين ذات فواكه ونخيل كثير ، وسوقها كل يوم ثلاثاء يجتمع فيه من البرّين ويباع فيه المواشى وخلافها ، وفيها أقباط بكثرة ، ولهم فيها كنيسة وجبانة مسلميها فى شرق النيل عند الشيخ تمى ، ويزرع فيها صنف الملوخية بكثرة وفى رسالة البيان والاعراب للمقريزى إنها من منازل الأشراف التى كانوا قد نزلوا بها كغيرها من بلاد الأشمونين .

أثـر النبـى

هذه القرية من مديرية الجيزة على الشاطىء الشرقى للنيل ملاصقة لدير الطين من جهة الشمال بجوار مصر القديمة ، بها حجر فيه هيئة أثر قدم يزعم الناس أنه أثر قدم النبى صلى الله عليه وسلم .

وهو فى داخل جامع بناه الملك الظاهر مدة ولايته وبنى به قبة على ذلك الأثر ، وهو مشهور يزار إلى الآن وهذه القبة مزينة بالقيشانى ، وبها شبابيك مصنوعة بالجبس والزجاج الملون ، وأرضها مفروشة بالرخام وبها قبلة صغيرة يكتنفها عمودان من الرخام ، ووجه محل القدم من الرخام المنقوش بعمودين صغيرين من الرخام ، وبأعلاه لوح رخام فيه كتابة تركية وسقف الجامع على أربعة أعمدة وقبلته من الحجر ، وله منارة قصيرة وميضأة وخلا ، وتملأ من البحر ويتبعه سبيل متخرب به لوح رخام منقوش فيه بالقلم التركى تاريخ سنة سبع وسبعين وألف ، وله مرتب بالروزنامجة ألفًا قرش . كل سنة تقام منها شعائره بنظر الشيخ على محسن .

وفى نزهة الناظرين أن إبراهيم باشا الوزير المتولى على مصر سنة إحدى وسبعين وألف ، جدَّدَ هذا الجامع ووسعه ، وبنى تحته رصيفاً لدفع ماء النيل عن بنائه ، ورتب له مائة عثمانى وأرصد له طيناً ، وعين به قراء ووظائف وحراساً قاطنين به ، وشرط النظر لمن يلى أغاوية الينكجرية بمصر المحروسة انتهى .

وفى تاريخ الجبرتى من حوادث سنة أربع وعشرين ومائتين وألف هـ ، أن فى شهر رجب تقيد الخواجة محمود حسن بزرجان باشا بعمارة المسجد الذى يعرف بالآثار النبوية ، فعمره على وضعه القديم ، وقد كان آل إلى الخراب انتهى .

٣٣ وأطيانها قليلة / ويزرع فيها الذرة والقمح والشعير وقليل من القرطم ، وفيها مضيفة وثلاث أرحية تديرها الدواب ، وبجوارها من بحرى موردة عند جميز العبيد ، ترسو فيها المراكب الواردة من جهة قبلى ، وبها قصر ديوان أفندى بداخله جنينة وهو الآن فى ملك سعد أبى رابية .

وفى الجبرتى أن العزيز محمد على بنى بها قصراً فى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف هـ ، وسببه أنه بات بها ليلتين فى قصر كان بها قديم فأعجبه هواؤها فأمر ببناء القصر وفرشه وزخرفه ، وجعل يتردد إليه ويبيت به فى بعض الأحيان كما كان يفعل ذلك فى قصر الجيزة وشبرى والقلعة والأزبكية وغيرها ، والظاهر أنه هو هذا القصر المنسوب إلى ديوان أفندى ، وبجوارها من بحرى على شاطىء البحر مدابغ كان محلها ورشة رخام ، وفى مقابلتها من الجهة الشرقية دير يعرف بدير الملاك ، فيه مدرسة لتعليم أطفال النصارى ، وبه نخيل وأشجار وبئر تعتقد النساء أن من وقفت عن الحمل واغتسلت فيها فإنها تحمل ، واكتساب أهاليها من صناعة نحت الأحجار .

أجـــا

قرية من مديرية الدقهلية بمركز منية سمنود غربى ترعة المنصورية على بعد ثلاثمائة متر ، وفى الجنوب الغربى لناحية نوسا الغيط بنحو خمسة آلاف متر ، وفى الجنوب الشرقى لمنية سمنود بنحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر ، وبها أربعة جوامع أحدها بمنارة وأضرحة لجماعة يعرفون بأولاد عنان ، وبها أنوال لنسج الصوف والقطن الخام وبدائرها أشجار ، وزمامها نحو ألف وخمسمائة فدان ، وتكسب أهلها من زراعة القطن وباقى الحبوب .

أجهـــور

بضم الهمزة وسكون الجيم وضم الهاء وسكون الواو آخره راء قريتان بمصر إحداهما : أجهور الفرعة من مديرية القليوبية بقسم قليوب فى الشمال الغربى لناحية البرادعة بنحو أربعة آلاف وثلاثمائة متر ، وفى جنوب أجهور الورد بنحو ثلاثة آلاف متر ، وبها مسجد وتكسب أهلها من الفلاحة وغيرها .

والثانية أجهور الورد من مديرية القليوبية أيضاً ، كانت رأس قسم واقعة على ترعة قرانفيل التى فمها من ترعة الباسوسية بقرب قرية زفيتة ، ومصبها فى مصرف أبى الأخضر غربى شبين القناطر ، وأغلب بنائها بالطوب الأحمر والمونة ، وبها حدائق كثيرة يزرع فيها الورد البلدى ويستخرج ماؤه .

وبها جامع كبير بمئذنة وسوقها سوق ناحية قرنفيل وأغلب زراعتها ككثير من بلاد القليوبية على السّواق المعينة بسبب علوّ أرضها ، وتزرع الساقية من الزرع الصيفى ستة أفدنة إذا كان فيها ثلاث من البقر ، وهى من القرى الإسلامية ذات القدر والشرف بظهور الأفاضل منها قديماً وحديثاً وأجلهم سيدى على الأجهورى المالكى الذى ترجمه صاحب خلاصة الأثر فقال :

ترجمة سيدى على الأجهورى المالكى

هو علىّ بن زين العابدين بن محمد بن أبى محمد زين الدين عبد الرحمن بن على أبو الإرشاد نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى عصره بالقاهرة ، وإمام الأئمة وعلم الإرشاد وعلامة العصر وبركة الزمان .

كان محدثاً فقيهاً رحلة كبير الشأن وقد جمع الله تعالى له بين العلم والعمل ، وطار صيته فى الخافقين ، وعم نفعه وعظمت بركته ، وقد جد فبرع فى الفنون فقهاً وعربية وأصلين وبلاغة ومنطقا ودرس وأفتى وصنف وألف ، وعمر كثيراً ورحل الناس إليه من الآفاق للأخذ عنه فألحق الأحفاد بالأجداد ، وأخذ عن مشايخ كثيرين ، سرد منهم الشهاب العجمى فى مشيخته نحو ثلاثين رجلاً وأعلاهم قدراً الشمس محمد الرملى ، والبدر حسن الكرخى ، والسراج عمر بن الجاى ، والحافظ نور الدين على بن أبى بكر القرافى الشافعى ، وإمام المالكية فى عصره الشيخ محمد بن سلامة البنوفرى ، وقاضى المالكية البدر بن يحيى القرافى ، وأملى الكثير من الحديث والتفسير والفقه وأخذ عنه الشمس البابلى ، والنور الشبراملسى ، والشهاب العجمى ، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة .

وألف التآليف الكثيرة ، منها شروحه الثلاثة على مختصر خليل فى فقه المالكية ، كبير اثنا عشر مجلداً لم يخرج عن المسودة ، ووسط فى خمسة ، وصغير فى مجلدين ، وحاشية على شرح التتائى للرسالة ، وشرح عقيدة الرسالة ، وشرح ألفية السيرة للزين العراقى ، ومجلد لطيف فى المعراج ، ومجلد فى شرح الأحاديث التى اختصرها ابن أبى جمرة من البخارى ، وشرح ألفية ابن مالك لم يخرج من المسّودة ، وشرح التهذيب للتفتازانى فى المنطق ، وحاشية على شرح النخبة للحافظ ابن حجر ، ومنسك صغير وجزء فى مسألة الدخان ، وكتابة على الشمائل لم تخرج من المسودة ، وعقيدة منظومة وشرحها شرحاً نفسياً ، وشرح على رسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه فى مجلدين وغير ذلك .

ورزق فى كتبه الحفظ والقبول وأصيب آخراً فى بصره بسبب غريب : وهو أن بعض الطلبة ممن أراد الله به شراً كان يحضر مجلسه ، وكان فى ظاهر حاله صالحاً فاتفق أن تزوج ووقع بينه وبين زوجته مشاجرة فطلقها ثلاثاً ، ثم أدركه تعب فاستفتى الأجهورى ، فأفتاه بأنها لا تحل له إلا بعد زوج آخر ، فتوعده بأنه يقتله إن لم يردّها له فلم يكترث بكلامه ، فنزل يوماً حتى جلس للتدريس على عادته / فجاء وتحت صوفه سيف فاستله وضرب الشيخ على رأسه ، فقام عليه أهل الحلقة ، ومن حضرهم من أهل الجامع فتناولوه يميناً وشمالاً بالنعال والحصر ، حتى حالوا بينه وبينه وقد شجه فى رأسه ، وما زالوا به حتى قتلوه دَوْساً بالأرجل وضرباً بالأيدى والنعال والعصى ، ورفع الأجهورى إلى داره فأثرت تلك الشّجة فى بصره .

٣٤

وفوائده وآثاره كثيرة معجبة منها ما نقلته عن معراجه التتمة الرابعة ، ورد أن الحور العين يتغنين بما يقوله شعراء الإسلام ، كما ذكره بعضهم فقال : أخرج الديلمى عن ابن مسعود مرفوعاً أن الشعراء الذين يموتون فى الإسلام يأمرهم الله تعالى أن يقولوا ما تتغنى به

الحور العين لأزواجهن فى الجنة ، والذين ماتوا فى الشرك يدعون بالويل والثبور وقد نظم ذلك بعضهم فقال :

الدَّيلمى عن ابن مسعود روى ... فى آية الشعرا حديثاً مسنداً
مَنْ مات فى الإسلام منهم فى غد ... بـالشّعر يأمره الآله فينشدا
ونشيده من كل حَوراء إلى ... زوج لها يلق على طول المدى
والمشركون دعاؤهم فى نارهم ... ويل ثبور كل وقت سرمدا

ومن فوائده المأثورة عنه : أن من قرأ عند النوم قوله تعالى ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[1] أمِن من الإحتلام تلك الليلة .

ومن قرأ فى آخر جمعة من رجب والخطيب على المنبر (أحمد رسول الله محمد رسول الله خمساً وثلاثين مرة لا تنقطع الدراهم من يده تلك السنة) ، وأفاد لقضاء الحوائج أن تقول وأنت متوجه إلى حاجتك عشر مرات : اللهم أنت لها ، ولكل حاجة فاقضها ، بفضل بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** ﴾[2] .

(١) سورة الاعراف الآيتان ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) سورة فاطر آية ٢ .

ولبكاء الأطفال يكتب فى ورقة ويعلق على رأس الصغير « بسم الله الرحمن الرحيم « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ـ سليمان ـ وتنزع الملك ممن تشاء ـ بلقيس ـ وتعز من تشاء ـ إدريس ـ وتذل من تشاء ـ إبليس ـ ، عيسى ولد ليلة السبت ولا ريح ينفح ، ولاكلب ينبح ، أرقد أيها الطفل حتى تصبح ، أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

ومن فوائده (جيم جاجم طهطيل جبال راسيات سندية هندية قدسية) ، من قرأها إذا أوى إلى فراشة ثلاث مرات لم تقربه وفراشه حية ولا عقرب .

ومن نظمه لفوائد جليلة الموقع هذه الأبيات فى تقديم بعض الفاكهة على الطعام وتأخيرها عنه ومعية بعضها :

قدّم على الطعام توتا خوخا	ومشمشا والتين والبطيخا
وبعده الآجاص كمثرى عنب	كذاك تفاح ومثله الرطب
ومعه الخيار والجميز	قثا ورمّان كذاك الموز

وبالجملة فإنه جم الفائدة ، منشور العائدة ، وكانت ولادته فى سنة سبع وستين وتسعمائة هـ بمصر ، وتوفى بها ليلة الأحد مستهل جمادى الأولى سنة ست وستين وألف هـ ، وصلى عليه صبيحتها بالجامع الأزهر ودفن بتربة سلفه بجوار المشهد المعروف بإخوة سيدنا يوسف عليه السلام .

وكان أخبره بعض الأولياء أنه يعيش مائة سنة فلما مرض وعرف أنه مرض الموت ، وكان قد بلغ تسعاً وتسعين سنة تعجب وقال : كلام الأولياء لا يتخلف .

قال الشيخ أحمد البشبيشي فلعله إشتبه عليه مولده انتهى . أو يقال : ما قارب الشيء يعطى حكمه انتهى .

ترجمة الشيخ عطية الأجهورى

ومن علمائها الشيخ عطية الأجهورى الذى ترجمه الجبرتى بقوله : هو الإمام الفقيه العالم العلامة الشيخ عطية الأجهورى الشّافعى البرهانى الضرير ، قدم مصر وحضر دروس الشيخ العشماوى ، والشيخ مصطفى العزيزى وغيرهما ، وتفقه وأتقن علم الأصول ، وسمع الحديث ومهر فى الآلات ، وأنجب ودرس وألف .

فمن مؤلفاته حاشية على الجلالين ، وكتاب فى أسباب النزول ، وهو مؤلف حسن فى بابه جامع لما تشتت من أبوابه ، وحاشية على شرح الزرقانى على البيقونية فى مصطلح الحديث وغير ذلك .

اعترف بفضله علماء عصره ، ولما بنى المرحوم عبد الرحمن كتخدا الجامع المعروف الآن بالشيخ مطهر ، الذى كان أصله مدرسة للحنفية ، بنى للمترجم بيتاً بدهليز الجامع سكن فيه بعياله ، ولم يزل على ذلك حتى توفى آخر رمضان سنة تسعين ومائة وألف رحمه الله تعالى .

ترجمة الشيخ أحمد الأجهورى

ومنها أيضاً علماء أفاضل بالأزهر من أجلهم العلامة الأوحد الشيخ أحمد بن أحمد الأجهورى الضرير ، ولد ببلده سنة سبع وثلاثين من القرن الثالث عشر وحفظ القرآن ، ثم جاور بالأزهر حتى حَصَّل وتصدّر للتدريس ، فدرس كبار / الكتب كالسّعْد ، وجمع الجوامع ، والجلالين .

٣٥

وله بعض تآليف منها كتابة على السمرقندية ، وكتابة على السنوسية ، وكتابة على الجوهرة ، وكان له فى الرزنامجة كل شهر مائتان وخمسة وثلاثون قرشاً ، توفى رحمه الله تعالى فى شهر صفر سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف .

إخميم

بكسر الهمزة وسكون الخاء المعجمة وكسر الميم الأولى بعدها ياء تحتية وآخره ميم : بلد كبير من الصعيد الأوسط من أعلاه ، وهى من أسيوط على نحو مرحلتين .

وإخميم فى البرّ الشرقى وبها البربا المشهورة ، وهى من أعظم آثار الأوائل لكبر صخورها المنحوتة وكثرة التصاوير التى عليها ، وذو النون المصرى كان من أخميم انتهى من كتاب تقويم البلدان .

وفى كتب الفرنساوية أنها مدينة مشهورة بالأقاليم القبلية بناها مناقيوس أحد ملوك القبط انتهى وهو بانى مدينة سنترية ـ (سيوة) ـ كما قاله المقريزى فى خططه .

وقال أ. ٢ . هو والشريف المرتضى أن إخميم بن مصر ايم خصه من والده قسم من أقسام الجهات القبلية ، كان رأسه مدينة إخميم ، فجعلها محل إقامته فسميت بإسمه انتهى .

وهى من أقصى الأقليم الثانى حيث يكون طول النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة ونصفاً ، ويرتفع القطب الشمالى فيه قدر أربعة وعشرين جزءاً وعشر جزء ، كانت تعرف قديماً بإسم شمين أو شومسين وكان يقال لها أيضاً : كمين باللغة القبطية ، وكان الرومان واليونان يسمونها بانوبوليس أوبانوس ، يعنى مدينة المقدّس بان ، وهو إسم من أسماء الشمس على ما ذهب إليه استرابون من أن أوزريس كان يسمى سيرابيس ، أوديوسبوس أوبان ، ومن المعلوم أن سيرابيس هو أوزريس أو الشمس السفلى يعنى فى المنقلب الشتوى ، وقال بولوترك : إن أوزريس وأزيس هما سيرابيس وباكوس عند اليونان يعنى : أن أوزريس هو : سيرابيس ، وأزيس هو : باكوس ، فكل اسمين منها مساهما واحد .

وقد قرأ الشهير لطرون كتابة رومية وجدت على أحجار بخرب هذه المدينة فيها : أن المقدس بان هو شميس أو شميم المصرى ، الذى تسمت بإسمه مدينة إخميم بعد التحريف ، وهى التى سماها الروم بانوبوليس من إسم المقدس بان ، وفى تحقيقات جام بليون ، أن بان صورة من صور أمون الذى يعتبره المصريون أنه المجدد للأشياء على

الدوام ، وأن معبد هذه المدينة ابتدىء بناؤه فى زمن بطليموس فيلوميطور ، وأن تبيركلود القيّم على معبد المقدس الأكبر بان وعلى معبد المقدسة تريفيس ، بنى باب معبد يان من ماله رجاء لحفظ القيصر تراجان ، وكان العامل على مصر يومئذ سوسيوس سلبيوس ، فابتدأ أولاً بناءه من مال الحكومة ، ثم تممه من ماله فى السنة الثانية عشرة من قيصرية تراجان انتهى .

وقد مر فى الكلام على أتريب أن تريفيس هى أتريب سميت بها مدينتان مصريتان وكانت يعنى إخميم مدينة عظيمة على الشاطىء الشرق من النيل ، وفيها بربا : أى هيكل شهير ينبغى أن يعُد من جملة المبانى الفاخرة الباقية بمصر من أيام الجاهلية لعظم الأحجار المبنى بها وكثرة التصاوير التى على حيطانه .

وذكر هيرودوط أن جميع أهالى الديار المصرية كانوا ينفرون من العوائد اليونانية ماعدا أهل هذه المدينة ، وكان يقربها مدينة أخرى تسمى نيابوليس ـ (المدينة الجديدة) ـ التى كان بها معبد بيرسى بن دناى ، وهو معبد مربع الشكل يحيط النخيل بجميع جهاته وله دهليز متسع مبنى بالحجر ، وفى أعلاه تمثالان جسيمان ، وفى داخله تمثال بيرسى .

وكان من اعتقادات أهلها أن بيرسى المذكور كثيراً ما يظهر فى البلد والمعبد ، وفى بعض الأحيان يجدون إحدى نعليه وطولها قدمان ، وقيل ذراعان ، وكان ظهورها علامة على كمال الخصوبة والرخاء فى الديار المصرية جميعها ، ويعملون له فى كل سنة مولداً يلعبون فيه الجنباز من ألعاب اليونان ، ويتناظرون فى ذلك ويجعلون الرهان بينهم حيوانات وعباآت وجلود .

قال : وقد سألتهم عن سبب ظهور پيرسى لهم دون باقى أهالى مصر ، وعن سبب تخصيصهم هذه الألعاب بعيده دون غيره ، فأجابوا بأن بيرسى أصله من مدينتهم هذه ، وأنه هو وديانوس ولنسيه الذين سافروا إلى بلاد اليونان . كان مولدهم بمدينة شوميس ـ (إخميم) ـ وأن ديانوس من ذريته .

وعلى ما حكاه اليونان أنه لما حضر بيرسى إلى ليبيا من مصر ، لأجل أن يقتل الوحش الذى يسمى جرجون ، ويستولى على بلاد ليبيا بموعد منهم ، تعرف بجميع أهله وأقاربه ، وكأنه كان يعلم إسم مدينتهم من والدته ، وأنه هو الذى أمرهم بهذه الألعاب فى عيده .

ومن هنا يظهر أنه فى الأزمان الخالية كان بين اليونان والمصريين علائق ، وأن أصل اليونان من المصريين وعوائدهم مأخوذة عنهم ، وقد تكلم بعض مفسرى هيرودوط على هذا الوحش ، فقال : نقلاً عن إسكندر صاحب كتاب الحيوانات .

إن فى بلاد ليبيا حيواناً يسميه سكان البادية جرجون نتن النفس إلى الغاية ، بل نفسه سُمىٌّ يقتل من بُعْد .

وبعضهم يزعم أن نظره هو الذى يفعل ذلك قال : واتفق أنه فى حرب جقورطا ، ظنّ بعض عساكر / مريوس رئيس جيش الرومانيين ، أن هذا الحيوان نعجة وحشية ، وهموا بقتله بالسيوف ، فلما شعر بهم رفع شعره المغطى عينيه ونظر إليهم فماتوا جميعاً ، وحصل لغيرهم من العسكر مثل ذلك ، فلما وقفوا على أمره بأخبار أهل البلاد ، احتالوا على قتله برميه بالنبل من بعد .

٣٦

ثم قال هذا المفسر : وهذا الكلام كله خرافات وليس هناك حيوان بهذه الصفة انتهى .

وذكر المؤرخون جماعة من مشاهير القرون الخالية الذين لهم الآثار والعلوم المنشورة فى بلاد اليونان وغيرها ، منهم دنايوس ولنسبه ونحوهما . فقالوا : إن انّاكوس أسس مدينة أرجوس قبل الميلاد بألف وثمانمائة وخمسين سنة ، وأن سكروب قاد إلى بلاد الأنتيك جماعة من المصريين قبل الميلاد بألف وخمسمائة وست وخمسين سنة ، وأن كادموس بنى مدينة طيبة التى فى بلاد اليونان قبل الميلاد بألف وأربعمائة وثلاث وتسعين سنة ، على نسق مدينة طيبة المصرية .

وقال بعضهم : إنه من الكنعانيين ، وهو الذى أدخل فى أرض اليونان ديانة المصريين وعلومهم ، وعلمهم الحروف الهجائية .

وفى قاموس الفرنج أن كادموس هو ابن ملك الفنيسى ، فارق أباه واستقر ببلاد اليونان سنة ألف وخمسمائة وثمانين قبل المسيح ، وهو الذى أسس قلعة كدمى ، التى صارت فيما بعد قلعة لمدينة طيبة اليونانية ، وإليه ينسب إدخال الكتابة بلاد اليونان انتهى .

وذكر المؤرخون أيضاً أن ديانوس أول من أتى بسفينة على ساحل أرض اليونان قبل الميلاد بألف وأربعمائة وخمس وثمانين سنة ، وكان معه بناته الخمسون ، وأن لنسيه عصى أخاه سيزوستريس حال غيبته فى الحرب ، وبعد عوده منه خاف وفر إلى بلاد البولوبونين من جزائر اليونان ، واستولى على مملكة أرجو ويؤخذ من كلام هيرودوط : أن

أول من أدخل علوم المصريين بلاد اليونان جماعة يونانيون ، ساحوا فى الديار المصرية واقتبسوا من معارفها ونشروها بين أهل وطنهم ، وهم أورفيه ، وموزيه ، وديدال ، وهوميروس ، وليقرغ من أهل اسبارته ، وسولون الأثينى ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس من جزيرة ساموس ، واودوكس ، وديموكريت ، وتيودور وفيريسيد ، وطاليس ، وانجزاجور .

قال : وكانت مصر منبع العلوم والفنون واليونان على غاية من التبربر والتوحش ، فتعلم أودوكس فى مدينة منفيس على الكاهن كنوفيس ، وأخذ سيلون عن العالم سنكيس فى مدينة صا ، وأخذ فيثاغورس عن اينوفيس بمدينة عين شمس ، وكان أميروس شاعراً مشهوراً ، جمع فى شعره من كان فى حرب تروادة من الأمراء والملوك ، وكان مولده بعد أخذ تروادة بمائة وثمان وستين سنة ، وهذا يفيد أنه كان قبل المسيح بثمانمائة وأربع وثمانين سنة ، وبعضهم جعل ذلك قبل المسيح بتسعمائة وثمان وستين سنة ، وجعلها برفير قبله بتسعمائة وسبع سنين .

وحقق بعض مفسرى هيرودوط : أن ولادته كانت قبل المسيح بتسعمائة وسبع وأربعين سنة ، وعاش ثلاثاً وستين سنة ، وساح فى جهات كثيرة بعد أن أقام سنتين يدرس فى بلده بمدرسة الآداب ، وكان القصد من سياحته أن يجمع ما جمعه فى كتابه من الأخبار ، وقد جعلها قصائد مفرقة وبقيت كذلك مدة ثم جمعها العالم ليقرغ فى سياحته بعد موته بعشرين سنة ، لما لها من الشهرة والانتشار بين الناس ، مع إشتمالها على الحكم والأحكام والفوائد النفيسة .

وفى قاموس الجغرافية الفرنجى أن أم أميروس من أزمير ، وأنه عمى فى آخر عمره وافتقر حتى أدّاه ذلك إلى السؤال ، وأشهر أشعاره قصيدتان : إحداهما تسمى عندهم

بالإلياذه والأُجرى بالأدسا ، وشهرتهما لاشتمالها على كثير من أمور الديانة القديمة وأسماء الأمم الماضية وأحوالهم ، وقد اعتنى بشرحها كثير من المتقدمين والمتأخرين انتهى .

وقال هيرودوط أيضاً : إن اليونانيين لتبربرهم وولوعهم بالأوهام والإعتقادات الباطلة وإستيلاء الجهل عليهم ، لم يكتسبوا من مصر غير تحسين أوهامهم وإخراجها مخرج الإعتقادات الصحيحة انتهى .

ولنرجع إلى ما نحن فيه فنقول : يعلم من أقوال المؤرخين والسّياحين أن هذه المدينة كانت من أعظم المدن ، وكان بها طائفة من العساكر المعروفين : بإسم هيرموتيبب على قول هيرودوط أن سيزوستريس جعلها بهاء وأهلها يفوقون غيرهم فى الصنائع ، لاسيا فى نسج أقمشة الكتان وعمل التماثيل من أحجار متنوعة كما قاله استرابون .

وذكر هيرودوط : أن نساءها كنّ يقضين جميع ما يلزم للمنازل من الخارج ، وأما رجالها فكانوا مشتغلين دائماً بنسج الأقمشة داخل المنازل انتهى .

وقد بقيت مشهورة معمورة إلى دخول الإسلام ، وقد عدّ الإدريسى برابى إخميم من مشهور برابى الديار المصرية ، ويظهر أن أبا الفداء شاهد البرابى المذكورة حيث وصفها بأنها من أحسن ما يُرى .

وفى خطط المقريزى أن بربا تلك المدينة كانت مبنية بحجر المرمر ، وطول كل حجر منها بخمسة أذرع فى سمك ذراعين ، وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة ، طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعاً فى عرض خمسة أذرع مدهونة / باللازورد وغيره من الأصباغ التى يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجدّتها ، وكان كل دهليز منها على اسم كوكب

٣٧

من الكواكب السبعة السيارة ، وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير ، وفيها رموز علوم القبط من الكيميا والسيميا والطلسمات والطب والنجوم والهندسة وغير ذلك .

وذكر ابن جبير فى رحلته : أن مدينة إخميم من مدن الصعيد الشهيرة قديمة الاختطاط ، فيها مسجد ذى النون المصرى ، ومسجد داود المشتهر بالخير والزهادة ، ومسجدان موسومان بالبركة .

وبها آثار ومصانع من بنيان القبط ، وكنائس معمورة بالمعاهدين من نصارى القبط ، ومن أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة وتحت سورها ، طوله مائتان وعشرون ذراعاً ، وسعته مائة وسبعون ذراعاً ، وهو قائم على أربعين سارية سوى الحيطان ، دائرة كل سارية خمسون شبراً ، وبين كل ساريتين ثلاثون شبراً ورؤوسها فى نهاية العظم كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها ، وبين رأس كل سارية والأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت ، منها ما ذرعه ستة وخمسون شبراً طولاً فى عرض عشرة أشبار ، وارتفاع ثمانية أشبار وسطحها من ألواح الحجارة ، كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة كهيئة الطيور والآدميين وغير ذلك فى داخلها وخارجها ، وعرض حائط البربى ثمانية عشر شبراً من حجارة مرصوصة ، كذا قاسها ابن جبير فى سنة ٥٧٨ هـ .

وقال أيضاً : إن سقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة يخيل للناظر أنها سقف من الخشب المنقوش ، والتصاوير على أنواع فى كل بلاطة من بلاطاته ، فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة باسطة أجنحتها توهم الناظر إليها أنها تهم بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل ، قد أعدت لكل صورة منها هيئة هى عليها .كإمساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس ، أو إشارة شخص إلى آخر بيده ، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تأتى العبارة لإستيفائه .

وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير ، كلها مختلفات الأشكال والصفة ، منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين يستشعر الناظر إليها رعباً ويمتلىء منها عبرة وتعجباً وما فيها مغرزاشفى ، ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم ، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع ، ويتأتى فى صم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب ، فيحسب الناظر إستعظاماً له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه ، فسبحان الموجد للعجائب لا إله سواه .

وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بأنواع الحجارة العظيمة وهو فى نهاية الارتفاع يحار الوهم فيها ، ويضل العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها ، وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ، ما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالى ، وعرض حائطه ثمانية عشر شبراً من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرنا .

وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ومرآه أحد عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ولا ينتهى إليها الحد ، وإنما وقع الإجماع على ذكر نبذة من وصفه دلالة عليه ، والله المحيط بالعلم فيه والخبير بالمعنى الذى وضع له انتهى .

ونقل المقريزى عن بعض الحكماء أنه قال : أخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الإخميمى الزاهد ، وكان حكيماً وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها ، وكان ممن يقر على أخبار هذه البرابى ، وامتحن كثيراً مما صوّر فيها ورسم عليها من الكتابة والصور .

قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته فإذا هو : أحذر العبيد المعتقين ، والأحداث والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين ، ورأيت فى بعضها كتاباً تدبرته فإذا فيه : يقدّر المقدّر والقضاء يضحك وفى آخره كتابة فيها .

تدبر بالنجوم ولست تدرى وربّ النّجم يفعل ما يريد

ومازالت هذه البربى قائمة إلى سنة ٨٨٠ هـ حتى خربها رجل من أهل إخميم يعرف بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين .

وذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسى فى كتاب تحفة الألباب : أن هذه البربى مربعة من حجارة منحوتة ولها أربعة أبواب يفضى كل باب إلى بيت له أربعة أبواب كلها مظلمة ، ويصعد منها إلى بيوت كالغرف على قدرها ، وكانت الأنطاع تجلب من إخميم وبها تعمل .

ويقال : إنه كان بها اثنا عشر ألف عريف على السحرة ، وكان بها شجر البنج وقال ابن الكندى : إخميم بلد عظيم وفيه من العجائب والآثار والبرابى والطلسمات ما لا يعرف ، وبه الأهليلج الكابلى والأصفر وشجر المسيح الذى ليس فى بلد ، وكان بها فى الدهر الأول اثنا عشر ألف عريف على السحرة ويعمل بها / طراز الصوف الشفّاف ، والمطارف ، والمطرز والمعلم الأبيض ، والملوك تحمل منه إلى أقصى البلاد وإلى سائر الآفاق يبلغ الثوب منه عشرين والمطرف مثله انتهى . ٣٨

(قلت) : وينسج بها اليوم الملاآت القطن ، وربما وضعوا فى جانبها الحرير بعرض عشرة أصابع أو أقل أو أكثر وفيها صنائع كثيرة إلى الآن .

وقال المقريزى فى رسالته البيان والاعراب : أن بإخميم جماعة من بنى قرة فصيلة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ينتهى نسبهم إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان جد النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو الفداء أيضاً : أن هذه المدينة كانت من المدن الكبيرة ومع ذلك فقد ضاع كثير من آثارها القديمة وبيوتها مبنية من الطوب النّئ ما عدا الزوايا فإنها من الآجر .

وفيها جوامع عديدة متسعة متقنة البناء لها منارات عالية وحاراتها متسعة بخلاف باقى المدن ، ومعاملها القديمة التى كان يصنع فيها أقمشة الكتان استبدلت بمعامل يصنع فيها أقمشة من القطن انتهى .

وكان بها كثير ممن ينحت الحجارة قاله استرابون ، وكان بها فى زمن دخول الفرنساوية جملة من النصارى الأقباط عددهم قريب من ألفى نفس ، وكان أغلب أهلها مسلمين ، وكانت عظيمة الحصون وبأرضها كثير من النخيل ويتحصل منها قدر كبير من الغلال .

وكان فيها كنيستان عظيمتان إحداهما كنيسة سوتير ، أى المخلص من العذاب .

والثانية كنيسة مارى ميخائيل وكان من عوائد أهلها النصارى فى أحد الشعانين وقت إشهار الصلوات الموسمية أنهم يخرجون من الكنيستين مع القسّيسين والقامصة فى هيئة محفل حاملين المباخر والعطر الذكى والصّلبان وكتب الأناجيل والشموع العظيمة موقدة ، ويقفون أمام باب القاضى برهة من الزمن يتلون صحفاً من الإنجيل ، ويغنون ببعض شطرات منظومة

تتضمن مدحه ، ثم يقفون على باب كل واحد من أمراء الإسلام وأعيانهم ويفعلون كما فعلوا أمام بيت القاضى ، وكان بين نهر النيل والمدينة ترعة لرى الأراضى ولمنع سقوط رمل الجبل على أراضى المزارع .

وكانت عادتهم فى ذلك أن يجعلوا أفواه الترع مرتفعة لأجل أن تجلب الطمى إلى الأراضى المحرومة منه بسبب شدة سرعة جرى مائها فتزيد بذلك تلك الأرض خصوبة ، وكان على البعد من إخميم بمسيرة نصف مرحلة دير حسن البناء يسمى دير السبّعة جبال وسط سبعة أودية تحدق به من جميع جهاته جبال شاهقة ، ولذا لم تكن الشمس تشرق عليه إلا بعد شروقها الحقيقى بساعتين ، وتغرب عنه قبل غروبها الحقيقى بساعتين أيضاً فعند ذلك يصير الجوغسقا لا يكاد يبصر فيه إلا بنور المصباح .

وكان خارج ذلك الدير عين ماء تظللها شجرة صفصاف وهو فى محل يسمى وادى الملوك لنباتة تنبت فيه إسمها ملوكة تشبه نبات السلجم عصيرتها حمراء تضرب إلى سواد تدخل فى الصبغ ، وكان خلف دير الصفصافة على البعد منه بمسيرة ثلاث ساعات ، دير آخر يعرف بدير قرقاس منحوت فى رأس الجبل يصعد إليه بواسطة نقور فى الجلمود تسع بعض الرجل ، وكان فى سفح هذا الدير المعلق عين ماء عذب ، وشىء من أشجار البان وهو شجر يذكر كثيراً فى أشعار العرب وتشبيباتهم .

وعن بعض أهل المعرفة الذين اطلعوا على هذا الشجر ، أنه يظن به أنه نوع من شجر اللّبخ وقد يسمى شجر الصولى .

واختلف الناس فى شجر البان فمنهم من قال : هو الصفصاف ، ومنهم من قال هو شجر الخلاف ، ومنهم من قال هو الأهليلج المسمى عند الإفرنج ميروبلانيا الذى يستخرج من ثمره دهن ألبان ، ومنهم من قال هو الزيزلخت انتهى .

وكان فى الجهة الشرقية من إخميم أيضاً دير صبورة نسبة إلى قبيلة من العربان نزلت هناك ولم يكن إذ ذاك عامراً وفى الجبل مغارات كثيرة ، بعضها مقابر أموات المدينة وأغلبها كان مسكوناً برهبان النصارى زمن القيصر ديوكلتيان فراراً من ظلمه وعدوانه ، وقد نفى إلى هذه المدينة بطرك قسطنطين واسمه نسطورس ، فأقام بها سبع سنين ومات فدفن بها .

وسبب ذلك على ما ذكره المقريزى فى خططه عند الكلام على ديانة القبط أنه امتنع أن يقول عيسى هو ابن مريم وقال : إنما ولدت مريم إنساناً إتحد بمشيئة الآله ـ يعنى عيسى ـ فصار الاتحاد بالمشيئة خاصة لا بالذات ، وإن إطلاق الآله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة .

وقال : إن المسيح حل فيه لابن الأزلى وأنى أعبده ؛ لأن الآله حل فيه وأنه جوهران واقنومان ومشيئة واحدة .

وقال فى خطبته يوم الميلاد : إن مريم ولدت إنساناً وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة الإلهية ، ولا أسجد له سجودى للآله ، وكان هذا هو إعتقاد تادروس وديوادارس الأسقفين .

وكان من قولها : إن المولود من مريم هو المسيح والمولود من الأب هو الأبن الأزلى وأنه حل فى المسيح فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة ، وأن الاتحاد بالمشيئة والإرادة واثبتوا لله تعالى ولدين أحدهما بالجوهر والآخر بالنعمة .

فلما بلغ كرلس بطرك الإسكندرية مقالة نسطورس كتب إليه يرجعه عنها فلم يرجع ، فكتب إلى أكليمس بطرك رومة وإلى يوحنا بطرك إنطاكية وإلى يوناليوس أسقف القدس يعرفهم / بذلك فكتبوا بأجمعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسنس ، فاجتمع بها مائتا أسقف فكان هذا الاجتماع الثالث ولم يحضر يوحنا بطرك إنطاكية وأمتنع نسطورس من السمجىء إليهم بعد ماكرروا الإرسال فى طلبه غير مرة فنظروا فى مقالته وحرموه ونفوه، ثم قال : ٣٩

وكان بين المجمع الثانى وبين هذا المجمع خمسون ، وقيل خمس وخمسون سنة ، ولما مات نسطورس ظهرت مقالته فقبلها برسوما أسقف نصيبين ، ودان بها نصارى أرض فارس والعراق والموصل والجزيرة إلى الفرات وعرفوا إلى اليوم بالنسطورية انتهى .

ومدينة إخميم الآن على غاية من العمارية والاتساع تقرب عدة أهلها من أهالى مدينة أسيوط ، ومحيطها أوسع من محيط أسيوط ، وبها ضبطية ومحكمة شرعية ويسكنها الأقباط بكثرة وأكثرهم محترفون .

منهم : التاجر والصائغ والصباغ وغير ذلك ، وبها جملة أنوال معدة لنسج أصناف الملآآت من القطن والحرير ، وبها عدة قيساريات وخانات جامعة لأنواع المتاجر وحمام وحاراتها وشوارعها متسعة مع الاعتدال ، وفيها معاصر بكثرة لزيت السلجم ، وعسلها مشهور بصفاء اللون وصدق الحلاوة ولها سوق كل أسبوع يوم الأربعاء ، وبها رقعة معدّة لبيع أصناف الغلال كل يوم .

ترجمة الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر

وبها نقيب أشراف يقال إنه : من ذرية سيدى كمال الدين بن عبد الظاهر صاحب المقام الشهير بهذه المدينة ، وفى طبقات الشعرانى أنه صحب أبا الحجاج الأقصرى رضى الله عنه حين كان بقوص ، وكان قد تجرد فى بدايته ثم رجع إلى الثياب والزراعات وغيرها ، ثم صحب الشيخ إبراهيم بن معضاد الجعبرى المدفون بباب النصر من المحروسة ، ثم أقام بإخميم وبها مات وهو على حالة شريفة متظاهراً بالنعم والغنى عن الناس رضى الله عنه أهـ .

وله مولد يعمل كل سنة فى أوائل زيادة النيل يجتمع فيه عالم بكثرة ويستمر ثمانية أيام ، وله جامع عامر قد هدمه وبناه نقيب الأشراف السيد عبدالرحيم بإعانة الحكومة له ، وذلك فى أول حكم الخديوى إسماعيل باشا فكان من أعظم جوامع مدن الصعيد .

وبها جوامع أخر كلها فى غاية المتانة والاتساع لها شبه تام بجوامع القاهرة مبلطة الأرضية كثيرة السوارى بمآذن مرتفعة وشعائرها مقامة ، وبها أيضاً مقام شهير بمسجد عظيم لسيدى أبى القاسم ، وهو غير أبى القاسم الطنطاوى يهرع إليه الزوار سيما المرضى ، وله زيارة كل خميس من شهر أبيب ، وبها حدائق كثيرة جداً تشتمل على غالب الثمار والفواكه ، سيما العنب والرمان الحامض حتى إن ذلك يعم تلك الجهات ويصل إلى أسيوط وجرجا وغيرهما .

وزمام أطيانها نحو أربعة آلاف فدان وأهلها ما بين محترف وتاجر وزراع ، وفيها علماء وأشراف يقال إنهم من ذرية سيدى كمال الدين المذكور ، فهى عامرة جاهلية وإسلاماً .

ترجمة العارف بالله سيدى ذى النون المصرى

وفى تاريخ ابن خلكان فى حرف الثاء أن أبا الفيض ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون الصالح المشهور ، أحد رجال الطريقة كان من هذه المدينة .

قال : وكان أوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً ، وهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن الامام مالك رضى الله عنه .

وذكر ابن يونس عنه فى تاريخه : أنه كان حكيماً فصيحاً وكان أبوه نوبياً وقيل : من أهل إخميم مولى لقريش ، وسئل عن سبب توبته ، فقال : خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ففتحت عينى ، فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان ، إحداهما ذهب والأخرى فضة ، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا فقلت : حسبى قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلنى .

وكان قد سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكى ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذى النون ، وكان رجلاً نحيفاً تعلوه حمرة ليس بأبيض اللحية وشيخه فى الطريقة شقران العابد .

ومن كلامه : إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح ، وقال إسحق بن إبراهيم السّرخسى بمكة سمعت ذا النون وفى يده الغل وفى رجليه القيد وهو يساق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه وكل فعاله عذب حسن طيب ثم أنشد :

لَكَ من قَلْبِى المكَان المصُون كل لَوْم علىّ فِيكَ يَهُون
لَكَ عزم بأن أكُون قَتيلاً فِيكَ والصّبر عنك ما لا يكون

وبالجملة فمحاسنه كثيرة ، وكراماته شهيرة توفى فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ، وقيل ست وأربعين ، وقيل ثمان وأربعين ومائتين رضى الله عنه بمصر ، ودفن بالقرافة الصغرى وعلى قبره مشهد مبنى ، وفى المشهد أيضاً قبور جماعة من / الصالحين رضى الله عنهم أجمعين . ٤٠

وثَوْبان بفتح الثاء المثلثة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وبعد الألف نون انتهى .

وحكى السخاوى فى تحفة الأحباب : أن محمد بن إسماعيل المعروف بصاحب الدار بنى داراً حسنة وأتقن بناءها ، فلما فرغ منها جلس على بابها فدخل عليه ذو النون ، فقال له : أيها المغرور اللّاهى عن دار البقاء والسرور ، كيف لا تعمر داراً فى دار الأمان ، دار لا يضيق فيها المكان ، ولا ينتزع منها السكان ، ولا يزعجها حوادث الزمان ، ولا تحتاج إلى بناء وطيّان .

ويجتمع لهذه الدار حدود أربع ، الحد الأول ينتهى إلى منازل الرّاجين ، والحد الثانى ينتهى إلى منازل الخائفين المحزونين ، والحد الثالث ينتهى إلى منازل المحبين ، والحد الرابع ينتهى إلى منازل الصابرين .

وشرع إلى هذه الدار الشّارع إلى خيام مضروبة ، وقباب منصوبة ، على شاطىء أنهار الجنة فى ميادين قد أشرفت ، وغرف قد رفعت فيها سرر قد نصبت ، عليها فرش قد تصدّرت ، فيها أنهار وكثبان مسك وزعفران ، قد عانقوا خيرات حسان . وترجمة كتابها :

هذا ما اشترى العبد المحزون من الرب الغفور ، اشترى منه هذه الدار ، بالتنقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة فما على المشترى فيما اشترى من درك سوى نقض العهود ، والغفلة عن المعبود ، وشهد على ذلك التبيان ، وما نطق به محكم القرآن ، قال الملك الديان : ﴿ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[1] فلما سمع هذا الكلام أثر ذلك فى قلبه وباع هذه الدار وتصدق بثمنها على الفقراء والمحتاجين طلباً للدار التى وصفها له ذو النون .

ومن كلام سيدى ذى النون رضى الله عنه : إنما دخل الفساد على الناس من ستة أمور :

الأول : من ضعف النية لعمل الآخرة .
والثانى : أن أبدانهم صارت رهينة لشهواتهم .
والثالث : غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل .
والرابع : آثروا إرضاء المخلوقين على رضاء الخالق .
والخامس : إتباعهم هواهم ، ونبذهم سنة نبيهم وراء ظهورهم .
والسادس : جعلوا زلات السّلف حجة لأنفسهم ودفنوا أكثر مناقبهم .

---

(١) سورة التوبة /١١١ .

وسئل يوماً لم أَحَبَّ الناس الدنيا فقال : لأن الله تعالى جعل الدنيا خزانة أرزاقهم فمدّوا أعناقهم إليها ، وكانت وفاته رحمه الله تعالى بالجيزة فى غربى النيل وحمل فى قارب مخافة أن ينقطع الجسر لكثرة إزدحام الناس انتهى .

وفى كتاب الروضة فى حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين : أن أبا الفيض ذا النون بن إبراهيم المصرى ، توفى فى هذه السنة ودفن بالقرافة الكبرى ، وكان أسمر اللون شديد السمرة ، وأصله من برية مدينة إخميم ، وله كرامات خارقة والدعاء عند قبره مجاب .

مطلب السبعة الذين يجاب الدعاء عند قبورهم

وقبره من القبور السبعة التى بالقرافة تزورها الناس يوم السبت قبل طلوع الشمس لقضاء الحوائج وهى : قبر ذى النون المصرى ، وقبر أبى الخير الأقطع ، وقبر أبى الربيع المالقى ، وقبر القاضى بكار بن قتيبة ، وقبر القاضى كنانة ، وقبر أبى بكر المزنى ، وقبر أبى الحسن الدينورى رضى الله عنهم انتهى .

وفى الجهة البحرية لإخميم طريق يصعد منه إلى الجبل الشرقى ، وبذلك الجبل طريق موصل إلى بحيرة من المالح لها مينا صغيرة ترسو فيها قوارب من البحر ، وفى تلك الطريق مياه كافية للمسافر .

ويقابل إخميم فى الشاطىء الغربى للنيل مدينة سوهاج التى هى محل إقامة مديرية جرجا الآن ، فهما مدينتان متقابلتان على النيل واقعتان بين جرجا وأسيوط على مرحلة من جرجا وعلى قريب من مرحلتين من أسيوط ، ويقرب إخميم أيضاً من الجهة القبلية على الشاطىء الغربى مدينة المنشأة ، وبلدة كبيرة تشبه البندر تسمى بنى صبورة .

(فائدة) : قد ترجم فى قاموس الجغرافية الفرنجى بعض من ذكرناهم هنا ولا بأس بإيراد ملخص من ذلك تبعاً له فنقول : أما أورفيه فهو شاعر مشهور من بلاد يونان كان قبل حرب ترواده بنحو قرن وساح فى مصر واكتسب من علومها ، ويقال : إن زوجته لدغت فى

مصر بثعبان فى كعبها فماتت فحزن عليها حزناً شديداً ، ومن الخراف ما قيل إنه طلبها من بلوتون ـ (خازن النار) ـ فأذن له فى أخذها بشرط أن لا ينظر إليها إلا بعد مفارقة جهنم ، فلم يستطع الصبر عنها ونظر إليها فغابت عنه ولم يرها ، فرجع إلى بلده وعاش فى الغابات منعزلاً يبث الأشعار المحزنة ، ومن حسن صوته ، اجتمعت عليه الوحوش ، وحركت الأشجار أغصانها ، ووقفت الأنهر عن جريها ، واجتهدت النساء فى تسليته وتلطيف حزنه فلم يفارقه حزنه ، فحنقن منه وقطعنه ورمينه فى النهر .

والمتأخرون من اليونان يقولون : إنه من كهنة الديانة وإنه كشف للمريدين أموراً كثيرة مما يتعلق بالخلق والخالق ، وهو الذى أدخل فن الشعر فى بلادهم ، وكذا علم الفلك ، وزاد فى عود الموسيقى ثلاثة أوتار وله آثار غير ذلك .

وأما ديدال فهو رجل خرافى من أثينة اشتهر بعمل التماثيل ، وإليه ينسب اختراع المنشار والبلطة وآلة توازن البناء وصوارى المراكب وقلوعها

وأما ليكرغ فهو مشرع مقدونى أبوه ملك اسبارته وكان أخوه البكرى ملكاً ومات فى شبيبته وترك زوجته / حاملاً فعرضت عليه قتل ابنها ـ بقصد أن يكون هو الملك ـ وتتزوجه ، ٤١ فأبى واختار أن يكون وصياً على ابن أخيه ، فقام بوصايته حتى بلغ الولد رشده ، فسافر هو لاكتساب العلوم وشرائع الأمم فدخل أجريد ومصر وآسية ، ثم رجع إلى بلاده وبالاتحاد مع الملك ـ وهو ابن أخيه ـ الذى كان كافلاً له ، نظم قوانين وشريعة جرى العمل بها وأبقت له الذكر والفخر مدة مديدة ، وذلك قبل الميلاد بثمانمائة وأربع وثمانين سنة .

وقد اجتهد فى قوانينه فى التسوية بين أفراد الأمة فى أسباب الغنى والفقر ، فقسم الأرض على العائلات بالتساوى ، ومنع الزيادة والنقص بأى وجه ، وأبطل معاملة الذهب

والفضة وعوضها بالحديد ، وألزم أهل كل بلد أن يجتمعوا على الأكل بحيث يأكلون جميعاً فى سماط واحد ، وفى حال اجتماعهم لابد أن يلاحظوا تربية الأطفال وتأديبهم ، وجعل تمرينات جسمية بالجرى والألعاب لتقوية الأطفال ونحوهم وتدريبهم ومنع الاشتغال بالحرف والصنائع إلا للعبيد ونحوهم ، ورتب للحكومة ملكين وجعل لهما رآسة السيناتو وعليهما أداء الرسوم الديانية ورآسة الجيوش وتدوين القوانين ونشرها ، وجعل المجلس يتركب من ثمانية وعشرين عضواً تنتخبهم الأهالى من ذوى الرأى والمعرفة ، ومن خصائصهم التكلم فى كل ما يتعلق بالحرب والصلح والمعاهدات ، وجعل مجلساً آخر من الأهالى لانتخاب الحكام وتوزيع الفرض والأموال وقبول القوانين الصادرة من مجلس السيناتو أو نبذها وقد اشتغل بشرح قوانينه كثير من علماء الإفرنج ، ونتيجة القول فى تلك القوانين أنها وإن كانت أورثت أهل اسبارته القوّة والشجاعة وحب الوطن واحترام الشيوخ ، فقد عطلت أسباب التمدن والثروة ويقال إنه لحرصه على حب العمل بقوانينه عقد جمعية من الناس وحلفهم على أن لا يرجعوا عن قوانينه بعد موته أو غيابه وأن لا يبطلوا منها شيئاً ثم إنه حبس نفسه فى مكان حتى مات جوعاً .

ترجمة سولون

وأما سولون فهو مشرع أثينة المشهور وهو معدود من حكماء اليونان السبعة ، ولد قبل المسيح بستمائة وأربعين سنة فى مدينة سلامين ، وأبوه كردوس هو أحد ملوك أثينة ، اشتغل سولون أولاً بالتجارة وسكن أثينة وصار من أعضاء مجالسها ، وكان الإثينيون بسبب وقعات كثيرة جرت بينهم وبين سكان جزيرة سلامين بلا فائدة ، قد أصدروا قراراً حكموا فيه بقتل كل من يتسبب فى تجديد محاربة تلك الجزيرة ، فخرج سولون بصفة مجنون لا عقل له ووقف فى الميدان وجعل ينشد أشعاراً فيها التحريض على القتال ، والحث على الشجاعة ، فنشأ عن ذلك إبطال القرار وجُعِل رئيس الجيش وحارب الجزيرة واستولى عليها .

وفى سنة خمسمائة وثلاث وتسعين خصصته المجالس لعمل قوانين لوطنه ، فنظم قوانين عدلية زال بها ما كان حاصلاً من الشقاق والفتن ، وجعل الناس بالنسبة للإقتدار وعدمه أربع فرق وشكل منهم مجلساً ، وجعل رئيسة نفس السلطان ونظم السيناتو ، ثم فارق أثينة بعد أن حلفهم على عدم ترك قوانينه فساح فى آسية الصغرى وجزيرة قبرص وبلاد مصر ، ثم رجع إلى وطنه بعد عشر سنين ، فوجد قوانينه تنوسيت والفتن قد ثارت ، ولم يتمكن من رد الأمور إلى أصلها ، ففارق وطنه وأقام بقبرص ومات بها سنة خمسمائة وتسع وخمسين ، وكان شاعراً فصيحاً وخطيباً بارعاً وكانت عادته ولازمته فى كل شىء أن يقول : (أقرأ العواقب) .

ترجمة أفلاطون

وأفلاطون فيلسوف يونانى مشهور ولد قبل المسيح بأربعمائة وسبع وعشرين أو ثلاثين سنة وينتسب من جهة أبيه إلى كردوس ، ومن جهة أمه إلى سولون وكان إسمه أولاً ارستوقليس ثم سمى أفلاطون بسبب عرض أكتافه ، لأن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة بلاتيس التى معناها العرض ، وقد قرأ فى صغره علوماً شتى ، كالهندسة والشعر والأدبيات ، ثم اشتغل بالفلسفة .

ولما بلغ من العمر عشرين سنة تتلمذ لسقراط عشر سنين ، وقبل المسيح بأربعمائة سنة مات سقراط فساح فى ايطاليا واجتمع بالفيثا غورسين ـ (تلامذة فيثاغورس) ـ ثم ارتحل إلى القيروان وأفريقية ومصر ، وأخذ عن المصريين ، ثم سافر إلى بلاد اليونان وساح فى جزيرة صقلية وهناك وقعت منه أمور أوجبت حنق حاكمها دنيس الظالم منه فباعه كالرقيق ، فاشتراه فيلسوف قيروانى واعتقه فحضر إلى أثينة واتخذها وطناً وفتح بها مدرسته المشهورة وذلك فى سنة ثلاثمائة وثمان وثمانين ، فطار صيته وتتلمذ له كثير من الناس الأكابر والأصاغر رجالاً ونساء من جميع بلاد اليونان ، ولغزارة علمه طلبت منه جميع الولاة عمل قوانين يعملون بها فعملها لهم ، ولم يتزوج قط وترك كتباً كثيرة اقتبس منها المؤلفون .

وأما فيثاغورس فقد تقدمت ترجمته فى الكلام على أنبو .

ترجمة ديموكريت

وأما ديموكريت فهو أيضاً فيلسوف يونانى ولد قبل الميلاد بأربعمائة وتسعين سنة على قول ، أو سبعين على آخر ، وتلق الفنون عن كهنة الفرس الذين بقوا بجزيرة اليونان بعد إغارة كسرى اكسرسيس / وساح فى بلاد مصر وبلاد آسيا ، وصرف جميع أمواله فى السياحة والتجاريب فخطئوه فى ذلك .

٤٢

وفى بعض الأيام قرأ فى مجلس رسالة من تآليفه يتكلم فيها على تكوين العالم ، فحصل للحاضرين انشراح وسروا بذلك وانعموا عليه بخمسين ظَالانا .

ويقال : إن عدم انتظام أحوال معيشته أدى إلى التكلم فيه بالجنون حتى طلبوا لعلاجه ابقراط الحكيم ، فلما سمع بقراط كلامه قال : إنه لم يكن أعظم منى جنونا وعاش مائة سنة وتسعة ، وكان لا يزال ضاحكا من غفلة الخلق .

وضده فى ذلك هيرقليط فكان دائما باكيا من غفلة الخلق ، وهو صاحب مذهب فى الفلسفة وله مؤلفات .

ترجمة تيودور وفيريسيد وطاليس والجزاجور وابقراط وابن جبير

وكذا تيودور فيلسوف يونانى كان قبل المسيح بثلاثمائة وخمس وعشرين سنة ، وأصله من القيروان وتكلم فى الألوهية بما لا يليق فطردوه فسكن أثينة وشاع منه إنكار الآلهة فحكموا بقتله .

وكذا فيريسيد فيلسوف يونانى ولد قبل المسيح بستمائة سنة وهو من شيوخ فيثاغورس وعمر كثيرا ، ويقول : بأبدية الروح وكان له معرفة بعلم الطبيعة والفلك .

وأما طاليس فأصله من قيسيا من بلاد الشام ، ولد قبل المسيح بستمائة وأربعين سنة ، وساح فى جزيرة جريد وبلاد آسيا ومصر ، واشتغل بالهندسة والفلك ، وذهب إلى اليونان وأقام بمدينة ملية سنة خمسمائة وسبع وثمانين ، وأسّس بها مدرسة عرفت بالمدرسة اليونانية .

ومات سنة خمسمائة وأربعين وعمره مائة سنة ، وهو معدود من الحكماء السبعة ، وكانت لازمته (**اعرف نفسك بنفسك**) وإليه ينسب توسعة فن الهندسة ، وتعيين ارتفاع الهرم بظله ، واستكشاف بعض خواص المثلث الكروى ، وإثبات مساواة الزاويتين المتجاورتين على القاعدة فى المثلث المتساوى الساقين

وهو أول من تكلم على الكسوفات وبرهن عليها ، وحسب واحدا منها وقع فى سنة ستمائة وواحدة قبل الميلاد على قول ، أو سنة خمسمائة وخمس وثمانين على قول آخر .

ويقول إن أصل الأشياء ومادتها هو الماء أو الميعان ، والقوة المحركة للأشياء هو العقل ، فهو حينئذ يقول بالآله ، وكان يقول : إن الألوهية سارية فى جميع الأشياء ومن تلامذته فيروسيد وغيره .

وأما المجزاجور (**انكساغورث**) فهو فيلسوف أيضا من المدرسة اليونانية ، ولد قبل الميلاد بخمسمائة سنة ، وساح فى مصر وعاد منها ، فأقام بأثينة سنة أربعمائة وخمس وسبعين ، وأنشأ بها مدرسة مشهورة .

ويقال : إن سقراط من تلامذته ، وقد تكلم فى بطلان اعتقاد أهل وقته ، فحكموا عليه بالقتل ، فخلصه تلميذه بركليس ، وغير حكم القتل بالنفى ، فنفى إلى أن مات سنة أربعمائة وثمان وعشرين وعمره اثنتان وسبعون سنة .

وكان يقول : إن العناصر وجدت فى أول الأمر مختلفة كثيرة بعدد أجناس العالم المختلفة وكانت مختلطة فى العماء الأصلى ، فيلزم حينئذ وجود قوة روحانية تامة التصرف ، هى التى فصلت العناصر المتفقة من العناصر المختلفة .

فهو أول من ذهب إلى وجود عقل أبدى ، فقد اعترف بأفكاره الفيلسوفية بوجود إله مخالف لهذا العالم خارج عنه ومدبر له واشتغل بالفلك والطبيعة وعلم أسباب الخسوف انتهى .

وأما ابقراط فقد ترجمه صاحب كتاب أسماء الحكماء وتراجمهم « **المنتخب من كتاب معالم الأمم** » وملخصه أن ابقراط ويقال له بقراط : هو ابن ايرقلس ، إمام مشهور وسيد الطبيعيين فى عصره ، وكان قبل الإسكندر بنحو مائة سنة ، ويقال إنه من أهل اسقلبيادس كان مسكنه بمدينة حمص ، وكان يتوجه إلى دمشق ويقيم فى غياضها للرياضة ، وكان فاضلا متألها ناسكا يعالج المرضى مجانا ، وكان فى زمن أردشير من ملوك الفرس ودعاه إلى معالجته من مرض عرض له فأبى عليه .

وذكر يحيى النحوى الإسكندرى فى تاريخه أن أول الأطباء اسقليبيوس الأول ، ثم دغورث ، ثم منيس ، ثم برمانيدس ، ثم افلاطون الطبيب ، ثم اسقليبيوس الثانى ، ثم بقراط ، ثم جالينوس .

وبقراط رأس الأطباء فى زمانه وهو من تلاميذ اسقليبيوس الثانى ، وهو أول من علم الغرباء الطب وعاش خمسا وتسعين سنة ، منها صبيا ومتعلما ست عشرة سنة ، وعالما ومعلما تسعا وسبعين سنة .

ومن تأليفه كتاب العهد ، وكتاب الفصول ، وكتاب الأمراض خمس مقالات وكتاب جراحات الرأس مقالة واحدة ، وكتاب الاخلاط ثلاث مقالات ، وكتاب الماء والهواء ثلاث مقالات ، وكتاب طبيعة الإنسان اهـ .

ترجمة ابن جبير

وفى كتاب دائرة المعارف أن ابن جبير السابق الذكر هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى ، أحد الراحلين من الأندلس إلى المشرق . ولد ببلنسية عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة هجرية ، واجتهد فى تحصيل العلوم فبرع ، وكان أديباً مشهوراً أو شاعراً مجيداً قيل لما دخل بغداد اقتطع غصناً نضيراً من بساتينها فذوى فى يده فأنشد :

لا تـغـتـرب عَـنْ وَطَـن واذكـر تصَـارِيف الـنّوى
أمـا تـرىَ الـغُـصْـن إذا مـا فـارق الأصـل ذوى

وكانت رحلته من غرناطة ووصل إلى الإسكندرية وحج ورحل إلى الشام والعراق والجزيرة وغيرها ، وكان من أهل / المروآت ، كثير الآداب مؤنساً للغرباء عاشقاً لقضاء حوائج الناس ، توفى بالإسكندرية فى سبع وعشرين من شعبان سنة أربع عشرة وستمائة ومن شعره : ٤٣

مَن الله فاسْأل كُلّ أمر تُريده فَما يمْلك الإنسان نَفعاً ولاَضَرًّا
وَلا تَتَوَاضَع للولاة فإنّهم مَن الكبْر فى حال تَمُوج بهم سكرا
وإيّاك أنْ تَرضى بتقبيل راحة فَقد قِيل عنها أنها السّجدة الصغرى

وقد وجدت ترجمته فى صدر كتاب رحلته منقولة من كتاب الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة ، للوزير لسان الدين بن الخطيب وملخصها .

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى ، وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ، بلنسى الأصل غرناطى الاستيطان ، شرَّق وَغرَّب وعاد إلى غرناطة .

كان أديبا بارعا شاعرا مجيدا سنيا فاضلا نزه الهمة سرى النفس كريم الأخلاق أنيق الطريقة ، كتب بسبتة عن أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته وله فيهم أمداح ، ثم توجه إلى المشرق وجرت بينه وبين أدباء عصره مخاطبات ، ظهرت فيها إجادته ، ونظمه فائق ونثره بديع وكلامه المرسل سهل حسن ، ومحاسنه ضخمة ، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار ، رحل ثلاثا من الأندلس إلى المشرق ، وحج فى كل واحدة منها ، فصل عن غرناطة ، ثم عاد إليها ولقى بها أعلاما ، وصنف الرحلة المشهورة وذكر مناقله وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع ، سكن غرناطة ثم مالقة ثم سبتة ثم فاس ، منقطعا لإسماع الحديث والتصوّف .

وجاور بمكة طويلا ثم ببيت المقدس ، ثم تحول إلى مصر فأقام يحدث إلى أن لحق بربه ، روى بالأندلس عن أبيه وأبى الحسن بن أبى العيش ، وأبى عبد الله بن عروس ، وعن أبى الحجاج بن يسعون وغيرهم .

وبسبتة عن أبى عبد الله التميمى وكثيرين ، وأخذ عنه جماعة كثيرون منهم : أبو إسحاق بن مهيب ، وابن نصر البجائى ، وأبو العباس البنانى وممن روى عنه بالإسكندرية رشيد الدين عبد الكريم بن عطاء الله ، وبمصر رشيد الدين العطار .

ومن تصانيفه نظم وقفت منه على مجلد قدر ديوان أبى تمام وجزء سماه نتيجة وجد الجوانح ، فى تأبين القرين الصالح ، فى مراثى زوج أم المجد ، وجزء سماه : نظم الجمان فى التشكى من إخوان الزمان .

وله ترسل بديع وحكم مستجادة وكتاب رحلته ومن شعره القصيدة الشهيرة التى نظمها وقد شارف مدينة طيبة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مطلعها :

أَقُوُل وآنَسْت بـالـلّـيـل نَـارًا   لَـعـل سّـرَاج الهدى قـد أنـارا
وإلا فما بــال أفق الـدجى   فـإنّ سنى البرق فـيـه اسـتـطارا

ومن كلامه :

هَـنـيـأً لمن حج بيت الهدى   وَحـطٌ عن الـنـفّس أَوْزَارهـا
وَأن الـسـعـادة مضـمـونـة   لمنَ حّج طـيـبـة أوْزَارهـا

ومن ذلك :

إذا بـلَـغ المرء أَرْض الحجـاز   فـقـد نـال أفضـل ما أَمّ لـهَ
وإنْ زَار قبر نبى الهدى   فـقـد أكـمـل الله مـا أمـلـه

مولده ببلنسية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقيل : بشاطبة سنة أربعين ، وتوفى بالإسكندرية ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة أربع عشرة وستمائة رحمه الله تعالى ـ انتهى ـ .

وترجمه غير واحد منهم المقريزى فى تاريخ مصر الكبير ، والشيخ أحمد المقرى فى الباب الخامس من كتاب نفح الطيب .

إخنـــا

قرية من بلاد الغربية بقسم محلة منوف شرق طندتا على أقل من ساعة على شاطئ الجعفرية الجديدة ، وفيها معمل دجاج وجامع بمنارة عند مقام الشيخ حسن الصائغ ، وهو شيخ له شهرة وله مولد كل سنة قبل المولد الكبير لسيدى أحمد البدوى .

وعلى هذا فهذه القرية غير إخنا القريبة من البرلس على شاطئ البحر الأبيض التى ذكرها المقريزى عند الكلام على طرف مما يتعلق بالإسكندرية ، فقال : إن إخنا حصن على شاطئ بحر الملح قال : وطريق الإسكندرية إذا نضب ماء النيل يأخذ بين المدائن والضيّاع ، وذلك إذا أخذت من شطنوف إلى سبك العبيد ، فهو منزل فيه مينة لطيفة وبينهما اثنا عشر سقسا ، ومن سبك إلى مدينة منوف .

وهى كبيرة وفيها حمامات وأسواق وبها قوم فيهم يسار ووجوه من الناس وبينهما ستة عشر سقسا ومن منوف إلى محلة سرد ، وفيها منبر وحمام وفنادق وسوق صالح ستة عشر سقسا ، ومن محلة سرد إلى سخا : وهى مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع وإقليم جليل له عامل بعسكر وجند ، وبه الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة ستة عشر سقسا ، ومن سخا إلى شبركمية وهي مدينة كبيرة بها جامع وأسواق ستة عشر سقسا ، ومن شبركمية / ٤٤

إلى مسير ، وهى مدينة بها جامع وأسواق ستة عشر سقسا ، ومن مسير إلى سنهور ، وهى مدينة ذات إقليم كبير وبها حمامات وأسواق وعمل كبير ستة عشر سقسا ، ومن سنهور إلى التخوم وهى ذات إقليم وبها حمامات وفنادق وأسواق ستة عشر سقسا ، ومن التخوم إلى تسترو ، وكانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون عشرون سقسا ، ومن تسترو إلى البرلس وهى مدينة كثيرة الصيد فى البحيرة وبها حمامات عشرة سقسات ، ومن البرلس إلى إخنا وهى حصن على شط البحر المالح عشرة سقسات ، ومن إخنا إلى رشيد وهى مدينة على النيل ومنها يصب النيل فى البحر من فوهة تعرف بالأشتوم وهى المدخل ثلاثون سقسا .

وكان بها أسواق صالحة وحمام وبها نخيل وضريبة على ما يحمل من الإسكندرية ، وهذا الطريق الآخذ من شطنوف إلى رشيد ربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل .

وقال أيضا فى سبب نقض إسكندرية وخروجهم ، أن صاحب إخنا وكان يسمى ظلما[1] قدم على عمرو فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها ، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا ، إن كُثِّر علينا كثَّرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم ، فغضب صاحب إخنا وخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم الله تعالى وأسر وأتى به إلى عمرو ، فقال له الناس : أقتله ، فقال لا : بل انطلق فجئنا بجيش آخر وسوّره وتوجه وكساه برنس أرجوان ، فرضى بأداء الجزية فقيل له : لو أتيت ملك الروم ، فقال لو أتيته لقتلنى وقال قتلت أصحابى .

(١) فى معجم البلدان «إخنا» روى- طَلَمًا بالطاء المهمله .

أَدْرُنكــة

قرية من قسم أسيوط فى جنوبها الغربى على نحو ساعة ، بها جوامع وكنيسة أقباط ومكاتب لتعليم الأطفال ، وهى من بلاد الزنار المشهورة بجودة المحصول ، ولأهلها شهرة بزرع الكتان والشمر والكمون الأبيض والأسود والأنيسون والثوم والقرع العسلى وجودة نسج الصوف والكتان وبها نخيل .

وفى غربيها بسفح الجبل قبور نصارى أَسْيُوط وغيرها من البلاد المجاورة ، وقبلى تلك المقابر ثلاثة ديور أحدها يسمى دير العذراء التحتانى ، والآخر دير العذراء الفوقانى ، والثالث دير ساويرس .

وفى خطط المقريزى عند ذكر أديرة النصارى إعلم أن ناحية أدرنكة هى من قرى النصارى الصعائدة ونصاراها أهل علم فى دينهم وتفاسيرهم فى اللسان القبطى ، ولهم أديرة كثيرة فى خارج البلد من قبليها مع الجبل ، وقد خرب أكثرها وبقى منها دير بوجرج وهو عامر البناء وليس به أحد من الرهبان ويعمل فيه عيد فى أوانه إلى آخر ما قال فى سرد الأديرة فانظره .

إدفـــــا

بهمزة مكسورة فدال مهملة ساكنة ففاء فألف ، ويقال : فيها إتفا بالمثناة الفوقية بدل الدال ، قرية من مديرية جرجا بقسم سوهاج فى شمالها الغربى وغربى ترعة السّوهاجية فى حوض العزيزات ، وهى غير مدينة أدفو التى بأقصى الصعيد ولها شبه بالمدن ، وفيها جامع بمنارة ومساجد أخر .

وبها أشراف وعلماء وبها تلول هى آثار بلد قديمة وقد وجد فى تلولها زمن تفتيش لطيف باشا على الأقاليم القبلية مطمورة مملوءة قمحاً ، يقال إنه ضل عنها صاحبها وأدعى على آخر أنه سرقها ، وقد حسبت مدتها فوجدت نحو ستين سنة ولم يتغير قمحها ، وقد عرض من قمحها على المرحوم سعيد باشا ، وهكذا عادة البلاد ذات التلول ، أن يحفروا فيها مطامير لخزن الغلال ويغطونها بنحو متر من التراب وعند فتحها توجد كما وضعت لا يعتريها سوس ولا غيره ، ومن نصاراها من صنعته إفراخ بيض الدجاج فى معامل متفرقة فى البلاد القاصية والدانية ، وهى قريبة من الجبل الغربى بنحو نصف ساعة وفى قبليها ورشة قطع الأحجار ، وبها نخيل وأشجار وأكثر تكسب أهلها من الزراعة وأرضها جيدة خصبة .

وفيها كنيسة قديمة ونصارى بكثرة وفى بعض الكتب القديمة أن كنيستها باسم مارى بخوم الذى كان راهبا فى زمن الأب شنوده وكان يطعم رهبانه الحمص المصلوق ، ويقال له : حمص القله ، وهذه القرية هى التى عناها كترمير بقوله :

إن إتفا هى إدفا الواقعة فى بحرى إخميم لأنها فى الغرب المائل إلى الشمال ، وفى خطط المقريزى أنه كان يقال لهذا الراهب أبو الشركة يعنى أنه كان يربى الرهبان فيجعل لكل راهبين معلما ، وكان لا يمكن أحداً من إدخال الخمر ولا اللحم إلى ديره ويأمر بالصوم إلى آخر التاسعة ا هـ .

أدفـــو

بضم الهمزة وسكون الدال وضم الفاء فى آخره واو قال فى القاموس أدفو بالضم قرية قرب مدينة الإسكندرية وبلد بين إسوان وإسنا منه محمد بن على الأدفوى النحوى له تفسير أربعون مجلداً انتهى .

وهى مدينة عظيمة واقعة على الشاطئ الغربى للنيل بين أسوان وإسنا فى جنوب إسنا بقدر خمسة ميريا متر ، وبعدها من النيل ألف وخمسمائة متر ، وفى جنوب طيبة باثنين ميريا متر ونصف .

وكانت من أعظم مدائن خط قوص وكانت تسمى قديما أبو لنيس سوسبتاس مانيا والرومانيون يسمونها أبلونوبوليس مانيا يعنى مدينة أبلون الكبيرة احترازاً عن مدينة أبلونوبوليس باروا – يعنى الصغيرة – .

٤٥

وأغلب أهلها مسلمون وأقباطها يعقوبية ولها شهرة بصنعة الفخار لاسيما الجرار المتخذة من طينة طفلية يجلبونها من الجبال المجاورة لها ، ويستعملون فى بعض أنواع الفخار ، طينة جيدة يخلطونها بطين النيل والقصرمل فتصير بعد الحريق شديدة الحمرة ، والدواليب المستعملة فى هذه الصنعة وأشكالها الآن هى مثل الدواليب والأشكال القديمة ، وهذا يدل على وجود هذه الصنعة فيها من قديم الزمان ، وأنهم توارثوها جيلا بعد جيل إلى الآن .

ويأتى إلى هذه المدينة كثير من عرب العبابيد القاطنين فى الصحراء لبيع أشيائهم وشراء ما لزم لهم من الحبوب ونحوها ، لأنها أول بلد يوجد فيها لوازم الأقوات بعد مفارقة مدينة أسوان .

وفى زمن الفرنساوية كانت أدفو قرية صغيرة أهلها فى غاية الفقر ، وذكر بلين وغيره أنها كانت من أعظم مدن الصعيد ، وفى خطط انطونان أن بعدها عن إسنا اثنان وثلاثون ميلا ، وأنها واقعة بين مدينة أسوان وإسنا على ما ذكره استرابون .

فمن ذلك مع قياس البعد الذى بينها وبين إسنا على الخرطة فوجد ٤٧٤٠٠ متر وهو يوافق الاثنين والثلاثين ميلا المذكورة .

ويظهر أن هذه المدينة لم تنتقل عن محلها الأصلى ، ثم إنها كانت فى زمن قيصر الروم أدريان من المدن المعتبرة وفيها ضربت ميداليات باسمه ، وفى القرن الرابع من الميلاد فى الوقت الذى كتب فيه اميان مارسيلوس تاريخه كانت هذه المدينة قد انحطت عن قدرها ، وكانت المدن المعتبرة من مدن الصعيد هى قفط وهرموبوليس .

ولم يذكر هيرودوط معبد مدينة أدفو مع أنه من أشهر ما يوجد فى الجهات القبلية ، والظاهر أن الأهالى لم تطلعه عليه ، ولم يتكلم عليه أيضا كثير من المؤرخين والسياحين الذين أتوا بعده ، ولم تعلم حقيقته ويظهر أمره إلا بعد دخول العرب أرض مصر وهو يشتمل على معبدين متقاربين واقعين فى شمالها الغربى فى أسفل تل مرتفع فى غاية الحفظ إلى الآن .

وكان لتلك المدينة رصيف على البحر ، وسعة تلولها وكثرة آثارها يدلان على أنها كانت مدينة كبيرة متسعة ومعبدها الكبير مرتفع عن البلد إلى الآن ، ولذا تسميه الأهالى قلعة وهو يشاهد من مسيرة فرسخين .

وفى زمن الفرنساوية كان جزء من بيوت البلد فوق سطحه وإذا قارن الإنسان البيوت الجديدة بالمعبد وبنائه ونظر إلى السكان وأحوالهم لا يرى مناسبة بينهم وبينه ، ويستبعد أن يكون مثل هؤلاء الناس من ذرية من بنى مثل هذا البناء ، ويقول : كيف أمكن المصريين أن يبنوا مثل هذا البناء الهائل فلابد أن سكان هذه الأرض كانوا يخالفون من بعدهم فى الكيفية والأحوال .

وطول هذا المعبد قريب من مائة وثمانية وثلاثين مترا ، وعرضه تسعة وستون مترا فالعرض نصف الطول ، وأكبر ارتفاع فيه خمسة وثلاثون مترا وارتفاعه عند الباب سبعة عشر مترا ، وقطر أغلظ الأعمدة متران من أسفله ، ومحيطه قريب من عشرين قدما وإرتفاعه ثلاثة عشر مترا ، ومحيط التاج قريب من اثنى عشر مترا ، أو سبعة وثلاثين قدما ، وهو من الحجر الصّلب القابل للصّقل ولا يمكن الدخول فيه إلا بمشقة لإحاطة البيوت والأتربة به .

وفى داخله دهليز واثنان وثلاثون عمودا ومحل العبادة محوط بدهاليز ، وأمامه إيوان وبابان عظيمان وجميع ذلك محوّط بسور له باب بجانبه برجان فى غاية من الارتفاع ، وبين هذا الباب وباب المعبد فضاء على صورة حوش تحيط به أعمدة من أربع جهاته ، والمسافة التى بين البابين وقدرها ثلاثة وأربعون مترا منقسمة إلى اثنى عشر قسما ، كل قسم قدر ما بين الأعمدة ، وقاعدة كل عمود بالذهاب إلى الباب مرتفعة عن سابقتها ، وكانت الأهالى مع أمير الجهة يجتمعون فى هذا المحل فى عيد النيل .

قال هيرودوط ما ترجمته : متى ارتفع ماء النيل وتعدى الجروف لرى الأرض يكون هذا الوقت عيد النيل فيتوجه الأمير ومعه القسيسون والأمراء ووجوه الناس فى الملابس الرسمية إلى المعبد ، ليشكروا الله تعالى على ما أنعم به من زيادة النيل .

فإذا كان الأمير عند باب المعبد كان جميع من خلفه موزعا على اثنى عشرة فرقة على حسب درجاتهم فى الموكب ويسيرون قليلا قليلا على صوت الألحان والآلات ويدخلون المعبد ليتمجيد اسم الله تعالى ، فلا موكب يشابه هذا الموكب الذى لا يمكن وصف منظره العجيب ، وأفواج الخلق فوق هذه الطبقات الواسعة المدرجة ، ولم يكن فيما عمله الرومانيون ومن بعدهم إلى الآن بناء مثل هذا شامل لأنواع الظرف مع المتانة والصلابة التى غالبت القرون وغلبتها ، مع أنا نجد بناء غير المصريين ممن استولوا على هذه الأرض قد زال بالكلية .

وهذا المعبد باق مع تسلط جميع ما يوجب الإنهدام والخراب عليه ، كتسلط الأهالى والولاة والقرون وحوادثها ، وللآن يرى كأنه بنى بالأمس فإن لم يكن غيره باقياً من بناء المصريين فهو كاف فى الدلالة على علوّ مقدارهم ومعلوماتهم ومهارتهم فى الصنعة .

وفى خطط الفرنساوية / تفاصيل الزينة والنقوش المزين بها هذا البناء ، مع بيان نسب الأجزاء وكيفية التفصيل وغير ذلك فلتراجع . ٤٦

وزعم الأرwام أن أهل هذه المدينة كانوا يقدسون أبلون ولذلك سميت أبلونوبوليس ، وكانوا يكرهون التمساح كراهة شديدة ويعلقونه على غصون الأشجار ويقطعونه قطعا ويأكلونه ، وكان ذلك داعيا لعداوة أهل [كوم][1] امبو وخطها لهم ووقوع النزاع بينهم على ما ذكره بعض مؤرخى الروم ، لأن التمساح كان من الحيوانات المقدسة عند أهل كوم امبو وخطها .

---

(١) للسياق .

فإن قلت كيف يعقل أن هذه المعابد الجسيمة والمبانى المتقنة يجعلها المصريون لعبادة كلب أو قط أو قرد ونحوها ، وكيف عملوا هذه الأعمال التى لم يسبقهم أحد بها ليسجدوا فيها لحيوان ويعلفونه كغيره من جنسه المسخر فى الاشغال .

قلت : الذى يظهر ويغلب على الظن أن مثل هذا الاعتقاد لم يكن عند هذه الأمة التى سبقت جميع الأمم فى المعارف والتمدن ومهدت طرق العلوم لجميع الناس ، فالظاهر أن ذلك ألغاز منهم ، وأنهم كانوا يلاحظون فى هذه الحيوانات صفات فيها إشارة لصفات الخالق سبحانه وتعالى ، أو لسر من أسراره لا يطلع عليه إلا القليل من الناس ، فيعظمونها لذلك .

والذى أشاع ذلك عن المصريين إنما هم اليونانيوّن والرومانيون لعدم اطلاعهم على مراد المصريين العقلاء ، ثم ازداد الأمر بعد دخول الديانة النصرانية فكُسيت الحقائق حُجَب الخفاء ، حتى ضاع ماكان يعنيه المصريون بما ألغزوه .

وقال بعض شارحى هيرودوط : إن أنطيفان الشّاعر الرومى من شعراء ما قبل الميلاد بأربعمائة سنة سَخر فى كتابه من المصريين فى تقديسهم للحيوانات حتى سمك البحر ، فإنهم كانوا يقدسون منه نوعا يسمى ليبيدوت ، وهو الذى سماه الأب سيكار البنى ، ونوعا يسمى اكسيرلكوس وسماه الأب سيكار العبيدى ، وكذلك ثعبان الماء فقال أنطيفان :

إن المصريين قد فاقوا الناس فى كل شئ حتى سَوُّوا بين ثعبان الماء والآلهة ، بل تجَاوزُوا حَدَّ التسوية إلى التفضيل فإنا نحصل خير الآله بمجرد الدعاء ، وأما ثعبان الماء فلا نصل إلى الانتفاع به إلا بصرف كثير من الدراهم .

وقال آخر فى قطعة شعر هزلية قصد بها المصريين ما معناه : أنتم تعبدون العجل وتجعلونه إلهًا ، ونحن نذبحه قربانا للآله ، وأنتم تعتقدون ثعبان الماء إلّهًا ، ونحن نعده من طيبات الأطعمة .

وقال بعض شارحى هيرودوط أيضاً : إن إعتبار المصريين للحيوانات واحترامهم إياها إنما هو لما فيها من الأسرار والخواص والأسباب التى تخفى على كثير من الناس ، وليس ذلك عبادة لها ، وإنما كلام اليونانيين ناشئ عن جهلهم بما كان يلحظه المصريون ويعلمونه فى الحيوانات ، مثلا ثعبان الماء من خاصيته أن أكله يغلظ الدم ويمنع العرق ، وذلك سبب لحصول الجذام فحرمه القسيسون لذلك ، ولإجل سد باب أكله أخرجوا ذلك مخرج التقديس ليمتنع أكله بالكلية .

وفى كتاب هيرودوط ، أن للتمساح أربعة أرجل وأنه يمتنع من الأكل أربعة أشهر الشتاء ، وأنه يعيش فى الماء ويخرج إلى البر ويبيض فى الرمل ، وفى النهار يألف الأماكن اليابسة ، وفى الليل يألف الماء لسخونته عن الهواء .

وقال بلين : إنه قد يختفى فى الحجور وبيضه قدر بيض الأوز ، وفقسه بنسبة ذلك ، ويكبر حتى يبلغ سبعة عشر ذراعا وأكثر ، وعيناه كعينى الخنزير ، وأسنانه بارزة وكبرها بنسبة جسمه ، وليس له لسان ، ولا يحرك فكه الأسفل عند الأكل وإنما يحرك الأعلى .

وقد استكشف علماء وقتنا أن له لساناً ملتصقاً بالفك الأسفل به ثقوب كثيرة مثل لسان السمك والثعبان والثلاثة تستعمله فى ذوق الغذاء فقط ، بخلاف باقى الحيوانات فألسنتها للطعام والصوت ، ومخالبه قوية وجلده مكسو بصفائح تمنع نفوذ السلاح فيه .

وهى ثلاثة أنواع ، فما على الجنبين والذراعين والرجلين وجزء من الرقبة قطع مستديرة الشكل مختلفة كبراً وصغراً ، وما على الظهر ووسط الرقبة وفوق الذيل قطع مستطيلة كالشريط ، وما على البطن وتحت الذيل وتحت الرقبة وباطن الرجلين قطع رقيقة لينة ، والنوعان الأخيران يشبه وضعهما وضع البلاط فى الأرض بشكل مربع ، ولا يبصر فى الماء ونظره خارجه حديد وفى جوفه ديدان ، والوحوش والطيور تهرب منه إلا طيرا يسمى تروشليس ـ (**السكساك**) ـ فإنه يألفه ، فإذا خرج التمساح إلى البر التفت إلى النسيم وفتح فاه فيدخل فيه هذا الطير ويأكل الدود الذى فى جوفه فيستريح التمساح لذلك فلا يؤذيه .

والتمساح محترم عند بعض المصريين دون بعض ، فَمِمَّن يحترمه أهل ضواحى طيبة وبحيرة موريس ويربونه عندهم حتى يألف الناس ويجعلون فى أذنيه أقراطا من ذهب أو حجر صناعى وفى رجليه خلاخل ويمونونه بلحم القرابين ، وإذا مات صبروه ووضعوه فى صندوق ودفنوه ، وأهل جزيرة أسوان وضواحيها لا يحترمونه بل يأكلونه ، وطريق صيده أن تجعل قطعة من لحم الخنزير فى سنارة وترمى فى البحر ويقعد الرامى على البر وعنده خنزير صغير فيضربه فيصرخ ، فإذا سمع التمساح صوت الخنزير أتى إليه / فتقابله الطعمة فيبتلعها فتمسكه الصناره . ٤٧

وذكر بعض السياحين إنه بعد أن يأتى إلى البر على صوت الحيوان يضرب بنشاب فيه حبل ويترك فى البحر حتى تبطل حركته ويبرد ، وبعض الناس يركب على ظهره ويربط فمه واسم التمساح بالمصرية شانبيس وتسميه اليونان فروقوديل وترجمته القبط امساح من غير أداة التعريف وبأداة التعريف بإمساح ، والعرب تسميه تمساح وله شبه بالحيوان البرى المعروف بالورل أ . هـ .

ثم إنه يعلم من كلام المؤرخين أن الرومانيين بعد إستيلائهم على هذه الأرض غيروا أسماء المدن وجعلوها على أسماء مقدسيهم ، ولذا ضاع كثير من الأسماء القديمة .

ويستفاد من كلام أوزيبى أن مدينة ابلونوبوليس هى مدينة هورروس ، لأن الروم سمت هورروس أبلون فى لغتهم وأقره على ذلك هيرودوط وبولوتارك وديودور .

وكانت الروم تسمى الشمس فى أعظم ارتفاعها أبولون ويقولون إنه القاتل للثعبان بيتون ، والمصريون يقولون : إن هورروس هو القاهر ليتفون . ويعنون بذلك أن الشمس متى بلغت غاية إرتفاعها تبعث إلى الأرض أكثر الحرارة والنور ويكون معظم إشارتها إلى خروج نهر النيل ، لأنه يكون سبباً لزوال جميع دواعى الضرر ويعنون بذلك موت تيفون ؛ لأنهم كانوا يجعلون هذا الاسم علماً على القحولة والوباء وما يشبههما وحينئذ يعود للديار المصرية خيرها ، ومتى عم الماء الأرض حصلت الخصوبة وتمت البركة ويكون قد تم عمل هورروس أو الشمس فى المنقلب الصيفى ، ومن تأمل الرسوم والنقوش التى على جدران المعبد يفهم منها أموراً كثيرة من معتقدات القطر وأن جميع هذه الرموز إشارات لأمور فلكية ، فيشاهد فى نقوش الباب الجسيمة فى الأفريز سلماً له أربع عشرة درجة فى نهايته عود نيلوفر فوقه هلال متوّج بعين ، وفى الخلف صورة صغيرة رأسها رأس الطير أبيس ، وبإمعان النظر فى ذلك يعرف جميع أحوال المنقلب الصيفى وأول شهر من شهور السنة ، فإن النيلوفر إشارة لزيادة النيل ، والعين على ما ذكره بلوتارك إشارة إلى الشمس أو أوزريس فى أعلى ارتفاعها ، والطير أبيس علم على الرى ، والهلال المتوّج وطرفاه إلى أعلى دليل على الهلال المذكور على ما ذكره هورابلون ، والصورة التى تأتى فى الأول رأسها رأس الطير أبيس تقدم إليه إناء ماء ، وهو أيضاً إشارة لعلو النيل ، وتوجد أيضاً فى السطر الخامس عشر بعد السلم وكذلك بعد السابع والعشرين وفى يدها الصورة التى على الهلال يعنى عين أوزريس ، وأمامه إشارات تدل على النيل أيضاً .

والشمس بثلاث جمل من الأشعة دلالة على أعظم قوة الحرارة ، ثم سطر أمام الصورة الخامسة والعشرين مع الشمس المضيئة وكذا أمام الصورة الثانية والثلاثين والصورة السادسة والعشرين من ضمن نقوشها جملتان من النيلوفر وتحتهما أعضاء التناسل ، وهما علامة على إدراك الزرع والخصوبة ، فمن جميع ذلك يظهر أن نقوش الإفريز جميعها تدل على أحوال الشمس فى المنقلب الصيفى فى لحظة الهلال الجديد .

وقال هيرودوط : إن المصريين يعنون بأوزريس النيل وبأزيس الأرض وأوزريس فى الأصل هو الشمس وهم يجعلون فيضان النيل عطية من الشمس ، ومعنى أوزريس باليونانية كثير الأعين ، وذلك أن أشعة الشمس كثيرة تعم الأرض والبحر ، ولذا تجد كهنة هذا المقدّس عليهم قلانس فيها جملة عيون .

وقال بلوتارك : إن أوزريس يسمى عند اليونان باكوس ، وقال ديودور : إن منظر السماء وباقى الخلقة بهر المصريين الأقدمين فذهبوا إلى اعتقاد إلهين أبديين سابقين على بقية الآلهة وهما الشمس والقمر وسموا الأول أوزريس والثانى إزيس إنتهى .

وإنما الله إله واحد وقد وصف الطير أبيس بعض شارحى هيردوط فقال : هو طير يشبه اللقلق المعروف بأبى مغازل إلا أن اللقلق أكبر منه ، ورقبته ورجلاه أكبر من رجلى اللقلق ورقبته ، وطوله من منقاره إلى ذيله ثلاث أقدام ونصف ، وريشه أبيض غير ناصع ما خلا الريش الكبير من الجناحين فهو أسود ، وفى باطن الجناحين نقط حمر بعضها قانىء وبعضها بلون اللحم ، وعلى فخذيه قليل من الريش فى هيئة سطور ، وأعلى رأسه عار من الريش كالذى حول عينيه وتحت حلقومه وقرب منقاره ، وجلد هذه المواضع الأربعة أحمر ذو

تكاميش ، وأعلى منقاره بقدر أصبع ونصف غليظ أصفر فاقع وطرفه ليس مدققاً بل يرى كالمقطوع ، وفى صفرته شيء وجميعه أملس يشبه العاج ذو إنحناء من أوّله إلى آخره على خلاف هيئة مناقير الطير ، وطرفه وجوانبه حداد قاطعة سريعة فى تقطيع الثعابين ، وله انكباب زائد على أكلها ، أحمر الرجلين بقدر أربعة أصابع ، وفى جميع رجليه تقليس مسدس الشكل ما خلا الأصابع ، وعلى أصابعه جلدة ممتدة إلى آخرها قال :

وكان هو التمثال الحى للقمر وكان يسمى أبا حنس ، ونقل عن اليان أن هذا الطير كان إذا أخرج عن أرض مصر يميت نفسه جوعاً ، ثم ردّ ذلك بأن هذا الوصف السابق هو وصف الطير الذى نقل من مصر إلى بلاد فرنسا وعاش بورساى زمناً / طويلاً انتهى . ٤٨

وقال العالم سوينى إن منه طيراً أسود فى نواحى دمياط ورشيد والمنزلة ويسمى عندهم إلى الآن الحارث انتهى .

(ولنرجع) إلى ما نحن فيه فنقول : ثم إنه يرى فى أول الإفريز صور عديدة لإمرأة رأسها رأس سبع ينظر إلى قبليه وفى يدها عود لينوفر ، ويشاهد أيضاً جملة صور رؤوسها رؤوس سباع أيضاً .

وعندها أوان فيها ماء ، ويظن أن ذلك إشارة إلى إفتتاح السنة فى الوقت الذى فارق فيه المنقلب الصيفى الجوزاء ولحق بالنجوم الأولى من الأسد يعنى الدرجات الأخيرة منه ، فإن صح ذلك يكون معبد مدينة أدفو بنى عند تجديد دورة من أدوار الشعرى ، يعنى مدة فلكية كان لها اعتبار عظيم عند المصريين ، وكانت تلك الدورة ألفا وأربعمائة وإحدى وستين سنة ، يحصل عندها رجوع الفصول إلى ماكانت عليه ، وتتوافق السنة الزراعية الثابتة مع السنة

الديانية ، وكان المصريون يبنون لها أفخر المبانى ، وكانت أعظم وقت تفرح فيه الأهالى ، وكانت تضبط بها الحسابات الفلكية ، وهى تدل على غزارة علم القسيسين لأنهم المخترعون لها وتسمى دورة الشعرى ، وكان المصريون يرمزون لها بالطير الخرافى المسمى عند الإفرنج فنيكس وربما كان العنقاء أو السمندل،وكان الأقدمون يقولون : إن هذا الطير يعيش ألفا وأربعمائة وإحدى وستين سنة ، ويوجد فى هذا المعبد صورة ذلك الطير بكثرة .

وذكر هيرودوط : أن صورته تشابه صورة النّسر وأنها كانت توجد فى ضمن نقوش المصريين وأنه نظرها ، ويقال : إن هذا الطير متى قرب أجله يعمل عُشًّا من اللبان والمر ، ويفارق الهند الذى هو وطنه ويأتى إلى معبد عين الشمس ويموت فيه ، ثم بعد أيام قليلة يحيا من تراب النار التى أحرق فيها ، ومن أمعن النظر فى الصورة الموجودة فى نقوش المعبد رأى الطير فى حداثة سنه خارجاً من الحريق .

وذكر سولان أيضاً : أن هذا الطير إشارة إلى السنة الكبرى ـ يعنى دورة الشعرى ـ وذكر بلين أن عمره يطابق السنة الكبرى التى يحصل بعدها رجوع الأمور إلى ما كانت عليه ، وقال هيرابولون : إن هذا الحيوان إشارة إلى عود الزمان إلى أصله بعد مدة طويلة ، وجزم ناسيت بأن عمر الفنيكس ألف وأربعمائة وإحدى وستون سنة ، وصورته توجد فى أغلب المبانى العظيمة سيما فوق قواعد الأعمدة ، وعلى جلسة الكرسى له يدان مبسوطتان مفتوحتان وأمامه نجمة يظهر أنها الشعرى سيريوس التى تدل بشروقها الإحتراقى على تجديد الدورة وزيادة النيل والمنقلب الصيفى ، وتشاهد دائماً فوق قدح وهو إشارة إلى الفيضان .

وتوجد هذه الصورة أيضاً فى معبد جزيرة بيلاق ومعبد إسنا ، وفى المعبد الكبير الذى فى جزيرة بيلاق صورتان بهما جميع الإشارات التى نبه كل من هيرودوط وبلين وسولان على

أنها إشارات الفنيكس ، وله عرف على رأسه موجود إلى الآن ، وفى قاموس الإفرنج أن سولان هذا عالم لتينى كتب تأليفه سنة مائتين وثلاثين بعد الميلاد انتهى .

وقال هيرودوط : إن بعض أجنحة هذا الطائر ذهبى والبعض أحمر وهو باق إلى الآن ، وكذلك ريش الذيل الوردى وريش الرقبة الذهبى وكل من هؤلاء المؤلفين يقول : إن صورته صورة النَّسر ومنقاره كمنقار النَّسْر وله يدان كيدى الآدمى مرفوعتان فى الهواء ورجلان طويلتان .

وفى مدينة أبو صورة طير له وجه إنسان جالس على قدح وهو مثل الفنيكس ويدان مرفوعتان وأمامه نجمة وله أجنحة منشورة وعرف ، وهذه هى الإشارات الواردة فى كتب المؤرخين فهى صورة الفنيكس .

وفى رسوم مدينة طيبة ودندره توجد هذه الصورة بكثرة ، فقد بان لك ما كان عليه قدماء المصريين من أن ذهاب الفنيكس من الهند إلى مصر ليموت فيها ثم يحيا مرة أخرى ، يدل على عودة السنة الثانية وهى التى كانت مستعملة عند المصريين والهنود ، وكانت لا تعود إلا بعد ألف وأربعمائة وإحدى وستين سنة ، وبرجوعها كان يتوافق سير الزمان مع سير الشمس ، وأن عمر هذا الطير وسفره وموته وعودته للحياة ثم سفره إشارة إلى الشمس ، ويؤيد ذلك ما ذكره هورابولون من قوله : متى فتح الطير الجديد جناحيه يطير مع أبيه إلى مدينة عين الشمس من مصر ، وعند وصولها يموت الأب عند شروق الشمس ويدفنه قسيسو مصر ويعود الفنيكس الجديد إلى محل ولادته ، ثم إن العش المتخذ من البمُّر واللبان إشارة إلى بلاد المشرق ، وعودته إلى مدينة عين شمس إشارة إلى رصد مدينة عين شمس ، وكان القسيسون يرصدون النجوم فيه طول السنة الشمسية .

ويؤخذ من جميع ما مر أن معبد مدينة أدفو كان بناؤه عند تجديد الدورة الفلكية للشعرى كما تقدم ، والذى يستغرب منه هو نسبة بعض أجزاء هذه العمارة لبعض / ويدل ذلك على أن المصريين كان لهم قوانين متبعة لا يخرجون عنها فى إنشاء عماراتهم ، وهاك بعض هذه النسبة فإن ذكر جميعها يوجب الطول .

٤٩

		نسبة تقريبية
الطول الكلى للمعبد	١٣٧ر٣٨	٣٠٠
العرض الأمامى	٤٧٠ر٠٤٨	١٠٠
طول الباب	٦٩ر٠٢٨	١٥٠
ارتفاعه	٣٤ر٩٧٤	٧٥
عرضه	١٠ر٩٩	٢٤
بروزه عن الحائط	١٠ر٩٩	٢٤
ارتفاع الباب	١١ر٢٦١	٢٥
عرض الباب	٠ر٥٣٦	١٢
عرض الحوش من عمود إلى آخر	٣٤ر٤٦	٧٥
قطر عمد الحوش	١ر٣٨١	٣
ارتفاع السور	١١ر٤٨	٢٥
عرض ظهر السور فى مقابلة حائطه	٣٣ر١٣٤	٧٢

وهكذا باقى الأجزاء وبالتأمل يرى طول المعبد ضعف عرضه والارتفاع نصف العرض وواجهة الباب التى يحيط بها البرجان اللذان كانت العادة وضعهما أمام المعابد والسرايات عرضها ضعف عرض الباب ، ويرى أن الارتفاع أربعة أمثال ذلك ، وعرض المعبد ستة أمثاله وطول واجهة الباب ضعف الارتفاع وهكذا على هذا النسق ، ولو فرض أن قدر الذراع ٤٦٢ر٠ متر يكون الطول الكلى للمعبد أربعمائة وخمسين ذراعاً ، وعرضه فى الخارج مائة وخمسين ذراعاً ، وهكذا يكون باقى الأجزاء عدداً صحيحاً من غير كسر ، وذلك المعبد يشبه معبد دندرة شبهاً تاماً .

وبعضهم يعزو بناءه إلى فرعون مصر مريس ، وأن البطالسة أضافوا له بعض إضافات ، وبعضهم ينسبه إلى بطليموس الرابع الملقب ببطليموس فيلا ماطور ، واشترك فى زخرفته جملة من البطالسة ، وبابه يعزى إلى بطليموس الثالث عشر ، وعلى جدرانه نقوش تدل على اسم المعمار الذى بناه ــ وهو أموفيس ــ وعلى مدة الاشتغال فى بنائه وهى مائة وخمسة وسبعون سنة ، ولم يتم نقشه إلا بعد مائة وتسعين سنة من تأسيسه ، وفى داخله حجر جسيم محفور تدل كتابته على أنه عمل فى زمن نكتنايو الأول من ملوك العائلة الثلاثين ، وطول واجهته ٧٦ متراً وعمقه ١٣٧ متراً وإرتفاع الباب ٣٥ متراً ولكل أودة من أوده اسم وفى نقوش كل أودة بيان مقدار أبعادها ، وبواسطة هذا المعبد يمكن معرفة الأقيسة القديمة ومقارنتها بالأقيسة المترية والأقيسة المصرية الحالية ، وفى سنة ألف وثمانمائة وسبع وستين ميلادية صار إزالة ما به من الأتربة والقاذورات وخلص من سكنى الأهالى وجرت عليه شروط المحافظة كى لا يتلف كما تلف غيره .

(فائدة) . تاسيت المتقدم ذكره هنا ولد فى سنة أربع وخمسين بعد الميلاد ومات سنة مائة وأربع وثلاثين وكان من أشهر مؤرخى الأزمان الماضية وله مؤلفات كثيرة ، وتعتمد الفرنج على تاريخه لصحته وتراجعه كثيراً وهو من ولاية إيطاليا انتهى من قاموس الجغرافية الفرنجى

ثم إن أهالى مدينة أدفو كانت عدتهم زمن دخول الفرنساوية هذه الديار قريباً من ألفى نفس ، وكان بعدها عن النيل قريباً من عشرين دقيقة ، وكان فيها أنوال لنسج ثياب القطن والصوف وفاخورات لعمل الأوانى من الجرار والخوابى الكبيرة وغير ذلك ، وقد زادت عماريتها وكثر أهلها من إبتداء مجىء العائلة المحمدية إلى الآن .

وبالجملة فهذه المدينة لها قدم فى العز والفخر جاهلية بما تلى عليك من الآثار الجليلة ، وإسلاماً فإنها منشأ لجملة من الأكابر / والأفاضل وكفاها شرفاً أن منها الكمال جعفر الأدفوى صاحب كتاب الطالع السعيد فى نجباء الصعيد . ٥٠

ترجمة كمال الدين جعفر الأدفوى

وهو كما فى الأنيس المفيد لدساسى : كمال الدين أبوالفضل جعفر الأدفوى بن تغلب[1] بن جعفر مات بالطاعون فى القاهرة سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية ، ولننبه هنا أن الكمال فى مثل هذا مختصر من كمال الدين ، كما أن الفخر مختصر من فخر الدين فهو بعض العلم ، وكثيراً ما تحذف هذه الكلمة من الأسماء المركبة ، ثم تارة توضع أداة التعريف بعد الحذف كما فى الكمال وتارة لا ، كما فى نصير فإن أصله نصير الدين ، وتارة يستعمل الجزء الباقى إستعمال النسب ، فيقال : النجمى والكمالى .

(١) فى النجوم الزاهرة ٢٣٧/١٠ والطالع السعيد «ل» والدرر الكامنة ٥٣٥/١ ط الهند سنة ١٣٤٨ هـ «ثعلب» .

مطلب أول التلقيب بالإضافة إلى الدين

قال السيوطى فى كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل أن أول حدوث التلقيب بالإضافة إلى الدين كان فى أثناء القرن الرابع وسبب ذلك أن الترك لما تغلبوا على الخلافة كانوا يسمون بشمس الدولة وناصر الدولة ونجم الدولة ، فاشتاقت نفوس بعض العوام إلى التسمية بتلك الأسماء لما فيها من التعظيم والفخر ، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً لعدم دخولهم فى الدولة فرجعوا إلى الدين ثم فشا ذلك وزاد حتى أنس به بعض العلماء فتواطؤو عليه .

وفى تاريخ الصفدى أن عبد الملك أول وزير لقب بألقاب كثيرة بالدولة وبالدين وكان يلقب بشرف الدين مات سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، وقد أورد فى الطالع السعيد جماعة من أكابرها منهم ثعلب بن أحمد[1] بن جعفر بن يونس علم الملك الأدفوى ، كان رئيساً بها وحاكماً وكان الملك الكامل بكاتبه توفى فى حدود أربعين وستمائة ببلده .

ومنهم الإمام الفاضل محمد بن على بن عبد الوهاب بن يوسف الأدفوى المنعوت ببدر الدين ، اشتغل بالعلوم كلها وبنى بادفو رباطا ، ووقف عليه أوقافاً ، وكان ناظماً ناثراً له يد فى الحساب والخط ، جامعاً بين كثرة الحفظ وقوة الفهم ، باذلاً جهده فى منافع أصحابه والسعى فى مصالحهم ، واشتغل بالتصوف وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وستمائة فى شهر المحرم انتهى ولم يذكر وفاته .

ومنهم العلامة محمد[2] بن حسين بن ثعلب خطيب أدفو كان له معرفة بالطب وله

---

(١) فى الأصل حمد والمثبت عن الطالع /١٧٦

(٢) انظر ترجمته والشعر كاملاً فى الطالع السعيد /٥١٥ــ ٥١٧ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م .

تأليف فى الفلسفة والتصوف وكان أديباً شاعراً ومن كلامه :

بانت سُعاد فأضحى القلبُ فى شُغُل مستأسراً فى وثاق الأعين النُّجُل
حكَّمتُها فاستعدَّت للنوى صلفاً فصرتُ دهرى لفرط البين فى وجل

توفى بأدفو سنة سبع وتسعين وستمائة ، وكان مسنا ويمشى إلى الضعفاء والرؤساء يطبهم بغير أجرة ، وكان من أهل المكارم والمروءة والفتوة واسع الصدر كثير الاحتمال يأتى إلى الجماعة أقاربه فيسمعهم يشتمونه فيرجع ويأتى من طريق أخرى حتى لا يفهموا أنه سمعهم انتهى .

وفى زمن العزيز محمد على بنى بأدفو قشلاق صغير لإقامة العساكر الباش بزوك وهو الآن محل إقامة ناظر القسم فهى رأس قسم ، وبها قاض ولها سوق يقام كل أسبوع يباع فيه بضائع تلك الجهات والمواشى الكبيرة والصغيرة ، وبها نخيل ومساجد وأشجار وأرحية وأنوال ومعمل دجاج ، وأرضها مشهورة بجودة المحصول بسبب ترعة الرمادى المنشأة فى عهد العزيز المذكور ، وكانت قبل ذلك قحلة مملوءة بالحلفاء ونحوها ، وفى مقابلتها فى البر الشرقى قرية الرادسية وجبل السلسلة واقع بين هذه المدينة ومدينة أسوان ، ويقال : إنه فى الأصل جبل واحد كان معترضاً أمام النيل كالشلال فقطع وصار مرور النيل فى وسطه فكان كجبلين يكتنفان النيل ، واسمه مأخوذ من سلسلة من الحديد كانت معترضة بين الجبلين لمنع مراكب النوبة من الدخول ، وعندها كانت تؤخذ العوائد المقررة على المراكب ، وظن بعضهم أن اسمه مأخوذ من صورة الجبال التى هناك ؛ لأن الجبال الشرقية تتصل عنده بالجبال الغربية كالسلسلة يتصل بعضها ببعض ، وبهذا الجبل المحاجر العظيمة التى قطع منها أغلب التماثيل العتيقة التى بالكرنك وآبو وغيرهما ، وقد جعل أغلب مغاراته معابد ومقابر وبعضها سابق على العائلة الثامنة عشرة من الفراعنة .

أدكـــــو

قرية كبيرة من مديرية البحيرة بقسم دمنهور وتارة تكون تابعة لمحافظة الإسكندرية أو محافظة رشيد أو تضاف إلى مأمورية بلاد الأرز ، وهى واقعة على الشاطىء الغربى لبحيرة أدكو قريبة من البحر المالح على نحو ألف وخمسمائة متر ، ومنها إلى رشيد نحو ساعتين وإلى الإسكندرية نحو ست ساعات وأبنيتها من الآجر والمونة ، وأكثر دورها على طبقتين وبها جامعان كبيران لكل منهما منارة وبها طاحون هواء ومعمل فسيخ ونخيل كثيرة نحو سبعين ألف نخلة وكروم عنب ، ويزرع بأرضها البطيخ وأصناف القثاء .

وفيها أنوال كثيرة لنسج مقاطع الحرير الإسكندرانى والملاآت والبشاكير والمحازم وقد بنى بها الشيخ الجبرتى مسجداً عظيماً ووقف عليه عدة أماكن كما تقدم ذلك مع ترجمته فى الكلام على آية الوقف ، وكثير من أهلها يصطادون السمك من بحيرتها ، ومنهم من يتجر فى أصناف الفواكه والبلح / فيذهبون به إلى الإسكندرية وغيرها ولا يزرع بها شىء من أصناف الحبوب بسبب إستيلاء الرمال على أرضها ، وإنما يشترون الحبوب من رشيد والإسكندرية وبلاد الأرز وشربهم من حفائر يحفرونها فى الرمل نحو مترين .

ومن عوائد أهلها أن لا تخرج نساؤهم من البيوت إلا ليلاً متحفظات ، وأن لا يخرج الرجل من بيته كائناً من كان إلا ومقطفه على عاتقه ، فإذا عاد استصحب معه فى المقطف ولو حجراً .

ومنها أنهم لا يجعلون للقبور شواهد من البناء ، بل يزرعون فوق كل قبر صبارات فى صورة مستديرة أو مربعة وقبورهم متجاورة ، فإذا ترعرعت الصبّارات وتفتح نورها ترى القبور كأنها روضة أزهار ، ولا يخرج إليها من النساء إلا المتجالات مع التحفظ التام بخلاف قبور غيرهم فلها فى الغالب شواهد من الحجر أو غيره ، وهى منشأ لجماعة من العلماء .

ترجمة الشمس الأدكاوى

ففى الضوء[١] اللامع للسخاوى أن منها : الشيخ محمد بن سلامة بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن أبى محمد بن على بن صدقة الشمس الأدكاوى الشافعى ويعرف بابن سلامة .

ولد سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة تقريباً بأدكو ، فقرأ بها القرآن وبعض رسالة ابن أبى زيد على مذهب والده ، ثم تحول شافعياً وحفظ المنهاج وعرضه على البلقينى والمحلى وابن الملقن وغيرهم ، وتفقه على بلديه رمضان وأخذ عنه فى الفرائض والأصلين والعربية وطريق السلوك ، ثم إرتحل لفوّة فأخذ عن ابن الخلال كتباً كالمنهاج والتنبيه ولازمه أربع سنين فى شرح الدميرى والجمل للزجاج وغير ذلك فى الفقه وأصوله والنحو .

وقرأ فى المنهاج على الزين زكريا وأخذ عن الفقيه شمس الدين ابن الترس ، الفرائض والحساب حتى استوفى النزهة لابن الهائم ، والتصوف عن أبى الفتح الفوى وقرأ عليه رسالته مرتين ، وعلى إمام الكاملية بعض بداية الهداية للغزالى ولبس منه الخرقة ، وتردد على عبد الرحيم الإبناسى وابن قاسم وغيرهما ، ومهر وتميز وأذن له ابن الخلال فى تدريس الفقه والعربية ، وكذا أذن له غيره وكتب له إجازة هائلة ، وانتفع به أهل بلده بل وبعض الواردين ، وكتب على متن أبى شجاع شرحاً قرظه له كل من ابن الخلال والعبادى ، وعرض عليه المناوى قضاء بلده فأبى وحج غير مرة أولها فى سنة تسع وستين ولازم بأخرة أخذ قماش معه مع عدم حظ له فى التجارة لغلبة سلامة الفطرة عليه ، وكونه فى أكثر أوقاته متوجهاً

(١) انظر الضوء اللامع ٧/٢٥٤ ط المقدسى سنة ١٣٥٤ هـ

وتمادى فى ذلك حتى سافر من مكة لهرموز بمتجر أكثر مما استدان فيه ، فباعه أكرم بيع وأكرمه صاحبها وعاد على أحسن وجه فخرج عليهم السّراق فسلبوهم ، فتوصل لعدن فأكرمه ابن طاهر وتبضع من هناك ، وركب البحر راجعاً راجياً الاستشراف على وفاء دينه ، فمات على ظهر البحر فى أثناء سنة اثنتين وتسعين ودفن هناك ، وكان فى الصلاح والخير بمكان رحمه الله تعالى انتهى .

ترجمة عبدالله الأدكاوى

وفى الجبرتى أن منها الإمام الفاضل والأديب الكامل الناثر عبد الله بن سلامة الأدكاوى المصرى الشافعى الشهير بالمؤذن ، ولد سنة أربع ومائة وألف ونشأ بالقرية المذكورة وحفظ القرآن بها ، ثم أتى إلى مصر فحضر دروس علماء عصره واشتهر بفن الأدب ولازم فخر الأدباء فى عصره السيد على أفندى برهان زاده نقيب السادة الأشراف ، فأكرمه وكفاه المؤنة من كل وجه وصار يعاطيه كئوس الآداب ويصافيه بمطارحة أشهى من إرتشاف الرضاب ، وحج بصحبته فى سنة سبع وأربعين ومائة وألف ، وعاد إلى مصر وأقبل على تحصيل الفنون الأدبية ، فنظم ونثر ومهر ورحل إلى رشيد وفوة والإسكندرية مراراً ، واجتمع على أعيان كل منها وطارحهم ومدحهم ثم بعد وفاة السيد النقيب لازم الشيخ الشبراوى مدة وبعد وفاته لازم الاستاذالحفنى سفراً وحضراً فحصلت له العناية .

وألف كتباً كثيرة منها الدّرة الفريدة والمنح الربانية فى تقسيم آيات الحكم الفرقانية ، ومختصر شرح بانت سعاد ، والنزهة فى الفرائض ، وديوانه المشهور الذى جعله على حروف الهجاء وغير ذلك .

توفى يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ومائة وألف ، وصلى عليه بالأزهر ودفن بتربة المجاورين قريباً من الشيخ الحفنى ، وقد رثاه الشيخ على الشرنفاسى[(١)]

---

(١) فى هامش الجبرتى ٣٥٤/١ : على الشرقاوى مع مغايرة فيه .

بقوله :

إن الأكـــــــــاوى آوى بـــفـــنون الشّـــعـــر لحده
كـــان فـــى الـــفنّ إمـــامـــاً مـــنـــجـــزاً فى الـــفضـــل وعـــده
ولـــــقـــــد مـــــات فــــأرخ مـــات أس الشـــعـــر بـــعـــده

انتــهـــى .

ومن كلامه قوله متوسلاً بالنبى صلى الله عليه وسلم(١) :

يـارب بـالهادى الشـفـيـع محمـد من قد بدا هذا الوجود لأجله
وبـآله الأمجاد ثـم بصحبه الأ خيار يامغنى الورى من فضله
كن لى معيناً فى معادى واكفنى هـم المعاش وما أرى من ثقله
واغـفـر بـفضلك زلتى وارحم بعد لك شيبتى واشف الحشا من غله

/ ومن كلامه فى آل البيت :

آل طـه يـا أولـى كـل هـدى نـزل الـقـرآن فى تـطـهيركـم
نوركـم يجلو دجـا كـل عـنـا انـظـرونا نـقـتبس من نوركم

---

(١) انظر تاريخ الجبرتى ٣٥٤/١ ط الشرفية سنة ١٣٢٢ هـ : مع مغايرة فى بعض ألفاظه .

ومن كلامه وقد حضر فى مجلس جماعة من مشاهير الكتاب ، ولم يحضر فيه كاتب الوقت الضيائى الكاتب المشهور :

ونـــاد قـــد حوى أقمار تـــم   من الـكـتـاب زادوا فـى البهاء
بهم قـــد زاد نوراً وابتهـــاجـــاً   فلا يحتـــاج فـيـــه إلـى الضـيـــاء

ثم قال يعضده فى المجلس :

لئن غدا مجلس الكتاب ليس به الـ   ـمولى الضيائى من فى خطه بهراً
فالشمس من بعدها منها الضياء لقد   عَمَّ الورَى فهو شمس غاب أو حضراً

والضيائى هذا على ما فى تاريخ الجبرتى هو : الأجل المكرم الفاضل النبيه النجيب الفقيه حسن أفندى ابن حسن الضيائى المصرى المجود المكتب ، ولد فى سنة اثنتين وتسعين وألف فى منتصف جمادى الثانية كما وجد بخطه ، واشتغل بالعلم على أعيان عصره واشتغل بالخط وجوده على مشايخ هذا الفن فى طريقتى الحمدية وابن الصائغ ، أما طريقة الحمدية فعلى سليمان الشاكرى والجزائرى وصالح الحمامى ، وأما طريقة ابن الصائغ فعلى الشيخ محمد ابن عبد المعطى السملاوى والشاكرى والحمامى جوّدا على عمر أفندى ، وهو على درويش على ، وهو على خالد أفندى ، وهو على درويش محمد شيخ المشايخ حمد الله بن بير على المعروف بابن الشيخ الأماسى .

وأما السملاوى فجود على محمد بن محمد بن محمد بن عمار وهو على والده ، وهو على يحيى المرصفى ، وهو على إسماعيل المكتب ، وهو على محمد الوسيمى ، وهو على أبى الفضل الأعرج وهو على ابن الصائغ بسنده .

وكان الضيانى شيخاً مهيباً بهىّ الشكل منوّر الشّيبة شديد الانجماع عن الناس ، وكان يعاشر الشيخ محمد الطائىّ كثيراً ويذاكره فى العلوم والمعارف ويكتب غالب تقاريره على ما يكتبه بيده من الرسائل ، وقد أجاز فى الخط أناساً بكثرة وتوفى فى منتصف ذى الحجة سنة ثمانين ومائة وألف ، ومن كلام الأدكوى أيضاً فى عنز الشيخ عبد اللطيف كبير خدمة ضريح السيدة نفيسة :

ببنت رسول الله طيبة السنا ... نفيسة لذ تظفر بما شئت من عز
ورم من جداها كل خير فإنها ... لطلابها ياصاح أنفع من كنز
ومن أعجب الأشياء تيس أراد أن ... يضلّ الورى فى حبها منه بالعنز
فعاجلها من نوّر الله قلبه ... بذبح وأضحى التيس من أجلها مخزى

ولهذه العنز قصة مشهورة حاصلها كما فى الجبرتى[1] : أنه فى سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف أظهر خدام المشهد النفيسى ، وكان كبيرهم إذ ذاك الشيخ عبد اللطيف عنزاً صغيراً مدرياً زعموا أن جماعة من الأسرى ببلاد النصارى توسلوا بالسيدة نفيسة وأحضروا ذلك العنز وعزموا على ذبحه فى ليلة يجتمعون فيها يذكرون ويدعون ويتوسلون فى خلاصهم ونجاتهم من الأسر ، فاطلع عليهم الكافر فزجرهم وسبهم ومنعهم من ذبح العتروبات تلك الليلة فرأى رؤيا

---

(١) راجع نادره العنزة فى الجزء الخامس من هذا الكتاب ط الهيئة العامة للكتاب / ١٣٧

هالته ، فلما أصبح أعتقهم وأطلقهم وأعطاهم دراهم وصرفهم مكرمين فنزلوا فى مركب وحضروا إلى مصر وصحبتهم تلك العنز وذهبوا بها إلى المشهد النفيسى ، وذكروا فيها خرافات كبيرة .

فنهم من يقول : إنهم أصبحوا فوجدوها عند المقام ، ومنهم من يقول فوق المنارة ، ومن يقول سمعناها تتكلم أو أن السيدة تكلمت وأوصت عليها ، وأن الشيخ سمع كلامها من القبر ، ثم أبرزها الشيخ للناس وأجلسها بجانبه ويقول للناس ما يقوله : من الكذب والخرافات التى يستجلب بها الدنيا ، وتسامع الناس بذلك فأقبل الرجال والنساء من كل فج لزيارة تلك العنز وأتوا إليه بالنذور والهدايا وعرفهم أنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ، فأتوه من أصناف ذلك بالقناطير وعمل النساء للعنز قلائد الذهب وأطواق الذهب ونحو ذلك من الحلى ، وافتتنوا بها وشاع خبره فى بيوت الأمراء وأكابر النساء فأرسلن على قدر مقامهن من النذور والهدايا وذهبن لزيارتها ومشاهدتها وازدحمن عليها فأرسل الأمير عبد الرحمن كتخدا إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه حضوره إليه بتلك العنز ليتبرك بها هو وحريمه .

فركب الشيخ بغلته والعنز فى حجره ومعه طبول وبيارق وحوله الجم الغفير من الناس ودخل بها بيت الأمير المذكور على تلك الحالة ، وصعد بها إلى مجلسه وعنده حينئذ الكثير من الأمراء والأعيان فزارها وتملس بها ثم أمر بإدخالها الحريم ليتبركن بها ، وقد كان أوصى / قبل حضور الشيخ بذبحها وطبخها فلما أخذوها ليذهبوا بها إلى الحريم أدخلوها فى المطبخ وذبحوها وعملوها قمه ثم لما حضر الغداء أخرجوها فى صحن ووضعوها بين أيديهم فأكلوا منها والشيخ عبد اللطيف صار يأكل والكتخدا يقول : كل يا شيخ من هذا الرّميس السمين ، ٥٣

فيأكل ويقول : والله إنه طيب ونفيس وهو لا يعلم أنه عنزه وهم يتغامزون ويضحكون ، فلما فرغوا من الأكل وشربوا القهوة طلب الشيخ العنز ، فعرفه الأمير أنها هى التى كانت بين يديه فى الصحن وأكل منها فبهت عند ذلك ثم بكته الأمير ووبخه وأمره بالإنصراف ، وأمر أن يوضع جلد العنز على عمامته ويذهب به كما جاء بجمعيته وبين يديه الطبول والأشائر وَوَكّل به من أوصله إلى محله على تلك الصورة أ . هـ جبرتى .

ترجمة عبدالرحمن كتخدا وبعض عمائره

وقد ذكر فى موضع آخر من كتابه ترجمة الأمير عبدالرحمن كتخدا المذكور ، بأنه الأمير الكبير والرئيس الشهير عبدالرحمن كتخدا ابن حسن جاويش القازدغلى أستاذ سليمان جاويش أستاذ إبراهيم كتخدا مولى جميع الأمراء المصرية .

ومبدأ إقبال الدنيا عليه ، أنه لما مات عثمان كتخدا القازدغلى واستولى سليمان جاويش الجوخدار على موجوده ولم يعط المترجم الذى هو ابن سيد استاذه شيئاً ، ولم يجد من يساعده فى إيصال حقه إليه من طائفة باب الينكجرية ، حنق منهم وخرج من بابهم وانتقل إلى وجاق العزب ، وحلف أنه لا يرجع إلى وجاق الينكجرية ما دام سليمان جاويش الجوخدار حيًّا وبَرّ فى قسمه ، فإنه لما مات سليمان جاويش ببركة الحاج سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف ، بادر

سليمان كتخدا الجاويشية زوج أم المترجم ، واستأذن عثمان بيك فى تقليده جاويشاً للسردارية عوضاً عن سليمان جاويش لأنه وارثه ومولاه ، فأحضروه ليلاً وقلدوه ذلك وأحضروا الكتاب والدفاتر وسلموه مفاتيح الخشخانة والتركة بأجمعها ، وكان شيئاً كثيراً وكذلك تقاسيط البلاد ، ولم تطمع نفس عثمان بيك فى شىء وأخذ المترجم غرضه من باب الغرب ورجع إلى باب الينكجرية ، فنما أمره من حينئذ وحج صحبة عثمان بيك سنة خمس وخمسين وأقام هناك إلى سنة إحدى وستين ، ثم حضر مع الحجاج فتولى كتخدا الوقف سنتين ، وشرع فى بناء المساجد وعمل الخيرات وإبطال المنكرات ، فأبطل خمامير حارة اليهود ، وأول عمارة له بعد رجوعه السّبيل والمكتب الذى يعلوه بين القصرين ، ثم أنشأ جامع المغاربة وعمل عند بابه سبيلاً ومكتباً وَمِيْضَأة ، وأنشأ تجاه باب الفتوح مسجداً بمنارة وصهريجاً ومكتباً ، وأنشأ مدفناً للست السّطوحية ، وأنشأ بالقرب من تربة الأزبكية سقاية وحوضاً لسقى الدّواب ويعلوه مكتب ، وفى الحطابة كذلك ، وعند جامع الدشطوطى كذلك .

ومن إنشائه أيضاً الزيادة التى بمقصورة الجامع الأزهر وهى الإيوان الكبير المشتمل على خمسين عموداً من الرخام ، تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتخذة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقى وبنى به محراباً جديداً وعمل بجواره منبراً ، وأنشأ باباً عظيماً تجاه حارة كتامة ، وبنى أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام وجعل بداخل الباب رحبة متسعة وجعل بها صهريجاً وسقاية لشرب المارين ، وعمل بها أيضاً لنفسه مدفناً وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من الرخام ، وعمل بها أيضاً رواقاً مخصوصاً لمجاورى الصعائدة المنقطعين لطلب العلم ، وجعل بابه يسلك إليه من تلك الرحبة وعمل به مطبخاً ومخادع وخزائن كتب وبنى بجانب ذلك الباب منارة .

وأنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وبنى فوقه منارة وبنى مدرسة الطيبرسية بناءً جديداً ، وجعلها مع مدرسة الآقبغاوية التى فى مقابلتها من داخل الباب الكبير الذى أنشأه تجاه القبو الموصل للمشهد الحسينى ، وهو عبارة عن بابين عظيمين وعمل على يمينهما منارة وفوقهما مكتباً وبداخلها عن يمين السالك بظاهر الطيبرسية ميضأة ، وأنشأ لها ساقية لخصوص إيصال الماء ، إليها ، وعمل أيضاً رواقاً للبغداديين والهنود بداخل هذا الباب وأرخ بعضهم ذلك بقوله :

تبارك الله باب الأزهر انفتحا ... وعاد أحسن مما كان وانصلحا

تقرّ عيننا إذا شاهدت بهجته ... باخلاص بانيه للعلْماء والصلحا[1]

وادخل على أدب تَلْقِ الهُداة به ... قد قرّروا حُكْمًا ميزانها رجحا

بالباب قد بدأ الأكوان أرَّخه ... بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

وأنشأ رواقاً للمكاويين وللتكروريين ، وبنى جامع المشهد الحسينى وعمل به صهريجاً وزاد فى مرتباته وفى مرتبات الأزهر ، ورتب لمطبخه فى خصوص شهر رمضان كل يوم خمسة أرادب أرز أبيض وقنطار سمن ، وغير ذلك من اللحم والزيت والوقود .

وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعاً وصهريجاً وحوضاً وسقاية ومكتباً ورتب فيه تدريساً وكذلك / فى جهة الأزبكية بالقرب من كوم الشيخ سلامة وعَمّر المسجد الذى ٥٤ بجوار ضريح الإمام الشافعى فى مكان المدرسة الصلاحية ، وعمل عند باب قبة الإمام الصهريج والمقصورة الكبيرة التى بها ضريح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فيما بين المسجد

---

(١) قوله باخلاص بوصل الهمزه ، وقولة للعلْماء بتسكين اللام بعد العين للوزن انظر الجبرتى ٦/٢ ط الشرفية القاهرة .

ودهليز القبة ، وقد أزيلت الآن عند هدم المسجد وإرادة تجديده ، وفرش طريق القبة بالرخام الملوّن وجعل من داخل الدهليز البرانى بوابة كبيرة وعمل على الدهليز البرانى من كلا الجهتين بوابتين .

وعَمّر أيضاً المشهد النفيسى والمسجد وبنى الضريح وبنى مشهد السيدة زينب بقناطر السباع ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية والجامع والرباط تجاه عابدين ، وكذا جامع أبى السعود الجارحى ، ومسجد شرف الدين الكردى بالحسينية والمسجد الذى بخط الموسكى ، وبنى للشيخ الحفنى داراً بجواره وجعل لها باباً يوصل إليه .

وعمر المدرسة السيوفية المشهورة بالشيخ مطهر بخط باب الزهومة ، وبنى لوالدته بها مدفناً ، وأنشأ خارج باب القرافة حوضاً وسقاية وصهريجاً وجدد المارستان المنصورى ، وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التى كانت بأعلى الفسحة من خارج ولم يعد عمارتها ، بل سقف قبة المدفن فقط وترك الأخرى مكشوفة ، ورتب له خيرات زيادة عن البقايا القديمة .

ومن عمائره أيضاً دار سكنه التى بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع ، وإنشاآته كثيرة جداً حتى اشتهر بذلك وسمى صاحب الخيرات والعمائر فى مصر والشام والروم ، وعدة المساجد التى أنشأها وجددها وأقيمت بها الجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً غير الزوايا والمدارس والأسبلة والسقايات والمكاتب والحيضان والقناطر والرباطات والجسور .

وكان له فى هندسة الأبنية وحسن وضع العمائر ملكة ، يقتدر بها على ما يرومه من الوضع من غير مباشرة ولا مشاهدة ، ولو لم يكن له من المآثر إلا ما أنشأ بالجامع الأزهر والمشهد الحسينى والزينبى والنفيسى لكفاه ذلك .

ولم يزل هذا شأنه إلى أن عظم أمر على بيك وأخرجه منفياً إلى الحجاز وذلك فى أوائل شهر القعدة سنة ثمان وسبعين ومائة وألف هـ ، فأقام بالحجاز اثنتى عشرة سنة ، ثم لما سافر يوسف بيك أميراً بالحج صمم على إحضاره معه إلى مصر ، فأحضره وذلك فى سابع شهر صفر سنة تسعين ومائة وألف ، وقد استولى عليه المرض فمكث فى بيته مريضاً أحد عشر يوماً ومات .

وكانت جنازته حافلة حضرها العلماء والأمراء والتجار ومؤذنوا المساجد وأولاد المكاتب وصلى عليه بالأزهر ودفن فى مدفنه الذى أعدّه لنفسه بالأزهر عند الباب القبلى ، غير أنه عفا الله عنه كان يقبل الرشا ، ويتحيل على مصادرة بعض الأغنياء فى أموالهم ، واقتدى به فى ذلك غيره حتى صارت سنة مقررة وطريقة مسلوكة ليست مستنكرة وغير ذلك .

وكان رحمه الله مربوع القامة أبيض اللون مسترسل اللحية ويغلب عليها البياض معجباً بنفسه يشار إليه بالبنان انتهى .

أرمنــت

مدينة قديمة بالصعيد الأقصى كانت تعرف بسرمنت وفى أعصر الفراعنة كانت تسمى هيرمنطيس ، وهى واقعة فى أرض مستوية فى غربى النيل على بعد ستين متراً وفى الجنوب الغربى لمدينة طيبة على بعد ميريا متر ، وهى قليلة النخيل وبها جامع بمنارة مرتفعة وأرضها صالحة للزرع .

وكانت مدينة هيرمنطيس فى الأزمان القديمة رأس مدرية غير مديرية طيبة كما اتفق على ذلك استرابون وبلين وبطليموس ، وفى زمن القياصرة كانت تضرب فيها المداليات كما كانت تضرب فى غيرها ، وكان فيها فرقة من العساكر الرومانية وأسقفية بقيت زماناً طويلاً ذكر منهم فى تاريخ النصرانية جماعة وإلى الآن يسكنها جماعة كثيرة من الأقباط ، وقبر مارى جرجس الذى هو من أكبر المحترمين عند النصارى باق بها إلى الآن .

وفى كتب الفرنساوية أن عندها فى جهة الشمال على بعد أربعمائة متر من المئذنة معبداً قديماً مصرياً منسوباً لجوبتير هيرمونيت بجوار عزبة ملحقة بالمدينة ، وهو من آثار مدينة هيرمنطيس القديمة وكان حول هذا المعبد خراب طوله ١٠٠٠ متر تقريباً ، وهو يدل على أن المدينة كانت فى غاية العظم ، وحوله أيضاً أثر سور قديم وفى جهة الجنوب حوض من الحجر

وفى محوره على اليمين والشمال آثار متفرقة فى آخرها أثر باب ، والغالب أن الطريق التى على إستقامة المحور هى أحد شوارع المدينة القديمة ، وهناك أثر بناء على بعد مائتى متر فى جنوب المعبد يظهر أنه محل كنيسة أو دير ، وذلك المعبد باق على معالمه ظاهر على الأرض بخلاف غيره من المعابد ، فمنها ما هو مردوم ومنها ما هو متخرب ضاعت معالمه أو بعضها ، وطول هذا المعبد ٤٦ متراً وعرضه ١٨ متراً وأعظم إرتفاع أعمدته ١٣٫٥٠ متراً وقطره متر وستة أجزاء من مائة ، وهو مبنى من الحجر الصوان كغيره من المعابد وسقفه من حجارة متلاصقة طول الواحد منها خمسة أمتار وعرضه متران ، وعلى بعضها كتابة قديمة فى سطوح لحاماتها الداخلة محفوظة إلى الآن تدل على أنها / استعملت قبل بناء هذا المعبد فى معابد أخرى ، ثم نقلت منها إليه ويشاهد أيضاً مثل ذلك فى كثير من المعابد . ٥٥

وأما النقوش التى على حيطانه فقد حصل لها بعض تلف ، يظهر أنه بسبب هدم بعض حيطان كانت ملحقة به ، وأعمدته ليست على صفة واحدة بل أصغرها فى دهليزه ، وأكبرها فى الجزء الخارج ، وأوسطها فى السور الوسط ، بخلاف غيره من المعابد وعدد أعمدة الدهليز ١٨ وأعمدة السور الوسط ١٤ وأعمدة الجزء الخارج ٦ ، وفى داخل المعبد ثلاث أود ارتفاع الواحدة منها ٧ أمتار وكان حوله أسوار تحيط به .

وهاك نسب تلك الأعمدة بالنسبة للمدول أعنى نصف قطر قاعدة العمود :

ففى المعبد		وفى الوسط		وفى الخارج	
بدن العمود	٩	بدن العمود	١٢	بدن العمود	١١
والتاج	٢	التاج	٢	التاج	٢
والصحفة	٢	الصحفة	٢	الصحفة	٣
وما فوقها	٣	والعمود مع الصحفة	١٦	العمود والصحفة	١٦
والعمود بالصحفة	١٣	وما فوق الصحفة	٢	ما فوق الصحفة	٢
والطريقة كلها	١٦	الطريقة كلها	٢٠		

فعمود الوسط يخالف عمود الخارج فى نسب البدن والصحفة مع بقاء الطريقة والمدول فى أحدهما وينقص عنه فى الثانى بقدر السدس تقريباً ، ويرى فى النقوش التى فوق أودة العبادة أن المقدسة أزيس ترضع ولدها هربوكرات ـ أو هورروس ـ وهى تارة فى صورة إنسان وتارة رأسها رأس بقرة ، وكذلك صور جملة من النساء ما بين متأهلة لإعطائه ثديها ومستعدة لخدمته وقابضة بيدها عليه ، وتشاهد أزيس على سرير مزين بأرجل السبع ورأسه ، وعلى يمين حامل وسط السرير وشماله بقرة يرضعها طفل .

وفى مقابلة هذه النقوش نقوش أخرى ، ترى فيها أزيس فى حالة الوضع وحواليها نسوة متهيآت لخدمتها ، ومن جملتهن مرضعة وعندها جعل ناشر جناحيه وأمامه كرة يظهر أنها تعلو على الطفل ، وفى أعلى هذه الصورة ١٤ باشقا رؤوسها رؤوس نساء يسبقها نسر مسلحة

أرجله ، وفى سقف محل العبادة نقوش عجيبة فى شمالها وجه ثور وعلى يمينها عقرب وهاتان الصورتان أعظم جميع الصور فى الكبر .

وبينهما فى وسط النقوش رجل فى مركب وجهه جهة الثور ، وإحدى ذراعيه مرفوعة والأخرى منخفضة وفى أمامه وخلفه كبشان يسير أحدهما عكس مسير الأخر وباشق رأسه رأس كبش وجعلان أجنحتهما أجنحة باشق ، ثم صورة صغيرة جالسة فى مركب ، وجميع هذه الرسوم محوّطة من ثلاث جهاتها بصورة إمرأة منحنية ملقية ذراعيها وجسدها عبارة عن شريط مرسوم عليه عدة كور وصور جاثية على ركبها .

وجميع هذه الرسوم تدل على منطقة البروج وعلى صورة الثور والعقرب المميزين عن غيرهما بالكبر ، وهما البرجان المتقابلان فى خط نصف منطقة البروج ، يعنى إذا فرض أن الثور يوافق أحد الاعتدالين فيكون العقرب موافقاً للاعتدال الثانى ، ولكون هذه الرسوم دالة على الاعتدالين كانت أزيس عند المصريين إشارة إلى خصوبة الأرض ، وهوروس أو هربوكرات إشارة للمحصولات الأرضية الناشئة من اجتماع أزيس وأزريس ، ومن هنا يظهر أن رسم أزيس على حجارة السقف إشارة إلى ظهور النباتات من الأرض بعد خصبها فى وقت المنقلب الشتوى ، وتحريك الجعل الكرة إشارة إلى التناسل ، وأما كون أجنحتها أجنحة باشق منشورة فهى إشارة إلى إبتداء الشمس فى السير نحو العلوّ بسرعة ؛ لأنه فى وقت المنقلب الشتوى تكون الأيام قصيرة بالنسبة لأيام السنة .

وكان المصريون يجعلون إشارتها فى تلك الحالة صورة شاب صغير ، وحيث إنها من إبتداء هذا الوقت تأخذ فى الصعود إلى النصف الأعلى من الكرة اختاروا أجنحة الباشق الذى هو إشارة إلى الشمس للدلالة على سيرها ، وأما إرضاع هوروس المرسوم فى مواجهة وجه / أزيس فهو إشارة لنمو النبات برضاعه من الأرض ولزيادة طول الأيام بعد المنقلب الشتوى ، وفى هذه الحالة يرى فى صورة طفل يرضع البقر ثم يصير كبيراً ويشاهد على فخذى أزيس وهي تعطيه ثديها ويرضعه بعد ذلك إمرأتان رأسها رأس بقر ، ثم يرى على أفخاذ أربع نسوة بعد كبره ، وفى هذه الحالة يرى أنه واضع أصبعه على فمه ، وعلى صدره قلادة وكل ذلك دلالة على تنقله من درجات الصغر .

٥٦

وأما الرسوم التى على باب محل العبادة ، فيظهر أنها تدل على المنقلب الصيفى ، فإن الباشق الناشر جناحيه إشارة إلى الشمس والتاج المتوج به إشارة إلى القدرة ، ويدل ذلك على أن الشمس فى غاية قدرتها ، وعيدان اللينوفر تدل على فيضان النيل الذى مبدؤه المنقلب الصيفى ، والسبع المسلح إشارة إلى ذلك أيضاً ، لأنه أن فرض أن الاعتدال الخريفى حصل فى برج الثور والاعتدال الربيعى فى برج العقرب كان المنقلب الصيفى فى برج الأسد وما ذكرناه سابقاً يدل على مدة فلكية ، وهي المدة التى كان فيها الثور فى محل أحد الاعتدالين والأسد فى المنقلب الصيفى .

وحينئذ فمعبد أرمنت بنى للدلالة على الأوقات الأربع المذكورة بين المنقلبين والإعتدالين ، ثم أنه يلزم التنبيه على أن أبعاد هذا المعبد بينها وبين الذراع العتيق نسبة صحيحة تظهر من هذا الجدول .

عرض المعبد من الأمام	١٨٫٠٤١ = ٤٠	ذراعاً
عرضه من خلف	١٣٫٠٧٠ = ٣٠	ذراعاً
عرض محل العبادة	٨٫٠٠٤ = ١٨	ذراعاً
طولـه	١٧٫٩١٦	ذراعاً
ارتفاع الأعمدة الخارجة	١١٫٠٤٥ = ٢٤	ذراعاً
ارتفاع الأعمدة الوسطى	٩٫٠٦١ = ٢٠	ذراعاً
ارتفاع الصحفة	١٫٣٨١ = ٣	ذراعاً

وهكذا باقى الأجزاء ولم يستدل إلا على حوض المقياس فقط وأبعاده هى :

طول العرض	٣٠٫٠٠٢ = ١٠٠	قدم
عـرضه	٢٥٫٨١٧ = ٨٤	قدم
طول الدرجة النازلة	١٢٫٠٦٦ = ٤٠	قدم
عـرضها	٠٫٠٩٧	قدم

وهكذا باقى الأجزاء انتـهى .

وأرمنت الآن من قسم إسنا وبينها وبين النيل نحو خمسمائة متر ومنازلها على التل القديم الذى به المعبد وفيها بنية جيدة وثلاث مساجد جامعة بمنارات ومعامل دجاج وكوهرجله وبدائرها حدائق ذات بهجة وأشجار ونخيل كثير ، وفى جنوبها عمارة ابتنى بها المرحوم مصطفى باشا أخو الخديوى إسماعيل باشا مسجداً فاخراً بمنارة ، وفيها له فوريقتان لعصر القصب وعمل السكر وبها سويقة بدكاكين عامرة بالعقاقير والبز ، وبها مساكن مستخدمى الجفلك .

ومن تلك العمارة إلى البلد طريق متسع محفوف بالأشجار من الجانبين وفى شمال البلدة بنحو ألف متر قرية المريس ، وفى جنوبها بنحو ألف وأربعمائة متر ناحية الريانية وسوقها كل يوم اثنين وفيها تباع الكلاب المشهورة بالأرمنتية ، وهى كلاب كثيرة الشعر جسيمة صالحة للتأدب والحراسة ، وقد إزدادت عماريتها بوجود الجفالك السنية بها حتى عادت لها عادتها القديمة ، فهى معتبرة قديماً وحديثاً ، وأكثر أهلها مسلمون ونشأ منها أفاضل وعلماء ذكر منهم فى الطالع السعيد جماعة منهم .

ترجمة ابن قدس الملقب بالشمس

الشيخ أحمد بن محمد[1] هبة الله بن قُدس الشافعى الملقب بالشمس كان شاعراً مجيداً وناثراً فائقاً تولى الحكم بمدينة قوص ومن كلامه :

حاشاكُمُو أن تقطعوا صلَة الذى أو تصْرِفُوا عَلَم المعانى أحْمدا
هو مبتدا نُجباء أبنا جنسه والله يأبى غير رفْع المبتدا
أغريتُموا الزّمن المشتّت شمله وحذفتموه كأنه حرف النِّدا

ترجمة ابن الأسعد

ومنهم عبد البارى بن أبى على الحسن ينعت بالكمال ويعرف بابن الأسعد البكرى كان فقيهاً بمذهب مالك ومذهب / الشافعى حفظ كتاب ابن الحاجب فى مذهب مالك والتعجيز فى مذهب الشافعى ، ويحكى أن قاضى القضاة القشيرى قال له : اكتب على باب بلدك أنه ما خرج منها أفقه منك ، وكان متورعاً زاهداً .

٥٧

(١) انظر الطالع السعيد للأدفوى /١٣٥ - ١٤٢ الترجمة والشعر - ط الدار المصرية للتأليف والترجمة

ومنهم الحسن بن عبد الرحيم بن الأثير القرشى محيى الدين الأرمنتى الفقيه الشافعى ، كان من الصالحين الفقهاء العلماء العاملين ، وتولى التدريس بمدرسة أسيوط سنين ، وسافر من أسيوط فتوفى فى الطريق وحمل إلى مصر ودفن بسفح الجبل المقطم ، وكان ممن يتبرك به الناس ويقصدون الدعاء منه وكان وفاته فى سنة سبع وتسعين وستمائة انتهى .

وذكر صاحب حسن المحاضرة أن منها سراج الدين يونس بن عبد المجيد الأرمنتى الشافعى ، ولد فى المحرم سنة أربع وأربعين وستمائة ، واشتغل بقوص على المجد ابن دقيق العيد وأجازه بالفتوى ، ثم ورد مصر فأخذ عن علمائها وصار فى الفقه من كبار الأئمة مع فضيلته فى النحو والأصول وتصدر للإقراء ، وصنف كتاب الجمع والفرق ، والمسائل المهمة فى اختلاف الأئمة ، لسعه ثعبان بقوص فمات فى ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة رحمه الله تعالى .

وقد أنشأ الخديوى إسماعيل باشا بأرمنت ديوان تفتيش لزراعته وفوريقة فرنساوية بعصارتين لعصر القصب وعمل السكر بأنواعه ، وهى مستوفية الآلات والوابورات مثل فوريقة أبى كساه وغيرها ، إلا أنه ليس بها وابور الروم الذى يستخرج به السبيرتو ، فلذا ينقل منها العسل نمرة ثلاثة إلى فوريقة المطاعنة لاستخراجه هناك ، ومتحصل الفوريقة يوميا ثمانمائة وثلاثة وثلاثون قنطاراً من السكر الأبيض الحب ، وأربعمائة وثمانية وعشرون قنطاراً من السكر الأحمر الأقماع ، ومائتان وأربعة عشر قنطاراً من العسل ، ولها سكك حديد زراعية لنقل القصب من الغيطان ، وفرع متصل بها وبالنيل عند مرسى المراكب لنقل الآلات الواردة بطريق البحر ، وفرع يوصل إلى المطاعنة وهناك على البحر وابورات لسقى المزروعات قوة كل ستون حصاناً .

أسفون

بالسين أو بالصاد بعد الهمزة . قرية من قرى المطاعنة بمديرية إسنا فى بحريها إلى الغرب بنحو عشرة آلاف متر ، وفى الجنوب الغربى للكيمان بنحو ثلاثة آلاف متر ، وفيها جامع بمنارة مبنى بالآجر وثلاثة معامل دجاج ونخيل كثير ، وأكثر أهلها مسلمون وتكسبهم من الزرع ويمر عليها جسر أسفون السلطانى ، وفيها بيت مشهور بمضيفة متسعة لعائلة يقال لهم : بيت القاضى ، منهم ناظر قسم وحاكم خط .

وفى خطط المقريزى : أن أسفون كانت من أحسن بلاد مصر وأكثر نواحى الصعيد فواكه ، وكان بها دير كبير رهبانه معروفون بالعلم والمهارة ، فخربت أسفون وخرب ديرها ، وهذا آخر أديرة الصعيد ، وهى كلها متلاشية آيلة إلى الدثور ، بعد كثرة عمارتها ووفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم وكثرة ما كان يحمل إليهم انتهى .

مطلب ذكر علماء أسفون

وإليها ينسب جماعة من العلماء ذكر فى الطالع السعيد[١] منهم : الحسين بن محمد بن هبة الله الشرف المعروف بقطينة الأسفونى ، شاعر ناثر له حكايات مشهورة ، وطرائف مأثورة ، منها أنه طلع إلى مصلى يوم عيد النحر وإذا بجانبه شخص ، فلما ذكر قصة الذبيح بكى ذلك الشخص زماناً طويلاً فالتفت إليه وقال له : ما هذا البكاء الطويل أما سمعت فى العام الماضى أنه سلم وما أصابه شئ ، ومات له صاحبان خصيصان فقال الشهاب أحمد بن أبى الحسن الأسفونى ما لقطينة تأخر عنهما ؟ فبلغه ذلك فنظم هذين البيتين :

ما تأخرت عنكما[٢] عن ملال   غير أنى أرومُ صيْدَ الشّهاب
فأنا مثل فارس البحر لابـــ   ـــدَّ بظفرى أصيبهُ[٣] أم بنابى

وكان قد وقع بينه وبين نجم الدين بن يحيى الأرمنتى فهجاه بقصيدة منها .

يا إلهى أرحتها منه فى الحكـــ   ـــم أرحها من ابنه فى الخطابه

---

(١) انظر الطالع السعيد / ٢٢٦ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) (٣) فى الطالع ٢٢٨ : عنهما ، أصيده أو بنابى .

فقال له الخطباء ياقطينة جماعة جاءوا من أرمنت يريدون قتلك أرسلهم ابن يحيى ونحن ما تقدر على ردّهم انج بنفسك ، فخرج من أسفون ولم يعلم له خبر .

ومنهم حمزة بن محمد بن هبة الله بن عبد المنعم الصاحب نجم الدين الأسفونى ، سمع الحديث من الشيخ تقى الدين القشيرى وحضر مجلس إملائه فى سنة تسع وخمسين بقوص ، وتقلب فى الخدم الديوانية بقوص فكان مشارفا ثم صاحب ديوان ، ثم ناظرا وبنى مدرسة ، ثم صار ناظرا بمصر ثم ولاّه السلطان الملك المنصور الوزارة فأقام مدة لطيفة .

ويقال : إن الشجاعى أعطى غلامه ألف دينار وأنه دس عليه سمًّا فقتله ، وكان يحب القرآن والحديث قال : ورأيت بخطه ربعة[1] بقوص ، وكان محبا للعلم وأهله ، ولما كان ناظرا حصل بينه وبين أبى طالب ابن النابلسى صَوْرةٌ[2] فتكلم الكمال محمد بن شائر القوصى الإخميمى ببيتين وهما : / ٥٨

ابا طالبٍ ما أنتَ قِرنٌ لحمزةٍ ... لأنكُما فى الدِّين مختلفان
دَعاك النبىّ الهاشمى فلم تُجبْ ... وحَمزة لبّاه بكل لِسان

وذكره الشيخ عبدالكريم فى تاريخه وأنشد من شعره قوله :

ولقد أحنُّ إلى العقيق ويثرب ... وقُبارهُنَّ منازل الوُرَّادِ
وأحبهنّ وليس هنّ منازلى ... وأودّهنّ وليس هنّ بلادى

وقال توفى فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

(١) الربعة فى الأصل صندوق أجزاء المصحف . والمقصود به هنا : قطعة من القرآن . القاموس المحيط ٢٦/٣ .

(٢) أى قطيعة ـ من صار الحاكم الحكم : أى قطعة ـ انظر القاموس المحيط ٧٢/٢ والأساس ٣١/٣ واللفظ فى الأصل بالسين والتصويب والترجمة أيضا فى الطالع السعيد : ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

ترجمة عبدالقادر الأسفونى

ومنهم عبدالقادر بن عبدالملك ينعت بالشرّف الأسفونى ويعرف بابن الغضنفر ، كان شاعراً أديباً خفيف الروح كثير المجون والخلاعة ، حكى عنه : أنه كان جالسا على باب مسجده بأسفون وقد أذن بالعصر وشخص من أهل أسفون توضأ وجاء ليدخل المسجد فوجد المترجم جالسا ، فقال : العصر أذن به وأنت قاعد ما تقوم تتوضأ فقال له : قعودى خير من صلاتك بغير وضوء ، فنفض ذلك المتوضئ لحيته وهى مبتلة ليريه أنه متوضئ فقال له المترجم : نَجستَنى ، وحكاياته وأشعاره كثيرة ، وله مشاركة فى النحو ، قرأ عليه السراج عمر الأسنوى وتأدب به توفى بعد الثمانين وستمائة .

ترجمة على علاء الدين الأسفونى

ومنهم على بن أحمد بن الحسين المنعوت علاء الدين الأسفونى ، كان من الأذكياء والأدباء الشعراء خفيف الروح حسن الأخلاق ، كريما جوادا اشتغل بالفقه على الشيخ بهاء الدين القفطى ، وتأدب على ابن الغضنفر الأسفونى والجلال بن شواق الأسنوى وغيرهما ، وله يد فى الحساب وكرم جزيل وطبع جميل كأنه خلق من النسيم ، يهوى الجمال المطلق يأخذ بمجامع قلبه كل وجه وسيم ، لا يرى إلا ذا ارتياح ، يميل طربا ويميد كما يفعل الغصن الرطيب عند هبوب الرياح .

وهو فى الآداب فارس ديوانها وفى القصائد أبو حسانها ، الاجتماع به يذهب الأتراح ويجلب الأفراح ، كانت فيه فتوّة ومروءة وإنسانية ، وألجأته المكارم إلى الدخول فى الخدم

السلطانية فما غيرته عن حاله ولا أحالته عن جميل خلاله ، ومن كلامه :

يا هاجرين أما كفى هجران ذل الهوى فى الحالتين هوان
نمتم قريرين الجفون من الكرى والطرف ساه بعدكم سهران

وكان رحمه الله واسع الصدر كثير الاحتمال متواضع النفس ، جلس شاهدا بالوراقين ثم بالقاهرة ووقف خدام الضريح النبوى على ساكنه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، إلى أن توفى فى شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة إنتهى .

ترجمة الشيخ محمد الأصفونى

وينسب إلى قرية أصفون[1] هذا الشيخ محمد الأصفونى الذى ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع حيث قال هو : محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن فهد التقىّ أبوالفضل بن النجم أبى النصر بن الجمال أبى الخير ابن العلامة أقضى القضاة الجمال أبى عبدالله الهاشمى العلوى الأصفونى الشافعى ويعرف بابن فهد ، ولد فى عشية الثلاثاء خامس ربيع الثانى سنة سبع وثمانين وسبعمائة بأصفون الجبلين من صعيد مصر الأعلى بالقرب من إسنا ، وكان والد سافر إليها لاستخلاص جهات موقوفة على أمه خديجة ابنة النجم الأصفونى فتزوج هناك بابنة عم جده النجم المشار إليه واسمها : فاطمة ابنة أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم القرشية المخزومية فولد له منها هناك التقى ، ثم انتقل به أبوه فى سنة خمس وتسعين إلى بلده مكة على طريق القصير ، فحفظ بها القرآن والعمدة والتنبيه وألفية النحو ، وسمع من الإبناسى والجمال ابن ظهيرة ، وكتب على من دب ودرج .

فكان ممن سمع عليه ابن صديق والزين المراغى وأبواليمن الطبرى والشمس الغرّاقى والشريف عبدالرحمن الفاسى وأبوهريرة بن النقاش وغيرهم ، وكذا سمع بالمدينة المنورة من المراغى أيضا ورقية ابنة ابن مزروع ، وعبدالرحمن بن على الزردندى ولقى باليمن المجد اللغوى ، والموفق أبا بكر الأزرق وآخرين ، فسمع منهم وأجاز له خلق كثيرون وتميز فى هذا الشأن وعرف العالى والنازل وشارك فى فنون الأثر .

---

(١) بالسين أو الصاد كما ذكر المؤلف راجع «أسفون» من هذا الكتاب .

وكتب بخطه الكثير واجتمع له من الكتب ما لم يكن فى وقته عند غيره من أهل بلده وكثر انتفاع المقيمين بها فكانت أعظم قربة ، وله فى السيرة النبوية عدة تصانيف منها : النور الباهر الساطع من سيرة ذى البرهان القاطع ، قرأته عليه بمولد النبى صلى الله عليه وسلم بشعب بنى هاشم من مكة ، وكذا فى الأذكار أوسعها الجنة بأذكار الكتاب والسنة ، وله المطالب السنية العوالى بما لقريش من المفاخر والمعالى ، وبهجة الدماثة بما ورد فى فضل المساجد الثلاثة ، وطرق الإصابة بما جاء فى الصحابة ، ونخبة العلماء الأتقياء بما جاء فى قصص الأنبياء ، وتأميل نهاية التقريب ، وتكميل التهذيب / بالتذهيب وهو كتاب حافل ، وذيل على طبقات الحافظ ، وأفرد زوائد الكمال الدميرى من النسخة الأخيرة بحياة الحيوان على النسخة الأولى إلى غيرها ، وله عمدة المنتحل وبلغة المرتحل ، كبشرى الورى مما ورد فى حرا ، واقتطاف النور مما ورد فى ثور ، والإبانة مما ورد فى الجعرانة ، قرأتها عليه بمحالها من مكة ومن كلامه .

٥٩

قالت حبيبة قلبى عندما نظرت دموع عينى على الخدين تستبق
فيم البكاء وقد نلت المنى زمنا فقلت خوف الفراق الدمع يندفق

مات بمكة صبيحة يوم السبت سابع ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وثمانمائة ، وصلى عليه بعد صلاة العصر عند باب الكعبة ، ثم دفن بالمعلاة عند مصلب ابن الزبير رضى الله عنهما وكنت ممن شهد الصلاة عليه انتهى .

إسكندرية

ثغر عظيم أشهر ثغور القطر المصرى وأشهر مدنه وأكبرها وأكثرها سكان ما عدا القاهرة ، وموقعها فوق البحر الرومى فى الشمال الغربى للقطر.

وفى القاموس الإسكندرية ستة عشر موضعا منسوبة إلى الإسكندر بن الفيلسوف بكسر الهمزة وتفتح ، ملك قتل دارا وملّك البلاد ، منها بلد ببلاد الهند وبلد بأرض بابل وبلد بشاطئ النهر الأعظم وبلد بصغد سمرقند وبلاد بمرو واسم مدينة بلح والثغر الأعظم ببلاد مصر ، وقرية بين حماة وحلب ، وقرية على دجله قرب واسط . منها الأديب أحمد بن المختار بن مبشر ، وقرية بين مكة والمدينة ، وبلدة فى مجارى الأنهار بالهند وخمس مدن أخرى اهـ .

والذى يخصنا هنا منها واحد . وهو ثغر بلاد مصر ، وقد أفردنا الكلام عليه فى مجلد مخصوص فانظره[١] .

(١) انظر الجزء السابع من الخطط التوفيقية ط الهيئة .

مدينة الإسماعيلية

هذه المدينة واقعة على ترعة البرزخ فى منتصف المسافة بين مدينة السويس ومدينة بورت سعيد ، على فرع الترعة الحلوة الذى وصل ترعة الإسماعيلية بترعة البرزخ وبركة التمساح ، واقعة أمامها ومتصل بها فرع سكة حديد لسهولة الوصول بينها وبين بلاد القطر المصرى .

وفى أول الأمر كانت عبارة عن جملة أخصاص كان يقيم بها عمال ترعة البرزخ من مهندسين وغيرهم ، ثم لما اتسع ميدان الأعمال وكثر العمال المصريون حدث بقربها قرية ريفية وتعرف الآن بقرية العرب وترعة مصلحة البرزخ وتنظيمها فى سنة ١٨٦٤م ، فأحدثت فيها شوارع وحارات مستقيمة متعامدة وميدان وحديقة للنزهة واسبتالية للمرضى ، وسراية على ذمة الحكومة المصرية لإقامة المحافظ وخدمة المحافظة وقصر للخديوى ، وبقربها جعل وابور مياه فى بحريها على بعد منها لأجل أخذ المياه الحلوة من الترعة الحلوة وإرسالها إلى مدينة بورت سعيد بمواسير من الحديد .

وفى هذه السنة بنى الوابور ومدينة بورت سعيد وكانت سكانها تزداد مع تقدم أعمال ترعة البرزخ ، ورغبت الناس فى سكناها ، وبنيت بها المبانى الفخيمة وتعددت بها الدكاكين والخانات والقهاوى ، وبقيت كذلك إلى أن تمت ترعة البرزخ ، فتحول أكثر سكانها إلى بورت سعيد . وانتقلت إليها كذلك المحافظة وعمالها ، وكذا عمال إدارة ترعة البرزخ حتى صارت فى الدرجة الثانية بعد مدينة بورت سعيد ، ومع ذلك فهى من أحسن مدن البرزخ والناس يترددون من بورت سعيد ومن جميع القطر المصرى بواسطة السكة الحديد والترعة الإسماعيلية وقد تكلمنا عليها فى جزء المقدمة ، وعلى الوليمة التى عملت فيها بعد إتمام الترعة فى سنة ١٨٦٩م .

أسنـــا

قال ابن خلكان هى بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح النون وبعدها ألف بليدة صغيرة من أعمال القوصية بالصعيد الأعلى من مصر اه .

وفى القاموس إسنا بالكسر ويفتح بلد بصعيد مصر ، وفيه أيضا أن بصعيد مصر قرية تسمى أشنى بضم الهمزة وشين معجمة مقصورا كحسنى وهى غير إسنا بالمهملة انتهى .

وفى كتب الفرنساوية أن إسنا مدينة كانت تسميها الرومانيون لينوبوليس واسمها القديم المصرى سنا ، وكانت كما هى الآن رأس مديرية . فهى مدينة عظيمة قديما وحديثا بها حوانيت كثيرة وخانات ويجلب إليها من جميع بضائع القطر من القاهرة وخلافها سيما ، مصنوعات الأقاليم القبلية كالبرد والأردية المسماة عندهم بالشقق رجالية وحريمية .

وهى واقعة على الشاطئ الغربى للنيل بين طيبة وأسوان فى نهاية وادى النيل ، ومديريتها محدودة فى الشرق والغرب بسلاسل الجبال ، وفى الجهة القبلية بالشلالين وفى الجهة البحرية بالجبلين المتقاربين اللذين لقربهما من النهر لا يجد المسافر عندهما طريقا واسعة فيضطر إلى المرور من خلفها فى الصحراء .

وفى محاذاة تلك المدينة يضيق الوادى حتى لا يكون إلا ثمانية آلاف متر ، وخلف أرض الزراعة أرض رملية تأخذ فى الارتفاع قليلا قليلا حتى تصل إلى الجبل ، وهناك خلف الجبل الشرقى واد يوصل إلى البحر الأحمر وأرض تلك المدينة وكذلك جميع أراضى مديريتها مرتفعة بحيث يخشى عليها عدم / الرى عند قلة النيل .

٦٠

وفى كتب الفرنساوية أنها كانت زمن دخولهم هذه الديار تشرق فى غالب السِّنين بسبب هجر الترع القديمة التى كانت تروى منها ، وكان لا يزرع منها إلا جزء يسير وهو ما انخفض من أرض الشاطئ الذى فى شمال المدينة بمسافة قليلة ، فلما شملتها عناية العائلة المحمدية باحداث الترع والخلجان والجسور اللازمة ، كما شملت غيرها من أراضى القطر أمن ريّها وتم خصبها وانصلحت الأراضى التى كانت قد كستها أيدى الإهمال جلابيب الرمال ، حتى اضمحلت تلك البلاد وفارقها أهلها ، وذلك أنه عمل لها ترعة الشماخية وجعل فمها قريبا من ناحية البصيلية فى قبلى إسنا بخمس ساعات فحصل منها النفع العظيم .

وفى شمال فم تلك الترعة ترعة قديمة متسعة يقال لها : القنان يظهر تجاه فمها فى مجرى النيل زمن التحاريق أحجار وصخور ، ربما كانت أثر شلال أو رأسا جعلت قديما لتحويل النيل إلى ذلك الفم .

ويقال : إن هذه الترعة كانت لرى جزء من الأرض يقال له : وادى الجن بجوار أطيان إسنا وأسفون تبلغ مساحته قريبا من أربعين ألف فدان ، ولما هجرت تلك الترعة زحفت الرمال على هذه الأرض فأفسدتها ، ثم فى زمن المرحوم العزيز محمد على عملت لهذا الحوض ترعة أسفون الغربية فاصلحت بعضه ، وفى مدة المرحوم سعيد باشا أعطيت أراضى الجن وأسفون والمطاعنة لدولتلو عبد الحليم باشا ، ثم دخلت فى ملك حضرة الخديو إسماعيل ورتب لها بناحية المطاعنة وابور لسقى المزروعات الصيفية ، وتجددت بها مساكن للخدمة والمهندسين والتلغرافية ، ومن هذه الانشاآت الخيرية حسنت أحوال أهالى تلك الجهات وانصلحت جميع أراضى وادى الجن وخلافها .

ثم إنه كان يزرع فى ضواحى إسنا القطن الجيد والنساء يغزلنه وينسجنه ثيابا وتباع لعرب تلك البلاد ، ولم يكن ذلك خاصا بنساء المدينة بل ذلك فيما جاورها من البلدان أيضا ، وأما أقمشة الصوف فتصنع فى جميع بلاد مصر .

وقد ذكر تلك المدينة بطليموس واسترابون وغيرهما فى مؤلفاتهم قالوا : وكان للرومانيين بها فرقة من العساكر الرماة وقد تكلم عليها أيضا الادريسى وأبو الفداء قليلا ، ونقل المقريزى عن الأدفوى : أن أرض إسنا كان يتحصل منها فى كل سنة أربعون ألف أردب من الفاكهة ، واثنا عشر ألف أردب من الزبيب ، ويقال : كان فيها اثنا عشر ألف منزل وسبعون حارة كبيرة .

ترجمة ابن الصوفي

وفي خططه أيضا أن ابن الصوفي العلوي وهو : إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن عمربن على ابن أبي طالب رضى الله عنه ، خرج بالصعيد ودخل إسنا في ذى القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين فنهبها وقتل أهلها ، فبعث إليه ابن طولون بجيش فحاربوه عند ناحية هو فهزمهم ، وذلك في ربيع الأول سنة ست وخمسين ، فبعث إليه بجيش آخر فالتقيا بإخميم في ربيع الآخر فانهزم ابن الصوفي وفرّإلى الواح وترك جميع ما معه وقتلت رجالته ، فأقام بالواح سنتين ثم نزل على الأشمونين وسار إلى أسوان لمحاربة أبي عبدالرحمن العمرى فظفر به العمرى وقتل من جيشه مقتلة عظيمة ، ولحق ابن الصوفي بأسوان فقطع لأهلها ثلاثمائة ألف نخلة ، فبعث إليه ابن طولون فهرب إلى مكة فقبض عليه بها وحمل إلى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه فسار إلى المدينة ومات بها .

وذكر في موضع آخر أنه كان بإسنا آلة مائية لسقى ثلاثمائة وستين فدانا مغروسة نخيلاً وكرماً وقصباً انتهى .

وتلك المدينة على تل من التراب كما هى عادة المدن المصرية القديمة ، وبيوتها مبنية من الآجر وهو الطوب المحرق ، واللّبن وهو الطوب المضروب المجفف بالشمس والهواء ، ولها موردة عظيمة مزدحمة بالمراكب غالبا ، وقد زحف عليها النيل مراراً وأخذ من بيوتها .

وفى كتب الفرنساوية أنها كانت وقت دخولهم مصر محل إقامة حسن بيك وعثمان بيك وصالح بيك بعد الفتن التى أوجبت عداوتهم مع مراد بيك وخروجهم من القاهرة كما كان ذلك عادة جارية عقب كل فتنة ، فإن هذه المدينة كانت مأوى المطرودين وبسبب بعدها عن التخت كانت الحكام تتركهم ولا تتعرض لهم فيما يفعلونه فيها وفى أهلها ، فكانت مديرية إسنا كأنها طعمة تتركها لهم الحكومة طمعا فى الأمن من شرهم ، مع أن الغالب أن العصاة كانوا متى تحصلوا من ظلم الأهالى على ما يهيئون به أنفسهم يقوموا فى الجهات القبلية ويثيروا الفتن ويحربوا فى البلاد ، ومع ذلك فإقامتهم فى تلك المدينة كانت موجبة لها نوع العمارية من تحريك البضائع بالبيع والشراء لتحصيل أغراض هؤلاء الأمراء مما هو لازم لمعاشهم ومستلذاتهم ، فكانوا يصرفون مصارف واسعة مما يسلبونه من البلاد ، ولهذا كثرت فيها الحرف والصنائع كصنعة نسج الملاآت وأصناف الملبوسات من القطن والصوف ومعاصر زيت الخس .

ولها سوق كبير كل يوم أحد تجتمع فيه الأهالى والعرب وتباع فيه جميع السلع حتى المرجونات والمقاطف ونحوها مما يصنعه البربر من سعف النخل ، وهذا غير السوق الدائم على عادة المدن / الكبيرة ، ٦١ وفى كل سنة ترد عليها قافلة من سنار معها أنواع تجارة تلك البلاد مثل الصمغ والريش وسن الفيل ، وكان بها فى وقت الفرنساوية ثلاثمائة عائلة من الأقباط جميعهم أصحاب صنائع ، وشكل المدينة بيضاوى وأعظم طولها تسعمائة متر من الشمال إلى الجنوب ، وعرضها أربعمائة متر ، وفى وسطها ميدان طوله ثمانون مترا فى عرض أربعين وفوق كثير من بيوتها أبراج للحمام مبيضة بالجير للوقاية من الهوام .

وكانت إقامة الفرنساوية فى جنينة حسن بيك التى فى الجهة البحرية من المدينة ولذلك سميت بجنينة الفرنساوية ، والموردة قريبة منها يشاهد هنالك رصيف قديم يظهر أنه من آثار من حكموا الديار المصرية فى الأعصر الخالية ثم أهمل فتلاشى أمره ، ولذلك هجم النيل على المدينة فخرب كثيراً من بيوتها

وبربا هذه المدينة من أعظم ما يرى من مبانى المصريين وفيها إيوان محمول سقفه على أربعة وعشرين عموداً محيط كل عمود ٥ر٤٠ متر وارتفاعه ١١ر٣٠ مترا من ضمن ذلك التاج ، والأعمدة المذكورة مصطفة أربعة صفوف فوقها صحفات وأعتاب تمسكها وتحمل السقف المجعول من الحجر الذى طول الحجر منه يقرب من ثمانية أمتار وعرضه متران ، والفتحات التى بين الأعمدة قدر قطر العمود مرة ونصفا ، وفتحة الوسط ضعف ذلك ويتوصل من الإيوان إلى باب المعبد ، وفى اليمين والشمال بابان غلب عليهما وعلى الباب الوسط التراب ولذا يعسر الدخول منها ، وعمق الإيوان ٥ر١٦ مترا وعرضه ضعف هذا القدر ، وهو محوط بحيطان عالية مرتفعة إلى السقف ويأتيه النور من فراغ أعمدة الواجهة .

وفى داخل المعبد باب آخر وبعض أود خلاف محل العبادة وأرض البلد الآن ارتفعت فوق ذلك المعبد والأتربة والأنقاض وبعض البيوت فوق سقفه ، وجميع حيطانه منقوشة من الداخل بالكتابة والرسومات الفلكية ، التى هى عبارة عن البروج الأثنى عشر فى ترتيبها المعروف الآن ، وقد قيس الإيوان المنقوش فوجد قريبا من خمسة آلاف متر مسطح ، فلو فرض أن الصانع يعمل متراً كل عشرة أيام لكان اللازم خمسين ألف يوم لنقش الكل ، ثم هو إلى الآن لم يصبه شئ من الخلل ، وقد صار تخليصه من الأتربه فى زمن العزيز محمد على فوجد سالما من الخلل ووجدت نقوشه سالمة من المحو والزوال .

وقرأها بعض من يعرف الكتابة المصرية القديمة ، فتبين أنها من زمن القياصرة وفيها أسماء جماعة منهم وهم كلود واسباسيان وتيتوس وانطونان ومر قوريل وكومود وتراجان وأدريان ودوميتيان وسبتيم سوير وجيتا وقرقلا ، وأن هذا الأخير أمر بمحو اسم أخيه جيتا بعد قتله من جميع المعابد المصرية ، وقال بعضهم إن هذا المعبد يعزى إلى موريس فرعون مصر وبعضهم يعزوه إلى البطالسة اهـ .

وفى زمن الفرنساوية كان هناك معبد آخر فى شمال المدينة على بعد ثلاثة أرباع فرسخ منها وألفين وخمسمائة متر من البحر ، اختل أغلب مبانيه لحفر ما تحته بأمر إسماعيل بيك فى زمن مراد بيك زعما منه أن هناك كنزا ، واستعمل فى ذلك الأهالى زمناً طويلاً ولم ينتج منه إلا الاستدلال على سخافة عقله

وكان هذا المعبد مبنياً فوق تل صناعى ويظهر أنه كان يحج اليه فى أوقات معلومة ونقوشه كنقوش المعبد الكبير إلا أنها أقل منه اتقانا ، وقد وصفه الفرنساوية وجعلوا بعده عن المدينة ثلاثة كيلو مترات .

وفى سنة ألف وثمانمائة وأربعين ميلادية أخذت انقاضه ورُمّ بها الرصيف القديم المار الذكر قالوا : وكان أمام هذا المعبد آثار يظهر أنها بواقى عيون كانت لتوصيل ماء النيل إليه ، وعلى شاطئ النيل الأيمن فى جهة الشرق على بعد ربع فرسخ أثر معبد فوق تل مرتفع قد تخرب وفى محله كثير من الشقاف ، وذلك المعبد لم تكمل نقوشه كما أن المعبد المذكور قبله كذلك ، وبناء كل منهما بالحجارة وعلى قوانين العمائر المصرية ، ولم نذكر تفاصيلها خوف الإطالة .

وعند المدينة دير وكنيسة منعزلان عنها على بعد ثلاثة أرباع فرسخ من الجهة القبلية وكنيستها مشهورة بمقتلة النصارى ، لمقتلة حصلت هناك زمن القيصر ديولكيتان ، وديرها من أشهر الديورة عند النصارى ويحجون إليه بكثرة كان حجهم إليه فى الأزمان القديمة أكثر .

وبها مساجد عظيمة جامعة أقدمها الجامع الكبير العمرى ، ومن أشهرها جامع الضوى نسبة إلى شيخ يسمى بهذا الاسم مدفون فيه وله مقام يزار وقبة ومولد سنوى يستمر ثمانية أيام ، وعدة أهلها الآن ٧٠٠ نفس فهذه المدينة عامرة قبل الإسلام وبعده .

مطلب تراجم علماء اسنا

وظهر منها علماء كثيرون ومن علمائها ابن الإسناوى وهو كما فى دائرة المعارف جمال الدين عبد الرحمن بن على بن الحسين بن شيث القاضى الرئيس الأموى الإسنوى القوصى صاحب ديوان الإنشاء للملك المعظم عيسى ، ولد بإسنا سنة خمسمائة وخمسين هجرية وتوفى سنة ستمائة وخمس وعشرين .

نشأ بقوص وتفنن بها وقرأ الأدب وكان ورعا دينا خيراً احسن النظم والنثر ولى الديوان بقوص ثم بالإسكندرية ثم بالقدس / ثم ولى كتابة الانشاء للمعظم ، وكان يوصف بالمروءة وقضاء الحاجة وكانت وفاته بدمشق ودفن بقاسيون بتربته . ٦٢

وكانت بينه وبين المعظم مداعبات ، كتب إليه مرة أنه لما فارقه ودخل منزله طالبه أهله بما حصل له من ابن السلطان فقال لهم : ما أعطانى شيئا فقاموا إليه بالخفاف وصفعوه وكتب إليه بعد النثر فى هذا المعنى هذين البيتين :

وتخالفت بيض الأكف كأنها التصفيق عند مجامع الأعراس
وتطابقت سود الخفاف كأنها وقع المقارع من يد النخاس

فرمى المعظم الرقعة إلى فخر القضاة ابن بصاقة وقال أجبه فكتب :

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن متخلقا إلا بخلق الناس
واعلم إذا اختلفت إليك بأنه ما فى وقوفك ساعة من باس

وكفاها فخراً ولادة الإمام ابن الحاجب بها وقد ترجمه ابن خلكان فى تاريخه فقال :

ترجمة الإمام العلامة أبو عمرو عثمان بن الحاجب

هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين ، كان والده حاجباً للأمير عزالدين موسك الصلاحي ، وكان كرديا واشتغل ولده أبوعمرو المذكور بالقاهرة فى صغره بالقرآن الكريم ، ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك ثم بالعربية والقراءات ، وبرع فى علومه واتقنها غاية الاتقان .

ثم انتقل إلى دمشق ودرس بمجامعها فى زاوية المالكية وأكب الخلق على الاشتغال عليه والتزم لهم الدروس وتبحر فى الفنون ، وكان الأغلب عليه علم العربية ، وصنف مختصرا فى مذهبه ومقدمة وجيزة فى النحو وسماها الكافية وأخرى مثلها فى التصريف وسماها الشافية وشرح المقدمتين وله :

أى غد مع يدددذى حروف طاوعت فى الروى وهى عيون
ودواة والحوت والنون نونا ت عصتهم وأمرها مستبين

وهو جواب عن البيتين المشهورين وهما :

ربما عالج القوافى رجال فى القوافى فتلتوى وتلين
طاوعتهم عين وعين وعين وعصتهم نون ونون ونون

فيعنى بقوله عين وعين وعين نحو غد ويد ودد فإن وزن كل منها فع ، إذ أصل غد غدو ويد يدى ، ودد ، ددى وبقوله : نون ونون ونون الدواة والحوت والنون هو الحرف ، وله أيضاً فى أسماء قداح الميسر ثلاثة أبيات وهى :

هى فـذ وتوأم ورقيب ثم حلس ونافس ثم مسبل
والمعلى والوغد ثم سفيح ومنيح وذى الثلاثة تهمل
ولكل مما عداها نصيب مثله إن تعد أول أول

وصنف فى أصول الفقه ، وكل تصانيفه فى نهاية الحسن والإفادة ، وخالف النحاة فى مواضع ، وأورد عليهم اشكالات والتزامات تبعد الإجابة عنها .

وكان من أحسن خلق الله ذهنا ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها والناس ملازمون للاشتغال عليه ، وجاءنى مرارا بسبب أداء شهادات وسألته عن مواضع فى العربية مشكلة ، فأجاب أبلغ إجابة بسكون كثير وتثبت تام ، ومن جملة ما سألته عن مسألة اعتراض الشرط على الشرط فى قولهم : إن أكلت إن شربت فأنت طالق ، لم تعين تقديم الشرب على الأكل بسبب وقوع الطلاق حتى لو أكلت ثم شربت لم تطلق ، وسألته عن بيت أبى الطيب المتنبى وهو قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ما السبب الموجب لخفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر ، فأطال الكلام فيهما وأحسن الجواب عنهما ولولا التطويل لذكرت ما قاله .

ثم انتقل إلى الإسكندرية للإقامة بها فلم تطل مدته هناك وتوفى بها ضاحى نهار الخميس السادس والعشرين من شوّال سنة ست وأربعين وستمائة ، ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبى أسامة ، وكان مولده فى آخر سنة سبعين وخمسمائة بإسنا رحمه الله تعالى انتهى .

وذكر منها صاحب الطالع السعيد جماً غفيراً من الأفاضل والجهابذة الأماثل : منهم الإمام الحافظ المحدث[1] إبراهيم بن عبد الرحيم بن علي بن إسحاق بن شيث الملقب بالكمال الأسنوى ، كان يحفظ الموطأ وتقلد بالخدم الديوانية واتصل بخدمة الناصر يوسف وأعطاه خيرا وقربه واعتمد عليه ، ثم ولى الرحبة فى أيام الظاهر ثم نقل منها إلى بعلبك وولى البلد والقلعة وسيره السلطان رسولا إلى عكا ، توفى عشية الخميس رابع عشر صفر ودفن بتربة الشيخ اليونينى .

ومنهم القاضى[2] إبراهيم بن هبة الله بن علي الحميْرىّ القاضى نور الدين الأسنوى ، صنف فى الفقه والأصول والنحو ، واختصر الوسيط والوجيز ونثر الألفية وشرحها وصحح ما صححه / الرافعى ، وشرح المنتخب فى أصول الفقه وولى القضاء بمدينة زفتة فى أوائل عمره وبمنية ابن خصيب ، وتولى أقاليم منها أسيوط وإخميم وقوص ، وكان حسن السير جميل الطريقة صحيح العقيدة قال لى : أردت أن أقرأ على الشيخ شمس الدين الأصفهانى فلسفة فقال : حتى تمتزج بالله امتزاجاً جيداً ، وكان إذا أخذ درساً ينقيه ويحققه ويستوف

٦٣

(١) الطالع السعيد /٥٤ ، والمنهل الصافى ١٠١/١ ط هيئة الكتاب .

(٢) انظر الطالع السعيد للأدفوى ص ٦٩ ــ ٧١ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

الكلام عليه إلا أنه كان لا يثبت له كل ما يلقيه ، وكان محبا للعلم لم تشغله عنه المناصب ، ولما ولى قوص قرأ على شيخنا عَزالدين عبدالرحمن بن يوسف الأسفونى الجبر والمقابلة ، وقرأ الطب على الحكيم شهاب الدين المغربى توفى بالقاهرة سنة سبعمائة وإحدى وعشرين .

ومنهم كما فى الطالع السعيد أيضا أبوالفضل جعفر بن حسان بن على أبوالفضل الأسنوى (١) يلقب بالسراج كان كاملاً كريماً شاعراً وكان يهدى إلى الملك الكامل ويكاتبه ، ويقال : إن الملك الكامل حضر هو وجماعة من ملوك الشام وتذاكروا الرؤساء فذكر الملك الكامل جعفر المذكور ، وقيل : إن بعضهم جمع مدائحه فى مجلدات ضخمة سماها « بالأرَج الشائق إلى أكرم الخلائق » مات سنة ستمائة واثنتى عشرة .

وفيه أيضا أن منها من فقهاء الشافعية الشيخ نورالدين على بن هبة الله بن إبراهيم بن حمزة المعروف بابن الشهاب الأسنوى ، كان إماماً فى الفقه ديناً صالحاً ، أخذ الحديث عن الحافظ أبى الفتح محمد بن على بن وهب القشيرى ، وعن الحافظ عبدالرحمن بن خلف الدمياطى ، وعن قاضى القضاة أبى محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكنانى ، وحفظ مختصر مسلم للحافظ عبدالعظيم المنذرى ، وأخذ الفقه عن الشيخ بهاء الدين هبة الله بن عبدالله بن سيد الكل القفطى ، والشيخ جلال الدين أحمد بن عبدالرحمن الدشناوى ، ولما حج كتب الروضة بخطه بمكة وهو أول من أدخلها إلى قوص ، وأقام بقوص يدرس ويفتى إلى أن مات سنة سبع وسبعمائة عليه رحمة الله انتهى .

وفى حسن المحاضرة للسيوطى : إن من علمائها محيى الدين سليمان بن جعفر الأسنوى خال الشيخ جمال الدين ، كان فاضلا فى علوم كثيرة ماهراً فى الجبر والمقابلة ، صنف طبقات الشافعية ودرس بالمشهد النفيسى ، ولد سنة سبعمائة ومات فى جمادى الأولى سنة ست وخمسين .

---

(١) انظر الطالع السعيد للأدفوى ص ١٧٨ - ١٧٩ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ومنهم نجم الدين محمد بن ضياء الدين أحمد بن عبد القوى الأسنوى كان عالما فاضلا وانتفع به خلق وألف فى علوم متعددة ، مات فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، وكان والده أيضاً عالماً فاضلاً من كبار الصالحين له كرامات تفقه بالبهاء القفطى ، مات سنة اثنتى عشرة وسبعمائة فى شوّال .

ومنهم العماد الأسنوى محمد بن الحسن بن على الأسنوى ، قال أخوه الشيخ جمال الدين فى طبقاته كان فقيهاً إماماً فى الأصلين والخلاف والجدل والتصوّف نظّارا بحاثا طارحا للتكلف مؤثرا للتقشف ولد سنة خمس وتسعين وستمائة ، وأخذ عن مشايخ القاهرة وانتصب للتدريس والافتاء والتصنيف ، مات فى رجب سنة أربع وستين وسبعمائة .

وأخوه الشيخ جمال الدين عبد الرحيم شيخ الشافعية وصاحب التصانيف السائرة ، ولد سنة أربع وسبعمائة وأخذ عن التقى السبكى والزنكلونى والقونوى وأبى حيان وغيرهم ، وبرع فى الأصول والعربية والعروض ، وتقدم فى الفقه فصار إمام زمانه وانتهت إليه رياسة الشافعية .

ومن تصانيفه المهمات والجواهر ، وشرح المنهاج والألغاز ، والفروع ، ومختصر الشرح الصغير ، والهداية إلى أوهام الكفاية ، وشرح منهاج البيضاوى ، وشرح عروض ابن الحاجب ، والتمهيد والكوكب ، وتصحيح التنبيه والتنقيح وأحكام الخنائى ، والزوائد على منهاج البيضاوى ، وطبقات الفقهاء ، والرياسة الناصرية فى الردّ على من يعظم أهل الذمة واستخدامهم على المسلمين ، وكتاب الاشباه والنظائر مات عنه مسودة ، وشرح التنبيه كتب منه مجلداً وشرح الألفية لابن مالك لم يكمل وشرح التسهيل كتب منه قطعة ، مات فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ورثاه البرهان القيراطى بقصيدة طويلة مطلعها :

نعم قبضت روح العلا والفضائل بموت جمال الدين صدر الأفاضل
تعطل من عبد الرحيم مكانه وغيب عنه فاضل أىّ فاضل

إلـى أن قـال :

صرفت عليه كنز صبرى وأدمعى فأفنيت من هذا وهذا حواصلى
سأنشد قبرا حل فيه رثاءه وأسمع ما أمليه صم الجنادل
وما نحن إلا ركب موت إلى البلا تُسيرنا أيامنا كالرواحل
قطعنا إلى نحو القبور مراحلا وما بقيت إلا أقل المراحل
وهذا سبيل العالمين جميعهم فما الناس إلا راحل بعد راحل

٦٤ / وله أخ يقال له نور الدين على ، كان فقيهاً فاضلاً شرح التعجيز ، مات فى رجب سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

ومنهم الإمام الفاضل أبوبكر بن محمد بن عبد الله القزوينى الأصل الأسنوى المولد جمال الدين ، برع فى مذهب أبى حنيفة وأكب على العبادة واشتهر وقصده الناس للاشتغال عليه ، ودرس بالصالحية والسيوفية . مات بالقاهرة فى حدود الثمانين وستمائة انتهى .

ثم إن المرحوم محمد على باشا بنى فى بحرى هذه المدينة بنحو مائة وخمسين قصبة ، سراية فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ، وجعلها فى بستان متسع قريب من بستان على بيك الأقمر الذى هو بستان إسماعيل بيك ومن منشآت المرحوم أيضاً بها فوريقة لنسج ثياب القطن قد تركت الآن ومحلات لإقامة العساكر والمديرين وجميع ذلك على شاطىء البحر ، وبساتينها مشتملة على الرمان والعنب والليمون والبلح ، والمسافر منها إلى فرشوط وبالعكس عوضا عن سفره على ساحل البحر ٥٢ ساعة بسبب إعوجاج النيل ، يسافر من طريق العقبة ١٤ ساعة حيث إنها الآن فى غاية الأمن ، فمن آسنا إلى الزريقات خمس ساعات ومنها إلى الجبل تسع ساعات ثم تكون فرشوط أمامه بالقرب فينزل عليها من طريق بالجبل يقال له العقبة .

أســـوان

قال فى القاموس أسوان بالضم ويفتح أو غلط السمعانى فى فتحه بَلَدٌ بالصعيد بمصر منه فقيربن موسى المحدث انتهى .

وفى كتب التواريخ أنها مدينة فى نهاية الصعيد الأقصى ما بعدها إلا بلاد النوبة ، وكانت تسمى قديماً سيوان أو سنون ويقال فيها أيضاً : سيينة ، وفى كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء أن طول الصعيد من أسوان إلى الفسطاط فوق عشرين مرحلة ، وعرضه ما بين نصف يوم إلى يوم قال :

ويسمى ما علا عن الفسطاط على جانبى النيل الصعيد وما سفل عنه الريف ، ثم قال وبالقرب من أسوان مشهد الردينى ، وهو مشهد كبير على حافة النيل من شرقية فى جنوبىّ أسوان على شوط فرس، وضبط الصَّعيد بفتح الصاد المهملة وقال : صقع طويل غير عريض لأنه بين جبلين على حافتى النيل وفيه مدن وكور كثيرة انتهى .

وكل من تكلم على مدينة أسوان يصف بئرها التى كانت تضىء جميع جدرانها وقت الزوال بأشعة الشمس فى يوم المنقلب الصيفى .

وذكر المقريزى أن بعدها عن خط الاستواء اثنتان وعشرون درجة ونصف فالشمس تسامت رؤوس أهلها مرتين فى السنة عند كونها فى آخر الجوزاء أو فى أول السرطان ، وفى هذين الوقتين لا يكون للقائم بأسوان نصف النهار ظل أصلاً فالحرارة واليبس والإحراق غالبة على مزاجها ، لأن الشمس تنشف رطوباتها ، ولذلك صارت ألوان أهلها سوداً وشعورهم جعدة لاحتراق أرضهم ، ولم يكن أشهر من هذه المدينة بين الجغرافيين فى الأزمان القديمة ، بسبب أن أراتستين وهيبارك واسترابون وبطليموس جعلوها مبدأ عينوا بالنسبة له جميع نقط الكرة الأرضية ، وكان اعتقاد الأقدمين أنه لا توجد مدينة غيرها واقعة على دائرة الإنقلاب الفاصلة بين المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة ، وقد وجد فى أيامنا هذه قريباً من هذا الخط فى

آسيا بلدتان : شاندير ناجور ، وكاتون ، وبلدة هوان التى هى من جزائر اللّانتى فى قطعة امريقا ، وقد اتضح الآن من الحسابات الصحيحة أن هذه المدينة ليست على دائرة الانقلاب بل بعيدة عنها إلى جهة الجنوب بقدر خمسة عشر فرسخاً ونصف .

ومع هذا ففى يوم المنقلب الصيفى وقت الزوال يكون الظل غير محسوس فى هذه المدينة بحيث أنه لو فرض أن شاخصاً إرتفاعه عشرون متراً لا يكون ظله إلا خمسة سنتميترات ، ولكن إذا رصد الظل فى بئر المدينة القديمة لا يرى غير نصفه فى الظل ، ونسب بعض العلماء إنشاء بئر أسوان وتقدير محيط كرة الأرض بمائتين وخمسين ألف استاده إلى أراتستين ، ولكنه لم يثبت أنه ذهب إلى هذه المدينة ، ولو ذهب إليها لرأى أن مركز الشمس يوم المنقلب الصيفى يبعد عن المدينة بقدر ربع درجة ، وأن البئر لا تكون فى موضعها بل على بعد ستة فراسخ منه .

فمن كل ذلك ومن عدم وجود دليل تاريخى يثبت ذهابه إلى هذه المدينة أو قياس محيط الدائرة الأرضية مع شهرة هذه البئر بين الأقدمين ، يعلم أن البئر المذكورة من صناعة المصريين عملت فى وقت كان فيه المنقلب الصيفى يمرّ بهذه المدينة الواقعة فى حدود وادى النيل من الجهة القبلية ، وأراتستين هذا ولد قبل المسيح بمائتين وخمس وسبعين سنة ، وكان رئيس كتبخانة الإسكندرية فى زمن بطليموس أويرجيت أ هـ .

وذكر استرابون وغيره أن هذه البئر جعلت للدلالة على يوم المنقلب الصيفى ، والجبل المشتمل على معدن الزمرّد فى جنوب هذه المدينة فى صحار خالية من الناس تعرف بصحارى عيذاب .

وأما معدن الذهب فعلى بعد خمسة عشر يوماً من المدينة ، وبين عيذاب وأسوان طريق إلى الحجاز واليمن والسند .

وفى تقويم البلدان نقلاً عن كتاب ابن سعيد قال : وفى سمت أسوان من جهة الشرق طريق الحجاج إلى عيذاب وغيرها / من المينا التى يركبون منها إلى مكة ، فمن أخذ من أسوان مشرقاً فعلى الوضح ، ثم تلتقى هذه الطرق مع طريق قوص ، وسميت هذه الطريق بالوضح لخلوها عن الجبال المشتبكة التى فى طريق قوص انتهى . ٦٥

وذكر المسعودى : أن سكان هذه المدينة من عرب قحطان ونزار وربيعة ومضر وقريش وأغلبهم أتى إليها من الحجاز وأرضها خصبة ، وإذا غرست فيها النواة صارت نخلة وأثمرت فى زمن قريب ، بخلاف البصرة والكوفة فلا يثمر فيهما النخل إذا غرس من النّوى .

وكان محل أسوان القديمة فى الجنوب الغربى من محلها الآن ، وقد انحطت عن درجتها فى زمن دخول العرب أرض مصر واعترى الخراب أكثر مبانيها .

ولما بنى سورها تأخر عن حدود المدينة القديمة بقدر ثلاثمائة متر فجعل فى حدود الصخر تابعاً لسير الجبل ، وأحد أضلاعه على شاطىء البحر . وبنى من قطع صوّان أخذت من المحاجر ومن المبانى القديمة ، وكان عبارة عن أبراج وبستيونات فى نقط منه مفصولة بجدران عالية ، والآثار القديمة متفرقة فى أماكن كثيرة ، تعلم من الكتابة والنقوش التى على الحجارة الملقاة ، ثم إن طول المدينة تقريباً ما بين سبعمائة متر إلى ثمانمائة والطريق الموصل إلى جزيرة فيلة ـ (بيلاق) ـ .

فى الجهة القبلية من هذه المدينة والتل الذى فى جهتها القبلية بنى عليه الفرنساوية قلعة مدة دخولهم مصر وتحته معبد مصرى قديم قد علاه التراب ، وحول التل أعمدة وقطع حجارة عتيقة ، وفى جهة الشمال عمارة من مبانى الرومانيين متجهة نحو شاطىء النيل فى آخرها عمارة مربعة تشبه السبع السواقى التى فى آخر العيون بمصر العتيقة ، وكانت المدينة محدودة من الجهة البحرية بالنيل ، ومبنية فى أرض ذات ميل خفيف كانت مزروعة بالنخيل ، وأرض الساحل رمل وطين من طمى النيل وفيه أنواع من الأشجار والنبات من ضمنها شجرة غريبة إرتفاعها نحو خمسة أقدام من الأرض ، أزهارها بنفسجية اللّون وثمرتها صفراء ، وبلغت فى خاصية الإحساس إلى أنها إذا مسَّ أحدٌ أحدَ غصونها إنضمت أوراقها وهبطت وتبعها الغصن كله ولا ترجع لأصلها إلا بعد زمن ، ويسميها الأهالى عرقة القرون ويعرفون هذه الخاصية فيها وينسبونها إلى السحر ويسميها بعض الناس شجرة الحسن ، وذكر بعض السياحين أنه يوجد مثلها فى بلاد الحبشة .

ثم إن توالى حوادث الأيام خربت المدينة الإسلامية كما خربت قبلها مدينة الرومانيين التى حدثت بعد المدينة المصرية القديمة ، ويقال : إن المدينة الموجودة الآن حدثت من زمن

السلطان سليم فى الجهة الشرقية من النيل فى أرض منخفضة محوطة من جهتها البحرية الشرقية بنخل وبساتين ممتدة إلى بعد عظيم ، وفى جهة الجنوب منها جبل مرتفع فيه محاجر ومغارات كثيرة ، وفى جهتها الشرقية فضاء متسع كان به منازل تهدمت وأخذت أنقاضها ، وكانت مبنية من الطوب وأغلبها معقود ، ولها مينا متسعة ومحوطة من إحدى جهاتها بالصخور وكانت تجارتها التمر والسنامكى المجلوب من الجهات القبلية فى السفن إلى الشلالات ، ثم ينقل منها إلى المدينة على الحيوانات وتسير إلى الجهات البحرية فى السفن .

ولما كانت تجارة التمر أعظم تجارتها كان أكثر أهلها فقراء ، وقد بقى من المبانى القديمة فى موضع البلد القديم معبد مبنى من الصخر ، وبه جملة أعمدة ، وفى زمن الفرنساوية كان لا يمكن دخوله إلا من سطحه لتراكم الأتربة عليه ، والآن خلا منها وتبين أنه من زمن البطالسة .

وفى سنة ألف وثمانمائة وأربع وأربعين ميلادية ، وجد بعض السياحين مَسلة فى أحد المحاجر التى بالجبل منفصلة عن الجبل من ثلاثة أوجه والوجه الرابع متصل بالجبل ، وطول المسلة ثلاثون متراً وعرض قاعدتها اثنتا عشرة قدماً ، ومن شهرة المدينة وعتاقتها يستفاد أنه كان بها مبان كثيرة ومعابد أخرى ، وشهرة بئرها تفيد أنه كان بها رصد ــ أى معبد ــ لأن الرصد كان من خصائص القسيسين الذين كانوا يسكنون المعابد ولكن ذهب جميع ذلك بتقلب الحوادث والدول .

وفى كتاب لطرون أنه وجد فى هذه المدينة قطعة صوّان عليها كتابة لاتينية تفيد أن مقدس هذه المدينة هو هومون ومعه كنوبيس وجينون ، وأن هذه المدينة وضعت فى زمن القيصر غيطا وعامله أكيلا ، وذلك فيما بين سنة ٢٠٤ وسنة ٢٠٩ ميلادية وذلك يفيد أن عبادة المصريين كانت لم تتغير إلى ذلك الوقت إنتهى .

ومن آثار هذه المدينة أيضاً مقياس كان فيها للنيل ذكره هيرودوط نقلاً عن ميدازى الذى ساح أرض مصر ورأى البئر المعدة لقياس النيل ، وكان قبل مقياس مدينة منف مبنياً من حجر معقود عليه خطوط متباعدة بقدر ذراع يصل إليها الماء من مجرى تحت الأرض ، واطلع أيضاً على المزاول المعدة لبيان الأوقات ، وكان شاخصها من غير ظل فى يوم المنقلب الصيفى ، وكان هذا المقياس موجوداً فى القرن الرابع من الهجرة .

وذكر المقريزى أن عمرو بن العاص هو الذى بناه والأصح أنه رممه فقط ، وكان للرومانيين عسكر للمحافظة فى هذه المدينة وفى / جزيرة بيلاق وجزيرة أسوان ، وفى طريق جزيرة بيلاق التى فى وسط الصخور يرى بقرب المدينة كثير من القبور غير ما هو منها فى الجنوب الشرقى للمدينة ، ويعلم من الكتابة الكوفية التى على الشواهد أنها قبور من مات من المسلمين فى وقت الفتح الإسلامى .

٦٦

ويرى جملة من الجوامع مرقوماً على باب أحدها إسم سليم ، يقال إنه هو الذى حارب الجلابة فى مبدأ الهجرة وطردهم من البلد القديمة مرتين ، ثم إن العرب تغلبوا عليها وسكنوها إلى زمن صلاح الدين فطردهم منها .

وفى القرن السادس عشر من الميلاد دخلت كبقية البلاد المصرية فى يد الدولة العثمانية مع جهتى بربى وأبريم ، وفى الجبل الذى عند هذه الجهة كثير من المحاجر والمغارات التى أخذ منها المصريون فى الأزمان السابقة المسلاّت والأعمدة والأحجار الهائلة المستعملة فى مبانيهم ، وتبعهم البطالسة والرومانيون فى ذلك .

وهذه المحاجر تشغل سعة من الأرض طولها ستة آلاف متر تقريبا ، ويرى الجبل فى جميع جهات المدينة مقطوعاً رأسياً وعليه أثر الآلات ، ويمكن أن يعلم بالتأمل طرق قطع الأحجار وفصلها من الجبل ، وفى جهة الجنوب وادٍ متسع مرتدم بالرمال ؛ ولعلها الأرض التى كانت تزرعها أهل المدينة من القمح وغيرها ثم سطت عليها الرمال فأضاعتها .

وكان على شاطىء النيل الغربى فى مقابلة المدينة بلد تعرف فى كتب المؤرخين بغرب أسوان وكان الأقدمون يسمونها كونترا أسوان ، وكان بها فى زمن الأقباط دير متخرب قائم على الجبل وهناك مغارة مصرية قديمة على بعد نصف فرسخ فى الجبل هى محل دير قديم تخرب ، وفيه بعض نقوش من زمن النصارى ، وكان يحيط به سور فيه مزاغل كثيرة ، وارتفاع المدينة عن استواء ماء البحر الملح مائة متر وعشرة أمتار ، وعرضها الشمالى قدره أربع وعشرون درجة وثلاث وخمسون دقيقة وبعدها عن مدينة القاهرة ٨٣٥ ألف متر .

وذكر القاضى الأفضل أن إيرادها للحكومة كان فى سنة ٥٨٥ هلالية خمسة وعشرين ألف دينار ، وذكر الكامل جعفر أحد أكابر مدينة أدفو ، أن متحصل نخيل أسوان فى السنة الواحدة ٣٠٠٠٠ أردب ، وكان فيها من البسر أنواع منها ما ييبس ، ومنها ما يؤكل أخضر ، ومنه نوع يسمى السكوتى وهو صغير ، ونوع يسمى جنديله ، ونوع يسمى أصابع الست وهو أحمر طويل والأنواع الجيدة لاتباع إلا نادراً بأثمان مرتفعة ، وإنما يهادى بها الأكابر والأصحاب ، ومن خصوصياتها أن لا يكون التمر فيها رطباً وقد طلب الخليفة هارون الرشيد من تمر أسوان فجمع له ويبة[1] من كل نوع من أنواع تمرها تمرة واحدة فانظر إلى كثرة أصناف التمر بها .

---

(١) الويبة : مكيال معروف ، اللسان : ويب .

ونقل الكندى عن ابن زولاق أن بعض العلماء كشف عن أرطاب أسوان فما وجد بالعراق شيئاً من أنواع التمر إلا وفى صعيد قوص مثله وفيه ما ليس بالعراق .

قال وأخبرنى أبو رجبة الأسوانى الفقيه صاحب القصيدة البكرية أنه يعرف بأسوان رطباً أخضر كخضرة السّلق ، عجيب المنظر حسن المخبر وبالعشاشية منه سبع نخلات يحمل رطبها إلى أمير المؤمنين العزيز بالله .

ونقل عن صاحب الطالع السعيد ، أنه قد خرج من أسوان خلائق كثيرة لا يحصون من العلماء والرواة والأدباء ثم أورد منهم جمعاً كثيراً وقال قيل لى : إنه حضر مرة قاضى قوص فخرج من أسوان للقائه أربعمائة راكب بغلة ، وكان بها ثمانون رسولاً من رسل الشرع .

وأخبرنا من وقف على مكتوب فيه أربعون شريفاً خاصة ، وآخر فيه سبعون ، ووقفت أنا على مكتوب فيه قريب من أربعين فيه جمع كثير من بيت واحد مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة ، قال : ونخيلها يشق الراكب فيه مسيرة يومين ، وبها سمك كثير والجنادل التى بها نزهة من نزه الدنيا بهجة المنظر كأنها منطقات نيل .

وهى معتدلة الهواء قليلة الوباء ، وبها رياحين تهب رائحتها على البلد ، وبها حجر يسمى البهلول إذا عمه الماء يكون علامة على وفاء النيل بمصر وهى كثيرة البزارات والنزه دائرة على البحر انتهى .

ترجمة ابن زولاق

وقال أيضاً أن ابن زولاق وهو أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصرى كان فاضلاً فى التاريخ وله كتاب الخطط مقصور على مصر خاصة وله فى التاريخ مصنفات ، ولد سنة ست وثلاثمائة وتوفى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة .

وقد مر على هذه المدينة أنواع كثيرة من الحوادث غَيَّرت أحوالها وذهبت بخيرها وبركتها ، واستمر ذلك إلى زمن العزيز محمد على ومن عقبه فأخذت تتخلص من الشدة شيئاً فشيئاً ، ثم لحقتها العناية الخديوية فالحقتها بغيرها فى اتساع دائرة الثروة ، وصار أهلها الآن فى سنة ١٢٩٠ هـ نحو أربعين ألف نفس .

وفيها محل الجمرك للبضاعة الواردة من الجهات السودانية ، وهى فى وقتنا هذا مشتملة على قيساريات وخانات ووكائل ومتاجر جسيمة سودانية مصرية ، وحاراتها ضيقة وأبنيتها من الطوب المضروب ما بين لبن ومحرق ، لأن الجبل كان محيطاً بها لكن أحجارة زرق صعبة القطع ، وبها مساجد جامعة وقد أسس محرابها الصحابة رضى الله عنهم من ضمن ما أسَّسُوا فى البلاد التى استوطنوها ، والبلاد التى كثر مرهم بها من إقليم مصر / كمحراب المسجد الجامع بمصر المعروف بجامع عمرو ، ومحراب المسجد الجامع بالجيزة وبمدينة بلبيس وبالإسكندرية وقوص قاله المقريزى .

٦٧

قال : وهذه المحاريب المذكورة على سمت واحد غير أن محاريب ثغر أسوان أشد تشريقاً من غيرها ، وذلك أن أسوان مع مكة شرفها الله تعالى فى الأقليم الثانى وهو الحد الغربى من مكة من غير ميل إلى الشمال ومحراب بلبيس مغرب قليلاً انتهى .

وبها ديوان المحافظة بنى فى زمن العزيز محمد على على شاطىء البحر ، وبها قاضى ولاية ، وعلى نحو ثلثى ساعة من جهتها البحرية قصر وبستان من إنشاء محمد بيك لاظ آغولى سنة ١٢٣٨ هجرية مدة إقامته بها مع العساكر الجهادية الذين جعل العزيز عليهم سليمان باشا الفرنساوى لتعليمهم القوانين الإفرنجية العسكرية ، وكان يقرب ذلك البستان قشلاق لإقامة ضباط العساكر ، ثم جعل مكتباً للتلامذة على طرف الميرى .

وبالجملة فهى مدينة كثيرة البركة وافرة المحصول ، وبعض أرض زراعتها على شاطىء النيل ، وأغلب ذلك جنات وبساتين والبعض الآخر بالجزيرة تبلغ مساحته نحو تسعمائة فدان تزرع ذرة وقمحاً وشعيراً وحشائش لأكل المواشى ، ولقلة أرض الزراعة بها تجد أكثر أهلها ما بين تاجر وملاح فى المراكب .

ومنهم من يسافر إلى مصر أو بلاد البربر أو السودان بأنواع الأقمشة ونحوها ، فيستبدلونها ببضائع من محصولات تلك الجهات نحو التمر الأبريمى والسّن والريش والعبيد ، ويصنع بها من قديم الزمان إلى الآن أنواع كثيرة من الفخار فى هيئة أوانى النحاس والصينى من حلل وطناجر وأصحن وحجارة دخان وأغطية القلل وغير ذلك .

وطينة ذلك تجلب من بحريها بقرب ناحية تعرف بناحية الشيمنية بجوار قصر لاظ آغولى ، والعرب القاطنون بقرب تلك المدينة يصنعون أوعية تسمى البرام يتخذونه من حجر يسمى حجر البرام ، وبعض الناس يسميه حجر الهَمْر والطبخ فيه أجود من الطبخ فى النحاس .

وهى عبارة عن قطع من الحجر تنقر مجوفة نحو ثلاثة أو أربعة سنتيمتر .

وهؤلاء العرب من العبابيد ويسكنون الرادسية وفى بعض الأحيان يسحق ذلك ويضاف إليه قدره من طين مستخرج من تحت جبل تلك المدينة ويمزج ويعجن نحو أربع ساعات ، ثم تعمل منه النساء أوعية البرام والمراجيس ويجفف فى الشمس والهواء مدة ثمان وأربعين ساعة ، ثم يوضع على نار خفيفة فى حفرة تعمل لذلك ويوضع فيها نحو عشرة أبرمة أو اثنى عشر دفعة واحدة .

وأهل أسوان أخلاط من البدو والأتراك والبربر السنارية والعبيد ، فلذا ترى فيها جميع الألوان والملابس وتسمع بها جميع اللغات ، وعلى أرصفة موردتها محصولات من بقاع شتى ، ومن بضائعها النشاب والحراب والمزاريق والدرقات وآلات الموسيقى والصمغ والجلود وسن الفيل والسنامكى وريش النعام والشمع والتمر الهندى كل ذلك من بلاد السودان والحبش ، ومن بلاد النوبة الحبال الليفية ، ومن صحراء العرب فحم الخشب ، وضواحيها خالية من النبات ما عدا بعض نخيل وأشجار ، ومتوسط الوارد فى كل سنة منها إلى مصر ٦٠٠٠٠ قنطاراً من الصمغ ، ومن الشمع الحسينى ٣٠٠ قنطاراً ، ومن ريش النعام ٢٥ قنطاراً ومن سن الفيل ١٠٠٠ قنطار ، ومن البن ٣٠٠ قنطار ، ثم أنى قد رأيت مجموعاً لكترمير الفرنساوى جمع فيه حوادث هذه المدينة من كتب المسلمين فأردت إيراد ملخص ما ذكره لزيادة الفائدة .

فمن ذلك ما نقله عن عبدالله بن أحمد بن سلايم بن سلامة من علماء هذه المدينة فى تاريخ النوبة والمقرة والبجاة والتيل ، أن بلاد النوبة تبتدىء من القرية المعروفة بالقصر الذى هو على خمسة أميال من مدينة أسوان ، وأن آخر بلاد المسلمين فى وقته كان جزيرة بيلات التى هى على بعد ميل واحد من قرية أقصر ، ومن هذه القرية إلى مدينة أسوان يكون مجرى النيل مشحوناً بالشلالات ولا تمر فيه السفن إلا مع العسر .

وذكر المسعودى أن أهالى أسوان كان لهم أراض فى بلاد النوبة اشتروها من النوبيين فى بدء الإسلام زمن الأمويين والعباسيين ، وكانوا يدفعون خراجها إلى ملك النوبة ، إلا أنه كان يحصل منهم فى بعض الأحيان توقف وتعدّ ؛ فلما جاء الخليفة المأمون بلاد مصر شَكَاله ملك النوبة من أهل أسوان ، وأرسل إليهم رسلاً تمنعهم عن شراء الأراضى من النوبيين مدعياً أنها ملكه وأن النوبيين عبيده فلا يملكون فيها شيئاً ، فعين الخليفة قاضى مدينة أسوان للنظر فى ذلك بحضور نائب الملك فى مجلس من أمرائها ، فأقيمت الدعوى وثبتت صحة البيع بحيلة على البائعين حتى حملوهم على إنكار الرق ، فحقد عليهم ملك النوبة من ذلك الوقت ونوى الغدر بهم ، وفى سنة ٣٤٤ هلالية هجم على أرضهم بعسكر جرار ونهب أموالهم وأسر نساءهم وأطفالهم .

وكان ذلك فى زمن ابن الأخشيد ، فأرسل إليه عسكر تحت إمرة محمد بن عبدالله عامل الخراج فطردهم وأسر منهم خلقاً كثيرين ورجع إلى مصر مؤيداً منصوراً ، ثم إن نائب الملك هجم ثانياً على أرض أسوان فى سنة ٣٥١ هـ فخربها وسبى أهلها ودخل / وادى النيل ٦٨ حتى وصل إلى مدينة إخميم وكان لا يبقى ولا يذر فى طريقه ، فحصل للناس ما لا مزيد عليه من الضّنك والشدة وخَرّب أغلب البلاد التى مر عليها بعسكره واسترق أغلب أهلها ، وكانت

هذه الحادثة عقب دخول جوهر القائد بلاد مصر ، فلما بلغه الخبر أرسل إلى كركى ملك النوبة يدعوه إلى الإسلام ويدفع البقط [١] الذى تقرر على بلاده فى مبدأ الفتح الإسلامى وكانت تدفعه أسلافه ، فلم يجب إلى الدخول فى الإسلام وأكرم الرسل وأرسل معهم هدايا إلى الخليفة لا يعلم ما صار بعدها إلى زمن خلافة المستنصر بالله ، فقام على مدينة أسوان أمير يسمى كنز الدولة وقتل كثيراً من أهلها ورفع لواء العصيان ، فحاربه بدر الجمالى وانتصر عليه ، ففر إلى ملك النوبة فطلبه منه بدر الجمالى فأرسله إليه فى الأغلال ، فأخذه وصلبه على أحد أبواب الفسطاط ، ورتب من ذلك الحين عساكر للمحافظة على المدينة فأوجب ذلك أمان الأهالى واشتغالهم بتجارتهم ومصالحهم ، واستمر الأمر على ذلك مدة ثم تلاشى وصارت لا يرسل إليها عسكر المحافظة ، فلما انقضت مدة الفاطميين هجم عليها ملك النوبة فهدم بيوتها وأسر أهلها ولم يكتف بذلك بل كان يتوغل فى دخول القطر شيئاً فشيئاً ويقويه كثرة الفتن فى الديار المصرية وتلاشى أمر الحكومة ، واستمر هذا الحال إلى سنة ٥٦٨ هـ فهجم بجيش جرار على الأقاليم القبلية ونهب أكثر البلاد وخربها .

وكان الملك صلاح الدين حاكماً على الديار المصرية ، فأرسل فرقة من العساكر تحت إمرة أخيه شمس الدولة فتوجه قاصداً بلاد النوبة ، ولما بلغ ملك النوبة حضور العساكر لحربه فارق أرض مصر فلحقه شمس الدولة وحاصر مدينة ابريم ونهبها وأسر أهلها ، وكان ملك النوبة قد رحل إلى أرضه فلم يسر خلفه شمس الدولة ، وأقطع مدينة إبريم بأرضها لأمير من الأكراد يسمى إبراهيم ، وجعل معه عدداً كافياً من العساكر ورجع إلى الديار المصرية ومعه من الأسرى سبعين ألفا على ما ذكره المؤرخ أبوصلاح ، وهذا لا يخلو من المبالغة ، إلا أنه

(١) البقط : من الأرض البقل والعشب . والمراد أن تعطى الجنان على الثلث أو الربع ـ اللسان ـ بقط .

يستدل منه على أن أهالى الجهات القبلية وبلاد النوبة كانوا فى تلك الحقبة على غاية من الضّرر ، لأنهم كانوا فى طريق العساكر الأهلية ومطمح نظر الأشقياء من العربان وبلاد النوبة .

وكان الحاكم بمدينة أسوان سنة ٦٧٠ هـ من طرف الحكومة المصرية الأمير كنز الدولة ، وكان ذا عزة وجاه وله اتحاد بعرب البادية ويميل إلى الفاطميين فرفع لواء العصيان ، وجمع كثيراً من العبيد والعرب وألبسهم الأسلحة وجعلهم جيشاً دخل به فى البلاد واستولى على مدينة قوص ، وقتل جميع أصحاب الإقطاعات وأخذ أموالهم وأرزاقهم وأغرى كثيراً من البلاد فكانوا معه ، ولكن لم تطل مدته فإنه لما بلغ خبره الملك صلاح الدين أرسل له العساكر مع أخيه الملك العادل ، فحاربه عند مدينة طود فانهزم وفر هارباً فلحقه وقتله .

وبعد ذلك بزمن قريب سنة ٦٧١ هـ عَدَى ملك النوبة على عيذاب وأراضى أسوان ، ونهب البضاعة التجارية منها ، وخربها وهدم بيوتها وأسر أهلها ، وقصد دخول أرض الصعيد ، فمنعه حاكم مدينة قوص وطرده من الديار المصرية ، وسار خلفه فى بلاده ونهبها وأسر جملة من أمرائها وعرضهم على السلطان فأمر بتوسيطهم ـ أى قطع أوساطهم بالسيف ـ يقال كما فى كتب اللغة وسطه قطعه قطعتين من وسطه انتهى .

وربما كانت بلاد النوبة إلى ذلك الوقت تشن الغارة على أرض مصر وتضر بالأهالى والزراعة والعمارات ، فلذلك كانت سلاطين مصر تترقب إغتنام فرصة للدخول فى تلك الأرض وإدخالها تحت حكمهم وتصرفهم ، فلم يمض إلا زمن يسير حتى فرّ ابن ملك النوبة من عمه واستجار بالسلطان صلاح الدين سنة ٦٧٤ هـ فأصغى لشكواه وجهز جيشاً عظيماً من

المماليك والعرب والأتراك وجعله تحت إمرة الأمير شمس الدين آق سنقر الفرقانى الاستادار ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الخازندار ، فقاما وأخذا معهما ابن الملك وتوجها إلى بلاد النوبة وحاربا أهلها وتغلبا على قلعة داو وأخذا ما فيها وأسرا أهلها ، ثم اقتفيا أثر ملك النوبة داخل بلاده ، وحصل بينهم جملة وقعات كان النصر فيها للمصريين وقتل أغلب عساكر النوبة فما زالوا يقتلون ويأسرون وينهبون المدن التى يمرون عليها ، حتى أسروا أم الملك وأخته وكثيراً من الأمراء ، ودخلوا مدينة دنقله وجعلوا الملك على بلاد النوبة ابن أخيه الذى إلتجأ إلى السلطان ، وعقدوا له مجلساً حضره الخاص والعام ، وأخذوا عليه الشروط والمواثيق بالامتثال والطاعة لسلطان مصر ، وفرضوا عليه خراجاً يقوم بدفعه فى كل سنة إلى الخزينة المصرية ، وهو ثلاثة أفيال وثلاث زرافات وخمسة من إناث النمر ومائة هجين ومائة ثور منتخبة ، وجعلوا نصف إيراد بلاد النوبة يرسل إلى الديار المصرية والنصف الآخر للوازم الحكومة ، وجعلوا وادى الحجر الذى هو الأرض الملاصقة لأرض مصر ومساحتها تقريباً ربع مساحة بلاد النوبة تابعاً لمصر ، ومحصولاته من قطن ونخيل وخلافها للحكومة المصرية وخيروا الأهالى بين / الإسلام والجزية والموت فاختاروا الجزية ، فجعلوا على كل من بلغ الحلم فى كل سنة ديناراً ، وحلف الملك والرعايا على قبول ذلك والعمل به . ٦٩

ثم بعد ذلك دخل الجيش مصر ومعه عدد وافر من الأسرى بعد أن مات منهم خلق كثير فى الطريق ، والذى وصل إلى القاهرة عشرة آلاف رأس ، بيع الرأس منها بثلاثة دراهم ، ومن هذا العهد صارت بلاد الحجر تابعة للحكومة المصرية ، وجعل فى مدينة دنقلة مأمورون من طرف السلطان صلاح الدين لجمع الخراج وتوصيله للخزينة المصرية ، واستمر الأمر على ذلك فى زمن من عقبه على تخت الديار المصرية ، إلا أنه كانت تحصل أمور توجب دخول العساكر المصرية أرض النوبة ، كما حصل ذلك فى زمن السلطان محمد بن قلاوون ، فإن العساكر المصرية ذهبت إليها مرتين فى سنة ٦٨٦ هـ والتى بعدها ، بسبب إلتجاء ابن أخى

الملك إلى السلطان قلاوون فى إيصاله الحقوق التى حرمه منها عمه ، فأرسل معه عساكر إلى بلاد النوبة وتم الأمر بعد محاربات على جلوس ابن أخى الملك على التخت بعد موت عمه كما مر ، ومع كثرة القتلى والأسرى من أهالى النوبة فى كل وقعة كانوا لا يرتدعون بل تحصل منهم الإغارة على الجهات المجاورة لهم من جهات مصر ويقطعون سبل التجارة وينهبون البضاعة كما حصل ذلك فى سنة ٧٦٧ هـ كما هو مسطور فى كتاب السلوك للمقريزى .

وهو أنه فى تلك السنة قام أولاد الكنوز وعرب بنى جعد وأغاروا على أسوان وأرضها وكذا على سواكن ونواحيها وعيذاب والواحات ، واستولوا على أكثر هذه البلاد ونهبوها وسبوا أهلها ، واتفق أن ابن أخى الملك فى هذا الأوان رفع لواء العصيان واتحد معهم وقام على عمه وقتله واستولى على تخته ، ثم أخذ فى عمل الحيل على التخلص من شر العرب فدعاهم إلى وليمة أعدها لهم بعد نصرته ، وجعل حولها الوقود وأكمن لهم عساكر ، فحرق أمراءهم ومن سلم من الحرق قتله العسكر الكامنون ، وهجم فى ليلتها على باقى العرب فى حين غفله ، فقتل منهم خلقاً كثيرين وشتت فى الجبال من سلم من القتل ، ونهب أموالهم ومواشيهم وسبى أولادهم ونساءهم ، ولكن خاف منهم فاجتمع بملك داو وتعاهد معه وأرسل إلى السلطان يطلب منه النجدة على العرب ، فأرسل إليه الجيوش المصرية تحت إمرة الأمير اكتومر عبد الغنى وجملة من الأمراء فوصلوا إلى مدينة داو بعد نصرات عديدة وغنائم كثيرة وخلصوها من العرب ، وكان أهل دنقله بداخلها عندما بلغهم قدوم العساكر المصرية ، فحصل الاتفاق على إقامة الملك فى قلعة داو وتركه الإقامة بدنقلة ، وبعد أن مهدوا له الأمور رجعوا إلى الديار المصرية ومعهم أكثر أمراء العرب ، وعدد كثير من الأسرى فى القيود ، ولما وصلوا إلى مدينة أسوان شكا أهلها إليهم ما حصل لهم من العرب وعبيدهم فأمسك منهم عدداً وافراً ووسطهم .

ثم بعد أيام قلائل دخل مصر فأنعم عليه السلطان وأمر بسجن أمراء العرب ، إلى أن تعين الأمير حسام الدين الملقب بالدم الأسود حاكماً على مدينة أسوان فذهب إليها وأخذ معه المحبوسين ، ولما وصل بهم إلى مدينة قوص أمر بتسميرهم فى ألواح من خشب ، وسار بهم وهم على هذه الحالة إلى أن وصل إلى أسوان ، فقتلهم أشنع قتله ، فتحزب العرب والعبيد واجتمع منهم جملة وافرة وهجموا على أسوان فلم يقدر حسام الدين على مقاومتهم ، ففر منهم بعد أن قتل أغلب المماليك والعسكر فنهبوا المدينة وخربوا بيوتها وسبوا أهلها ، فكانت زيادة القسوة من هذا الحاكم الغشوم فى هذه الواقعة سبباً فى خراب المدينة وقتل أهلها ، ونهب هذه الجهة وما يليها وخروجها من يد الحكومة المصرية ، لأن عداوة العرب بلغت منتهاها ، فإنهم اجتمعوا وجعلوا يخربون فى البلاد المصرية ، ويقطعون طرق التجارة ولا يوقرون كبيراً ولا يرحمون صغيراً ، وحصل لهذه الجهات فى تلك المدة ما لا مزيد عليه من المضرات ووقعت فى أيديهم أسوان وغيرها من البلاد .

وفى سنة ٧٩٨ هـ اتحد العرب الأحمدية الذين كانوا يسكنون جهات الصعيد مع أولاد الكنوز والهوارة ، وقاموا على حاكم مدينة أسوان المسمى بابن غريب ونهبوا منه المدينة وسبوا أهلها ، ولم يقدر عمر بن إلياس حاكم المديريات القبلية على طردهم منها ، ورجع بجيشه بعد أن أتلف كثيراً من العساكر ، وصارت الفتن من ذلك العهد كل يوم فى الزيادة إلى سنة ٨٠٦ هـ فكانت مدينة أسوان إذ ذاك من غير حاكم ولا محافظين ، فكانت عرضة لإغارات العرب عليها .

وفى سنة ٨١٥ هـ أغار عليها هوارة الصعيد وحصلت النصرة للهوارة بعد مقتلة عظيمة بينهم وبين أولاد الكنوز فنهبوها وخربوها وأسروا أغلب أهلها وتركوها خراباً بلقعا إلى أن استولى السلطان سليم على الديار المصرية فكثرت فيها الفتن كما كانت أولاً ، بسبب أن هذه

الجهات كانت ميداناً لفتن الأحزاب ، فإنه كان كل من عصى من البيكوات والامراء يفر إلى الجهات القبلية ويضم إليه مماليكه ورجاله وكثيراً من الأهالى ويحارب بهم عساكر الحكومة ، فكانت الأقاليم / القبلية وبلاد النوبة ميدان الفتن فى جميع هذه المدة المديدة التى أولها دخول السلطان سليم إلى زمن إستيلاء العزيز محمد علىّ على الديار المصرية ، ولحق فيها الأهالى من المصائب الناشئة عن هذه الحوادث ما قهقر حالهم وخرب ديارهم .

٧٠

ومن ابتداء استيلاء العائلة المحمدية انقطع عرق هذه الحوادث وسكنت الفتن ودخلت بلاد النوبة وجميع البلاد السودانية تحت حكم الديار المصرية ، ووصلت حمايات تلك العائلة إلى جميع سكان هذه الأرض فى الطول والعرض ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[1] .

وبما وصل كل ناحية من العناية الخديوية أخذت فى أسباب الثروة والنمو ، وصارت هذه المدينة التى فى آخر القطر المصرى مركزاً لجميع تجارات الصحراء وبلاد النوبة والأقطار السودانية ، وصارت عامرة آهلة ذات حرف وصنائع كثيرة ، ويتردد إليها أهل السودان وعرب الجبال ، فيكتسب أهلها من طباعهم وعوائدهم خصوصا العوام والأوباش .

فمن عوائد عوامها فى الأفراح أنه بعد عقد النكاح يذهب الزوج إلى بيت الزوجة بالجهاز المشروط لها ومعه جماعة من أحبته وأخصائه ، وبعد جلوسهم يؤتى لهم بقفف من الخوص مملوءة بالحمص المقلى والتمر والقرطم المقلى والجرمة ، فيفرق على الحاضرين فيأكلون وينصرفون ، ثم بعد مدة يعمل الفرح كالمعتاد .

(١) سورة الانعام : ٤٥ .

وفى ليلة الحناء . وهى التى تليها ليلة البناء بعد مضى أكثر الليل ، يؤتى بطشت مملوء من الحناء ونار مؤججة لتجفيف الحناء فى الأيدى . فيتقدم أبو الزوج فيضع يده فى الحناء ثم يضعها فى يد ابنه ويقول له : أعطيتك البركة وطول العمر . وأعطيتك كذا وكذا مما يملكه من عقار ومواش ونقود وأمتعة ، وكذا تفعل والدته وبعض أقاربه فيشهد الحاضرون بذلك . ثم فى وقت العصر من يوم تلك الليلة يحضر الحلاق فيحلق له بعض رأسه ويترك قطعا متفرقة يسمونها الجزائر ، ولا يحلقها إلا إذا أخذ من الحاضرين شيئا من النقود يسمى النقطة . ثم بعد صلاة العشاء فى المسجد يزف بالدف والكوس وأمامه المowالدية يقولون : الموشحات والأوراد إلى أن يدخل بيت الزوجة وبيده سيف ، فعند وصوله أول باب يجرده ويضرب به وجه الباب ، ثم يبنى بالزوجة فى بيتها ويبيت هناك ، فإذا طلع الفجر خرجا معا إلى البحر ومعهما بعض أقاربهما ، فيملأ منه كل منهما بيده قلة صغيرة فيرش بها الآخر ويتسابقان فى ذلك ، ثم يذهبان إلى بيت الزوج فيقيم معها ولا يخرج من عندها إلا بعد ثلاثة أيام ، ثم يخرج إلى السوق ويأتى ببعض كل ما وجد فيه .

وحلى نسائهم الخلاخل وأساور الفضة والشعيرى والخزام ، وهو حلقة أوسع من دائرة الريال تتخذ من الذهب أو الفضة تجعل فى الأنف ، فيثقب أنف البنت وهى صغيرة فإذا تزوجت لبسته ، ويتلفع الرجال بملآت قطن بيض ذوات حواش حمر تسمى بالشقق . ويلبس أشرافها وعلماؤها أقبية الخز والجوخ .

ترجمة فخر الدولة

وقد أورد فى الطالع السعيد من قدماء علمائها المشهورين بالمآثر جماً غفيراً يقتضى زيادة شهرتها وعلو منزلتها ، فمنهم الفاضل الأديب الكاتب الشاعر ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الملقب بفخر الدولة[1] وهو أول من كتب الانشاء للملك صلاح الدين يوسف بن أيوب ومن بعده لأخيه العادل ومن كلامه :

ما الشّيب إلا نعمةٌ مشكورة فاشكر عليه
ما الغبن إلا أن تموت وأنت لم تبلغ إليه

توفى بحلب سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

ترجمة بحر بن مسلم

ومنهم بحر[2] بن مسلم اشتهر بين الفقراء المسافرين وأهل البلاد أنه صحابى قال : ولم أر من ذكره فى الصحابة ، وهو منتهى زيارة الزائرين بالوجه القبلى يأتون إلى زيارته من كل مكان وقبره بقرب « ثافا » من آخر عمل أسوان ولم يذكر تاريخ وفاته .

(١) انظر ترجمته فى الطالع السعيد للأدفوى /٦٤ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) انظر الطالع السعيد /١٧٤ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ترجمة الحسن الأسوانى وغيره

ومنهم الحسن بن أبى الحسن على بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير المهذب الأسوانى ذكره العماد الأصبهانى وأثنى عليه وقال : إنه لم يكن بمصر فى زمنه أشعر منه ، وأنه أعلم من ابن أخيه الرشيد وقال ابن عين الدولة : رأيت له تفسيراً فى خمسين مجلداً وقفت منها على نيف وثلاثين جزءا ، توفى سنة إحدى وستين وخمسمائة انتهى .

وذكر صاحب حسن المحاضرة فيمن كان بمصر من فقهاء الشافعية أن منها جماعة من العلماء الأعيان ، منهم قحزم بن عبدالله الأسوانى يكنى بأبى حنيفة كان أصله قبطيا ، وكان من جملة أصحاب الشافعى الآخذين عنه كان مقيماً بأسوان يفتى بها على مذهبه مدة سنين مات بها سنة إحدى وسبعين ومائتين .

ومنهم أبورجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى ، كان فقيهاً أديباً شاعراً سمع وحدث وألف قصيدة نظم فيها قصص الأنبياء وكتاب المزنى والطب والفلسفة مائة ألف بيت وثلاثين ، مات فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وثلثمائة .

ترجمة إسماعيل بن محمد الأسوانى الأنصارى

ومنهم[1] اسماعيل بن محمد بن حسان القاضى أبوالطاهر الأسوانى الأنصارى ، رحل إلى بغداد وتفقه على ابن فضلان ورجع فأقام بأسوان حاكما سدرسا مات / بالقاهرة فى رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة عليه رحمة الله اهـ .

٧١

(١) انظر الطالع السعيد /١٦٥ ، ١٦٦ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ترجمة نجم الدين الأسوانى

(ومنهم) نجم الدين[١] حسين بن على بن سيد الكل الأسوانى ، كان ماهراً فى الفقه فاضلاً فى غيره ، أفتى وتصدر للإقراء بالقاهرة ومات فى صفر سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وقد قارب المائة .

وذكر فيمن كان بمصر من فقهاء المالكية جماعة منهم هارون[٢] بن محمد بن هارون الأسوانى أبوموسى

قال ابن يونس كان فقيهاً على مذهب مالك ، كتب الحديث ومات فى ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلثمائة .

ترجمة أحمد الصواف

ومنهم أحمد بن محمد بن جعفر الأسوانى المالكى الصواف ، قال أبوالقاسم ابن الطحان روى عن أبى بشر الدولابى وأبى جعفر الطحان وروى عنه عبد الغنى بن سعيد ، مات سنة أربع وستين وقيل أربع وسبعين وثلثمائة .

ترجمة محمد بن يوسف

ومنهم[٣] محمد بن يوسف بن بلال الأسوانى المالكى أبوبكر ، روى عن أبى سفيان الوراق وسمع منه أبوالقاسم ابن الطحان ، وقال توفى سنة ست وسبعين وثلثمائة ا هـ .

---

(١) الطالع السعيد /٢٢٤ـ ٢٢٦ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) الطالع السعيد /٦٨٦ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٣) الطالع السعيد /٦٤٣ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة .

اشليـــم

قرية من مديرية المنوفية بقسم مليج شرقى ناحية العجايزة بنحو أربعة آلاف متر ، وفى الشمال الشرقى لناحية أم خنان كذلك ، وبها ثلاثة جوامع أشهرها الجامع المعروف بجامع أبى قدوس التى فى بحريها له منارة ، وفى بحريها على بعد ثلاثمائة متر ضريح سيدى على أبى شبكة له مولد سنوى ، وفى قبليها على بعد أربعين مترا ضريح سيدى المرزوقى له مولد سنوى أيضاً ، وفى غربيها جنينة برتقان وبها معمل دجاج ولها سوق كل يوم خميس ، وتكسب أهلها من الزراعة .

ترجمة الشيخ عبدالغنى الإشليمى

وينسب إلى هذه القرية الشيخ عبدالغنى الإشليمى الذى ترجمه السّخاوى فى الضوء اللامع حيث قال : هو عبدالغنى[١] بن محمد بن عمر بن عبدالله الزين الإشليمى ثم القاهرى الأزهرى الشافعى ، ولد تقريبا سنة عشرين وثمانمائة بإشليم ، وقرأ بها بعض القرآن وانتقل مع أخيه إلى القاهرة فأكمله بها ، ثم حفظ المنهاج الفرعى والأصلى ، وألفية النحو ، واشتغل فى الفقه على الشرف السُّبكى والقاياتى والونائى وجماعة ، وفى النحو على الشمنى وغيره ، وفى الفرائض على ابن المجدى ، وفى العروض على الشهاب الأبسيطى ، وسمع على الزين الشركسى وغيره ، ونزل فى صوفية سعيد السعداء وغيرها . وعمل أرجوزة فى الفرائض ، وكان فاضلا خيرا فقيرا قانعا متعففا ، كتبت عنه قديما مما خاطب به شيخنا أيام محنته ولصق بمحل جلوسه بالمنكوتمرية قوله :

لن يبلغ الأعداء فيك مرادهم   كلا ولن يصلوا إليك بمكرهم
فلك البشارةُ بالولاء عليهم   فالله يجعل كيدهم فى نحرهم

وفى معجمى وغيره من نظمه الكثير انتهى ولم يذكر تاريخ موته رحمه الله وإيانا .

---

(١) الضوء اللامع ٢٥٧/٤ ط المقدسى القاهرة .

ترجمة محمد الإشليمى

وينسب إليها أيضا كما فى الضوء اللامع محمد[١] بن عثمان بن عبد الله ويقال : أيوب بدل عبد الله وهو أصح ، أصيل الدين أبو عبد الله بن الفخر أبى عمرو بن النجم العمرى الإشليمى ثم القاهرى الشافعى ، ولد بعد سنة أربعين بإشليم ، ولما ترعرع عانى القرآن ثم اشتغل فى الفقه والعربية وتلا للسّبع .

ومن شيوخه فى الفقه ابن الملقن والبلقينى وغيرهما ، وأذن له بالتدريس والافتاء وتكسب بالشهادة ولازم الصدر بن رزين خليفة الحكم فرقاه لنيابة الحكم ، وكان له استحضار يسير من السيرة النبوية ومن شرح مسلم ، فكان يلقى درسه غالبا من ذلك لكونه لا يستحضر من الفقه إلا قليلا ، مات فى أواخر ذى الحجة سنة أربع وثمانمائة رحمه الله تعالى انتهى .

---

(١) الضوء اللامع ١٤٦/٨ ط القدسى القاهرة .

إشمنت

قرية من قسم بنى سويف فى غربى النيل بقليل ، وفى شرقى الميمون بنحو ثلاثة آلاف متر ، وفى شرقى السكة الحديد بنحو خمسمائة وخمسين مترا ، وأبنيتها باللبن والآجر ، وفيها مساجد ونخيل ، وفى شمالها قصر مشيد ببستان عظيم تبع دائرة الخديوى محمد باشا توفيق وبجواره ديوان تفتيش زراعته .

وفى الجنوب الغربى لقرية إشمنت بقدر ألف وخمسمائة متر تقريبا ، أسست هناك فوريقة للزوم قصب هذا التفتيش ، وصار بناء بعض محلات منها والباقى لم يتم بناؤه ، ويوصل إليها فرع من السكة الحديد طوله ٧٥٠ مترا من محطة السكة العمومية للصعيد ، ثم إن أراضى هذا التفتيش يزرع فيها مثل بلاد الوجه القبلى ، ويزرع بها القطن وأنواع من الحبوب وقليل من القصب ، وينقل قصبها بواسطة السكة الحديد إلى التفاتيش الأخرى لعصره وعمل السكر منه ، وسقيها بواسطة وابورات مركبة على النيل ، ومقدار زمام هذا الجفلك نحو خمسة عشر ألف فدان بعضها غربى الترعة الإبراهيمية وبعضها فى شرقيها .

أشمـــون

قال فى تقويم البلدان إنها بضم الهمزة وسكون الشّين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفى آخرهـا نـون كذا قال السمعانى : وصوابه أن فى آخرها ميا وإنما العامة تسميها أشمون بالنون كما حققت ذلك عن بعض فضلاء مصر .

وأنشدنى من بعض تآليفه هجوا فى قاضى تولى بها يعرف بابن مرحل يا للروم ابن المرحل قاضى أشموم / انتهى

٧٢

وهذه المدينة كانت قديما مدينة جليلة الشأن وكانت تسمى فى اللغة القبطية أشمونين أرمانى ، وسماها الإسلام أشمون طناح ، ويقال لها أيضا أشمون الرّمان ، ويقال أيضا : أشموم بالميم . وقال بعض الإفرنج ، إنها بنيت محل منديس العتيقة .

ونقل استرابون عن بعضهم أن منديس كانت قد خلفت مدينة طمويس التى جعلها كثير من المؤرخين رأس مديرية من الوجه البحرى ، وأنها من أعظم مدنه ، ونقل عن بعض آخر أن منديس وطمويس إسمان لمدينة واحدة ، واحتج لذلك بأن هيرودوط قال : إن منديس معناه الجدى وإن الأب جيروم قال فى معنى طمويس كذلك ، فهما كلمتان قبطيتان معنى كل منهما الجدى .

ونقل عن بعض آخر أن أحد الإسمين كان يطلق على المدينة والآخر على خطها ، وقال بعض شارحى استرابون إن آثار مدينة طمويس توجد بالقرب من ناحية تمىّ الأمديد فى أرض الدقهلية غربى خراب صان ، على نحو خمسة وثلاثين ألف متر ، عبارة عن ثلاثة وعشرين ميلا رومانيا ، وفى تخطيط انطونان أن البعد بين صان وتمىّ الأمديد اثنان وعشرون ميلا انتهى .

وفى قاموس الجغرافية الإفرنجى أن الأب جيروم كان من كبار أحبار الكنيسة اللاتينية ، ولد سنة ثلاثمائة وإحدى وثلاثين على قول وثلاثمائة وستة وأربعين على آخر ، وساح فى بلاد الغلوى ، وبلاد آسيا وزار بلاد القُدس ، ورجع إلى رومة سنة اثنتين وثمانين وتعين كاتب البابا ، ثم بعد موت البابا رجع إلى فلسطين ودخل ديرا فى بيت لحم فطرده المخالفون له فى العقيدة ، ومات سنة أربعمائة وعشرين وترك عدة كتب وأشهر كتبه وأكثرها اعتمادا ترجمة التوراه ،

وفيه أيضا أن استرابون جغرافى يونانى مشهور من مدينة امازة من الكبادوس ، ولد سنة خمسين قبل الميلاد وهو من عائلة مشهورة وساح فى آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر واليونان وايطاليا ، وعاش زمانا بمدينة رومة ، ومات فى أواخر حكم القيصر تبير ، وله مؤلفات فى التاريخ والجغرافية ، ومؤلفه فى الجغرافية مع مؤلفات بطليموس أحسن ما ترك الأقدمون .

وقد مزج فى مؤلفاته المواد التاريخية ، والمواد الدينية والآداب وغير ذلك بالتفاصيل الجغرافية ، ومؤلفاته معتبرة عند الإفرنج وتكرر طبعها مع شروح مفيدة انتهى .

وقال مرييت فى تاريخه وبركش وغيرهما ممن لهم معرفة باللغة القديمة المصرية ، أن هذه المدينة كانت تنسب إلى فراعنة العائلة التاسعة والعشرين ، وكانت مدتهم إحدى وعشرين سنة ، وجلوس أول فراعنتها كان قبل المسيح بثلاثمائة وتسع وتسعين سنة .

وذكر هيرودوط : أن أهل هذه المدينة كانوا يحرمون أكل المعز ذكورا وإناثا ، وسببه أن النقاشين والمصورين كانوا يصورون رأس المقدس « بان » على صورة رأس أنثى المعز ، ورجليه على صورة رجلى تيس المعز ، قال : والذى يظهر أن هذا ليس هو السبب فى تحريم لحومها ، لأنهم كانوا لا يعتقدون أن المقدس « بان » كان على هذه الصورة .

قال : واحترامى للديانة يمنعنى أن أجزم بالسبب الذى حرموا أكلها لأجله ، غاية ما أقول أنهم كانوا يحترمون هذا النوع من الحيوان خصوصا التيوس حتى كانوا يحترمون رعاتها ، وإذا مات التيس المعظم عندهم يحزنون عليه ويلبسون الحداد ، وكان اسم التيس عندهم منديس انتهى .

وقال خليل الظاهرى وأبو الفداء وغيرهما أن هذه المدينة كانت من بلدان إقليم المرتاحية والدقهلية ، وكان بها دار إقامة حاكم الإقليم كما فى خطط المقريزى ، قال أبو الفداء : وكانت على خليج من النيل يجرى حتى يصب فى بركة المنزلة ، وهو المسمى الآن ببحر طناح .

وفى تاريخ بطاركة الإسكندرية أن الخليفة المتوكل رمّ أسوارها وأسوار مدن أخرى ، كدمياط ورشيد وتنيس بعد نهب اليونان تلك المدن وتخريبها ، وزعم بعضهم أن اسمها الأصلى أشمونين يونان نسبة إلى اليونان الذى هم الأروام وليس بصحيح ، وإنما أضيفت إلى الرومان لأن إقليم الدقهلية الذى منه هذه المدينة خصب ينتج فيه الرمان كثيرا جدا فيباع منه مقدار عظيم كل عام فى البلدان الأخر

وفى المقريزى أن الإفرنج نزلت قريبا من دمياط فى سنة ست عشرة وستمائة ، وملكوا البر الغربى ، ومن ذلك الوقت شاع موت الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن نجم أيوب بن شادى بن مروان الكردى الأيوبى ، وكان ابنه الملك الكامل نائبا عنه فى ديار مصر ، وأقطعه الشرقية وجعله ولى عهده وحلف الأمراء على ذلك ، فلما مات العادل ببلاد الشام استقل الملك الكامل بمملكة مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة وثبت لقتال الإفرنج ، وكانت العرب ثائرة بنواحى أرض مصر وكثر خلافهم واشتد ضررهم ، وكان الأمير عماد الدين المعروف بابن المشطوب أجل الأمراء بمصر ، وله لفيف من الأتراك الهكارية يريد خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الملك الفائز ووافقه الكثير من الأمراء على ذلك ، فلم يجد الملك الكامل بدا من الرحيل فى الليل وسار من العادلية إلى أشمون طناح / ونزل بها وأصبح العسكر بغير سلطان ، فركب كل واحد هواه ولم يعرج واحد منهم على آخر ، وتركوا أثقالهم ٧٣

فاغتنمها الفرنج وهَمَّ الكامل بمفارقة أرض مصر ، ثم إن الله تعالى ثبته وتلاحقت به العسكر ، وبعد يومين قدم عليه أخوه الملك المعظم عيسى بأشمون فاشتد عضده بأخيه ، وأخرج ابن المشطوب من العسكر إلى الشام ثم أخرج الفائز إبراهيم إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق يستنفرهم لجهاد الفرنج ، وجد الكامل فى قتال الفرنج وأتته الملوك من الأطراف ، فقدر الله أخذ الإفرنج دمياط بعد ما حاصروها ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ووضعوا السيف فى أهلها ، فرحل الكامل من أشمون ونزل المنصورة ، وبعد خطوب وقعت بين الفريقين تـم الأمر على الصلح وتسلم المسلمون مدينة دمياط فى التاسع والعشرين من رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، بعد أن أقامت بيد الإفرنج سنة وأحدَ عشر شهراً تنقص ستة أيام ، وسار الإفرنج إلى بلادهم وعاد السلطان إلى قلعة الجبل .

وفى الثالث والعشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة نزل الإفرنج على دمياط فملكوها ، وكان السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب بدمشق فقام عند ما بلغه حركة الإفرنج ونزل أشمون طناح وهو مريض انتهى .

ونقل كترمير عن كتاب السلوك أنه كان حصل وباء شديد فى الديار المصرية سنة سبعمائة . مات فيه كثير من البقر حتى تعطلت الدواليب والسواقى ، ونفق بالموت لرجل من مدينة أشمون طناح ألف بقرة وثلاثة من ألف وعشرين بقرة كانت له ، وعوّضت الأهالى البقر بالإبل والحمير وارتفع ثمن الثور إلى ألف درهم ، وكذا قبل ذلك فى سنة ستمائة وأربع وثمانين حصل موت كبير للبقر .

وفى الجبرتى أنه فى سنة إحدى ومائتين وألف حصل موت ذريع للبقر حتى صارت تتساقط فى الطرقات ، ومات لابن بسيونى غازى بناحية سنديون مائة وستون ثوراً انتهى .

ومما مر يعلم أن مدينة أشمون طناح كانت عامرة آهلة بل كانت منبعاً للعلماء والأكابر .

ترجمة جمال الدين الواسطى المعروف بالوجيزى

فقد ذكر صاحب حسن المحاضرة أن منها جمال الدين أحمد بن محمد بن سليمان الواسطى المعروف بالوجيزى ، لكونه كان يحفظ الوجيز للغزالى ، كان إماماً حافظاً للفقه شافعى المذهب ، ولد بأشمون الرمان سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وتفقه بالقاهرة إلى أن برع وناب فى الحكم بها ، نقل عنه ابن الرفعة على حاشية المطلب وأخذ عنه الأسنوى ، مات فى رجب سنة سبع وعشرين وسبعمائة رضى الله عنه .

أشمون جريس

قرية من أعمال المنوفية وهى رأس مركز واقعة على الشاطئ الشرق لبحر رشيد بقرب أم دينار بحرى أبشاق وكانت مكتوبة فى دفاتر التعداد باسم أشمون جريسات ، ومنها مارى مقرب ونقل إليها بعد قتله ، وكان بها معبد شاهده حاكم الإسكندرية ألوج وقت توجهه إلى الأقطار القبلية ، وتعجب من زينته وسأل عنه ، فأجابه بعض نصارى أشمون : أنه من بناء ديوفانس وهى عامرة إلى الآن انتهى .

وبينها وبين النيل نحو أربعمائة وخمسين قصبة وحولها سور من الآجر والمونة ، وبها جامع متسع له منارة مرتفعة يقال : إنه من بناء محمد بيك جركس أحد مماليك الأيوبية ، وست زوايا يصلى فيها غير الجمعة ، وبها خانات وحوانيت وقهوتان وخمارة ، وفيها محل لبيع القطن والغلال ، وفيها أربعة من الأوروباويين وبها معمل دجاج لأولاد ذى النون ، وثلاث حدائق واحدة لإسماعيل أفندى صالح معاون بمدارس المعارف بمصر ، وواحدة لسليمان أفندى محمد ، والثالثة لعباس أفندى ، وبها أضرحة لبعض الصلحاء منهم الشيخ خطاب البربرى ، والشيخ أبوطرطور ، والشيخ على المغربى ، والشيخ محمد خفير الدرب .

وفى غربيها بنحو خمسين قصبة كفر يعرف بكفر حسن زلابية ، وفيه ضريحه وفى غربيها أيضاً بأرض يقال لها : أرض أبى عوالى فى ضمن شجر هناك شجرة قديمة من شجر الأراك ينسبها الأهالى للشيخ ضرغام الحوّاش ، ويستعملونها كثيراً فى السّواك تبركاً بالشيخ المذكور ، وبين هذه القرية وقرية طليا تل قديم يسمى «كوم وسيم» فى حدود أطيان أشسون من الجهة القبلية ، وعدد أهلها أربعة آلاف وأربعمائة وأربع وأربعون نفساً ، منهم من يتكسب من الزرع ، ومنهم أرباب حرف من بناءين ونجارين وغير ذلك .

وزمام أطيانها خمسة آلاف فدان وأربعمائة فدان وواحد وثلاثون فداناً ما بين خراجى وعشورى ، وذلك أن من ضمنها عدة أباعد لبعض الأمراء مثل مرعشلى باشا ، وإسماعيل بيك محمد ومناو أفندى ، ونحرشد أفندى وشركائه عتق المرحوم رستم بيك ، وجميع أطيانها مأمونة الرىّ وفيها ثلاث عشر ساقية معينة عذبة الماء كثيرته بعد وقت إنتهاء نقص النيل نحو ثمانية أمتار .

ترجمة الشيخ محمد الأشمونى حفظه الله

وفيها كثير من الفقهاء حملة القرآن الكريم ، وممن نشأ منها من العلماء العلامة المحقق والفهامة المدقق ، غرة عصره وأوحد دهره ، الشيخ محمد الأشمونى الشافعى حفظه الله تعالى ومد فى أجله ، المشتغل دواماً بالإفادة والتدريس لكبار الكتب وصغارها من كل فن بالجامع الأزهر / فقد درس المطول ، وجمع الجوامع لما دونهما مراراً وقرأ التفسير والحديث كذلك ، ٧٤ ولم يشتغل بالتأليف وإنما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات فى حال قراءته لمختصر السعد نحو ثلاثين كراسة ، وكذلك فى حال قراءته للعقائد النسفية وقلّ من يُماثله فى الفصاحة وعذوبة المنطق وحسن الإلقاء وجودة الحفظ والفهم ، أخذ عن البرهان القويسنى ، وعن الحجة البولاقى ، وعن الشمس الفضالى ، وعن الفاضل المرصفى وغيرهم ، حتى حصل تحصيلاً زائداً ، وبرع فى كل فن ، وقد أخبر هو عن نفسه أنه من نسل أبى مدين التلمسانى فعلى هذا فهو متصل النسب بالنبى صلى الله عليه وسلم .

ترجمة شيخ المالكية الشيخ محمد عليش

قال : ومن نسله أيضاً شيخ المالكية الإمام الكبير والعلم الشهير محمد عليش المغربي الأزهرى صاحب التآليف العديدة والتصانيف المفيدة فى فنون شتى ، له شرح على مختصر الشيخ خليل فى فقه مالك أربعة أجزاء ضخام ، وشرح على مجموع الشيخ الأمير كذلك ، وحاشية على شرح مجموع الأمير أكبر من ذلك ، وألف فى البيان والمنطق والصرف والتوحيد وغير ذلك ، وكان فى حال حياته مستغرقاً زمنه فى التأليف والتدريس والعبادة ، متجافياً عن الدنيا وأهلها ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

ترجمة نور الدين الأشمونى شارح الألفية

وأما الشيخ الأشمونى شارح ألفية ابن مالك ، فقد وجد فى تقرير عن الشيخ على الصعيدى العدوى أنه من الأشمونين التى بالصعيد ، وقال الشيخ محمد الأشمونى المذكور : إنه من أشمون جريس هذه وأن أقاربه موجودون بها إلى الآن ، وهو الإمام نور الدين أبو الحسن على بن محمد الشافعى رضى الله عنه ، وقد ترجمه الشعرانى فى الذيل فقال : ومنهم أى من العلماء العاملين شيخنا الإمام الصالح الورع الزاهد نور الدين الأشمونى الشافعى رضى الله عنه ، وكان متقشفاً فى مأكله وملبسه وفرشه ، صحبته نحو ثلاث سنين كأنها سنة من حسن سمته وحلاوة لفظه وقلة كلامه ، ولم يزل على ذلك حتى مات رضى الله عنه ، نظم المنهاج فى الفقه وشرحه ، وشرح ألفية ابن مالك شرحاً عظيماً رضى الله عنه أ هـ .

الأشمونين

هكذا بصيغة التثنية مع ضم الهمزة كما فى أبى الفداء ، وهى إسم لمدينة كبيرة قديمة كثيرة الذكر فى مؤلفات سير أحبار القبط السالفين واقعة بين البحر اليوسفى والنيل ، ويقال : إنها من بناء الملكة كيلوبترة اليونانية ملكة مصر وكان يقال لها أيضاً : أشمون بالإفراد وكانت تسمى أيضاً هرموبوليس مانيا وكلمة هرموبوليس مركبة من كلمتين الأولى هرمو التى معناها طودا وأدريس ، والثانية بوليس التى معناها مدينة فيكون معنى مجموع الكلمتين مدينة هرمس : أى إدريس عليه السلام ، وكان له إحترام كبير عند المصريين ، ويعزون له الفنون النافعة وهو الذى نشر قواعد الموسيقى وقواعد الكتابة والحساب والمنطق وإختراع الأقيسة وجميع العلوم البشرية ، كما فى كتب الإفرنج فى كتاب لطرون أنه وجد فى خراب هذه المدينة عمود من حجر عليه كتابة رومية من معناها :

رفع هذا العلم لبقاء السعادة للقيصرين مرقوريل انطونان ومرقوريل كمود الملقبين أغسطس أرمينياق مديك برتيك جرمانيك سرمنتيك العظيمين وبقاء أهلهم أجمعين ، وكان العامل على مصر يومئذ مركوس مريوس منيوس والذى رفع هذا العلم أهل المدينة للمقدس هرمس الأكبر ، مقدس المدينة ولباقى المقدسين فى معبده .

والألقاب المذكورة كانت أسماء لولايات كتبت مع أسمائهم على النقود وغيرها للإشارة إلى أنها من ضمن سلطنتهم ، وقد عبثت الشواكيش بإسم القيصر كمود فتكسرت حروفه ، كما حصل ذلك فى كثير من أسماء القياصرة الموجودة على الآثار كاسم نيرون وديموسيان وغيطا وهليوجابال وجليرمكسيميان وجوليان المرتد ونحوهم ، وبإمعان النظر ظهر أن وضع هذا العمود كان فى سنة ثلاثين وتسعمائة من تاريخ رومة ، الموافق لسنة سبع وسبعين ومائة من الميلاد ، وأن إزالة إسم كمود كانت بأمر من السيناتو ، فإنه أمر بإزالة جميع تماثيله ومحو إسمه انتهى .

قالوا: وكان له معبد فى مدينة هرموبوليس مانيا فى الأقاليم القبلية ، وآخر فى الأقاليم البحرية يعرف فى الأزمان السالفة بإسم هرموبوليس باروا ، ومعبد آخر فى مدينة هرموتيش التى آثارها قريبة من مدينة طيبة العتيقة ، وكلمة مانيا التى معناها العظمى تدل على أنها من أعظم المدائن وآثارها الباقية إلى الآن تدل على ذلك أيضاً .

وكانت هذه المدينة بعيدة عن نهر النيل فى وسط الأرض ، والماء يصل إليها من جملة ترع ، وكانت قاعدة الوجه القبلى مدة من الزمن ، ولها إقليم يسمى بإسمها إلى أن بنى قيصر الروم تجاهها على النيل مدينة عظيمة سميت انتنوية وهى إنصنا فكانت سبباً فى إنحطاطها ، وقد يشاهد فى الآثار الباقية منها آثار الأجيال والأمم الذين تعاقبوا على هذه الديار من المصريين واليونانيين والرومانيين .

وجميع هذه المبانى هدمت وحصل من أنقاضها تلول شاهقة الارتفاع باقية إلى الآن ولم نقف على تاريخ بناء هذه المدينة من أقوال المؤرخين ، ولكن فى إسمها كفاية / فى الدلالة على قدمها .

٧٥

وذكر هيرودوط : أن الطير المقدس المعروف باسم أبيس كان يدفن بها ؛ كما أن الباشق أو البازكان يدفن بمدينة بولو فى حدود بحيرة البرلس ، وكان النمس محترما فيها على قول استرابون ، وكانت فى زمن قيصر الروم من المدن المشهورة الكثيرة العمران وضربت فيها ميداليات باسم المدينة عليها صورة الطير أبيس المجعول علما على أزريس كماكانت الشمس كذلك ، وكانت شهرتها باقية فى زمن القيصر انتونان والقيصر ماركوريل وفى زمن أميان مرسيلان كانت من أعظم المدن ، وكان بها رباط من الخيالة وكان بها فى القرون الوسطى دار أسقفية يتبعها جملة من الديور المتفرعة فى بلاد الجيزة .

ومن الأسباب التى أوجبت خراب هذه المدينة زيادة على مدينة أنصنا نقص مياه بحر يوسف الذى كان معداً لسقى المزروعات ، فإنه أهمل أمره فى زمن حكومة الرومانيين فأوجب ذلك اضمحلال المدينة باضمحلال حال الزراعة ، ونشأ عن ذلك مفارقة الأهالى لها وقربهم من النيل ، وبنيت مدينة ملوى قبلى تلك المدينة على بعد فرسخين منها ، وسميت ملوى العريش فقامت مقامها .

وفى سنة ١٧٢٠ ميلادية كانت هى مركز المديرية ويجتمع فى موردتها عدد كثير من السفن المشحونة بالغلال لأجل إرسالها إلى مكة المشرفة وكان يرد عليها تجارة بلاد العرب ، ثم تحول النيل عن حيطانها ففارقها سعدها مع مفارقة النيل ، فقامت عوضا عنها مدينة المنية وصارت رأس مديرية إلى الآن ، ومع ذلك فمديرية المنية كانت تسمى مديرية الأشمونين أو ولاية الأشمونين أو إقليم الأشمونين .

ويستفاد من خطط انطونان أن البعد بين مدينة الأشمونين وأسيوط تسعة وخمسون ميلا رومانيا وهو ألف وأربعمائة وثمانية وسبعون مترا ، فيكون هذا البعد ٨٧٢٠٢ ، وقد قيس هذا البعد الآن على الخرطة فوجد ٨٧٥٠٠ ، والفرق بينهما يسير ، وهو يدل على أن الآثار الباقية إلى الآن هى آثار مدينة الأشمونين بلا ريب ، والآثار الباقية إلى زمن الفرنساوية كانت قطع أعمدة وحجارة ضخمة وباب عظيم كان لمعبد تهدم وقد وصفوه فى خططهم وقاسوا أبعاد أعمدته وأجزائه فى محور الخراب على بعد ستمائة وخمسين مترا من نهايته الغربية ، وكان القائم منه على الأرض اثنى عشر عموداً فوقها جزء من البناء الأصلى ، وقالوا يغلب على الظن أنه كان له ثمانية عشر أو أربعة عشر عموداً ، وأن الآثار الباقية منه تدل على أن اتجاهه بالضبط اتجاه الشمال المغناطيسى ، بمعنى أن الواجهة محررة على الجنوب المذكور كما علم ذلك بالرصد فى يوم ٢٩ من أكتوبر الافرنكى سنة ١٨٠٠ ميلادية ، وهو مخالف لما اعتاده المصريون من جعل واجهات المعابد فى اتجاه الشرق ؛ ولكن لما كان محور العمارة موازيا لاتجاه مجرى النيل كان يتخرج على القاعدة المتبعة ، واتجاه نفس المدينة هو الاتجاه الذى جعلوه للمعبد ومحور

الإثنين يكاد ينطبق خطاً واحداً ، فلو لم تؤثر الأيام فى المبانى الباقية من هذه العمارة وتهدمها كما هدمت غيرها لكان محور المعبد نافعا فى معرفة التغيرات التى تحصل للمحور المغناطيسى فى جميع الأوقات ، والارتفاع الكلى للباب فوق قاعدة الأعمدة ستة عشر متراً وثلثان ، وارتفاع القاعدة سبعة أعشار متر ، وجسم العمود مع التاج ثلاثة عشر متراً وستة عشر سنتيا ، ومحيط العمود من مبدأ الخيرزان من المدماك الرابع ثمانية أمتار وثمانية أعشار متر ، وقطره متران وثمانية أعشار متر ، وفى قاعدة الجسم ثمانية أمتار وسبعة أعشار متر ، والتاج مع الصحفة ثلاثة أمتار وأربعة وتسعون جزأ من مائة من المتر ، والمسافة الوسطى بين الأعمدة خمسة أمتار وخمس متر ، وكل من المسافات الأخر أربعة أمتار فقط .

ويتحقق من كيفية البناء والمواد المتركب منها والأبعاد الأخر ، أنه من أعظم المبانى المصرية وأمتنها ؛ واعلم أن المداميك المكون منها كل عمود جميعها متساوية وارتفاع كل واحد ستة وخمسون جزأً من مائة من المتر ، فلو جعل هذا الارتفاع وحدة لوجد الجزء الأسفل من العمود ثلاث وحدات ، والمتوسط أربع وحدات والأعلى أربعا أيضاً ، واللّحامات السّفلى واحدة ونصف ، واللّحامات الأخر كل منها اثنان والتاج ستة والصحفة واحدة ، فإن فرض أن القاعدة واحدة ونصف يكون الارتفاع الكلى ٢٥ فإن نسبنا هذه المقادير للذراع المصرى الذى مقداره أربعمائة واثنان وستون جزأً من المتر ، كان ارتفاع الأعمدة به ثلاثين ذراعا والقطر ستة أذرع ، وكان ارتفاع الطريقة المتبعة ستة وثلاثين ، والعتب المركب على الأعمدة مكون من خمسة أحجار ضخمة فى جميع الواجهة وأطول هذه الأحجار موضوع فى الوسط ، وطوله ثمانية أمتار وكل من الأحجار الأخر ستة أمتار وثمانية أجزاء من مائة من متر ، والحجر الباقى من أحجار التكنة أكبر الجميع ، ومقدار طوله عشرة أمتار وثمانية أجزاء .

والغالب أن هذه الأحجار استخرجت من بيزا التى هى بلدة قديمة على الشاطئ الثانى للنيل وإلى / الآن تشاهد محاجرها العظيمة .

٧٦

وفى الجهة البحرية من مدينة هرموبوليس على بعد ستة ميريا متر محل يعرف باسم أبيو أو أبيوم يعنى مدينة الأبيس ، فهو من ملحقات المدينة العتيقة وله ارتباط بعمارتها ، ويسمى الآن بين الأهالى طحا العمودين ، وفى الجهة الغربية من مدينة الأشمونين خلف بحر يوسف آثار مدينة بانيس المذكورة فى مؤلفات استرابون وشهرتها الآن بين الأهالى بتومة أو تونا الجبل .

ويرى فى الجبل القريب من هذه المدينة محاجر كانت تستعمل فى الأزمان السابقة ، ومغارات وواد يتوصل منه إلى البهنسا والفيوم والواحات الصغيرة ، ويستفاد من كلام من ساحوا فى الديار المصرية فى الأزمان السابقة أن بحر يوسف كان يستعمل كثيرا فى الملاحة بين مدينة منف ومدن الأقاليم القبلية .

وكان بقرب الأشمونين موضع يقال له : حرموبوليت فلاس يؤخذ فيه الجمرك على المراكب المنحدرة ، وموضع آخر يسمى بتيايكا فلاس يؤخذ فيه على المراكب المصعدة من منفيس إلى الجهات القبلية وأحدهما يوافق دروط سربام ، والآخر يوافق دروط أشموم كما يؤخذ من استرابون وسيأتى ذلك فى الدروطين .

وحكى ابن حوقل أن مدينة الأشمونين جيدة البناء فى أرضها مزارع نخيل وأطيان تصلح للفلاحة ، وكان يجلب منها للبلاد الأخر مقدار كثير من الثياب .

وقال خليل الظاهرى : إن إقليم الأشمونين يشتمل على مدينتين الأولى الأشمونين ، والثانية منية ابن خصيب وكان فى إقليمها ١٣٣ قرية صغيرة وقد أطال المقريزى الكلام عليها وذكر أنه كان يعمل فيها فرش القرمز الذى يشبه الأرمنى ، وكان ينزل بأرضها عدة بطون من بنى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا أهل بادية وأصحاب شوكة ، وكان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان حلفاء لهم ، ومعهم بطن آخر يقال لهم : بنو عسكر يقال إن أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان ويزعمون أنهم من بنى أمية ، وكان معهم أيضاً حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان ينزلون أرض دلجة عند أشمونين .

وذكر ابن إياس أن من جملة تجارتها الخيل والبغال والحمير ، وقال أبو صلاح : إن فى جزيرة الأشمونين ثلاثمائة قرية ، وبها بربا أى هيكل عتيق من أيام الجاهلية بقرب بابها الجنوبى وعدد كثير من الكنائس وقال : أبوالفداء أن الأشمونين مدينة عظيمة من المدائن القبلية يشاهد فيها دعائم من أحجار وآثار أخر ضخمة تدل على قدمها ومساحتها نحو ألف فدان ، وهى على الشاطئ الغربى من النيل بينها وبينه مسيرة فرسخ ويقال : إن الذى أنشأها أولاً هو إسكندر الأكبر المقدونى اهـ .

والقرية الموجودة الآن فى جانب منها وبها كوهرجلة وبعض أهلها يحفر فى تلول المدينة حتى يظهر الأبنية القديمة فيجعلها مسكناً بلا تجديد بناء ، وفيها نخل قليل ومساجد صغيرة ، ولها قاض وهى الآن تبع الدائرة السنية ، وفى جهتها الغربية جبل أباح ، وكان لها مينا على النيل وقت أن عرفت عند المسلمين بأشمونين .

وفى كتاب فتح الرحيم الرحمن شرح لامية ابن الوردى عند قوله :

لا تساوى لذة الحكم بما ذاقه الشخص إذا الشخص انعزل
فالولايات وإن طابت لمن ذاقها فالسم فى ذاك العسل

إنه لما تفرق الأمر عن مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية وقبض عليه وقتل ببوصير ، هرب كاتبه عبدالحميد بن يحيى إلى قرية الأشمونين واختفى فيها فدُلّ عليه وحُمِل إلى أبى العباس السفاح بأمان فلم يحظ عنده انتهى .

وقد ذكرنا ترجمة كل منهما فى الكلام على بوصير .

مطلب ذكر علماء الأشمونين

وفى بعض التقاييد أن من علماء هذه المدينة نور الدين أبا الحسن على بن محمد الشافعى شارح ألفية ابن مالك كما مر فى أشمون جريس . وفى حسن المحاضرة للسيوطى : أن عبدالعزيز بن أحمد بن عثمان الكردى كان يعرف بابن خطيب الأشمونين درس وأفتى وألف على حديث الأعرابى الذى جامع فى رمضان كتابا نفيسا فيه ألف فائدة وفائدة ، وولى قضاء الأعمال القوصية والمحلة ، ودرس بالمعزية بمصر مات فى أواخر سنة سبع وعشرين وسبعمائة .

وفى ذيل الطبقات للشعرانى أن منها الشيخ العالم العامل الورع الزاهد الشيخ تقى الدين الأشمونى الأقطع الشافعى ، أخذ عن ابن أبى شريف والجلال السيوطى ودرس وأفتى ببلاد الأشمونين ، ثم قدم مصر ودرس فى الخشابية نيابة عن ناصر الدين الطبلاوى ، وفى جامع ابن طولون وفى جامع يونس خارج قناطر السباع ، صحبته نحو عشرين سنة وهو فى غاية الزهد والخشية من الله تعالى ، قطعت يده ظلما فى أيام خاير بيك ملك الأمراء فى قصة طويلة انتهى باختصار .

اشنــواى

قرية بمديرية الغربية من قسم الجعفرية على ترعة جعفرية القاصد من جهة الشرق على بعد مائة وخمسة وسبعين مترا ، وفى جنوب عزبة طوخ بنحو ألفى متر وغربى شنراق بنحو ثلاثة آلاف متر ، وبها جامع بمنارة أنشأه / المرحوم أحمد أغا المنشاوى ، وبها معملان للفراريج ومنازل مشيدة وقد ترقى منها أحمد أغا المذكور بوظيفة ناظر قسم طندتا سنة سبع وأربعين ومائتين وألف فبقى كذلك سبع سنين ، ثم توفى إلى رحمة الله .

٧٧

ومن بعده ترقى من أولاده محمد بيك المنشاوى سنة خمس وسبعين ومائتين وألف بوظيفة ناظر قسم الجعفرية ، ثم إلى رتبة اميرالآى وجعل وكيل مديرية الدقهلية ، ثم مديرا لتلك المديرية ، ثم بمديرية الشرقية ، ثم صار من أعضاء مجلس الأحكام بمصر ، وكذا ترقى أخوه بسيونى بيك برتبة قائم مقام مفتش زراعات الخديوى إسماعيل باشا ، وكذا أخوهما أحمد بيك إلى رتبة القائم مقام مفتش زراعات أيضاً .

وبهذه الناحية مقام سيدى على البريدى فى داخل جامع يعمل له ليلة فى كل سنة ، ومقام سيدى حسين الزعفرانى ، وبها ثلاث حدائق وجملة من السواق المعينة ارتفاعها عن سطح البحر زمن التحاريق نحو العشرة أمتار ، وريها من الفرع الجديد الخارج من ترعة الجعفرية ومن جنابية القرشية ، وعدد أهلها نحو ستمائة نفس ، ولها طريق يوصل إلى طندتا فى نحو ساعة فيمر السالك فيه بناحية إخنا .

الأطارشـــة

قرية من مديرية المنوفيه بمركز سبك على بحر شيبين من الجهة الغربية وبها جامع قد صار ترميمه سنة ثمانين ومائتين وألف ، وبها ستة بساتين مشتملة على كثير من الفواكه وبها مقام يزار يعرف بمقام سيدى محمد العجمى ، وأهلها مسلمون وعددهم ذكوراً وإناثاً ستمائة نفس ، وزمام أطيانها مائتان وأربعون فدانا تروى من النيل وبها سواق معينة وزراعتها القطن والحبوب ومنها إلى مدينة منوف نحو ثلاث ساعات .

اسطــال (١)

قرية من مديرية المنية بقسم قلوصنا غربى ناحية جوادة بنحو أربعة آلاف ومائتين وخمسين مترا ، وفى شرقى ناحية داقوف بنحو ألفين وخمسمائة متر وبدائرها نخيل كثير ، وهى من البلاد التى كانت بها الحراج وسنط القرظ وسيأتى بسط الكلام على ذلك فى المهنسا

(١) وضعت فى غير ترتيبها ويجب أن تكون بعد أرمنت وقبل أسفون ص ١٨٤

أطصـا

قرية من قرى الفيوم بقسم مدينة الفيوم وكانت سابقا رأس خط وهى قرية كبيرة واقعة على الشاطئ القبلى لبحر عروس ، وبها نخيل كثيرة وزيتون وأبنيتها باللّبن والآجر ، وبها جامع عامر ووابور لحلج القطن وعصر الزيت ، ومدينة الفيوم فى شمالها الشرقى على نحو ساعتين ، وفى غربيها قرية دفنو وبعض أطيانها يروى بالراحة ، وبعضها فى ملقة قلم شاه المحافظ عليها حائط المنية الآتى ذكرها فى قرية منية الحيط ، وفم البحر الذى تروى منه أرضها وأرض ما جاورها من البلاد خارج من اليوسفى قبلى المدينة بنحو ثلثى ساعة ، وهو فى قبلى نزلة الخواجة درونيو وعليه سواقى هدير لرىّ الأطيان المرتفعة من أراضى قرية درونة وغيرها ، وبعد امتداده إلى الغرب بنحو ثلثى ساعة توجد به نصبة بها ثلاثة أفواه ، القبلى لعزبة بوصير دفنو ، والوسط لجملة بلاد والبحرى لناحية معصرة عرفة ويقال لها : المعيصرة أيضاً ، ثم الوسط بعد سيره إلى الجنوب الغربى نحو نصف ساعة ينقسم بنصبة إلى ثلاثة أفواه أيضا : الشرقى لناحية دفنو والوسط لجملة قرى والغربى لناحية الصوافنة ، ثم بعد امتداد الوسط إلى الجنوب الغربى أيضا بنحو ثلث ساعة ينقسم بنصبة تحت أطصا من الجهة البحرية إلى ستة أقسام القبلى لناحية أطصا ، وما يليه لناحية منية الحيط ، وما يليه للغدامنة ، والرابع للجعافرة ، والخامس للغابة ، والسادس إلى بحر أبى المنير ومنشأة حلفا ، ثم هذا الأخير بعد سيره مغربا نحو نصف ساعة ينقسم بنصبة أيضاً إلى قسمين : القبلى لناحية بحر أبى المنير ، والثانى لناحية منشأة حلفا

والنصبة عبارة عن بنيان متين من الآجر الجيد والمونة القوية من الجير والطين أو الرمل الجبلى بجعل ذلك البناء فى عرض البحر ويكون فى الشاطئين على أرصفة متينة فى الأمام والخلف على قدر اللزوم ، ويجعل ارتفاع البناء بنسبة أعلى الأراضى التى هو لها ، وإذا كان البحر مختصا ببلد واحدة جعل فى فمه قنطرة لها فرش وعتب وأرصفة وتجعل فتحتها بنسبة الأطيان التى هى لها ، وإذا كان لجملة بلاد احتاج لنصبة ينقسم بها فيعمل الفرش ويرفع البناء جميعه من جهة الأمام بنسبة الأراضى ومن جهة الخلف يأخذ فى الميل فى كل بحر من الأبحر التى ينقسم إليها حتى يجتمع فى أرض البحر المذكور ، ويعطى كل بحر عرضا بنسبة الأطيان التى يرويها ويحفظ ذلك العرض بعتب وحجر من الصوان ، والفرش اللازم لكل بحر يختلف امتداده بحسب الانحدار ، فتارة يكون خمسة أذرع فى الأبحر القليلة الانحدار ، وتارة يكون أكثر من ذلك إلى خمسة وعشرين ذراعاً على حسب شدة جريان الماء وخفته .

إطفيح

هذه المدينة من المدائن القديمة بالديار المصرية ومذكورة فى مؤلفات استرابون وبطليموس وخطط انطونان وخطط الرومانيين باسم افرودتيوبوليس التى كانت رأس مدينة تعرف بمديرية افرود تيوبوليس ، وكون إطفيح فى محل مدينة افرود تيوبوليس هو مقتضى الأبعاد المقدرة لها فى تلك المؤلفات ، وهو أيضاً / ٧٨ مقتضى ما ذكره انطونان أن من هذه المدينة إلى أنصنا مائة وعشرين ميلاً رومانياً ، والبعد بين إطفيح وأنصنا لا يفرق إلا بخمسة أميال عن هذا المقدار وهو فرق يسير لا يوجب تغايرهما .

وذكر استرابون أن أهالى هذه المدينة كانوا يربون بقرة بيضاء ويحترمونها وقد علم من الكتابة القديمة أن هذه البقرة كانت علما على المقدسة أزيس ، وكانوا يرسمون المقدسة تارة فى صورة بقرة وهوروس ابنها يرضعها ، وتارة فى صورة إنسان رأسه رأس بقرة ، وكما أن مدينة افرود تيوبوليس كانت رأس مديرية كذلك كانت بعدها مدينة إطفيح رأس مديرية مدة .

وهى بلدة كبيرة قديمة واقعة على يمين النيل ينسب اليها خطها فيقال شرق إطفيح .

ترجمة وحاطة بن سعد الإطفيحى

وفى المقريزى عند ذكر مساجد القرافة الكبرى بمصر أنه نشأ من إطفيح فى القرن الخامس من الهجرة رجل يقال له : وحاطة بن سعد الإطفيحى ، شيخ له سمت ، وقد كتب الحديث فى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وما قبلها ، وسمع من الحباك وهو فى طبقته ، وهو رفيق الفراء وابن مشرف وابن الحظية وأبى صادق ، وسلك طريق أهل القناعة والزهد والعزلة كأبى العباس بن الحظية ، وكان له مسجد فى البطحاء بمجرى مجرى جامع الفيلة إلى الشرق يقال: له مسجد الإطفيحى .

وكان الأفضل الكبير شاهنشاه صاحب مصر قد لزمه واتخذ السعى إليه مفترضا والحديث معه شهوة وغرضا لا ينقطع عنه ، وكان فكه الحديث قد وقف من أخبار الناس والدول على القديم والحديث وقصده الناس لأجل حلول السلطان عنده لقضاء حوائجهم فقضاها ، وصار مسجده موئلا للحاضر والبادى وصدى لإجابة صوت النادى ، وشكا الشيخ إلى الأفضل تعذر الماء ووصوله إليه فأمر ببناء القناطر التى كانت فى عرض القرافة من المجرى الكبيرة الطيلونية ، فبنيت إلى المسجد الذى به الإطفيحى ، وأنفق عليها خمسة آلاف دينار ، وعمل الإطفيحى صهريج ماء شرق المسجد عظيما محكم الصنعة وحماماً وبستاناً كان به نخلة سقطت بعد سنة خمسين وخمسمائة ، وعمل الأفضل له مقعداً بحذاء المسجد إلى الشرق وقاعة صغيرة مرخمة إذا جاء عنده جلس فيها وخلا بنفسه واجتمع معه وحادثه ،

وكان هذا المقعد على هيئة المنظرة بغير ساتر كل من قصد الإطفيحى من الكتنى يراه ، وكان الافضل لا يأخذه عنه القرار يخرج فى أكثر الأوقات من دار الملك بكرة أو ظهراً أو عصراً بغتة فيترجل ويدق الباب وقاراً للشيخ ، كما كان الصحابة رضى الله عنهم يقرعون أبواب النبى صلى الله عليه وسلم بظفر الإبهام والمسبحة كما يحصب بهما الحاصب ، فإن كان الشيخ يصلى لا يزال واقفاً حتى يخرج من الصلاة ويقول : من ؟ فيقول ولدك شاهنشاه فيقول : نعم ثم يفتح فيصافحه الأفضل ويمر بيده التى لمس بها يد الشيخ على وجهه ويدخل فيقول الشيخ : نصرك الله ، أيدك الله سددك الله ، هذه الدعوات الثلاث لا غير أبدا ، فيقول الأفضل آمين .

وبنى له الأفضل المصلى ذا المحاريب الثلاثة شرقى المسجد إلى القبلى قليلا ويعرف بمصلى الإطفيحى كان يصلى فيه على جنائز موتى القرافة ، وكان سبب اختصاص الأفضل بهذا الشيخ إنه لما كان محاصرا نزار بن المستنصر بالإسكندرية ، وناصر الدولة أفتكين الأرمنى أحد مماليك أمير الجيوش بدر ، وكانت أم الأفضل إذ ذاك وهى عجوز لها سمت ووقار تطوف

كل يوم وفى الجمعة ، الجوامع والمساجد والرباطات والأسواق وتستقص الأخبار وتعلم محب ولدها الأفضل من مبغضه ، وكان الإطفيحى قد سمع بخبرها فجاءت يوم جمعة إلى مسجده وقالت يا سيدى : ولدى فى العسكر مع الأفضل الله يأخذ لى الحق منه فإنى خائفة على ولدى فادع الله لى أن يسلمه .

فقال لها الشيخ : يا أَمَة الله أما تستحين تدعين على سلطان الله فى أرضه المجاهد عن دينه ، الله تعالى ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك ، ما هو إن شاء الله إلا منصور مؤيد مظفر ، كأنك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه وأتى على أحسن قضية وأجمل طوية فلا تشغلى لك سرا ، فما يكون إلا خير إن شاء الله تعالى .

ثم إنها اجتازت بعد ذلك بالفار الصيرفى بالقاهرة بالسراجين ، وهو والد الأمير عبدالكريم الآمرى صاحب السيف ، وكان عبدالكريم قد ولى مصر بعد ذلك فى الأيام الحافظية ، وكان عبدالكريم هذا له فى أيام الآمر وجاهة عظيمة وصولة ، ثم افتقر فوقفت أم الأفضل على الصيرفى تصرف دينارا وتسمع ما يقول : لأنه كان إسماعيليا متغاليا فقالت له : ولدى مع الأفضل وما أدرى ما خبره ، فقال لها الفار : لعن الله المذكور الأرمنى الكلب العبد السوء ابن العبد السوء ، مضى يقاتل مولاه ومولى الخلق ، كأنك والله يا عجوز برأسه جائزا من ههنا على رمح قدام مولاه نزار ومولاى ناصر الدولة إن شاء الله تعالى والله يلطف بولدك ، من قال لك تخليه يمضى مع هذا الكلب المنافق وهو لا يعرف من هى .

ثم وقفت على ابن بابان الحلبى وكان بَزَّازاً بسوق القاهرة ، فقالت له مثل ما قالت للفار الصيرفى . وقال لها مثل ما قال لها ، فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة وفتح الإسكندرية / حدثته والدته الحديث وقالت : إن كان لك أب بعد أمير الجيوش ، فهذا الشيخ الإطفيحى ، فلما خلع عليه المستعلى بالقصر وعاد إلى دار الملك بمصر اجتاز بالبزازين ، فلما نظر إلى ابن بابان الحلبى . قال : انزلوا بهذا فنزلوا به فقال : رأسه فضربت عنقه تحت دكانه ، ثم قال : لعبد على أحد مقدمى ركابه . قف ههنا لا يضيع له شئ إلى أن يأتى أهله فيستلموا قماشه .

٧٩

ثم وصل إلى دكان الفار الصيرفى فقال : إنزلوا بهذا فنزلوا به فقال : رأسه فضربت عنقه تحت دكانه ، وقال ليوسف الأصغر أحد مقدمى الركاب اجلس على حانوته إلى أن يأتى أهله ويستلموا موجوده ، وإياك وماله وصندوقه ، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه ، كان لنا خصم أخذناه وفعلنا به ما يردع غيره عن فعله وما لنا وما له وفقر أهله ، ثم أتى الأفضل إلى الشيخ أبى طاهر الإطفيحى وقربه وخصصه إلى أن كان من أمره ما شرحناه انتهى .

وفيه أيضا قال المسبحى فى حوادث سنة خمس وأربعمائة هجرية وقرئ يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر صفر سجل بتحبيس عدة ضياع وهى : إطفيح وصول وطوخ وستة ضياع أخر وعدة قياسر وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع والقوّام بها ونفقة المارستان وأرزاق المستخدمين فيها وثمن الأكفان اهـ .

ترجمة الشيخ عبدالرحمن بن أحمد بن عمر الإطفيحى

وفى الضوء [1] اللامع للسخاوى أنه ولد بهذه البلدة الشيخ عبدالرحمن بن أحمد بن عمر بن عرفات بن عوض بن الشهاب بن السّراج الأنصارى الإطفيحى القمنى ثم القاهرى الشافعى ، ولد فى سنة تسعين وسبعمائة تقريبا ونشأ بها فحفظ القرآن وانتقل مع أبيه إلى القاهرة فجوّد القرآن واشتغل بالفقه والنحو والأصول والمعانى والبيان والعروض على عمه الزين القمنى ، وعلى الابناسى والبساطى والقرمانى والتنوخى وآخرين ، وأجازت له عائشة إبنة ابن عبدالهادى وطائفة ، وذكر أن السراج البلقينى أجاز له وتكسب بالشهادة بل ناب فى القضاء عن العلم البلقينى ، وولى مشيخة الصوفية بتربة يونس الدوادار المجاورة لتربة الظاهر برقوق .

(١) انظر الضوء اللامع للسخاوى ٤/٥٤ ط القدسى سنة ١٣٥٤ القاهرة .

قال وسمعت عليه ختم البخارى وبعض المستخرج على مسلم لأبى نعيم ، وكان حامدا مقبلا على شأنه حريصا على الملازمة لمجلسه بحيث يرجع من الحضور ماشيا فيجلس فيه إلى الغروب غالبا ، مقترا على نفسه مع تموّله . مات فى سنة ستين أو قبلها بيسير بعد الثمانمائة ومن نظمه يمدح شيخنا :

يا سيدًا حازَ الحديثَ بصحة ... بالحفظ والإسناد حقاً يفضُل
يا مالكا بالعلم كل مدرس ... شيخ الشيوخ وأنت فيهم أمثل
يا حاوياً كنز العلوم بفهمه ... قاضى القضاة المنعم المتفضل
الفضل والعباس أنت أبوهما ... يا باسما والوجه منه مهلل

انتهى .

ترجمة الشيخ عبدالرحمن بن أحمد بن يعقوب الإطفيحى

وينسب إليها كما فى الضوء[1] اللامع أيضاً عبدالرحمن بن أحمد بن يعقوب بن أحمد بن عبدالمنعم بن أحمد الزين أبوالفضل بن الشهاب بن الشرف الإطفيحى الأزهرى القاهرى الشافعى شقيق المحب محمد ويعرف كأبيه بابن يعقوب ، ولد فى ذى الحجة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة ، ونشأ بها فى كنف أبويه فى غاية ما يكون من الرفاهية والنعمة فحفظ القرآن وتنقيح اللباب لخاله ، وسمع على شيخنا وغيره وباشر النقابة وجهات الحرمين وغير ذلك ، وحج غير مرة ، وكان شكلاً ظريفاً ذكياً بساماً حسن العشرة قريحته سليمة وذهنه مستقيم وطبعه وزان وقد كتبت عنه قوله :

همذانى الاصل واش لا ترم فيه سعاده
إنه شخص ثقيل وهو همّ وزياده

مات ثالث عشر شوال سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة .

(١) ورد بهذا المرجع ١٦٩/٤ بلفظ « عبدالرحيم » .

وإطفيح الآن بندر القرى المجاورة لها ، وهى رأس قسم من مديرية الجيزة ، وبها وكالة يبيت بها بعض الطارئين ودكاكين قليلة يباع بها بعض العقاقير والأقمشة ، وفى زمن العزيز المرحوم محمد على كانت محل إقامة المأمور ، وأولاً كان شرق إطفيح من الأقاليم الوسطى ، ثم أضيف إلى مديرية الجيزة فى سنة ١٢٥٠ هـ وسبب اضمحلال تلك المدينة وتطرق أيدى الخراب إليها قبل العائلة المحمدية وكذلك ما حواليها من أعمالها ، هو قربها من الجبل ، فكانت عرضة لإغارات العرب للسّلب والتخريب ، وفى زمن المماليك والصناجق كانت مركزاً للمطرودين والأشرار فأهلكوا منها الحرث والنسل ، ولما أنعم الله تعالى على الديار المصرية بالعزيز وخلص هذه الديار من الأشرار وطرد منها المماليك وغيرهم من المفسدين ، التفت إلى عمارية تلك البلاد فعمل فى جميع القطر أعمالا جليلة وآثاراً جميلة أورثته ثروة ونال شرق إطفيح من ذلك حظاً وافراً ، فإنه فضلا عن تأمينه من الغارات وغيرها قد أنشأ له ترعة الكريمات الشهيرة بترعة شرق إطفيح وجعل فمها من الكريمات وطولها نحو ستة عشر ألف قصبة وجعل / فيها عدة فروع لكل حوض فرع لرى أرضها ، وجعلت بها جملة قناطر وأحدثت هناك جملة جسور ، فحصل بذلك صلاح أحوال الزراعة بتلك النواحى وعمار بلادها سنة بعد سنة حتى وصلت إلى الحالة التى هى عليها الآن ، إلا أنه فى بعض السنين تنصّب على أرضها سيول جسيمة من أفواه الأودية التى بسفح الجبل ، وربما حصل منها مضرّات فلو عملت ترع لصرف تلك السّيول كما كان يعمل سابقاً لكان من محاسن الأوضاع ، وقد حصل التصميم من الخديوى إسماعيل باشا على جعل ترعة الكريمات تجرى صيفا وشتاء ، وتمتد إلى أن تمر خلف القاهرة بين القلعة والجبل حتى تمر من تحت الترعة الإسماعيلية ، لتروى منها بلاد مديرية القليوبية حتى فى زمن الصيف ولم تعمل إلى الآن ـ أعنى سنة ١٣٠٥ هـ ـ ، ولو تمت هذه الترعة لكان قد أهدى إلى القاهرة وإلى أهالى تلك الجهات هدية تدعوهم إلى إدامة الثناء عليه والدعاء له ولأنجاله بتخليد دولتهم ، لأنها تكون نفعاً صرفاً لبلاد إطفيح إلى ما وراء بلاد القليوبية ، وتتحلى مدينة القاهرة فى جهتها القبلية والشرقية بالبساتين والعمارات ، وتتخلص من مضرات التلول السبخة المرتفعة على مساكنها من هاتين الجهتين ، سيما فى وقت الحر ووقت هبوب الريح وليست هذه بأول مزاياه ومحاسن أفكاره بارك الله فيه وفى أنجاله .

٨٠

الآطيـــا

هذه المدينة كانت تسمى قديماً لوسين وكان اللاتينيون يسمونها جونون والآطيا اسم يونانى ، وهى التى محلها الآن قرية صغيرة تعرف بالكاب على الشاطىء الأيمن للنيل بالصعيد الأعلى قبلى مدينة أدفو على بعد فرسخين منها ، وبقربها تلال قديمة وآثار من المدينة العتيقة ، وفى زمن دخول الفرنساوية ديار مصر كان جزء من أرضها التى كانت تزرع فى الأيام السابقة قد غطى بالرمال ، بسبب ضياع الترع والأشجار التى كان المصريون يستعينون بها فى الأزمان الماضية على منع الرمال من التعدى على أرض الزراعة ، وكان لا يزرع فى ذاك الوقت إلا الجزء المجاور لمجرى النيل ، وكانت جميع هذه الأراضى مستوية ويحدها الجبل ، وكان يشاهد هناك سور مربع الشكل يشبه قلعة وفى وسطه أعمدة وبعض حيطانه فى غاية من الغلظ ، وبين أرض المزارع والصحراء طريق من قرية الكاب إلى قرية المحامد ، وفى وسط المسافة بين السور المربع وقرية المحامد معبد صغير منعزل ، وعلى بعد منه يرى كوم من الحجارة فى صورة باب جسيم .

وفى الجبل مغارات وحفر تدل على أن المدينة كانت بالقرب منها ؛ لأن المصريين كانوا ينحتون من الجبال قبورا لأمواتهم ويأخذون حجارتها لبناء مساكن أحيائهم ، وكانت مساكن الأحياء فى الغالب فى طول مجرى النهر وعلى شاطئه ، كما أن مساكن الأموات كانت ممتدة فى طول سير الجبل وفى حدود الصحراء ، والسور السابق الذكر مبنى من اللّبن الكبير ، وطول ضلعه ستمائة وأربعون متراً وارتفاعه تسعة أمتار ، وسمكه أحد عشر وخمسة أجزاء من مائة من

المتر ، وقد قيست لبنة منه فوجد ارتفاعها ثمانية وثلاثين جزءاً من مائة من متر ، وعرضها ثلاثون جزءاً والسمك كذلك ، ويظهر أن هذا السور كان مجعولاً لوقاية المبانى التى فى داخله من إغارات العرب ونحوهم ، فإن العادة كانت جارية بإحاطة المعابد والسرايات ونحوها بالأسوار ، ويجعلون فى أضلاع المحيط أبواباً هائلة من الحجارة مع أن السور من اللبن ـ وهو الطوب المضروب المجفف بالشمس والهواء ـ وبعض المبانى زال سورها وبقى الباب أو بعضه ، وفى بعضها ذهب الباب وبقى السور كما هى الحالة الحاصلة فى هذا المحل فإن الباب قد ذهب ، وبالتأمل يظهر أنه كان فى الضلع المقابل للجبل على خلاف العادة ؛ فإنهم كانوا يجعلون الباب مواجهاً للنيل .

وهناك آثار وإشارات كتلال داخل السور ، يفهم منها أن المدينة كانت فى داخله ، وأن السور القريب منه كان محيطاً بالمعابد ، ومنه يفهم أن الإغارات من العرب وخلافهم فى تلك الحقبة كانت كثيرة ، وكان القصد منها إنما هو البلاد لسلب ما فيها دون المعابد فحصل هدم أغلبها إما لهذا السبب ، أو لأخذ أنقاضها فى بناء البلاد والقرى التى عقبتها ، ومن ذلك لا نرى الآن غير النادر منها وأكثر ما يرى أسوار المعابد ، وكان الباقى بها إلى زمن الفرنساوية من المبانى القديمة بعض أعمدة وبعض معبد إنهدم أغلبه ، وبالقرب منه حوض كبير للماء يظهر أنه قديم جداً ، ولعله كان مستعملاً فى أمور العبادة ، والمعبد الصغير المنعزل واقع فى طريق الجبل ، والظن أنه معبد المقدسة لوسين التى كانت يتوسل بها فى تسهيل وضع الحمل ، ويؤخذ من بعض العبارات أنه كان لأوزريس قبر فى هذه المدينة ، فقد نقل بولوترك عن مانيتون أن أهلها كانوا كل سنة فى ميعاد معلوم يحرقون رجالاً شعلاً على قبر أوزريس ، وقال ذلك أيضاً استرابون وبلين لكن سماعاً بلا مشاهدة ولم يتكلم على ذلك هيرودوط .

وفى قاموس الفرنج أن بولوترك عالم فيلسوف رومى مشهور ، ولد سنة ثمان وأربعين أو خمسين بعد الميلاد . ومات سنة مائة وثمانية وثلاثين أو مائة وأربعين ، وله مؤلفات كثيرة معتمدة فى فنون شتى / انتهى .

٨١

وفى كتب الفرنساوية أن كوم الحجارة الذى يظهر فى هيئة باب هو صخرة قطعت من الجبل وتَـحتَّتَت أطرافها واستعمل الناتج منها فى المبانى . ويوجد فى الجبل جملة مغارات أغلبها منقوش من جميع جهاته بنقوش تخالف النقوش التى فى المعابد والسرايات . فإن نقوش المعابد تتعلق بالديانة ونقوش السرايات تتعلق بالحروب والافتخار والنصرات . وإن وجد فى خلال ذلك بعض أمور أهلية فذلك نادر . وأما نقوش هذه المغارات فجميعه أهلى . وفيه تفصيل جميع أحوال الفلاحة مثل الحرث بالحيوان والتّلويق والبذر والدّق والدرس والتذرية والتجرين وتسجيل المحصول وصيد السمك بالشبكات وتمليحه ، وإحضار المصيد وحفظه وجمع العنب وعمل النبيذ وتخزينه ، وطرق تبريد الماء وتربية الحيوان وشحن المراكب والملاحة بالقلع والمجداف . ووزن الحيوانات الحية وإحضار اللحم وتصبير الأموات . وتشييع الميت إلى قبره ، والرقص والموسيقى وإعطاء الحسنة .

ويشاهد فى ذلك النساء مع الرجال من غير برقع ومن ذلك يظهر أن عادة البرقع حادثة ، ويرى أيضاً اشتراك الأطفال مع الكبار فى جميع تلك الأعمال وملابس الخلق على إختلاف طبقاتهم . جميع ذلك منقوش على جدران المغارة بغاية الضبط والدقة . وملون بالألوان السّارة الباقية على بهجتها ، وقد قرأ بعض من له معرفة باللغة المصرية القديمة كتابة فى مقبرة بعض الأمراء هناك ، أنه كان رئيس الملاحين فى المراكب فى زمن أحد فراعنة العائلة السابعة عشرة. وأنه من بيوت أمراء العائلة السادسة عشرة .

وفى شرحه لأحوال نفسه قال : إنه سافر إلى مدينة تانيس ـ (صان) ـ فلحق بفرعون مصر اهموزيس ، وطول إحدى المغارات ٨ر٧ أمتار ، وعرضها ٧ر٣ وهى معقودة من أعلاها ومنقسمة إلى قسمين ، فى القسم الأول النقش وفى آخره باب يصل إلى أودة فيها بئر يظهر أنها كانت معدة لنزول الأموات فى مخادعها ، وصغر هذه المغارة يدل على أنها مقبرة أحد أغنياء الأهالى .

ويظهر أيضاً أن هذه الصور الثلاثة هى صورة أفراد العائلة ، وهى عبارة عن صورة رجل وإمرأتين ، وبقرب هذه المغارة مغارة أخرى أقل منها فى الحسن ، ولهذا تسميها الأهالى مغارة الوزير وتسمى الأخرى مغارة السلطان ، وهنالك مغارات أخرى مردومة بالرمل ، وفى بحرى قرية الكاب هرم صغير فى البر الشرقى للنيل قاعدته نحو عشرين متراً .

اكـــراش

قرية من مديرية الدقهلية بمركز السنبلاوين واقعة شرقى ديرب نجم بنحو أربعة آلاف وتسعمائة متر وفى جنوب ناحية العصائد بنحو ألف وتسعمائة متر ، وأبنيتها بالآجر واللبن وبها جامع وزوايا ، وتكسب أهلها من الزراعة وغيرها وأكثرهم مسلمون ، وقد نشأ منهم من أفاضل العلماء من أحيا ذكرها بين البلدان على مدى الأزمان .

ترجمة السيد سليمان الحريشي

فإنه ينسب إليها العلامة السيد سليمان بن طه بن أبى العباس الحريثى الشافعى المقرىء الشهير بالأكراشى ، جوّد القرآن على الشيخ مصطفى العزيزى خادم النعال بمشهد السيدة سكينة ، وأعاده بالعشر على الشيخ عبد الرحمن الأجهورى المقرىء ، وأجازه فى محفل عظيم فى جامع ألماس ، وسمع وحضر دروس فضلاء الوقت ومهر فى فقه المذهب ودرس فى جامع الماس وغيره ، وسمع من السيد مرتضى المسلسل بالأولية بشرطه والمسلسل بالقيد وبالمحبة وبالقسم ، وبقراءة الفاتحة فى نفس واحد وبالألباس والتحكيم ، وسمع الصحيحين بطرفيهما فى جماعة بجامع شيخون بالصليبة ، وسمع أجزاء البلدانيات للحافظ أبى طاهر السلفى وجزء النيل وجزء يوم عرفه ويوم عاشوراء وغير ذلك .

وله تآليف وجمعيات ورسائل فى علوم شتى ، ولما مات الشيخ العزيزى تولى المترجم مشيخة القراء بمقام السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وتوفى سنة ألف ومائة وتسع وتسعين انتهى جبرتى

امباركــاب

بألف فميم فوحدة فألف فراء مهملة فكاف فألف فوحدة هكذا فى كتابة من ساحوا تلك الجهة ، وهى قرية من مديرية إسنا من خط الكنوز بقسم حلفا ممتدّة على الشاطىء الشرقى للنيل ، وأبنيتها ومساكنها وملابس أهلها ومشروباتهم مثل ما يذكر فى ناحية الشلال فانظره فى حرف الشين .

وهى مشهورة بعمل الزبادى الفخار والطواجن والكبيجات ، وهى عبارة عن كرة من الفخار ذات رقبة يطبخ فيها مثل الحلة وفيها شجر الحناء كأكثر بلاد الكنوز ، ويوجد فيها البقر والغنم والحمير والخيل والحمام والدجاج ، وفيها السمن كثيراً يشترى من البيوت بالسؤال عنه ، وأهلها من كرماء البربر لكن لهم عادة وهى أنه إذا عثر أحدهم على شخص أخذ بلحة من نخلة على وجه السرقة كلفه أن يرجعها فى عذقها كما كانت وإلا قطع رأسه .

ويقال : إن ذلك حصل مراراً وكذا عندهم من غلظ الطبع ما يحملهم على عدم الانقياد للحكومة ، وذلك فى عموم خط الكنوز حتى قيل إنه لم يمكن أن يتحصل منهم على أنفار لإشغال السكة الحديد / المارة هناك فكانوا إذا أغلظ عليهم الحكام يفرون إلى الجبال ويتركون بيوتهم خالية . ١٢

ولا يتعاملون إلا بنقود الفضة وفلوس النحاس المصرية القديمة الموجودة من سنة خمس وخمسين بعد المائتين والألف ويسمونها بالدمج ، وأما الفلوس النحاس الجديدة فلا تستعمل عندهم ، ومنها إلى ناحية سكوت لا يتعامل إلا بالعملة الصاغ الميرى ، وعرض النيل تجاه هذه الناحية يبلغ سبعمائة متر وسواقيهم على شاطئه ، وهى نحو ثمانية وارتفاعها عن الماء زمن الفيضان نحو ثلاثة أمتار ، وفى زمن إنتهاء نقصه نحو عشرة ، وزمام أطيانها العالية مائتان وأربعون فداناً والأطيان الممتدة على النيل نحو مائة وستين فداناً ، وفيها من النخيل سبعة آلاف وسبعمائة وسبع وستون نخلة .

الأميرية

قرية من مديرية القليوبية بضواحى المحروسة على الشط الغربى للترعة الإسماعيلية ، وفى جنوب ناحية بهتيم بنحو ثلاثة آلاف ومائتى متر ، وفى شمال ناحية الوايلى بنحو ألف وثلاثمائة متر ، وبها جامع وجنينة كبيرة بها جميع الفواكه وكانت تابعة لحبيب أفندى كتخدا مصر زمن العزيز محمد على .

أم دومـــه

قرية من مديرية جرجا بقسم طهطا على الشط الغربى للسوهاجية قريبة من الجبل فى تجاه طها إلى جهة الغرب بجوار حدود مديرية أسيوط ، فيها أبنية عظيمة وقصور مشيدة ومساجد عامرة ونخيل قليل ، وأكثر أهلها مسلمون أصحاب يسار لخصوبة أرضها وجودة محصولاتها ، ويحيط بها رصيف متين مبنى بالآجر والمونة يقيها من الغرق فى زمن فيضان النيل لانخفاض موقعها ، ولا يتوصل إليها زمن الفيضان إلا بالمراكب .

وفيها بيوت مشهورة وأشهرها بيت السيد بن عبدالرحمن أبودومة المتوفى قبيل سنة ثمانين ومائتين وألف ، وقد جعل ناظر قسم مدّة قليلة فى زمن العزيز محمد على باشا ، وكان ذا ثروة زائدة ويقتنى كثيراً من أصناف الأنعام والخيل والعبيد ، حتى قيل إنه كان إذا ركب يركب خلفه نحو ثلاثين عبداً أكثرهم متعمم بالشال الكشمير ، وعليهم ثياب الجوخ الثمين واسعة الأكمام متقلدين بالسيوف المحلاة على خيول جياد بسروج محلاة وركابات مطلية بالذهب .

وكان هو متقشفاً يتعمم ببلين غليظ من الصوف الأبيض ، ويلبس جبة من الصوف الأسود والأحمر غير المصبوغ فوق ثياب القطن ، ويتلفع بملآءة من القطن الخالص من نسيج إخميم ، ويلبس فوق ذلك عباءة من صوف لحمتها بيضاء وسداها أسود ويسمى هذا اللون عندهم زردياً ، ويلبس نعلاً إخميمياً ولا يلبس غلالة ولا جورباً ويشرب الدخان البلدى كثيراً .

ويقال إنه دخل عليه مرة رجل من الطوائف قواد النساء الذين يقال لهم فى الجهات القبلية : الغوازى ، وكان ذلك الرجل متعمماً بالكشمير متهيئًا بالملابس الفاخرة فقام له وعظمه وحياه وبعد شرب القهوة تبين له أنه من هذه الطوائف ، فتأذى من ذلك ولازم التقشف إلى أن مات ، وقد أعقب إبنين عطية وعبدالرحمن ، مات عطية فى حياته وترك أولادا أحدهم الحاج محمد هو عمدة الناحية ومن أعضاء شورى النواب . وكان عبد الرحمن ناظر قسم بعد أبيه فى زمن الخديو إسماعيل باشا ولم يلبث إلا قليلاً ولزم بيته إلى الآن وهو فى ثروة أبيه بل ربما زادت ثروته ، وكان من أعضاء شورى النواب أيضاً وله ميل إلى لبس الصوف أيضاً لكنه مترفه جداً ولهم اعتبار كبير عند الحكام والأهالى ، وكان لهم فى ساحل بولاق شونة غلال للمبيع لا تفرغ .

وبقرب هذه القرية قرية يقال لها كوم غريب يسكنها كثير من الأقباط أصحاب الثروة ، كان أبو دومة يزعم أنهم ملكه وأن له بيعهم والتصرف فيهم كيف شاء ، وكانت هذه عادة قديمة عند الهوارة والعرب ثم بطل ذلك بعد مجيء العائلة المحمدية واشتهار الحرية ، وكان النصارى يسمون الواحد من الهوارة والعرب بدويهم ، وكان البدوى منهم يدافع عن نصرانيه ويحامى عنه كما يحامى عن ولده ، وإذا افتقر الواحد منهم يساعده الآخر ، وإذا تزوجت بنت النصرانى يأخذ عليها البدوى شيئاً معلوماً عندهم ، كما يأخذ النصرانى على بنت بدوية ، وهذه عادة كثير من بلاد الصعيد كنواحى الهلّة والحريقة وطما ودوير عائد إلى ما فوق جرجا فيتعرض النصرانى لبنت بدوية ليلة البناء ، فقبل خروجها من بيت أبيها يقيدها بقيد من الحديد أو نحوه أو يغلق عليها باباً حتى يأخذ من أهل الزوج مبلغاً من النقود من ريال إلى عشرين أو أكثر على حسب حال الزوج والزوجة .

وكذا البدوى يفعل مع بنت نصرانية ، لكنه يأخذ أكثر مما يأخذ النصرانى ، ويكون فعله قهرياً بخلاف فعل النصرانى فهو رجاء فى بدويه ومكرمة من أهل الزوج ، وكذلك يفعل عبيد أبيها بل يأخذون أكثر مما يأخذ النصرانى ، وفى بعض البلاد كدوير عائد لا يتبع الزوجة أحد من رجال أقاربها فى خروجها إلى بيت زوجها ويعدّون ذلك عيباً اتحدت البلدة أو اختلفت فإذا تبعها أحد منهم / طرده أهل الزوج ، فإذا وصلت فى زفتها الحافلة إلى بيت البناء أوقفوها خارج الباب حتى يغمسوا رجلها اليمنى ويدها اليمنى فى اللّبن تفاؤلاً باليمن والبركة ، ثم تدخل فيبنى بها الزوج ويفتضها بأصبعه غالباً بحضرة إمرأة تسمى الماشطة ، وبعد الصبح يأتى قيم يقال له : كبير العراسة يأخذ الزوج فيجلسه خارج الدار وتجتمع حوله الشبان ، ومن يتصابى من الكهول والشيوخ ، ويسمون الزوج السلطان والقيم الوزير وهو الذى يتولى الحكم بينهم إلى الغروب فيزفون الزوج إلى بيته ويستمر ذلك سبعة أيام لا يذهب الزوج فيها نهاراً إلى بيته فإن ذهب إليه ألزموه ذبح شاة فأعلى . ٨٣

وإذا أرادوا جلب مأكول أو مشروب من أهل المحل الذى فيه العزومة يرفع أحدهم إلى الوزير ظلامة فيقول إن فلانا نهب منى كذا . ويكنون بالبارود عن الدخان المشروب ، وبالزعفران عن الفطير ، وبالخرفان عن التمر ، وبالعسل عن البوزة ، فإن امتنع من إحضار ذلك ضرب ضرباً وجيعاً بجريد أخضر بهيئة مخصوصة عندهم ، وربما كتف بحبل من ليف يسمونه الحرير ، وفى كل ليلة يدخل مع الزوج جماعة أو واحد فيتعشى معه وتصب لهم الزوجة الماء فى غسل أيديهم .

وبعض الأزواج يكشف لهم وجهها ليروها ، ثم يدفعون لها نقوداً تسمى النقطة ويخرجون .

ومن مأكولهم فى هذه الأيام المخروطة وتسمى عندهم السكسكية أو القادوسية ، وهى أن يجعل عجين القمح رقاقاً ويطوى ويخرط بالسكين مثل فرم الدخان ، ويوضع فى قادوس من فخار مخرق خروقاً دقيقة ، بعد أن يركب على قدر من نحاس مثلاً فيه ماء ويؤخذ وصله بأن يسد ما بينهما بنحو عجين سداً محكماً يوقد عليه حتى يغلى الماء ويكون له بخار كثير ، فإذا وضعت المخروطة فى القادوس وغطيت فإنها تستوى على البخار ، ثم إنها تؤكل بالسمن أو العسل أو اللبن أو الجبن وأكثر ما يصنعونها فى أيام الصيف بدلاً عن الكنافة .

واعلم أن أراضى تلك الجهات وأغلب بلاد الصعيد إنما تزرع مرة واحدة فى السّنة ، فمنها ما يحرث أى يثار بالمحراث ومنها ما يُلَوّق : أى يغطى بذرها بالملاوق ، ويكثر الحرث فى زرع القمح والشعير والعدس والحمص ، ويكثر التلويق فى زرع الفول والترمس ونحوهما ، ويتعين فى البرسيم ونحوه ، فيبذر الحب فى الأرض قبل جفافها ويستر بالملوقة ، وهى لوح من الخشب نحو ذراع يثقب فى وسطه ويجعل فيه عصى من الخشب نحو ذراعين ويلوق الرجل فى اليوم نحو فدان ، وأجرته نصف قيراط من القمح أو غيره ، وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الأردب ويعبرون عنه الرُّفطَاو بضم الراء وسكون الفاء فطاء مهملة فألف فواو وأكثر الأجر فى خدمة الزرع تصرف به فلذا يسمونه الرفطاو ، والصرفى وهو نصف الرفطاو ، والسوق الذى هو ربع الويبة ، ويسمى ذلك بالقدح ، والويبة كيلتان ، وتسمى الكيلة عندهم مداً صرفياً ، والويبة مداً سوقياً ، والأردب ست ويبات وهى اثنتا عشرة كيلة .

وأما النقيصة فتختلف بحسب الجهات ، ففى بعضها كبلاد طحطا هى عشر كيلات أى أردب إلا سدساً ، وفى بعضها كبلاد ملوى تطلق على ثمان كيلات ، وفى بعضها على سبع كيلات ، وأما أجرة المحراث والحراث والبقر فنحو اثنى عشر قرشاً ديوانية كل يوم ، وأكثر ما يثير المحراث فى اليوم ست دهائب عبارة عن نصف فدان تقريباً وذلك فى الحرث الردّ وأما فى البرش فيثير نحو فدان .

وقد تكلمنا على الدهيبة والمرجع والبرش والرد ونحو ذلك فى الكلام على ناحية بنجا ، وعند الفراغ من الحرث يصنعون طعاماً يسمى الكفارة ، والغالب أن يكون من الفطير الرقاق وبعض البلاد يجعلون الرقاق فى قرون البقر ، ولبعض بلاد الصعيد اعتناء بتسبيخ القمح والشعير فقط إذا زرع لوقا ، وذلك من بعد جفاف الأرض وتحملها أرجل الدواب ، بأن يمضى نحو عشرين يوماً من البذر إلى قرب أدراك الزرع ولا يربطون البهائم على البرسيم إلا بعد مضى شهر ونصف أو شهرين من زرعه .

وكانوا سابقاً يسرحون فيه الخيل خاصة بلا ربط بعد مضى نحو عشرين يوما من بذره . فكل من له فرس يرسلها ترتع حيث شاءت ويرون أن للخيل حقًّا فى الزرع ، فإذا رآها صاحب الزرع فلا يزيد على طردها عن زرعه ولا ينكر على أربابها ، ثم بطل ذلك اليوم ، ثم إذا ربطت البهائم على البرسيم فأكثر الناس ينصب عندها بالغيط زرابى من بوص الذرة الطويلة يسمونها بالعزب يبيتون فيها لحراسة البهائم ، ويديمون ربط الخيل على البرسيم ليلاً ونهاراً ولا يروحون ولا يسرحون ولا يركبونها مدة الربيع ويسرحون باقى المواشى والدواب ويروحون بها إلى الزرابى لا إلى البلد.

وأكثر ما تستعمل الزرابى فى بلاد قنا وجرجا وتارة تقيم فيها الخدمة فقط ، وتارة يقيم فيها أهل البيت جميعاً ، ويغلقون بيوتهم فى تلك المدة ويستمر ذلك إلى يبس العود / واستحقاق الزرع الحصاد ، ويرون فى ذلك اصلاحاً للبهائم ونمواً للريع من اللبن والسمن ، ويقولون إن اللبن يروب فى الغيط أكثر من البيت ويقتنون هناك الدجاج والأوز فيرعى من الحشائش ويقذف باللحم والشحم ويتخذون كلاباً ضارية للحراسة لكن أكثرهم لا ينام عليها بل يتناوبون السهر خوف اللصوص مع تقارب العزب وكثرتها حتى كأنها بلدان .

٨٤

ثم إن عوائد البلاد تختلف عند إدارة الحصاد فنى بعضها يخرجون جميعاً لحصاد قبالة ، فإذا فرغوا منها سرحوا لغيرها ويرون ذلك أصون للزرع ، وبعض البلاد لا يعتبر ذلك بل كل أحد يسرع لغيطه فى أى قبالة بلا حرج عليه ، والقبالة طائفة من أطيان البلد لها إسم يخصها وتشتمل على جملة غيطان لجملة أشخاص ويخرج ربّ الزرع أو وكيله ، بجماعة من الحصادين على حسب زرعه ، فيحصدون من طلوع الشمس إلى وقت العصر ، وأجرة الحصاد الواحد قيراط من الأردب وهو ربع ويبة مما يحصد فيه من قمح أو شعير ، وقد يعطى من الشعير حزمة من القت يخرج منها نحو القيراط والكثير فى حصد الفول أن يعطى حزمة كذلك ، ويسرح وراء الحصادين نساء وأطفال يلتقطون ساقط السنبل وبعض أهل البلاد يتركون لهم ما يلتقطونه ، وبعضهم يأخذ منهم ويعطيهم الأجرة ، ويجعلون وراء الحصادين رباطاً يجعل الحصيد قتًّا بربطه بحبال من الحلفاء بعد أن يجعله الحصادون أغماراً وذلك فى القمح والشعير ، وأما الفول فيربط بعضه ببعض وتسمى الحزمة منه غُمراً ، ويسمى حمل البعير منه حملاً ، ويسمى حمل القمح أو الشعير حِلة بكسر الحاء وهى إثنان وثلاثون قتة ، وأجرة الجمل وجماله على نقل الحلة إلى الجرنة قتة واحدة يختارها الجمال مما حمله ، ويجمع الجمال جميع القت الذى أخذه أجرة ويجعله جرنا صغيرا يسمى بالدريخة ويدرسه ويذريه ، ويقسم بينه وبين ربّ الجمل تارة نصفين وتارة للجمل أكثر مما للجمال على حسب تجهيز الرحل المسمى عندهم بالشاغر ، وهو العدة التى توضع على البعير ليتأتى الحمل عليه ، وتشتمل على حبل من ليف يسمى الفراط ، وحبل آخر يسمى الدائر وعلى خطاطيف من خشب ، فإنْ جهزها الجمال فله نصف المتحصل من أجرة مشاله ، وإن جهزها رب الجمل فللجمال الثلث فقط .

والجرنة محل يتخيره أهل البلد لوضع الجرون فيه للدرس والتذرية ، فيضعونها متقاربة مثل دور البلد بحارات وشوارع ويبيت الرجال عندها مدة إقامتها ، وهى نحو شهرين ، ويدرسونها بآلة من الحديد والخشب تسمى النّورج ، يديرها بقرتان أو فرسان ، ولكل نورج أربع بقرات وأربعة رجال ينوب إثنان عن إثنين .

وذلك بأن يهدم من حائط الجرن جانب من القش فيلقى حوله على الأرض بعد سدّ شقوقها بنحو تبن ، ويسمى ذلك القش الملقى على الأرض هاَيَة ، ويركب عليه النورج ويديرها البقر حتى تتكسر العيدان ويسقط الحب من السنبل ، ثم تشال الهاية وينزل غيرها ، وتغير البقرتان ببقرتين وهكذا حتى يفرغ الجرن ويصير حلقة فارغة الوسط ، ويسمى جميع ذلك تكسيراً ، ثم تفرش من المكسر هاية على الأرض من الداخل ويدار عليها النورج ويبالغ فى تكسيره حتى ينعم ولا يبقى سنبل ولا أبراج تغطى الحب فتشال الهاية ، بأن تجمع فى وسط الجرن وينزل غيرها ويغير البقر وهكذا حتى يفرغ الجرن ويسمى ذلك ردّاً ، وتارة يديمون الدَّرس لَيْلاً ونهاراً ، وتارة نهاراً فقط من طلوع الفجر إلى قرب العشاء ، وأجرة النورج فى اليوم والليلة مدّ صرفى ، وهو قيراطان من الأردب كما مر ، وكذا أجرة كل بقرة وكل رجل ، فللجميع تسعة أمداد فى اليوم والليلة ، ولكن تؤخذ من القرقرة وهى الحب الغلث الذى يتحصل من كناسة ما حول الجرن ، وغالب الناس لا يذرى جرنه إلا بعد نزول النقطة ليلة اثنتى عشرة من بؤونه لاعتقادهم أن البركة تنزل حينئذ .

وفى بعض البلاد يصنع ليلة نقل الغلة من المجرنة إلى البيوت طعام يسمى عشاء الجرن يأكل منه من حضر ويوسعون فى مدة التذرية وإدخال الغلال على أنفسهم وعيالهم فى المآكل والملابس ويوفون ديونهم والأموال الميرية ، وكذلك عند إدخال الذرة الصيفية أو النيلية ، وذلك أنهم بعد رعى البرسيم رأساً وخلفه يزرعون مكانه الذرة الصيفية ويسقونها بالشادوف نحو إثنتى عشرة مرة حتى تستوى وتدرك بعد مكثها مزروعة نحو مائة يوم ، ويدخلون غلالها البيوت فى أوائل مسرى ، وأرباب الجزائر المنخفضة يزرعونها بعليا أى : لا تحتاج إلى سقى ، وبعد إدخالها يخرجون لزرع الذرة النيلية الطويلة والشامية فتمكث نحو مائة يوم أيضاً ، وقد يزرعون مكانها برسيماً أو شعيراً أو فولاً أو عدساً أو حلبة ولا يزرع مكانها القمح إلا نادراً ، وتزرع البامية والملوخية ، وأما القطن فزرعه قليل فى بلاد الصعيد ولا يزرع بها الأرز أصلاً ولا عادة لهم بزرع القلقاس ونحوه ، وبالجملة فلكل جهة / زرع يعتاد فيها .

أم ديـــاب

اسم لتل شرقى مدينة الطينة على بعد أربعة عشر كيلومتر وهو على ساحل البحر ، فلذا يغطيه البحر عند هيجانه وينكشف عنه عند هدئه فيرى فيه آثار من أحجار وأعمدة عتيقة ، وفى داخل البحر على بعد ستين متراً ترى آثار مبان يظهر أنها آثار المدينة القديمة التى سماها بلين فى مؤلفاته جره .

أم دينـــار

قرية قديمة صغيرة من قسم الجيزة فى جنوب قرية نكل بنحو ثلاثة آلاف متر وفى شرق الأخصاص بنحو ألف متر ، وهى واقعة فوق الجسر المعروف بالجسر الأسود ، وأغلب أبنيتها بالآجر ، وفيها قليل غرف وجامع بمناره ، وأكثر أهلها مسلمون ، ومنهم نسَّاجون وليس لها سوق وفيها نخيل كثير ، ويقال : إن هاجر أم سيدنا إسماعيل عليه السلام من هذه القرية ، ولكن الظاهر أن هذا غلط وتحريف عن أم دنين .

ففى خطط المقريزى عند الكلام على فضائل مصر قال يزيد بن حبيب : إن قرية هاجر هى باق التى عندها أم دنين (قلت) وأم دنين هى التى محلها الآن أولاد عنان بالطرف الشمالى الغربى لقاهرة مصر عند قنطرة الليمون انتهى .

وعند أم دينار فى الجسر الأسود قناطر صرف مياه الصعيد ويصاد عندها السمك بكثرة زمن فتح القناطر ، وممن تربى من هذه القرية فى ظل العائلة المحمدية حضرة خلف الله أفندى قبودان ، انتظم فى سلك العساكر البحرية وهو فى سن المراهقة سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف فتعلم فن البحرية ، ثم جعل قبيارجيا فى صنعة تركيب الحبال وخرزها وتركيب الصوارى ونسج البليطوه من الليف ونحو ذلك ، ثم تعين فى طاقم قرويت حربى يسمى شاهيد جهاد كانت اشترته حكومة مصر من حكومة الإنكليز ، فسافر فيه إلى حرب موره مع سر عسكر العزيز إبراهيم باشا ، ثم عاد وسافر فيه ثانيا مشحونا بتعيينات ومهمات حربية ، ولما صار انشاء قبوع نمرة واحد كان من ضمن عسكره وكانوا خمسة وأربعين ممن لهم معرفة بصنعة القبيارجية ، ثم ترقى إلى درجة بلكنجى فوق القبيارجى بدرجتين ، فسافر فيه فى حرب عكا وترقى فيه إلى رتبة باش ريس ثالث ثم إلى باش ريس ثانى ، ثم فى سنة إحدى وخمسين جعل باش ريس أول نمرة واحد لاشغال الترسانة بورشة الأورمة ، وهى صنعة جر الأثقال وإخراج المراكب إلى البر وإنزالها فى البحر ونحو ذلك ، ولما صار نزول القبوع نمرة أحد عشر إلى البحر كان فى تركيب أورمته ، وهى طقم المركب من حبال وصوارى وقلوع ونحوها .

وفى سنة ست وستين أخذ رتبة يوزباشى ، وفى سنة إحدى وسبعين أخذ رتبة صولقول ، ثم بعد نحو سنتين أخذ رتبة صاغقول أغاسى وجعل ملاحظ أشغال ورشة الأورمة ، ولما أنشأ الخديوى إسماعيل باشا فرويت وابور لطيف ووابور الصاعقة باشر تركيب أو رمتها فجاءت فى غاية الاتقان وأنعم عليه برتبة البيكباشى ، وذلك فى سنة خمس وثمانين كما أخبر بجميع ذلك عن نفسه وهو على ذلك إلى الآن .

أمـــون

بلدة كانت قديماً فى صحراء سيته المعروفة بصحراء الشيهات ووادى هبيب وهو وادى النطرون كما سيأتى ، ويغلب على الظن أن أمون هى مدينة سيوه من بلاد الواحات وستأتى فى حرف السين وفى هذا المحل قتّل المتبربرون أربعين من الرهبان على ما ذكره جيلنسكى ودفنوا فى مغارة هناك بقرب الدير .

وأما جبل أمون فقد اتفق الشريف الإدريسى وأبو الفدا على أنه على شاطىء النيل وسماه كل منهما جبل طليمون ، لكن جعله الأول على الشاطىء الغربى ووافقه على ذلك ابن الوردى ، وجعله الثانى وادى الطير الذى على الشاطىء الشرقى القريب من أنصنا ، وحقق بعض الجغرافيين أن ما قاله الإدريسى هو الصواب ، ووافق خليل الظاهرى أبا الفداء وقال : إن جبل طليمون وجبل الطير واحد ، وقال أبو صلاح إنهما جبلان لا جبل واحد وإن جبل طليمون طوله ثلاثة برد أو ستة وثلاثون ميلا على الشاطئ الشرقى من النيل ، بقرب دير صادر الكائن فى أرض شطب قبلى أسيوط ، وفى رأس هذا الجبل كنيسة مبنية من الحجر باسم العذراء البتول ، ولها عيد فى الحادى والعشرين من شهر طوبة يجتمع فيه خلق كثيرون ، وجبل الطير فى مقابلة بيهو ، وفيه صليبان من حجر أحمر أحدهما أكبر من الآخر .

ونقل المقريزى عن القضاعى أن جبال الصعيد الواقعة على النيل ثلاثة ، وهى جبل الكهف أو جبل الكف ، وجبل طليمون ، وجبل زناخير الساحرة ، ووادى بوقير ف جبل من مديرية الأشمونين وفيه فى يوم معلوم من كل سنة تجتمع الطيور المسماة بوقير إلى آخر ما قال ، وحقق كترمير أن جبل طليمون هو جبل زناخير الساحرة ، وأنه على ما ذكر القضاعى على الشاطئ الشرقى من النيل بمديرية أسيوط وأن الدير الموضوع فى مقابلته من البر الثانى يسمى دير أبى صادر ، وذكر أبو صلاح أن جثة هذا الراهب نقلت إلى ناحية شطب فى اليوم الخامس من شهر هاتور وحقق كترمير/ أن أبا صادر لم يكن اسما له بل اسمه تيودور . ٨٦

وذكر المقريزى أن ديراً بقرب أسيوط يسمى بهذا الاسم ، وذكر أبو صلاح أن بقرب أسيوط على الشاطىء الغربى من النيل فى رأس الجبل ديراً بإسم الجبل سوير منحوتاً فى الصخر ، وفيه صهريج يسع ألف قربة يملأ كل سنة من النيل ، وفيه ثلاثون من الرهبان وطاحون وعدة أفران للخبز ومعصرة للزيت وبأسفله بستان فيه أنواع من الخضراوات وأشجار شتى كالزيتون والرمان والنخل ، ويتحصل منه فى السنة شىء كثير يكفى مع ما يتحصل من الإحسانات لوازم الرهبان الذين كانوا لا يطلب منهم خراج ولا أموال ، ثم فى زمن الأكراد رتب عليهم ذلك كما رتب على باقى بساتين الديورة .

وأما جبل الطير فهو فى مواجهة البيهو وسملوط ولم يزل مسمى بهذا الإسم إلى الآن ، وهو على ما ذكره السياحون يمتد على شاطىء النيل نحو فرسخ فى اعتدال كالحائط وفى أعلاه دير البكره ، وأما دير الكف أو الكهف فهو فى الجبل الممتد فى الشرق أيضاً بقرب أنصنا .

ترجمة خليل الظاهرى

ولنذكر لك ترجمة بعض من تقدم ذكرهم هنا فنقول . أما خليل الظاهرى فعلى ما وجدته فى كتاب الأنيس المفيد لدساسى ، هو ابن شاهين صاحب كتاب كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك ، كان والده شاهين من مماليك الملك الظاهر سيف الدين أبى الفتح من سلاطين الدولة الجركسية المتوفى سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية بعد أن ملك ثلاثة أشهر .

وقد تكلم المقريزى فى كتابة السلوك لمعرفة دول الملوك فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة وسنة اثنتى عشرة وثمانمائة على شاهين هذا وقال : إنه كان دويدار الأمير شيخ ، وفى السابع من رجب سنة تسع وثلاثين وثمانمائة خلع السلطان برسباى على الأمير غرس الدين خليل بن شاهين خلعة ، وكان إذ ذاك حاكم الإسكندرية وتعين على دار الضرب بالقاهرة ، وفى رجب من سنة أربعين وثمانمائة تقلد الوزارة وصار أمير الحج ، وفى تاسع عشر شوّال خرج إلى بركة الحج بالموكب المعتاد وسافر منها فى الثالث والعشرين منه ولم يزل فى وظيفة دار الضرب

وأقام أخاه فيها مدة غيابه ، وفى الخامس من ربيع سنة إحدى وأربعين خلع عليه خلعة وجعل حاكماً على الكرك فمضى إليها من وقته ، وفى سنة اثنتين وأربعين فى جمادى الثانية نقله السلطان جقمق إلى ولاية صفد وصار أميراً كبيراً ، وفى شهر القعدة من تلك السنة جعل والياً على ملاطيا ، وفى شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين صار أمير ألف وانتقل إلى دمشق بدل الأمير طنبغا .

وفى مقدمة كتاب كشف الممالك للمترجم ما نصه : يقول العبد الفقير إلى الله تعالى خليل بن شاهين الظاهرى لطف الله به ، إنى صنفت كتاباً وسميته كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك يشتمل على مجلدين ضخمين يشتملان على أربعين باباً ، جملة ذلك ستون كراسة فى قطع الكامل معتمداً فى ذلك على ما شاهده العيان ، أو تحققته من نقل الثقات الأعيان الذين يرتكن إليهم غاية الارتكان ، وعلى ما اطلعت عليه من كتب المتقدمين وما وجدته منقولاً عن المشايخ المعتبرين ، ثم رأيت ذلك المصنف مطولاً فانتخبت من ملخصه هذا المجلد وسميته (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) وجعلته اثنى عشر باباً واختصرت الكلام فيه لاشتغالى بغيره من المصنفات انتهى .

وفى قاموس الجغرافية أن جلينسكى عالم بروتستانى ولد فى مدينة دتريك من بلاد البروسيا سنة ألف وستمائة وستين من الميلاد ، ومات فى مدينة برلين سنة ألف وسبعمائة وإحدى وأربعين ، وله مؤلفات وخلف ابنا اشتغل باللغة القبطية ، وله بحث وتفتيش على الأشياء العتيقة المصرية انتهى .

إنبابه

بكسر الهمزة وسكون النون وموحدتين بينهما ألف وفى آخره هاء التأنيث ، وربما قيل لها أنبوبة على وزن أفعولة وكأنه لما يزرع فيها من القصب فإن الأنبوبة ما بين كل عقدتين من القصب ، قاله فى خلاصة الأثر .

وهى قرية فى شمال الجيزة على الشاطىء الغربى للنيل تجاه رملة بولاق مصر مركبة من أربعة كفور ، كفر كردك ، وكفر الشوام ، وكفر تاج الدول ، وكفر سيدى إسماعيل الإنبابى ، وأبنيتها أعلى من أبنية الأرياف ، وبها سوق يشتمل على دكاكين ، وبها وكالة وقهاوى ومصابغ وأرحية تديرها الحيوانات وطاحونة بخارية بجهتها الغربية للخواجة كونش ، وأكثر أهلها أرباب حرف لا سيما فى المطابع فإن أكثر من بمطابع مصر منها ، ومنها نوتيه فى المراكب وصيادون للسمك وعاملون فى البساتين وصباغون وحدادون وجزارون ونجارون وخضرية وإسكافية وتجار غلال وغير ذلك ، وبها أنوال لنسج البشاكير والفوط والمقاطع الشامية ، وبها جامع لسيدى إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل الإنبابى له مئذنة وبه مقامة مشهور يزار ويعمل له مولد كل سنة ليلة النقطة يجتمع فيه خلق كثيرون ، وفيها قصور لبعض الأمراء وبساتين / ٨٧ تشتمل على أنواع الأشجار .

وفيها كما فى الجبرتى بستان أنشأه الأمير سليمان أغا السلحدار ، وجعل له سوراً وبنى به قصراً وسواقى ، وأخذ الأحجار من الوكائل والدور التى هدمها من بولاق سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وبها محل إقامة ناظر القسم وفى جهتها البحرية عصارة قصب بآلة بخارية للدائرة السنية ، وبجوار العصارة من الشمال الشرقى محطة للسكة الحديد وبجوار المحطة وابور لسقى مزروعات القصب والقطن ، وبالقرب من جهتها القبلية المحطة القديمة وورشة لعمل عربات السكة الحديد ، ولها غير سوقها الدائم سوق مشهور كل يوم سبت يباع فيه المواشى وخلافها .

وهى من منابع الأفاضل والعلماء وإليها ينسب كما فى خلاصة الأثر محمد بن حجازى بن أحمد بن محمد الرَّقباوى بفتح الراء والقاف الإنبابى ، أحد شعراء العصر وأدباء الدهر ، ولد بإنبابه ونشأ بمصر واشتغل برهة من الزمان بعلوم الأدب حتى فاق أقرانه فنظم ونثر ورحل إلى الحرمين وتوطنهما مدة ومدح الشريف زيد بن محسن بمدائح كثيرة بليغة ، وكان يعطيه العطايا الجمة وجعل له فى كل سنة مرتباً ومعلوماً . ثم توجه إلى اليمن فمدح أئمة بنى القاسم وانثالت عليه جوائزهم ، وكان له إختصاص بمحمد بن الحسن وله فيه مدائح كثيرة وله باليمن شهرة عظيمة .

ومن شعره الشائع قصيدته التى عارض بها حائية ابن النحاس التى مطلعها :

بات ساجى الطرف والشوق يلح والدجى أن يمض جنح يأت جنح

مدح بها الشريف زيد بن محسن ومستهلها :

كل صبّ ماله فى الخدّ سفح	لم يرق فى عينه نجد وسفح
إنما الدّمع دليل ظاهر	إن يكن للحب متن فهو شرح
ولقد بلغتنى كل المنى	بأحاديث لها فى النفس رشح

إلى أن قال :

نعمة منك علينا لم تزل	يبقتنى آثارها فوز وربح
دمت ياشمس الهدى ما ابتسمت	بك أفواه الدجى وافتر صبح
ما همت عين الغوادى وبدى	بك فى وجه الزمان الغض رشح

وكانت وفاته فى سنة ثمان وسبعين وألف بمدينة أبى عريش من اليمن ، وقد انتسب إلى إنبابة جماعة من المتأخرين ، ومن أشهر المنسوبين إليها الأستاذ الشيخ إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل الإنبابى انتهى .

ترجمة شيخ الإسلام الشيخ الإنبابى

وإليها ينسب أيضاً العلامة الفاضل الشيخ محمد بن محمد الإنبابى الشافعى شيخ الجامع الأزهر الآن ، ولد بمصر القاهرة سنة أربعين من القرن الثالث عشر من الهجرة وحفظ القرآن والمتون بالجامع الأزهر ، وفى سنة ثلاث وخمسين شرع فى تلقى العلم واجتهد فى الطلب فأخذ عن الشيخ إبراهيم البيجورى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ إبراهيم السقاء ، والشيخ مصطفى البولاقى وأضرابهم ، وشغل ليله ونهاره بالمطالعة حتى فاق أقرانه ، وتمكن تمكناً زائداً وتصدر للتدريس فى سنة سبع وستين ، فابتدأ بتدريس قطر الندى فى علم النحو ، ثم قرأ الشيخ خالد على الآجرومية بحاشية أبى النجا وعمل عليها تقريراً نفيساً ، ثم ترق فى كبار الكتب فقرأ جميعها أو أكثرها وكلما قرأ كتاباً عمل عليه تقريراً ، فله تقرير على حاشية العطار على الأزهرية ، وتقرير على حاشية السجاعى على شرح القطر ، وتقرير على حاشية الأمير على شرح الشذور ، وتقرير على حاشية السجاعى على شرح ابن عقيل ، وتقرير على حاشية الصبان على

شرح الأشمونى ، جميعها فى علم النحو ، كل تقرير يقرب من أصله ، وله تقرير على التجريد محشى مختصر السعد ، وتقرير على جمع الجوامع ، وتقرير على حاشية البيجورى على متن السلم ، وتقرير على آداب البحث وتقرير على حواشى السمرقندية ، وتقرير على مختصر السنوسى ، وحاشية على رسالة الصبان فى علم البيان ، وحاشية على مقدمة القسطلانى شرح صحيح البخارى ، وحاشية على رسالة الدردير فى البيان ، وتقرير على حاشية البرماوى على شرح ابن قاسم فى فقه الشافعى ، وفتاوى فقهية وجملة رسائل ورسالتان فى البسملة صغرى وكبرى ، ورسالتان فى زيد أسد صغرى وكبرى ، ورسالة فى تأديب الأطفال ، ورسالة فى علم الوضع ، ورسالة فيمن حفظ حجة على من لم يحفظ ، ورسالة فى شرح الأبيات العشرة التى هى والباء بعد الاختصاص يكثر الخ ، ورسالة فى إفادة التعريف بالقصر فى نحو الحمد لله ، ورسالة فى مداواة الطاعون ، ورسالة فى بيان الربا وأقسامه .

٨٨ وبالجملة فقد جمع بين العلم والعمل والدين والدنيا والصلاح والتقوى ومراقبة عالم / السر والنجوى ، وقد تربى على يديه جم غفير متصدرون للتدريس بالأزهر ، من أجلهم المرحوم الشيخ حسن الخفاجى الدمياطى قرأ الأشمونى وغيره ، وتوفى فى حال قراءته لمختصر السعد فى أواخر سنة اثنتين وتسعين ، وكان على قدم شيخه فى العلم والتقوى ، وإنما نسب المترجم لإنبابة لأن والده منها وسكن القاهرة فكان من أكبر تجارها ، وفى الغورية وكالة تنسب إليه لشحنه إياها بتجارة قماش القطن وقد توفى والده المذكور من نحو عشر سنين ، وكان على قدم من الصلاح وأداء الفرائض فكان يحصر أمواله كل سنة ويخرج زكاتها .

مطلب كيفية صناعة الترمس وغير ذلك

ولهذه البلدة أيضاً شهرة بعمل الزلابية وتحلية الترمس وهو يزرع كثيراً ببلاد مصر ويؤكل بعد تحليته ، فأوّلاً يوضع فى مكاتل من خوص النخل ونحوه ويلقى فى البحر مربوطاً بحبل ثابت فى البحر فيمكث كذلك نحو ثلاثة أيام حتى تذهب أكثر مرارته ، ثم يصلق لتزول منه المرارة بالمرة ويملح ويؤكل ، وأكثر باعته فى مصر وأتباعها من أهالى هذه القرية ، وقد ذكره هيرودوط وديودور وغيرهما فى كتبهم ، وكان قد منع أكله الحاكم بأمر الله مع جملة أشيا منع منها .

قال المقريزى فى خططه : وفى المحرم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة قرىء سجل فى الجامع بمصر والقاهرة والجزيرة بأن يلبس اليهود والنصارى الغيار ، وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين ، وأن يشدو الزنار وفيه فحش فى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخية التى كانت محببة لمعاوية بن أبى سفيان ، ومن أكل البقلة المسماة بالجرجير المحببة إلى عائشة رضى الله عنها ، ومن أكل المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل .

وقرىء أيضاً سجل بالمنع من عمل الفقاع وبيعه فى الأسواق لما يؤثر عن علىّ رضى الله عنه من كراهته شرب الفقاع .

ثم فى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة فى ربيع الآخر قرىء سجلّ بأن لا يحمل شىء من النبيذ والمزر ولا يتظاهر به ، ولا بشىء من الفقاع والدلينس والسمك الذى لا قشر له والترمس العفن .

وقال ابن خلكان فى ترجمة الحاكم : إنه نهى عن بيع الفقاع والملوخية وعما يتخذ من الترمس من الكبب التى تخلط بالفقاع ، وفى كتاب مورد اللطافة لجمال الدين أبى المحاسن بن تغرى بردى المؤلف فى خصوص ملوك مصر ، أن الحاكم منع طبخ الملوخية وزرعها فى جميع مملكته ، وكل من خالف فجزاؤه الصلب ، ومنع أيضاً أكل الجرجير والترمس والسمك الذى لا قشر له وكبب اللحم والفقاع .

وفى القاموس : فقاع كرمان هو الذى يشرب سمى به لما يرتفع فى رأسه من صحاح الجوهرى الفقاع الذى يشرب والفقاقيع النفخات التى ترتفع فوق الماء كالقوارير.

وذكر المقريزى فى خططه نوعين من الشراب منعهما الحاكم أحدهما المزر والثانى الفقاع ، وقال فى موضع آخر : المزر يعمل من الحنطة ، وفى القاموس المزر نبيذ الذرة والشعير ويظهر من كلام ابن البيطار وديسقوريدس : أن الفقاع معرب مزر اليونانية ، وقال ديسقوريدس أيضاً فى ترجمة زيتس هو الفقاع يعمل من الشعير يدر البول ويضر بالكلى والأعصاب وحجب الدماغ ويولد نفخاً وكيموسات رديئة ، وإذا نقع فيه العاج سهل عمله وعلاجه ، وأما الشراب الذى يقال له قرما المعمول من الشعير المستعمل بدل الخمر فهو مصبدع ردئ ، الكيموس ردىء للأعصاب ويعمل من الحنطة مثل ما يعمل فى غربى البلاد التى يقال لها ابيريا ، والبلاد التى يقال لها بريطانيا ، قال دساسى لم يذكر فى هذه الترجمة كلمة مزر ولا بيان ترجمتها وقد تعرض لها ابن البيطار فقال عن ابن مأسوية : إن الفقاع أربعة أنواع الأول يعمل من دقيق الشعير يضاف إليه الفلفل والسنبل والقرنفل والسذاب والكرفس .

والثانى يعمل من الخبز والكرفس والنعناع .
والثالث من الدقيق والعسل .
والرابع من الدقيق والسكر .

ونقل ابن البيطار أيضاً من كتاب المرشد إلى جواهر الأغذية ما نصه : قال التميمى فى المرشد أما الفقاع فهو على ضروب . منه : ما يتخذ من دقيق الشعير المنبت المجفف المطحون المخمر بالنعناع والسذاب والطرخون وورق الأترج والفلفل ، وهو حار يابس كثير التعفن مفسد للمعدة يولد النفخ والقراقر مضر بعصب الدماغ لأنه يملأ الدماغ أبخرة غليظة حارة بعيدة الإنحلال ، وربما أحدث بحدته وعفونته إسهالاً ، وللمدمن عليه عللاً فى المثانة وحرقة للبول ، ومنه المتخذ من الخبز السميذ المحكم الصنعة والكرفس ودقيق الحنطة والشعير المنبت وهو أقل ضرراً من الأول وأوفق للمحرورين ، فمن أحب من معتدلى المزاج أن يتعاطاه لإزالة نفخه ورياحه وقراقره ، ويفيده حرارة معتدلة وتقوية للمعدة فليجعل فيه بعض الأفاويه العطرية المطيبة للمعدة المقوية لها المنشفة لرطوبتها ، مثل السنبل والمصطكى وقرفة الطيب والدار فلفل والمسك وشىء من القاقلا والبسباسة والقرنفل ، وليكن جملة ما يسحق من هذه الأفاويه لكل عشرين كوزاً من / كيزان الفقاع الضارية مثقال واحد زنة درهمين ، فإن أراد مريد أن يفيد لذاذة فليجعل فى كل كوز قلباً من قلوب الطرخون وأوقيتين من شجرة الأترج مع يسير من سذّاب ويسير من نعناع ، وقد يتخذ منه ساذجاً بماء خبز السميذ المحكم الصنعة مروّقا ونقيعة المسك والمصطكى فقط مع قلب نعناع فى كل كوز وقلب طرخون فقط ٨٩

وفى المرشد أيضاً فى المزر ما نصه : فأما ما يتخذ من الحنطة والشعير والجاورس المنبتة من الشراب المسكر المسمى فى مصر بالمزر ، فإنها أنبذة تسكر إسكاراً شديداً غير أنها تبعد الإنسان عن قوته ومنافعه بُعْداً شديداً ، وقد تحدث شيئاً من الفرح والنشاط والطرب وتطيب النفس ، فإذا أكثر منها أثارت الغثيان والقىء وكثرة الرياح أ هـ .

ويعرف الفقاع الآن بالبوزة : وهى كلمة فارسية وكيفية عملها فى مصر أن يؤخذ خبز القمح والشعير المخلوط بكثير من الخميرة ويفتت فى إناء فيه ماء ويضاف إليه دقيق الشعير أو الحنطة المنبت ويترك حتى يتخمر ، وأما السوبيا فتعمل من الأرز بأن يوقد عليه فى القدر حتى يخرج نشاؤه فى الماء وينعقد ثم يخلط به الماء والعسل أو السكر ويستعمل شرباً ، وقد تكلم الشيخ عبد اللطيف البغدادى على الدلينس وقال : إنه صدف صغير أكبر من ظفر الإنسان بداخله مادة لزجة رطبة بيضاء بها نقط سود شنيعة المنظر يقال : إن فيها ملوحة لطيفة ولأكلها لذة .

ودلينس كلمة مصرية حرفها اللاتينيون والإفرنج إلى طلين أو طلينة وفى ترجمة ديسقوريدس لكلمة طلينة قال : وأهل الشام يسمونه الطلينس ، وهو صنف من الصدف صغير العظم إذا أكل طرياً لين البطن ولا سيما مرقه ، وماكان منه عتيقاً إذا أحرق وخلط بقطران وسحق وقطر على جفن لم يدع الشعر ينبت بالعين ، ومرق الصنف من ذوات الصدف الذى يقال له ختماً ، وسائر أصناف ذوات الصدف الصغار يسهل البطن إذا طبخ مع يسير من الماء ، وكذا مرقها إذا استعمل متحسى مع شراب .

وقال ابن البيطار فى مفرداته : إن الطلينة صنف من الصدف صغار تسميه أهل الشام طلينس وأهل مصر دلينس يؤتدم به مملوحاً بالخبز ، وقد ذكرته مع الصدف فى حرف الصاد انتهى .

وفى الجبرتى[1] من حوادث سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة : أنه كان بهذه الناحية الوقعة الشهيرة بين الفرنسيس والمصريين وحاصلها أنه لما إنهزم مراد بيك بعد وقعة فوّه

---

(١) انظر الجبرتى ٣/٢ ومابعدها ط الشرفية القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

والرحمانية المبسوطة هناك ، ووصل خبر ذلك إلى مصر إشتد إنزعاج الناس وركب إبراهيم بيك إلى ساحل بولاق وحضر الباشا والعلماء ورؤوس الناس واعملوا رأيهم فى عمل متاريس من بولاق إلى شبرى ، ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بيك وكشافه ومماليكه ، وكان العلماء عند توجه مراد بيك يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرءون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذا مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشائر ويعملون مجالس للإستغاثات وأطفال المكاتب يذكرون الإسم اللطيف وغيره من الأسماء ، وحضر مراد بيك إلى بر إنبابه وشرع فى عمل متاريس هناك ممتدة إلى نشيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وجماعة من خشداشينه ، واحتفل بترتيب ذلك وتنظيمه بنفسه هو وعلى باشا ونصوح باشا ، وأحضروا المراكب الكبار التى أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل إنبابة وشحنها بالعساكر والمدافع وصار البر الغربى والشرقى مملوءين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة ، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من حين وصول الخبر من إسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة إلى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد ، واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف ، وأخذوا أيضاً فى تشهيل الأحمال واستحضار الدواب للارتحال ، فلما رأى أهل البلدة منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهروب ، ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقى بمصر منهم أحد ، وفى يوم الثلاثاء ثانى يوم نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وحضر الجميع لبر بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعة يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خياماً أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها ، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح

والأكل وغير ذلك ، بحيث إن جميعهم بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر ، وخرجت الفقراء وأرباب الأشائر بالطبول والزمور والأعلام والكوءسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة / وصعد السيد عمر أفندى النقيب إلى القلعة ، فأنزل منها بيرقاً كبيراً تسميه العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى ، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ، وأما مصر فإنها بقيت خالية الطرق ، ما تجد بها أحداً سوى النساء فى البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة ، والأسواق مصفرة والطرق مجفرة عن عدم الكنس والرش ، وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع رطل البارود بستين نصفا ، وغلا السلاح وقل وجوده وجلس المشايخ والعلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى بالنصر ، وأقام غيرهم من الرعايا بعضهم بالبيوت وبعضهم بالزوايا والبعض بالخيام .

٩٠

ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق ، وأقام بها من حين نصب إبراهيم بيك العرضى هناك ، إلا القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مأوى ولا مكاناً فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق ، وأرسل إبراهيم بيك الى العرب المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرى وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد ، وفى كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما ، لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم فى صعيد واحد وانقطاع الطريق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم إلتفات الحكام واشتغالهمهم بمادهمهم .

أما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضاً وكذلك العرب أغارت على الأطراف والنواحى ، وصار قطر مصر من أوّله إلى آخره فى قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد مزارع وغير ذلك مما لا يحصى ، وطلب أمراء مصر التجار من الإفرنج فحبسوا بعضهم بالقلعة وبعضهم بأماكن الأمراء وصاروا يفتشون فى محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها ، وكذا يفتشون بيوت النصارى والشوام والأروام والكنائس والأديرة والعوام لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود وتمنعهم الحكام عنهم ، ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة فى وقت الفتنة ، ثم فى كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجىء منها فمنهم يقول : إنهم واصلون من البر الغربى ، ومنهم من يقول : بل يأتون من الشرق ، ومنهم من يقول : يأتون من الجهتين ، هذا وليس لأحد من أمراء العسكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم من مصر ، بل كل من إبراهيم بيك ومراد بيك جمع عسكره ومكث بمكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثَمَّ قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار ، وعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ، لكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوّهم مرتبكون فى رؤيتهم مغمورون فى غفلاتهم ، وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين بل أشيع فى عرضى إبراهيم بيك أنهم قادمون من الجهتين فلم يأتوا إلا من البر الغربى .

ولما كان وقت القائلة ركب جماعة من العسكر الذين فى البر الغربى وتقدموا إلى ناحية بشتيل ، وهى بلدة مجاورة لإنبابة فتقاتلوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمى ، وقتل أيوب بيك الدفتدار وعبد الله كاشف الجرف وعدد كبير من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكه ، وكانت مقدمة الفرنسيس نحو ستة آلاف وكبيرهم الوزير الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم .

وأما بانوبارت الكبير فإنه لم يشاهد الوقعة بل حضر بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير ، ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع ، وكذلك العساكر المحاربون المصريون ، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط ، وطلعوا إلى إنبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم فى المتاريس ، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ، ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم : يارب ويا لطيف ويا رجال الله ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم : إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح فلا يسمعون ولا يرجعون عما هم فيه ، وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى ، ومنهم إبراهيم بيك الوالى وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد والمراكب / قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين المصريين واشتد هبوب الريح واضطربت أمواج البحر وثار غبار الرمال فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه ، وكانت الريح آتية من ناحية العدوّ فكان ذلك من أسباب الهزيمة .

٩١

ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بيك انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس ، بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية فصمت الأسماع من توالى الضرب وخيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمرت الحرب نحو ثلاثة أرباع ساعة ، ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربى ، فغرق الكثير من الخيالة فى البحر لإحاطة العدوّ بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع أسيراً فى أيدى الفرنسيس وملكوا المتاريس وفرّ مراد بيك ومن معه إلى الجيزة ، فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر إنبابه تحت الأرجل .

وكان من جملة من ألقى نفسه فى البحر سليمان بيك المعروف بالأغا وأخوه إبراهيم بيك الوالى ، فأما سليمان بيك فنجا وغرق إبراهيم بيك الصغير وهو صهر إبراهيم بيك الكبير ، ولما انهزم العسكر الغربى حوّل الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة ، فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب فى الحال إبراهيم بيك والباشا والأمراء والعساكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى ولم يأخذوا منها شيئًا ، فأما إبراهيم بيك والباشا والأمراء فساروا إلى جهة العادلية ، وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجا أفواجا وهم فى غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك ، يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله من شر هذا اليوم الصعب ، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب ، فلما استقر إبراهيم بيك بالعادلية أرسل فأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء ، فأركبوا النساء بعضهن على الخيول وبعضهن على البغال والبعض على الحمير والجمال والبعض ماش كالجوارى والخدم ، واستمر معظم الناس طول

الليل خارجين من مصر البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد ؛ بل كل واحد مشغول بنفسه عن بنيه وأمه وأبيه ، وخرج تلك الليلة معظم أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد والأكثر لجهة الشرق ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ، ممتثلا للقضاء متوقعا للمكروه لعدم قدرته وقلة ما بيده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله . وما يصرفه عليهم فى الغربة ، والذى أزعج قلوب الناس زيادة آن فى عشاء تلك الليلة شاع أن الإفرنج عَدّوا إلى بولاق وأحرقوها ، وكذلك الجيزة وأولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرن بالنساء ، وسبب تلك الإشاعة أن الغليونجية من عساكر مراد بيك الذين كانوا فى الغليون بمرساة إنبابه لما تحققوا الكسرة أضرموا النار فى الغليون ، وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى جهة قبلى ، فمشوا به قليلا ووقف لقلة الماء فى الطين ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانه فأمر بحرقه أيضاً ، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة فظنوا أنهم أحرقوا البلدين ، فزاد ما هم فيه من الفزع والروع والجزع ، وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ ، وتحركت عزائم الناس للهرب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون

أى جهة يسلكون ، وفى أى طريق يذهبون ، وبأى محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا « وهم من كل حدب ينسلون » وبيع الحمار الأعرج والبغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملاً على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته وبنته ومشى هو ، وخرج غالب النساء ماشيات وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع ، فلما توسطوا الفلاة تلقتهم العرب والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم ولم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته ، فكان ما أخذته العرب شيئا يفوق الحصر ، فإن

ما خرج من مصر من الأموال والذخائر فى تلك الليلة أضعاف ما بقى فيها ضرورة ، لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان ومساتير الناس ، والذى أقعده العجز وكان عنده ما يعز عليه من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ، ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه .

ومن دافع عن نفسه أو حريمه ربما قتلوه وعروا النساء وفضحوهن ، وفيهن الخوندات والأعيان فمنهم من رجع من قريب وهم الذين تأخروا فى الخروج ، وبلغهم ما حصل للسابقين ومنهم من جازف متكلا على عزته فسلم أو عطب ، وبالجملة / فكانت تلك الليلة وصبيحتها فى غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما يشابه بعضه فى تواريخ المتقدمين .

٩٢

ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم من حلول الفرنسيس ورجع الكثير من الفارين فى أسوا حال من العرى والفزع ، تبين أن الإفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقى ، وأن الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها ، واجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج وينظروا ما يكون من جوابهم ، ففعلوا وأرسلوا الرسالة صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم ومعه شخص آخر فغابا ثم عادا فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان ترجمانه : وأين عظماؤكم ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب عليهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش فى وجوههم فقالا : نريد أمانا منكم فقال : أرسلنا لكم سابقا فقالا وأيضاً لأجل إطمئنان الناس ، فكتب ورقة أخرى مضمونها خطابا

لأهل مصر : إننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا لأجل إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربى وخرجوا إلينا قابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ، ونحن فى طلبهم حتى لايبقى أحد منهم فى القطر المصرى .

وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين إلى آخر ما ذكرت لكم ثم قال لهما : لابد أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهما ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور ، ولما رجع الجواب بذلك إطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم ، وقال : أنتم المشايخ الكبار فقالوا إن المشايخ الكبار خافوا وهربوا ، فقال لأى شئ يخافون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة ، ثم انفصلوا عن عسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم ، فلما أصبحوا أرسلوا مكتوبات الأمان إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى ، والمشايخ ومن إنضم إليهم من الناس الفارين .

وأما عمر أفندى نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر وكذلك الروزنامجى والأفندية ، وفى ذلك اليوم اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك اللذين بخطة قوصون وأحرقوهما ، ونهبوا عدة من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان .

وفى يوم الثلاثاء عدت الفرنساوية إلى بر مصر وسكن بانوبارت بيت محمد بيك الألفى بالأزبكية بخط الساكت ، الذى أنشأه ذلك الأمير فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة ، وعند تمامه وسكناه به حصلت هذه الحادثة فتركه بما فيه فكأنه إنما بنى لأمير الفرنسيس ، وكذلك حصل فى بيت حسن كاشف جركس بالناصرية واستمر غالب الفرنسيس بالبر الغربى ، ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم ومشوا فى الأسواق من غير سلاح وصاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن ، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها ريال فرانسيا ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم ، فأنس بهم العامة واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج والسكر والصابون والدخان والبن وغير ذلك ، وفتح غالب السوق الحوانيت والقهاوى وصاروا يبيعون بما أحبوا من الأسعار .

وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام سر عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس تشاوروا معهم فى تعيين عشرة من المشايخ للديوان لفصل الخصومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ عبدالله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ أحمد العريشى ، والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد الدواخلى ، وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى ، وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان ، وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة ، وحسن أغا محرم أمين احتساب ، وذلك بإشارة أرباب الديوان ، فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم ، وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم ، وقلدوا ذا الفقار كتخدا محمد بيك كتخدا بانوبارت .

ومن أرباب المشورة الخواجة موسى وكيل الفرنساوية ووكيل الديوان حنابينو .

٩٣ واجتمع / أرباب الديوان عند رئيسه فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت ، فقالوا له : هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس . فقال لأى شئ يفعلون ذلك . وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها ، فقالوا : هذا أمر لا قدرة لنا عليه وإنما ذلك من وظائف الحكام ، فأمروا الوالى والأغا ينادون بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب . وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلقة وأخذوا ما فيها وختموا على بعضها وسكنوا بعضها . وكان الذى يخاف على داره يعلق له بنديرة على باب داره أو يأخذ له ورقة من الفرنسيس يلصقها على داره . وركب برطلمين النصرانى الرومى وهو الذى تسميه العامة فرط الرمان كتخدا مستحفظان ، وركب بموكب من بيت سر عسكر وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه ، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون ، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة ، ورتب له بيوك باش وقلفات عينوا لهم مراكز بأخطاط البلد يجلسون بها ، وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف بحارة عابدين أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوار .

والمذكور من أسافل نصارى الأروام والعسكرية القاطنين بمصر . وكان من الطوبجية عند محمد بيك الألفى وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة . وقلدوا أيضاً شخصاً إفرنجيا جعلوه أمين البحيرة وآخر جعلوه أغاة الرسالة . وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية بقرب الرويعى . وسكن به رئيس الديوان وسكن دبوى قائم مقام مصر ببيت إبراهيم بيك الوالى المطل على بركة الفيل . وسكن شيخ البلد ببيت إبراهيم بيك الكبير ، وسكن مجلون ببيت مراد بيك على رصيف الخشاب . وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت الشيخ البكرى القديم ، فكان يجتمع عنده النصارى القبط كل يوم وطلبوا الدفاتر من الكتبة .

ثم إن عسكرهم دخلت المدينة وملأت الطرقات وسكنوا البيوت ولم يشوشوا على أحد ، ودخل الاطمئنان على الناس وفتحت البيوت والدكاكين وصار البيع والشراء .

وفى يوم السبت اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى وأخذوا فى تحصيلها ، ثم نادوا برد المنهوبات وتوريدها ببيت قائم مقام ونادوا على نساء الأمراء بالأمان وأنهن يسكن بيوتهن ، وإن كان عندهن شئ من متاع أزواجهن يظهرنه ومن لم يكن عندها شىء تصالح على نفسها ، وظهرت الست نفيسة زوجة مراد بيك وصالحت على نفسها وأتباعها من سائر الأمراء والكشاف بمبلغ مائة وعشرين ألف ريال فرانسا ، ووجهوا الطلب على بقية النساء ليعملوا مصالحات معهن ومع الغزو الأجناد المختفين والغائبين وتعطى لهم أوراق بختم المقيدين بالديوان .

وفى يوم الأحد طلبوا الخيول والجمال والسلاح والأبقار والأثوار ، وفتشوا على السلاح وكسروا دكاكين سوق السلاح وغيره وأخذوا ما وجدوه واستخرجوا الخبايا والودائع بمعرفة البنائين والمهندسين والخدام .

وفى يوم الثلاثاء طلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وقرروا عليهم دراهم على سبيل القرض والسلفة ، ثم شرعوا فى تكسير بوابات الدروب والعطف واستمروا على ذلك عدة أيام وهكذا من هذه الأحوال التى تعقب الحروب والتغلبات والاستيلاء القهرى إلى آخر ما هو مبسوط فى الجبرتى وغيره وبعضه فى مواضع من كتابنا هذا فليراجع .

أنبـــو

مدينة قديمة كانت فى الصعيد الأعلى فى شمال أسوان وقد خربت من زمن مديد ، ومحلها الآن كيمان من الرمال على الشاطئ الشرقى من النيل فى فم واد على بعد أربعة ميريا متر ونصف من مدينة أسوان ، وبعدها عن مدينة أدفو على ما عينه انطونان أربعون ميلا ، وتعرف الآن باسم كوم أمبو والنيل عندها متقوس ، وعند تقوسه موردة عظيمة يعلو ساحلها تل مرتفع .

وقال بعض المؤرخين : قد غطت الرمال التى تنسفها الرياح من الصحراء الشرقية جميع آثار المدينة والأرض التى كانت ممتدة حولها إلى الجبل بقدر فرسخين ، والقرية التى عوضت عن مدينة أنبو فى الأزمان الأخيرة خربت أيضا ، وفى زمن الفرنساوية كانت خالية من السكان والشجر والنبات بحيث لا يرى الإنسان غير القحولة ، والخراب فى محل هذه المدينة التى كانت عامرة ذات شهرة فى الأعصر الماضية ، ولم يمكن الفرنساوية بيان حدود المدينة لزحف الرمال عليها وتغطيتها مع أكل البحر جزءا عظيماً منها ، وذلك أنه كان أمامها جزيرة يقال : لها المنصورية ، منفصلة عنها بسيالة صغيرة فأخذت السيالة فى الاتساع وتحول لها النيل وأكل جانباً كبيراً من الأرض ومن المدينة ، وقد وجد الفرنساوية بها معبدين من المبانى القديمة ذكر بعض المؤرخين أنهما من مدة البطالسة .

وقال مربيت أنهما معبدان متلاصقان أحدهما الهوروس وهو فى زعمهم آله النور والآخر لبيبيك وهو آله الظلمة ، وقال غيره إن المعبد الكبير سابق على موريس فرعون مصر . وقد قرئ اسم والدته على أحد أبوابه وإنما ينسب إلى البطالسة بعض النقوش / التى عليه كما يدل ٩٤ لذلك ما وجد على جدرانه من الكتابة الرومية ، وفى كتاب لطرون أن معبد هذه المدينة عبارة عن جهتين لمقدسين ، فالجهة اليمنى للمقدس سويق الذى صورته صورة إنسان برأس تمساح ومعه المقدسان أثير وحنس ، والجهة اليسرى للمقدس أرواريس ومعه المقدسة زينوفرة وأبنها بنيونو ، وأطلقت الأروام اسم ابلون على أرواريس ، كما أطلقوا اسم ساترن على سويق الذى هو إشارة إلى الصفات القهرية للمقدس أمون .

كما وجد ذلك فى كتابة رومية على المعبد ، وفى الكتابة أيضا أن العساكر الخيالة والمشاة وسائر المستخدمين زخرفوا هذا المعبد لحفظ حياة بطليموس وزوجته كليوبتره أخته وأولادهما لما نالهم منهم من الخير العظيم ، وذلك قبل الميلاد بمائة وستين سنة ، وأن المحافظين فى هذه الكورة عليهم الحراسة إلى آخر الشلال الثانى ، الذى هو آخر حدود هذا الخط انتهى .

وفى سنة ألف وثمانمائة وأربعة وأربعين ميلادية كان النيل مسلطا عليه بحيث يخشى أن يهدمه بخلاف المعبد الصغير فإنه بعيد عن النيل داخل فى الأرض الصحيحة ، وقد وجد الفرنساوية أيضا سُوراً مبنياً من الطوب محيطه (٧٥٠) مترا وسمكه ثمانية أمتار ويظهر أنه أقدم من المعبدين المذكورين ، ومن تراكم الرمال عليه لم يمكنهم تعيين ارتفاعه ، والظاهر أنه كان يدور على المعبدين ، ثم إن جميع أوجه الحيطان والأعمدة والسقف وجدت مشغولة بكتابة ونقوش وصور لا حاجة لنا بشرحها ، غير أننا ننبه على أمر مهم وجد فى سقف المعبد الكبير ، وهو أن بعضه لم يتم نقشه ووجد مقسما إلى مربعات والصور مخططة فيها باللون الأحمر .

ومن هنا يستدل على أن المصريين كانوا يستعملون المربعات فى نقش الرسومات وتحويلها من مقياس إلى آخر ، وعلى أنهم كانوا يعملون الطرق الهندسية المؤدية إلى بقاء نسب الاشكال ، ويؤيد ذلك ما نقله أبولونيوس من أهالى جزيرة رودس عن كليمان الإسكندرى من كتاب الأشياء المقدسة ، أن طائفة الدرجة الثالثة من طوائف القسيسين المصريين ، كانت متكفله بمعرفة الفلك والجغرافية والرسم وشرح أحوال النيل ، وأن الخرط التى أمر بها جوزويه - (يوشع صلى الله عليه وسلم) - لتقسيم الأرض بين قبائل العبرانيين عملت على مقتضى القاعدة المصرية ، وما ذكره يوسف الإسرائيلى يدل على أنها كانت عبارة عن مسح جميع أراضى العبرانيين ، ومثل هذه المربعات وجد فى مبان غير هذه .

وينتج من ذلك تحقيق ما ذكره المؤرخون من أن اختراع فن الهندسة والمساقط الجغرافية يعزى إلى المصريين ويشهد لهم بالفخر على من عداهم ، ويستفاد من أقوال المؤرخين أن فرعون مصر سيزوستريس أمر بعمل خرطة وادى النيل وكانت محفوظة فى المعابد .

وذكر ديودور الصقلى أن فيثاغورس اكتسب من المصريين أعظم النظريات الهندسية . وذكر المؤرخ اليان وجونيان وغيرهما ، أن أهالى مدينة أنبو كانوا يقدسون التمساح ويوجد مرسوما فى المعابد على كيفيات مختلفة وكانوا يحتفلون بدفنه وتصبيره ، ويظهر أن هذا الحيوان كان رمزاً على ماء النيل ، وكان يقدس غالبا عند أهالى المدن البعيدة عن النيل ، كما هى حالة مدينة أنبو فى الأزمان القديمة ، فإن الماء كان لا يصلها إلا من ترعة تخرج منه إليها ، وبين كوم مدينة أنبو ومدينة أدفورأس من الجبل داخل فى البحر يعرف عند أهل الصعيد بجبل أبى شجر ، وهو السبب فى كثرة الزوابع وشدة الرياح هناك ، وكثيراً ما يحصل منها تلف المراكب وغرقها ، وعادة هذه الرياح عند هبوبها أن تكون حاملة للأتربة والرمال ، وفى غالب الأوقات تلجأ المراكب إلى موردة فى الجبل فينبغى زيادة التحفظ حتى لا يحصل إتلافها ، وفوق هذا الجبل يسكن بعض الفقراء وينزلون لطلب الحسنة ممن يلجأ إلى تلك الموردة ، وبين كوم أنبو وجبل السلسلة مسافة أربعة وثمانين كيلومتر .

وقال مرييت : إن النيل هناك يكون مُنْحَبسًا بين جهتى جبل السلسلة . وفى ذلك الجبل مغارة فيها نقوش وأدعية تدل على أن أهل تلك الجهة كانوا يقدسون النيل بعبادة مخصوصة ، وذلك فى زمن هوروس أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة ، ويرى على الجدار القبلى أن هذا الملك يرضع من مقدسة ذات لبن وهو جالس على تخت محمول باثنى عشر أميراً ، ويرى فى مرة أخرى أن أميرين يحملان له المظلة فى رجوعه من نصرة انتصرها على الكوشيين ، وبين جبل السلسلة وأدفو أربعون كيلو متر انتهى .

ولنبين لك تراجم بعض من تقدم ذكرهم فى هذه البلدة على سبيل الإيجاز فنقول نقلا عن قاموس الفرنج

أما كليمان الإسكندرى فهو من علماء القرن الثانى من الميلاد ، ولد بالإسكندرية فى العبادة الوثنية ثم تنصر وزاول العلوم ودرس بالمدرسة النصرانية بالأسكندرية ، ثم رحل عنها فى سنة مائتين واثنتين كراهية لظلم القيصر سوير ، وساح فى بلاد القدس وغيرها ثم رجع إلى الإسكندرية بعد خمس عشرة سنة ومات بها فى سنة رجوعه

٩٥ وأما يوسف / الإسرائيلى فإنه ولد بالقدس سنة سبع وثلاثين من الميلاد ، ثم جعل حاكما على ولاية جليلة وهى قسم من بلاد فلسطين ، وذلك فى سنة سبع وستين وقت قيام الأهالى على الرومانيين زمن قيصرية واسبيسيان وتيتوس ، واصطحب مع تيتوس وأخبره بالكهانة أنه يتولى القيصرية ، فأحبه وأخذه معه إلى رومة ومات بها سنة خمس وتسعين ، وقد كتب تاريخ حروب اليهود مع الرومانيين .

وأما جوزويه يوشع العبرانى فهو رئيس العبرانيين ولد بمصر ، وكان خليفة موسى عليه السلام فى حكم بنى إسرائيل سنة ألف وستمائة وخمسة قبل الميلاد ، وهو الذى أدخل العبرانيين الأرض المقدسة التى كتب الله لهم وحارب أربعة ملوك من الكنعانيين وانتصر عليهم .

ويروى أن الله أوقف له الشمس حتى أنتصر وأقام يحارب حتى استولى على أرض كنعان وقسمها على الإثنى عشر سبطا ، ومات قبل المسيح بألف وخمسمائة وثمانين سنة ، وله من العمر مائة سنة وعشر سنين انتهى .

وأما فيثاغورس فهو عالم فيلسوف يونانى أحد أئمة الفلسفة كإفلاطون ونحوه . ولد فى شاموس قبل المسيح بستمائة وثمان سنين على قول . وقيل : قبله بخمسمائة وإثنتين وسبعين سنة ، وسافر كثيراً لاكتساب المعارف وأقام بمصر زمانا وأخذ عن علمائها فنون الرياضيات ، ثم رجع إلى بلاده أرض اليونان وعلم أهلها علم الهندسة والطبيعة وعلم الدين ، ولم يكونوا يعلمونها قبل ذلك .

وفى سنة خمسمائة وأربعين قبل الميلاد أسس مدرسة بإيطاليا واشتهرت به واجتمع عليه المريدون ، وكان لا يقبل المريد إلا بعد امتحانه بأمور شاقة كإلزامه السكوت عدة سنين ، وكانوا فى غاية الامتثال له وصدق مودته ويعتقدونه إعتقاداً زائداً ، وكان بسيطا فى عيشته مجتنباً لأكل اللحم وتبحر فى جميع العلوم خصوصا الرياضيات كالحساب والفلك واستخرج بذكائه علم الألحان وتأليف النغم والموسيقى ومات سنة خمسمائة وتسعة قبل الميلاد ، وله استكشافات كثيرة ، منها مربع الوتر .

وأوصله اتقان النسب الرياضية إلى طريقة عمومية منها أن الأعداد أصل لكل شئ . وأن أصل الأعداد الواحد أو الوحدة وأن العشرة آحاد الأوليّة لها خواص عجيبة لا سيما الواحد العاشر ، وأن الله هو الوحدة المطلقة الأصلية ، وأن العالم هو أمر كلى بديع الصنعة والإحكام ، وأن الأرض كروية وأنها ساكنة والقمر والشمس والكواكب تدور حولها بنظام موسيقى ، وأن فعل الخير هو : الوحدة ، والشر هو التنافر وعدم الألفة والعدالة المساواة فى

الأمور ، وأن الروح عدد يتحرك بنفسه ، وأن المادة هى الملازم غير المتناهى وهو أصل الشر ، وأن الأرواح تتنقل فى الأجسام فتارة تترق بالتدريج إلى الدرجات العلا باكتساب الفضائل ، وتارة تنحط فى الدّركات باكتساب القبائح والرذائل ، وكان يزعم أن روحه كانت قبله فى جسد أفورب الذى كان فى حرب ترواده انتّهى .

انشـــاص

هذه القرية قبلى بلبيس بمقدار خمسة عشر ألف متر ، وهى من قسم بلبيس من بلاد الشرقية وأغلب أبنيتّها باللبن ، وبها دكاكين ومساجد عامرة وفيها تجار من الدول المتحابة يتجرون فى القطن والأبزار ، وبها مجلسان للدعاوى والمشيخة ومكاتب لتعليم القرآن والكتابة ونخيل ، ولعمدتها حسنين عامر جنينة .

وعدد أهلها ألفان وثلاثمائة وستون نفسا وتكسبهم فى الغالب من الزراعة ، ومنهم أرباب حِرف ، وكان لها سوق كل يوم أربعاء يباع فيه المواشى وغيرها ، وبها محطة السكة الحديدية ومحلات إقامة خدمتّها ، وزمام أطيانها ألفان ومائتان وثلاثة وأربعون فداناً وكسر .

أنصـــار

قرية من قرى مصر ذكرها السّيوطى فى حسن المحاضرة وقال : إن منها رجاء بن عيسى بن محمد أبا العباس الأنصارى ، كان فقيها مالكيا ثقة ، قدم بغداد وحدث بها وسمع منه الحفاظ ، ثم عاد إلى بلده فمات بها سنة تسعين وأربعمائة انتّهى .

أنصنــــا

بفتح الهمزة وسكون النون وكسر الصاد المهملة ثم نون ثانية وألف ، بلدة بالصعيد الأوسط بها آثار عظيمة أوّلية وهى على شاطئ النيل من البر الشرقى قبالة الأشمونين من البر الآخر ، ولها مزدرع كثير ، قال الإدريسى فى نزهة المشتاق . أنصنا مدينة قديمة البناء كثيرة الثمار غزيرة الخصب انتهى من تقويم البلدان لأبى الفداء .

وكانت تسمى قديما انتنوية ويستفاد من كلام المؤرخين أن قيصر الروم أدريان هو الذى أمر ببنائها لتكون مركزا للأقاليم القبلية عوضا عن مدينة الأشمونين ، وذلك على ما ذكره بعضهم أن القيصر لما أراد سياحة الديار المصرية ليشاهد آثارها وأخبار أهلها ، قام من مملكة إيطاليا سنة مائة وثمانين من الميلاد ـ أعنى سنة ٨٨٦ من تاريخ رومة ـ فبعد أن ساح بعض بلاد السواحل دخل أرض مصر سنة ١٣٢ ميلادية ، وفى السنة الخامسة عشرة من جلوسه على تخت القيصرية ، أقام بمدينة طيبة واطلع على خزانة التحف التى بها ورأى الآثار العتيقة وأمر ببناء قبر مشيد فيها للأمير بومبيوس الذى كان قتله بطليموس فى هذا المكان غدراً وخيانة ، وتوجه منها إلى الإسكندرية وأمر لأهل المدينة برجوع بعض المزايا التى حرموا منها فى زمن القياصرة السابقين ، ثم قصد إلى الأقاليم القبلية وكان / مستصحبا لنديمه الشاب أنتنويه ، وكان يحبه حباً شديداً أوجب التكلم فيه من كثير من الشعراء وغيرهم ، فقدّر الله سبحانه غرق هذا الشاب فى النيل قريبا من محل هذه المدينة ، فحزن عليه القيصر حزناً شديداً غير معتاد ،

٩٦

وأمر بإنشاء هذه المدينة لتكون تذكرة لذلك الشاب على ممر الدهور ، وتمم بناءها فى أربع سنين ، وأمر بجمع الرومانيين المتفرقين فى جهات القطر وأسكنهم فيها ، مع من جلبه إليها من بلاد الروم كعادة القياصرة من قبله ، وزينها بالمعابد الفاخرة ، والمبانى الرفيعة ، وقسم طولها وعرضها إلى حارات وأزقة متسعة مستقيمة مزينة فى جوانبها بأعمدة وتماثيل وهياكل ، فصارت من أحسن ما أنشئ فى تلك الأحقاب وجعل لأنتنويه معبداً رتب له الكهنة وما يلزم له وجعله من المعابد المقدسة .

وممن تكلم فيه من الشعراء جوانيال فإنه هجاه مع محبوبه بقصيدة بالغ فيها فى ذمّهما فنفاه إلى أسوان فمات بقنا فى طريقه ، وذكر كثير من المؤلفين فى سبب بناء هذه المدينة ، أن هذا القيصر كان مولعا بالمبانى حتى إنه بنى كثيرا من المدن فى آسيا وبلاد الغلوا والإنجليز وغيرها ، ومن ضمن ذلك مدينة سميت باسمه وشحنها بالعمارات الفاخرة ، ولما كان غالب مدن الأقاليم القبلية فى وقته متخربا ومدينة الإسكندرية بعيدة ، رغب فى بناء مدينة تكون مركزا للتجارة والسّياسة والأمور المهمة فى وسط الأقاليم القبلية فبنى هذه المدينة لهذا الغرض ، فلعل ذلك مع الرغبة فى الافتخار هو السبب الحقيقى فى بناء هذه المدينة التى استقلت بأمور الأقاليم القبلية زمناً مديداً ، وكان كل قيصر يزيد فى زخرفتها حتى أن القيصر سوير أضاف إلى معابدها بعض معابد فى سنة ٢٠٢ ميلادية ، فبقيت متباهية بالعز الذى لا يشاركها فيه غيرها من مدن الجهات القبلية إلى أن دخلت الديانة العيسوية أرض مصر فالتحقت بمدينة طيبة .

وذكر أوزيب أنه فى آخر القرن الثالث كان لأهل هذه المدينة علائق مع كثير من القسيسين بمدينة القدس ، وفى القرن الرابع كثرت بها الكنائس والديور النصرانية .

وذكر الإدريسى أن هذه الكنائس والديورا من آثار المدينة القديمة ، وكان بها مبان فاخرة وحدائق نضرة وأرض خصبة ، وقال : إنها كانت تسمى بمدينة السحرة ومنها جلب فرعون مصر سحرة موسى عليه السلام ، ويغلب على الظنّ أن السحرة إنما جلبوا من مدينة بيترا التى بالقرب منها ، وكانت ذات شهرة فى الزمن الأول .

وقد ذكر أبو الفداء ما ذكر الإدريسى .

وفى رحلة ابن جبير فى آخر القرن السادس أن أنصنا قرية فسيحة جميلة بها آثار قديمة وكانت فى السالف مدينة عتيقةً وكان لها سور هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخره إلى القاهرة فنقل بأسره إليها انتهى .

وذكر القريزى أن بابا من أبوابها نقل إلى مدينة القاهرة وكان على باب زويلة ، وأن صلاح الدين أيوب نقل أحجار سورها وبنى بها ما أحدثه من المبانى فى مدينة القاهرة .

وقال أبو عبيد البكرى : أنصنا كورة من كور مصر معروفة ، كانت سرّية النبى صلى الله عليه وسلم مارية أم ابنه إبراهيم من قرية من قُراها يقال لها حفن ، ولوضع هذه المدينة على شاطئ النيل كان فيها بساتين زاهرة ومنتزهات باهرة ، وكان لها محصول عظيم من التمر والفواكه والآثار التى كانت باقية إلى زمن الفرنساوية ، ومن مبانى هذه المدينة تدل على ما كانت عليه فى الزمن القديم من الفخامة والعمارية .

وفى خطط الفرنساوية إن الإنسان إذا كان فوق تلالها من جهتها الغربية يرى الشارع الذى كان ممتداً فى طولها ويرى قطعا كثيرة من الأعمدة التى كانت فى جوانبه من أوّله إلى آخره وعلى كل عمود تمثال أنتنوبة ويرى أيضا فى آخر خرابها البودروم ـ أعنى محل ملعب الخيل والمصارعة ـ وكان مستدير الشكل يقال : إنه كان مجعولا مقياسا للنيل ، وكان محوّطا بأعمدة من الصوان الأحمر بين كل عمودين خطوة وهى عدد أيام السنة الشمسية ، ويرى على شماله الشارع العمودى من بابها الشرقى الذى كان مزينا بالأعمدة والتماثيل والمبانى الفاخرة إلى بابها الغربى .

ويرى فى الجهة البحرية أعمدة النصر الفائقة التى أقيمت لبقاء ذكر القيصر إسكندر سوير وغيره ، فإذا التفت قليلا رأى أقواس النصر العظيمة وأعمدتها الصُّوانية الهائلة ، وآثار جميع ما ذكر منتشرة فى أرض المدينة من صور مكسرة وأحجار هائلة ملقاة ظاهرة كلها أو بعضها من الأتربة والرمال ، ويشاهد سور المدينة فى الجهة القبلية ، وبعده تل مرتفع فيه كثير من قطع الحجارة والشقاف كان فى موضعه بلد قديم حدث فى زمن النصارى ، ودير أبى حنس بلصق هذا التل .

ويشاهد أيضا نزلة الشيخ عبدالله والجبل وما فيه من المغارات الكثيرة بعضها فوق بعض المستخرج منها الأحجار التى بنيت بها مدينة الأشمونين وأنصنا وغيرهما ، وبعض المغارات طويل جدا ومتفرع إلى فروع ، وفوق الجبل آثار ديور متعددة ومغارات كبيرة وصغيرة كانت مساكن الرهبان ، وبين الجبل وأنصنا فى الجهة البحرية تلال من آثار مدينة بيز العتيقة السابقة على أنصنا فى القدم والشهرة التى كانت فى أسفل الجبل ، ولعل أحجارها وأعمدة معابدها وعماراتها أخذت فى بناء مدينة / أنصنا ، ولعل هذا هو السبب فى قلة آثارها الآن جدا . ٩٧

وهذا الاسم أعنى بيز كان لأحد مقدّسى المصريين فى الأزمان السابقة الذى ظهرت له كرامات عظيمة فى مدينة أبيدوس ، كما ذكر ذلك اميان مرسيلان وأوزيب .

وذكر فيتوسولس أن مدينة أنتنويه كانت تسمى فى السابق بيز أنتنويه بالتركيب من بيز وأنتنويه ، وهذا يحقق سبق مدينة بيز المذكورة على المدينة الرومانية ، ومن فوق تلال أنصنا الشامخة ، يرى أيضا فى غربى النيل قرية الروضة ، وقرية البياضية التى كان أهلها أقباطا مشهورين بصناعة السكر فى الزمن القديم ، ويرى أيضا مدينة ملوى وآثار مدينة الأشمونين .

وشكل مدينة أنصنا شبه منحرف ضلعاه الجنوبى والشمالى متوازيان قد قيس محيطها فوجد ٥٢٩٨ مترا غير خراب مدينة بيزا ، والبودروم وأحد آحادها الذى به الشارع الكبير من ابتداء الباب الشمالى الغربى إلى النقطة المقابلة له من السور فى جهة الجنوب ١٠١٤ مترا ، والبعد الآخر التابع للشارع الثانى ١٠٧٢ مترا ، فتكون مساحة المدينة بالنسبة لذلك قريبة من ٣٠٠ فدان ، وكان أهلها قريبا من ٢٠ إلى ٢٥ ألف نفس وطول السور القبلى ٦٩٩ مترا والبحرى ١١٠٨ أمتار ، وكان لها سوران مبنيان بالحجر والطوب أحدهما خلف الآخر انتهى .

ونقل المقريزى[١] عن أبى حنيفة الدينورى أنه قال : ولا ينبت البنج إلا بأنصنا . وهو عود ينشر منه ألواح للسفن وربما أرعفت ناشرها ، ويباع اللّوح منها بخمسين ديناراً ونحوها ، وإذا شدّ لوح منها بلوح وطرحا فى الماء ستة أيام صارا لوحاً واحداً انتهى .

وقد حقق العالم دساسى الفرنساوى فى شرحه على رسالة عبداللطيف البغدادى : أن الشجرة التى هذا وصفها ليست شجرة البنج ، وإنما هى شجرة اللّبخ بفتح اللام والباء أو بضم اللام وفتح الباء ، أو بفتح اللام وسكون الباء وفى آخرها خاء معجمة ، ويقال فيها : الباخ وأن اسمها اللاتينى برسيا كما فى كتاب تيوفرست وديوسكوريد وغليان واسترابون وديودور وغيرهم واتفقوا جميعا على أنها لاتنبت إلا بمصر .

وقد ترجم اسطوفان عبارة ديوسكوريد وصححها أبوزيد حنين بن إسحاق ، وقد ترجمت برسيا بقرساء بقاف فى أوّله ممدودا أو قرسياء بياء بعد السين ممدودا ، وقد وجدت فى تهميشات دساسى ما نصه :

---

(١) انظر خطط المقريزى ٣٦٠/١ ط لبنان .

قرسياء : شجرة تكون بمصر ولها ثمر يؤكل جيد للمعدة ، وربما وجد فى هذه الشجرة صنف من الرتيلا يقال له : قرانيو قوما ، وأعظم ما كان منه بناحية الصعيد ، وقوّة ورق هذه الشجرة تقطع الدّم إذا جفّف وسحق وذر على الموضع الذى يسيل منه .

وقد زعم قوم أن هذه الشجرة كانت تقتل فى بلاد الفرس ، فبعد أن نقلت إلى مصر صارت تؤكل ولا تضر ، وزعم حنين أن هذه الشجرة ويسميها أهل مصر البنج أو اللّبخ .

ونقل دساسى أيضا هامشا وجد على الترجمة السابقة ونصه : أخبرنى أبو محمد البغدادى الكابودى ، وكان قد سكن الهند سنين كثيرة وقد سألته عن اللّبخ فقال : اسمه بالفارسية ازادرخت وتأويل هذا الاسم حرة آل وعرفه وزادنا اسمه (ج لى) ابن جلجل قال القاذورى : ابن جلجل يقول هذا وليس بشئ شجرة اللّبخ بمصر مشهورة وثمرها يؤكل وهو حلو طيب الطعم والرائحة إلى الحمرة ما . هو والأزادرخت عندنا ليس كذلك ولا بينهما شبه بوجه من الوجوه ، لأن ورق اللّبخ يشبه ورق المشمش عندنا فى قدره وشكله إلا أنه أشد ملوسة وهو أيضا إلى البياض ، وثمره يشبه الكبر فى لونه وقدره إذا قطع منه العرجون الذى فى الكبرة وداخله نواة قدر حبة الفستق إلى الطول ما . هى وهو حلو يؤكل ، وصورة (ج لى) المتقدمة رمز لاسم صاحب الهامشة وهو أبو داود سليمان بن حسن المعروف بابن جلجل حكيم قرطبا المشهور فى زمن هشام المؤيد بالله سنة ٣٦٦ هـ .

وقد ترجمه العالم دساسى فى كتابه فقال ما نصه بحروفه : هو أبو داود سليمان بن حسان يعرف بابن جلجل كان طبيبا فاضلا خبيرا بالمعالجات جيد التصرف فى صناعة الطب ، وكان فى أيام هشام المؤيد بالله ، وخدمه بالطب وله بصيره واعتناء بقوى الأدوية المفردة ، وقد قسم أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقورديس العين زربى وأفصح عن مكنونها وأوضح مستغلق مضمونها ، وهو يقول فى أوّل كتابه هذا : إن كتاب ديوسقوريدس ترجم بمدينة

السلام ـ (**بغداد**) ـ فى الدولة العباسية فى أيام جعفر المتوكل ، فكان المترجم له اصطوفان من تلك الأسماء اليونانية فى وقته ، فما عرف له إسما فى اللّسان العربى فسره بالعربية ، وما لم يعلم له فى اللّسان العربى اسما تركه فى الكتاب على اسمه اليونانى ، اتكالا منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللّسان العربى ، إذ التسمية لا تكون إلا بالتواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الأدوية بما رَءوُا ، ويسمون ذلك إما باشتقاق وإما من غير ذلك بتواطؤهم على التسمية ، فاتكل اصطوفان على أشخاص يأتون بعده ، فمن عرف أعيان الأدوية التى لم يعرف / هُوَلها اسما فى وقته يسميها على قدر ما سمع فى ذلك الوقت فيخرج إلى المعرفة . ٩٨

قال ابن جلجل وورد هذا الكتاب إلى الأندلس وهو على ترجمة اصطوفان ، منه ما عرف له اسما بالعربية ، ومنه ما لم يعرف له اسما فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق والأندلس إلى أيام الناصر عبدالوحمن بن محمد وهو يومئذ صاحب الأندلس ، فكاتبه ارمانيوس الملك ملك القسطنطينية ـ أحسب فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ـ وهاداه بهدايا لها قدر عظيم ، وكان فى جملة هديته كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوبا بالأغريقى الذى هو اليونانى ، وبعث معه كتاب هروشيش صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة .

وكتب ارمانيوس فى كتابه إلى الناصر أن كتاب ديسقورديس لا تجنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب ، وأما كتاب هروشيش فعندك فى بلدك من اللّيتينيين من يقرؤه باللّسان اللّتينى وإن كاشفتهم عنه نقلوه لك من اللتينى إلى اللّسان العربى .

قال ابن جلجل ، ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ الإغريقى الذى هو اليونانى القديم فبقى كتاب ديسقوريدس . فى خزانة عبدالرحمن الناصر باللّسان الإغريقى ولم يترجم إلى اللّسان العربى وبقى الكتاب بالأندلس ، والذى بين أيدى الناس ترجمة أصطوفان الواردة من مدينة السلام ـ (**بغداد**) ـ فلما جاوب الناصر أرمانيوس الملك سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالإغريقى واللتينى ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين ، فبعث أرمانيوس الملك إلى الناصر براهب كان يسمى (**نقولا**) فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلاثمائة ، وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب إلى الملك عبدالرحمن الناصر حسداى بن بشروط الإسرائيلى ، وكان نقولا الراهب عنده أحظى الناس وأخصهم به وفسر من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولا ، وهو أول من عمل بقرطبة ترياقاً على تصحيح الشجارية التى فيه ، وكان فى ذلك الوقت من الأطباء الباحثين عن أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجار ، ورجل كان يعرف بالبسباسى ، وأبوعثمان الجزار الملقب باليابسى ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن إسحاق بن هيثم ، وأبو عبدالله الصقلى وكان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص الأدوية .

قال ابن جلجل : وكان هؤلاء النفر كلهم فى زمان واحد مع نقولا الراهب أدركتهم وأدركت نقولا الراهب فى أيام المستنصر ، وصحبتهم فى أيام المستنصر الحكم ، وفى صدر دولته مات نقولا الراهب فحصل ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ، تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ، وأزال الشك فيها عن القلوب ، وأوجب المعرفة بها والوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق باسمائها بلا تصحيف إلا القليل ، منها الذى لا بال به ولا خطر له ، وذلك يكون فى مثل عشرة أدوية .

قال وكان لى فى معرفة تصحيح هيولى الطب الذى هو أصل الأدوية المركبة حرص شديد وبحث عظيم وهبنى الله من ذلك بفضله بقدر ما اطلع عليه من نيتى فى أحياء ما خفت أن يدرس وتذهب منفعته لأبدان الناس ، فالله خلق الشفاء وبَثَّه فيما أنبتته الأرض واستقر عليها من الحيوان الماشى والسابح فى الماء والمنساب ، وما يكون تحت الأرض فى جوفها من المعدنية ، كل ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق .

ولابن جلجل من الكتب (كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس) ألفه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة بمدينة قرطبة فى دولة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، ومقالة فى ذكر الأدوية التى لم يذكرها ديسقوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكن لا يغفل ذكره .

وقال ابن جلجل : إن ديقوريدس أغفل ذلك ولم يذكره ، إما لأنه لم يره ولم يشاهده عيانا ، وإما لأن ذلك كان غير مستعمل فى دهره وأبناء جنسه (ورسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين) وكتاب يتضمن ذكر شئ من أخبار الأطباء والفلاسفة فى أيام المؤيد بالله انتهى .

وقوله هشام : هو هشام الثانى الملقب بالمؤيد عقب فى الحكم أباه الحكم فى سنة ثلاثمائة وست وستين ومات سنة ثلاثمائة واثنتين وتسعين ، وأما عبد الرحمن فهو عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله جلس على تخت بلاد الأندلس سنة ثلاثمائة ومات سنة خمسين وثلاثمائة ، وأما أرمانيوس فهو أرمانيوس الثانى ابن / قسطنطين جلس مع أبيه على التخت حين مجئ الهدية إليه ، وقوله إغريقى هى كلمة روسية أصلها إجريقى ، والعرب تسمى هذه اللغة الإغريقية وتسمى بلادهم بلاد الأغارقة وهى بلاد اليونان فيقال إغريقى أو يونانى ، وفى بعض الكتب العربية يقال لكتابتهم اللّيتى أو اللتينى

٩٩

وقال المقريزى عند الكلام على بطليموس قد ترجمت فى زمنه كتب التوراة والأنبياء من اللّسان العبرانى إلى الرومى اليونانى واللّيتى ، وقال الحاج خليفة صاحب كتاب (كشف الظنون) عند الكلام على اليونان أن جميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم ولغة قدمائهم تسمى الإغريقية وهى أوسع اللغات ولغة متأخريهم تسمى اللتينى ؛ لإنهم فرقتان الإغريقيون واللتينيون ، وأما هروشيش فهو أروس الأندلسى وليس هو هيرودوط المشهور ، وله كتاب فى وصف الدول والحروب .

وذكره المقريزى عند ذكر ملوك منف وأما حسداى فهو الربى حسداى بن إسحاق ، كان فى القرن الحادى عشر من الميلاد انتهى مترجما من دسّاسى .

ثم إن ترجمة كتاب ديسقورديس المذكورة قد ترجمت من الرومى إلى العربى فى سنة ٣٧٢ هـ ، وقال دسّاسى إن ابن أبى أصيبعة الذى نقل عنه ما تقدم نسب إلى ابن جلجل من ضمن ما نسب إليه من الكتب تاريخا من أخبار الأطباء والفلاسفة فى أيام المؤيد بالله ولنرجع إلى الكلام فى اللّبخ .

قال فى كتاب القانون لابن سينا اللّبخ صحح من كلام (ج لى) ومن كلام سليوس ، ويقال إن هذه هى الشجرة التى نقلت من فارس إلى مصر وكانت سمًّا قبل نقلها فلما نقلت صارت مأكولة .

وقال أيضا : وجدت فى كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى لبخ قال أخبرنى الأعرابى الأزدى : أنها شجرة عظيمة مثل الأثأبة أو أعظم ، ورقها شبيه بورق الجوز ، لها جنى كجنى الحماض مر ، إذا أكل أعطش ، وإذا شرب عليه الماء نفخ البطن وأنشد فيه شعراً :

من يشرب الماء ويأكل اللّبخ تـرم عـروق بطنـه وتنتـفخ

وهو من شجر الجبال . وأخبرنى العالم بخبره أن بأنصنا من صعيد مصر وهى مدينة السحرة شجراً فى الدور الشجرة بعد الشجرة يسمى اللّبخ قاله بالفتح ، قال : وهى شجر عظام مثل الدلب وله ثمر أخضر يشبه التمر حلو جداً إلا أنه كريه جيد لوجع الأضراس ، وإذا نشر أرعف ناشره وقد أثبت قول أبى حنيفة استظهارا ليصحح ، لكن قول ابن سينا إنه يمنع النزف يخالف قول أبى حنيفة إنه يرعف وهذا الدواء مذكور فى آخر المقالة الأولى فى كتاب (د) فى هيولى العلاج واسمه هناك برسا .

وقال ابن البيطار فى مفرداته : لبخ أبوحنيفة قال وأخبرنى العالم بخبرة أن فى أنصنا من صعيد مصر وهى مدينة السحرة شجرة فى الدور الشجرة بعد الشجرة تسمى اللّبخ وهى عظام مثل الدلب ، وله ثمر أخضر يشبه التمر حلو جدا إلا أنه كريه جيد لوجع الأسنان ، ديوسكوريدس فى آخر الأولى (فرسا) هى شجرة تكون بمصر لها ثمر يؤكل جيد للمعدة وربما وجد فى هذه الشجرة صنف من الرتيلا يقال لها : قرانيو قوما وخاصة ماكان منه ناحية الصعيد ، وقوة ورق هذه الشجرة تقطع الدم إذا جفف وذر على المواضع التى يسيل منها الدم ، وقد يزعم قوم أن هذه الشجرة كانت تقتل فى بلاد الفرس وبعد أن نقلت إلى مصر صارت تؤكل ولا تضر .

جالينوس فى الثانية ورق هذه الشجرة به قوة لها قبض معتدل حتى يمكن فيه إذا وضع على العضو الذى ينفجر منه الدم نفعه الإسرائيلى ، وثمرته لها قبض بين صار مقويا مانعا من الإسهال ، وأمّا ما فى داخل نوى ثمر اللّبخ ، فزعم أنه مضر وأنه إذا أكل أحدث صمما .

وفى رسالة لإبراهيم بن أبى سعيد المغربى العلائى لبخ الماهية : شجر كبار كان يقتل بفارس ، ولما نقل إلى مصر صار مأكولا ، النوع واحد ، الاختيار الطرى ، المزاج بارد يابس ، فى الثانية القوة مجفف ، منفعته فى أعضاء الرأس ، ينفع من ورم الحلق ويمنع النوازل ، منفعته فى آلات النفس ، ينفع من نفث الدم ضماداً على الصدر ، منفعته فى أعضاء الغذاء ، يقطع النزف شرباً وضماداً .

وهو من الأدوية النافعة من الإسهال والذرب ، منفعته فى جميع البدن ، يحبس الدّم من أىّ عضو كان ضمادا وبذره قوى فى الأدمال ، وقيل : إن أصله عظيم النفع من لدغ العقارب .

كيفية استعماله : يستعمل شربا وضمادا ، كمية ما يستعمل منه مثقال ، مضرته بالصدر إصلاحه الأدهان بدله قرط .

وفى القاموس عن أبى باقل الحضرمى : بلغنى أن نبيا عليه الصلاة والسلام شكا إلى الله تعالى الحفر فأوحى إليه أن كل اللّبخ انتهى .

وقال السيوطى اللّبخ ثمر بقدر اللوز الأخضر إلا أن المأكول منه الظاهر وقال فى موضع آخر وخشب اللّبخ أملح من الأبنوس اليونانى ، ويظهر مما نقله دساسى عن ديوسقورديس أن شجر البرسيا كان كثيراً فى الأقاليم المصرية القبلية والبحرية ، وفى زمن غليان كان يوجد منه كثير فى أرض الإسكندرية وبساتينها . / ١٠٠

وقال بوزانياس فى تأليفه سنة ١٧٤ من الميلاد ، أن البرسيا توجد فى شواطئ النيل وفى مبادئ القرن الثالث من الميلاد شاهد ايليان غابة منه فى الإسكندرية ، وفى زمن الرومانيين صدرت أوامر بالمحافظة على هذا الشجر ، ولعل سبب ذلك أخذه فى التناقص بسبب إهماله ، ويظهر من جميع أقوال مؤرخى العرب أن اللّبخ شجر فى الصعيد .

وقال المقريزى فى التكلم على عجائب مصر ، وبها أى بمصر الأفيون عصرة الخشخاش ولا يجهل منافعه إلا جاهل ، وبها اللّبخ وهو ثمرة قدر اللوز الأخضر كان من محاسن مصر إلا أنه انقطع سنة سبعمائة من الهجرة .

وقال ابن إياس فى تاريخه : وكان بها أى بمصر نوع يسمى اللّبخ وهو مثل اللوز الأخضر ويظهر من جميع ما يقدم ، أن هذه الشجرة كانت فى الأزمان السالفة كثيرة ثم أخذت فى النقص من زمن القيصر أرقاد ، وهنوريوس فى أوائل القرن الخامس من الميلاد ، ولما استولى المسلمون على مصر قلت فى الأقاليم القبلية وانقطعت من الأقاليم البحرية .

وفى زمن عبد اللطيف البغدادى صارت نادرة جدا وبعد ذلك بقرن انعدمت بالكلية ، وقال بعض من ساح فى مصر فى سنة ١٧٩١ ميلادية : أن شجرة البرسيا تزرع إلى الآن ببساتين مصر وتعرف باسم سبستان ، وهى كلمة فارسية معناها المخيط ، ورد ذلك دساسى وأورد كلام المتقدمين شاهدا على رده ، وقال : إن جميع مؤلفى العرب ذكروا النوعين بخواص وصفات مختلفة فمن ذلك قول إبراهيم بن أبى سعيد المتقدم ذكره فى الكلام على السبستان حيث قال : سبستان الماهية مخاطية ، النوع واحد ، الاختيار الكثير اللحم المزاج معتدل القوة ، ملين منضج منفعته من أعضاء الرأس ، يقع فى أدوية الكلف ، منفعته فى آلات النفس ، يلين الحلق والصدر وينفع من السعال اليابس ، منفعته فى أعضاء الغذاء ، يلين البطن ويسكن العطش ويسهل السوداء ، ويخرج الحيات من البطن ويحتقن بطبيخه فينفع من وجع الظهر ، والقولنج مضرته يرخى المعدة بدله عناب .

وقال ابن البيطار : سبستان هو المخيطا ، ومعنى سبستان بالفارسية أطباء الكلبة (لديها) (قال) إسحاق بن عمران ، المخيطا : هى الدبق بالعربية وهو شجرة تعلو على الأرض نحو قامة ، وقال دساسى أن ابن البيطار قد أخطأ فى قوله إن معنى سبستان أطباء

الكلبة ، ولعل المراد أن هذا النوع يسمى أطباء الكلبة كما يسمى سبستان ، وشجر الأثأب المذكور فى أوّل العبارة يذكر كثيراً فى كتب العرب المتعلقة بالنباتات ، قال الجوهرى أثأب شجر : واحدته أثأبة قال الكميت :

وغـادرنـا المقـاول فـى مـقـر كـخـشب الاثـأب المتـغـطـرسـيـنـا

والمقاول جمع مقول قال فى القاموس مقول كمنبر ، الملك أو من ملوك حمير ا هـ

وفيه أيضا ضرف ككتف : شجر التين الواحدة ضرفة أو من شجر الجبال يشبه الأثأب فى عظمه وورقه له تين أبيض مدوّر مفرطح ، كتين الحماط الصغار مر ، يضرس يأكله الناس والطير والقرود ، وقال فى كلمة حماطة . الحماطة : شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات أو التين الجبلى أو الأسود الصغير أو الجميز ج الحماط .

وفى هامش على ابن سينا قد كتب الحماض : بالضاد لا بالطاء والأصح كما قال دساسى.أن الحماض بالضاد غير الحماط بالطاء ، وأن الذى بالضاد نوع من الليمون المرذكره السيوطى مع غيره فى ذكر فواكه مصر ، فقال : الحماض والكباد والموز الكثير وقصب السكر والرطب والعنب والتين والرمان والتوت ا هـ .

وأما شجر الدلب فقال فرسقال : هو شجر تسميه العرب تولق أو تالق ويسمى بالفارسية جنار ، وفى الترجمة العربية لكتاب ديوسكوريدس قد ترجم أفلاطانوس وهو الاسم اللاتينى بالدلب ، وفى كتاب الأنيس المفيد لدساسى نقلا عن القزوينى أن شجر الدّلب من أعظم الأشجار وأعلاها وأبقاها ، فإذا طالت مدتها يتفتت جوفها ويبقى ساقطا مجوفا ، وورقها يشبه الأصابع الخمس وتهرب منها الخنافس ؛ ولذا تجعلها بعض الطيور فى أوكارها مخافة الخنافس ، قال الشيخ الرئيس : دخانه أقوى من ذلك والخنافس تموت من أوراقها ،

وقال دساسى . إن الحق أن الذى يموت منه هو الخفاش ـ **(الوطواط)** ـ لا الخنافس لأن ذلك هو الموجود فى كتب اليان وبلين ، فلعل عبارة الخنافس محرفة عن الخفاش لتقارب الحروف ، ولهذا الشجر ثمر سماه القزوينى جوز السر ، وصوب دساسى أنه جوز السرو وبالواو بعد الراء وفى القزوينى أنه يعمل من ثمره ضماد ينفع من قرص الأفاعى انتهى .

ترجمة أبى حنيفة الدينورى الطبيب ، وإسحاق وابن البيطار

ولنذكر لك ترجمة بعض من أوردنا أسماءهم فى هذه العبارة لزيادة الفائدة فنقول :

أما أبو حنيفة الدينورى على ما ذكره أبو الفداء فقد توفى سنة ٢٨٢ من الهجرة ، واسمه أحمد بن داود وله كتاب النبات وكتاب إصلاح المنطق وإسحاق المذكور فى عبارة ابن البيطار توفى سنة ٣٢٠ من الهجرة ، وابن / البيطار ، هو أبو محمد ضياء الدين عبدالله بن أحمد بن البيطار الطبيب النباتى نزيل القاهرة الأندلسى المالقى مصنف كتاب الأدوية المفردة الذى لم يصنف مثله ، كان ثقة فيما ينقله ، وإليه انتهت معرفة النبات وصفاته وأسمائه وأماكنه ، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم .

قال ابن أبى أصيبعة : شاهدت معه كثيراً من النبات فى أماكنه بظاهر دمشق ، وقرأت عليه تفسيرا . فكنت آخذ من غزارة علمه ودرايته شيئاً كثيراً ، وكان لا يذكر دواء إلا ويعين فى أىّ مكان هو من كتاب الأديسقوريدس وجالينوس ، وفى أى عدد هو من الأدوية

المذكورة فى تلك المقالة ، وكان فى خدمة الملك الكامل وجعله مقدماً عنده وكان بمصر رئيساً على سائر العَشّابين وأصحاب البسطات ، وكذلك كان حظياً عند الملك الصالح ابن الملك الكامل ، وله كتاب المغنى فى الطب وهو جليل مرتب على مداواة الأعضاء ، وكتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة والإبانة والإعلام عما فى المنهاج من الخلل والأوهام ، وكتاب الأدوية المفردة المعروف بمفردات ابن البيطار ، وتوفى بدمشق سنة ست وأربعين وستمائة هجرية انتهى من كتاب دائرة المعارف .

وأما غليان ، فهو حكيم رومى مشهور ، ولد فى بلدته برجام سنة مائة وإحدى وثلاثين من الميلاد ، ومات سنة مائتين ، وقد درس الفلسفة ثم الحكمة وساح كثيراً ، وأقام بالإسكندرية عدة سنين ثم رجع إلى بلاده ، وذهب إلى رومة وعمره أربع وثلاثون سنة ، وكان حكيماً لثلاثة من القياصرة وهو أول حكيم بعد بوقراط ، وله مؤلفات كثيرة فى التاريخ والحكمة وبقيت كتبه متداولة بين العرب والفرنج انتهى .

ترجمة ديوسقوريدس

وأما ديوسقوريدس بالقاف أو بالكاف فهو حكيم يونانى كان فى القرن الأول من الميلاد وترك ستة كتب فى المواد الكلية ، صارت منبعاً تأخذ منه العلماء خواص النبات القديمة .

وأما تيوفرست فهو فيلسوف يونانى ولد قبل الميلاد بثلاثة وسبعين سنة فى أرسوس مدينة من جزائر ليسبوس ذهب إلى أثينة صغيراً ، وتعلم على أفلاطون وأرسطو واختاره أرسطو ليقوم مقامه فى التدريس عند انقطاعه عن ذلك فى آخر عمره سنة ثلثمائة واثنتين وعشرين ، ومات وعمره خمس وثمانون سنة أو مائة وسبعة ، وكان محبوباً لجميع الناس وحزنوا عليه ، وكان له يد فى جميع العلوم مثل أستاذه أرسطو ، وألف نحو مائتى رسالة لم يبق منها إلا القليل ، وترجم كثيرا من كتبه بألسنة مختلفة انتهى .

ترجمة ابن سينا

وفى كتاب دائرة المعارف أن ابن سينا : هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا البخارى المشهور بالشيخ الرئيس ، كان من أشهر الحكماء والأطباء العرب ، فهو بقراط الطب وأرسطو الحكمة عند العرب والفرنج ، وقد جمع فى فسيح صدره كتابات أرسطو ، وأودع فى خزانة معارفه حكمه وقواعده ، وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتابات جالينوس وبقراط ونشروا أشهر تأليفه فى اللغة العربية ، وترجموا أكثرها فى لغاتهم وأفتخر به الشرق ومدحه الغرب

كان أبوه من أهل بلخ وانتقل إلى بخارى وبها ولد المترجم وأخوه ، وتنقل المترجم بعد ذلك فى البلاد ، ولما بلغ عشر سنين اتقن علم القرآن والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة ، ثم توجه نحوهم الحكيم أبو عبد الله النائلى فأنزله أبوه عنده ، فأبتدأ الرئيس ابن سينا يقرأ عليه كتاب ايساغوجى وأحكم عليه علم المنطق ، ولما انصرف النائلى من عنده اشتغل هو بتحصيل العلوم والطبيعيات والآلهيات وغير ذلك ، ثم رغب فى علم الطب وتأمل الكتب المصنفة فيه ، وعالج من احتاج لا على طريق الاكتساب بل تأدباً وممارسة ، حتى فاق الأوائل والأواخر فى أقل مدة ، فكان فضلاء هذا الفن يختلفون إليه ويقرؤون عليه وكان عمره إذ ذاك نحو ست عشرة سنة ، وفى مدة إشتغاله لم ينم ليلة بكمالها ، وإذا أشكلت عليه مسئلة توضأ وقصد المسجد وصلى ودعا الله أن يسهلها عليه .

وقد عالج الأمير نوح بن نصر صاحب خراسان فبرأ على يده بإذن الله ، فأدخله مكتبة له فيها من كل فن من الكتب النادرة الوجود ، فاستفاد منها أشياء لم يدركها سواه ، واتفق أن المكتبة احترقت بعد مدة فقيل : إنه هو السبب فى إحراقها لقصد أن ينفرد بالمعارف ، ولم يكمل عمره ثمان عشرة سنة حتى أكمل العلوم بأسرها ، وتقلد هو وأبوه الأعمال للسلطان ، وكان على زى الفقهاء يلبس الطيلسان وانتقل إلى كركانج قصبة خوارزم ، ثم إلى نيسابور وإلى دهستان ، وإلى جرجان وصنف بها الكتاب الأوسط ولذا يقال له الأوسط الجرجانى ، ثم انتقل إلى الرى ، ثم إلى قزوين ثم إلى همذان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة مدة ، ثم انتقل إلى أصبهان .

وله من التصانيف مايقارب المائة ما بين مختصر ومطول منها : كتاب الشفاء فى الحكمة ، وكتاب النجاة ، والإشارات ، والقانون وغير ذلك ، وهو أحد فلاسفة المسلمين ، وبالجملة ففضائله مشهورة وكانت ولادته فى شهر صفر سنة ثمانين وثلاثمائة وتوفى بهمذان يوم / الجمعة ١٠٢ من رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ودفن بها .

قال ابن الوردى فى تاريخه المشهور : إن الغزالى كفّر ابن سينا فى كتابه « المنقذ من الضلال » ، وكفر الفارابى أيضاً قال . قال : فى المنقذ من الضلال إن مجموع ما غلطا فيه من الآلهيات يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهما فى ثلاثة منها وتبديعهما فى سبعة عشر .

أما المسائل الثلاث فقد قالا : إن الأجساد لا تحشر وإنما المثاب والمعاقب الأرواح ، وقالا : إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات ، وقالا : بقدم العالم واعتقاد هذا كفر صريح نعوذ بالله منه انتهى .

وقد أطال المقريزى الكلام على مدينة أنصنا فراجعه وفى آخر حدودها من الجهة الغربية القرية المعروفة الآن بالشيخ عبادة من قسم ملوى بمديرية أسيوط ، سميت بإسم ولىٍّ مدفون بها وله فيها جامع بمنارة ، وللأهالى فيه إعتقاد كبير ، ويكثرون من زيارته وبعضهم يعتقد أنه

صحابى ، وبها نخيل كثير ، وأغلب أطيانها فى جزيرة فى البحر يزرع فيها أنواع الحبوب ، وبعض أطيانها على شاطىء البحر ، وهو شاطىء قليل السعة ممتد بطول خراب أنصنا يزرع فيه الذرة ، وأكثر أطيانها يسقى بآلات لعلوها والجبل بعيد عنها بنحو نصف ساعة ويجتمع مع البحر قبلى الشيخ تمى ، ومن محل الاجتماع إلى آخر مدينة أنصنا من بحرى وطوله نحو ثلث ساعة يسمى ذلك الجبل بجبل الشيخ تمىّ ، وفى أعلاه ورشة يستخرج منها جبس جيد ، وبجوار البحر فيه ورشة أحجار ودبش ، وفى آخر خراب أنصنا من قبلى قرية تسمى دير أبى حنس أغلب أهلها نصارى ويقابلها فى الغرب قرية البياضية ، وفى خراب أنصنا أيضا كوهرجلة لاستخراج ملح البارود مستعملة إلى الآن وموقعها بحرى الشيخ عبادة .

أنطيل

قال العالم لرشى : إنها مدينة من مدن مصر واقعة فى غربى الفرع الجنوبى على قرب منه وفى الشمال الغربى لمدينة نقراطس ، ويقربها مدينة اركاندر وتسمى اركاندروبوليس بقرب الفرع الجنوبى أيضاً لكن ميلها إلى الجنوب بالنسبة إلى هذا الفرع أكثر من ميل أنطيل إليه .

وكانت مدينة أنطيل من ضمن إقطاعات نساء ملوك مصر برسم أثمان نعالهن ، ونقل أن أثينة كانت برسم أحزمتهن .

وقال هيرودوط : إن النيل عند فيضانه يعم الأرض فلا يرى غير المدن شبيهة بالجزائر فى وسط البحر وتسير السفن فى وسط الأراضى ولا تتقيد بالخلجان ، فمن يريد السفر من مدينة كانوب الواقعة على البحر إلى مدينة نقراطس يمر بقرب مدينة أنطيل ومدينة أركاندر ، ومن يقصد منفيس من مدينة نقراطس يمر على الأهرام على خلاف الملاحة المعتادة ، والمعتاد هو طريق الدلتا ـ (ملتقى البحرين) ـ إلى مدينة سركزورا .

وفى كتاب هيرودوط أيضاً أنه كان يستخرج بهذه البلدة نوع من النبيذ هو أجود أنواعه ، وقيل : إن أجودها المستخرج من جهات مريوط والإسكندرية ، وأما المستخرج من مدينة قفط فكان على غاية من الخفة حتى كان يستعمل لشفاء المرضى ، قال : وكان القسيسون لا يدخلون النبيذ فى المعابد إذ لا يجوز أن يشرب أمام المقدسين ، وكان بعض الكهنة يتعاطاه قليلاً فى غير أوقات العبادة ومطالعة العلوم وكانت تلك الأوقات كثيرة ، وكان الملوك من الكهنة لا يتعاطون منه إلا مقداراً لا يتجاوزونه ، وفى زمن الملك بسماتيكوس فشا أمر النبيذ وأزداد فشوه فى زمن البطالسة واستمر على ذلك .

أهريت

قرية من قسم العجميين ببلاد الفيوم غربى جردو وغربى مطول أيضاً إلى جهة بحرى ، ومجاورة لناحية العتامنة والمزرعة ، وبها نخيل وسوقها كل يوم ثلاثاء ولأهلها شهرة فى زرع البطيخ والمقاثىء فى موضع يعرف بالعربن شرق وادى النزلة ، ولهم شهرة أيضاً فى تربية النحل واستخراج عسله ، ومن بيوتها المشهورة بيت على الدهشان وأولاده إلى الآن هم عمدها .

أهناس

اسم لثلاث قرى متجاورة من مديرية بنى سويف فى جنوب اللاهون على نحو ستة أميال ، كبراهن واقعة على جسر النويرة فى المحل المعروف بالباطن ، وهو محل اجتماع المياه قبل عمل الجسور ، وكان عرضه هناك نحو تسعين قصبة وقد سدّ بعمل الجسور سنة خمس وأربعين ومائتين وألف فى عهد أحمد باشا طاهر .

والقرى الثلاثة مع قرية منشأة أهناس يظهر أنها موضوعة فى محل المدينة القديمة التى كانت تسمى أهناس أو أهناسية ، وكانت متسعة جداً مساحتها نحو ألف فدان ، وكانت قاعدة إقليم يشتمل على خمس وتسعين قرية ، وفى بعض العبارات أنها كانت كرسى المديرية ، والظاهر أنها هى المدينة التى سماها اليونان هرقليوبوليس مانيا ، وقال مرييت إن هذه المدينة ينسب إليها فراعنة العائلتين التاسعة والعاشرة ومدة الأولى مائة وتسع سنين ، ومدة الثانية مائة وخمس وثمانون سنة .

وفى بعض الأعصر كانت من إقليم البهنسا وكانت قديماً ذات أسقفية وكانت على الشط الغربى لبحر يوسف وفى خطط / الفرنساوية ، إن اسم هيرقليوبوليس كان لمدينتين هذه إحداهما على ما قدَّره بطليموس من طولها وعرضها ، والآثار التى هناك تدل على أنها كانت مدينة مهمة كما وصفنا . ١٠٣

وذكر استرابون أن النِّمس كان مقدساً عند أهل أهناس من بين الحيوانات ، كما أن التمساح كان مقدساً عند أهالى الفيوم ، ويقال : إن للنمس كراهة شديدة فى التمساح والثعبان ، وأنه يأكل بيض التمساح ، وإذا رآه فاتحًا فاه إندفع فيه ونهش أحشاءه ، ويقال : إن كراهته للتمساح هى السبب فى تقديسه عند أهل أهناس .

وذلك أنه كان بينهم وبين أهل الفيوم عداوة شديدة حدثت بعد حفر بحيرة مريس وتوصيل ماء بحر يوسف إليها لأجل تخزين ماء النيل لمصالح الفيوم ، فنشأ عن ذلك نقص بحر يوسف عما كان عليه أولا فى مديرية بنى سويف ، فحصل من ذلك اضمحلال حال مدينة هيرقليوبوليس ، فحملهم ذلك على تقديس ما يكره مقدس أولئك انتهى .

وقد مر أن المصريين إنما كانوا يقدسون الحيوانات لخواص فهموها فيها ، وأن الذى فى كتب المؤرخين عنهم إنما هو أمور إشارية ملغزة كانوا يقصدون منها غير ما يظهر لنا من ألفاظها ، وبالبحث والتفتيش مع طول الزمن ربما يعلم حقيقة ما قصدوه ، وقد وجد فى كثير من المعابد والهياكل صورة النمس ، وربما وجدت مصنوعة من المعادن ، وتقديس أهالى الفيوم للتمساح لكونهم كانوا يعتبرونه مبشراً بالنيل ، فكانوا يجعلونه علماً على دخولِ النيل أرضهم ، بمعنى دخول البركة والرخاء ، ولم يعلم سبب تسمية هذه المدينة باسم هيرقليو بوليس إلا أن يقال : إنه مأخوذ من اسم هيرقول الذى كان معدوداً من الطبقة الثانية من مقدسى المصريين ، وكان علماً على القوة الدافعة لجميع المضار عن أرض مصر الجالبة لخصوبتها .

وحيث إن النيل الذى به الخصوبة كان يطلق عليه إسم أوزريس ، وكان هيرقول من رؤساء جيشه ، كان ذلك الاسم دليلاً على الخلجان المفرعة عنه الموجبة دخول المياه فى جميع الأراضى ، سيما الخلجان المتطرفة المجاورة للصحراء المانعة رمالها من أن تدخل أراضى الزراعة فتفسدها ، ومن أعظمها بحر يوسف ، فسميت هذه المدينة بهذا الإسم لهذا السبب – إنتهى – من بعض كتب الفرنج وكان بإهناس شجر النبق المغربى كما فى بعض كتب التواريخ ، ولعله هو الذى عبر عنه المقريزى فى خططه بشجر اللّبخ .

وكان بجوارها دير على شاطىء النيل يقال : له دير النور فيه بناء مشرف مركب من خمس طبقات عالية جميلة الصناعة وجميع الدير مستور بحائط . وفى داخله أربعمائة نخلة متناسقة الشكل ، وقد أخرج من تلال أهناس طوب كثير أستعمل فى أبنية كثير من الكوهرجلات التى هناك ، وفى جهتها البحرية على نحو ساعة ونصف . قرية سدمنت الجبل فوق الشاطىء الغربى للبحر اليوسفى بقرب الجبل ، وعندها فى الجهة البحرية بالجبل دير عامر بالنصارى ، وتمر فى قبليه سكة حديد الفيوم الخارجة من سدمنت يسافر بها فى الجبل ساعة ونصف ، ثم ينزل على بحر قنبشة وبحر الغرق ، ومن هناك إلى مدينة الفيوم مسافة ساعتين ونصف فى طريق فى أرض المزارع ، وطريق الجبل تمر بين الجبل وبحر الغرق ، لأن البحر ملاصق للحجر .

أولاد إسماعيل

قرية من مديرية جرجا بقسم سوهاج فى جنوب بنويط بأقل من ساعة وفى الشمال الغربى لشندويل ، كذلك وفى غربى المراغة بنحو ساعة ، وفى شرق جهينة بنصف ساعة .

واقعة فى وسط أرض جيدة خصبة ، وأهلها أصحاب يسار وأبنيتها حسنة ، وفيها مساجد عامرة ونخيل قليل ، وفيها عائلتان مشهورتان عائلة أولاد مكى فى جهتها البحرية لهم أبنية مشيدة ، وعائلة أولاد همام فى جهتها الجنوبية الشرقية لهم أبنية فاخرة ومناظر بالزجاج والبياض ، ولهم كرم زائد ومهارة فى رماحة الخيل ويقتنون جيادها ، وكان منهم ناظر قسم فى زمن العزيز محمد على باشا ، ثم حاكم خط فى زمن الخديوى إسماعيل باشا ، وأرضها تروى من ترعة يقال لها ترعة أم عليلة فمها عند سوهاج .

ترجمة الفاضل الشيخ أحمد الإسماعيلى المالكى

وإليها ينسب الفاضل الشيخ أحمد أبوالسعود الإسماعيلى المالكى ، جاور بالجامع الأزهر على كبريقال : إنه كان ملحقًا بنظام الجهادية فهرب وألتحق بالأزهر ، وكان يقرأ الخط فأخذ فى طلب العلم وجد واجتهد وحفظ المتون وسهر الليالى ، وكل يوم تزداد همته واجتهاده مع الصلاح والتقوى حتى فتح الله عليه وتلقى جميع الكتب التى تقرأ بالأزهر وأشتهر بالنجابة والصلاح .

ولازم الشيخ مصطفى البولاقى ، ومن بعده لازم شيخ المالكية قطب زمانه الشيخ محمد عليش المغربى فكان من أخصائه ، وتلقى عن الشيخ إبراهيم البيجورى ، وشيخ المالكية الشيخ حبيش وغيرهما من مشايخ العصر .

وأذن له فى التدريس . فدرس الكتب الكبيرة والصغيرة من فقه وحديث وتفسير وعربية ، وكان حسن التعليم مرغوباً للطلبة ، مع أنه كان شديداً عليهم يلزمهم التأدب والالتفات وربما ضربهم على ذلك ، وكان متقشفاً يلبس / ثياب الصوف ويتلفع بملآت ١٠٤ القطن الإخميمية على هيئة ملابس أهل الصعيد ويتكلم أيضاً بكلامهم ، ولا يخالط أهل الدنيا ولا أهل البطالات ، وإذا أراد قراءة كتاب للطلبة فلابد أن يطالعه فى أشهر البطالة زيادة على المطالعة المعتادة للمشايخ ، ولإكبابه على المطالعة كان لا يرى النيل إلا نادراً بل كان مسكنه الأزهر لا يهنأ له البيات بغيره ، وله خزانة صغيرة من خزن الأزهر التى بالمقصورة .كان يضع فيها متاعة فكانت هى بيته وليس له متاع إلا ثيابه وبعض دراهم وقليل من القراقيش فى بعض الأحيان ، وهو من عائلة أشراف من قرية كوم أشقاو بقسم طهطا من مديرية جرجا .

وكان كثير الأمراض تراه فى الليل بالأزهر يئن أنيناً شديداً ، فإذا أحس بأحد عنده ترك الأنين ، واستيقظ ليلة فوجد شخصاً يبول عليه فلم يتحرك حتى أتم الرجل بوله خوفاً من تلويث المسجد إذا بادر بالقيام ، وبالجملة فكان أورع أهل وقته وكان موته قبيل سنة ثمانين ومائتين وألف رحمه الله

أولاد رائـق

قرية من أعمال أسيوط بلصق جسر مسرع من الجهة البحرية وغربى ترعة الإبراهيمية بنحو أربعمائة متر ، وفى الجنوب الشرقى لناحية مسرع بنحو ألفى متر ، وغربى بنى حسين الجسر كذلك .

ترجمة الشيخ أحمد الرائقى المالكى

وينسب إليها العلامة الشيخ أحمد الرائق المالكى كان مكفوف البصر، ويقال: إنه طلب العلم على كبر حضر إلى الأزهر وسنه نحو الأربعين، ولجودة ذهنه وقوة حافظته حصل فى زمن يسير ما استحق به التصدر فكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وكانت له دراية فى المذاهب الأربعة عليه رحمة الله.

أولاد عمر

قرية بالصعيد الأعلى من قسم قنا على الشاطىء الشرق للنيل، ويقابلها فى البر الغربى ناحية دندرا، وفى بحريها قرية السمطة، وفى هاتين القريتين ــ أعنى أولاد عمر والسمطة ــ والبلاد المجاورة لهما شجر الدّوم بكثرة، وأول كثرته من إبتداء ناحية دشنا ومنبل مصعداً إلى ناحية طوخ من قسم قنا، وهناك شجر النخل أيضاً.

وخشب الدّوم أقوى من خشب النخل، ومن خواصه أنه لا يغيره طول الإقامة فى الماء، فلذا يستعمل فى أحزمة القناطر ويوضع فى أساس السّواقى والآبار، ويعمل منه أيضاً أبواب للمنازل وسقوف وشبابيك، ويعمل من سعفه القفف والزنابيل والمرجونات، وجريده قصير عن جريد النخل، وله أسنان سود من الجانبين فى طول الجريدة تشبه أسنان المنشار، وثمره فى الغلظ قريب من الجوز الهندى وله سباطات كسباطات النخل، ويستعمل أكلاً وتارة ينقع ويشرب ماؤه لا سيما للمرضى، فإن له منافع فى نحو الدموية، والذى يؤكل أو ينقع منه هو ما على ظهر الثمرة، وباقيها عظم غليظ قد يعمل منه بعض الفقراء علباً للنشوق.

وشجره أوّلاً يكون أصلاً واحداً ثم بعد ارتفاعه نحو مترين يتفرع إلى فرعين ، ثم بعد إرتفاعهما نحو مترين يتفرع كل منهما إلى فرعين ، وهكذا حتى يكون فروعاً كثيرة . ويوجد كثير منه فى الجبال من غير زرع زراع ، كما فى ناحية جهينة بالجبل الغربى من قسم سوهاج بمديرية جرجا ، وكما فى ناحية القوصة بجبل الطارق من شرق أولاد يحيى بمديرية جرجا ، ويوجد أيضاً فى جزيرة العرب بأرض مكة ، وثمره يعرف بالمقل المكى وهو أجود من المقل المصرى وأحلى ، ومنه ما يوجد فى بلاد الأندلس لكن ثمره لا يتم نضجه قاله دساسى .

ونقل أيضاً عن ابن البيطار عن أبى حنيفة أن الدوّم هو المقل ، وهى شجرة تعبل وتسمو ولها خوص كخوص النخل وتخرج أفنانا فيها المقل ، ويقال لخوصها الطفى والأسلم وهو قوى متين ، يصنع منه حصر وغرائر ، وثمره هو المقل والوقل ، ورطبه البهش ، ويبيسه الحشف ، وتعمل منه السويقة وتسمى بالحسك قيل : إن الكهربا رطوبة تقطر من ورق شجر الدوم شبيهة بالعسل ثم تجمد ، قاله صاحب السراج المغنى قال : وقد يوجد فى داخله الذباب ، وقال ابن سينا : الكهربا صمغ شجر الجوز الرومى بالجيم والزاى ، وهو صمغ كالسندروق بين الصفرة والبياض ، وربما كان إلى الحمرة يجذب التبن والهشيم إلى نفسه ، وأصله كلمتان كاه وربا أى سالب التبن .

وقال أيضاً : شجرة الجوز الرومى تنبت فى النهر الذى يسمى ليردانوس له صمغ يسيل منه ويجمد فى النهر ، وهو الذى يسمى أيلقطرون وهو الكهربا .

وحقق بعض الفرنج أن اسم تلك الشجرة الحور الرومى بالحاء والراء المهملتين ، وفى ترجمة ديوسكوريدس الحور الرومى : هو الحور الأسود ، وعلى هذا فهو حور ايطاليا وبلاد اللونبارديا ، وقال بذلك ابن العوام أيضاً فى كتاب الزراعة ، وإن لفظ السندروق صوابه السندروس بالسين فى آخره ، ونقل عن ابن سينا أنه صمغ شجرة فى الهند وقد تحقق أنها شجرة الكبال .

ونقل دساسى عن بعض مؤلفى العرب ، ما نصه : الكهربا يجذب القش والتبن وهو شجر الجوز الرومى ، وقد يتولد فى وجه الأرض كالحصى وأجوده المسمى بالشمعى لكونه مجزعاً ببياض أصم ويجذب القش أكثر ورائحته تشبه رائحة / الليمون يوجد بالأندلس وبسواحل البحر تحت الأرض وباوجات ـ (**لعلها الواحات**) ـ ويوجد قطعاً قطعاً يجمعه الحراثون وقيل هورطوبة شجر الدوم انتهى .

١٠٥

أولاد يحيى

قرية من قسم جرجا فى شرق النيل ، وفى شرق البلابيش بقرب الجبل ، وفى شمال مزاته بنحو ثلثى ساعة ، وهى قرية عامرة ذات مساجد ونخيل ومضايف وفيها جياد الخيل ، ولأهلها كرم وشهامة يترفعون عن سفاسف الأمور لا تخرج نساؤهم ولا يدخل الرجال بيوتهم ولو من أولادهم ويكرمون ضيفهم ويحمون نزيلهم .

ومن أهلها على أغا البهنساوى عمدة شهيركان ناظر قسم الشرق من تلك المديرية زمن العزيز محمد على . وفى هذه القرية مات الأمير رضوان كتخدا الجلفى فى سنة ١١٦٩ ألف ومائة تسع وستين ، وهو مملوك على كتخدا الجلفى ، تقلد كتخدائية باب العزب بعد قتل أستاذه بعناية عثمان بيك ذى الفقار ، ولم يزل يراعى لعثمان بيك حقه وجميله حتى أوقع بينهما إبراهيم كتخدا ، ولما استقرت الأمور له ولقسيمه إبراهيم كتخدا اعتكف المترجم على لذّاته وفسوقه وخلاعاته ونزاهاته ، وأنشأ عدة قصور وأماكن بالغ فى زخرفتها وتأنيقها وخصوصا داره التى أنشأها على بركة الأزبكية ، وأصلها بيت الدادا الشرايبى ، وهى التى على بابها

العمودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد بثلاثة ولية ، وعقد على مجالسها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذّهب المحلول واللّازورد والزجاج الملون والألوان المفرحة ، ووسّع قطعة الخليج بظاهر قنطرة الدّكة ، بحيث جعلها بركة لطيفة وبنى عليها قصرًا مطلاً عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى .

وكذا أنشأ فى صدر البركة مجلساً خارجاً بعضه على عدة قناطر لطيفة ، وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية ، وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى ، وينصب منها إلى حوض من أسفل ويجرى إلى البستان لسقى الأشجار ، وبنى قصرًا آخر بداخل البستان مطلاً على الخليج وعلى الاملاق من ظاهره ، فكان ينتقل فى تلك القصور خصوصا فى أيام النيل ، ويتجاهر بالمعاصى والراح والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخالع أولاد البلد ، ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفعالهم .

وهو الذى عمر باب القلعة الذى بالرميلة المعروف بباب العزب وعمل البدنتين والزلاقة على هذه الصورة الموجودة الآن ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات والتواشيح ، وأعطاهم الجوائز السنية وداعب بعضهم بعضا ، فكان يغرى هذا بهذا ويضحك منهم ويباسطهم .

واتخذ له جلساء وندماء : منهم الشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى صاحب المدامة الأرجوانية فى المدائح الرضوانية ، وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى ، والشيخ عمار القروى ، والشيخ قاسم بن عطاء الله الأديب المصرى ، وجمع فيه الشيخ عبدالله الأتكاوى كتاباً سماه الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية .

ولم يزل رضوان كتخدا وقسيمه إبراهيم كتخدا على إمارة مصر ورآستها حتى مات إبراهيم كتخدا ، فتداعى بموته ركن المترجم وظهر شأن عبد الرحمن كتخدا القازدغلى وراج سوق نفاقه ، وأخذ يعضد مماليك إبراهيم بيك كتخدا ويغريهم ويحرضهم على الجلفية لكونهم مواليه ، ليخلص له بهم ملك مصر فيظن أنهم يراعون حق ولائه وسيادة جده ، فكان الأمر عليه بخلاف ذلك ، وكانوا يظهرون له الانقياد ويرجعون إلى رأيه ومشورته ليتم لهم المراد ، وكل من أمراء إبراهيم كتخدا والأكابر وأصحاب الوجاهة متطلع للرياسة : مثل حسن كتخدا أبى شنب ، وعلى كتخدا الخربتلى ، وإسماعيل كتخدا مناو ، وخليل جاويش حصان مصلى ، وبيت الهياتم وبيت درب الشمس ، وعمر جاويش الداودية ، وبيت قصبة رضوان وبيت الفلاح وغيرهم ، فأخذ اتباع إبراهيم كتخدا يدبرون فى أغتيال رضوان كتخدا وإزالته ، فتنبه رضوان كتخدا لذلك واتفق مع حلفائه وملك القلعة والأبواب والمحمودية وجامع السلطان حسن وكاد يتم له الأمر ، فسعى عبد الرحمن كتخدا والاختيارية فى إجراء الصلح ، ولم يزالوا به حتى انخدع بكلامهم وصدقهم ففرق الجمع ونزل إلى بيته الذى بقوصون ، فاغتنموا الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا ، وملكوا القلعة والأبواب والجهات والمترجم فى غفلته ، فلم يشعر إلا وهم يضربون عليه بالمدافع وكان المزين يحلق له رأسه فسقطت على داره الجلل ، فأمر بالاستعداد فلم يجد ، فطلب من يركن إليهم فلم يجد أحدا ، ووجدهم قد أخذوا حوله الطرق فحارب فيهم إلى قريب الظهر ، وخامر عليه اتباعه فضربه مملوكه صالح الصغير برصاصة من خلف الباب الموصل لبيت الراحة فأصابته فى ساقه وهرب مملوكه إلى الأخصام ، وكانوا أوعدوه بإمرة إن قتل سيده ، فلما حضر وأخبرهم أمر على بيك بقتله ، وعندما أصيب المترجم طلب الخيول وركب فى خاصته وخرج إلى جهة البساتين فلم يتبعه أحد ونهبوا / داره ، ثم ذهب إلى جهة الصعيد فمات بشرق أولاد يحيى فى السنة المذكورة ودفن هناك ، فكانت مدته بعد قسيمه ستة أشهر ، وتفرقت صناجقه بعضهم إلى الحجاز وبعضهم إلى بغداد وغيرها ، فكانت مدتهما جميعا نحو سبع سنوات انتهى ملخصا من الجبرتى .

١٠٦

أيلــة

بفتح الهمزة وسكون المثناة التحتية ولام وهاء التأنيث ، مدينة صغيرة كانت بطريق ركب الحاج المصرى بقرب ساحل بحر القلزم وكان بها زرع يسير ، وهى مدينة اليهود الذين جعل منهم القردة والخنازير ، وبقرب عقبتها دفن الشيخ إبراهيم اللّقانى فى مرجعه من الحج سنة إحدى وأربعين بعد الألف قاله فى خلاصة الأثر .

وقال المقريزى[1] فى خططه : ذكر ابن حبيب أن أثال بضم أوّله ثم ثاء مثلثة وهو وادى أيلة ، وأيلة بفتح أوله على وزن فعلة ، مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وأيلة أول حد الحجاز وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر المالح ، بها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس ، وكانت حد مملكة الروم فى الزمن الغابر ، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان فيه مسلحته يأخذون المكس ، وبين أيلة والقدس ست مراحل .

والطور الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام على يوم وليلة من أيلة ، وبينها وبين القلزم ست مراحل فى برية وصحراء ، وكانت فى الإسلام منزلا لبنى أمية أكثرهم موالى عثمان بن عفان كانوا سقاة الحج ، وكان بها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة ، وكانت كثيرة النخل والزرع ، وعقبة أيلة لا يصعد إليها من هو راكب ، وقد أصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون ، وسوّى طريقها ورمّ ما استرم منها .

وكان بأيلة مساجد عديدة وبها كثير من اليهود ويزعمون أن عندهم برد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه إليهم أماناً ، وكانوا يخرجون رداء عدنياً ملفوفاً فى الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط .

---

(١) خطط المقريزى ٣٢٥/١ ط لبنان .

ويقال إن أيلة هى القرية التى ذكرها الله تعالى فى كتابه حيث قال ﴿ واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعْدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[١] .

وقد اختلف فى تعيين هذه القرية ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة والسّدى هى أيلة ، وعن ابن عباس أيضا أنها مدينة بين أيلة والطور ، وعن الزهرى أنها طبرية ، وقال قتادة وزيد بن أسلم : هى ساحل من سواحل الشام بين مَدْين وعينونة ، يقال لها معناة ، وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً ، والحرام يأتيك جُزافا فقال نعم : فى قصة أيلة﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يَوْم سبتهم شرّعا ويوم لا يُسَبِّتون لا تأتيهم ﴾.[١]

قال وذكر المسعودى أن يوشع بن نون عليه السلام حارب السّميدَع بن هرمز بن مالك العلقمى ملك الشام ببلد أيلة نحو مدين وقتله واحتوى على ملكه .

وذكر بعض ما ورد من أخبارها ، ثم قال : قال ابن إسحاق ، لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يحنة [٢] بن رؤبة صاحب أيلة وصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية ، وكتب لهم كتابا فهو عندهم وكتب ليحنة [١] بن رؤبة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسوله ، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة أساقفتهم وسائرهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ما له دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من برّ أو بحر . هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى سنة تسع من الهجرة .

(١) بسورة الأعراف آية : ١٦٣ .

(٢) فى الأصل تحية والمثبت عن البداية والنهاية لابن كثير ١٦/٥ والسيرة الحلبية ١٦٠/٣ ط صبيح القاهرة ، وكذا معجم البلدان : أيلة.

ولم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة ، وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبدالله بن إدريس الجعفرى أيلة ومعه بعض بنى الجراح ونهبها وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال وسبى النساء والأطفال ، ثم إنه صرف عن ولاية وادى القرى فسارت إليه سرية من القاهرة لمحاربته .

قال القاضى الفاضل : وفى سنة ست وستين وخمسمائة أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفصلة وحملها على الجمال وسار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة ؛ وكانت قد ملكها الإفرنج وامتنعوا بها ، فنازلها فى ربيع الأول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر ، وشحنها بالمقاتلة والأسلحة وقاتل قلعة أيلة فى البر والبحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر ، وقتل من بها من الإفرنج وأسرهم وأسكن بها جماعة من ثقاته ، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره ، وعاد إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى .

وفى سنة سبع وسبعين وصل كتاب النائب بقلعة أيلة : أن المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج ثم وصل الأبريس لعنه الله إلى أيلة وربط العقبة ، وسير عسكره إلى ناحية تبوك وربط جانب الشامى لخوفه / من عسكر يطلبه من الشام أو مصر ، فلما كان فى شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة حتى صارت به مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين ، وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر ، ووهت لضعف أساسها فتداركها أصحابها وأصلحوها انتهى . ١٠٧

وفى كتاب درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة قال صاحب تقويم البلدان : وأيلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زروع يسيرة ، وهى على ساحل بحر القلزم وعليها طريق حاج مصر ، وهى فى زماننا برج وبه والٍ من مصر ، وليس بها زروع ، وكان بها قلعة فى البحر فعطلت ونقل الوالى البرج إلى الساحل اهـ .

ثم قال قلت : وقد استجدّبها النخل الذى على ساحل البحر وبعض حدائق بالوادى والساحل وجميع ذلك لبنى عطية الحويطات ، وإنما لقبوا بذلك لما بنوه من بعض الحيطان على النخل .

وفى كتاب عجائب البلدان : عقبة أيلة قرية صغيرة على جبل عال صعب المرتقى يكون ارتفاعه والانحدار منه يوماً كاملاً ، وهى طرق لا يمكن أن يجوز فيها إلا رجل واحد ، وعلى جانبها أودية بعيدة المهوى اهـ .

انتهى

(تم الجزء الثامن ويليه التاسع أوله «حرف الباء» الموحده)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٠/٥٦٠٧

I.S.B.N 977-01-2509-1

مـركز تحقيـق التراث

الخطط التوفيقية الجديدة لمصـــر القاهـــرة

ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة

تأليف

على باشا مبارك

الجزء التاسع

[من بابل المصرية إلى بهوت]

الطبعـة الثانيـة

عن طبعـــة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

إعداد

أحمد صلاح زكريا

باحث أول

مركز تحقيق التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الجزء التاسع
من
الخطط التوفيقية
تأليف
على باشا مبارك

حرف الباء الموحدة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حرف الباء الموحدة ﴾

٢

﴿ بابل المصرية ﴾ مدينة كانت على البعد من مدينة عين شمس بائنى عشر ألف متر ، بالشاطىء الشرقي من النيل تجاه منف القديمة ، واسمها عند بعض أهل الإسلام قصر الشمع . وقد عبر (إسترابون) باسم بابلون ، وقال : « هى قلعة قديمة محلها الآن قصر الشمع خلف مصر العتيقة ، واسمها مأخوذ من اسم البابليين الذى كانوا قد رفعوا لواء العصيان مدة من الزمان ، ثم صالحهم حاكم الوقت وسلم لهم فى سكنى هذا المحل » اهـ .

وليست مدينة بابل المصرية مصر العتيقة كما توهمه بعض السلف ، كما أن الفسطاط ليس هو القاهرة بل هو مصر العتيقة ، وكان بعض الناس يطلق على القاهرة اسم بابل . وسيأتى الكلام عليها فى التكلم على الفسطاط .

﴿ الباجور ﴾ قرية بمديرية المنوفية بمركز سبك ، واقعة فى الجنوب الغربى لترعة الباجورية بنحو ستمائة متر ، وبها خمسة جوامع : جامع الأربعين ، وجامع صلاح الدين ، وجامع شهاب الدين ، وجامع سيدى مزروع ، وجامع يونس ، وفى كل واحد منها ضريح من ينسب إليه من هؤلاء المشايخ ، وزاوية يقال لها زاوية عجور ، وفيها معمل دجاج .

وبها إحدى عشرة جنينة ذات فواكه وثمار ، واحدة تعلق ورثة المرحوم رستم بيك والعشرة لبعض أهالى الناحية .

وجميع أهلها مسلمون ، وعدتهم ذكورا وإناثا ألف وتسعمائة وثمان وتسعون نفسا . وقد ترقى منها حسن العفيفي بوظيفة حاكم خط بالمديرية فى سنة ست وثمانين . وزمامها ألف ومائتان وأحد وتسعون فدانا ، وريّ أرضها من النيل ، وبها ست سواق معينة عذبة الماء ، ولأهلها شهرة فى صناعة العرقسوس شرابا ، وزرع القطن . وهى قرية عظيمة بسبب ظهور أفاضل العلماء منها .

ترجمة البرهان الباجورى

فإن منها - كما فى حسن المحاضرة (١) ـــ البرهان الباجورى ؛ إبراهيم بن أحمد ، ولد فى حدود الخمسين وسبعمائة ، وأخذ عن الإسنوى ، ولازم البلقينى، ورحل إلى الأذرعى بحلب، وكان الأذرعى يعترف له بالاستحضار .

وشهد العماد الحسبانى عالم دمشق بأنه أعلم الشافعية بالفقه فى عصره ، وكان يسرد الروضة حفظا ، وانتفع به الطلبة ولم يكن فى عصره من يستحضر الفروع الفقهية مثله ، ولم يخلف بعده ما يقاربه فى ذلك ، مات سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، رحمه الله تعالى .

ترجمة شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجورى

ومن علمائها أيضا ، الإمام العالم والجهبذ الكامل ، الشيخ إبراهيم الباجورى الشافعى ، شيخ الجامع الأزهر ، ولد بها ونشأ فى حجر والده ، وقرأ عليه القرآن المجيد بغاية الإتقان والتجويد ، وقدم إلى الأزهر لطلب العلم به فى سنة اثنتى عشرة ومائتين وألف ، وسنه إذ ذاك أربع عشرة سنة ، ومكث فيه حتى دخل الفرنسيس فى سنة ثلاث عشرة ، ثم خرج رحمه الله إلى الجيزة وأقام بها مدة وجيزة ، ثم عاد إلى الجامع الأزهر فى

(١) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، للسيوطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، عيسى البابى الحلبى ، ١٩٦٧ .. حـ ٩ ص ٤٣٩

سنة ست عشرة عام خروج الفرنسيس من القطر المصرى ، كما أفاد ذلك بنفسه ، فيكون مولده فى عام ألف ومائة وثمانية وتسعين . وأخذ فى الإشتغال بالعلم ، وقد أدرك الجهابذة الأفاضل ، كالشيخ محمد الأمير الكبير ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والسيد داود القلعاوى ومن كان فى عصرهم . وتلقى عنهم ماتيسر له من العلوم ، ولكن كان أكثر تلمذته للشيخ محمد الفضالى ، والشيخ حسن القويسنى .

وفى مدة قريبة ظهرت عليه آية النجابة فدرس وألف التآليف العديدة ، الجامعة المفيدة ، فى كل فن من الفنون منها :

حاشية الشمائل للترمذى ، وحاشية على مولد المصطفى ﷺ للإمام ابن حجر الهيثمى ، وحاشية على مختصر السنوسى فى المنطق ، وحاشية على متن السلم فى المنطق أيضا ، وحاشية على متن السمرقندية فى علم البيان ، وكتاب فتح الخبير اللطيف ، شرح نظم الترصيف فى فن التصريف ، وحاشية على متن الجوهرة فى التوحيد ،/وحاشية على متن السنوسية فى التوحيد ، وحاشية على رسالة كفاية العوام فى التوحيد ، وحاشية على البردة الشريفة ، وحاشية على بانت سعاد ، وكتاب منح الفتاح على ضوء المصباح ، فى أحكام النكاح ، وحاشية على شرح الشنشورى لأبى شجاع فى فقه مذهب الشافعى فى مجلدين . ٣

وله مؤلفات أخر ، ولكنها لم تكمل منها : حاشية على جمع الجوامع ، وحاشية على شرح السعد لعقائد النسفى ، وحاشية على شرح المنهج فى الفقه ، وتعليق على تفسير الفخر الرازى ، وغير ذلك .

وكان ملازما للإفادة والتعليم ، وكان لسانه رطبا بتلاوة القرآن العظيم ، فكان ورده فى كل يوم وليلة ختمة قرآن أو ما يقرب منها مع إشتغاله بالتدريس والتأليف ، وكان من حقه أن يتقدم فى المشيخة على الشيخ الصائم ، ولكن لم تساعده المقادير .

فقال من هنأه بالمشيخة :

يا دهر أعط القوس باريها فقد أفرطت فى التقديم والتأخير

إلى أن قال فى تاريخ توليته المشيخة :

وزهت بك العليا وقالت أرِّخوا أبهى إمام شيخ البـاجورى

وقد انتهت إليه رياسة الجامع الأزهر ، وتقلدها فى شهر شعبان سنة ثلاث وستين ومائتين وألف من الهجرة ، واستمر على ذلك إلى أن توفى ، رحمه الله تعالى ، فى سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره خمس وسبعون سنة .

﴿ باقور ﴾ قرية من بلاد الزنار بقسم أسيوط ، واقعة بحرى بوتيج بأقل من ساعة ، وشرقى قرية دوينة كذلك ، وبينها بين أسيوط نحو ساعتين .

وبها جوامع وكنيسة قبطية ومعمل دجاج ، وتكسب أهلها من الزرع وبها نخيل قليل .

وإليها ينسب الشيخ فراج الحنفى الباقورى ، قاضى منية ابن خصيب بعد أن كان مفتى مجلس مديرية قنا ، وهو الآن مفتى مديرية بنى سويف .

﴿ بانوب ﴾ بموحدة فألف فنون فواو ساكنة فموحدة . ثلاثة مواضع بمصر :

الأول : فى كورة الغربية .

الثانى : فى كورة الشرقية .

الثالث : فى كورة الأشمونين . (انتهى من مشترك البلدان) .

فأما بانوب الأشمونين فهى بانوب ظهر الجمل ، وهى من مديرية أسيوط بقسم الأشمونين ، فى غربى الترعة الإبراهيمية بنحو ألف متر ، وفى الشمال الشرقى لناحية بيلاو بنحو ألف وخمسمائة متر ، وفى جنوب ناحية دروط الشريف بنحو ثلاثة آلاف وسبعمائة متر ، وفيها مساجد ونخيل وقليل أشجار ، وأكثر أهلها مسلمون .

﴿ ببا ﴾ بموحدتين أولاهما مكسورة وفى آخره ألف . قرية من مديرية بنى سويف ، هى رأس قسم واقعة على الشاطىء الغربى للنيل فى جنوب طحا البيشة ، بقدر أربعة آلاف وثمانمائة وخمسة وخمسين مترا ، وفى الجنوب الشرقى للفقاعى كذلك .

وهى بلدة قديمة يقال إنها كانت كرسى حكم فى الأزمان السالفة ، وبها إلى الآن كنيسة قديمة للأقباط مشهورة بدير الشهيد ، وبها جامع كبير متين البنيان ، على بابه نقوش تدل على أن له نحو سبعمائة سنة من يوم بنائه ، وأبنيتها بالآجر واللبن ، وفيها نخيل ، ولها سوق كل يوم خميس يجتمع فيه الناس من البرين ، ويباع فيه أنواع الحبوب والمواشى ، وثياب القطن ، والصوف واللحم والعقاقير وحصر الحلفاء ، والقفف والليف والحبال ، والدخان البلدى ، والبطيخ ونحو ذلك مما هو معتاد بيعه فى الأسواق الريفية .

وأكثر تكسب أهلها من الزرع وفيها أرباب حرف ، وعندها محطة للسكة الحديد العمومية الموصلة إلى أسيوط .

وأمامها فى شرقى النيل قرية تسمى جزيرة ببا ، فى وسط جزيرة طولها نحو ألفين ومائة وخمسة وعشرين مترا ، وعرضها نحو سبعمائة متر ، وعرض النيل هناك بما فيه من الجزيرة نحو ألف وخمسمائة متر .

وقد أنشأ الخديوى إسماعيل باشا فى الشمال الغربى لبلدة ببا ، بقدر ألف وخمسمائة متر ، فوريقة لعصر القصب وعمل السكر بأنواعه ، وبالقرب منها وابور النور ، وديوان التفتيش ، ومساكن المستخدمين ، ويخرج من الفوريقة فرع من السكة الحديد ، يمر فى شمال البلد حتى يصل إلى النيل ، وعند منتهاه وابور ماء ترك استعماله الآن للإستغناء عنه بريّ الأراضى من مياه الجنابيات ، بعضها بواسطة الوابورات المركبة على الجنابيات ، وبعضها بالفيضان .

وأراضى تفتيشها عشرون ألف فدان ، يزرع منها نحو ستة آلاف قصبا كل سنة ، غير الخلفة الناتجة من زرع السنة التى قبلها ، وباقى الأطيان يزرع قطناً وحبوباً .

ومشتملات هذه الفوريقة ككثير من الفوريقات على طريق الإجمال هى : أربع عصارات لعصر القصب ، لكل منها قوة ثمانين حصانا بخارية ، وابور لإدارة غرابيل العظم ، له قوة ثلاثة حصن ، وابوران لتوزيع المياه لجهات لزومها بالفوريقة ، لكل منهما قوة ثمانية حصن، وابورا حرارة لتكرير الشربات بالقزانات ، لكل منهما قوة خمسة عشر حصاناً ، وابورا حرارة أيضاً لقزانات الجلاب / لكل منهما قوة عشرة حصن ، وابور لإدارة دواليب تكرير السكر الحب ، قوته خمسة عشر حصاناً ، وابورا حرارة لتسوية العسل الرجيع بالقزانات ، لكل منهما قوة عشرة حصن ، ذنكان أحدهما لتوصيل الماء إلى القزانات العشرين ، والآخر إلى قزانات العصارة ، قوة كل ثمانية حصن ، وابور لإدارة ورشة الحدادين ، وورشة البرادين ، وورشة النحاسين ، والمسبك ، قوته ثمانية حصن ، وابور لتكرير السبيرتو ، وهو فى ورشة الروم قوته خمسة عشرة حصاناً .

٤

وهذا غير أربعة وابورات للسكة الحديد ، لكل واحد طقم عشرون عربة ، تنقل القصب من الغيطان ، قوة كل وابور عشرون حصاناً .

وفيها من الورش والمخازن : ورشة الحدادين بآلاته ورجالها ، وورشة البرادين والخراطين ، وورشة النجارين ، وورشة بها مخرطة ومثقاب ، وورشة سبك ، ومخزن عمومى لجميع أدوات الفوريقة والتفتيش ، ومخازن لحفظ السكر .

وهذه الفوريقة تدور فى السنة نحو أربعة أشهر أو خمسة ، ويتحصل منها كل يوم من السكر الأبيض الحب ستمائة وخمسون قنطاراً ، ومن السكر الأحمر مائتان وخمسون قنطاراً ، ومن السبيرتو قنطاراً .

ومثل هذه الفوريقة فى قوة آلاتها وتركيبها ووضعها ، فوريقة مطاى ، وفوريقة بوقرقاص .

﴿ ببلاو ﴾ هى قرية فى شمال سنبو ، غربى بحر يوسف ، من قسم ملوى بمديرية أسيوط ، وسماها المقريزى ببلا بدون واو. كان أكثر سكانها أقباط ، وكان بها كنيسة باسم مارى جرجس ، ويقال لها الآن كنيسة الشهيد.

واسمها مأخوذ من ببلو ، يعنى خزانة الكتب ، وكانت قبل دخول الفرنساوية أرض مصر كبيرة عامرة ، يقرب عدد أهلها من ألف نفس أغلبهم نصارى ، فتفرقوا فى البلاد لعداوة كانت بينهم وبين البلاد المجاورة لهم ، ومات كثير منهم ، ومن بقى اشتغل بصنعة الفراريج . ونقل (كترمير) عن بعض كتب القبط أن جماعة من نصارى قرية الزيتون ، كانوا قد دخلوا فى الديانة الإسلامية ، ثم رجعوا إلى النصرانية ، ومن خوفهم من المسلمين هربوا إلى قرية ببلاو لأن حاكمها كان يدافع عن المرتدين ويمنع التعرض لهم . اهـ .

وهى فى وسط حوض الدلجاوى لا يتوصل إليها فى زمن الفيضان إلا فى السفن ، وقناطر التقسيم فى شرقيها بنحو ميلين ، وأكثر مبانيها بالطوب النىء ، والغالب فى دورها طبقتان ، وقد تجدد الآن فى منازل بعض أهل الثروة من أقباطها طبقة ثالثة ، وتجددت فيها مناظر للضيوف بدلا من المصاطب القديمة .

وتكسب أغلب أهلها من الفلاحة ، وبعض أقباطها مختص بمزاولة معامل الدجاج واستخراجه . فيسرحون لذلك فى البلاد التى فيها المعامل ، من ناحية وردان الغربية القديمة من القناطر الخيرية ، إلى أقصى بلاد الصعيد ، فيتفرقون فى البلاد ويجمعون البيض ، بعضه بالثمن وبعضه فى نظير فراخ يأخذها أرباب البيض بعد تمام العمل على حسب العرف الذى بينهم ، ويقيمون بتلك المعامل إلى تمام العمل ، ثم يرجعون إلى ببلاو ، وهكذا كل سنة .

ولنذكر لك طرفا مما يتعلق باستخراج الدجاج لما فيه من الفائدة فنقول : قال عبد اللطيف البغدادى فى رحلته فيما تختص به مصر من الحيوانات مانصة[1] : « من ذلك حضانة الفراريخ بالزبل ، فإنه قلما ترى فى مصر فراريج عن حضانة الدجاجة ، وربما لم يعرفوه أيضا ، وإنما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها أو يتكسب منها ، وتجد فى كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك ، ويسمى الموضع معمل الفرّوج وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التى يأتى ذكرها ، ما بين عشرة أبيات إلى عشرين بيتا ، فى كل بيت ألفا بيضة ، ويسمى بيت الترقيد .

وصفتة أن يتخذ بيت مربع ، طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع أربعة ، ويجعل له باب فى عرضه ، سعته شبران وعقده فى مثله ، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ، ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب — يعنى نسيجا منه — وفوقه ساس ، وهو مشاقة الكتان وحطبه ، ومن فوق ذلك الطين ، ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه ، وأعلاه وأسفله ، حتى لا يخرج منه بخار ، وينبغى أن تتخذ فى وسط السقف شباكاً سعته شبر فى شبر ، فهذا السقف يحكى صدر الدجاجة ، ثم تتخذ حوضين من طين مخمر بساس ، طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف ، وسمكه عقدة أصبع ، وحيطانه نحو أربع أصابع ، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على أرض معتدلة ، وهذا الحوض يسمى الطاجن ، فإذا جف الطاجنان ركبتهما على طرفى السقف ، أحدهما على وجه الباب والآخر قبالته على الطرف الآخر تركيبا محكما وأخذت وصولها بالطين أخذاً متقناً . وينبغى أن يكون قعود طاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه ، وهذان الطاجنان يحاكى بهما جناحا الدجاجة ، ثم يفرش البيت بقفه تبن ويمهد ، ويفرش فوقه نخ خب أوديس — يعنى حصيرا برديا — على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماس ولا يتراكب ، لتتواصل الحرارة فيه . ومقدار / مايسع هذا البيت المفروض ألف بيضة ، وهذا الفعل يسمى الترقيد . ٥

(١) انظر : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة فى أرض مصر ؛ تأليف عبد اللطيف البغدادى . القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة ، ١٩٣١ . (ص ٣٠ — ٣٢) .

(صفة الحضان) تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ، ثم تسد الطاقة بساس ، والشباك أيضا بساس وفوقه زبل ، حتى لا يبقى فى البيت منفذ للبخار ، وتلقى فى الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين ، وذلك ثلاث ويبات . وتقدفيه نار سراج من جميع جهاته ، وتمهله ريثما يرجع رمادا وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى ، بأن تضعه على عينيك وتعتبر حرارته ، وهذا الفعل يسمى الزواق . فإن وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات فى ثلاث دفعات ، تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله ، وهذا يحاكى تقليب الدجاجة للبيض بمنقارها وتفقدها إياه بعينها . وهذا يسمى السماع الأول . فإذا صار الزبل رمادا أزلته وتركته بلا نار إلى نصف نهار إن كان ترقيده بكرة ، وإن كان ترقيده من أول الليل حرسته إلى أن تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة ، ثم تخلى طاجنين من النار إلى بكرة ، ثم تجعل فى الطاجن الذى على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح ، وفى الطاجن الذى على صدر البيت قدحين ونصفاً ، ومد الزبل بمرود غليظ ، واطرح فى كل منها النار فى موضعين منه ، وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر . وإياك وأن تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل .

فإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رمادا ، ونزل الدفء إلى البيض أسفل البيت ، فغير الرماد من الطواجن بزبل جديد مثل الأول ، وأنت كل وقت تلمس البيض وتذوقه بعينك ، فإن وجدت حرارته زائدة عن الإعتدال تلذع العين فاجعل مكان الثلاثة الأكيال لطاجن الباب كيلين وربعاً وفى طاجن الصدر كيلين فقط ، ولا تزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والإيقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام ، بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان .

ثم تدخل البيت بالسراج ، وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج ، فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ ، والتى تراها شبه شراب أصفر فى زجاج لا عكر فيه فهى لاح بلا بزر ، وتسمى الأرملة فأخرجها فلا منفعة فيها ، ثم عدل البيض فى البيت بعد تنقيته ، وأخرج اللاح عنه ، وهذا الفعل يسمى التلويح .

ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الأول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية ، حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء فحينئذ يكمل الحيوان ويشعر وينفخ فاقطع إذن النار عنه ، فإن وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التى على وجه الباب وخلها كذلك يومين ، ثم ذقه على عينك فإن وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك ، وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذى فى الصدر إلى جهة الباب ، والبيض الذى فى جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذى كان فى جهة الباب ، ويستريح الحار الذى فى الصدر بشمّ الهواء فيصير فى طريقة الإعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد ، فيعتدل مزاجه ، وهذا الفعل يسمى الحضانة ، كما يفعل الطير سواء .

وتستمر على هذا التدبير دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل إلى تمام تسعة عشر يوماً ، فإن الحيوان ينطق فى البيض بقدرة الله تعالى ، وفى يوم العشرين يطرح بيضه ويكسر القشر ويخرج ـــ وهذا يسمى التطريح ـــ وعند تمام اثنين وعشرين يوما يخرج جميعه .

وأحمد الأوقات عاقبة لعمله أمشير وبرمهات وبرمودة ، وذلك فى شباط وآذار ونيسان ، لأن البيض فى هذه المدة يكون غزير الماء كثير البزرة ، صحيح المزاج والزمان معتدل صالح للنشء والكون . وينبغى أن يكون البيض طرياً ، وفى هذه الأشهر يكثر البيض. انتهى .

وقد وصف بعض الإفرنج معامل الفرّوج وكيفية استخراجه بأبسط من عبارة البغدادى فقال ما ترجمته :

إن معمل الفراريج عبارة عن صفين من الخزائن الصغيرة ، المبنية باللبن والطين ، يفصلها دهليز وشبابيكها خروق فى عقود الدهليز ، ولها باب ضيق مسبوق بجملة خزائن صغيرة ، محكمة القفل تُجعل لإقامة الشغالة لأنهم لا يفارقون المعمل مدة العمل ، وبعضها فيه راكية يحرق فيها الوقود حتى تستوى ناره ، فيؤخذ منها عند اللزوم فتكون مستحضرة دائما .

وطول كل خزانة عن خزائن البيض ثلاثة أمتار فى عرض مترين ونصف ، وهى مقسومة بسقف فى نصف الإرتفاع أو ثلثه ، وفى كل خزانة فى منتصف السقف فتحة مستديرة يسلك منها المستعمل من واحدة إلى أخرى ، ولكل خزانة باب على الدهليز قدر الفتحة التى فى السقف ، وفى كل حاجز من حواجز الصفوف فتحة مثل ذلك ، وفى عقد كل خزانة فتحة لخروج الدخان ، ويوضع البيض فى الطبقة السفلى من الخزانة ، والنار فى الطبقة العليا فى مجار غير عميقة ، لكل خزانة أربعة مجار بقرب الجدران ودائر فتحة الوسط مرتفع عن الأرضية لمنع النار من السقوط على البيض ، ويؤخذ من النار التى فى الراكية المستحضرة فى خزانة النار ، ويوضع فى تلك المجارى على حسب اللزوم .

وفى الصعيد تبتدأ تلك العملية فى شهر فبراير الإفرنجى ، وفى / الوجه البحرى يتأخر ذلك زمنا لقلة حرارة الجوّ هناك . ٦

ومدة ترقيد البيض أحد وعشرون يوما ، فتخرج الكتاكيت فى أوائل شهر مارس وهو الوقت المناسب لإمكان حياة الكتاكيت على حسب التجربة ، لأن حرارة الصيف تضرّ بها والعادة أن تكرّر العملية ــ أى ترقيد البيض ــ ثلاث مرات أو أربعاً فى ذلك الفصل ، بأن يرقد البيض حتى يخرج منه الكتكوت ، ثم يرقد خلافه، وهكذا إلى رابع مرة ، وفى كل مرة ينتج من المعمل من ثلاثة آلاف إلى أربعة .

وكيفية توزيع البيض تختلف فى المعامل ، فبعضهم يترك بعض الخزائن فارغاً ، وتوزيعه يكون بعدفرزه بكيفية مقررة عندهم ، فكل بيضة رأوا أنها لا بزرة فيها أخرجوها عن البيض ، لأنها لا تنتج بل تضر بالبقية ، ثم يعدونه ويكتبونه فى دفاتر ، ويرص فى كل خزانة طبقات بعضها فوق بعض ، وتوضع الطبقة العليا فوق ساس من الكتان ولا توضع النار إلاّ فى ثلث الخزائن ، على أبعاد متساوية ، وبعد خمسة أيام توقد النار ، فى بعض الخزائن الفارغة مدة ، ثم توقد فى البعض الآخر مع إطفائها من الأول ، وكل يوم تغير النار ثلاث مرات أو أربعاً وتُزاد فى الليل ، ويدخل العامل كل خزانة مرتين أو ثلاثاً نهارا لتقليب البيض ونقله عن مواضعه وإبعاده عن المواضع الكثيرة الحرارة .

وفى اليوم الثامن يمتحن البيض واحدة واحدة على نور سراج فيفرز ماله بذر مما ليس له بذر ، والعادة أن يبقى فى وسط طبقات البيض فرجة فارغة للتمكن من الحلول فى وسطه .

وقد استدل بالتجربة على أن الحرارة الكافية للبيض تختلف بحسب خزائن المعمل ، من إحدى وثلاثين درجة فى ترمومتر ريمور ، إلى ثلاثٍ وثلاثين ، فتكون كبيرة فى الدهليز وفى الخزائن العليا ، ففى الدهليز تكون أقل من اثنتين وثلاثين درجة وفى العليا أكثر من ذلك ، ويعرف استعمال ذلك بالتجربة وكثرة الإستعمال ، وهذا هو السر فى اختصاص أهل ببلا بذلك وعدم صلاحية قيام غيرهم مقامهم .

ومن شرط صحة العمل إطفاء النار قبل انتهاء العملية وذلك إما لخوف إتلاف البيض من الأبخرة المضرة من حمض الكربون المنتشر فى الطبقات السفلى ، وإما لتوزيع بعض البيض فى الطبقات العليا ، وربما كان هذا هو السبب فى زيادة تسخينها فى مبدأ العملية ليكون ذلك كافيا فى بقية العمل .

وتوزيع البيض يختلف ميعاده من أربعة أيام إلى ثمانية لتبرد الأرضية وتصل للدرجة المناسبة ، ويكون سدّ منافذ الدخان تدريجياً ، ومتى علم العامل بلوغه الدرجة اللازمة سَدَّ الفتحات العليا سداً محكماً .

وحكمة ترك بعض الخزائن فارغاً فى مبدأ العمل ، وإيقاد النار فيها على التناوب ، هى إدامة حصول الحرارة المنتظمة بالدرجة المناسبة للعمل .

والعادة أن جمع البيض للمعامل يكون بالتدريج ، فلذا ينقسم العمل إلى مرّات ، ومتى فتح المعمل تأتى الأهالى بالبيض فيعوّضون فى المائة خمسين والتالف نحو الخمس ، ولا يتعدى السدس .

وكثيراً ما يخرج بعض الفراريج فى نهاية العشرين يوماً ـ يعنى قبل الفقس الطبيعى بيوم ـ وبعد أربع وعشرين ساعة يخرج أكثره ، وبعد خروجه يطعم بعض دقيق بلباب الخبز .

وجعل الأب (سيكار) معامل مصر ستمائة وستة وثمانين معملا ، وجعلها غيره مائتين ، وأوصل (ريور) ما يخرج من الكتاكيت كل سنة إلى اثنين وتسعين مليوناً .

والصحيح أن يعتبر فى كل معمل عشرة أفران ـ أى خزائن ـ وباعتبار أربع ترقيدات ، كل ترقيدة ثلاث آلاف بيضة ، يكون خارج المعمل مائة وعشرين ألفاً ، فباعتبار مائة وعشرين معملا فى الديار المصرية يكون الخارج فى السنة أربعة وعشرين مليونا .

قال فى خطط الفرنساوية : إن استخراج الكتكوت من البيض أمر قديم فى بلاد مصر وفى بلاد الصين أيضا ، وكان للرومانيين كيفية فى استخراجه . فقد قال (پلين) : إن نساء الرومانيين يضعن البيضة تحت آباطهن ، ويصبرن عليها حتى يخرج منها الفرخ ، ويتفاءلن بكونه ذكراً أو أنثى على ما فى بطونهن من الحمل .

ووصف أيضاً معمل الفروج وكيفيته إلا أنه لم يذكر البلد المستعمل فيها .

وقد تكلم (ديودور الصقلّى) على كيفية استخراج الفراريج بالصنعة ، وقد كان ساح مصر فى آخر أيام البطالسة .

ويفهم من كلامه أن المصريين كانوا يخفون هذه الصنعة عن غيرهم لإدامة اختصاصهم بها .

وكان بيض الأوز مستعملا فى ذلك أكثر من بيض الدجاج ، لأن الكهنة

والقسيسين كانوا يميلون لأكل لحوم الأوز فى الأزمان العارية عن الأمراض الوبائية ، فلذا كان الأوز كثيراً فى تلك الأزمان ، كما يدل لذلك ما هو على جدران المعابد من الرسوم والنقوش .

وزعم بعضهم أن كهنة مصر كانوا يستعملون سبلة الدوّاب ، أى ما يكنس من تحتها ، نحو التبن الملوّث بأبوالها وأرواثها فى فقس البيض لما شاهدوه من دفن النعام والتمساح بيضه فى الرمل حتى يفقس ، فكان الكهنة يدفنون البيض فى السبلة فتكفى حرارتها فى استخراج الكتاكيت .

وقد رد العلماء ذلك ونقضوه بأن السبلة مضرة بأصل بذرة البيضة ومفسدة لها فلا تكون سببا فى الفقس . / وقد اشتغل العالم (ريمور) الفرنساوى بتجربة ذلك وألف ٧ فيه كتاباً ، فاتضح أن العملية لا تنجح إلا بمنع بخار السبلة عن البيض منعاً كلياً . وظهر لهم أيضاً أن قائل ذلك لم يمعن النظر فى كلام (پلين) فإنه ذكر أن البيض كان يوضع على التبن فى معمل حرارته واحدة لطيفة دائماً إلى أن يخرج الكتكوت ، وكان له عملة متكفلون بتقليبه ليلاً ونهاراً .

و(پلين) لم يذكر البلد التى كان يعمل بها ذلك ، إلا أنه بالقرينة يعلم أنها تنسب لمصر ، لأنه ساح فى هذه الديار ، وأخذ عن كهنتها ، أو لعل الذى أوجب زعم هذا الزاعم أن السبلة هى المستعملة قديما أو حديثاً فى الوقود فى مصر ، وفى وقود المعامل ، وتجلب إليها بكثرة ، فظنّ من رأى ذلك أن البيض يدفن فيها .

وبالجملة فيظهر من كلام الأقدمين ومؤرخى العرب ، أن هذه العملية قديمة فى ديار مصر عموما ، وإلى الآن أهالى قرية (برما) من الوجه البحرى ، وقرية (بيلاو) من الوجه القبلى لهم شهرة بذلك .

وفى خطط المقريزى ــ عند الكلام على الروك الناصرى ــ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أبطل عدة مكوس ، وبعد أن تكلم على جملة منها قال :

ومن ذلك مقرر طرح الفراريج ، ولها ضمان عدة فى سائر نواحى أرض مصر ، يطرحون على الناس الفراريج ، فيمر بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم ، وتقاسى الأرامل من العسف والظلم شيئاً كثيراً ، وكان على هذه الجهة عدة مقطعين ، ولا يمكن أحدا من الناس فى جميع الأقاليم أن يشترى فروجاً فما فوقه إلا من الضامن ، ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت انتهى .

وقوله فيما تقدم (ترومتر ريمور) : الترمومتر آلة مشروحة فى كتب الطبيعة يعرف بها درجة الحرارة .

ترجمة ريمور الفرنساوى

وريمور اسم مؤلف ترجمه صاحب قاموس الجغرافيا الإفرنجى فقال :

ريمور عالم فرنساوى ، اشتغل بالعلوم الطبيعية والنباتية ، ولد بمدينة روشيل من بلاد فرانسا سنة ١٦٨٣ ميلادية ومات سنة ١٧٥٧ ، اشتغل بالعلوم خمسين سنة ، واستفاد الناس من مباحثه طرقاً فى سقى الحديد وعمل الصفيح والصينى ، واستكشف طرق صناعة الزجاج الأبيض المعتم ، أى الذى يحجب ما وراءه .

وهو أول من اشتغل باستنتاج الفراريج بمملكة فرانسا ، وفى سنة ١٧٣١ اخترع الترمومتر المسمى باسمه وله مؤلفات كثيرة منها : رسالة فى قلب الحديد إلى الفولاذ وأخرى فى الحشرات ، وهو ممن أوسع بمباحثه دائرة العلوم فى القرن الثامن عشر من الميلاد . انتهى .

ويتبع (ببلاو) نزلة تسمى نزلة فرج محمود باسم عمدتها ، وهو من أصحاب البيوت المعتبرة مشهور بالكرم وعلو الهمة ، وتلك النزلة شرقى ببلاو بينها وبين الإبراهيمية .

وأهل (ببلاو) يتسوقون يوم الأربعاء من سوق ناحية (سنبو) التى بينها وبينها نحو ثلاثة أميال .

﴿ **بتبس** ﴾ قرية من مديرية المنوفية بمركز مليج ، فى الشمال الغربى (للبتنون) بنحو ألفين وخمسمائة متر ، وفى الجنوب الغربى لناحية (جنزور) بنحو خمسة آلاف متر ، وبها جامع بمنارة .

﴿ **البتنون** ﴾ فى القاموس أنها بثاء مثلثة بعد الموحدة ، بلدة بمصر ، وفى شرحه أن المشهور أنها بالمثناة الفوقية بعد الموحدة . انتهى .

وهى بلدة من مركز مليج بمديرية المنوفية ، واقعة على الشاطىء الغربى من فرع النيل الشرقى ، بينها وبين ترعة البتنون نحو ثلثمائة قصبة من الجهة الشرقية ، وكان بها كنيسة تحت رعاية (مارى أونوفر) ساكن الفلاة . والظاهر أنه كان لها شهرة فى الأزمان القديمة .

وأبنيتها بالطوب الأحمر ، وأبنية عمدتها (الحاج محمد الجندى) بالحجر الدستور ، على دورين مع البياض والشبابيك كأبنية مصر . ومحمد الجندى هذا كان ناظر قسم ثم لزم بيته .

وبها عشرة مساجد عامرة منها : جامع أبى صالح بمنارة ، وبها مقامات جماعة من الأولياء منهم : سيدى يوسف جمال الدين فى جهتها الغربية ، يعمل له مولد كل سنة خمس ليال ، والآن حصل الشروع فى تجديد ضريحه من طرف عائلة الجبائرة .

ومنهم : سيدى حسن العشماوى فى شرقيها ، له مولد سنوى أيضاً ثلاث ليال .

ومنهم : الشيخ أبو صالح ، فى وسط البلد . وسيدى إبراهيم الخواص فى غربيها .

وبها كنيسة شهيرة تأتى إليها نصارى البلاد المجاورة فى المواسم والأعياد ، وتعرف بكنيسة مارى جرجس .

ومساحة أبنيتها تسعون فداناً ، وأطيانها أربعة آلاف فدان ، وعدد أهلها الذكور سبعة آلاف وخمسمائة ، وفيها نصارى نحو ربع أهلها . وهى مشهورة بنسج خرق الكتان ، وبكثرة عسل النحل ، وبها سواقٍ تنيف على عشرين ساقية ، بُعد مائها زمن التحاريق نحو ثمانية أمتار ، ولها سوق كل يوم ثلاثاء يباع فيه المواشى وغيرها ، وبها نحو أربعة دكاكين ، وتجار للأقمشة يبيعونها فى البيوت ، وتجار غلال ، وبها مصابغ ومعملان للدجاج .

ترجمة أحمد أفندى خليل البتنونى

وقد ترقى من أهلها العالم الماهر أحمد أفندى خليل ، من عائلة الجبائرة ، أصلهم من قبيلة من العرب يقال لها الجبائرة على شاطىء الفرات ببغداد ، كما أخبر بذلك عن نفسه ، ثم صار من رجال الهندسة بديوان عموم الأشغال برتبة بكباشى ، وكان من المهندسين الذين تعينوا / فى زمن المرحوم سعيد باشا ، صحبة سلامة باشا فى رسم ميزانيات الترعة المالحة والحلوة . ٨

ثم فى زمن الخديوى إسماعيل باشا جعل ناظرا ومعلما بمدرسة المحاسبة ، وتربى على يديه جملة من شبان المهندسين ، وكان فى ابتداء أمره قد دخل قصر العينى سنة تسع وأربعين ومائتين وألف ، ثم نقل إلى مدرسة أبى زعبل ، ثم إلى مدرسة المهندسخانة ، فمكث فيها خمس سنين فاستوفى جميع فنونها ، ثم وظف من ضمن مهندسى ديوان المدارس .

ترجمة الشيخ محمد البتنونى

وينسب إلى بلدة بتنون هذه ، الشيخ محمد البتنونى ، الذى ترجمه السخاوى فى

الضوء اللامع[1]. حيث قال : هو محمد بن على [بن] أحمد الشمس النور ، البتنونى الأصل ، القاهرى الشافعى ، ويعرف بالبتنونى .

ولد بالقاهرة ، وحفظ القرآن والعمدة والمنهاج . وكان والده قد استقر فى عدة مباشرات ، فلما مات ، قرر فى جهاته كالمباشرة بطيلان ، وبالحلى والطاهر ، وتهادر المعزى وغيرها كالحسينية . وكان إذ ذاك مراهقاً ، فلم يحسن السير ، ولكنه انتمى لأبى البقاء البلقينى ، ثم للصلاح المكينى ، واجتهد فى التحصيل من أى وجه كان ، مع تسلطه على ضعفاء المستحقين فى الأوقاف ، وايذائه لأهل الذمة الذين فى كنيسة حارة زويلة ، بواسطة تكلمه على مسجد بالقرب منها ، فكان يأخذ منهم بالرغبة والرهبة ، حتى أثرى وأنشأ ملكاً أرتكب فيه السهل والوعر ، وكان يتعرض للأكابر وينافرهم . واستمر على طريقته حتى مات سنة سبع وسبعين وثمانمائة ، ودفن بحوش سعيد السعداء ، وكان جده من جماعة الجمال يوسف العجمى وكان والده على خير وستر ، وأقرأ المماليك فى الأطباق ، واستقر فى عدة مباشرات . انتهى .

وينسب إليها أيضا الشيخ أحمد البتنونى ، قاضى مديرية الغربية .

﴿ **بجام** ﴾ قرية من مديرية القليوبية بمركز قليوب ، على الشاطىء الشرقى لترعة الشرقاوية ، وفى الشمال الشرقى لناحية (باسوس) بنحو ألفى متر ، وفى الجنوب الشرقى لناحية (قليوب) بنحو أربعة آلاف وثمانمائة متر ، وبها جامع بمنارة ولها سوق فى كل أسبوع .

﴿ **البُجاوة** ﴾ هى بضم الموحدة وبعدها جيم فألف فواو فهاء تأنيث . صحراء فى جنوب الديار المصرية تمتد إلى سواكن ، وفى القاموس البجاوة كزغاوة،أرض النوبة منها النوق البجاويات. انتهى .

(١) الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع للسخاوى . طبعة المقدسى ، ١٣٥٥ هـ . جـ ٨ ، ص ١٦٨

ويسكن تلك الصحراء قوم متوحشون يقال لهم البجة ، لا خلاق لهم ولا أخلاق .

وفى بعض التقاييد (بجاء) بفتح الموحدة والجيم : قبيلة من العرب أبلهم مشهورة بالجودة ، يسكنون برسواكن . وقال بعض مؤلفى الأقباط ، فى شرحه لحوادث الأب شنوده : أنهم يسمون (بلنمويه) وأنه حصل منهم إغارات كثيرة على أرض مصر ، وأغاروا على الجهة البحرية ، فخربوا عدة مدن وأسروا أهلها ، وأخذوا أموالهم من مواش وخلافها . وفى كتب الروم واليونان تسمية هؤلاء العرب (بلنمى) ، ووجد فى بعض المؤلفات تسميتهم (بلمية) بشدّ الميم وتخفيفها و(بلمبية) بزيادة موحدة بين الميم والمثناه التحتية .

وقال بعض المؤرخين : إن مقر هؤلاء الأقوام فى داخل أفريقية قريبا من الشلالات فى ضواحى أسوان . وكثيراً ما يعبر عنهم المقريزى فى خططه بالبجة ، وفى بعض العبارات يعبر عنهم بالبجاة . وذكر (أولنبيودور) الذى ساح عند هؤلاء العرب ، أنهم يسكنون بين اكسيوم وجزيرة الڤونيتينا ، وأن النوبة طائفة منهم سكنت شاطىء النيل ، وسكن هؤلاء فىالصحراء داخل الأرض .

وقال بطليموس : إن سكن البلمة خلف موليب ، بين نهر استيورا — أى اتيرا — وخليج أدولير .

وقال المؤلف (أجاتمير) : منهم من سكن بقرب هذا الخليج وعرفهم بأكالين النعام .

وقال المؤلف (اتيين) البيزنتى : إنهم قوم متبربرون يسكنون الليبيا .

وقال (استرابون) : إن الأرض الممتدة أسفل مروة على شاطىء النيل من جهة البحر الأحمر مسكونة بالبلمية والميجابا الذين كانوا تحت حكم الحبشة ، وكانوا بجوار مصر . وفى موضع آخر جعلهم هم والنوبة فى جنوب الديار المصرية قبلى مدينة أسوان .

وقال غيره : إن البلمية عدوا البحر الأحمر من أيلة فى سفينة كانت فى سواحل الحبش .

وأخبر بعض الرهبان أن البلمية كانوا يسكنون قريبا من مدينة (بانوبوليس) .

وفى بعض العبارات أن هؤلاء الأقوام وهم البجة المذكورون فى كتب المشرقيين والمغربيين ، يسكنون الصحراء المتسعة المحيطة بالديار المصرية ، وبلاد النوبة والحبشة وسواحل البحر الأحمر .

وقال المقريزى[1] : إن أول بلد البجة من قرية تُعرف بالخربة ، معدن الزمرد فى صحراء قوص ، وبين هذا الموضع وبين قوص نحو ثلاث مراحل .

قال : وذكر الجاحظ أنه ليس فى الدنيا معدن للزمرد غير هذا الموضع ، وهو يوجد فى مغارات بعيدة مظلمة يدخل إليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ، ويحفر عليه بالمعاول فيوجد فى وسط الحجارة وحوله نوع غشيم دونه فى الصبغ والجوهر . (وسيأتى بسط الكلام عليه عند التكلم على صحراء عيذاب) .

وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشية ، وهم فى بطن هذه الجزيرة ــ أعنى جزيرة مصر ــ إلى سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن وباضع (مصوع) ودهلك ، وهم بادية يتبعون /الكلأ حيثما كان الراعى بأخبيةٍ من جلود . ٩

وأنسابهم من جهة النساء ، ولكل بطن منهم رئيس ، وليس عليهم متملك ولا لهم دين ، ويورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح ، فإنه ولدها على كل حال سواء كان من زوجها أو من غيره .

---

(١) الخطط المقريزية ، تأليف تقى الدين المقريزى ، طبعة لبنان ، مكتبة إحياء العلوم ، د. ت. مج ١ ، ص ٣٣٢ وما بعدها .

وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه ، يسكن قرية تعرف بهجرهى أقصى جزيرة البجاة ، ويركبون النجب الصهب وتنتج عندهم ، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضا والمواشى من البقر والغنم والضأن كثيرة جدا عندهم ، وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام ومنها جمّ ، وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان .

وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن ، وأكلهم للجبن قليل وفيهم من لا يأكله ، وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص ، وألوانهم مشربة بالصفرة ، ولهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس ، وكذلك جمالهم شديدة العدو وصبورة عليه وعلى العطش ، يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ، ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ، ويتطاردون عليها فى الحرب ، وهم يبالغون فى الضيافة ، فإذا طرق أحدهم الضيف ذبح له ، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحرلهم من أقرب الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره ، وإن لم يكن شىء نحر راحلة الضيف وعوضه من هو خير منها .

وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع ، والعود أربعة أذرع ، وبذلك سميت سباعية ، والحديدة فى عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم إلا فى بعض الأوقات ، لأن فى آخر العود شيئاً شبيه بالفلكة ، يمنع خروجها عن أيديهم . وصناع هذه الحراب نساء فى موضع لا يختلط بهن رجل إلا المشترى منهن ، فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها ، وإن ولدت غلاما قتلته ، ويظن إن الرجال بلاء وحرب . ودرقهم من جلود البقر مشعرة ودرق مقلوبة تعرف بالأكسومة من جلود الجواميس ومن دابة فى البحر . وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط ، يرمون عليها بنبل مسموم ، وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف ، يطبخ على النار حتى يصير مثل الغراء ، فإذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده وسيل الدم ، ثم شممه هذا السم ، فإذا تراجع الدم علم أنه جيد ومسح الدم لئلا يرجع إلى جسده فيقتله ، فإذا أصاب الإنسان قتل لوقته ، ولو مثل شرطة الحجام ، وليس له عمل فى غير الجرح والدم ، وإن شرب منه لم يضرّ.

وبلدانهم كلها معادن ، وكلما تصاعدت كان أجود ذهبا وأكثر ، وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغناطيس والمرقشينا والجمشت والزمرد وحجارة شطبا ، فإذا بلت الشطبة منها بزيت وقدت مثل الفتيلة .

وفى أوديتهم شجر المقل والإهليلج ، والأذخر ، والشيح ، والسنار والحنظل وشجر البان .وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين .

وبها سائر الوحوش من السباع والفيلة ، والنمور والفهود ، والقردة وعناق الأرض والزياد ، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر ، بها قرنان على لون الذهب ، قليلة البقاء إذا صيدت .

ومن الطيور الببغاء ، والنقيط ، والنوبى والقهارى ، ودجاج الحبش ، وحمام بازين انتهى .

ويؤخذ مما تقدم أن البلمية عرب يكثرون الترحال ، لا يستقرون فى موضع واحد ، وينتقلون فى الصحراء الكائنة بين النيل والبحر الأحمر . وكانوا فى مبدأ أمرهم بقرب أرض الحبشة ثم تنقلوا إلى قرب أرض مصر رغبة فى النهب وكثرة المراعى ، وحصل منهم كثير من الإغارات على هذه الديار نشأ منها مضرات جسيمة .

وفى زمن (يوروبوس) حاكم مصر من طرف الرومانيين ، أغاروا على ناحية قفط وأخذوها وأخذوا مدينة بطليموسة ، وأرسل خلفهم الحاكم المذكور عساكر وحاربهم وأجلاهم عن البلاد ، وأسر منهم عددا وافرا أرسله إلى روما فتعجب أهلها من شناعة زيهم وهيآتهم .

ولشدة أذى البلمية وكثرة شرهم ، ترك القيصر (ديوكليتيان) للنوبة أرضا عظيمة السعة على شواطىء النيل ، واشترط عليهم منع هؤلاء العصاة من الإغارات على الديار

المصرية ، وقرر لهم فى كل سنة مبلغا كان يدفع لهم فى نظير منعهم من تعديهم على ملك الرومانيين ، وكان منهم سفير فى القسطنطينية .

وفى سنة ٢٩١ كان الحرب قائما بينهم وبين الحبشة .

وفى سنة ٢٧٨ عدى ثلثمائة منهم البحر الأحمر ووصلوا إلى ناحية (رايت) فهدموها وقتلوا أهلها ، وخربوا الدير المجاور لها وقتلوا رهبانه . فجرد إليهم من ناحية (فاران) ستمائة من عساكر العرب فقتلوهم عن آخرهم .

وكان قد حصل منهم الهجوم أيضا على الواحات فخربوها ودمروا بلادها وقتلوا أهلها ، وذلك فى زمن الأمير (تستوريوس) .

وأحوال هؤلاء العرب من حيث الديانة والعوائد غير معلومة على الحقيقة ، وذكر (بروكوب) أنهم كانوا يقدسون إزيس وأزريس وبرياب ، وأنهم كانوا يقربون إلى الشمس قرابين من الآدميين . وفى مؤلفات (هليودور) أن سفراء البلمية كان سلاحهم القوس ، وكان فى طرف نشابهم عظم مصور فى صورة تاج .

وشرح بعض حالهم فى الحرب / فقال : إن هؤلاء العرب وقت محاربتهم للفرس كانوا يضعون ركبهم على الأرض دفعة واحدة بسرعة ، ويدخل الواحد منهم تحت بطن حصان الفارس ويشق بطنه فيهيج الحصان ويرمى راكبه فيقتله العرب .

ولما انتشرت الديانة العيسوية دخل فيها كثير منهم ، وكان عندهم أسقف يعلمهم قواعدها . وذكر ابن الكندى أن أمراء مصر فى صلاة العيد ، كان من عادتهم وضع حراس فى أسفل الجبل المقطم من جهة بركة الحبش ، لوقاية أهل الفسطاط من إغارات البجاة فى أيام الأعياد وقت الصلاة . فإنه كثيرا ما جاء البجاة على الهجن والجمال فى مثل هذه الأيام ، وسطوا على المدن ونهبوها وقتلوا أهلها وقت الصلاة . ففى زمن أحمد بن طولون سنة ست وخمسين ومائتين أغاروا على الفسطاط فى يوم العيد وقت الصلاة ، وقتلوا ونهبوا وعادوا من غير أن يلحقهم أذى .

وقد تنبه لذلك عبد الحميد بن عبد الله ، من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأكمن لهم فى الصعيد ، فبعد أن أغاروا ورجعوا قام عليهم الكمن فقتلهم وقتل رئيسهم الأعور .

وفى المقريزى أيضاً : أن فى البجة فى الإسلام وقبله أذية على شرق صعيد مصر ، خربوا هناك قرى عديدة،وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً لحاجتهم إلى المعادن ، وكذلك الروم حين ملكوا مصر ، ولهم فى المعادن آثار مشهورة،وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر .

قال عبد الرحمن بن عبد الحكم : إن عبد الله بن سعد عند رجوعه من حرب النوبة وجد البجة مجتمعين على شاطىء النيل فسأل عنهم فقيل له : إنهم قوم لا رئيس لهم فتركهم بدون إعتناء بهم ، ولم يعمل معهم شروط مصالحات . وأول من صالحهم عبد الله ابن الحجاب السلولى ، ويقال إنه مذكور فى خطابه أنه يدفع إلى البجاة ثلثمائة بعير على أن يحضروا فى مصر ، بشرط أن لا يقيموا بها ، وتعهد البجاة أنهم لا يقتلون مسلماً ولا ذميا ، وإن حصل ذلك منهم بطلت الشروط المعقودة ، وشرط عليهم أن لا يؤوا آبقا من عبيد المسلمين ، ولا فارّا من الأهالى ، وأن من يسرق منهم شاة يدفع أربعة دنانير ، وبقرة يدفع عشرة ، ووكيلهم يسكن الصعيد رهينة عند المسلمين .

وفى بعض الأزمان توجه كثير من المسلمين إلى المعدن ، واختلطوا بالبجاة ونكحوا من نسائهم،فدخل فى الإسلام كثير منهم من القبيلة المعروفة بالحدارب ، ولكن كان إسلامهم ضعيفاً وكان الحدارب مع كثرتهم أقل عدداً من الزنافج،وهم قبيلة أخرى من البجاة أكثر عدداً،وكانوا متغلبين فى القديم على الحدارب ، لكن بتوالى الدهور صار الحدارب حاكمين عليهم حتى جعلوهم بمثابة الرعاة لإبلهم ، والخدم فى مصالحهم ، وكل واحد من الحدارب كان رئيسا على عدة من الزنافج يرثهم عنه أولاده ، وكان أكثرهم شهرة وشجاعة يسكن بجوار عيذاب والعلاقى ، وهو محل معدن الذهب .

قال أبو الفداء فى تقويم البلدان : « العلاقى بفتح العين المهملة واللام المشددة ثم ألف وقاف مكسورة ثم تحتية » .

قال ابن سعيد : « العلاقى من بلاد البجاة ، وهم سودان مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان ، وهى بالقرب من بحر القلزم ولها مغاص ليس بالجيد ، وبجبلها معدن الذهب يتحصل منه بقدر ما ينفق فى استخراجه ، وجبل العلاقى مشهور ، وفى شرقى العلاقى الوضح منزل الحجاج .

ثم قال : قال العزيزى : إذا أخذت من أسوان إلى سمت الشرق ، تصل إلى العلاقى بين اثنتى عشرة مرحلة ، وبين العلاقى وعيذاب ثمان مراحل ، ومن العلاقى يدخل الإنسان فى بلاد البجاة . انتهى .

ووقت أن كان حاكم أسوان يأتى إليها من العراق ، أكثر البجه من الإغارات على الديار المصرية ، فوصل الخبر إلى الخليفة المنصور فأرسل خلفهم عبد الله بن الجهم ، فوقع بينه وبينهم جملة وقعات ، وانتهى الأمر بينهم على المصالحة وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٦ .

كما نص عليه المقريزى فى خططه حيث قال : كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة ، عامل الأمير أبى إسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد، فى شهر ربيع الأوّل سنة ٢١٦ ، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان : « أنك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجه ، وأعقد لك ولهم أمانا علىّ وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك إلى أن عقدت لك علىّ وعلى جميع المسلمين ، أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى ، وشرطت لى فى كتابى هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر ، إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وأنت وجميع أهل بلدك كعبيد لأمير المؤمنين ، إلا أنك تكون فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجه ، وعلى أن تؤدى إليه

الخراج فى كل عام على ما كان عليه من سلف البجه ، وذلك مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال ، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته ، وليس لك أن تؤخر شيئاً عليك من الخراج ، وعلى أن كل واحد منكم إن ذكر محمداً ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كتاب الله ، أو دينه بما لاينبغى أن يذكر به ، أو قتل أحداً من المسلمين / ١١

حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ، ذمة الله ؟ وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة أمير المؤمنين،أعزه الله وذمة جماعة المسلمين ، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم ، وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين ،أوأثر لغرّتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحدا منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهواً أو خطأ،حراً أو عبداً ، أو أحدا من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجه أو ببلاد الإسلام أو ببلاد النوبة ، أو فى شىء من البلدان برا أو بحرا فعليه فى قتل المسلم عشر ديات ، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجرا أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا تؤوا أحدا من آبقى المسلمين ، فإن أتاكم آتٍ فعليكم أن تردوه إلى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك . وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحاً ولا تدخلون المدائن والقرى بحالٍ ، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا وبحرا ، ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحدٍ من المسلمين ولا أهل الذمة ، ولا تسرقوا المسلم ولا ذمى مالا ، وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم ، طولا وعرضاً ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة ، وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر ، وكيلا يفى للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال ، وعلى أن أحداً من البجه لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من بلاد النوبة،حد الأعمدة .

عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين ، لكنون بن عبد العزيز ، كبير البجه ، الأمان على ما سمينا وشرطنا فى كتابنا هذا ، وعلى أن يوافى به أمير المؤمنين . فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد ولا ذمة وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجه ، وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم .

وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق ، ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البحه عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين ، وذمة الأمير أبى اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد ، وذمة عبد الله بن الجهم ، وذمة المسلمين ، بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه ، فإن غيّر كنون أو بدل أحد البجه فذمة الله جل اسمه ، وذمة أمير المؤمنين ، وذمة الأمير أبى اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد ، وذمة عبد الله بن الجهم والمسلمين بريئة منهم . انتهى .

وقد بقى البجه على ذلك زمناً ثم عادوا لما كانوا عليه من الإغارة على البلاد القبلية ، ومن كثرة الشكوى أرسل الخليفة أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، عسكراً تحت أمرة محمد بن عبد الله الكوفى أو القمى على ما ذكره المقريزى ، فأخذ عدة من العساكر المشهود لهم بالثبات وسار بهم من البر ، وكانت المراكب تسير من البحر إلى أن وصل إلى موضع وجد فيه كثيرا من البجه قد ركبوا الإبل فخافهم المسلمون ، فاحتال وكتب لهم كتابا فى طومار طويل ، ولفه بثوب وأرسله إليهم فاجتمعوا ليقرؤه فهجم عليهم حينئذ بعسكره ، وكان فى رقاب الخيل أجراس ، فحصل ، منها صلصلة خافت منها الجمال فذهبت على وجهها بركابها ، وأوقع عسكره السلاح فيمن بقى ، فأفنى منها خلقا كثيرين ، ومات أميرهم فى هذه الوقعة فقام بدله ابن أخيه وطلب المصالحة ، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يتوجه معه إلى دار الخلافة ببغداد ، فرضى بذلك وتوجه إلى سر من رأى سنة ٢٤١ فحصل له غاية الإكرام وعقدت شروط المصالحة على أداء الإداوة والبقط فى كل سنة ، وأن لا تتعرض البجه بوجه من الوجوه لمنع المسلمين عن استخراج المعدن .

والبقط كما فى المقريزى : « مقدار من الرقيق يجعل كل سنة لحاكم الجهة ». ثم إن محمدا قام من مدينة أسوان وترك بها جميع ما كان من الأسلحة والمهمات الحربية ومن بعده صار كل حاكم أقام بها يأخذ منها بعضاً حتى لم يبق منها شىء .

وفى أثناء ذلك كان كثير من المسلمين يتوجه إلى المعدن ويقيم مع البجه ، فأخذت أحوالهم وطباعهم تحسن من الاختلاط بالمسلمين .

وقد صار فى هذه المدة استكشاف عروق من الذهب وشاع خبرها ، فسار إليها كثير من الخلائق ، وتوجه إليها عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى فى عودته من وقعة بلاد النوبة سنة ٢٥٥ ، وكان معه عدد وافر من عرب ربيعة وعرب جهينة وغيرهم ، فكثرت بهم العمارة فى البجه ، حتى صارت الرواحل التى تحمل إليهم الميرة من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب ، أى المراكب ، التى كانت تنقل لهم من مدينة القلزم إلى ميناء عيذاب .

١٢ وذكر بعضهم أنه قبل أن يدخل أحد من البجه فى دين الإسلام / أمرتهم كهانهم عن لسان معبودهم ، بالطاعة لربيعة ولكنون معا ، فهم على ذلك . فلما قتل العمرى واستولت ربيعة على الجزائر ، والاهم على ذلك البجه ، فأخرجت من خالفها من العرب .

ومن ذلك الحين صار عرب ربيعة والبجه يتزوج بعضهم من بعض فحصل امتزاج الحيين وارتفع الشقاق من بينهم ، وقويت شوكتهم .

وأما البجه القاطنون فى صحراء بلد علوة ، من ابتداء البحر الأحمر إلى أول حدود الحبشة ، فيشابهون الحدارب ، ومنهم رحالة نزالة كثيرة المواشى وأحوالهم كأحوالهم فى المأكل والأسلحة وغير ذلك ، ولا تتميز الحدارب منهم إلا بالشجاعة وقلة الشر ، وهم إلى الآن وثنيون يعبدون الشيطان ويتبعون فى أمورهم أقوال كهنتهم ، ولكل بطن منهم كاهن منعزل عنهم يعتقدونه .

قال (كترمير) : « بلاد العلوة واقعة قبلى بلاد مصر ، فى جزيرة بين النهر الأزرق

والأبيض ومحلها الآن مدينة حلفاية ، عند مصب النهرين » . انتهى .

وقد ذكر المقريزى فى خططه كيفية اعتقادهم وما يفعله الكهنة ، ثم قال :

قال أبو الحسن المسعودى : « فأما البجه فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقا وملكوا عليهم ملكا ، وفى أرضهم معادن الذهب ، وهو التبر ، ومعادن الزمرد ، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة فيغزون ويسبون » .

وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجه إلى أن قوى الإسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب ، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتدت شوكتهم وتزّوجوا من البجه ، فقويت البجه ثم صاهرها قوم من ربيعة فقويت ربيعة بالبجاة على من ناواها وجاورها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار .

وقال صاحب المعدن — فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — بشر بن مروان بن إسحق بن ربيعة : والبجه المالكة لمعدن الزمرد وتتصل ديارها بالعلاقى ، وهو معدن الذهب ، وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة ، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان وجزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل ، وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض وأهلها طائفة من البجه تسمى الخاسة وهم مسلمون .

وذكر صاحب كتاب الفهرست : أنه كان للبجه كتابة مخصوصة ولكنه لم يرها .

وقد تكلم على البجه ابن حوقل ، والشريف الإدريسى ، وأبو الفدا ، وابن الوردى وآخرون من جغرافى العرب .

ومن اطلع على ما ذكره المقريزى فى خططه (١) ، يجده محتويا على ما قاله كل منهم .

(١) الخطط للمقريزى ، المرجع السابق . مج ١ . ص ، ٣٣٢ وما بعدها .

وممن ساح أرضهم (بروس) الإنكليزى وأطلق عليهم اسم بجا ، وجعل حدود أرضهم من ابتداء مصوع إلى سواكن على الساحل ، ثم يكونون فى الغرب إلى حدود صحراء مسليمى المحدودة من الجهة القبلية بالنيل ، ومن الجهة البحرية بدائرة الانقلاب .

وتكلم فى مواضع كثيرة على لسانهم ، وذكر أنهم الرعاة ، وأن هذا اللسان لا يخالف اللسان الحبشى القديم ، وتكلم على فرقة من الرعاة فى موضع آخر من سياحته،سماها (اجفرى) وهم أشجع الجميع ، ومسكنهم جبل همان الممتد إلى قريب من مصوع وسواكن ، وبالنسبة لموقعهم ظن أنهم من البجه أيضا .

ويغلب على الظن أن عرب العبابيد من نسل البجه ، لتقارب صفاتهم وعوائدهم وأماكنهم ، فإنهم منتشرون فى الصحراء الواقعة بين البحر الأحمر ومصر ، وبلاد النوبة وبلاد الحبشة ، وفوق الجبال والسهول التى فى شرقى النيل .

واستبعد كثير من السياحين كون العبابدة من العرب ، فإن بينهم وبين عرب مصر مخالفة كلية فى الأخلاق والطباع ، والملابس وغير ذلك .والغالب على لونهم السواد ، ولكن تقاطيعهم لا تشبه تقاطيع العبيد بل تشبه تقاطيع الأوروباويين ، وأكثرهم لا يلبس إلا مئزرا يربطه بوسطه ، ولهم حراب طولها نحو خمسة أقدام وحديدها طويل مستدير ، ودرقات مستديرة من جلد الفيل ، وأكثر مواشيهم الأغنام ، وهجنهم سريعة العدو تقطع المائة فرسخ فى أربعة أيام يركبونها فى الأسفار والحروب ، ولا يستعملون الخيل ، وفى العادة يجعل عليهم خفر القوافل ، ولهم بلاد على الشاطىء الأيمن من النيل مثل ناحية دروة والشيخ عامر ورادسية . ويتكلمون العربية إلا أن لهم لغة أخرى يشتركون فيها مع عرب الجبال الواقعة فى جهة النيل الشرقية .

وذكر (بروس) أن لغتهم التى يتكلمون بها هى لغة أهل سواكن .

وقال فى مواضع من سياحته : إن لغة أهل هذه المدينة ولغة أهل مصوع ، وحباب ، وجزيرة دهلك ، هى لغة البجه ، الحبش القديم .

وربما كان عرب البشارية فرعا من البجه سكنوا الأرض القريبة من البحر الأحمر ، من ابتداء سواكن إلى قرب اسنا .

ولنورد لك تراجم بعض من تقدم أسماؤهم فى هذا المحل فنقول :

أما (أولنبيودور) ففى قاموس الجغرافية الإفرنجى ، أن من هذا الإسم اثنين ، أحدهما فيلسوف كان يدرس فى مدينة الاسكندرية فى القرن السادس من الميلاد ، والآخر كان فى القرن الخامس .

وأما (اجاتمير) فهو عالم يونانى كان فى القرن الثالث من الميلاد ، واختصر جغرافية / بطليموس . ١٣

وقال أيضاً : إن (اتيين البيزنتى) عالم يونانى ولد بالقسطنطينية ، وكان فى أواخر القرن الخامس من الميلاد . له تآليف منها : قاموس الجغرافية والتاريخ ، ويعتمد عليه الفرنساوية فى أخبار الأقدمين ، وقد ضاع أغلبه .

وقال أيضاً : إن (بروكوب) مؤرخ يونانى ولد فى مدينة سيزاريه (أى قيسارية) من بلاد فلسطين سنة خمسمائة من الميلاد ، ودرس بالقسطنطينية وتبع (بليزير) رئيس الجيوش الرومانية بوظيفة كاتب ، فى وقعاته بآسيا وأفريقية وإيطاليا ، ثم تعين فى أعضاء مجلس السيناتو ، ثم فى سنة خمسمائة واثنتين وستين تعين حاكما بالقسطنطينية ، ومات سنة خمسمائة وخمس وستين ، وله مؤلفات فى التاريخ تكرر طبعها .

وكان (بليزير) فى زمن القيصر (جوستنيال) ولد سنة أربعمائة وتسعين ميلادية ، ومات سنة خمسمائة وخمس وستين .

وأما (هيليودور) فهو بطريك من تسالية من بلاد الروميلى ولد فى أميز (حمص) من (فنيكيا) ، وكان فى القرن الرابع من الميلاد وتكلم على مصر فى قصة ألفها .

وأما (بروس) الإنجليزى فهو من بلاد (الإيكوس) من جزائر بلاد الإنجليز ، ولد سنة ألف وسبعمائة وثلاثين ميلادية ، ومات سنة ألف وسبعمائة وأربع وتسعين . وساح فى بلاد الأندلس وبلاد التركمان ، وتعين قنصلا فى بلاد الجزائر سنة ثلاث وستين ، ومذ كان بهذه الوظيفة ساح فى إفريقية الغربية ودخل أرض الحبشة ، ومن سنة ثمان وستين إلى سنة اثنتين وسبعين ـــ يعنى مدة أربع سنين ـــ اجتهد فى البحث عن منابع النيل ثم رجع ، ولم يتيسر له الوقوف على حقيقتها ، ولم يطلع إلا على منبع البحر الأزرق ، وألف كتابا فى ذلك حصلت فوائده وانتفع به فى زياده معلومية جغرافية بلاد الحبشه . انتهى .

﴿ بجيرم ﴾ قرية من مديرية الغربية من مركز زفتة ، واقعة على ترعة الخضراوية التى فمها من بحر الشرق فى شمال فم القرينين ، على بعد ثلثى ساعة ، المنصبة فى بحر شيبين من جهة نهطاى ، وفى شرقيها على بعد ساعة قرية منية برى الواقعة على بحر دمياط ، وفى غربيها على بعد ساعتين قرية شبين الكوم ، وبقربها على الترعة المذكورة قنطرة بثلاث عيون ، وهى قرية صغيرة لكن لها اعتبار بمن نشأ منها من أفاضل العلماء .

ترجمة الشيخ سليمان البجيرمى

فقد ذكر الجبرتى[1] فى حوادث سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف ، أن منها الفقيه المحدث خاتمة المحققين ، وعمدة المدققين -- الشيخ سليمان بن محمد بن عمر البجيرمى الشافعى الأزهرى ، ينتهى نسبه إلى الشيخ جمعه الزبيدى ، نسبة إلى زبيد قرية بالقرب من منية ابن خصيب ، وينتهى نسب الشيخ جمعه المذكور إلى سيدى محمد بن الحنفية رضى الله عنه .

ولد المترجم ببيجيرم سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف ، وحضر إلى مصر صغيرا دون البلوغ ، ورباه قريبه الشيخ محمد البيجيرمى ولازمه حتى تأهل للعلم ، فحضر على الشيخ العشماى ، وحضر دروس الشيخ الحفنى ، وأجازه الملوى ، والجوهرى ، والمدابغى ، وأخذ عن الديربى وغيره .

وحضر أيضا على الشيخ الصعيدى والسيد البليدى ، وشارك كثيرا من الأشياخ كالشيخ عطية الأجهورى .

وكان إنسانا حسنا جميل الأخلاق ، مجتنبا مخالطة الناس ، مقبلا على شأنه . وقد انتفع به أناس كثيرون ، وكف بصره فى آخر عمره ، وعمّر وتجاوز المائة .

ومن تآليفه المشهورة بأيدى الطلبة : حاشية على المنهج ، وحاشية على الخطيب ، وغير ذلك . وقبل وفاته سافر إلى مصطيه قرية بالقرب من بجيرم فتوفى بها ليلة الإثنين وقت السحر ، ثالث عشر رمضان من السنة المذكورة ، ودفن هناك عليه رحمة الله تعالى .

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المشهور بتاريخ الجبرتى ، تأليف عبد الرحمن الجبرتى ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ . جـ٢ ، ص ٢٥

﴿ بخانس ﴾ قرية من قسم فرشوط بمديرية قنا ، على الشاطىء الغربى للنيل ، فى مقابل جبل الطارق ، وكانت تسمى قديماً (طوشونس) وفى كتب الأقباط تسميتها (موشنس) ، وترجمها بعض مؤرخى العرب موخنس أو مخانس بالميم ، ثم استعملت بعد بالباء فى أولها .

وكان بها دير مشهور ، وفيها الآن نخيل كثير ، وحدائق ذات بهجة ، ويزرع فيها قصب السكر كثيراً وفيها له عصارات ، وفيها أبراج حمام ، وسواق معينة ، وسواق على البحر ، وفى غربيها على نحو مائة وخمسين قصبة الباطن المعروف بأبى حمار يمتد مغربا إلى سمهود ، فيجتمع مع باطن الرنان ويسيران معا فى الشمال حتى يصبا فى ترعة السوهاجية ، ومن سوهاج إلى سيوط يسميه بعض الناس بأبى حمار ، ومن سيوط إلى حيث يصب فى اليوسفى لا يعرف إلا بأبى حمار ، وفى الأقاليم الوسطى إلى اللاهون يعرف باليوسفى ، وبعضهم يسميه المنهى ، وعند اللاهون ينفصل منه باطن يمر بحوضى قنبشة والرقة ويسمى هناك ترعة اللاهون ، وبعضهم يسميه المجنونة ، وبعضهم يسميه الهدار ، وفى بلاد الجيزة يعرف باللبينى ، ومن هناك إلى مريوط يعرف باليوسفى وترعة العصارى . ويتبع تلك القرية عدة نجوع .

﴿ البدارى ﴾ بلدة من مديرية سيوط بقسم الشروق شرقى النيل على ثلث ساعة ، وقبلى ساحل سيلين بأكثر من ساعة ، متفرقة على عدة كفور ، وأبنيتها بالآجر واللبن وبها جوامع عامرة وأهلها مشهورون بالكرم .

١٤ وفيها بيت مشهور يقال له بيت أبى ناصر ، كان منه الحاج عبد الله أبو / ناصر ، ناظر قسم فى زمن العزيز محمد على ، وكان ابنه عبد الحق حاكم خط فى زمن الخديوى اسماعيل . ويزرع فى أطيانها الدخان المشروب بكثرة والمزروعات المعتادة ، وتكسب أهلها من ذلك . وسوقها كل يوم اثنين .

﴿ بداوى ﴾ قرية من مديرية الدقهلية بمركز فارسكور ، على شاطىء البحر الشرقى على بعد مائتين وخمسين قصبة ، وقبلى فارسكور على بعد عشرة آلاف قصبة .

أبنيتها كمعتاد الأرياف ، وبها مسجد كبير بمنارة معمور بالعبادة ، وجنان ذوات ثمار ، ولعمدتها أحمد سعدة منزل ضيافة وقصر مشيد ، بجانبه حديقة ، وزراعته تنيف على ألف فدان . ولها سوق كل يوم سبت يباع فيه أصناف الحبوب والعطارة وغيرها ، وتكسب أهلها من زراعة الأرز والقطن وبعض الحبوب .

﴿ البدرشين ﴾ هذه البلدة من البلاد المشهورة بمديرية الجيزة ، بالجانب الغربي للنيل ، تمر السكة الحديد بينها وبين النيل ، وفى قبليها جسر سقارة ، وأبنيتها بالآجر واللبن .

وبها مساجد عامرة ، وبها تسع عشرة مصبغة وثمان طواحين ، ومعصرة زيت وأنوال لنسج مقاطع الكتان وغيره ، وثلاث دكاكين وسط البلد يباع فيها العطارة ، وفندقان ينزل بهما المسافرون ، وفى جهتها البحرية معمل بارود من زمن العزيز محمد على مستعمل إلى قبيل تولية الخديوى المعظم محمد باشا توفيق ، كان تجلب له الأسباخ من تلول منية رهينة ، وتلول مصر العتيقة .

وبها تجار غلال وتكسب أغلب أهلها من الفلاحة ، ومن مزروعاتهم الخيار وقليل من قصب السكر ، وقد أنشىء بها فابريقة لصناعة السكر .

وبالقرب منها محطة السكة الحديد ، وعمدتها على أحمد الدالى منزله فى جهتها الغربية ، وكان أبوه حاكم خط سابقا .

ويقال إنه فى زمن فتح مصر حصلت بها وقعة استشهد فيها جماعة ، ولقبورهم آثار إلى الآن : منهم الشيخ الجنيد فى قبليها بأرض المزارع ، والشيخ عمران فى شرقيها ، وسعد وسعيد فى بحريها .

وفى بعض التواريخ أن محلها فى الأصل جزيرة . ويقال إنه كان بها قصر لزليخا إمرأة العزيز فى عهد الملك الريان ، فلما وضع سيدنا يوسف يده على خزائن الأرض ،

وخرج يوما فى موكب للنزهة على البحر قابلته زليخا وقالت : « سبحان من أزل الملوك وأعز العبيد » فقال لها : من أنت ؟ فقالت : زليخا . فقال لها : « أصبح البدر شينا » فسميت بهذا الاسم إلى الآن .

وبها كثير من نخل الأمهات ، ولها سوق كبير كل يوم أربعاء .

ومنها رسلان أفندى نوير ، ومحمد أفندى الصياد ، وإبراهيم أفندى الدالى برتبة الملازمين بالجهادية .

﴿ البراذعة ﴾ قرية صغيرة من مركز قليوب بمديرية القليوبية ، واقعة على الشط الغربى لترعة القرطامية ، وفى الشمال الشرقى لعزبة بنهادة ، بنحو ألفى متر ، وفى جنوب منديس بنحو ساعة ، وأبنيتها بالآجر واللبن ، وأغلب منازلها بمقاعد ، وبها جامع بمنارة وكنيسة للأقباط تتردد إليها أقباط بلاد الجيزة ، وبها حديقة لعمدتها محمد علام ، الذى كان ناظر قسم زمن المرحوم سعيد باشا ، وجعل ابنه محمد علام مأمور مركز قليوب .

ترجمة إبراهيم أفندى سالم

ومن هذه القرية إبراهيم أفندى سالم ، دخل مكتب قليوب سنة تسع وأربعين ومائتين وألف ، وبعد أن دخل مدرسة قصر العينى ومدرسة أبى زعبل ، وتعلم بهما مبادىء العلوم انتقل إلى مدرسة المهندسخانة سنة أربع وخمسين ، ودرس علومها وفاق أقرانه ، فكان هو الأول من فرقته .

وفى سنة ستين أخذ رتبة ملازم ، وسافر مع تلاميذ فرقته إلى عمل رسم شفالك الغربية والدقهلية تحت رياسة (لانبير بيك) وبهجت باشا .

وفى سنة ثلاث وستين تعين للتدريس بمدرسة المهندسخانة .

وفى سنة ست وستين جعل باشمهندس مديرية القليوبية برتبة يوزباشى ، فلم يلبث إلا قليلا وأقيمت عليه دعوى أنه أهمل فى ريّ الأرض ، فحكم عليه بحطه إلى رتبة الملازم .

ولما جلس المرحوم سعيد باشا على تخت هذه الديار ، تعين معاونا مع بهجت باشا فى مسح أراضى الفيوم ، فأقام فى ذلك سنة ، ثم بأمر كريم تعين فى ضمن من تعينوا لعمل رسومات وموازين لعمل ترعة القنال المالحة ، فأقام فى ذلك أربع سنين .

وفى سنة ست وسبعين تعين مع أخينا محمود بيك الفلكى لرسم الخريطة الفلكية للأقاليم البحرية من ديار مصر ، فأقام معه حتى تمت هذه الخرط جميعها ، ثم اشتغل معه فى خرط الوجه القبلى ، وترقى إلى رتبة صاغقول أغاسى ، ثم إلى البيكباشى وهو فى تلك الأشغال .

ولما أراد الخديوى إسماعيل باشا عمل السكة الحديد فى البلاد السودانية ، واقتضى الحال استكشاف الطرق من سواكن إلى بربر ليتخير أسهل طريق منها ، عين المترجم وجملة من المهندسين بمعية إسماعيل بيك الفلكى لاستكشاف ذلك ، وعمل ما يلزم من الرسومات والموازين ، فتوجهوا وأجروا ذلك ، وحضروا بعد ثمانية أشهر .

ثم صار من رجال ديوان الأشغال المعتمدين ، تحال على عهدته المشكلات الهندسية والأمور الدقيقة ، فيقوم بها لما فيه من الاستعداد والتثبت فى فنونه، وهو إنسان خيّر حسن السمت والسير والسيرة .

﴿ براوة ﴾ قرية من مديرية بنى سويف بمركز ببا ، على الشاطىء الغربى لبحر

يوسف ، فى غربى ناحية الدير بنحو مائتين وخمسين متراً ، وفى شرقى البهسمون بنحو
١٥ أربعة آلاف متر وبها زاوية للصلاة / وبدائرها نخيل ، وينسب إليها العالم العلامة والحبر
الفهامة ، الشيخ عبد الله البراوى الشافعى .

﴿ البربى ﴾ هى قرية قديمة على تل عالٍ ، قبلى ناحية دوير عائد ، بنحو
نصف ساعة ، وشرقى الغنائم بأكثر من نصف ساعة .

وهى من مديرية سيوط بمركز بوتيج ، وبها جوامع بلا منارات ، وتكسب أهلها من
الزرع المعتاد ، وفيها أنوال لنسج الصوف ، ولها سوق كل يوم أحد يباع فيه ، ما عدا
البهائم الكبيرة .

﴿برج مغيزل ﴾ قرية من أعمال رشيد فى بحريها شرقى النيل ، منها إلى
رشيد نحو ساعة ونصف ، وتجاهها فى الشاطىء الغربى جبخانة قايتباى الكردى ، والبحر
الملح فى شمالها على نحو ساعة ، وفى شرقيها البرارى .

وفيها مسجد جامع ونخيل بغاية الكثرة على أصناف متعددة ، ويصاد فيها السمك
والطير كثيرا ، وعدة أهلها أربعمائة وأربعون نفسا ، تكسبهم من ثمر النخل ، وصيد
السمك والطير وقليل من الزرع .

ترجمة الشيخ عبد الواحد البرجى

وإليها ينسب ، كما فى خلاصة الأثر ، عبد الواحد الرشيدى البرجى الشافعى ،
ترجمة الخفاجى وقال فى نعته :

(١) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى . القاهرة ، المطبعة الوهبية ، ١٢٨٤ هـ ج ٢ ،
ص ٩٩ .

حسنة بها ذنب الزمان غفر ، وأصبح به عصره على سائر الأزمان يفتخر ، فهو ريحانة الدهر النضر ، والذائع ذكره حتى كأنما سعى به الخضر ، له محاورات تطرز بها حلل الوشائع ، وسقيط حديث كأنه جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع .

ثم قال : فمن لؤلؤه الرطب ، ورشح قلمه العذب ، قوله فى نائب غير رشيد ، تفلج به ثغر رشيد :

قلت للنائب الذى قد رأينا معايبه
لست عندى بنائب إنما أنت نائبه

ومثله قول الآخر :

وقاض لنا حكمه باطل وأحكام زوجته ماضيه
فياليته لم يكن قاضيا وياليتها كانت القاضيه

وله :

لا تحسبن أن هجوى فيك مكرمة شعرى بهجو لئيم قط ما سمحا
لكن أجرب طبعى فيك فهو كما جربت فى الكلب سيفا عندما نبحا

وله وقد سمع بموت بعض قضاة مصر :

قالوا قضى القاضى فواحسرتى إن لم يكن قد مات من جمعة
مصيبة لا غفر الله لى إن كنت أجريت لها دمعتى

وقال الشيخ مدين القوصونى ، فى ترجمته : شيخنا الفاضل والإمام الكامل المورع الزاهد ، كان عارفا بعلوم شتى ، وكان يستحضر أشياء كثيرة من النوادر .

قال : ورأيت له من المؤلفات كتاب نزهة المسامرة ، فى أخبار مصر والقاهرة ، ذكر فيه الوزراء الذين تولوا مصر إلى الوزير الأعظم محمد باشا .

وأنشد له من شعره قوله :

يقولون لى قهوة البن هل تحل وتؤمن آفاتها
فقلت نعم هى مأمونة وما الصعب إلا مضافاتها

قال : وسألته عن مضافاتها ، فأجابنى : هو ما يستعمل معها من المكيفات .

ومن إملائه بثغر رشيد فى سنة تسع بعد الألف :

لعمرك ما أهديت للحب خاتما ولا قلما مبرى ولابست عينه
ولا آلة للقطع تقطع بيننا فما سبب التفريق بينى وبينه

وقال غيره فى توصيفه :

عبد الواحد الرشيدى إمام برج مغيزل ، الشيخ الإمام العلامة ، كان من مشاهير الفضلاء ، قرأ عليه كثيرمنهم السيد محمد الجهازى ، ثم أنشد له قوله :

لا تصحبن ناقصا فتضحى قليل حظ كثير ذنب
وانظر إلى الرفع من أبومن والخفض فى القبر بعد حرب

وكانت وفاته بمصر فى شوال سنة ثلاث وعشرين وألف ، ودفن بتربة الجلال السيوطى ، وبلغ من العمر مائة فأكثر ، قاله الشيخ مدين .

والبرجى تبين أنها نسبة لبرج مغيزل ، انتهى .

﴿بردين﴾ هى قرية بمركز بلبيس من مديرية الشرقية، بينها وبين شبرى النخلة نحو ألف وخمسمائة متر، وفى الجنوب الغربى للسكة الحديد على نحو ثلثمائة متر، وبها محطة السكة الحديد، ومحل إقامة مستخدميها.

وفى غربى المحطة بحرى السكة، كشك مشيد وجنينة عظيمة للخديوى إسماعيل باشا، وبها منازل مشيدة للدائرة السنية وديوان التفتيش ومساكن المستخدمين، ومجلسا دعاوى، ومشيخة ومساجد عامرة أحدها بمنارة، وبها مكاتب وأرباب حرف وتجار، وفيها جنان ذات أشجار متنوعة ونخيل، وبها وابورات لسقى المزروعات، ولها سوق كل يوم أحد، وأطيانها ألفان وتسعمائة وستة وعشرون فدانا وكسر، وأهلها ذكورا وإناثا / ألفان وخمسمائة وأربع وأربعين نفسا، وتكسبهم من الزراعة. ١٦

ترجمة الشيخ حسن البردينى

وإليها ينسب، كما فى الضوء اللامع[1] للسخاوى، الحسن بن أحمد بن محمد البدر البردينى، ثم القاهرى الشافعى، ولد بقرية بردين من الشرقية فى حدود الخمسين وسبعمائة، قدم القاهرة ونشأ فقيرا، وأنزله أبو غالب القبطى الكاتب بمدرسته التى أنشأها بجوار الخوخة فقرأ على الشمس الكلائى ولم يتميز فى شىء من العلوم.

ولما ترعرع تكسب بالشهادة، ثم ولى التوقيع واشتهر به مع معرفته بالأمور الدنيوية فراج بذلك على ابن خلدون فنوه به.

(١) الضوء اللامع، المرجع السابق. جـ٢، ص ٩٥.

قلت : ورأيته شهد على الصدر الأبسيطى فى إذنه للجمَّال الزيتونى بالتدريس والإفتاء فى سنة تسع وثمانمائة ، ولم ينتقل فى غالب عمره عن ركوب الحمار حتى كان بآخر دولة الجمَّال الأستادار ، فنوَّه به كاتب السر ، فتح الله وركب حينئذ الفرس .

وناب فى الحكم وطال لسانه ، واشتهر بالمروءة والعصبية ، فهرع إليه الناس فى قضاء حوائجهم ، وكان يتوجه على كل من فتح الله كاتب السر ، وابن نصر الله ناظر الجيش بالآخر ، وعلى سائر الأكابر بهما فكانت حوائجه مقضية عند الجميع .

قال : وحفظت عنه كلمات منكرة مثل إنكاره أن يكون فى الميراث خمس أو سبع لأن الله لم يذكره فى كتابه ، وغير ذلك من الخرافات التى كان يسميها المفردات .

وكان مع شدة جهله عريض الدعوى ، غير ميال بما يقول ويفعل . مات فى رجب سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة . وقد زاد على الثمانين وتغير عقله ، وله فى هدم الأماكن التى أخذها المؤيد حين بنى جامعه بباب زويلة مصائب ، استوعبها المقريزى فى تاريخه انتهى .

﴿ البرشة ﴾ قرية من قسم المنية ، شرقى البحر الأعظم وقبلى دير البرشة ، الواقع فى جنوب مدينة انصنا والشيخ عبادة ، وعندها مقابر للمسلمين من أهل البلاد التى فى شرق البحر وغربيه ، وممن يدفن موتاهم فيها أهل ملوى وما جاورها ، وعادتهم غنيا وفقيرا أن يقيموا بتلك الجبانة فى كل سنة وقت النقطة ، ثلاثة أيام بلياليها للزيارة وقراءة القرآن ، ويهيئون المأكل ويكون هناك بيع وشراء ونزاهة ، ويكون موسما عظيما .

﴿برشوم ﴾ بباء موحدة مفتوحة ، فراء مهملة ساكنة ، فشين معجمة ، فواو فميم . قريتان من مديرية القليوبية بمركز أجهور الورد ، على الشاطىء الشرقى لبحر دمياط . إحداهما برشوم الكبرى فى غربى ناحية العمار الكبرى بنحو ألفى متر ، وفى جنوب الصالحية بنحو ألف وتسعمائة متر ، وفى شمالها برشوم الصغرى بنحو أربعمائة متر .

وفى برشوم الكبرى جامعان ، أحدهما بمنارة ، وبها سوق بحوانيت ، وفيها قهاو على البحر وسويقة دائمة ، وفيها شجر التين البرشومى بكثرة ، وإليها ينسب ، ومنها يجلب إلى المحروسة وخلافها .

وقد عمل عليها الأهالى جسراً محيطاً بها وأمامها بتبيت يخشى عليها منه .

وفى غربيها ضريح ولى عليه قبة ، وتكسب أهلها من الزراعة وغيرها .

﴿بركة الحاج﴾ قرية موضوعة فى الشمال الشرقى بالقاهرة بنحو خمس ساعات ، وفى غربى الترعة الإسماعلية بنحو ستة آلاف متر ، وفى جنوب الخانقاه كذلك ، وفى شرقى قرية المرج بنحو ثلاثة آلاف متر .

ويقال لها بركة الجب ، وبه ترجم المقريزى فى خططه[١] ، فقال :

بركة الجب هى بظاهر القاهرة من بحريها ، وتسميها العامة فى زماننا هذا ـ الذى نحن فيه ـ بركة الحاج ، لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج فى كل سنة ، ونزولهم عند العود بها ، ومنها يدخلون إلى القاهرة .

ومن الناس من يقول جب يوسف ، وهو خطأ وإنما هى أرض جب عميرة ، وعميرة هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء ، نسبت هذه الأرض إليه فقيل لها أرض جب عميرة ، ذكره ابن يونس .

وكان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر بن الحاكم فى كل سنة ، أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة هذا . وهو موضع نزهة ، بهيئة أنه خارج إلى الحج ، على سبيل اللعب والمجانة ، وربما حمل معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ، ويسقيه من معه .[٢]

(١) الخطط للمقريزى ، المرجع السابق ، مج ٣ ، ص ٦٣ . ٦٤

(٢) نهاية الأرب للنويرى جـ ٢٨ ، صـ ٢١٤ تحقيق د. محمد محمد أمين ، مركز تحقيق التراث ١٩٩٢ .

وأنشده مرة الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى فى يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضحى ضحى إلّا بصهباء
وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم إلى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعُجْ على مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والنائى

قال ابن دحية : فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى ، بنغمات حداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق . وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين ، حتى بيع فى أيامه الرغيف بالثمن الثمين ، وعاد ماء النيل بعد عذوبته كالغسلين ، ولم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين .

وقال ابن ميسر : فلما كان فى جمادى الآخرة من سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، خرج المستنصر على عادته إلى بركة / الجب ، فاتفق أن بعض الأتراك جرد سيفا فى سكر منه على بعض عبيد الشر ، فاجتمع عليه طائفة من العبيد وقتلوه . فاجتمع الأتراك بالمستنصر ، وقالوا : إن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة وإن كان عن غير رضاك فلا ترضى بذلك ، فأنكر المستنصر ما وقع وتبرأ مما فعله العبيد ، فتجمع الأتراك لحرب العبيد وبرز بعضهم إلى بعض ، وكان بين الفريقين قتال شديد على كوم شريك ، انهزم فيه العبيد وقتل منهم عدد كثير ، وكانت أم المستنصر تعين العبيد وتمدهم بالأموال والأسلحة ، فاتفق فى بعض الأيام أن بعض الأتراك ظفر بشىء مما تبعث به أم المستنصر إلى العبيد ، فأعلم بذلك أصحابه وقد قويت شوكتهم بإنهزام العبيد ، فاجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر وخاطبوه فى ذلك ، وأغلظوا فى القول وجهروا بما لا ينبغى ، وصار السيف قائماً والحروب متتابعة إلى أن كان من خراب مصر بالغلاء والفتن ما كان

١٧

وكان من قبل المستنصر يترددون إلى بركة الجب .

قال المُسبحى : ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة ، سنة أربع وثمانين وثلثمائة عرض العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة ، عند سطح الجب ، فنصب مضرب ديباج رومى ، فيه ألف ثوب بصفرية فضة ونصبت له فازة مثقل وقبة مثقل بالجوهر ، وضرب لابنه الأمير أبى على منصور مضرب آخر ، وعرضت العساكر وكانت عدتها مائة ألف عسكرى ، وأقبلت أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسون ، فطيف بهم ، وكان يوماً عظيماً حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب .

ومازالت بركة الجب منتزها للخلفاء والملوك من بنى أيوب ، وكان السلطان صلاح الدين يبرز إليها للصيد ويقيم فيها الأيام ، وفعل ذلك الملوك من بعده .

وقال فى موضع آخر : قال : القاضى الفاضل ، فى حوادث شهر المحرم سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، وفيه خرج السلطان ، يعنى صلاح الدين يوسف ، إلى بركة الجب للصيد ولعب الكرة ، وعاد إلى القاهرة فى سادس يوم من خروجه . وذكر من ذلك كثيراً عن السلطان صلاح الدين ، وابنه الملك العزيز عثمان . قال : وما برح الملوك يركبون إليها لصيد الكراكى ورميها .

وقال أيضا : وقد اعتنى بها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبنى أحواشا وميداناً .

وبركة الجب وما يليها فى درك بنى صبرة ، وهم ينسبون إلى صبرة بن بطيح بن مغالة بن دعجان بن عتب بن الكليب بن أبى عمرو بن دمية بن جدس بن أريش بن اراش بن جزيلة بن لخم . فهم أحد بطون لخم . وفيهم بنو جذام بن صبرة بن بصرة بن غنم بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام أخى لخم . انتهى .

وقال أيضاً :وأدركنا هذه البركة مراحا عظيما للأغنام ، التى تعلفها التركمان حب القطن وغيره من العلف ، فتبلغ الغاية فى السمن حتى أنه يدخل بها إلى القاهرة محمولة على العجل لعظم جثتها وعجزها لثقلها عن المشى ، وكان يقال كبش بركاوى.انتهى .

وبركة الحاج الآن قرية صغيرة ، أكثر أبنيتها من اللبن ، على طبقة واحدة ، وبها جامع بمنارة مبنى بالآجر ، وفى أرضها نخيل كثيرة أحمر الثمر ، وسواقٍ معينة بعد مائها عن سطح أرض الزراعة نحو ثلاثة أمتار.

وفى شرقيها بنحو مائتى متر جبانة ، فيها ساقية عذبة الماء تسميها الأهالى ساقية شعيب ، ويزعمون أن نبى الله شعيباً ، عليه السلام ، هو الذى احتفرها لسقى غنمه ، وجميع أهل القرية يشربون منها وفى الشمال الشرقى للقرية عمارة طولها ثلاثون مترا فى عرض عشرة أمتار ، وفى وسطها حوض مربع الشكل ضلعه ثمانية أمتار وعمقه أكثر من متر ، وعليه قبة ، وفى زاوية العمارة ساقيه يملأ منها الحوض لسقى بهائم الحجاج.

وهذه العمارة بما اشتملت عليه تعرف بعمارة داود ، نسبة إلى بانيها الأمير داود باشا ، بانى جامع الداودية بالمحروسة.

وفى جنوب القرية بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، بستان يعرف بجنينة الشيخ زياد ، مساحته أربعون فداناً ، فيه كثير من الفواكه ، وهو الآن فى ملك الحضرة الفخيمة التوفيقية الخديوية.

وزمام أطيان القرية ألف وستمائة فدان ، ويزرع فيها المزروعات المعتادة بالوجه البحرى.

ترجمة سيدى إبراهيم المتبولى

وفى جامعها ضريح عليه قبة يزعمون أنه ضريح سيدى إبراهيم المتبولى ، وهو زعم مخالف لما فى طبقات الشعرانى ، من أن سيدى إبراهيم مات باسدود.

وقد ترجمه فى الطبقات فقال[1] : ومنهم سيدى إبراهيم المتبولى ، رضى الله تعالى عنه ، كان من أصحاب الدوائر الكبرى فى الولاية ، ولم يكن له شيخ إلا رسول الله ﷺ وكان يبيع الحمص المصلوق بالقرب من جامع الأمير شرف الدين بالحسينية من القاهرة المحروسة .

وكان يرى النبى ﷺ كثيرا فى المنام ، فيخبر بذلك أمه فتقول : يا ولدى إنما الرجل من يجتمع به فى اليقظة ، فلما صار يجتمع به فى اليقظة ويشاوره على أموره قالت له : الآن قد شرعت فى مقام الرجولية .

وكان مما شاوره عليه عمارة الزاوية التى ببركة الحاج ، فقال : يا إبراهيم عمر ههنا وإن شاء الله تكون مأوى للمنقطعين من الحاج وغيرهم ، وهى دافعة البلاء الآتى من الشرق عن مصر ، فمادامت عامرة فمصر عامرة .

ولما شرع / فى غرس النخل بالقرب من البركة ، لم يصح له بئر فاستأذن النبى ﷺ فى ذلك ، فدله على بئر نبى الله شعيب التى كان يسقى منها غنمه ، فأصبح فوجد العلامة مخطوطة فحفر فوجدها ، وهى البئر العظيمة بغيطه إلى الآن . ١٨

قال : وأخبرنى الشيخ جمال الدين يوسف الكردى ، رضى الله عنه ، أن الغلاء وقع أيام السلطان قايتباى ، حتى اجتمع عند الشيخ فى الزاوية نحو من خمسمائة نفس ، فكان كل يوم يعجن لهم ثلاثة أرادب ويطعمها لهم ، ولما سافر إلى القدس زار السيدة مريم ، عليها السلام ، بنت عمران ، فقرأ عندها ختمات تلك الليلة ، وكان يقرأ القرآن بالسبع . واجتمع عنده بنو حرام فى زاويته خوفا من بنى وائل ، فأرسل لبنى وائل قاصداً يأمرهم بالصلح ، فقالوا : ايش للمتبولى فى هذا ، يروح يقعد هو وصغاره فى الجبل والله لا نرجع

---

(١) الطبقات الكبرى ، للشعرانى ، مطبعة محمد على صبيح . القاهرة ، د. ت. ج٢ ، ص ٧٧

حتى نسقى خيلنا من حيضان المدينة . فقال الشيخ : وعزة ربى ما عادت تقوم لبنى وائل رأس إلى يوم القيامة ، فهم إلى الآن تحت حكم بنى حرام .

وكان رضى الله عنه مبتلى بالإنكار عليه من كونه لم يتزوج ، وكان يقول مابظهرى أولاد حتى أتزوج بقصدهم ، ومكث نحو ثمانين سنة حتى مات لم يغتسل قط من جنابة لأنه لم يحتلم قط .

قال الشيخ يوسف ، رحمة الله تعالى : ولقد كنا يوما فى حصن مسلة فرعون بالمطرية ، فجاء جماعة من الجند بجرار خمر فجلسوا يشربون ، فقال سيدى إبراهيم رضى الله عنه : من يزيل هذ المنكر ، فقال فقير : أنا ، فوضع رأسه فى طوقه فما كان أسرع من أن وقع الجند بعضهم فى بعض بالدبابيس والنعال وكسروا الجرار ، ثم جاؤا واستغفروا وتابوا على يد الشيخ .

وكان جماعة من رعاة الغنم يرعون برسيمه فى ناحية المطرية فأغلظ عليهم جماعة الشيخ ، فبينما الشيخ ، رضى الله عنه ، راكب يوما من مصر إلى البركة ومعه جماعة من الفقراء إذ أرسلوا عليه عشرة كلاب شؤام ، بأطواق الحديد يعقرون الشيخ وجماعته فلما وصلوا إلى الشيخ بصبصوا بأذنابهم ولاذوابه .

وكان رضى الله عنه يقول : لا تكبر تعظم .

وكان يقول : طهر قلبك من محبة الدنيا يجر ماء الإيمان فى قلبك جداول .

وكان رضى الله عنه يقول : لا أحب الفقير إلا إن كان له حرفة تكفه عن سؤال الناس . وكان يحط على من يسلك رياضات البونى وغيره ، ويقول : وعزة ربى إن عبادَ الأصنام أحسن حالا من هؤلاء ، فإن الله عز وجل أخبر عنهم أنهم كانوا يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] ، وهؤلاء اتخذوا أسماء الله المشرقة المعظمة

(١) سورة الزمر آية ٣ .

لحصول أغراض خسيسة من مناصب الدنيا ، لو عرضت على عاقل بلا سؤال كان من الأدب ردها ، فكيف بمن يطلبها بعصار التوجه والجوع ليلا ونهارا حتى يخف دماغه ، وبعضهم يحصل له الماليخوليا والجنون .

وكان رضى الله عنه يلبس الصوف ويتعمم به ، وكان له طليحية حمراء ، ويقول : أنا أحمدى ، وكان يعمل فى الغيط ويدير الماء وينظف القناة من الحشيش ، وكان رضى الله عنه إذا جاءه جبة أو جوخة مثمنة ، يتحزم عليها بحبل ويعزق الغيط وهو لابسها ويقول : ليس لملابس الدنيا عندنا قيمة .

وكان يعارض السلطان قايتباى فى الأمور ، حتى قال له يوما السلطان : إما أنا فى مصر أو أنت . فخرج سيدى إبراهيم رضى الله عنه متوجهاً نحو القدس . فقيل له : أين ؟ فقال : إلى موضع تقف حمارتى ، فوقفت تجاه قبر سيدى سليمان رضى الله عنه فمات هناك سنة نيف وثمانين وثمانمائة ، رضى الله عنه - انتهى .

باختصار ، ولم تزل هذه القرية محطة لمحمل الحج الشريف إذا سافر براً ، وهى أول محطة للذاهبين وآخر محطة للقادمين .

وقد تكلم صاحب كتاب « درر الفرائض المنظمة ، فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » على بعض مشتملات هذه القرية ، وعلى محطات الحاج المصرى وادراكها وما يتعلق بذلك ، نقلا عن المقريزى وغيره مع ما شاهده هو فى أسفاره . فقال : إن الذى كان عليه المتقدمون فى اليوم المعين لخروج المحمل ، من القاهرة إلى الريدانية ، ثم إلى بركة الحاج هو اليوم الثامن عشر من شهر شوال ، وبعض أمراء الحاج إذا لم يوافق سفره يوما من الأيام التى يحب ابتداء السفر فيه لعلة الأيام ، يجعل ذلك يوم التاسع عشر وهو نادر .

ومقدار المسير إلى البركة من صحراء القاهرة ، ومبدؤها الباب والخان الذى أنشأه داود باشا ، خمس ساعات .

وكان المحمل فى القديم يخرج من القاهرة بزينة ، فينزل بالمحل المعروف بالريدانية ، يقيم به يوما وليلة ثم يرحل إلى البركة ، فبطل ذلك قديما . واستمر أمير الركب من حين خروجه من القاهرة لا ينزل إلا بالبركة ، وطريقها فضاء وحصباء ورمل ، وبالبركة نخل كثير وبعض سكان وبيوت بجوار زاوية الشيخ الصالح المعتقد إبراهيم المتبولى . وبها فسقية قديمة للماء عَمّرها عظيم الدولة ، فى زمن الملك المؤيد والملك الأشرف برسباى . وهو عبد الباسط بن خليل الدمشقى ، وابتدأ فى عمارة ذلك فى شهر شوال سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، وأنشأ بجانبها بئرا وبستانا ، ثم استجد المقام العالى داود باشا تغمده الله برحمته ، بالبركة فى نيف وخمسين وتسعمائة حوضا يشتمل على محراب للصلاة ومعرفة القبلة وأواوين يجلس عليها / المسافرون للإستراحة من التعب فى ضمن عمارة عالية يراها المسافر من بعد ، وقد أحسن فى عمارة ذلك ما شاء ، حصل به نفع كبير أثابه الله تعالى .

وذكر لى صاحبنا زين الدين ، الخولى بالسواقى السلطانية ، أن أصل هذا الحوض بئر، كان اشتراها الخولى زين الدين المذكور ، وأنشأ بجانبها بئرا أخرى وحوضا كبيرا طوله ستة وسبعون ذراعا ، وجعل بجانب ذلك بستانا وسبيلا ، فمرّ داود باشا على ذلك الحوض والبئرين فى بعض منتزهاته ، فرأى قافلة وردت من السويس تستقى من الحوض ، وكان الوقت حارا فطلب ماء من السبيل فشرب منه وأعجب به ، فسأل عن مالكه فأخبر أنه للخولى زين الدين ، فطلبه منه هبة ، فذكر أنه امتنع من إعطائه ، وقال إنه وقف وأنه أذن له أن يعمر فيه ما شاء ، فأنشأ به إيواناً مستطيلا وفسقية ومحرابين وعقودا عالية واستمر منهلا للواردين والمسافرين أثابه الله تعالى .

قلت : وقد اتفق فى البستان الذى بجانب هذا الحوض المستجد الذى أنشأ فى زمن داود باشا ، نزاع كبير ، بين الخولى زين الدين وكتخدا داود باشا وهو الأمير أحمد مملوك المشار إليه ، وعتيقه المشهور بحاجى كتخدا ، فادعى الخولى أن البستان له وأنه زرعه وليس لداود باشا فيه ملك ولا وقف ، وأحضر حاجى أحمد،كتخدا الواقف،مكتوب وقفه ، وأحضر المسجل وكشف عن تاريخ ذلك منه ، ووجد للسجل نسخة عند صاحبنا

الشيخ العلامة عز الدين المجولى الشافعي، مشمولة بخط ابن شعبان قاضى إقليم المحلة والغربية سابقا، فتنازع المدعى والمدعى عليه والشاهد المذكور لدى قاضى مصر، وهو برويز چلبى، مملوك إبراهيم باشا الوزير الكبير، فركب وكشف بنفسه على المحل، ورأى الحدود وفحص عن ذلك فثبت عنده ملك داود باشا لذلك قبل وقفه له، وإنما الخولى زين الدين كان عاملا له فى الزراعة وإنشاء الشجر، وجعله ناظرا عليه فقط، فحطت رتبة زين الدين الخولى بمقتضى ذلك عند بعض الأكابر، ونسب إلى دعوى الزور وما لا يملك، وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة خمس وستين وتسعمائة.

وقال فى موضع آخر: إن الخولى زين الدين هو ابن شهاب الدين بن على، يقال إن أصله من المغرب، وكان أبوه شهاب الدين وعمه جمال الدين رئيس الخولة بالسواقى السلطانية على نمط أشباههم من الخولة، ونشأ زين الدين على فقر وفاقه وتقتير كثير، وكان مبعدا من أقاربه، فلما مات عمه جمال الدين وطعن أبوه فى السن احتاج إلى مساعدته، فساعده بهمة وعزم وحسن سيرة، مع بذل الطعام لكل وارد من عرب بنى عطية وغيرهم، فقصدته العرب وتسامعوا بحسن سيرته واشتهر ذكره، وتقرب من السلطنة وخدم الأعيان، وأكثر من الزراعة واهتم بها، واستأجر طينا سلطانيا بإقليم الجيزة وغيرها، ونما ذكره وحمدت سيرته، سيما فى ملء الفساقى التى بمنهل عجرود ومنهل بطن نخل، وترقى بواسطة خدمته لمن يكون كافل الديار المصرية وناظر أموالها، وتردد إلى صناجقها وأكابرها وهاداهم، وقوى عزمه وتعدى طور أبيه وجده فى علو الهمة والمروءة ومحاباة الناس، فصار مجالس أكابر الدولة ومن الأعيان الذين سودهم الزمان بغير برهان، ومن الذين يتطاولون فى البنيان.

قال: ولقد حكى لى أن مرتبه فى منازله فى كل يوم من الدقيق الحوارى لعمل الخبز القرصة خمسة عشر من البطط.

وقس على ذلك غيره، مع ضيق أحوال أهل مصر والقاهرة فى معايشهم، ووقوف أحوالهم وتعطل مكانهم. انتهى.

قال : وينصب بالبركة سوق كبير، فيه من الجمال والحمير والبغال ، وأنواع الملابس المعدة للسفر وما يحتاجه المسافرون من المركوب والملبوس والمأكول ، بحيث أن من أراد ابتداء السفر من البركة يتهيأ له سائر ما يحتاجه من أسباب . وينتظم بها سائر أحوال الركب والإقامة بها خمسة أيام والرحيل منها سحر يوم السادس ، إلا فى النادر لضرورة أوجبت ذلك .

قال المقريزى : وبركة الحاج اليوم أرباب أدرّاكها قوم من العرب يعرفون ببنى صبرة .

قال الشريف بن أسعد الجوالى فى كتابه « الجوهر المكنون ، فى معرفة القبائل والبطون » : بنو بطيح بطن من لخم ، وهم ولد بطيح بن مغالة بن دعجان بن عنب بن كليب بن أبى الحرث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جزيلة بن لخم ،وفخذها بنو صبرة بن بطيح ، ولهم حارة مجاورة للخطة المعروفة بكوم دينار السايس ، وصبرة فى خندف ، وفى قيس ونزار .

وأقول : إن المتعارف الآن مما توارثه الخلف عن السلف ، أن للبركة دركين فمناخ الركب ومبركه ومحل نزوله . والوطاق دركه على متولى الحرب السعيد المسمى فى الدولة التركية بالصوباشه ، ولهذا يتقدم خروجه إلى البركة يوم رحيل الخيام والفراشين ، ويسمى فى العرف بالمدورة من باب تسمية الشىء باسم صفته ، لأن المدورة صفة لموصوف ، وهى الخيمة الخاصة المسماة بالتنورة ، فيستمر للحراسة واليقظة على مناخ الركب إلى أن يبدو رحيل الركب فيحضر إلى أمير الحاج لوداعه ، وله عادة حينئذ عند نهاية خدمته ، قفطان مذهب ، فينعم عليه به ويلبسه ويودع أمير الركب بعد أن يؤكد عليه فى الوصية / بالمودعين إن كان الوقت قابلا لذلك ، ويتوجه الصوباشا إلى القاهرة ، وهذا الدرك جزئى باعتبار مبرك الحاج فقط فى هذا المحل .

وأما الدرك الكلى المشهور ، فهو على أمير عرب العائذ بالشرقية وعلى جماعته ،

وابتداؤه من أول صحراء القاهرة وخان داود باشا إلى الحمام ، وهو بجانب البحر الملح محل زينة أمير الحاج بعد نزوله من عقبة أيلة ، وإلى هنا ينتهى حدّ درك الربع الأول .

ثم لما استولت بنو عطية على الدرك وغلبوا عليه ، كثر فسادهم واشتهر عنادهم ، بعد أن كانوا عرب حمل إمرة الحاج من القاهرة إلى عقبة أيلة ، ولم يقدر أمير العائذ على دفعهم وكفهم عن الركب ، وتوالت مفاسدهم بالسرقة والخطف فى هذا الربع الأول وأعظم محل فيه . وأخبث محل فى الدرب المصرى،نقب العقبة،لضيقه واختلاف طرقه وتمكن العرب من الفساد فيه بالأذى والنهب ، فقرر معهم أمير العائذ أن يدفع إليهم مائتى

دينار يأخذها من رجال العائذ جباية فى كل سنة ، ويدفعها لهم فى نظير خفارتهم للنقب خاصة ، وحدّد ذلك من السطح إلى الحمام فوافقوه على ذلك وتسلموا منه المبلغ المذكور ، والتزموا بخفارة النقب لصعوبته وعسر سلوكه ، وتمكن المجرمين منهم فيه من الأذى للوفد ما لم يمكنهم فى غيره إلا بعسر وتيقظ ، فلما وقع الاتفاق على ذلك ومضى على ذلك برهة ، طمع العائذ فى أكثر من الحد المتفق عليه ، وادعوا أنهم إنما دفعوا المبلغ على خفارة الركب من نخل إلى الحمام ، وتنازعوا فيها بينهم واختلفوا ، فبنو عطية ينكرون دعوى أهل العائذ ويعترفون بأن أول حدهم السطح ، وأهل العائذ يقولون من نخل .

وتلاشى بهذا المقتضى أمر الضائع بين نخل والسطح ، فإن أمير الحاج من نخل يلبس أمير العائذ تشريفا ، ويعود بجماعته وخيله منها إلى القاهرة ، ويصير ما بين نخل إلى السطح بغير خفير ولا صاحب درك ، وسيأتى ذكر ذلك أيضا فى محله .

فلنرجع إلى مدة الإقامة بالبركة والرحيل منها فنقول : إن العادة المستمرة أن يقيم الركب ببركة الحاج خمسة أيام ، إلا أن يطرأ أمر ضرورى مقتضٍ لزيادة يوم فى بعض السنين لأجل الضرورة فيتأخر الركب ذلك اليوم ولا يعتمد على مثل ذلك .

ولابد لأمير الحاج أن يراعى أحوال الجمالة ويسأل عن أحوالهم واعتدالها ، وكفايتهم من العليق والجمال ، فإن فى ذلك الراحة لأمير الحاج وللجمال والرعية ، فإذا توجه يوم الثامن عشر من القاهرة يكون العادة فى رحيله من البركة أذان الفجر من

صبيحة اليوم الثالث والعشرين ، هذا هو اليوم المعهود المتعارف فى صدر من الدولة الجركسية وإلى زمننا هذا .

وينبغى لأمير الحاج أن لا يرحل من البركة ليلا ، ففى ذلك من الفساد والمضار ما لا يخفى ، فإنه قد يتسحب من الجمالة والغلمان ممن لا يكون على اعتدال للسفر ، فيكون الليل ساترا ومعينا لهم على ذلك ، فقد وقع من ذلك أن تسحب الجمّال بجماله ليلا ولم يشعر به الركاب وأصبحوا بأحمالهم بلا جمال ، فعادوا إلى القاهرة ، وقد يخشى على المودعين أيضا من التعرض لهم إذا رحل الركب ليلا وتركهم ، فإن ذلك الموضع فى أوان الحج مقصود من أهل الأذى والفساد .

وبالجملة فالرحيل من البركة ليلا غير المعتاد ، والتأخير بها إلى أن تشرق الشمس غير المعتاد أيضا ، لئلا تصير جميع الرحلات المستقبلة مسبوقة إلى مناخ عقبة أيلة ، خصوصا ما ذكرنا من سمن الجمال وثقل الحمل ، ففيه ما لا يخفى من المشقة .

وأحسن ما يفعله أمير الحاج أن يعلن بالرحيل طلوع الفجر ، ويستمر هو بالبركة إلى طلوع الشمس ليتناهى توجه الركب ورحيله على اعتدال ، فإن قصّر أحد من الجماعة عن حمله ، أو حصل لأحد من وفده ضرورة ساعده على إزالتها ، ورحل هو حينئذ .

وبركة الحج محل وداع الأحباب ، ومفارقة الأتراب ، وأخذ الدموع فى الانسكاب ، والقلوب فى الإضطراب ، وتأكيد الوصية من المحب بالتعريف عن أخبار أحبابه ضمن الكتاب .

وما ألطف قول البدر بن يوسف الذهبى :

وبمهجتى المتحملون عشيـــة   والركْب بين تلازم وعناق
وحداتهم غنت حجازا بعدما   غنت وراء الركب فى عشاق

وللشهاب أحمد بن أبى حجلة :

ولما اعتنقنا للوداع عشية   على بركة الحجاج والدمع يسكب
فرحنا وقد جزنا البويب لأنه   إلى وصل من نهواه باب مجرب

ولزين الدين بن عمر بن الحسام :

ولما اعتنقنا للوداع عشية　　وفى القلب نيران لفرط غليله
بكيت وهل يغنى البكا عند هائم　　وقد غاب عن عينيه وجه خليله

ولبعضهم :

ودعتكم فرجعت بعد وداعكم　　ندما أعض من الفراق أناملى
أما التصبر بعدكم فعدمته　　إذ بالتشوق والغرام أنا ملى

غيره :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا　　ورأيت كيف نكرر التوديعا
لعلمت أن من الدموع محدثا　　وعلمت أن من الحديث دموعا

غيره :

ولما اعتنقنا للوداع ودمعها　　على خدها يفشى الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤا رطبا ففاضت مدامعى　　عقيقا فصار الكل فى نحرها عقدا

غيره :

لا تحسبوا أنى بخلت بدمع　　يجرى دما يوم الفراق حقيقا
أنا ما بخلت وكان درا قبل ذا　　أيجوز بخلى حين صار عقيقا

غيره :

ولما بدا التوديع ممن أحبه　　ولم يبق إلا أن تزم الرواحل
بكيت وأبكيت العواذل رحمة　　وحسبك من تبكى عليه العواذل

وللصلاح الصفدى :

لما اعتنقنا لوداع النوى　　وكدت من حر النوى أحرقه
رأيت قلبى سار قدامه　　وأدمعى تجرى ولا تلحقه

وله أيضا :

ولم أنس إذ ودّعونى ضحىً　　وقد مطرتنا غيوث البكاء
وبت بحال يسر العدا　　أمامى قفاى وعينى وراء

وتلطف من قال مختارا ترك الوداع :

عاقنى عن حلاوة التشييع ما أرى من مرارة التوديع
ما يفى أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

من كان مرتحلا بقلب محبه يوما فإنك راحل بجميعى
وأنا الذى ترك الوداع تعمدا من ذا يطيق مرارة التوديع

وعكس هذا المعنى من تمنى الوداع فقال :

أرأيت من يرضى بفرقة إلفه أنا قد رضيت لنا بأن نتفرقا
حتى أفوز بقبلة فى خده عند الوداع ومثلها عند اللقا

ولبعض كتاب الغرب فى وداع من ركب البحر وتلطف :

قد قلت إذ سار السفين بهم والبين ينهب مهجتى نهبا
لو أن لى ملكا أصول به لأخذت كل سفينة غصبا

وقال علاء الدين بن سالم موقع غزة :

سارت سفينتهم بأبحر مقلتى وتتابعوا فتجمعوا ركبا
لو كنت أملك جيش فيض مدامعى لأخذت كل سفينة غصبا

ولبعضهم :

فواعجبا ممن يمد يمينه إلى إلفه عند الوداع فيسرع
ضعفت عن التوديع حين أردته فودعته بالقلب والعين تدمع

غيره :

ومودع يوم الفراق بطرفه شَرِق من العبرات ما يتكلم
متلفت نحو الحبيب بغصة لا يستطيع وداعه فيسلم

وكان رحيل الحاج من البركة سنة خمس وخمسين وتسعمائة ، وقت طلوع الشمس من يوم السبت ثالث عشر شوال ، فسار إلى القرب من البويب ، فكان مسيره إلى ما قبل الظهر بسبع وعشرين درجة ، خمسين درجة لدخول الصنجق من غير العادة ، والعادة أكثر من ذلك ، وتكامل الركب بالدار إلى الظهر .

والبويب مضيق بين جبلين صغيرين وشرفة وتل رمل مستطيل يمينا ، وله بابان هذا وباب آخر عند مناخ عقبة أيلة ، وهو بناء على قنة جبل فى أول دار حقل كأنه إشارة / ٢٢ إلى أن هذا أول المفازة من حد مصر . وكان المسير أذان الظهر إلى دار المعشى بالدار الحمراء ، وهى التى تسمى الآن الدار البيضاء ، فكان مدة سيره إلى المغرب خمسا وسبعين درجة ، وأقام بالدار إلى ما بعد العشاء بأربعين درجة وسار فمرّ على الطليحات ، وقطع المصانع ، وهى جمع مصنع،علم على ما صنع هناك ، ليكون موردا للحاج ، ولم يتم عمله .

ويشتمل على فسقية عميقة معطلة وبئر خراب ، قيل إنه لما انتهى الحفر إلى هذا الحد ، سمع من داخلها قائل يقول : أقصروا عن العمل فليس هنا ماء . وسار إلى القرب من مقرح عويبد ، وكان مدة سيره إلى ما بعد الشمس بعشر درج مائة وستين درجة ، وأقام بدار المغدى ثلاثين درجة ، وسار قبل الظهر بخمس وثلاثين درجة ، فقطع الوعر الذى تسميه العامة المقاث ومراكع موسى ، وهو أول محجر يوجد بالدرب المصرى ، ويقال إن هناك عمودا مكتوبا عليه الداخل لهذه البرية مفقود والخارج منها مولود . واستمر فى سيره إلى أن كان وصول الصنجق إلى عجرود قبل المغرب بثمان درج ، وكان مدة سيره مائة وخمس درج . انتهى . وانظر بقية الكلام على محطات الحج فى عجرود .

مطلب الكلام على تجهيز المحمل الشريف المصرى وخروجه إلى أن يعود وكيفية تشغيل الكسوة الشريفة وما يتعلق بها

وقد رأينا أن نورد هنا طرفا مما يتعلق بمحمل الحج الشريف المصرى على ما هو

عليه الآن ، من تهيئة لوازمه وخروجه من المحروسة إلى أن يعود إليها ، حسبما وصفه كاتب الصرة الشيخ أحمد الفقيه العرقان ، الملازم لذلك كل سنة ، منذ أربع عشرة سنة إلى الآن .

قال : إن أعظم ما يشتمل عليه موكب الحج الشريف المصرى هو كسوة الكعبة شرفها الله تعالى ، بما تشتمل عليه من كسوة مقام الخليل عليه السلام ، وستارة باب التوبة ،وبيارق الكعبة والمنبر .

وإرسال ذلك من مصر كل سنة عادة مستمرة بها ، وأول من أحدثها شجرة الدر .

فتنسج الكسوة بالقاهرة المحروسة فى ورشة التشغيل بجهة الخرنفش ، والذى هى عليه الآن أن يختار أولا نوع الحرير اللازم لها بمعرفة أهل الخبرة ، ثم تقع المزايدة عليه بين تجاره فى ديوان المحافظة ، فمن يرسو عليه المزاد يؤخذ منه القدر الكافى وهو سبعمائة أقة ، فيسلم للفتالة فيفتلونه ، ثم يسلم للصباغين فيصبغ بالنيلة بلون إسكندرانى كامل ، ثم يسلم للمزاك فيمزك ، أى يصلح مما حصل به من أثر الشيل والحط ونحوه ، ثم يلف عند اللفاف لفائف ، لفائف ثم يصير لقيه ، أى تسديته بطرف الملقى ، ثم يسلم فى ورشة التشغيل لأسطاوات النوالة،وهم عشرون ، فينسجونه على أربعة أنوال لأجل أخذ الكشاوير اللازمة بالجبذ ، على حسب رسم الكتابة التى يراد نقشها عليها ، ثم يؤخذ ما يلزم تخييشه بالقصب الأبيض والأصفر على الرسم المصنوع بالنول ، فيصير تخييشه على المناسج وذلك أربع قطع هى أحزمة الكعبة الشريفة ، وأربع لمقام الخليل ، وقطعة هى البرقع وبيارق المنبر ، ومقدار ما يكفى ذلك من المخيش يختلف من خمسة وعشرين ألف مثقال إلى ثلاثين من التلى الجيد ، ومقدار مصاريف الكسوة جميعها بما فيها من ثمن الحرير والتلى ، وأجرة الشغالة من أول العمل إلى آخره خمسة آلاف جنيه مصرى وخمسمائة جنيه .

وابتداء تشغيلها كل سنة من أول ربيع الآخر إلى شهر رمضان ، وبعد انتهائها

تؤخذ كسوة المقام إلى ديوان المحافظة بموكب ، فتحمل على أعناق الرجال ويكون أمامها التهليل والتكبير ودلائل الخيرات ونحوها إلى الديوان ، ويحرر من ديوان المحافظة إعلانات إلى العلماء والأكابر ومشايخ السجادات والأشائر للحضور ليلا ، ويكون فى تلك الليلة وليمة حافلة مكلفة من طرف الميرى ، وتستمر تلاوة القرآن والأذكار إلى قرب الفجر . وفى صبح تلك الليلة تحمل إلى ميدان محمد على بقرهميدان ، ثم ينعقد موكب من العساكر الجهادية وأرباب الأشائر وجميع أرباب التشغيل لابسين الأكراك ، ويحمل مأمور التشغيل كيس مفتاح البيت الحرام ، وبعد تمام تنظيم الموكب بمعرفة المحافظ ووكيله وصاحب الشرطة ، يسيرون مع المحمل وجميع الكسوات التى صار تشغيلها ، بعضها على أخشاب فوق أعناق الرجال ، وبعضها على الحيوانات ، والمحمل على الجمال المعدة لحمله ، إلى أن يوصلوه إلى مشهد سيدنا الحسين رضى الله عنه ، فيدخلون جميع ذلك الحرم الحسينى ، ثم يوجه المحمل إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية ، وتبقى الكسوة فى الحرم الحسينى ، وهناك تركب أشرطة القطن البيضاء على الكسوة والبراقع ويستغرق ذلك نحو عشرة أيام .

خروج موكب الحاج المصرى وما يشتمل عليه

ثم فى يوم واحد وعشرين من شهر شوّال يعقد موكب أعظم من الأول ، ويؤخذ المحمل بعد العصر من وكالة ذى الفقار بكسوته البفتة إلى ميدان محمد على ، والكسوة المعدة للموكب عليها تكون خلفه من صناديق ، فيبيت هناك تلك الليلة مع كافة خدمة الصرة ، ويقال لهم عيط الصرة ، كالسقائين والفراشين والعكامة . ويبيت هناك أمير الحاج أيضا وخلق كثيرون ، ويكون فى تلك الليلة حظ وافر من السرور .

وفى صبح اليوم الثانى والعشرين من شوال ينعقد الموكب الأكبر الحافل ، المتشكل من العساكر الجهادية / المشاة والخيالة بأحسن هيآتهم ، ومن الأمراء والأعيان وسائر أرباب ٢٣

السجادات والأشائر، وحضرة القاضى أفندى، وحضرة نقيب الأشراف، بمكاتيب تحرر لهم فى هذا الشأن من طرف المحافظة، ويحضر فى الميدان حيئنذ ناظر ديوان الداخلية فيكونون بالقرب من مسطبة الحج التى هناك، ثم يلف المحمل ثلاث لفات فى كل لفة يمر به أمام حضراتهم السعيدة، ثم إن ناظر الداخلية يسلم المحمل بيده الكريمة ليد حضرة القاضى، ثم يسلمه القاضى إلى أمير الحاج كل ذلك بحضرة الأمراء، ثم تطلق المدافع حينئذ إيذانا بابتداء سير المحمل، ثم يبتدأ فى السير على ترتيب عجيب فيمشى أولا العساكر المشاة بهيئة مشية التعليم، ثم العساكر الخيالة والكل متسلحون، ثم أرباب الأشائر، ثم جملة من الأمراء والعساكر، ثم المحمل إلى أن يصلوا إلى الحصوة، المسماة اليوم بالعباسية، خارج باب النصر، فتضرب هناك المدافع المعتادة ويحط المحمل هناك.

وفى اليوم الرابع والعشرين من شوّال، يتوجه أمير الحاج وأمين الصرة، وأحد المعاونين بديوان المالية، وحضرة نائب القاضى إلى المشهد الحسينى، فتحزم كسوة الكعبة الشريفة بحضورهم، وتكتب الوثيقة على كل من المحاملى، وأمير الحاج، وأمين الصرة باستلامها، ثم تحمل على الجمال بعد وضعها فى الصناديق اللازمة لها ويتوجهون بها إلى الحصوة، ومن حينئذ يستقل أمير الحاج ومن معه من المستخدمين بالأمر كل على حسب رتبته.

مطلب ما يلزم ترتيبه فى خروج الحج المصرى من المحروسة

ولنبين لك ما يلزم ترتيبه فى خروج الحج المصرى من المحروسة إلى عوده ثانيا، من محافظين ومستخدمين وإبل وخيام، وأزواد وغير ذلك.

أمير الحاج يكون برتبة أميرالاى، يعين بأمر حاكم مصر من سر سوارى

الموجودين بمصر ، ويرتب له كل شهر فى مدة سفره خمسون جنيهاً مصريا ، غير مائتى جنيه مصرى يعطاها إنعاما من الحضرة الخديوية قبل سفره ، ويرتب له ثلاثون جملا بعليقها غير عليق خيله التى من طرفه ، ويجعل معه من العساكر الباشبزوك مائتان ، وعليهم وكيل مرتبه كل شهر ألف قرش ومائتان ، وعلى كل خمسة وعشرين منهم بلوك باشا واحد بمرتب أربعمائة قرش كل شهر ، وعلى كل أربعة بلوكات بيكباشى واحد بمرتب ثمانمائة قرش كل شهر ، ومرتب العسكرى مائة وخمسة وعشرون قرشاً وتعيين عسكرى ، ولكل عسكرى حصان من طرف نفسه وجمل من طرف الميرى ، وقربة وعليق حصانه وجمله . وأجرة الجمل الواحدة ذهابا وإيابا ستة جنيهات مصرية ، وذلك غير اثنين وعشرين عسكريا من العساكر الطوبجية ، عليهم ضابط صف برتبة ملازم أول ومعهم مدفعان أحدهما جبلى والآخر برى ، ولهم اثنان وثلاثون جملا مرتبة لحمل الجبخانة ، والمدفع الجبلى ، والأحمال اللازمة لهم ، وعليق الستة بغال المستصحبة المعدة لجر المدافع عند الاقتضاء ، وحمل الخمسة وعشرين قربة ماء اللازمة لهم .

وتعيين هذا الصنف من الطوبجية يكون بأمر ناظر الجهادية بعد مخابرة المالية للجهادية ، وتعيينهم كتعيين الجهادية وحركتهم تحت إدارة أمير الحاج وأمين الصرة .

وأمين الصرة تارة يرتب من المستخدمين اللائقين لذلك برتبته الأصلية ، وتارة يرتب ممن يقدمون للأعتاب العالية فى طلب هذه الوظيفة ، ومرتبه كل شهر فى مدة سفره خمسة وعشرون جنيها ، ويعطى خمسة وسبعين جنيها إنعاما من الحضرة الخديوية قبل سفره ، وله أحد عشر جملا لحمل أثقاله وتعيين أحد عشر عسكريا .

والوظيفة المنوطة به فى حال السفر ، التكلّم فى صرف مرتبات العرب المعترضين فى الطريق ، والمجاورين بمكة المشرفة والمدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وصرف أثمان ما يلزم شراؤه لمؤنة العساكر ، والجمال والبغال ، من الحشيش ونحوه .

فالصيرفى يتولى صرف ذلك بأمره المشتمل على ختمه ، وذلك بعد ختم الأذن من أمير الحاج .

وأما العلائق فتؤخذ من كل قلعة بمر عليها المحمل كالسويس ، ونخل ، والعقبة ، والمويلح ، والوجه ، وينبع ، ورابغ ، ومن مكة والمدينة ، ففى جميع تلك المحطات غلال مخزونة ترسل سنويا من مصر لهذا العرض .

وتحت إدارة أمين الصرة جميع كتبة الصرة من كاتب أول وكاتب ثان ، وهما مرتبان بمعرفة ديوان المالية ، ومرتبهما معا سبعة جنيهات مصرية ، ولهما تعيين أربعة عشر عسكريا ما عدا اللحم فيصرف لهما ثمنه ، ستمائة وأربعة وتسعون قرشا ، مدة السفر ذهابا وإياباً ، ولهما من الجمال ما يكفى لحمل أثقالهما ، ويخلع على كل منهما كبود جوخ ، وشال كشمير وقفطان قطنى ، وبنش جوخ ، وعمامة شاش ، وتحت يدهما كتبة معاونون على قدر اللزوم .

ومرتب الصراف ألف ومائتان وخمسون قرشا ذهابا وإيابا مرة واحدة ، غير ثمن اللحم ، والحطب وهو أربعمائة وستون قرشاً ، وله تعيين أربعة عساكر ، وله أربعة جمال لحمل أثقاله ، وخلعة مثل خلع الكتبة . وهو الذى يستلم نقود الصرة من خزينة الروزنامة من بعد إحضار الضمانة القوية اللازمة المصدق عليها / بالإعتماد من شيخ الصيارف ٢٤ بالمحروسة ، ويكون استلامه الصرة بحضور أمير الحاج ، وأمين الصرة ، وروزنامجى بيك ، ووكيل الروزنامة ، وكاتب الصرة ، ونائب القاضى .

ثم تكتب وثيقة الاستلام على أمير الحاج وأمين الصرة ، وكاتبها وصرافها جميعا من بعد عدها ونقدها ، وهى أربعون ألف كيسة أو أكثر .

وأمناء الكساوى اثنان ، تحت أيديهما خلع العرب وخلع لبعض أهل مكة والمدينة ، من كبابيد جوخ وبنشات جوخ وأكراك ونحو ذلك ، وقيمة الجميع تسعون ألف قرش .

ومقدم العكامة بعهدته الحلوى المرتبة للعرب وأهل مكة والمدينة ، من سكر خام وسكر أبيض ، وسكر نبات ، وشربات وحلاوة وملبس ، وكذلك الشمع الإسكندرانى ، وقيمة جميع ذلك نحو عشرون ألف قرش .

وفى عهدته أيضا الجمال اللازمة لحمل الخيام والنقود وأثقال المستخدمين ونحو ذلك ، وهى مائة وخمسة وستون جملا ، وتحت يده أربعة عشر رجلا ، لتحميل كسوة الكعبة والخزينة والحلاويات والخلع ومهمات الكتبة والصراف ، وأمين الصرة والطوبجية .

والخيام اللازمة للمستخدمين والصرة ثمانون ، مابين سحابة وقبة مماليكى وذات يطق ، جميعها من طرف الحكومة وبعضها يختص بأمير الحاج ، ويكون فى عهدة فراشين من طرفه ، وباقيها فى عهدة فراشين من طرف الحكومة .

والضوّية المنوط بهم المشاعل ، اللازمة للتنوير فى السير ليلا ، تسعة عشر رجلا ، مرتبهم جميعا ذهابا وإيابا ألف ومائتان قرش ، غير التعيين وعليق الحمير .

والمرتب من السقائين لسقاية الحاج عشرة رجال ، بمرتب ثمانمائة قرش لجميعهم ذهابا وإيابا غير التعيين .

والبيرقدارية اثنان ، أحدهما يحمل البيرق الكبير ، والآخر يحمل الصغير .

ويتعين بمعرفة مجلس الصحة حكيم برتبة يوزباشا ، وأجزئى برتبة ملازم أول ، وتمرجى برتبة باباشجاويش ، ومعهم الأدوية اللازمة للحجاج ذهابا وإيابا فى صناديق وأوعية ، وبرفقتهم ثلاث محفات لركوب المرضى .

ويرتب رجلان لسوق المتأخر من الحجاج ، بماهية ستة وستين قرشا كل شهر غير التعيين ، ولهما جمل واحد بعليقة ، وكذا نجار واحد بدون مرتب إلا عليق حماره .

ومبلغ عرفات له التعيين فقط .

ويرتب بيطار بدون مرتب ، ولا تعيين ، لتطبيق بغال المدافع بحديد ومسامير من طرف الصرة .

ومن العادة قديما أن يركب خلف المحمل رجل يسمى شيخ الجمل ، يركب خلف

البيرقدار الكبير ، وله بالروزنامة كل شهر تسعون قرشا ، ويركب خلفه رجل يسمى أبا القطط له ، بالروزنامة كل شهر ثمانون قرشا ، ولكل منهما تعيين رجلين .

وأما المحاملى فهو رجل تحت إدارته أربعة رجال طبالين وزمارين .

فجميع خدمة الصرة الذين يصرف لهم التعيينات مائة رجل وسبعة ، ومقدار ما يصرف من العلائق والمرتبات والتعيينات خمسة آلاف أردب فول وشعير ، ومائة ألف أقة بقسماط ، ثلاثون ألف أقة أرز ، أربعون ألف أقة عدس ، ثلاثون ألف أقة دقيق ، خمسة عشر ألف أقة سمن ، مائتا أقة لحم تشترى لعساكر الطوبجية ، ألف ومائتا أقة حطب تشترى أيضا ، خمسون أقة ملح .

ثم إن ترتيب السقائين والضوّية ، والعكامة والفراشين ، والسوّاقين يكون بمعرفة الروزنامة ، وترتيب البيرقدار الصغير وأمين الكساوى ، والبيطار والصراف ، يكون بأمر المالية .

وأما البيرقدار الكبير وشيخ الجمل ، وأبو القطط والمحاملى ، فتارة تكون وظائفهم موروثة عن آبائهم ، وتارة بمعرفة الروزنامة

مطلب محطات الحجاج
[بركة الحاج]

وبعد أن يحط المحمل بالحصوة بقدر ما يهيىء الحجاج لوازمهم ، يرتحل إلى بركة الحاج ، فهى المحطة الأولى فيقيم نحو يومين ، وهناك يحصل ترتيب كل ذى وظيفة فى وظيفته ، فينبه على العساكر بأن يكونوا خارج الحاج دائرين حوله ، للمحافظة عليه ذهابا وإيابا بعمل القراقولات اللازمة ، ويرتب بلوك أمام المدافع يقال له دويدار ، وبلوك

لخفارة الخزينة ، وبلوك عن يمين الحاج وآخر عن يساره ، وبلوك مع البيرق ، وبلوك خلف الحاج يقال له القشاش لحفظ من ينقطع عن الركب .

وهناك أيضا يصير كتب الحاج ببيان بلده ، وما معه من الإبل والأتباع ، وينبه عليهم بما يصير ترتيبه ، وقبل القيام من البركة ينادى بأن التحميل يكون فى كل محطة فى الساعة السابعة من النهار ، والمسير يكون فى الساعة الثامنة ، وأن كل من تأخر عما جرى به التنبيه يستحق ما يجرى عليه ، وعند التحميل يضرب مدفع وعند المسير كذلك فى كل محطة .

ومسير الحاج يكون على الترتيب ، فيقدم بلوك العساكر ثم المدافع ، وجمال الطوبجية والجبخانة ، ثم طائفة الفراشين ، ثم أمير الحاج ، ثم أورطة من العسكر ، ثم أمين الصرة ثم الكتبة ، ثم المحمل ثم أعيان الحجاج ، ثم الفلاحون والرعاع ، ثم جمال الماء ، ثم باقى العساكر .

[الدار البيضاء]

وفى ليلة الرحيل من البركة يعمل بها شنك عظيم ، ثم يرتحل صباحا إل الدار البيضاء وهى المحطة الثانية ، واقعة شرقى جبل الجيوشى ، وكانت تسمى الدار الحمراء ، فأجرى فيها المرحوم عباس باشا إصلاحات وسماها الدار البيضاء والدار الخضرا ، وليس بها أشجار ولا ماء ، وينبت عندها قليل من الحشيش يسمى عند العرب / الدرهم ترعاه ٢٥ الجمال ، وفى شمالها الغربى قصر المرحوم عباس باشا . ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة غير الإستراحة ، قبل الغروب بنصف ساعة وبعده بساعة ، والطريق إليها سهلة بلا خوف ولا وعر ، فيقيم بها سبع ساعات ، وهناك يفرق العليق على البهائم ، وفى آخر الساعة السابعة يضرب مدفع التحميل ، وفى الساعة الثامنة يضرب مدفع المسير فيسير مشرقا إلى بندر السويس ، ويستريح عند الغروب ، كما مر ، فيصل إلى بئر خارج بندر

السويس فى مسافة أربع عشرة ساعة غير الإستراحة ، وهى بئر قديمة كانت مستعملة ثم تركت الآن لوجود الترعة الحلوة هناك .

وعندها يصير تنظيم موكب مع إلباس المحمل كسوته المقصب ، ويحضر محافظ البندر بالعساكر والأشائر ، ويستمر الموكب إلى أن يحط خلف كوبرى الترعة الحلوة فى جنوبيها الشرقى فيقيم هناك ليلتين ، وفى صبح ثالث يوم يسير إلى محطة الناطور ، ويمر فوق كوبرى الترعة الملحة ، وتمر الجمال جملاً جملاً ، ثم يسير فى رمال تارة وغير رمال تارة أخرى ، حتى يصل إلى محل يقال له علوة المنصرف ، وهى أرض ذات رمال دقيقة بيضاء نقية وليس بها أشجار ولا طير ، فيبيت بها .

ومدة المسير إليها تسع ساعات ، ثم منها إلى جنادل حسن فى إحدى عشر ساعة ، فى طريق بعضها بين رمال نحو ثلاث ساعات ، وبعضها عقبة ذات صعود وهبوط نحو ساعتين ، ثم يسير فى أرض حجرية إلى جنادل حسن ، وهى أرض سهلة ذات رمل فيبيت بها .

محطة نخل

ثم يسير صباحا إلى بندر نخل ، فى طريق سهلة ذات أشجار من العبل ، فيصل إليها بعد سير اثنتى عشرة ساعة .

ونخل بكسر النون والخاء ، من المحطات القديمة للحاج ، وهى قرية صغيرة أبنيتها طبقة واحدة من الطوب ، ليس فيها مساجد وفيها ضريح عليه قبة للشيخ النخلاوى وبجواره جبانة .

وفى بحرى القرية قلعة حصينة مبنية بحجر الآلة ، ولها أبواب من حديد وبها مدافع وعساكر طوبجية وبيادة ، وناظر ووكيل ، وبها مخازن لتعيينات الحاج فيها من كل

الأصناف ، وبها مسكن للمستخدمين وبها سوق دائم يباع فيه الأقمشة والحبوب المجلوبة من بندر السويس ، وفواكه تجلب من ناحية غزة ،ويوجد بها البطيخ والجبن والسمن والغنم وغير ذلك .

والأثمان بها مرتفعة عن أثمان المحروسة بنحو الثلث ، وملبوس أهل تلك الجهة الثياب البيض ، وأحرمة الصوف والكوفيات ، والعباآت الشامية ، وقلانس الصوف . وملبوس النساء قريب من ملبوس نساء مصر .

فيقيم بها ليلتين لأخذ العليق والمياه من بئر القلعة التى هى عبارة عن ساقية ، تديرها أربعة أثوار معدة من طرف الميرى ، فتملأ ثلاثة أحواض كل حوض يسع ألفى قربة .

[محطة القريص]

ثم يسير إلى أن يصل إلى محطة القريص ، بضم القاف ، وشد الراء المفتوحة ، وسكون المثناة التحتية فصاد مهملة ، وتعرف عند الحاج بمحطة بئر أم عباس ، نسبة لوالدة المرحوم عباس باشا ، لإجرائها بعض إصلاحات فى بئرها .

وهى بئر متسعة مبنية بالآجر والحجر ، وبعد مائها عن سطح الأرض أكثر من سبعة أمتار ، وعمق الماء فوق منبعه نحو ستة أمتار ، وهو ماء عطن لا يصلح إلا لشرب الإبل ونحوها ، وبجوارها حياض واسعة مخفقة لكنها فى الغالب فارغة من الماء لعدم ملؤها ، وليس هناك بيع ولا شراء ولا عرب .

ومن نخل إليها مسيرة اثنتى عشرة ساعة فى طريق بين جبلين ، بها شجر العبل . وكانت المحطة فى السابق فى محل بقرب القريص يقال له وادى الفيحا ، كما فى الدرر المنظمة .

ثم يرتحل من القريص صباحا فيصل بعد سبع ساعات إلى مقطع يقال له قطع ابن واظ ، صعب المسلك جدا تنزل منه الجمال جملا جملا لضيقه .

وبعد تجاوزه تضرب المدافع ، وتلعب العرب على الخيول ، ويكون موكب عظيم إلى أن يصلوا إلى محطة العقبة .

محطة العقبة

وهى قرية صغيرة خفيفة البناء تشبه منازلها عشش معروف التى بالمحروسة ، وبها نخيل وبساتين ، وفيها سوق يباع فيه البلح والرمان ، والتين والزبيب ، والسمن واللحم ، والملح والبصل والنبق وحشائش الجبل ، ونحو ذلك مما تأتى به العرب ، ويأتى إليها من ناحية غزة الفواكه الناشفة .

وفيها قلعة بها عساكر طوبجية ، وبيادة ومدافع ، ومخازن لتعيينات الحاج ومساكن للمستخدمين ، وعندها حفائر على شاطىء بحر القلزم ينبع منها ماء عذب ، بعد حفر نحو ذراع ، يزرع عليها بعض خضر ويسقى منها البساتين .

وفى القلعة بئر عذبة الماء فيبيت الحاج بها .

ويصرف هناك للعرب أصحاب الدرك مرتباتهم ، من نقود وخلع وحلويات ، على حسب العادة المقررة فى الدفاتر . وهؤلاء العرب من قبيلة تسمى العلويين ، ودركهم يمتد من سطح العقبة إلى قصر العدوية ، بعد العقبة بنحو ساعة ، فيبيت الحاج بها ويمكث إلى الساعة العاشرة من النهار ، ثم يرتحل فى أولها .

محطة ظهر الحمار

فيصل إلى محطة ظهر الحمار فى الساعة السادسة من الليل ، ويكون مسيره فى

طريق على شاطىء البحر ، وقبل وصولها بمقدار مسير ساعة يكون المسير فى مضيق بين جبلين على البحر أيضاً ، فتمر الجمال جملاً جملاً حتى يصل إلى محطة ظهر الحمار . وهى من المحطات القديمة /، كما فى كتاب الدرر المنظمة ، وهى قرية صغيرة على شاطىء البحر فى أرض رملية بها نخيل ، ويكون فيها سوق يباع فيه اللبن والحشيش ، وتمر تأخذه الحجاج من العقبة للبيع . ٢٦

وبالقرب من الشاطىء تنبع مياه بالحفر قليلا يشرب منها الناس والبهائم ، وهناك أيضا يصرف المرتبات لعرب الدرك ، ويقال لهم العصابين والعمران ، ويمتد دركهم إلى مغاير شعيب .

[محطة الشرفاء]

وفى الساعة الخامسة من النهار يرتحل من ظهر الحمار إلى محطة يقال لها الشرفاء وأم العظام ، من ظهر الحمار إليها مسير أربع عشرة ساعة ، غير زمن الإستراحة ، كما مر ، والطريق إليها واضحة بآثار المارين لكنها غير مستوية ، فإنه بعد المسير من ظهر الحمار بربع ساعة يصادفه عقبة تسمى العلوة ، فيصعد عليها ويسير فى سطحها نحو ساعة ونصف ، ثم يهبط فى منخفض حتى يصل إلى طريق بين جبلين تشبه الخليج ، فيصل فى الساعة السابعة من الليل إلى محل يقال عش غراب ، ثم يصعد فى مرتفع حتى يصل إلى محل يقال له الشهداء ، باسم أصحاب قبور يقال أنهم من الشهداء ، فيسير به نحو ربع ساعة فى أرض سهله ، ثم يهبط حتى يصل إلى المحطة ، وهى محل بين جبال يباع فيه الغنم واللبن ، والتمر والحشيش ، والعسل النحل، فى بعض السنين .

والأرض هناك صلبة لا تدق بها الأوتاد إلا بصعوبة ، وليس بها ماء ، والارتحال منها يكون فى الساعة التاسعة من النهار ، فيسير فى طريق بين جبال معوجة إلى الساعة التاسعة من الليل ، فيستريح هناك إلى طلوع ضوء النهار ، ليتأتى الوصول إلى محطة مغاير شعيب ، فيحط بها صباحاً ، فمدة المسير إليها اثنتا عشر ساعة .

محطة مغاير شعيب

وهى محل به نخيل جيد ومياه عذبة ، وأرضه خصبة ، يزرع فيها فى بعض السنين القمح والشعير والذرة والباذنجان والقرع ، ويباع هناك الحشيش والأغنام واللبن ، والفواكه المجلوبة فى بعض السنين من وادى مدين ، وهو قريب منها بنحو ساعتين ، وعلى القرب منها على شاطىء البحر شجر الفاكهة كالتين والعنب والليمون .

محطة عيون القصب

وفى الساعة السابعة من النهار يؤذن بالرحيل ، فيسير فى الساعة الثامنة إلى عيون القصب ، فيصل إليها بعد سير أربع عشرة ساعة ، غير الإستراحة فى طريق سهلة بها قليل من شجر العبل والسنط ، وشجر المقل القصير .

وهى على شاطىء البحر الأحمر ، وبها نخيل كثير وسمار الحصر ، ويزرع فى أرضها الشعير والدخن ، وعندها نهر جار يصب فى البحر يأخذ منه الحاج الماء .

ثم يرتحل فى الساعة التاسعة من النهار ، فتصادفه عقبة يصعد فيها نحو خمس دقائق ، وبعد ساعة يكون المسير على شاطىء البحر بأرض ذات رمل إلى الساعة الثامنة من الليل ، فينزل فى منخفض يتوصل منه إلى المويلح ، وقبل الوصول إلى المويلح يعقد موكب مثل ما فعل فى دخول العقبة ، حتى يصل إلى محطة المويلح .

محطة المويلح

وهى بلد بها قلعة حصينة ونخيل ، وآبار عذبة ، ويزرع فى أرضها الدخان المشروب ، والبطيخ ، والقثاء ويباع بها السمك والتمر ، والدقيق ، والبقسماط ، والفول وغير ذلك .

وتعاملهم بالنقود مثل تعامل المحروسة ، ومنازلهم زرابى من الجريد بداخلها حواصل مبنية من الطين والطوب ، وبجوار القلعة منازل قليلة مبنية من الحجر والطين الرملى .

[محطة سلمى]

وفى الساعة الثامنة من النهار يرتحل من المويلح إلى محطة سلمى ، منها إليها مسير اثنتى عشرة ساعة ، ويقال لها محطة ضباء ومحطة آبار السلطان .

وقبل الوصول إليها بنحو ساعتين يقابله ممر ضيق يقال له شق العجوزة ، تمر منه الجمال واحدا بعد واحد ، حتى يصل إلى المحطة وهى على شاطىء البحر الأحمر ، بها شجر الدوم ، وعندها برج صغير به عساكر محافظة ، وترسو عندها مراكب لشحن نحو الحطب والفحم إلى السويس ، وبها آبار صالحة للشرب ، ويبيع عندها العرب على الحاج نحو اللبن والتمر والسمن ، ويمكث فيها إلى الساعة السابعة .

[محطة الأزلم]

وفى الساعة الثامنة من النهار يرتحل إلى الأزلم وبينهما مسيرة اثنتى عشرة ساعة أيضا ، وبعض طريقها رمل وبعضها زلط وسباخ .

وبتلك المحطة قلعة خربة وآبار غير صالحة للشرب ، ويباع عندها الحشيش والسمن ، وغير ذلك مما تجلبه لعرب .

[محطة اصطبل عنتر]

وفى الساعة الثامنة من النهار يقوم إلى محطة اصطبل عنتر ، ومسافتها كالتى قبلها ، وبها آبار لا تصلح إلا لشرب البهائم .

محطة الوجه

ثم يقوم فى الميعاد المتقدم إلى محطة الوجه ، والمسافة كالتى قبلها وكذا الطريق ، ولا يعمل هناك موكب لدخولها ، وبها قلعة وآبار ، ونخيل قليل وشجر النبق ، ويباع فيها السمك والخضر والسمن واللحم وغير ذلك ، وبها تصرف مرتبات عرب الدرك وهم من قبيلة بلىّ ، ويؤخذ منها الماء الكافى لمسير ثلاث محطات .

[محطة أكرة]

وفى الساعة الخامسة يسير من الوجه إلى محطة أكرة ، ويقال لها عكرة ، والمسافة بينها ست عشرة ساعة أو خمس عشرة ، غير زمن الإستراحة ، وبها شجر العبل وليس بها ماء ، وتبيع فيها العرب على الحجاج مثل ما مر فى الإصطبل .

[محطة الحنك]

ثم يسير فى الساعة الثامنة إلى محطة الحنك ، مسافتها اثنتا عشرة ساعة وليس بهذه المحطة ماء ، وبها يبيع العرب بعض المأكولات .

[محطة الحورة]

٢٧ ومنها إلى محطة الحورة ، وفى بعض طريقها أشجار سنط وفى / بعضها مضيق يسمى العبة الزرقاء ، ينزل منها الجمال واحدا واحدا ، ويوقد فى المرور بها مهتابات زيادة على المشاعيل التى توقد كل ليلة ويزاد فى المحافظات على الحاج من كل جهة خوف العرب ، وبعدها أرض رملية ، ثم يصعد فى علية توصل إلى محطة الحورة والمسافة إليها ثلاث عشرة ساعة ، وهى محل به نخيل وماء وبيع وشراء .

[محطة مبط]

ثم يقوم فى الساعة الرابعة نهاراً فيصل إلى محطة مبط فى الساعة العاشرة من الليل ، وفى أثناء طريقها محل يقال له صحن مرمر ، والعقبة وركاكة الحمير . وفى مبط ماء عذب وبعض حشائش وتكتنفها الجبال . ويقوم منها الحاج فى الساعة العاشرة من النهار إلى محطة الخضيرة .

[محطة الخضيرة]

وتسمى ورى النار لإيقاد الحطب فيها لكثرة أشجار السنط بها ، وهى بين جبلين ، ويقال إن بهما معدن النحاس وليس بها ماء ، والمسافة إليها مسيرة عشر ساعات .

[محطة الينبع]

ويقوم منها كذلك إلى الينبع والمسافة مثل ذلك ، وقبل الوصول إلى الينبع يأخذ الحاج استراحة حتى ينبلج الفجر ، فيشرع فى تنظيم الموكب ، ويلبس المحمل كسوته ويخرج محافظ الينبع وأمراؤه والأشراف والعرب إليم ملاقاتهم ، ويدخلون بالتهليل فى موكب حافل إلى أن يصلوا المحطة ، وهناك يجلس أمير الحاج وأمين الصرة مع محافظ الينبع ووكيله وأشراف البلد ، ويمدّ لهم أمير الحاج سماطا ، ويسقيهم السكر والقهوة ، ثم تصرف المرتبات للعرب وأشراف جهينة . ويخلع على المحافظ وأمين الشونة وكاتبها ، ويصرف العليق اللازم للجمال وغيرها ، ويبيت بها ليلة واحدة مع المحافظة على الحاج من طرف محافظ ينبع .

والينبع بندر شهير فى شرقى المالح ، ليس بها نخيل ولا أشجار ولا آبار عذبة ، وإنما فيها صهاريج تملأ من ماء المطر ، يأخذ منها الحاج بالثمن من أربابها ، وفيها قلعة عظيمة تتبع الدولة العلية بها مدافع .

وفى القلعة صهريج . وهى مرسى عظيم للمراكب البخارية وغيرها ، وفيها سوق دائم يباع فيه ما يجلبه العرب من نحو العسل والسمن والبطيخ وغير ذلك ، وتأتى إليها البضائع من جهة جدّة والسويس والقصير ، فيوجد بها كثير من بضائع المدن .

[محطة السقيفة]

ثم يقوم فى الساعة الرابعة من النهار إلى محطة السقيفة ، والمسافة بينهما مسيرة ثمان عشرة ساعلا فى طريق سهل ، فيدخلها صباحا ويقيم بها خمس ساعات ، وتصرف فيها الكساوى والمرتبات لعرب الدرك ، وهم عرب الحوازم وعرب ذوى ظاهرة ، وعرب الجديدة ، وعرب صبح ، وأشراف بدر ، وليس بهذه المحطة ماء .

[محطة الإفازة]

ثم يقوم إلى محطة الإفازة فيقيم بها خمس ساعات أيضاً على غير ماء .

محطة رابغ

ثم يقوم إلى محطة رابغ ، وبينهما مسيرة أربع عشرة ساعة فى طريق سهلة ذات أشجار سنط وفى جبالها حشيش ترعاه الإبل ، وبقربها عرب أشقياء يخشى من أذاهم ، فلذا يأخذ الحاج إستراحة آخر الليل حتى يطلع الفجر ، فيدخل رابغا صباحاً بدون موكب ، وهى قرية صغيرة عامرة بها سوق .

وفى هذه المحطة قلعة حصينة تبع الدولة العلية أيضاً ، وهى واقعة فى شرقى البحر الأحمر بنحو ست ساعات ، وعلى ساحلها ترسو المراكب والوابورات ، فتجلب لها من البضائع مثل ما تجلب لينبع ، ويزرع فى أرضها بعض الحبوب والخضر .

وهذا الموضع هو ميقات الحاج المصرى ، لا يتجاوزونه من غير إحرام ، بل

يحرمون بأحد النسكين الحج والعمرة أو بهما معا ، رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا .

وصفة ذلك : أن يغتسل الإنسان ، وينظف جسده وشعره ، ثم يتجرد الرّجال من المخيط والمحيط ، فيقتصر الذكر على إزار يجعله فى وسطه بلا عقد ولا زر ، ورداء على كتفيه ونعلين من نعال التكرور ، كاشفا رأسه من كل ساتر ، ويستمر كذلك إلى تمام النسك . وأما المرأة فلا تتجرد ، وإنما التجرد لإحرامها فى وجهها وكفيها فقط .

ثم ينوى الحاج النسك بقلبه ، ويشرع فى المسير والتلبية فيقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمدلك والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك » ، ويستمر يلبى عند كل صعود وهبوط إلى دخول مكة المشرفة ، والإحرام هو الركن الأول من أركان الحج .

[محطة بئر الهند]

فإذا قام من رابغ فلا يحط إلا فى محطة بئر الهند ، والمسافة مسيرة اثنتى عشرة ساعة ، وبها ماء عذبة وبيع وشراء فيقيم بها أربع ساعات .

[محطة عسفان]

ويقوم إلى محطة عسفان ، وبينهما مسيرة أربع عشرة ساعة ، وفى بعض الطريق شجر العبل .

وقبل الدخول فى عسفان بمسافة ثلاث ساعات ، يستريح الحاج حتى يطلع الفجر لما بالطريق هناك من الوعر والضيق فيمر الركب جملاً جملاً ، فيدخل عسفان صباحاً .

وهى قرية بها مياه عذبة وسوق وبها أشجار سنط ، وفى أرضها يزرع على السيل الخضر ، والذرة ، والدخن ، فيقيم بها سبع ساعات .

محطة وادى فاطمة

ثم يقوم إلى وادى فاطمة فيدخله صباحا، والطريق سهلة وبها شجر السنط، وقبل دخولها بساعة يمر على بغاز، وهو عبارة عن جبلين متقابلين جدا.

وبوادى فاطمة نخيل وأشجار سنط وسوق جامع، ويزرع فى أرضها بعض أصناف الحبوب، وبعض الخضر، ويكون يوم الإقامة يوما عظيما، تحضر فيها طائفة من أهل مكة المشرفة بالهدايا للحج والتبرك بهم.

٢٨ وفى الساعة العاشرة من النهار يقوم فى موكب جامع على غاية / من الإنتظام والأبهة، ولايزالون فى ازدياد وتتلقاهم أمراء شريف مكة وعساكره بالاعتناء الزائد، مع عمل الشنك وضرب المدافع والبنادق، وهكذا إلى دخول مكة.

[محطة العمرة]

ومن وادى فاطمة يحط فى محطة العمرة، عل ست ساعات من وادى فاطمة، كانت فى السابق ميقاتا للإحرام بالعمرة، بالنسبة للمحرم من الحرم.

وقبل الوصول إليها قبر السيدة ميمونة، إحدى أزواج النبى ﷺ، عليه قبة، وبجواره مصلى وحوض ماء وآبار.

وبعد محطة العمرة بنحو ساعتين يصل إلى العمرة الجديدة، التى يحرم منها الآن مريد العمرة من سكان الحرم، فيقيم ركب الحاج هناك إلى الصباح، ثم يقوم فرحا مسرورا لدخوله مكة شرفها الله تعالى.

فإذا وصلوا إلى الشيخ محمود خارج مكة حطوا رحالهم هناك، واغتسل مريد الاغتسال من آبار هناك، ثم يسرعون إلى دخول مكة، فيدخلون من باب المعلى إلى الحرم الشريف مكبرين ملبين، ويدخلون المسجد الحرام من باب السلام.

وقبل كل شيء يبدءون باستلام الحجر الأسود وتقبيله ، ويطوفون طواف القدوم ، فيطوفون حول الكعبة المطهرة سبعة أشواط ، بشروط الصلاة من طهارة وستر عورة إلى آخرها ، ويرملون فى الأشواط الثلاثة الأول ، وبعد الفراغ من الطواف يصلون ركعتى الطواف ، ثم يخرجون للسعى فيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، يبدءون بالصفا ويختمون بالمروة ، ويهرولون فى الثلاثة الأول ، ويرقون على كل منهما ويدعون ويبتهلون .

والصفا ، بالقصر ، طرف جبل أبى قبيس ، والمروة ، بفتح الميم ، طرف جبل قينقاع ، ومقدار مابين الصفا والمروة سبعمائة وسبعون ذراعا بذراع اليد ، وفى المسافة بينهما ميلان أخضران أحدهما معلق فى ركن المسجد والآخر بدار العباس . وفى شرقى الممر حوانيت ، وفى غربيه حائط المسجد الحرام .

والسعى هو الركن الثانى من أركان الحج .

وفى ثانى يوم القدوم يخرج حضرة شريف مكة وعريزها لملاقاة أمير الحاج المصرى ، فى موكب من أمرائه وعساكره وجم غفير من العرب ، مشاة وركبانا على الخيل والهجن العشاريات وغيرها ، على ترتيب عجيب وأبهة عظيمة ، وعلى الشريف شمسية تظله يمسكها أحد أمرائه مكللة بالجواهر ، وتضرب له المدافع عند مجيئه وعند انصرافه ، ثم يتوجه لملاقاة أمير الحاج الشامى كذلك .

ويقيم الحاج المصرى بمكة البعض فى خانات ، والبعض فى الدور بالأجرة ، والبعض فى الخيام المضروبة خارجها عند الشيخ محمود وغيره ، ويقيم أمين الصرة بالصرة ومستخدموها وجميع متعلقاتها بتكية مكة .

مطلب مكة المشرفة

ومكة شرفها الله تعالى هى بلد الله الحرام ، الغنية عن التعريف كبيت الله الحرام ،

والمسجد الحرام وزمزم والمقام ، وغير ذلك من الآثار المعلومة ، والشعائر الموسومة . وإنما نذكر بعض مشتملاتها .

ففيها أسواق بها جميع أصناف السلع ، تجبى إليها من جميع أرجاء الدنيا ، وبها منازل مشيدة كقصور مصر القاهرة ، وبها بساتين صغيرة ، وفيها سرايات بها سلسبيلات ، وتكيتها مشيدة بداخلها بستان عظيم وصهريج لخزن الماء ، ويأوى إليها كثير من الفقراء والمساكين للأكل والشرب .

وقد أجرى جميع ذلك بها المرحوم محمد على ، عزيز مصر ، فهى من الصدقات الجارية عليه .

وبمكة أيضا جملة مدارس غير المسجد الحرام ، لجماعة من الهنود ، يقرأ فيها العلم الشريف والقرآن الكريم وطريقها طريق التكايا ينفق فيها على الطلبة حسبة لله تعالى وترد عليها الهدايا من بلاد الهند ، والصين ، والجاوه ، والداغستان ، والآستانة العلية ، ومصر القاهرة وغير ذلك .

وفيها قهاوٍ بكثرة وتجار مياسير ، وملبوس أهلها ثياب مفرجة من الجوخ والحرير وغيره ، وطواق مخيشة يتعممون عليها ، ويلبسون فى أرجلهم النعال غالياً .

ولشدة الحر فيها خصوصا فى زمن الصيف ، لوقوعها فى وسط جبال تكتنفها من كل جهة ، يخرج والى الحجاز وشريف مكة والأمراء والأعيان ، فى زمن الصيف ، إلى جهة الطائف وجبل كرى ، فيقيمون هناك زمنا ، منهم من يسكن بالأجر ، ومنهم من له منازل فى ملكه معدة لذلك .

وجبل كرى على مسافة يوم وليلة من مكة . والطائف على مسافة يومين ، وفى كل منها بساتين عظيمة ، نضرة ذات فواكه ، وأنهار عذبة الماء ، ومبانيها كمبانى المحروسة ، والهواء معتدل جداً .

وبمكة قلعة حصينة تسمى قلعة جياد ، وعلى رؤس جبالها طوابٍ صغيرة بها مدافع وآلات وعساكر كافية .

فإذا كان اليوم الثامن من شهر ذى الحجة الحرام ، يقوم الحاج من مكة صباحاً إلى عرفات ، ولا يحط إلا بها ، وهى منها على مسافة ست ساعات ، وفى طريقه يمر بمِنى ، بكسر الميم ، ثم بمزدلفة على نحو ساعة من منى ، ثم بمسجد نمرة ، بفتح النون وكسر الميم وفتح الراء وهاء التأنيث ، على ساعة من المزدلفة ، ثم إلى موقف عرفة على نحو نصف ساعة

وعرفة بطحاء متسعة ، لها حدود محصورة ، فيبيت بها الحاج ليلة التاسع ويستمر إلى جزء من الليلة العاشرة ، والوقوف بها جزءاً من ليلة العاشر ، أو جزءاً من الليل وجزءاً من النهار ، هو الركن الأعظم للحج ، والمراد / بالوقوف الحضور فى ذلك المكان ، سواء كان واقفاً أو راكباً أو جالساً ، فبعد فراغ الخطبة ومضى جزء يسير من الليل تضرب المدافع ، وينفرون من عرفات إلى المزدلفة فى كبكبة عظيمة مع أمير الحاج ، فيصلّون بها المغرب والعشاء ، ويبيت أكثرهم بها ويلتقطون الجمار منها ، وهى بطحاء غير مسكونة .

٢٩

فإذا طلع الفجر ارتحلوا إلى منى ، فإذا وصلوا إليها رموا جمرة العقبة بسبع حصيات ، وذبحوا أو نحروا هداياهم ، وحلقوا وقصّروا رؤسهم ، وحينئذ يحل لهم لبس المخيط وغيره من محرمات الإحرام إلا النساء والصيد ، وهذا التحلل الأصغر .

ثم يتركون رحالهم بها ويرجعون إلى مكة فيطوفون طواف الإفاضة وهو الركن الرابع من أركان الحج ، وحينئذ يحل لهم كل شيء حتى النساء والصيد ، وهو التحلل الأكبر ، ثم يرجعون إلى منى فيبيتون بها ليلتين لمن تعجل وثلاثة لمن لم يتعجل ، ويرمون فى كل يوم من أيام الإقامة الجمرات الثلاث وهى العقبة ، والوسطى ، والكبرى ، كل واحدة

بسبع حصيات ، ثم يرتحلون إلى مكة وقد كانوا تركوا بها أمتعتهم وأثقالهم فيقيمون بها إلى اليوم الثامن والعشرين من ذى الحجة ، ثم يخرجون إلى محطةالشيخ محمود بموكب عظيم ، ويكون أمير الحاج المصرى استلم المحمل على يد والى الحجاز .

ثم يقومون من الشيخ محمود فى آخر الشهر إلى زيارة النبى ﷺ بالمدينة المنورة حرسها الله تعالى . يحطون بوادى فاطمة ، ثم بعسفان ، ثم بخليص ، وهى بلدة على ست ساعات من عسفان ، بها نخيل وأرضها صالحة يزرع فيها الذرة والدخن ، والبطيخ والقثاء ، والفجل ونحو ذلك . ويبيت بها الحاج ليلة واحدة مع التحفظ من شرار الأعراب كاللتين قبلها ، وفيها ماء عذب ، ثم ببئر الهند على ست ساعات من خليص وهو بويتات بها عرب قاطنون ، وينصب فيها سوق وليس بها زرع وبها بئر ملحة الماء ، ثم برابغ ويؤخذ منها العليق الكافى إلى وصول المدينة المنورة .

ثم من رابغ إلى بئر رضوان على مسيرة اثنتى عشرة ساعة ، وهى محل به حشائش ترعاها الإبل وبئره صالحة للشرب ، وينصب فيه عند نزول الحاج به سوق يبيع فيه العرب سلعهم على الحاج ، وليس هناك سكان .

ثم إلى أبى ضباع محل على تسع ساعات من رابغ ، به منازل مبنية بالطوب والطين تسكنها جماعة من العرب الذين يخشى من خيانتهم ، وفيها نخل كثير وشجر الليمون والموز ، ويزرع فى أرضها الشعير والدخن والذرة والمقاثىء ، وبه ماء عذب كاف للحيوانات والمزارع ، والطريق قبلها وبعدها مخوفة من كثرة الجبال وطروق العرب .

ثم منها إلى الريان ، تسع ساعات أيضا فى جبال شاهقة ، وفى أثناء الطريق بينهما محل يقال له البليدية ، به نخيل وموز وليمون ، ويزرع فيه القمح والشعير والذرة .

ثم بعده محل يقال له المضيق فيه أيضا نخل وزرع كالبليدية ، ويسكن الموضعين عرب طبعهم السرقة والنهب كعرب الجبال التى هناك ، فلذا يضطر الحاج زيادة على

المرتبات المعينة لهم إلى مواساتهم بالأموال، وإطعام ليأمنوا من شرهم.

والريان قرية مسكونة بالعرب، فيها نخيل وأشجار الرمان والليمون، ونوع يشبه البرتقال يقال له لين، ويزرع فى أرضها الحبوب والخضر، وفيها ماء عذب يسقى منه الزرع وغيره.

ومن الريان إلى بئر العضم وهو محل على مسيرة أربع عشرة ساعة به بئر مالحة وليس به سكان ولا بيع سلع.

ومن بئر العضم الى بئر الماشى، وهومحل عل اثنتى عشرة ساعة به بئر عذبة الماء جدا، وبه بيع وشراء قليل وليس به زرع.

ومن هناك إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، على مسيرة ثمانى ساعات.

وقال السيوطى فى حسن المحاضرة (١): قال ابن فضل الله: المحامل السلطانية وجماهير الركبان لاتخرج إلا من أربع جهات: مصر، ودمشق، وبغداد، وتعز.

قال: فيخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى، والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين بالماء والزاد والأشربة، والأدوية والعقاقير والأطباء، والكحالين والمجبرين والأدلاء، والأئمة والمؤذنين والأمراء، والجند والقاضى والشهود، والدواوين والأمناء، ومغسل الموتى، فى أكمل زىّ وأتم أبهة، وإذا نزلزا منزلا أو رحلوا مرحلا تدق الكوسات وينفر النفير ليؤذن الناس بالرحيل والنزول.

(١) حسن المحاضرة، المرجع السابق. ج ٢، ص ٣١٠

فإذا خرج الركب من القاهرة نزل البركة على مرحلة واحدة فيقيم بها ثلاثة أيام أو أربعة ، ثم يرحل إلى السويس فى خمس مراحل ، ثم إلى نخل فى خمس مراحل ، وقد عمل فيها الأميرآل ملك الجوكندار المنصورى ، أحد أمراء المشورة فى الدولة الناصرية ابن قلاوون ، بركاً واتخذ لها مصانع . ثم يرحل إلى أُيلة فى خمس مراحل وبها العقبة العظمى فينزل منها إلى حجز بحر القلزم ، ويمشى على حجزه حتى يقطعه من الجانب الشمالى إلى الجانب الجنوبى ، ويقيم به أربعة أو خمسة ، وبه سوق عظيم فيه أنواع المتاجر ، ثم يرحل إلى حقل مرحلة واحدة ، ثم إلى برّ مدين فى أربع مراحل وبه مغارة شعيب عليه الصلاة والسلام ، ويقال إن ماءها / هو الذى سقى موسى ، عليه الصلاة والسلام ، غنم بنات شعيب ، ثم يرحل إلى عيون القصب فى مرحلتين ، ثم إلى المويلحة فى ثلاث مراحل ، ثم إلى الازلم فى أربع مراحل وماؤه من أقبح المياه ، وهناك خان بناه الأمير آل ملك الجوكندار وعمل هناك بئر أيضا ، ثم إلى الوجه فى خمس مراحل وماؤه من أعذب المياه ، ثم أكرى فى مرحلتين وماؤه أصعب ماء فى هذه الطريق ، ثم إلى الحوراء وهى على ساحل بحر القلزم فى أربع مراحل ، وماؤها شبيه بماء البحر لا يكاد يشرب ، ثم إلى نبط فى مرحلتين وماؤه عذب ، ثم إلى ينبع فى خمس مراحل ويقيم عليه ثلاثة أيام ، ثم إلى الدهناء فى مرحلة ، ثم إلى بدر فى ثلاث مراحل ، وهى مدينة حجازية وبها عيون وجداول وحدائق وبها الجار فرضة المدينة الشريفة ، ثم يرحل إلى رابغ فى خمس وهى بإزاء الجحفة التى هى الميقات ، ثم يرحل إلى خليص فى ثلاث مراحل وبها بركة عملها الأمير أرغون الناصرى ، ثم إلى بطن مرّ فى ثلاث مراحل وفى طريقه بئر عسفان ، ثم يرحل من بطن مرّ إلى مكة المشرفة مرحلة واحدة ، ثم يرجع فى منازله إلى بدر فيعطف إلى المدينة الشريفة فيرحل إلى الصفراء فى مرحلة ، ثم إلى ذى الحليفة فى ثلاث مراحل ، ثم إلى المدينة الشريفة فى مرحلة ، ثم يرجع إلى الصفراء ويأخذ بين جبلين فى فجوة تعرف بنقب علىّ حتى يأتى الينبع فى ثلاث مراحل ثم يستقيم على طريقه إلى مصر، انتهى .

﴿ بركة غطاس ﴾ قرية كبيرة من مديرية البحيرة بمركز دمنهور، واقعة على البر البحرى للمحمودية على بعد مائتى قصبة .

وأبنيتها بالآجر واللبن ، وعندها على شاطىء المحمودية سويقة مشتملة على قهاوٍ وخمارات وحوانيت تجارة .

وفى شرقيها جامع أنشأه الميرى ، وفى بحريها بركة ماء ، وفى جنوبها الشرقى جملة عزب منها عزبة الخواجة نصر الله ، بها مسكنه وجنينة له ، وفى بحرى الجنينة مسجد قديم بداخله مقام ولى يزار

ولها سوق كل أربعاء ، وتعداد أهلها أربعمائة وخمس وتسعون نفسا ، وزمامها أربعة آلاف فدان ومائتا فدان وتسعة وتسعون فداناً .

﴿ البرلس ﴾ بضم الموحدة والراء واللام المشددة وبعدها سين مهملة ، ثغر عظيم من ثغور مصر ، وقد عد ابن الكندى ثغور مصر فجعلها أربعة عشر رباطا وهى : العريش ، وتنيس ، وشطا ، ودمياط ، والبرلس ، ورشيد ، والإسكندرية ، وذات الحمام ، وجميع هذه على البحر الرومى ، ورباط أسوان على النوبة ، ورباط الواحات على البربر والسودان ، ورباط قوص على البجاة ، وكانت سرّة وبرقة وطرابلس من رباطات مصر إلى أن خرجت فى سنة ثلاث وثلثمائة فأضيفت إلى رباطات الغرب . انتهى .

قلت : لعله نسى رباط السويس ورباط القصير ، وهما من الرباطات القديمة .

ويشتمل خط البرلس على جملة قرى متقاربة ، واقعة فى الرمال التى بين بحيرة البرلس

وشط البحر المالح وفى شرقيها أشتوم البرلس، وفى غربيها أشتوم برج المعدية .

وقال (بلين) فى بعض مؤلفاته : إن هذا الخط كان يسمى بتنيتو، وجعله بطليموس بين فرع النيل الغربى وفرع فرموطاق .

ويؤخذ من كلامه أن البرلس مدينة كانت قاعدة هذا الخط ، وكانت تسمى بوطو وكان لها أسقف ، وكان من مدائن هذا الخط مدينة يتمر والتى سميت فيها بعد دمرو ، كما فى تاريخ البطارقة .

وفى دفاتر التعداد أن من هذا الاسم بلدتين فى مديرية الغربية . وبلاد البرلس الآن من مديرية الغربية ، ومن أشهرها فلبشو الواقعة بآخر الرمال ، منها إلى البحر المالح نحو ثلاث ساعات ، وفى غربيها قرية أبى ماضى بنحو ساعة ، وفى جنوبها كفر الستمونى بنحو ساعتين وفيها أبنية بالآجر والمونة .

وقرية أبى ماضى فى قبلى البرج الحصين المعروف ، بنمرة خمسة ، الذى على شط المالح بنحو ساعتين .

ومن أشهرها أيضا الشهابية ، بوسط الرمال غربى البرج بنحو ساعتين ، وشرقى العباسة بنحو ثلث ساعة ، وناحية العباسة فى وسط الرمال غربى الشهابية بقليل ، وشرقى بلطيم بنحو ساعتين ، وهى غير العباسة التى ببلاد الشرقية ، وبلطيم على شاطىء بحيرة البرلس ، غربى قبة الشيخ مبارك بنحو ساعة ، وفى بحريها ملاحة البرلس ، طولها خمسة آلاف متر ومتوسط عرضها ثلثمائة متر ، وفيها جامع بمنارة ومعمل فراريج ، ولها سوق جمعى .

ومنها كفر يوسف ، به ضريح الشيخ يوسف . ومنها كفر الحصير بقرب أشتوم البرلس ، وفى قبليه بقليل قبة ولى يقال له الشيخ غانم .

وعلى شاطىء بحيرة البرلس جملة قباب لجماعة من الصالحين يقال لهم الشرفاء العامرية ، وحول تلك القباب كفور صغيرة تسمى عزب الشرفاء ، وفى كثير من هذه القرى أبنية بالآجر والمونة ، وفيها مساجد عامرة ، ولها نخيل كثير فى الرمال يتصل بعضه ببعض ، على أصناف مختلفة منه ، السمانى والحيانى وبنات عيش والكبيس ، ويزرع فى رمالها البطيخ المشهور بالبرلسى ، وفيها كروم العنب الأسود والأبيض ، تبلغ الحبة منه قدر بيضة الحمامة مز الطعم ، وكثير من أهلها يصطادون السمك من البحيرة والبحر ، ويعملون منه الفسيخ الكثير ويجلب إلى مصر وخلافها ، وتكسب / أهلها منه ومن البطيخ والعنب وثمر النخل . ٣١

وكانت هذه القرى سابقا فى التزام محمد بيك طبوزأغلى ، ثم ولده حسين بيك ثم هى الآن تابعة لمديرية الغربية ، ثم إن جميع بلاد البرلس لا يصل إليها ماء النيل إلا قليلا ، وأكثر شربهم من الحفائر وكذا سقى نخيلهم ونحوه ، ويزرعون على المطر ، فصدرت الأوامر الخديوية بعمل طريقة لتوصيل المياه إليهم ، وهناك بحيرة متسعة تسمى بحيرة البرلس ، وكذلك البرية الكبيرة الواسعة تنسب إليها ، مع أنها لجملة بلاد كما بيّنا ذلك فى الكلام على بلقاس .

ولها ملاحة تنسب إليها أيضاً ، وهى من أعظم ملاحات مصر لجودة ملحها ، حتى أن أهل رشيد يفضلونه على الملح المستخرج من ملاحتهم ، ويستعملونه فى ضرب الأرز . وهى واقعة فى الشمال الشرقى لبلطيم ، وهى عبارة عن بركة فى وسط الرمل أرض قاعها منحطة عن المالح نحو نصف متر ، تجف فى شهرى مسرى وتوت ، فيقطعون منها الملح

بالفؤس ويضعونه على أرض مرتفعة ، ثم ينقلونه فى قوارب صغيرة وينشر فى الجهات ، وقدر ما يتحصل منه فى السنة نحو خمسة آلاف أردب أو أكثر ، والأردب عندهم ثلاثون كيلة بالكيلة المصرية التى هى نصف ويبة ، وأجرة الأردب من قطع ووسق من قرشين إلى ثلاثة قروش .

ثم أنه يظهر أن أهالى بلاد البرلس أو بعضهم عرب قرشيون ، كما يدل كلام المقريزى فى كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » فإنه قال : إن فرقة من بنى عدى بن كعب رهط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، نزلوابالبرلس ومقدمهم خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكانوا هم والكتانيون من ذوى الإثارة المذكورة فى نوبة دمياط . وخلف هذا هو جد بنى فضل الله بن المحلى بن دعجاب بن خلف بن نصر الله ، ولوا كتابة السر لملوك الترك بالقاهرة ودمشق نحو مائة سنة . انتهى .

وفى كتاب المستطرف (١) : أن فى البرلس وقطية أقواما يعرفون قيافة الأثر . قال : والقيافة على ضربين : قيافة البشر وقيافة الأثر ، فأما قيافة البشر : فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان ، وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج ، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرا فيلحقه بأحدهم .

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبا على بعيره يقوده غلام أسود ، فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال : ما أشبه الراكب بالقائد ، قال

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف ، تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الابشيهى المحلى . طبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٢ . جـ٢ ، ص ٩٣

ولد التاجر : فوقع فى نفسى من ذلك شىء ، فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القضية . فقالت : يا ولدى إن أباك كان شيخا كبيرا ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ماله ، فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك ، ولولا أن هذا شىء ستعلمه غدا فى الدار الآخرة لما أعلمتك به فى الدنيا .

وأما قيافة الأثر : فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف ، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل ، إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به .

ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ ، والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب ، والغريب من المستوطن .

ثم قال : ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الناس فيها ، يعنى فى علمها ، لما استأثر بذلك طائفة دون أخرى .

وقيل إن القيافة لبنى مدلج فى أحياء مصر ، واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير . وهما بين مكة ومنى ، فقال أحدهما : هو جمل ، وقال الآخر هى ناقة ، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر ، فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه : أهو ذا ؟ قال : نعم ، فوجداه خنثى فأصابا جميعا انتهى .

وفى خطط المقريزى: أن محتسب القاهرة فى القرن الثامن كان من البرلس ، وهو صلاح الدين عبد الله بن عبيد الله البرلسى ، وهو الذى أحدث السلام على رسول الله ﷺ ليلة الجمعة ، عقب الأذان بعد سنة ستين وسبعمائة .

قال : فاستمر ذلك إلى أن كان فى شعبان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، فأمر

متولى الأمر بديار مصر الأمير منطاش فى دولة الملك المنصور بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون أن يكون ذلك بعد كل أذان ، لرؤيا ادّعاها بعض الفقراء الخلاطين .

وسيأتى فى الكلام على طبندا شىء من ذلك وأنه من البدع المحدثة .

ترجمة القطب الشهير سيدى على الخوّاص[1]

وظهر منها أيضا صلحاء وعلماء كثيرون ، ففى طبقات الشعرانى إن منها شيخه القطب الشهير سيدى عليا الخوّاص رضى الله عنه قال :

وكان أميّا لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يتكلم على معانى القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاما نفيسا تتحير فيه العلماء ، وكان له طب غريب يداوى به أهل الاستسقاء والجذام والفالج والأمراض المزمنة .

وكان يعظم أرباب الحرف النافعة فى الدنيا كالسقاء والزبال ، والطباخ ، والفيخرانى ، ومقدم الوالى ، ومقدم أمير الحاج ، والمعداوى والطوافين على رؤسهم بالبضائع ، ويدعو لهم ويكرمهم .

وكان يعظم العلماء وأرباب الدولة ويقوم لهم ويقبل أيديهم ويقول : هذا أدبنا معهم فى هذه الدار / وسيعلمنا الله تعالى الأدب معهم إذا وصلنا إلى دار الآخرة ، وكان إذا علم من أحد من أرباب الدولة أو غيرهم أنه قاصد السلام عليه ، يذهب إليه قبل أن يأتى . ٣٢

وكان أولاً طوافا يبيع الصابون والجميز والعجوة وكل ما وجد ، ثم فتح دكان زياتة سنين عديدة ، ثم صار يضفر الخوص إلى أن مات .

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى . المرجع السابق . جـ ٢ ، ص ١٣٥ وما بعدها

وكان لا يأكل شيئا من طعام الظلمة وأعوانهم ، ولا يتصرف فى شىء من دراهمهم فى مصالح نفسه أو عياله ، إنما يضعه عنده للنساء الأرامل والشيوخ ، والعميان العاجزين عن الكسب ، ومن ارتكبتهم الديون فيعطيهم من ذلك .

وكان يكنس المساجد وينظف البيوت الأخلية ، ويحمل الكناسة تارة ويخرجها إلى الكوم احتساباً لوجه الله تعالى كل يوم جمعة .

وكان يكنس المقياس فى كل سنة ، ثانى يوم نزول النقطة وينفق على أصحابه ذلك اليوم نفقة عظيمة ، ويزن عنهم كراء المعدية وهم نحو مائة نفس ، ثم يفرق السكر والخشكنان على أهل المقياس وجيرانه ، ثم ينزل فيكشف رأسه ويتوضأ من المقياس ويصير يبكى ويتضرع ويرتعد كالقصبة فى الريح ، ثم يطلع فيصلى ركعتين ويأمر كل واحد من أصحابه أن ينزل ثم يكنس السلم بمشط من حديد ، ويخرج الطين الذى فيه بنفسه لا يمكن أحد أن يساعده فيه .

وكان يقول لا يصير الرجل عندنا معدوداً من أهل الطريق إلا إذا كان عالما بالشريعة المطهرة ، مجملها ومبينها ، ناسخها ومنسوخها ، خاصها وعامها ، ومن جهل حكما واحدا منها سقط عن درجة الرجال .

وكان يقول : ونحن فى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ، جميع أبواب الأولياء قد تزحزحت للغلق ، وما بقى الآن مفتوحا إلا باب رسول الله ﷺ فأنزلوا كل ضرورة حصلت لكم به ﷺ .

وكان يقول فى قولهم : « بئس الفقير بباب الأمير » ، هذا فى حق من يأتى الأمير يسأله الدنيا فإن كان لشفاعة ونحوها فنعم الفقير بباب الأمير .

وكان يقول : سمعت سيدى إبراهيم المتبولى يقول : زيادة العلم للرجل السوء كزيادة الماء فى أصول شجر الحنظل ، فكلما ازداد ريا ازداد مرارة .

وكان يقول : من آداب الزائر أن لا يزور أحدا إلا إن كان يعرف من نفسه القدرة على كتمان ما يرى فى المزور من العيوب ، وإلا فَتَرْكُ الزيارة أولى .

وكان يقول فى حديث : « أن الله يكره الحبر السمين » المراد بالحبر العالم ، وسمنه يدل على قلة ورعه وعمله بعلمه ، فلو تورع لم يجد شيئا فى عصره يسمن به .

وكان يقول فى قوله ﷺ : إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، يدخل فيه العالم ، أو المسلك إذا لم يعمل بعلمه فى نفسه ، ولكن أفتى ودل الناس على طريق الله عز وجل ، وكذا يدخل فيه العالم والعابد إذا زهدا فى الدنيا طول عمره ، فلما قربت وفاتها مالا إلى الدنيا وأحباها وجمعا المال من غير حل ، فيموتان على ذلك فيحشران مع الفجار الخارجين عن هدى العلماء العاملين .

وكان يقول : ليس ما يصيب الأطفال والبهائم من الأمراض كفارة لها لعدم معصيتها ، وإنما هو فى البهائم لكونها تطعم وتسقى فى غير وقته أو غير ما تشتهى ، أو لا تقتصر فى الأكل على الحاجة بل تزيد ، ثم تستخدم مع ذلك فتتعب أبدانها لا سيما فى شدة الحرّ والبرْد .

وأما فى الأطفال فلأنّ الحوامل من النساء والمرضعات يأكلن ويشربن بشره وحرص أكثر مما ينبغى من ألوان الطعام والشراب ، فيتولد فى أبدانها أخلاط غليظة مضادة للطباع ، فيؤثر ذلك فى أبدان الأجنة التى فى بطونهن ، وفى أبدان أطفالهن من اللبن الذى هو فاسد ، ويكون ذلك سبباً للأمراض والعلل والأوجاع من الفالج والزمانات واضطراب البنية ، وتشويه الخلقة وسماجة الصورة .

ثم قال : من أراد السلامة من ذلك فلا يأكل ولا يشرب إلا وقت الحاجة بقدر ما ينبغى من لون واحد ، بقدر ما يسكن ألم الجوع ثم يستريح وينام ، ويمتنع من الإفراط فى الحركة والسكون .

وكان يقول : من طلب دليلا على الوحدانية كان الحمار أعرف منه بالله .

وكان يقول : العلوم الإلهية لا تنزل إلا فى الأوعية الفارغة ، ثم أنشد لبعضهم :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبا فارغاً فتمكنـا

وكان يقول : الأفلاك تدور بدوران القلوب ، والقلوب تدور بالأرواح ، والأرواح بالأشباح ، والأشباح بالأعمال ، والأعمال بالقلوب ، فرجع الآخر للأول .

وكان يقول : إياكم والوقوع فى المعاصى ، ثم تقولون هذا من إبليس ، فإن إبليس يتبرأ منكم فى مكان يصدق فيه الكذوب ، وذلك حين يخطب فى النار ويقول فى خطبته فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، يعنى ما أغويتكم ، حتى ملتم بنفوسكم إلى الوقوع فى المعاصى ، وما كان لى عليكم من سلطان ، يعنى قبل أن تميلوا .

وكان يقول : ما فى القلب يظهر على الوجه ، وما فى النفس يظهر على الملبوس وما فى العقل يظهر فى العين ، وما فى السر يظهر فى القول / ، وما فى الروح يظهر فى الأدب ، وما فى الصورة كلها يظهر فى الحركة .   ٣٣٠

وكان رضى الله عنه يقول : العلم والمعرفة ، والإدراك والفهم ، والتمييز من أوصاف العقل ، والسمع والبصر ، والحاسة والذوق ، والشم والشهوة والغضب من أوصاف النفس ، والتذكر والمحبة ، والتسليم والانقياد والصبر من أوصاف الروح ، والفطرة والإيمان ، والسعادة والنور ، والهدى واليقين من أوصاف السر ، والعقل والنفس ، والروح والسر المجموع أوصاف للمعنى المسمى بالإنسان ، وهى حقيقة واحدة غير متميزة وهذه الحقيقة وأوصافها روح هذا القالب المتحرك المتميز ، والجميع روح صورة هذا القالب ، والمجموع من الجميع روح جميع العالم . انتهى .

باختصار كثير فقد أطال فى سوق جمل من كلامه الدال على مزيد فضله . ولما مات رضى الله عنه دفن بمسجده فى الحسينية من القاهرة وقبره مشهور يزار .

ترجمة الشيخ محسن البرلسى

ومن البرلس أيضاً الشيخ محسن البرلسى رضى الله عنه ، قال الشعرانى فى الطبقات[١] :

كان من أصحاب الكشف التام ، ووقع منى مرة سوء أدب فأرسل أعلمنى به ، وهو فى الرميلة ، وذلك أن الأمير جانم كان مطلوبا فى إسلامبول ، فكتبت له كتابا إلى أصحاب النوبة بنواحى العجم والروم بالوصية عليه ، وطواه ووضعه فى رأسه وخرج ، فأرسل لى الشيخ فى الحال يقول : الناس فى عينيك كالقش ، مابقى أحد فى البلدة له شوارب إلا أنت ، تكاتب أصحاب النوبة من غير إذن من أصحاب البلد ، فاستغفرت فى نفسى فأرسل يقول لى : إذا سألك أحد فى شىء يتعلق بالولاة بمصر فشاور بقلبك أصحاب النوبة بها ، إعطاء لحقهم من الأدب معهم ثم افعل بعد ذلك ما تريد لا حرج ، لأنهم لا يحبون من يقل أدبه معهم .

مات رضى الله عنه فى سنة نيف وأربعين وتسعمائة ، ودفن بالقرب من الإمام الشافعى فى تربة البارزى رضى الله عنه .

ترجمة الشيخ عبد الجواد البرلسى

وفى خلاصة الأثر[٢] أن منها عبد الجواد بن نور الدين البرلسى المصرى ، خطيب الجامع الأزهر ، الإمام الجليل الذى فضله أعظم من أن يذكر ، أخذ عن والده ، تخرج وبرع وتفنن فى علوم كثيرة ، وانتفع به جمع ، وكان له وجاهة ونباهة ونظم الشعر الفائق ، واشتغل برهة بعلوم الرقائق ، ومن لطيف شعره قوله فى رحالة :

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ص١٢٩

(٢) خلاصة الأثر ، المرجع السابق . ج ٢ ، ص ٣٠٥

أؤدى إلى أعتاب عزتك العليا سلاماً سعى بالود نحوكم سعيا
وأنهى إلى ذاك الوجيه مدائحا وأدعية فى أزهر العلم والمحيا
وأبدى له وجدى وفرط تشوّقى رعى الله عهداً قد تقضى به رعيا
وأنشدكم بالله عطفا على فتى لبعدكم لم يلف صبرا ولا وعيا
فأنت وجيه الدين غاية مقصدى لبعدك باشرت المتاعب والأعيا

وكانت وفاته فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وألف بمصر رحمه الله تعالى .

ترجمة الإمام الشهير الشيخ مصطفى البولاقى البرلسى

ومن البرلس أيضا الإمام الكبير والعالم الشهير ، الشيخ مصطفى البولاقى الأزهرى ، وقد ترجمه بعض الأفاضل ، على لسان نجله المرحوم العلامة الشيخ يحيى البولاقى المالكى ، الذى كان خطيبا بجامع المشهد الحسينى بالقاهرة ، وأحد مدرسى الجامع الأزهر فقال :

هو الحسيب النسيب ، العفيف الشريف ، العلامة الشيخ مصطفى ، المشهور بالبولاقى ، ابن الشيخ رمضان البرلسى ابن الشيخ عبد الكريم البرلسى ، ابن الشيخ سليمان البرلسى ، ابن الشيخ رجب البرلسى ، ابن الشيخ عبد العظيم البرلسى ، ابن الشيخ عميرة البرلسى الشهير بالشهاب ، وينتهى نسبه إلى السيد عيسى الشهير بغفير البرلس ، من ذرية سيدى موسى أخى العارف بالله تعالى سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه .

كان المترجم من فضلاء الأنام ، وأئمة الإسلام ، ولد رحمه الله تعالى ببولاق مصر القاهرة ، فى أواخر القرن الثانى عشر ، وحفظ القرآن على العارف بالله تعالى

الشيخ صالح السباعى ، خليفة أبى البركات القطب الشهير الشيخ أحمد الدردير ، وتلقى عنه طريق السادة الخلوتية ، ومبادىء مذهب الإمام مالك .

ثم أخذ عن جماعة من أكابر العلماء منهم خاتمة المحققين الشيخ محمد الأمير الكبير ، روى عنه السنن الست والموطأ ، والمواهب اللدنية ، والشفاء للقاضى عياض ، وغيرها من الرسائل والمسلسلات ، وأخذ عنه شيئا من فقه مالك .

ومنهم الشيخ محمد الأمير الصغير ، أخذ عنه أيضا فقه مالك .

ومنهم العلامة الدسوقى ، صاحب التصانيف المشهورة ، أخذ عنه كثيرا من المعقول والمنقول .

ومنهم البرهان القويسنى الشافعى ، أخذ عنه المطول وجمع الجوامع ، وغيرهما من كتب الرواية والدراية .

ومنهم الشيخ شافعى الفيومى ، وغيرهم من مشايخ العصر ، حتى حصل التحصيل التام ، وشهد بفضله الأنام ، وتصدى للإفتاء والتدريس بالجامع الأزهر من ابتداء سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف ، بعد الإجازة من كافة مشايخه ، ٣٤
فدرس الكتب العديدة من معقول ومنقول ، وفروع وأصول ، وتلقى عنه الجمّ الغفير من سائر أهل المذاهب .

وقد صار واحد الزمان ، وأشارت إليه الأكف بالبنان ، وظهرت النجابة على تلامذته فى حياته ، فدرسوا وصنفوا وأفادوا وأجادوا .

فمنهم شيخ المالكية سابقا ، وشيخ المشايخ المرحوم العلامة الشيخ محمد بن أحمد عليش المغربى الطرابلسى ، صاحب التصانيف الشهيرة فى فنون كثيرة .

ومنهم الفاضل الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، صاحب التصانيف الكثيرة أيضاً ، من قرية عدوة من بلاد البهنسا .

ومنهم العلامة المحقق الشيخ محمد الأشمونى ، والسيد حسنين الغمراوى ، والشيخ مخلوف المنياوى وغيرهم من المدرسين والمؤلفين .

فكان رحمه الله تعالى ديدنة التدريس والإفادة لكبار الكتب وصغارها ، ولذا لم يشتهر عنه من التاليف غير شىء قليل : كحاشية على شرح شيخه القويسنى للسلم فى المنطق ، وشرح على منظومة فى فقه مالك ، تسمى المنهل السيال فى الحرام والحلال ، وله تقريرات على مسلسل عاشوراء .

وجمع عنه تلامذته بعض تقريرات على السعد وجمع الجوامع ، وله ديوان خطب مشهور ، ورسالة فى حكم السماع ؛ سماها السيف اليمانى فى حكم سماع الآلات والمغانى .

وكان له ميل كبير إلى فنون الرياضة ، كالهندسة والحساب والهيئة والفلك ، وكان يحب الاجتماع بأهل هذه الفنون كثيرا مثل : الأمير محمود بيك الفلكى صاحب المعارف الشهيرة فى فنون كثيرة ، والأمير الجليل حضرة سلامة باشا مفتش وجه قبلى ، وغيرهما من جهابذة مدرسة المهندسخانة التى كانت ببولاق ، حتى تمكن من تلك الفنون ونظم رسالة فى فن الميقات فى الربع المجيب ، وألف رسائل كثيرة فى الجبر والمقابلة وحساب المثلثات .

وكانت سكناه ببولاق ، ويأتى الأزهر كل يوم ، وكان يخطب بمسجد السلطان أبى العلا ، وله به درس دائم بين المغرب والعشاء ، وكان لسانه رطبا يذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، صوّاما قوّاما ، ولم يزل يزداد فى الاجتهاد فى الطاعة حتى أتاه اليقين ، فى سنة ثلاث وستين ومائتين وألف ، ودفن بداخل ضريح السلطان أبى العلا الحسينى ببولاق رضى الله عنه .

﴿ برما ﴾ بكسر الباء وسكون الراء ، كما فى مشترك البلدان ،

قرية كبيرة قديمة ، من مركز أبيار بمديرية الغربية ، مبنية على تل مرتفع بحرى محلة المرحوم ، على بحر الصهريج بمسافة ثلثى ساعة ، ولها شهرة بمعامل الدجاج .

وكثير من المعامل التى بجهات مصر البحرية يديرها أناس من أهاليها ، وقد ذكرنا كيفية استخراجه وما يتعلق به فى الكلام على ناحية ببلاو .

وبها جمله بساتين وسواق معينة ، وبها جامع بمئذنة عامر ، وعمدتها محمد حوده ، كان مفتشا فى الشفالك ثم أنعم عليه الخديو إسماعيل برتبة أميرالاى ، وله بهابيت يشبه بيوت مصر ، وسوقها سوق من ناحية ابيار وطنتدا .

ترجمة شمس الدين البرماوى

ونشأ منها من أفاضل العلماء الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم ، وقد ذكر ترجمته فى حسن المحاضرة[1] فقال :

البرماوى ؛ هو شمس الدين محمد بن عبد الدائم بن موسى ، ولد فى ذى القعدة سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، ولازم البدر الزركشى وتمهر به ، وأخذ عن السراج البلقينى ، وله تصانيف منها شرح العمدة ومنظومة فى الأصول . مات سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة .

وفى الضوء اللامع للسخاوى[2] أنه أمعن فى الاشتغال بالعلم ، مع ضيق الحال وكثرة الهم ، وناب فى الحكم عن أبيه البدر ، ثم عن ابن البلقينى ، ثم عن الإخنائى ، ثم أقبل عل الاشتغال . وكان للطلبة به نفع ، وكل سنة يقسم كتاباً من

(١) حسن المحاضرة ، المرجع السابق . جـ١ ، ص ٤٣٩ .
(٢) الضوء اللامع للسخاوى ، المرجع السابق . ج ٧ ص ٢٨٠ .

المختصرات ، فيأتى عن آخره ويعمل وليمة . ثم توّجه إلى دمشق وناب فى الحكم وفى الخطابة ، وولى إفتاء دار العدل ، ثم تدريس الرواحية ونظرها ، وتدريس الأمينية فاشتهرت فضيلته .

ثم مات ولده محمد ، فكره الإقامة بدمشق وجاء إلى القاهرة ، وقد اتسع حاله وتصدى للإفتاء والتدريس والتصنيف ، وباشر وظائف الولى العراقى نيابة عن حفيده ، ولبس لذلك تشريفاً ، وعين لتدريس الفقه بالمؤيدية ، وحج فى سنة ثمان وعشرين وجاور التى بعدها ، ونشر العلم أيضا هناك .

ثم عاد فى سنة ثلاثين وقد عين له بعناية ابن حجى تدريس الصلاحية ونظرها بالقدس ، بعد موت الهروى فى آخر المحرم ، فتوجه إليها وأقام بها قليلا ، وانتفع به أهل تلك الناحية أيضا ولم ينفصل عنها إلا بالموت .

وكان إماما علامة فى الفقه وأصوله ، والعربية وغيرها مع حسن الخط والنظم والنثر ، والتودد ولطف الأخلاق ، وكثرة المحفوظ والتلاوة والوقار .

ومن تصانيفه:شرح البخارى فى أربع مجلدات ، وشرح العمدة ، وله أيضاً منظومة فى أسماء الرجال ، وألفية فى أصول الفقه وشرحها ، ومنظومة فهى الفرائض ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك ، والبهجة الوردية ، وزوائد الشذور .

وعمل مختصرات فى السيرة النبوية ، وكتب عليها حاشية ، ولخص المهمات للإسنوى ، ولم يزل قائمابنشر العلم تصنيفاً وإقراءً حتى مات يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الثانية سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، ببيت المقدس ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

ترجمة المجد البرماوى

٣٥ / ومنها أيضا المجد البرماوى،وهو كما فى حسن المحاضرة[1] أيضا : إسماعيل ابن أبى الحسن على بن عبد الله ، ولد فى حدود الخمسين وسبعمائة ، ومهر فى الفقه والفنون ، وتصدى للتدريس أخذ عن البلقينى وغيره ومات فى ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وثمانمائة .

[على البرماوى]

ومن أهالى هذه القرية كما فى إبن اياس أيضا[2] : الحاج على البرماوى وكان بزدار السلطان الغورى والمتحدث على جهات الديوان المفرد ، مات يوم الجمعة خامس عشر شعبان سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وقد رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من البزدارية ، وساعدته الأقدار حتى وصل إلى ما لم يصل إليه غيره فى هذه الوظيفة ، وكان سبب موته أنه طلع له شقفه فى ظهره فانقطع اثنى عشر يوما ومات .

وكان أصله من فلاحى برما يبيع الخام والطرح فى الأسواق وهو راكب حمارا ، إلى أن فتح الله عليه ، وكان لا بأس به ، وكان عنده لين جانب من تواضع زائد ، وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العين خمسمائة ألف دينار وستمائة دينار ذهب عين برسبهيه . ووجد له من الحجورة (الخيل) والمهارة نحو خمسمائة وأربعين رأسا ، ومن الجاموس مائة رأس ، ومن الغنم الضأن ألف رأس ، ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور ، وضاع له عند الفلاحين أكثر مما تقدم ذكره ، فقوّم ذلك الموجود بمائة ألف دينار. انتهى من ابن اياس .

---

(١) حسن المحاضرة ، المرجع السابق . جـ١ ، ص ٤٤٠

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، لابن إياس تحقيق د. محمد مصطفى ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٨٣ جـ ٥ ، ص ٦٧ .

وسيأتى أن البازدار، هو خادم جوارح الصيد من البازات والصقور. والديوان المفرد، هو ديوان الأملاك الخاصة بالملك.

قال خليل الظاهرى: يقال جميع بلاد المفرد الشريف، وله ديوان يقال له ديوان المفرد، والأمراء الملحقون به مفاردة والواحد مفردى. ويقال: الحجاب والمفاردة والأجناد ومفاردة الحلقة، ويطلق المفرد على الجندى أو المملوك. يقال: وصل مفرد من الصعيد، ويطلق المفرد على الزمامى، ففى سياحة ابن بطوطة الزماميون هم المفردون، أو المتفردون. وقال: استحضر صاحب الحصن والمفردون، وهم الزماميون، والزمامى هو المستخدم فى ديوان الأزمة.

وذكر عماد الدين الأصفهانى فى تاريخ السلجوقية كلمة صاحب ديوان الزمام. وذكره المسعودى بلفظ الجمع، فقال: ولى الأزمة والخاتم. وقال: أقر الربيع على دواوين الأزمة. وذكر أبو المحاسن ان زمام دار كلمة فارسية مركبة من زمام ودار، ومعنى دار ممسك وليس معناه بيت كما تعتقده العامة. ويقولون: زمام الآدر.

وفى كتاب خليل الظاهرى، زمام الآدر الشريفة هو الطواشى سمى زماما لأن أمور جميع الآدر الشريفة بيده، فقد جعل دار بمعنى بيت كما تعتقده العامة، وهو خلاف التحقيق.

وقال صاحب ديوان[1] الإنشاء. زمام دار أصله زنان دار مركبا من كلمتين فارسيتين، فزنان معناه النساء ودار معناه ممسك، فحرفته العامة إلى زمام، وفسروه بقائد النساء، وهو أكبر الخدام يخاطب الملك فى تعلقات الحريم ويستدعى ما يحتجن إليه وله أتباع بباب الستارة ينصرفون فيما يصرفهم فيه من الوظائف، ويستأذن على تزويج المعتقات والخوندات.

---

(١) صبح الأعشى، للقلقشندى، طبعة دار الكتب، ١٩١٥ جـ ٥، ص ٤٥٩ — ٤٦٠

يؤخذ من (كترمير) أن خوندات جمع خوند أو خوندة وهى جارية الملك التى ولدت منه ، فيقال تولى عقد تزويج جارية السلطان أم بنته .

ونساء مصر يطلقونها على زوجة الملك فيقال صارت خوند الكبرى بعد موت خوند سكرباى الأحمدية . والعادة القديمة أن الخوندات يكن أربعا خوند الخوندات وهى ، خوند الكبرى ، وخوند الثانية ، وخوند الثالثة والرابعة ، وكذلك يطلق على أخت زوجة الملك فى كتاب الإنشاء أن الخواتين (جمع خاتون) من نساء الملوك يعبر عنهن فى زماننا بالخوندات وتطلق أيضا على السيد الأمير وهى كلمة فارسية . انتهى .

ثم قال : إن ما ذكره صاحب كتاب الإنشاء من أن زمام أصله زنان بالنون ليس بصواب وليست هى بمعنى الطواشى فقط بل يطلق أيضا على مربى المماليك ، وأصل زمام فى الأصل مقود الدابة فتصرف فيها ، واستعملت بمعنى المتكلم على الشىء المتقدم فيه فيقال صار لأهله إماما وعلى جده وهزله زماما . انتهى .

ترجمة الشيخ أحمد البرماوى الضرير

وفى الجبرتى[1] أن من هذه القرية الشيخ الفاضل والعلامة العامل أحمد بن على ابن محمد بن عبد الرحمن علاء الدين البرماوى الذهبى الشافعى الضرير . حضر إلى مصر فجاور بالمدرسة الشيخونية ، وحضر دروس مشايخ الأزهر كالشيخ محمد فارس ، والشيخ على قايتباى ، والشيخ الدفرى ، والشيخ سليمان الزيات ، والشيخ الملوى ، والشيخ المدابغى ، والشيخ الغنيمى ، والشيخ الحفنى ، وأخيه الشيخ يوسف ، والشيخ الصعيدى ، ثم تصدر للتدريس وإفادة الطلبة فانتفع به الكثير وكان إنسانا حسنا لا يتداخل فى أمور الدنيا .

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق . جـ ٤ ، ص ٨٠

قال الجبرتى : وأخبرنى ولده الفاضل الشيخ مصطفى أن المترجم ولد بمصر سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف ، وأصابه الجدرى فطمس بصره فأخذه عم أبيه الشيخ صالح الذهبى ودعا له فقال : "اللهم كما أعميت بصره نوّر بصيرته" فاستجاب الله دعاءه ، فكان قوى الإدراك يمشى وحده من غير قائد ، ويركب من غير خادم ، ويأتى إلى الأزهر ولا يخطىء فى الطريق وينتحى مما عساه يصيبه أقوى من / صاحب البصر ، ولم يزل على حاله إلى أن توفى فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف من السنة المذكورة ، وصلى عليه بجامع طولون ، ودفن بجوار المشهد المعروف بالسيدة سكينة رضى الله عنها وعنه .

٣٦

﴿ **برمون** ﴾ اسم مدينة من الوجه البحرى كانت محل إقامة حاكم ونقل (كترمير) من كتب القبط أن القيصر (ديوكلينيان) جعل الأمير (اريان) حاكم الاقاليم القبلية حاكما على جميع الديار المصرية ، وصرفه فيها التصرف المطلق ، من ابتداء الاسكندرية إلى بيلاق والبرمون . واستنبط (كترمير) المذكور من هذا الكلام مما وجده فيما كتب فى السنكزار ـــ كتاب أخبار القبط ـــ أن المقصود هنا من لفظ برمون هو المدينة التى تسميها العرب الفرما ، وقوى ذلك عنده ما هو مذكور فى بعض كتب البطارقة ، من أن أخوين من الرهبان قصدا مدينة برمون للتجارة وعادا منها فى البحر إلى الإسكندرية فى مدة سبعة عشر يوما .

وشرح ما كانت عليه مدينة الفرما فى الأعصر الأول مبسوط فى كتاب أبى الفداء ، والإدريسى ، والمقريزى [1] وغوليوس ، وغيرهم وسيأتى الكلام عليها فى محله .

ومن هذا الاسم ـــ أى برمون ـــ أيضا بلدة من مديرية الدقهلية بمركز شها على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، وفى جنوب ناحية بدواى بنحو خمسة آلاف وخمسمائة متر ، وفى الشمال الغربى لناحية شها بنحو خمسة آلاف ومائتى متر .

---

(١) الخطط للمقريزى ، المرجع السابق . مج ١ ص ٣٧١

وفى كتاب البيان والإعراب عمن بمصر من الأعراب للمقريزى : أن هذه البلدة كانت لعرب الحيادرة ، وهم ولد حيدرة بن معروف بن حبيب بن الوليد بن سويد ، وهم طائفة كثيرة ، ولبنى عمارة بن الوليد بن سويد وفيهم عدد وممن أمر معبد بن منازل وأقطع لمنى أبو جعشم من ولد مالك بن هلبا بن مالك بن سويد وأمر. واقتنى عدة من المماليك والأتراك والروم ، وبلغ من الملك الصالح نجم الدين أيوب منزلة وارتفع قدره فى سلطنة المعز أيبك وقدمه على عرب ديار مصر ولم يزل على هذا حتى قتله غلمانه ، فأقام الملك المعز ابنيه سلمى ودعش عوضه ، ثم قدم دعش دمشق فأمره الملك الناصر يوسف ببوق وعلم ، وأمر الملك المعز أيبك أخاه سلمى كذلك فأبى حتى يؤمر مفرج بن سالم بن راضى بن هلبا بعجه ، ثم أمر مزروع بن نجم كذلك فى جماعة كثيرة من جذام وثعلبة وخلف ابن سالم على أمرته ولده حسان بن منوح ، وكان مهيأ بن علوان بن على بن زبير ابن حبيب بن نائل من هلبا ، جوادا كريما طرقته ضيوف فى شتاء وليس عنده حطب لطعامه الذى أراد أن يصنعه لهم فأوقد أحمالا من بز كانت عنده وكان له كفر برسوط بنواحى مرصفة وكان لبنى زدينى بن زياد بن حسين بن مسعود بن مالك تل محمد . انتهى .

﴿برنبال﴾ من هذا الاسم ثلاث قرى كلها فى الوجه البحرى من مصر ، إحداها بمديرية الغربية من مركز دسوق على الشاطىء الشرقى لبحر رشيد فى شمال قرية مطوس ، بينها وبين رشيد نحو ساعتين ، ومنها إلى فوّة نحو أربع ساعات ، وهى قرية مبنية من الآجر واللبن وبها جوامع بمنارات ، وأطيانها متصلة ببحيرة البرلس ، ويزرع فيها الأرز كثيرا وسائر الأصناف المعتادة ، وكان بها للعزيز المرحوم محمد على قصر ينزل فيه ، وفيه مات ابنه الأمير أحمد باشا الشهير بطوسون ، وذلك أنه بعد أن رجع من بلاد الحجاز وعمل له شنك ودخل القاهرة من باب النصر فى شعار الوزارة سافر إلى الإسكندرية لملاقاة والده وابنه عباس ، وكان قد ولد له فى غيبته ، واستصحبه جده معه وسنه دون السنيين ، ثم عاد إلى مصر ثم رجع إلى رشيد ، وكان عرضيه جهة الحماد قريبا من رشيد ، وجعل ينتقل من العرضى إلى رشيد ثم إلى برنبال وإلى أبى منصور وإلى العزب ، ثم أقام برشيد ومعه بعض أخصائه ثم انتقل بهم إلى قصر برنبال . ففى ليلة حلوله بها أصيب

بالطاعون وتململ نحو عشر ساعات ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى ، وذلك فى ليلة الأحد سابع شهر ذى القعدة من سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف ، وحضره خليل أفندى قولجى حاكم رشيد فغسلوه وكفنوه ووضعوه فى صندوق من الخشب ووصلوا به فى السفينة إلى مصر منتصف ليلة الأربعاء عاشر الشهر.

وكان العزيز وقتئذ بالجيزةفلم يتجاسر أحد على أخباره ، فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك ليلا فاستنكر حضوره فى ذلك الوقت فأخبره أن ابنه ورد إلى شبرى متوعكا ، فركب القنجة حالا وانحدر إلى شبرى ودخل القصر وجعل يمر فى مخادعه ويقول : أين هو ؟ وكانوا قد ذهبوا به إلى بولاق ورسوا به عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك على العزيز باكيا فلما رآه كذلك انزعج انزعاجا شديدا ونزل السفينة وأتى إلى بولاق آخر الليل وعاينه وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان ، فركبوا بأجمعهم إلى بولاق وحضر القاضى والأشياخ والسيد محمد المحروقى ونصبوا مظلة ساترة للسفينة ثم أخرجوا الصندوق الذى هو به ووضعوه على السرير ، ونصبوا عند رأسه عودا وضعوا عليه تاج الوزارة المسمى بالطبلخان ، وساروا بالجنازة من غير ترتيب والجميع مشاة أمامه وليس معهم أحد من الجموع المعتاد / حضورهم فى الجنائز المعتادة ، مثل الفقهاء وأولاد ٣٧ المكاتب ، فمروا من ساحل بولاق على طريق المدابغ وباب الخرق على الدرب الأحمر على التبانة إلى الرميلة ، فصلوا عليه بمصلى المؤمنين ، وذهبوا به إلى المدفن الذى أعده العزيز لنفسه ولموتاه.

كل هذه المسافة والعزيز خلف نعشه ينظر إليه ويبكى ، ومع الجنازة أربعة من الحمير تحمل القروش الفضية وربعيات الذهب وهم ينثرون منها على الأرض والكيمان ، وعن يمين الكتخدا وشماله شخصان يناولانه قراطيس الفضة وهو يفرق على من يتعرض له من الفقراء والصبيان ، فإذا تكاثروا عليه نثر ما بيده عليهم لينشغلوا عنه بالتقاطها ، فكان جملة ما فرق ونثر من الأنصاف العددية خمسة وعشرين كيسا ، عنها من الأنصاف الفضية خمسمائة ألف ، خلاف القروش والربعيات الذهب وساقوا أمام الجنازة ستة رؤس

من الجواميس الكبار ، فرق منها على خدمة التربة ومن حولهم ، وخدمة ضريح الإمام الشافعى والباقى على الفقراء ، وأخرجوا لاسقاط صلاة الميت خمسة وأربعين كيسا تناولها فقراء الأزهر وفرقت فى جامع الفاكهانى ، ولما وصلوا به إلى التربة انزلوه القبر بتابوته وكانوا يطلقون حوله البخور فى مجامر الذهب .

وأما والدته فلم تخبر بموته إلا بعد الدفن ، فجزعت جزعا شديدا ولبست السواد وكذلك جميع نسائه وأتباعه ، وصبغوا براقعهم ، وامتنع الناس من عمل الأفراح ودق الطبول حتى ما يفعله الدراويش فى التكايا ، وأقاموا عليه العزاء عند القبر وجعلوا عنده عدة من الفقهاء والمقرئين يتناوبون قراءة القرآن مدة أربعين يوما ، ورتبوا لهم ذبائح ومآكل وكل ما يحتاجونه وترادفت عليهم العطايا من والدته وأقاربه والواردين عليهم .

ومات رحمه الله وهو مقتبل الشبيبة لم يبلغ العشرين ، وكان أبيض جسيما ، بطلا شجاعا جوادا له ميل لأولاد العرب منقادا لملة الإسلام ، تخافه العسكر وتهابه ، ومن اقترف ذنبا قتله مع احسانه وعطاياه للمنقاد منهم ولأمرائه ولغالب الناس .

وبرنبال الثانية والثالثة كلاهما من مديرية الدقهلية بمركز محلة دمنة واقعتان على البحر الصغير ، إحداهما يقال لها برنبال القديمة وهى البحرية ، والأخرى برنبال الجديدة ، وبينهما نحو نصف ساعة ، وتجاه القديمة ناحية منية القمص ، وتجاه الجديدة كفر علام وفى قبليها كفر قنيش .

وفى برنبال القديمة ثلاثة مساجد وفيها مضيفة لبعض أكابرها بالآجر والمونة وحولها قليل أشجار .

وفى برنبال الجديدة مسجد ومنزل مشيد للوالد ، رحمه الله ، وفيها أربع مضايف ومنظرة حسنة لبعض أكابرها ، ومعملان للدجاج ومصبغتا ، وأربعة أنوال لنسج الصوف وعشر طواحين ، ودكان واحدة يباع فيها العقاقير ، وضريح ولى يسمى أبا عيسى بلا قبة .

وفى شمالها فى أرض المزارع ضريح الشيخ منصور بلا قبة أيضا ، وفيها وابوران أحدهما ثابت والآخر كومبل ، ولنا فيها دوار أوسية ، وفيها باعة يبيعون الخضر والفسيخ ونحو ذلك ، ونواتيه ونجارون ومكتب لتعليم القرآن . وجبانتها فى جهتها الجنوبية ، وحاراتها أربعة ممتدة من الشرق إلى الغرب على استقامة واحدة ، وليس فيها من الأشجار إلا نخلتان ، وكان يعمل بها كل سنة ليلة لسيدى أحمد البدوى ثم بطل ذلك من سنين .

ترجمة المؤلف سعادة الأمير على باشا مبارك

يقول جامع هذا الكتاب على باشا مبارك :

« حيث إنا قد التزمنا عند الكلام على كل بلد ذكر من نشأ منها أو تربى بها أو مات أو دفن فيها ، ممن لهم ذكر أو شهرة بأمر مهم من خير أو غيره ، أو نالوا رتبا أو وظائف شريفة من لدن الحضرة الخديوية أو غيرها من العائلة المحمدية ، أو من قبلها على حسب الإمكان . فنذكر ههنا ترجمتنا وأطوارنا لتصير معروفة ولعلها لا تخلو من فائدة » .

فنقول : إن قرية برنبال الجديدة هى مسقط رأسى وبها نشأت ، وكانت ولادتى فى سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين هجرية ، كما أخبرنى بذلك أبى وأخى الأكبر المرحوم الحاج محمد ، المتوفى فى شهر رمضان سنة ١٢٩٣ . ووالدى هو مبارك بن مبارك بن سليمان ابن إبراهيم الروجى . ذكر لى أخى المذكور أن جدنا الأعلى من ناحية الكوم والخليج قرية على بحر طناح ، وبسبب فشل كبير حصل فى البلد تشتتت عائلتنا فى البلاد ، فمنهم من أقام بناحية دموه وهم عائلة البحالصة ، ومنهم من أقام بناحية الموامنة ، ولم يبق منهم بالبلد الأصلية إلا أولاد غيطاس ، وأقام جدنا الأكبر إبراهيم الروجى بناحية برنبال الجديدة مكرما معظما ، فكان هو إمامها وخطيبها وقاضيها ، وبعد موته عقبه ولده سليمان على وظيفته ، وعقب سليمان ابنه مبارك . ولما رزق مبارك الذى هو الجد الأدنى بأبى سماه على اسمه ونشأ على وظيفة آبائه وأجداده ، وهكذا أكثر العائلة . فلذا كانت تعرف فى البلد إلى الآن بعائلة المشايخ . وهى عائلة كثيرة الفروع بحيث ان منها فى البلد حارة

كاملة تعد نحو مائتى نفس ، ولهم بها وظيفة القضاء والخطبة والإمامة وعقود الأنكحة والكيل والميزان ، وكانت لهم رزقة بلا مال ولم يكن عليهم شىء مما على الفلاحين ولا لهم علائق عند حكام الجهات ، وبقوا على ذلك إلى أن حصل ضعف / أكثر أهل الناحية عن فلاحة الأرض ، وانكسرت عليهم أموال الديوان فرمى الحكام على هذه العائلة مقدارا من الأطيان وطلبوا منهم أموالها المنكسرة عليها ، وضربوا عليهم بعض ضرائب ، وشددوا فى خلاصها بالسجن والضرب كأسوة الفلاحين ، فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة وبعد بذلهم ما بأيديهم وبيعهم المواشى وأثاثات البيوت رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار ، ففارقوا البلد وتفرقوا فى البلاد فنزل والدى بقرية الحماديين من بلاد الشرقية وعمرى إذ ذاك نحو ست سنين . ٣٨

وقبل رحلتنا كنت ابتدأت فى تعلم القراءة والكتابة على رجل من برنبال أعمى يسمى أبا عسر قد توفى بعد ذلك .

ولعدم إكرامنا بناحية الحماديين لم يطب لنا المقام بها ، فلم نلبث فيها إلا قليلا وارتحلنا منها إلى عرب السماعنة بالشرقية أيضا وهم من عرب الخيش ، ولم يكن عندهم فقهاء فأنزلوا والدى منزل الإكرام والإجلال ، وانتفعوا منه وانتفع منهم انتفاعا كبيرا وصار مرجعهم إليه فى الأحكام الدينية ، وكان رجلا صالحا ديِّنا متفقها حسن الأخلاق فأحبوه حبا شديدا وبنوا جامعا جعلوه إمامه .

ولما ارتاح خاطره وارتاحت عنه الشدائد التفت إلى تربيتى ، فعلمنى أولا بنفسه ، ثم أسلمنى لمعلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر من ناحية الكردى ــ قرية بقرب برنبال ، وكان مقيما فى قرية صغيرة قريبة من مساكن هؤلاء العرب ، وجعل الوالد يرسل لى كفايتى عنده ، وكنت لا أذهب إلى بيتنا إلا كل جمعة ومن خوفى منه كنت لا أعود إليه فارغ اليد ، فأقمت عنده نحو سنتين فختمت القرآن بداية .

ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك وجعلت أقرأ عند والدى إلا أنى لكثرة أشغاله واشتغاله عنى استعملت اللعب والتفريط فنسيت ما حفظته ، فخشى والدى عاقبة ذلك فهم بجبرى عل الذهاب إلى هذا المعلم فتعاصيت ونويت الهروب إن لم يرجع عنى .

وكان لى من الأخوات سبع بنات شقيقات ولم يكن لوالدتى من الذكور غيرى ، ولى إخوة ذكور من غير أمى ، فلما فهموا منى نية الهروب أشفقوا من ذلك وحنوا إلى وسألونى عن مرغوبى فى التربية إذ لا يصح بقاء الشخص بلا تربية ، فاخترت أن لا أكون فقيها بهذه المثابة وإنما أكون كاتبا ، لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام .

وكان لوالدى صاحب من الكتاب ، كان كاتب قسم ، وإقامته بناحية الأخيوة فأسلمنى إليه ، فرأيته رجلا حسن الهيئة نظيف الثياب جميل الخط فأقمت عنده مدة ولى من والدى مرتب يكفينى ، فدخلت بيته وخالطت عياله فإذا هو مجمل الظاهر فقير فى بيته ، وله ثلاث زوجات وعيال على قلة من الزاد فكنت فى غالب أيامى أبيت طاويا من الجوع وكان أغلب تعليمه إياى على قلته فى البيت أمام نسائه ، وكان خروجه إلى السرحة قليلا وإذا خرج يستصحبنى معه فلا أستفيد إلا خدمتى له .

ومع ذلك فكان يؤذينى دائما إلى أن كنا يوما فى قرية المناجاة فسألنى أمام الناظر وجماعة حضور عن الواحد فى الواحد فقلت له باثنين فضربنى بمقلاة بن فشجنى فى رأسى ، فلامه الحاضرون . وذهبت إلى والدى أشكو إليه فلم أنل منه إلا الأذية ، وكان يومئذ مولد سيدى أحمد البدوى فهربت مع الناس قاصد المطرية جهة المنزلة لألحق بخالة لى هناك . فمرضت بالريح الأصفر فى طريقى بقرية صان الحجر فأخذنى رجل من أهلها لا أعرفه فتمرضت عنده أربعين يوما ، وقد سألونى عن أهلى فقلت أنا يتيم مقطوع ، وكان والدى فى تلك المدة وأحد إخوتى يفتشان علىّ فى البلاد فاستدل على فى صان ، فلما

رأيته من بعد هربت ونزلت بمنية طريف فأخذنى رجل عربى ولم أقم عنده إلا قليلا ، وهربت منه ولحقت بأخٍ لى فى بلدتنا برنبال وكان قد رجع إليها .

وبعد أيام قدم إلينا أخى الذى كان يفتش على فأخذنى بالحيلة إلى والدى وقد أشكل عليهم أمرى وذهبوا كل مذهب فى كيفية تربيتى وما يصنعون بى ، وجعلوا يعرضون على القراء والكتاب فلم أقبل ، وقلت إن المعلم لا أستفيد منه إلا الضرب ، والكاتب لا يفيدنى إلا الضياع والأذية ويستفيد منى الخدمة .

ثم عرض على والدى أن يلحقنى بصاحب له من كتبة المساحين فرضيت بذلك ، فلما عاشرته رغبت فى عشرته لما كنت أكتسب من صحبته من النقود التى تنالنى مما يأخذه من الأهالى ، فأقمت عنده ثلاثة أشهر .

ولكنى لصغر سنى وعدم معرفتى بما ينفع وما يضر كنت أفشى سره وأخبر عن أخذه من الناس فطردنى ، فبقيت فى بيتنا أقرأ على أبى ، ويستصحبنى فى قبض الأموال الأميرية التى على العرب ، وكان منوطا بذلك ، فكنت أباشر الكتابة وبعض المحاسبات ثم بعد نحو سنة جعلنى مساعدا عند كاتب فى مأمورية أبى كبير بماهية خمسين قرشاء وأبيّض له الدفاتر ، فأقمت عنده نحو ثلاثة أشهر وقد خلقت ثيابى وساء حالى ولم أقبض شيئا من الماهية إلا الأكل فى بيته .

ثم عيننى يوما لقبض حاصل أبى كبير فقبضته وأمسكت عندى منه قدر ماهيتى ، وكتبت له علما بالواصل ووضعته فى كيس النقدية / فلما وقف على ذلك اغتاظ منى وأسرها فى نفسه . ٣٩

وكان مأمور أبى كبير يومئذ عبد العال أبو سالم من منية النمروط فأخبره بذلك ، واتفق أن المأمورية مطلوب منها شخص للعسكرية فأغراه علىّ وتوافقا على إلحاقى بالجهادية لسداد هذه الطلبة ، فنادونى على حين غفلة ، وأمرنى المأمور بالذهاب إلى السجن لكتب المسجونين ، وأصحبنى رجلا من أغوات المأمورية فلما دخلت السجن

أحضروا باشا من الحديد ووضعوه فى رقبتى وتركت مسجونا ، فداخلنى ما لا مزيد عليه من الخوف ، فلبث فى السجن بضعة وعشرين يوما فى أوساخ المسجونين وقاذوراتهم ، وصرت أنتحب فرقّ لى السجان لصغر سنى فقربنى إلى الباب وواسيته بشىء من النقود التى كانت سبب سجنى .

وكنت أرسلت إلى والدى بخبرى فذهب إلى العزيز وكان بناحية منية القمح ، وقدّم له قصتى فى عرضحال فكتب بإخلاء سبيلى وأخذ والدى الأمر بيده .

وقبل حضوره إلىّ أتى إلى السجان صاحب له من خدمة مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير وأخبره أن المأمور محتاج إلى كاتب يكون معه بماهية ، وكان السجان يميل إلىّ فدله علىّ ووصفنى له بالنجابة وحسن الخط ، وعرّفه مسكنتى وماأنا فيه ، فمال الخادم إلى وطلب منى أن أكتب خطى فى ورقة ليراها المأمور ، فكتبت عريضة واعتنيت فيها وناولتها للخادم مع غازى ذهب قيمته عشرون قرشا ليسلك لى الطريق عند مخدومه ووعدته بأكثر من ذلك أيضاً فأخذه .

وبعد قليل حضر بأمر الافراج عنى وأخذنى معه حتى قربت من المأمور وكان يسمى عنبر أفندى ، فنظرت إليه فإذا هو أسود حبشى كأنه عبد مملوك لكنه سمح جليل مهيب ، ورأيت مشايخ البلاد والحكام وقوفا بين يديه وهو يلقى عليهم التنبيهات ، فتأخرت حتى انصرفوا فدخلت عليه وقبلت يده ، فكلمنى بكلام رقيق عربى فصيح ، وقال لى : تريد أن تكون معى كاتبا ولك عندى جراية كل يوم وخمسة وسبعون قرشا ماهية كل شهر ، فقلت : نعم ، ثم انصرفت من أمامه وجلست مع الخدامين .

وكنت أعرف من المشايخ الذين كانوا بين يديه جماعة من مشاهير البلاد أصحاب الثروة والخدم والحشم والعبيد ، فاستغربت ما رأيته من وقوفهم بين يديه وامتثالهم أوامره ، وكنت لم أر مثل ذلك قبل ولم أسمع به ، بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ما جرت به العادة فى تلك الأزمان .

وبقيت متعجبا متحيرا فى السبب الذى جعل السادة يقفون أمام العبيد ويقبلون أيديهم وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب فكان ذلك من دواعى ملازمتى له .

وفى ثانى يوم حضر والدى بأمر العزيز فسلمت عليه وأدخلته على المأمور وعرفته إياه فبش فى وجهه وأجلسه وأكرمه ، وكان والدى جميل الهيئة أبيض اللون فصيحا متأدبا ، آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه ، فكلمه فى شأنى . فقال له : إنى قد اخترته ليكون معى وجعلت له مرتبا فإن أحببت فذاك ، فشكر له والدى ورضى أن أكون معه ، وذكر له أصولنا وحيلتنا وانصرف من مجلسه مسرورا .

ولما سهرت مع والدى ليلا جعلت كلامى معه فى هذا المأمور ، فقلت له : هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ، فأجابنى بأنه يمكن أن يكون عبدا عتيقا ، فقلت : هل يكون العبد حاكما مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاما فضلا عن العبيد ، فجعل هو يجيبنى بأجوبة لا تقنعنى ، فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته . فأقول : وما معرفته ، فيقول لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه . فأقول : وهل التعلم فى الأزهر يؤدى إلى أن يكون الإنسان حاكما ، ومن خرج من الأزهر حاكما . فقال : يا ولدى كلنا عبيد الله والله تعالى يرفع من يشاء ، فأقول : مسلم لكن الأسباب لا بد منها وجعل يعظنى ويذكر لى حكايات وأشعار لم أقنع بها ، ثم أوصانى بملازمته وامتثال أوامره .

وبعد يومين سافر عنى وتركنى عنده ، ثم حدثت لى فكرة أخرى مع الفكرة الأولى فكنت أقول فى نفسى إن الكتابة والماهية كانت هى السبب فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى ، وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك فلو فعل المأمور معى مثل ما فعل الكاتب فمن يخلصنى ، واستمرت الفكرتان فى بالى وكانت همتى فى التخلص من كل ذلك ومن أمثاله وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا نخشى غوائلها .

وفى اثناء ذلك اصطحبت بفرّاش له فجعلت أتفحص منه عن أخبار سيده

وأسباب ترقيه ، وكنت أسترق منه ذلك استراقا بحيث أخلل هذا الكلام بغيره ، فأخبرنى أن سيده مشترى ست من الستات الكبار مرعيات الخواطر أدخلته سيدته مدرسة قصر العينى لما فتح العزيز المدارس وأدخل فيها الولدان ، وأخبرنى أنهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس فحينئذ حاك فى صدرى أن أدخل المدارس وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين فأفادنى أنه يدخلها صاحب الواسطة ، فشغل ذلك بالى زيادة ومع ذلك فلم تفتر همتى ، وسألته عن قصر العينى وعن طريقه وكيف الإقامة فيه ، فأخبرنى عن ذلك كله وأثنى على حسن إقامتهم بها / ومأكولهم ، وملبوسهم ، وإكرامهم ، فازددت شوقا ، وكنت أكتب عندى كل ما يخبرنى به من بيان الطريق ، وقدر المسافة ، واسماء البلاد التى فى الطريق ، وقامت بنفسى فكرة التخلص والتوصل إلى المدارس فطلبت الإذن فى زيارة أهلى ، فأذن لى بخمسة عشر يوما فسافرت إلى أن وصلت فى يوم السبت إلى بنى عياض ، فى قرية فى طريقى ، فتقابلت مع جملة أطفال تحت قيادة رجل خياط ، مع كل واحد دواة وأقلام ، فجلست معهم تحت شجرة وتحادثنا فظهر لى أنهم تلامذة من مكتب منية العز ، وكان ذلك فألا حسنا ورأوا خطى فوجدوه أحسن من خطوطهم ، فقال بعضهم لبعض : لو لحق هذا بالمكتب لكان جاويشا ، فقال الخياط : ذلك قليل عليه فإن خط الباشجاويش الذى عندنا لا يساوى هذا الخط ، فسألتهم : ما الجاويش ؟ وما الباشجاويش ؟ فأفادونى أنهم المقدمون فى المكتب ، فجعلت أستفهم عن المكتب وصفته ، وجعل الخياط يحسن لى أوصافه ويغرينى على دخوله ، وافهمنى أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس بلا واسطة ، فرأيت ذلك غاية مرغوبى فلم أتأخر عن الذهاب معهم ، ودخلت المكتب ، فإذا ناظره من معارف والدى ، فأراد أن يمنعنى من الانتظام فى عقد التلامذة واجتهد فى ذلك لمرضاة والدى ، فلم اسمع كلامه ، وبقيت فى المكتب خمسة عشر يوما ، وكان الناظر قد أرسل إلى والدى فلما جاءه قص عليه خبرى واراه أنى راغب جدا . وأنى قلت له : إن لم يكتبنى فى المكتب اشتكيته ، ثم دبر معه حيلة على أخذى على حين غفلة منى ومن التلامذة فانتظر خروجنا للفسحة والأكل فى وقت الظهر فاختطفنى والدى إلى بلدتنا ، وحبسنى فى البيت نحو عشرة أيام كل ذلك ووالدتى تبكى علىّ وتستعطفنى للرجوع عما

٤٠

يوجب فراقهم ، وتحلفنى أن أرجع عن تلك النية فوعدتها بالرجوع عن ذلك ارضاء لخاطرها فاطلقونى . وكانت لنا غنيمات صرت أرعاها وأبعدونى عن حرفة الكتابة التى ربما تكون سببا لفراقهم ، فبقيت كذلك مدة حتى اطمأن خاطرهم ، وظنوا أن فكرتى ذهبت عنى مع أنها لا تفارقنى وإنما كنت أخفيها ، إلى أن انتهزت فرصة فى ليلة من الليالى فصبرت إلى أن ناموا جميعا وأخذت دواتى وأدواتى وخرجت من عندهم خائفا أترقب ، وتوجهت تلقاء منية العز ، وكان ذلك آخر عهدى بسكناى بين أبوىّ .

وكانت ليلة مقمرة فمشيت حتى أصبحت ، فدخلت منية العز ضحى ، ولم يرنى الناظر إلا وأنا مع الأطفال فى داخل المكتب ، والتزمت أن لا أخرج منه ليلا ولا نهارا مخافة اختطافى ، ثم حضر والدى وعمل طرق التحيل علىّ هو والناظر فلم ينجع ذلك فىّ ورجع بلا حاجته وجعل يتردد علىّ طمعا فى أخذى من المكتب ، حتى جاءنا ناظر مكتب الخانقاه عصمت أفندى ، لفرز نجباء التلاميذ إلى قصر العينى ، فكنت ممن اختير لذلك ، فحضر والدى واشتكى لعصمت أفندى فقال له : هذا ابنك أمامك وهو مخير ، فخيرونى فاخترت المدارس ، فعند ذلك بكى والدى كثيرا وأغرى علىّ جماعة من المعلمين وغيرهم ليستميلونى ، فلم أصغ لهم ، وكان ما قدر الله ولا راد لما قدره ، فدخلت مدرسة قصر العينى فى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف ، وأنا يومئذ فى سن المراهقة ، وصرت فى فرقة برعى أفندى ، فوجدت المدارس على خلاف ما كنت أظن بل بسبب تجدد أمرها كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها والتربية والتعليمات غير معتنى بها ، بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشى العسكرى ، فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر ، وبعد الأكل وفى أماكن النوم ، وكان جميع المتكلمين على التلامذة يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والإهانة من غير حساب ولا حرج ، مع كثرة الاغراض والاعراض عن الاعتناء بشئونهم من مأكولات وخلافها وكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء وأحرمة الصوف الغليظ من شغل بولاق ، ومن كراهتى للطبيخ المرتب لنا جعلت إدامى الجبن والزيتون .

وكان برعى أفندى يراعينى بالنسبة لغيرى ، وكان معى قليل من النقود جعلته أمانة تحت يده ، فلما رأيت هذه الحالة ضقت ذرعا وظننت إنى جنيت على نفسى فى دخول

المدارس التى بهذه المثابة ، ثم لتغير الهواء المعتاد وكثرة ما قام بى من الأفكار اعترتنى الأمراض ، وطفح الجرب على جسمى ، فادخلونى الاسبتالية ، فتراكمت علىّ الأمراض ، حتى أيسوا من حياتى ، ولكن الله سلم ، وفى اثناء ذلك حضر والدى وطلب أن يرانى فلم يمكنوه من الدخول ، فجعل لبعض التمارجية خمسين محبوبا من الذهب جعلا ، على أن يخرجنى من الاسبتالية سرا ليخلصنى مما أنا فيه فلم أشعر إلا والتمارجى قد كسر شباك الحديد من المحل الذى أنا فيه وأخبرنى بمرغوب والدى وأنه واقف ينتظرنى خارج المدرسة ، وأراد أن ينزلنى من الشباك ، ويوصلنى إليه ليأخذ جعله فمالت نفسى لإجابته ، والذهاب مع والدى وترك المدارس وأهلها لما رأيت من الشدائد وعدم التعلم ، وما لحقنى من الجوع فى الاسبتالية حتى كنت أمص العظم الذى يلقيه الآكلون ، لكنى فكرت فى عاقبة الهروب فإنهم كانوا يطلبون من يهرب من التلامذة / ويقبضون على أهله ويقيدونهم ويهينونهم ، فامتنعت من الخروج معه فاجتهد فى التحيل علىّ وتسهيل الأمر لدىّ ، فأبيت وقلت : أصبر على قضاء الله وأنا الجانى على نفسى ، وقلت له : بلغ والدى السلام وسله أن يدعو لى ، وأن يبلغ والدتى عنى السلام ، ثم إن والدى توسط حتى دخل عندى ورآنى ورأيته ، وقبلنى وقبلته ، وبكى وبكيت ، ثم ودعنى ومضى لسبيله وله زفرات ولى عبرات ولسان الحال يقول :

٤١

عسى الكرب الذى أمسيت فيه ... يكـون وراءه فـرج قـريب

ثم شفيت وخرجت إل المدرسة واشتغلت بدروسى ، ولم أمرض بعد ذلك .

وفى أواخر سنة اثنتين وخمسين نقلونا إلى مدرسة أبى زعبل ، وجلعوا قصر العينى لمدرسة الطب خاصة ـ كما هو الآن ـ فكانت إدارة المدرسة فى أبى زعبل كما كانت فى قصر العينى ، إلا أنه اعتنى بالتعليم شيئا ، بسبب جعل نظرها للمرحوم إبراهيم بيك رأفت .

وكان أثقل الفنون علىّ وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو ، فكنت أراها كالطلاسم ، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة ، وبقيت كذلك مدة ، إلى أن جمع

المرحوم إبراهيم بيك رأفت متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة ، من انتقالنا إلى مدرسة أبى زعبل وجعلهم فرقة مستقلة فكنت أنا منهم بل آخرهم ، وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة ، ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة ، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة فى أوائل الفنون ، وأن هذه الحروف التى اصطلحوا عليها إنما تستعمل فى أسماء الأشكال وأجزائها كاستعمال الأسماء للأشخاص ، فكما أن للإنسان أن يختار لابنه ما شاء من الأسماء كذلك المعبر عن الأشكال له أن يختار لها ما شاء من الحروف ، فانفتح من حسن بيانه قفل قلبى ووعيت ما يقول ، وكانت طريقته هى باب الفتوح علىّ ، ولم أقم من أول درس إلا على فائدة ، وهكذا جميع دروسه ، بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم . فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى ، وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعلم السيئة ، وكان رأفت بيك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهانا على سوء تعليم المعلمين ، وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة .

وفى تلك السنة وهى سنة خمس وخمسين فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فاختارونى فيمن اختاروه ، فأقمت بها خمس سنين ، وأخذت جميع دروسها وكنت فيها دائما أوّل فرقتى وقلفتها ، فتلقيت بها الجزء الأول من الجبر على المرحوم طائل أفندى . وكذلك تلقيت عنه علم الميكانيكا ، وعلم الديناميكا ، وتركيب الآلات ، وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بيك أبى سن ، وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى ، وعلم الأدروليك على المرحوم رفلة أفندى ، وعلم الطبوغرافية والنرورزية على المرحوم إبراهيم أفندى رمضان ، وعلم الكيمياء والطبيعة والمعادن والجيلوجية وحساب الآلات على المرحوم أحمد بيك فائد ، والهندسة الوصفية وقطع الأحجار ، وقطع الأخشاب والظل والنظر بعضه على إبراهيم أفندى رمضان ، وبعضه على المرحوم سلامة باشا ، وتلقيت عليه أيضا خاصة القوسموغرافية .

ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقيه المعلمون ، وكان المعلمون يومئذ يبذلون غاية مجهودهم فى التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ فى كراسه جميع ما يلقى إليه ، خصوصا الأشكال والرسوم ، ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ما تعلموه فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه ، وفى آخر مدة المهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ، فاستعانت بها التلامذة وحصل منها النفع ، ثم تكاثر طبع الكتب شيئا فشيئا إلى الآن ، فصارت تطبع الفنون بأشكالها ورسومها فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها .

ثم فى سنة ستين عزم العزيز على ارسال أنجاله الكرام إلى مملكة فرانسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم ، وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنساوى إلى المهندسخانة فانتخب عدة من تلامذتها فكنت فيهم ، وكان ناظرها يومئذ (لامبير بيك) فاراد أن يبقينى بالمهندسخانة لأكون معلما بها ، فعرضت على سليمان باشا أنى أريد السفر مع المسافرين ، وجعل الناظر يحتال على ، وأحال علىّ الخوجات ليثبطونى عن السفر ، وقالوا لى إن بقيت ههنا تأخذ الرتبة حالا ، وتترتب لك الماهية ، وإن سافرت تبقى تلميذا ، وتفوتك المزية ، ورأيت أن سفرى مع الأنجال مما يزيدنى شرفا ورفعة / واكتساباً للمعارف فصممت على السفر ، مع أنى أعلم أن أهلى فقراء ، ويعود عليهم النفع من الماهية وهم منتظرون لذلك ، لكن رأيت الكثير الآجل خيرا من هذا القليل العاجل ، فحصل ما أملته والحمد لله . ٤٢

فسافرنا إلى تلك البلاد ، وجعل مرتبى كل شهر مائتين وخمسين قرشا ماهية كفرقى ، فجعلت نصفها لأهلى تصرف لهم من مصر كل شهر ، وكانت هذه سنتى معهم منذ دخلت المدارس ، فأقمنا جميعا بباريس سنتين فى بيت واحد مختص بنا ، ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس ، والضباط والناظر من جهادية الفرنساوية ، لأن رسالتنا كانت عسكرية وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم .

وهنا نكتة نذكرها :

وهى أن معلومات رسالتنا كانت مختلفة ، فبعضنا له إلمام بالتعليمات العسكرية فقط ، مثل الذين أخذوا من الطوبجية والسوارى والبيادة ، والبعض له إلمام بالعلوم الرياضية ولا يعرفون اللغة الفرنساوية كالمأخوذين من المهندسخانة الذين أنا منهم ، والبعض له معرفة باللغة الفرنساوية ، وكان بعض هؤلاء معلمين فيها بمدارس مصر ، فاقتضى رأى الناظر أن يجعل المتقدمين فى الرياضة واللغة الفرنساوية فرقة واحدة وكنت أنا منهم ، وأمر المعلمين أن يلقوا الدروس للجميع باللغة الفرنساوية لا فرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد إعطاء الدروس ، فكان العارفون باللغة يبخلون علينا بالتعليم لينفردوا بالتقدم ، فمكثنا مدة لا نفهم شيئا من الدروس حتى خفنا التأخير ، وتكررت منا الشكوى ، لتغيير هذه الطريقة ، وتعليمنا بكلام نفهمه ، فلم يصغ لشكوانا ، فتوقفنا عن حضور الدرس أياما فحبسونا ، وكتبوا فى حقنا للعزيز محمد على ، فصدر أمره بالتنبيه علينا بالامتثال ومن يخالف يرسل إلى مصر محددا ، فخفنا عاقبة ذلك وبذلت جهدى وأعملت فكرى فى طريقة يحصل لى منها النتيجة ومعرفة اللغة الفرنساوية ، فسألت عن كتب الأطفال فنبؤنى عن كتاب فاشتريته ، واشتغلت بحفظه وشمرت عن ساعد جدى فى الحفظ والمطالعة ، ولزمت السهاد وحرمت الرقاد فكنت لا أنام من الليل إلا قليلا حتى كان ذلك ديدناً لى إلى الآن ، فحفظت الكتاب بمعناه عن ظهر قلب ، ثم حفظت جزءا عظيما من كتاب التاريخ بمعناه أيضا ، وحفظت أسماء الأشكال الهندسية والاصطلاحات ، كل ذلك فى الثلاثة شهور الأول وكانت العادة أن الامتحان فى رأس كل ثلاثة شهور وكنت مع ذلك ألتفت للدروس التى تعطيها الخوجات ، فأثمر الحفظ معى ثمرة كبيرة وصرت أول الرسالة كلها بالتبادل مع حماد بيك وعلى باشا إبراهيم .

ولما حضر إلى مدينة باريس المرحوم إبراهيم باشا عسكر الديار المصرية حضر امتحاننا هو وسر عسكر الديار الفرنساوية مع ابن ملكهم وأعيان فرنسا وجملة من مشاهير النساء الكبار ، فأثنى الجميع علينا الثناء الجميل ، وفرقت علينا المكافآت نحن الثلاثة ،

فناولنى المرحوم إبراهيم باشا مكافأتى بيده وهى المكافأة الثانية ، وكانت نسخة من كتاب جغرافية مالطبرون الفرنساوى ، بأطلسها منه هبة ، ودعينا للأكل مع سر عسكرنا إبراهيم باشا . ولما رجع إلى مصر صار يثنى علينا عند العزيز وغيره .

وبعد تمام سنتين تعين الثلاثة الأول من فرقتنا وهم : أنا وحماد بك وعلى باشا إبراهيم إلى مدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بناحية ميتس من مملكة فرنسا أيضا ، وأعطينا رتبة الملازم الثانى فأقمنا بها سنتين أيضا وتعلمنا فيها فن الاستحكامات الخفيفة والاستحكامات الثقيلة ، والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنية ، والألغام وفن الحرب وما يلحق به مع إعادة جميع ما سبق تعليمنا إياه . بتلخيص من المعلمين فى عبارات وجيزة جامعة .

ولم يحصل امتحاننا فى هذه المدرسة إلا فى آخر السنتين فكنا فى النمرة الخامسة عشرة من نحو خمسة وسبعين تلميذا ، ثم تفرقنا إلى الآلايات فكنت فى الآلاى الثالث من المهندسين الحربيين ، فأقمت فيه أقل من سنة .

وكان المرحوم إبراهيم باشا يوّد إقامتنا فى العسكرية حتى نستوفى فوائدها ، ثم نسيح فى الديار الأوروباوية لنشاهد الأعمال ونطبق العلم على العمل مع كشف حقائق أحوال تلك البلاد وأوضاعها وعادتها ، وكان ذلك نعم المقصد . ولكن أراد الله غير ما أراد هو ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى .

وفى سنة ست وستين من الهجرة تولى حكومة مصر المرحوم عباس باشا ، فطلبنا للحضور إلى مصر نحن الثلاثة ، وكان علىّ دين لبعض الإفرنج نحو ستمائة فرنك ، وكانت الأوامر المقررة أن لا يسافر أحد إلا بعد وفاء دينه ، وأن من يأتى منا إلى مصر مدينا يوضع فى الليمان ، فوقعت فى أمر خطير وبقيت متحيرا وطلبت من رفقتى أن يسلفونى ، فقالوا ما عندنا ما نسلفك إياه وأنا أعلم تيسر بعضهم واقتدارهم فقعدت فى محل إقامتى أفكر فيما أصنع ، وإذا بصاحب لى من الإفرنج دخل علىّ يدعونى للأكل عنده حيث أنى مسافر فوجد حالى غير ما يعهد / فسألنى فأخبرته ، فقال : لا تحزن ، قل

٤٣

يا سيد يا بدوى يا من تجيب الأسير خلصنى مما أنا فيه ، فقلت له : ليس الوقت وقت هزل ، فقال : هذا أمر هين لا يهمك . ثم ذهب فغاب قليلا ورجع إلىّ بكيس رماه أمامى فإذا فيه قدر الدين مرتين ، وقال لى : بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك ترسل إلى وفاءه ، ولم يأخذ منى سندا بوصول المبلغ ، وقال: أنا أكتفى بالقول منك، وقد كان .

وحضرنا إلى مصر فى تلك السنة ، وأرسلت إليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة ، ومن حينئذ بطل المكتب الذى خصصه العزيز للتلامذة فى بلاد أوروبا ، وبطلت الرسالة المصرية ومن بقى هناك كان فى مدارس الفرنساوية تحت نظارتهم بمصروف على الميرى .

ولما جئنا إلى مصر مكثنا جملة أيام لا ندرى ما يفعل بنا ، ثم طلبنا إلى طرف حسن باشا المناسترلى ـ وهو الكتخدا يومئذ ـ وأحسن إلينا نحن الثلاثة دون غيرنا برتبة يوزباشى أول ، وتعينت خوجة بمدرسة طرا ، وتعين على باشا إبراهيم وحماد بيك فى ألاى الطوبجية بطرا أيضا ، وتعين الذين كانوا بمدرسة أركان حرب الفرنساوية فى معية رئيس رجال أركان حرب سليمان باشا الفرنساوى برتبتهم الأولى وهى رتبة الملازم ، ورفت الباقون .

ثم فرزت تلامذة المدارس وتشكلت مدرسة المفروزة من متقدمى تلامذة جميع المدارس ، ولم يبق بمدرسة طرا إلا جماعة قليلون متقدمون فى السن قد أزمنوا فى المدرسة .

وكان ناظرها يومئذ (برنستو بيك) من ضباط طوبجية فرنسا المعروفين ، وكان رجلًا رقيق الطبع ، حسن الأخلاق ، حسن التدبير ، حسن القيام بوظائفه . فأحضرنى مع باقى المعلمين وقال لنا : إن التلامذة الباقين صاروا إلى ما ترون من قلة العدد وكبر السن وطول المدة ، وأخاف أن ذلك يدعوكم إلى التكاسل لكنى أرجوكم كما هو الواجب عليكم أن تبذلوا الجهد معهم زيادة حتى تستميلوهم إلى الاستفادة على قدر الإمكان وأملى أن هذه الحالة لا تدوم ، وعما قليل تستقيم الأحوال وعلىّ وعليكم أن نقوم بواجب الامتثال وأداء ما علينا .

ثم قال لى : خصوصا إنك قد اشتغلت بفن الهندسة الحربية ، وقد بلغنى أن (جاليس بيك) يرغب أن تكون معه ، وألح كثيرا فى طلبك ولم يجب إلى مرغوبه وأظن أن الأمر يؤول إلى الحاقك به فلا تضجر واصبر فعاقبة الصبر خير ، والآن لم يكن عندك إلا تلميذ واحد وعن قريب ألحق لك به غيره ، فشكرناه على نصيحته وانصرفنا .

واشتغل كل منا بما نيط به ، وفى تلك المدة تأهلت بكريمة معلمى فى الرسم بمدرسة أبى زعبل ، وكان أبوها قد مات وصارت إلى حالة الفقر ، فتزوجت بها لما كان لوالدها علىّ من حق التربية والمعروف ، ثم حدثتنى نفسى أن أستأذن لزيارة أهلى بعد هذه الغيبة الطويلة فكلمت الناظر فى ذلك ، فقال لى : إن من يسافر يقطع نصف ماهيته وأنت الآن محتاج إليها فالأحسن أن تصبر حتى أكلم سليمان باشا الفرنساوى ليأخذك معه فى مأمورية استكشاف البحيرة والسواحل ، فإذا حصل ذلك يتم مرغوبك بسهولة ، وقد حصل وأخذت المأمورية وسافرت معه .

ولما كنا بدمياط انفصلت عنه فى جهة من المأمورية وبعد أن سحت البحيرة وحررت جرنالها ورسمها ذهبت إلى بلدتنا برنبال ، وكان أهلى قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة ، فوجدت أن أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى ، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض إخوتى ، وكان دخولى عليهم ليلا فطرقت الباب فقيل من أنت ؟ فقلت : ابنكم على مبارك ، وكانت مدة مفارقتنى لأمى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولا سمعت صوتى ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتحد النظر ، وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية ، لابسا سيفا وكسوة تشريف ، وكرّرت السؤال حتى علمت صدقى ففتحت الباب وعانقتنى ، ووقعت مغشيا عليها ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرت .

وجاء أهل البيت والأقارب والجيران وامتلأ المنزل ناسا ، وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب .

ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الإكرام ، وتريد عمل وليمة وهى

فارغة اليد ، ورأيتها تبكى ففهمت حقيقة الحال فناولتها عشرة بنتو كانت بجيبى ففرحت وأولمت ، فأقمت عندهم يومين ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعودة ، ورجعت إلى دمياط وأوردت نتيجة الاستكشاف على رئيس الرجال ، فوقعت عنده موقع الاستحسان وأثنى علىّ وأخبرنى أنه استحصل على أمر من عباس باشا بإلحاقى بمعية (جاليس بيك) فقبلت يده وشكرت له .

ولما رجعنا إلى المحروسة استأذنته وسافرت إلى الإسكندرية بعيالى وأخ وأخت صغيرين كنت أربيهما . فلما وصلت هناك تركتهم فى المركب وذهبت إلى (جاليس بيك) فوجدت عنده سليمان باشا الفرنساوى قد سبقنى ، وكذا غيره من الأمراء والضباط ، فجلست بعد أداء الواجب ، وبينما فنجان القهوة بيدى إذا بمكتوب وارد بالإشارة من المرحوم عباس باشا يطلبنى حالا فى الوابور المتهيىء للقيام ، فاغتم لذلك (جاليس بيك) وداخلنى مالا مزيد عليه من الخوف لما كنت أعلم مما كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الإيذاء ، وكان / لى اجتماعات بالخديوى اسماعيل وغيره منهم ، فهوّن على سليمان باشا الفرنساوى وقال : لعله يريد أن يجعلك معلما لابنه لأنه تكلم فى ذلك مرارا فلا تخف ، فقلت : إن أهلى فى المركب وكيف أصنع بهم ، فقال : أنا أنوب عنك فيهم وأرسلهم وراءك إلى مصر ، فخل عنك هذا الأمر وامض بسلامة الله . ٤٤

فمن غير أن أرى عيالى ولا أن يعلموا بى ، سافرت فى الوابور وأنا بين راغب وراهب . ولما تمثلت بين يدى المرحوم عباس باشا أنا وحماد بيك وعلى باشا إبراهيم قال لى : أنت على أفندى مبارك ؟ قلت : نعم ، فقال : إن أحمد باشا (يعنى أخا الخديوى السابق) قد أثنى عليك فقد جعلتكم فى معيتى ، وقد أمرت بامتحان مهندسى الأرياف ومعلمى المدارس ، لأن الكثير منهم ليسوا على شىء ، وجعلتكم من أرباب الامتحان ، وشرط علينا أن لا نتكلم إلا بالصدق ولو على أنفسنا ، وإذا عثر على أن أحدا منا كذب فى شىء فجزاؤه سلب نعمته ، وإلباسه لبس الفلاحين ، وسلكه فى سلكهم ، ثم حلّفنا على ذلك واحدا واحدا فحلفنا ، وحينئذ أنعم علينا برتبة الصاغقول أغاسى ، وأعطانا

نيشانات الرتبة وهى عبارة عن نصف هلال من الفضة ، ونجمة من الذهب فيها ثلاثة أحجاز من ألماس ، وخرجنا فرحين واشتغلنا بما نيط بنا على الوجه الأتم

وسافرنا معه إلى الجهات القبلية وصار امتحان المهندسين وتعويض كثير بآخرين من أرباب المعارف الذين تربوا فى المهندسخانة .

وفى هذه السفرة أحيل علينا الكشف على شلال أسوان لبيان الطريق الأوفق لسير المراكب ، فاستكشفنا ذلك وقدمنا به جرنالاً ورسما فأتى على الغرض المطلوب .

ومذ كنا بأسيوط أمرنا بالذهاب إلى منفلوط لبيان ما يلزم عمله فى تحويل البحر عنها ، فتوجهنا مع الكاشف جمال الدين ، كبير هذه المدينة ، وقررنا ما يلزم إجراؤه لمنع هذا الداء العضال عنها ، فأجرى وحصلت نتيجته .

ثم لما عدنا إلى المحروسة صدر الأمر بتوجهنا إلى القناطر الخيرية للمشورة مع (موزيل بيك) باشمهندسها فيما يلزم عمله لتسهيل سير المراكب بها ومنع العطب عنها ، فإن الخطر كان متتابعا فيها لشدة التيار هناك ، لأن القناطر كانت قد قاربت التمام ولم يبق إلا الافتحات الوسط ، فكان كثير من المراكب يتعطل إن لم يعطب وكان (موزيل بيك) قد أبدى رأيا بعمل ترع تمر فيها المراكب وقدمه للمرحوم عباس باشا ، فلم يوافقه عليه لما فى ذلك من كثرة المصرف .

وهذا هو السبب فى تعييننا فبالتداول حصل اتفاقنا على استعمال وابورات تسحب المراكب بالارغاطات ، وعرض ذلك عليه فأعجبه وأجرى به العمل وأبطل التصميم الأول . وكان كثيرا ما يحيل علينا أشغالا ترد من الدواوين مما يتعلق بالهندسة فنقوم بها.

وفى أواخر سنة ست وستين كان قد عرض عليه من طرف (لامبير بيك) ترتيب للمدارس الملكية والرصدخانة ، يبلغ منصرفه نحو عشرين ألف كيس ، فاستعظمه وأحال علينا النظر فيه بشرط أن لا نفشيه ، فتداولنا ذلك بيننا أياما ولم تتفق آراؤنا ، فخفت

فوات الوقت قبل تمام العمل ، فشرعت وحدى فى عمله من غير انتظار لرأى أحد فعملت لجميع المدارس ترتيبا بلغ منصرفه ألف كيس ، وجعلت أساس ذلك احتياجات القطر لا غير ، وأن جميع المدارس الملكية تكون فى محل واحد تحت إدارة ناظر واحد وأسقطت الرصدخانة بالمرة من الترتيب لعدم وجود من يقوم بها حق القيام ،إذ ذاك ،من أبناء الوطن ، مع احتياجها إلى كثرة المصرف . وأبديت فى الترتيب أنه يلزم توجيه جماعة إلى بلاد الإفرنج ليتعلموا فنون الرصدخانة ، وبعد قدومهم يصير فتحها وإدارتها ، وعينت لذلك محمود باشا الفلكى وكان إذ ذاك برتبة صاغقول أغاسى واسماعيل باشا الفلكى وحسين بك إبراهيم ، وكانا من التلامذة الذين تموا دروسهم . ثم قرأت ذلك الترتيب على رفيقى فسلم يوافقانى عليه ، فقلت : هو عندنا محفوظ فإن لم نعمل غيره نقدمه ليمتنع عنا اللوم .

وقد كان ذلك عين الصواب لأنه بعد قليل طلب منا تقديم الترتيب ، ولم نكن عملنا غير هذا فقدمناه فاستغربه المرحوم عباس باشا ، وعجب مما فيه من الأصول المخترعة مع قلة مصرفها . وقال : من عمل هذا ؟ فقلت : أنا عملته ، ووجد آراء صاحبى مختلفة ومخالفة لذلك ، فأحال النظر فيه على مجلس ينعقد من جميع رؤساء الدواوين مع حضورى وحضور (لامبير بيك) فانعقد المجلس ثمانية أيام ، وبعد المناقشة الطويلة استقر رأى الجميع على هذا ، وصدرت خلاصة باستحسانه واستحقاقى رتبة أميرالاى ، فطلبنى المرحوم عباس باشا وسألنى عما أراه من نجاح هذا الترتيب وعدمه لدى العمل به ، فقلت هذا رأيى فإن أحسن مديره إدارته وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح وإلا فلا ، فإن الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها من لا يحسن إدارتها من جاهل أو مفرط ، وتدوم على حالها إذا كانت بيد من يحسن إدارتها ، فعجب من جراءتى واستحسن جوابى ، وقال : فهل تضمن ذلك ؟ فقلت : كيف وقد ضمنه الجميع بالقرار الذى عملوه ، فأحال علىّ نظارتها وأعطانى الرتبة والنيشان ، وجعل/على باشا إبراهيم ٤٥ معلم نجله إلهامى باشا ، وحماد بيك ناظر قلم هندسة برتبة بكباشى ، فأجريت إدارة المدارس المهندسخانة وما يلحق بها ، وأحال على تعيين معلمى المفروزة وترتيب دروسها ، واختيار ما يلزم لها من الكتب ، فأجريت ذلك وكان لى عنده منزلة .

وفى مدة نظارتى كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين ، وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر ، طبع فيها للمدارس الحربية والالايات الجهادية نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة ، غير ما طبع فى كل فنّ بمطبعة الحجر للمهندسخانة وملحاقتها ، من الكتب ذات الأطالس والرسومات وغيرها ، مما لم يسبق له طبع واستعملت فى رسم أشكالها وأطالسها التلامذة لا غير ، وقد حصل منها الفوائد الجمة العمومية ، وكل ذلك كان لا يشغلنى عن التفاقى للتلامذة مدة فى مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم وتعليمهم ، وغير ذلك ، وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلّم التلميذ كيف يلبس ، وكيف يقرأ ، وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يلقى الدرس ، وكيف يؤدب التلامذة . ولا يمضى يوم إلا وأدخل عند كل فرقة ، وأتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة حتى الفراشين فى القيام بما عليهم كما ينبغى ، فامتنع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ومفاسد كثيرة ، ولم أكتف بذلك بل رتبت على نفسى دروسا كنت ألقيها على التلامذة ، كالطبيعة ، والعمارة ، وألفت فى العمارة كتابا بقى متبعا فى التعليم بالمدارس وإن لم يطبع .

وبحمد الله نجح مسعانا ونجب كثير من التلامذة ، وقاموا بمصالح كثيرة ، وحصل بهم النفع العظيم ، وترقى جمع منهم إلى الرتب العالية ، وشاع الثناء عليهم فى المعارف والآداب ، وشهدت لهم بالفضل أعمالهم المهمة التى أجروها ، ولكثير منهم معرفة باللغة الفرنساوية بحيث يجيد التكلم بها كمن تعلموا فى أوروبا ، وخرج منهم معلمون متقنون فيها وفى غيرها .

وكان أمر المدارس كل حين لا يزداد إلا صلاحا ، ولا التلامذة إلا نجاحا ، ولا المعلمون إلا اجتهادا .

وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء ، وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة ، وكان ما يحصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت ، والثناء ، والتشويق ، والترغيب ، داعيا حثيثا لهم لزيادة الجد والاجتهاد ، وجرت بين المعلمين مواد المودة

والألفة ، وتربت الأطفال على الأخوة وغرس فيهم حب التقدم ، وشرف النفس ، والعفة ، حتى وصلت النظارة للاكتفاء فى تأديب من فرط منه أمر بالنصيحة واللوم وانقطع الشتم والسفه وكاد يمتنع الضرب والسجن .

وبالجملة فكانت أغراضى فيهم أبوية انظر للجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولاده.وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته حتى يحصل الغرض من التربية ، وقد تحقق لى نتيجة ما صرفته من الهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم .

فإنه لما تولى المرحوم سعيد باشا ولاية مصر ورمى عنده فى المدرسة بعض المفسدين بلسان الحسد والفتنة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة واختلقوا لها معايب لم تكن فيها :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا إنه لدميم

حتى أوجب ذلك انفصالى عنها ، وتعينت للسفر مع العساكر لمحاربة المسكوب مع الدولة العلية ، وذلك فى سنة سبعين ومائتين وألف ، خرج جميع التلامذة كبيرهم وصغيرهم من المدرسة قهرا عن ضباطهم ، ووقفوا بساحل البحر أمام السفينة التى نزلت فيها للسفر إلى الاسكندرية ، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحاب الولد على والده ، حتى بكت عينى لبكائهم ، ولكن انشرح صدرى لمشاهدة ثمرات غرسى وآثار تربيتى فحمدت الله .

ثم سافرت بمعية أحمد باشا المناكلى فأقمت فى هذه السفرة قريبا من سنتين ونصف ، وقد لطف الله بى وأحسن إلىّ وردّ كيد الحاسدين فى نحورهم ، فإنى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار وما يلحق المجاهدين من الأرجاف والاضطرابات والحرمان من المألوفات لكن رأيت بلادا وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناسا كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية ، فإنى أقمت أربعة أشهر بالقسطنطينية اشتغلت فيها بتعلم تلك اللغة ، كما أنى أقمت عشرة شهور فى بلاد القريم كان يحال علىّ فيها أمر المحاورة بين المسكوب والدولة العثمانية بأمر مجلس العسكرية ، وأقمت ثمانية شهور فى بلاد الأناطول أغلبها فى مدينة كوشخانة أى (بيت الفضة) لوجود معدن الفضة هناك

وهى مدينة عامرة ، على رأس جبل، وكان منوطا بى وأنا بها تسهيل سوق العساكر . من مدينة طرابزان الواقعة على البحر الأسود إلى مدينة أرض روم وكان ذلك فى وقت الشتاء وشدة البرد والثلج الكثير هناك مع صعوبة ما فيها من العقبات، ما بين جبال شاهقة وأودية منخفضة ، فقاسيت من ذلك شدائد مهمة وأهوالا مدلهمة ، وكنت أباشر كل فرقة فى سلوكها بنفسى لا يصحبنى غير خادمى ، وجمعت المصابين / بالبرد، وجعلت لهم اسبتالية بمدينة كوشخانة ٤٦ وهيأت مفروشاتها ولوازمها ، بعضها بالشراء ، والبعض من طرف أهالى المدينة .

ولاشتغال الحكماء بالالايات استعملت فى مباشرة المرضى رجلا مكيًا له المام بالحكمة ، وسلكنا فى المعالجة عادات أهل تلك الجهة ، فأثمر ذلك ثمرة عظيمة حتى إذ تهيأنا للسفر ، شهد لى بحسن المسعى أعيان المدينة وأكابرها من القاضى ، والعلماء ، والأمراء ، وكتبوا بذلك مضبطة وضعوا فيها شهادتهم ، وهى عندى إلى الآن وعليها أيضا ختم خالد باشا مأمور سوق العساكر العثمانية ، إلى غير ذلك من فوائد الأسفار على ما بها ، من الآصار .

وكنت وأنا فى المدارس قد لحقنى الدين بسبب ما احتجت إليه فى تنظيم بيتى على حسب ما تقتضيه وظيفتى وكذا ما صرفته على ثلثمائة فدان أبعادية أحسن إلىّ بها المرحوم عباس باشا بلا واسطة . فلما سافرت تركت ماهيتى للدين فوفته ، واقتصرت على ما كان يصرف لى من التعيين وقد كفانى ، وقام بجميع لوازمى وزاد منه ثلثمائة جنيه حضرت بها إلى مصر .

وأيضا فإن رفقتى الذين نشأت معهم كحماد بيك ، وعلى باشا إبراهيم ، كانوا قد رفتوا من الخدامة فى مدة سفرى فلو بقيت للحقت بهم .

ومما اتفق لى أنى تزوجت قبل سفرى هذا ـ بعد موت زوجتى الأولى ـ بقريبة أحمد باشا طوبصقال ، وكانت ذات مال وعقار ، وكانت يتيمة غرة بمنزلة الطفل الصغير ، لا تحسن التصرف ، ولا تميز الدرهم من الدينار مع كثرة إيرادها وتعدد أملاكها ، وكان

جميع أمرها بيد غيرها ، والسبب فى ذلك أن أمها كانت تزوجت برجل يعرف براغب أفندى ، فماتت عنده الأم وبقيت البنت عنده يتيمة صغيرة فتزوج بامرأة أخرى . فكانت زوجته الجديدة قيمة هذه اليتيمة ، والقائمة بأمرها ، والكافلة لها مع راغب أفندى ، فاتخذتها البنت كأمها ، وكانت المرأة لا تطلعها على شيء ولا تمكنها من شيء ، فلا تفعل ولا تقول إلا حسبما تريد منها هذه المرأة ، فلما دخلت بها خافت المرأة ومن معها ، أن أطمع فى أموال هذه اليتيمة أو أعرفها بحقوقها فتطالب بها ، وتنزعها من أيديهم ، فأساؤا عشرتى ، وبالغوا فى إساءتى ، إلى حالة لا تتحمل وغاية لا تتصور ، حتى مللت ، وملت بعد أشهر قليلة إلى العزلة عنهم بزوجتى ، فازداد بالمرأة الخوف من انتزاع ما استحوذت عليه من مال هذه اليتيمة ، فتوسطت بجلبى أفندى الكاشف إلى والدة المرحوم عباس باشا ، ورمى فىَّ عند حسن باشا المناسترلى ، وأغرى بى أغوات السراى حتى داخلنى الخوف واشتد بى الكرب ، وانسعت القضية ، ودخلت المرأة المذكورة إلى سراى الوالدة المشار إليها ، بعرض حال زوّرته عن لسان زوجتى بالشكاية منى كذبا ، فلما وقفت المشار إليها على الحقيقة صدر أمرها باعطائى زوجتى ، فعند ذلك اصطنعت الكافلة المذكورة بمعونة جلبى أفندى وأعوانه وثيقة جردوا فيها اليتيمة عن جميع أملاكها ، وأشهدوا عليها بدين جسيم لكافلها ، ووضعوا عليها شهادة جماعة من الترك ، بخط الدرى كاتب المحكمة الكبرى ، وأنا لا أعلم بشيء من ذلك ، ثم أخرجوها لى مجردة ما عليها إلا ثيابها مع أثاث قليل فأقمنا أياما فى راحة ، وكانوا قد دسوا لها من قبل أنى أغدر بها ، وأقتلها استعانة بذلك على تجريدها من أملاكها ، بايهامها أنّ هذا أمر ظاهرى ، أرادوا به حفظ أموالها ، وأملاكها ، من تسلطى عليها وانتزاعى لها ، فيبقى ذلك عندهم حتى تريده فيكون لها متى شاءت حين تأمن غائلتى ، فلما ذهب خوفها وأمن روعها ، ولم تجد منى تطلعا لشيء من ذلك ولا أثر مما خوفوها به ، أخبرتنى بالحجة التى جردوها بها وأنها تركت حليها هناك ، وطلبت منى الأذن فى التوجه إليهم ، لتأتى به حيث لم تجد شيأ مما كانت تخافه . فقلت لها : إن ذلك لا يجدى وهذه حيلة تمت عليك فلم تسمع وذهبت ورجعت خالية اليدين ، باكية العينين ، حزينة آسفة ما تم عليها من الحيلة ، فحملتنى الرأفة على أن أسعى لها فى استخلاص حقها فقدمت فى ذلك عرض حال بصورة الواقعة للمرحوم

عباس باشا ، واتسعت القضية ، ونظرت فى الدواوين والمجالس ، ودخل فيها القاضى والمفتى ولما حصحص الحق دخل فيها جلبى أفندى بالوسائط حتى خوفنى الكتخدا بالنفى إلى السودان إن لم أكف عن هذه القضية .

وبعد طول النزاع تمتها بالصلح فرجع لها العقارات والأوقاف وضاع عليها المال ويطل عنها الدين ، ولم أصل إلى هذه الغاية إلا بعد أن قاسيت فى ذلك من الشدائد والأهوال ، وعجائب الأحوال ، مالو وصفته لطال الشرح واتسع المجال . وقد بنيت بيتها من مالى وصرفت عليه نحو ستمائة كيس وكان موقوفا عليها فأرادت اشتراكى فيه معها فى نظير ما صرفته ، وكان ذلك لها بمقتضى شرط الواقف فقبلت ، ودخلت معها فى الوقفية وكتبت الوثيقة بمحضر من العلماء والأمراء والأعيان .

فلما كنت فى الإستانة دخلت عليها كافلتها ، المقدم ذكرها وقالت لها : أن الرمل أخبر بأن زوجك يموت فى سفره وصدّق على ذلك جماعة من حواشيها وحسنوا لها إبطال الحجة المتضمنة حصتى فى وقفية البيت ثم لاذوا/بجماعة من أصحابنا الذين لنا عليهم ٤٧ المعروف ، ليشهدوا لهم بأن الحجة مزوة وأن التى نطقت يوم كتب الحجة إنما هى أختى تمثلت بها فظنوها إياها ، وحملوها على أن كتبت فىّ عرضا يتضمن إنى أخذت أموالها ومتاعها ثم أرسلوه إلى ابن عمها فى الإستانة وكنت معه فى محل واحد ، فأرانيه فقرأته وأخذت نسخته وسلمته إليه وقلت : لا ثمرة الآن فى المنازعة هنا فاحفظه عندك حتى نعود إلى مصر وهناك تظهر الحقيقة ، فإن مت قبل ذلك فلها جميع ما يورث عنى .

فلما رجعنا إلى مصر عقدنا لذلك مجلسا حضره كاتب المحكمة والشهود وجمع من أعيان العلماء ، وجرى الحساب وهى حاضرة فى المجلس فثبت لى عليها مائة وخمسة وعشرون ألف قرش ، عملة ديوانية ، غير ستمائة كيس التى صرفتها فى عمارة البيت ، فبعد ثبوت حقى وظهوره تنازلت فى المجلس عن جميع ذلك ولم آخذ إلا وثيقة من أهل هذا المجلس بجميع ما حصل . وباثبات تنازلى بعد هذا الثبوت ، ثم بعد أيام قلائل تركتها وخرجت من البيت ولم آخذ شيئا ، حتى تركت جوارى اللاتى كن فى ملكى ، وطهرت نفسى مما نسبه إلىّ أهل البهتان ، وأرحت نفسى من تلك الوساوس والهواجس .

ثم بعد عودنا من هذا السفر الطويل خلى سبيل العساكر ،ولحقوا ببلادهم ، ورفت كثير من الضباط فكنت ممن رفت . وسكنت فى بيت صغير بالأجرة مع أخ لى كنت تركته فى المدرسة عند السفر مع ابن أخ آخر ليتربيا فيها ، فطردا منها بعد سفرى ولم يعطف عليهما أحد ممن كنت أساعدهم فى مدة نظارتى ، ولم تحصل الشفقة عليهما إلا من سليمان باشا الفرنساوى ، فإنه أدخلهما فى مكتب كان أنشأه بمصر العتيقة على نفقته وشملهما برأفته ، ثم غرق ابن أخى فى البحر وبقى أخى إلى أن جئت فالتحق بى فكانت حالتى بعد سبع سنين مضت من عودى من بلاد أوروبا كحالتى عند عودى منها ، وذهب ما رأيت من الأموال والمناصب والوظائف وجميع ما كسبت يدى .

ولم يبق بالخاطر غير ما فعل الناس معى من خير وشر ، وما أكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته ، حتى حلا لى التخلى عن الحكومة وخدمتها ، وغضضت طرفى عن التطلع للوظائف والمناصب،وعزمت على الرجوع إلى بلدى والإقامة بالريف ، والاشتغال بالزرع والتعيش من جانبه ، وترك الاشتغال بالقيل والقال ، وقلت عوضنا الله خيرا فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ولنفرض إنا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها .

وبينما أنا أتجهز للسفر إلى البلد على هذه النية ، صدر أمر بأن جميع الضباط المرفوتين يحضرون بالقلعة للفرز فحضرنا ، وكان المنوط بالفرز أدهم باشا وإسماعيل باشا الفريق وجملة من الأمراء ، فكان أهم ما يعتنون به معرفة عمر الإنسان ، وكانوا يعرفون السن بالنظر إلى السِنّ ، فهالنى هذا الأمر وثقل على ووددت أن لا أكون طلبت ، فلما وصلنى الفرز عافانى من ذلك أدهم باشا السابق معرفته بى .

وكتبت فى المختارين للخدمة فتعطلت عن السفر ، وبعد قليل تعينت معاونا بديوان الجهادية وأحيل علىّ النظر فى القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبخانات وغيرها من ملحقات الجهادية ، والحقوا بى كاتبا فاشتغلت بها زمنا وأتممنا جملة منها . وفى ذات يوم كان إسماعيل باشا الفريق ناظر الديوان إذ ذاك مشتغلا برسم بعض المناورات العسكرية فلم

يحسن ذلك وتحير فى اتمامها ، فدعانى فرسمتها فى عدة أفرخ من الورق على الوجه اللائق ، فوقع عنده ذلك موقعا حسنا وأثنى علىّ ، ووعدنى بذكرى بخير عند المرحوم سعيد باشا ، وطلب منى وضع اسمى على الرسم ، فقلت عافنى من ذلك ولا تذكرنى عنده ، فأرانى أن فى ذلك فوائد جمة وأنه عين الصواب .

ثم لما عرض الرسم عليه وتكلم معه بما تكلم أمر بإبطال التحقيق وحفظ القضايا بالدفترخانة وإلحاقى بمستودعى الداخلية .

فبقيت كذلك زمنا قليلا وكان يحال علىّ بعض القضايا ، ثم دعيت إلى وكالة مجلس التجار فأقمت فيه شهرين ، وكان سلفى فيه رجلا من الأرمن له سند قوى سهل له به الوصول إلى المرحوم سعيد باشا . فرمى فىّ بما رمى فرفعت من هذه الوظيفة ، وتأسفت لرفعى التجار البلديون لما رأوه من البت فى القضايا على وجه الحق ، فأقمت فى بيتى نحو ثلاثة أشهر ثم تعينت مفتش هندسة نصف الوجه القبلى فأقمت فيه نحو شهرين ، ثم خلفنى فى ذلك على باشا إبراهيم . ثم دعانى المرحوم سعيد باشا لعمل رسم لاستحكامات أبى حماد ، ودعا على باشا إبراهيم للكشف على الجانب الغربى من النيل إلى أسوان فاشتغلنا بذلك مدة بلا ماهية ، ولما تمت الرسم ذهبت إليه لعرض الرسم عليه وكان فى طرا فلم أتمكن من ذلك ، وصرت أتردد على طرا أياما لهذا القصد فلم يتيسر ، ثم قام إلى قصر النيل فترددت على ذلك الموضع أيضا فلم يتم المقصود ، ثم قام إلى الاسكندرية فتحيرت فى أمرى إذ كان لا يثبت فى مكان ولم يتيسر لى عرض نتيجة المأمورية عليه فالتزمت الإقامة بمصر حتى أتمكن من لقائه ، وطالت المدة وفرغ المصروف ، ثم قدم إلى مصر فذهبت إليه فلم أتمكن من الدخول إليه ، فقال لى مأمور التشريفات : كن معنا على الدوام / لعلك تجد فرصة فى وقت من الأوقات تتمكن منه ، وحضر على باشا إبراهيم أيضا فاصطحبنا ولازمنا معيته فى السفر ثلاثة أشهر بلا ماهية ولا شغل مع كثرة التنقلات من بلد إلى بلد ، ومن موضع إلى آخر ، ثم لما كان ذات يوم فى الجيرة وقع نظره على فنادانى وكلمنى وسألنى عما صنعت فى الرّسْم فقدمته له فنظر فيه قليلا ثم قال : أبقه حتى نجد وقتا لإمعان النظر فيه ، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك ولكن ربطت لى ماهية .

٤٨

وبقيت فى معيته زمنا بلا شغل ، إلى آن كنا مدة بريوط وكان معنا المرحوم آدهم باشا فأخبرنى أنه صدر له الأمر بترتيب معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب ، وسألنى عمن يليق للقيام بهذا الأمر ، فعرضت نفسى لذلك فظن إنى أهزل لاعتقاده ترفعى عن هذه الخدمة وقال : أترضى أن تكون معلما لهؤلاء ؟ فقلت : كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه ، فلما عرض ذلك على المرحوم أحال على تعليمهم فأصحبت معى اثنين من الأفندية ورتبت مواد التعليم والطريقة التى يلزم اتباعها ، وشرعنا فى التعليم فكنت أكتب لهم حروف الهجاء بيدى .

ولعدم الثبات فى مكان واحد كنت، أذهب إليهم فى خيامهم ، وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الأرض ، وتارة بالفحم على بلاط المحلات حتى صار لبعضهم إلمام بالخط وعرفوا قواعد الحساب الأساسية ، فجعلت نجباءهم عرفاء استعنت بهم على تعليم الآخرين ، فازداد التعليم واتسعت دائرته ، واستعملت لهم فى تعليم مهمات القواعد الهندسية اللازمة للعساكر الحبل والعصا لا غير ، فكنت إذا أردت توقيفهم على عملية كتقدير الأبعاد وتعيين النقط واستقامة الحذاء أجرى ذلك لهم عملاعلىالأرض ، وأبين لهم فوائده وثمراته النظرية فكان يثبت فى أذهانهم حتى أن بعضهم كان يجريه أمامى فى الحال بلا صعوبة .

ووضعت فى ذلك كتابا مختصرا جمعت فيه اللازم من الحساب والهندسة وطرق الاستكشافات العسكرية وسميته « تقريب الهندسة » ، وطبع على مطبعة الحجر فانتفع به كثير من الناس خصوصا فى الالايات ، وتكرر طبعه ، وكنت جمعت أيضا جزءا فيما يلزم معرفته للضباط من فن الاستحكامات وسوق الجيوش وترتيبها وكيفية المحاربات ونحو ذلك ، لكنه لم يتم ولم يطبع وقد ضاع منى .

وكنت فى أوقات الفراغ أشغل الزمن بالمطالعة ، وأكتب تعليقات أستحسنها فى ورقات جمعتها بعد ذلك ، فصارت كتابا مفيدا فى فنون شتى مما يحتاج إليه المهندسون ،

وبقى عندى إلى أن اطلع عليه بعض معلمى الرياضةفى المدارس الملكية وغيرها ، أيام نظارتى عليها فى مدة الحكومة الخديوية الاسماعيلية ، فرغبوا فى طبعه فطبع بمطبعة المدارس وسمى « تذكرة المهندسين » ، وكان المباشر لمقابلته وطبعه أولا السيد أحمد أفندى خليل ناظر مدرسة المحاسبة يومئذ ، وبعده على أفندى الدرندهلى أحد خوجات المهندسخانة إلى أن تم طبعه .

وهكذا كانت جميع أوقاتى مشغولة بأمثال ذلك وببعض مأموريات كانت تحال علىّ ثم لما رام المرحوم سعيد باشا التوجه إلى بلاد أوروبا أمر برفت غالب من كان فى معيته ، فكنت فى جملة المرفوتين . وكنت قبل رفتى تزوّجت واشتريت بيتا بدرب الجماميز ، وشْرعت فى بنائه وتعميره ، فكثر علىّ المصرف ولحقنى الدين حتىْ ضاق ذرعى وتشوش طبعى ، وكان يومئذ قد صدر الأمر ببيع بعض أشياء من تعلقات الحكومة زائدة عن الحاجة من عقارات وغيرها ، وكان المأمور بذلك المرحوم إسماعيل باشا الفريق وكان لى من المحبين وكنت جاره فى السكنى فاستصحبنى معه إلى بولاق وخلافها من محلات البيع ، فلما حضرت المزادات رأيت الأشياء بأبخس الأثمان ، ورأيت ما كان لمدرسة المهندسخانة من اللوازم والأشياء الثمينة العظيمة ، وفى جملتها الكتب التى كنت طبعتها وغيرها تباع بتراب الفلوس ، وكذا أشياء كثيرة من نحو آلات الحديد والنحاس والرصاص ، والعقارات والفضيات والمرايات والساعات والمفروشات وغير ذلك ، وليتها كانت تباع بالنقد الحال بل كانت الأثمان تؤجل بالآجال البعيدة ، وبعضها بأوراق الماهيات ونحو ذلك من أنواع التسهيل على المشترى ، فكان التجار يربحون أرباحا جمة .

فلبطالتى واستدانتى وكثرة مصرفى ، مالت نفسى للشراء من هذه الأشياء والدخول فى التجارة ، ففعلت وعاملت التجار وعرفتهم وعرفونى وكثر منى الشراء والبيع فربحت ، واستعنت بذلك على المصروف وأداء بعض الحقوق ، واستمر منى ذلك نحو الشهرين فازدادت عندى دواعى التجارة وصارت هى مطمح نظرى ، وقصرت عليها فكرتى خصوصا لما تقرر عندى من اضطراب الأحوال وتقلبات الأمور التى كادت أن تذهب منى ثمرات المعارف والأسفار ، بحيث كلما تقدمت فى العمر وكثرت العيال كنت أرى التقهقر

ونفاد ما استحوذت عليه ، فآثرت حرفة التجارة على حرفتى الأصلية ، وصرفت النظر عن الخدمة الأميرية وقام / بخاطرى أن أعقد شركة مع بعض المهندسين المتقاعدين مثلى على أن نبنى بيوتا للبيع والتجارة ونستعمل فيها أفكار الهندسة ، فلم أر من يوافقنى فهممت بالقيام بذلك بنفسى وشرعت فى العمل .

٤٩

وبينما أنا فى حوالك هذه الأحوال أروم التخلص من تلك الأوحال إذ طرق المرحوم سعيد باشا طارق المنون فتوفى فى سنة تسع وسبعين ومائتين وألف ، وقام بأعباء الحكومة بعده حضرة الخديوى إسماعيل باشا فألحقنى بمعيته زمنا .

ثم تعينت لنظارة القناطر الخيرية وكانت إلى ذلك العهد لم تقفل عيونها بالأبواب ، مع أن أبواب بحر الغرب كانت مرتبة من زمن المرحوم سعيد باشا ، وصرف عليها مبالغ جسيمة من طرف الحكومة ، وكان المانع من اقفالها ما قرره المهندسون من منع ذلك إلى أن يجرى ترميمها وتقويتها لعدم جزمهم بمتانتها مع اضطراب آرائهم .

وكان أكثر النيل يمر من بحر الغرب ، وأخذ فى التحوّل عن بحر الشرق حتى كان فى زمن الصيف لا يدخل فى الترع الآخذة منه إلا القليل من الماء ، وترتب على ذلك قلة زمام المنزرع الصيفى فى الجهات التى تسقى من هذا البحر ، وتعطلت بسبب ذلك منافع كثيرة .

وكان الخديوى كثيرا ما يتردد إلى القناطر الخيرية ويقيم بها فى كل مرة عدة أيام ويعتنى بأمرها ، وفى ذات مرة خاطبنى فى شأنها وفيما يلزم اجراؤه لتحويل النيل إلى بحر الشرق الذى عليه أفواه أكثر الترع وعليه مدار ثروة أهالى تلك الجهات ، فقلت : إن من ألزم الأمور وأنفعها فى ذلك أن تقفل قناطر بحر الغرب إذ بذلك تتراجع المياه إلى بحر الشرق وتتكاثر فيه ، ويتحول إليه بعض بحر النيل ولا يرتب على إقفالها كبير ضرر للقناطر لأن ارتفاع الماء وراء السد لا يكون كبيرا لانحدار النيل إلى بحر الشرق فلا يحصل من ضغطه للقناطر تأثير بين ، مع أن المهندسين الذين رأوا منع إغلاقها لم يجزموا

بحصول الخلل وإنما ذلك على سبيل الظن ، فبإغلاقها تظهر الحقيقة ، ويزول الشك ، فإذا حصل منه خلل وصار معلوما تتدبر الحكومة فى تداركه ، وإن لم يحصل حصل المقصود من تكاثر المياه فى بحر الشرق الذى عليه مدار الزراعية الصيفية والمنافع العمومية ولا يترك نفع محقق لضر متوهم يمكن تداركه ، فاستحسن منى ذلك ورآه صوابا ورخص فى إقفالها فصارت تقفل وحصل من ذلك مالا مزيد عليه من المنافع العمومية .

وأما الخلل الذى كان متوقعا حصوله فإنه ظهر فى بعض العيون الغربية القريبة من البر الغربى فجعل عليها جسرا من الخشب أحاط بها ، فتربت حولها جزيرة من الرمل حفظتها فلم يكن خللها مانعا من إقفالها كل سنة .

ثم لما حفر رياح المنوفية أحيل علىّ فى مدة نظارتى عمل قناطره ومبانيه ، فأجريتها على ما هى عليه الآن .

وفى سنة اثنتين وثمانين اختارنى للنيابة عن الحكومة المصرية فى المجلس الذى تشكل لتقدير الأراضى التى هى حق شركة خليج السويس ، على مقتضى القرار المحكوم به من طرف امبراطور فرانسا ، وكان المعين نائبا من طرف الدولة العلية حضرة سرور أفندى وكذا كان لكل من الحكومة الفرنساوية والشركة المذكورة نائب ، فتوجهنا للمرور على الخليج فمررنا من السويس إلى بورت سعيد ، وبعد المذاكرات والمداولات عملت الرسوم اللازمة وتحرر بذلك القرار وتمت المسئلة على أحسن حال ، وأحسن إلىّ بعد اتمامها برتبة المتمايز وأعطيت النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ، وبعث إلىّ من طرف الدولة الفرنساوية بنيشان (أوفسيه ليڤريون دونور) .

وفى شهر جمادى الآخرة من سنة أربع وثمانين أحيلت إلىّ وكالة ديوان المدارس تحت رياسة شريف باشا ،. مع بقاء نظارة القناطر الخيرية ، وبعد قليل انتدبنى الخديوى إسماعيل للسفر إلى باريس فى مسئلة تخص المالية ، فكانت مدة غيابى ذهابا وإيابا وإقامتى بها خمسة وأربعين يوما .

وكانت سفرة مفيدة اغتنمت فيها فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة ، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك ، وتفرجت على مجاريها العمومية المعدة لقذف القاذورات والسائلات بها وهى عبارة عن مبان متسعة عظيمة الارتفاع تحت شوارع المدينة ، معقودة من أعلاها يتوصل إليها بسلالم فى فتحات مخصوصة فى الشوارع يدخل منها النور والهواء ، وفى جنبيها حوالى المجرى مصطبتان تمشى عليهما الشغالة والفعلة ، وينصب فى المجرى قاذورات المراحيض والمطابخ وغيرها ، وماء الأمطار ونحوها بكيفية مدبرة بحيث لا يشم لها رائحة ـ مع كثرة ما يسيل فيها ـ وقد ركبنا صندلا يسير فى ذلك المجرى معدا لتنظيف المجرى وقذف ما به من المواد التى تعطل جرى الماء ، وذلك أنه مصنوع بقدر المجرى وبه جرافة من أمامه ودولاب ، فإذا أرادوا تسييره يديرون الدولاب فينحط الصندل نحو القاع بقدر ما يريدون فيرتفع الماء خلفه زيادة عن الأمام مع الانحدار الأصلى للمجرى ، فيندفع الصندل مسرعا فى السير فيطرد أمامه كل ما لاقاه ، وجميع هذه المواد تتدفق فى نهر ٥٠ السين المار فى المدينة فى محل بعيد/جدا عن المساكن ، فيالهذا العمل من عمل نافع تخلصت به المدينة من مياه الأمطار الغزيرة الواردة عليها فى زمن الشتاء مع التخلص من القاذورات والروائح الكريهة التى لا تخلو منها الأمصار لا سيما المدن الكبيرة .

ثم بعد قليل من عودتى أحسن إلىّ فى سنة خمس وثمانين برتبة ميرميران وأحيلت إلى عهدتى إدارة السكك الحديدية المصرية وإدارة ديوان المدارس وإدارة ديوان الأشغال العمومية .

وفى شهر شوّال من تلك السنة انضم إلى ذلك نظارة عموم الأوقاف ، كل ذلك مع بقاء نظارة القناطر الخيرية والتحاقى برجال المعية ، فبذلت جهدى وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجباتها .

وبسبب اتساع ديوان السكة الحديدية وكثرة أشغاله كنت أذهب إليه من بعد

الظهر إلى الغروب للنظر فيما يتعلق به وقد أجريت فى تنظيم السكة ومحطاتها ما ذكرت بعضه فى الكلام على الإسكندرية فانظره[١].

وجعلت من الصبح إلى الظهر لباقى المصالح ، وكنت قد تحصلت على الإذن بنقل المدارس من العباسية إلى القاهرة رفقا بالتلامذة وأهليهم ، لما كان يلحقهم فى الذهاب إلى العباسية من المشاق والمصرف الزائد ، فأحسن إلى المدارس بسراى درب الجماميز التى كانت قد اشتريت من المرحوم مصطفى باشا فاضل ، فنقلت إليها التلامذة وأجريت فيها تصليحات لازمة للمصالح ، وجعل السلاملك للديوان ووضعت كل مدرسة فى جهة من السراى ، وجعل بها أيضا ديوان الأوقاف وديوان الأشغال ، فسهل علىّ القيام بها

وكانت كثرة أشغالى لا تشغلنى عن الالتفاف إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين ، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت ورواحى ، وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية .

وكانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ، ليس فيها على قلة أهلها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم ،ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته ، مع رداءة الخط فى عامة المكاتب المذكورة ، فاستحسنت اجراءها على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظيمها وترتيبها على الوجه الذى عليه ، ودعوت إلى النظر فى هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والأعيان النبهاء ، فنظروا فيه واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه ، وصدر الأمر الخديوى بالاجراء على حسبه ، ورتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه . وأنشئت مدارس مركزية فى بعض مدن القطر كأسيوط والمنية وبنى سويف وبنها ، وانتخب لكل منها المعلمون والضباط وعين لها سائر الخدمة ورتبت بها أدوات التعليم ، ورغب الناس فى تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الأطفال .

---

(١) انظر الجزء السابع من الخطط التوفيقية ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

وأنشىء فى القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب مثل مكتبى القربية أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور، ومكتب الجمالية، ومكتب باب الشعرية، ومكتب البنات بالسيوفية.

ولأجل استفادة الأوقاف وتكثير إيرادها مع تخفيف المصرف على الحكومة، كان بناء هذه المكاتب فى عقارات الأوقاف وعلى طرفها، وربط لها على المكاتب إيجار يدخل خزينة الأوقاف، وأجريت الاصلاحات اللازمة فى المكاتب القديمة فغيرت بعض مبانيها وأوضاعها الأصلية إلى حالة تصلح لما صارت إليه المكاتب من النظام، وترتبت لها النظار والمعلمون وأدوات التعليم ونحو ذلك، وجعلت المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها مع خفة المصرف على الديوان، فجعل على أهالى التلامذة المقتدرين شىء من النقود يؤخذ منهم برغبتهم كل شهر على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم استمالة لقلوبهم واستدعاء لرغبتهم، وجعل لذلك استمارة حفظت فى المدارس وفى كل مكتب، وباقى المصروف يصرف من حاصلات الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات والمبرات، وأطيان الوادى بمديرية الشرقية، وكان قد أحسن على المكاتب الأهلية بهذه الأطيان وبعض أملاك آلت إلى بيت المال من بعض التركات، فكان من هذه الموارد يصرف كل ما يلزم لهذه المكاتب بعد الإيرادات الجزئية المتحصلة من ذوى الاقتدار من أهل التلامذة، وكان القصد تعويد الناس على الصرف على أولادهم بالتدريج شيئا فشيئا حتى لا يبقى مع توالى الأزمان على الحكومة إلا ما يختص بالمدارس الخصوصية كالمهندسخانة والطب والإدارة ونحوها، وأما باقى المدارس فيكون الصرف عليها من الأهالى والأوقاف والأملاك المذكورة إذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم.

وقد تأسس هذا المشروع وثبت، وسرت فيه إلى أن انفصلت عن المدارس، وحصلت منه نتائج حسنة وخرّج من التلامذة الذين تربوا بالمدارس فى مدتنا جم غفير توظفوا بالوظائف الميرية الشريفة ملكية وحربية وانتفعوا وانتفع بهم.

ثم لأجل تسهيل التعليم على المعلمين والمتعلمين. وصون ما تعلموه من الذهاب،

٥١ جعل بالمدارس مطبعة حروف ومطبعة/حجر لطبع كل ما يلزم من الكتب وأمشق الخط والرسم وغير ذلك .

وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم،أمعنت النظر فى هذا الأمر المهم ، واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية ، يؤخذون من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ، ليتعلموا بهذه المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ، ورتب لهم طعام فى النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ، ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الأهلية بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر وأعلن حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك فاختير منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب وساروا فى التحصيل فحصلوا وأثمر ذلك المسعى وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها ، وحصل النفع بهم ولهم .

وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين ، الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ، ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل حسب استعداده سوى من يؤخذ إلى غير المدارس من مصالح الحكومة ، وقرر ذلك وعلم بينهم ، فرغبت التلامذة فى التعلم واجتهدوا وحرصوا على التقدم ، وتحصلوا على مهمات الفنون وتمكنت الحكومة من توسعة دائرة التعليم بلا كبير مصرف .

ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلون للإستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية ، ينشىء محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض ، وصرف عليه من مربوط المدارس فجاء محلا متسعا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم .

وقد كان الخديوى إسماعيل يرغب فى إنشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الميرية وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها ، وأمرنى بالنظر فى ذلك فوصفت له المحل الذى أنشىء ، فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام ، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة ، فجمعت من كل جهة وجعل لها ناظر وخدمة ، وترتب لها مغير من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية ، وآخر لمباشرة الكتب التركية ، ونظمت لها لائحة صار نشرها ، تؤذن باباحة الانتفاع بها للطالبين ، وسهولة التناول للراغبين ، مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها ، فجاءت بحمد الله من أنفع الإنشاءات ، وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب ، إذ تخلصت بها الكتب من أيدى الضياع وتطرق الأطماع ، فإنها كانت تحت تصرف نظار أكثرهم يجهلون قيمتها ولا يحسنون التصرف فيها ولا يقومون بواجباتها ، بل أهملوها وتركوها فسطت عليها عوارض متنوعة أتلفت كثيرا منها حتى صار السالم من الضياع مخرما بعضه بأكل الأرض ، وبعضه بأكل الأرضه ، وزاد أن تصرفوا فى أجودها بالبيع للأغراب بثمن بخس ، وحرموا الأهلين من الانتفاع بها ، وبعضها يحجرون عليه فلا يتمكن أحد من النظر إليه ، فتخلصت من ذلك فضلا عن صونها من هذه العوارض ونظافتها ونظافة أماكنها وحسن ترتيبها كل فن على حدته ، وجعل بها محل للإطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها والنسخ والنقل فيها ، ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء ، وأمكن الإطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين ، والعلماء والمتقدمين ، ومشاهير الخطاطين كابن مقلة وغيره مما كان يسمع به الإنسان ولا يراه أو لا يسمع به .

وأخذت بعد انشائها وافتتاحها فى تكميل الناقص من الكتب ، وتجديد شراء كل ما يستحسن وأمكن تحصيله مما ليس موجودا بها من الكتب ، ومشى على هذه الطريقة كل من رضيها ورأى إتمام الفائدة بها ممن توالوا على نظارة المدارس والأوقاف بين مكثر ومقل .

ولأجل إتمام الفائدة فألحقت بهذا المحل محلا للآلات، الطبيعية وغيرها من آلات العلوم الرياضية اللازمة للمدارس ، وصرف لمشترى تلك الآلات نحو أربعة آلاف جنيه .

وبجميع ذلك سهل على التلامذة والمعلمين السير فى طرق التقدم ، وتقيدت لديهم شوارد الفنون ، وتمكنوا منها بالمعاينة والتمرن على استعمال تلك الآلات واجتلاء المعقول فى صورة المحسوس ، فتعاضد الفكر والنظر فى العلم/والعمل . ٥٢

ثم إنه قد حصل من انضمام الأوقاف للمدارس مساعدة كل منها للآخر مساعدة كلية ، إذ صار أمر التعليم فى المكاتب ملحوظا بعين المدارس ، فكان سيرهما فى التعليمات والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرهما سواء ، وتيسر لمن أكملوا دروسهم الإبتدائية فى مكاتب الأوقاف والمكاتب الأهلية المنتظمة دخول المدرسة التجهيزية ، والتدرج منها إلى المدارس العالية ، وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والأهلية كل سنة عدد عديد ، كما يؤخذ من تلامذة المدارس الإبتدائية الأميرية .

وأحيت المدارس كثيرا من عقارات الأوقاف المندرسة وانتفعت بها ، كما مرت الإشارة إلى ذلك ، وكم من أهل خير فى الزمن السابق كانوا قد أنشؤا مدارس بالمحروسة والإسكندرسة وكثير من مدن القطر للتعليم والتربية حسبة لله تعالى ، ووقفوا عليها أوقافا خيرية جمة يصرف عليها ريعها رغبة فى نشر العلوم وعود الفوائد على عموم الناس ، بل كثير منهم ألحق بذلك خزائن كتب شاملة لما يحتاج إليه فى التعليم .

ولكن لسوء تصرف نظارها انحرفت عن الصراط المستقيم ، صراط الواقفين الراغبين فى الخيرات ، وصار ما يسلم من الهدم والتخريب يستعمل أكثره فى أغراض

أخرى ، والمستعمل فى الغرض الأصلى على قلته لا يستوفى فى سيره شروط الواقف وحد اللازم . وساء حال التعليم فى المكاتب الحاصلة ، وقل المعلمون والمتعلمون ، وصار اجتماع الأطفال والمتعلمين بهذه الأماكن قليل النفع بحيث كاد لا يفيدهم إلا الضياع والأمراض الناشئة عن الوساخة والتفريط ، فحصل رجوع كثير من هذه العمائر إلى أصلها المقصود منها والفائدة الموضوعة لها ، وانضمت إلى ديوان الأوقاف العمومى لتكون إدارتها تحت نظره مشمولة بمناظرة ديوان المعارف وترتيبه ، فتخلص من أطماع النظار ، وحصل رم ما احتاج إلى الإصلاح من المدارس ، ومن أوقافها التى يأتى منها الريع ، وانتزع ما استولت عليه الأيدى من غير استحقاق ، فانضبط أمرها وإيراد ها فحييت هذه المآثر بعد موتها وعادت ثمراتها بعد فوتها .

ثم إن هذا النظر لم يكن قاصرا على المدارس وأوقافها ، بل حصل الالتفات لجميع الأوقاف من التكايا والمساجد وغيرهما بالإصلاح والتجديد ، وكان ما بالأقاليم من الأوقاف من أطيان وعقارات على كثرته غير ملتفت إليه ، فكان السالم من التلف من الأسبلة ونحوها مستعملا فى غير وجهه تحت أيدى غير مستحقيه ، فانتخب لها من طرف الأوقاف مأمورون من المهندسين الذين تعلموا فى المدارس وأرسلوا إلى الأقاليم للنظر فى أمر الأوقاف وضبطها ، ومعرفة ريعها وما يلزم من العمارات وتحصيل إيراداتها وملاحظة مصروفاتها ، وجعل المندوبون للوجه البحرى تابعين فى إدارتهم لمأمورية طنتدا ، والمعينون فى الوجه القبلى يخاطبون من الديوان ، فضبطوهما وحرروا جداولها ، وفعل بهاما هو الأصلح لها فانتظم سيرها ونما ريعها .

ثم إن الذى كان متبعا فى العمائر بالمدن الكبيرة كالقاهرة والإسكندرية اجراؤها على طرف الديوان ، وكان لها معمارية وشغالة وعربات ونحو ذلك بمرتبات جسيمة شهرية ، ومصاريف كثيرة تزيد عن قيمة ما يحصل فيها من الإنشاء والعمارة ، وفضلا عن عدم الإتقان ، وكان يحصل من القائمين بأمرها الإهمال والتفريط فيها،وكان ما يجرى تعميره فى السنة مع عدم اتقانه وكثرة ما يصرف عليه قليلا بالنسبة للمحتاج للعمارة .

وكان الديوان لا يتمكن من الحسابات السنوية فبقيت عمارات كثيرة لم ينته الأمر فيها ولا فى حساباتها عدة سنين طويلة ، وكان الذى يعمر منها ـ مع خفة بنائه ورداءة مونته ـ يحول من أوضاعه الأصلية الحسنة إلى أوضاع سيئة ، فكنت ترى الدور المتسعة والمنازل الكبيرة حولت إلى حيشان وربوع يسكنها الكثير من الناس ، بحيث تحمل فوق طاقتها لزعم ولاتها أن فى ذلك تكثيرا لريع الوقف ، مع أنهم كانوا ما يورثونها إلا التخريب وإضاعة ما بها من نحو الأخشاب ، وولاتها غافلون لا يعرفون إلا قبض الأجرة ، فكان ما يتلف سنويا من عقارات الأوقاف أكثر مما كان يعمر بأضعاف ، وهذا ضرر بين ، فحصل الالتفات إلى ذلك وعملت الطرق الموجبة لعمارة الأوقاف وكثرة ريعها وقلة مصرفها على الديوان ، فجعل فى أثمان القاهرة مأمورون من المهندسين وكتبة ومعاونون ، وصار الجباة تابعين للمأمورين ، وشدد عليهم فى الالتفات إلى ما نيط بهم ، بحيث أن من فرط فى أمر بجرى عليه مايستحقه ، ففنحوا أعينهم ونصحوا فى سيرهم ، خوفا على أنفسهم ، فانصلح كثير من الأوقاف وحسنت أحولها .

ثم من أنفع الأعمال فى الأوقاف ما أجرى فيها من إبطال جعل إدارة عمائرها على طرف الديوان ، وصارت تعطى بالمقاولة للمقاولين بعد النظر فيها من مأمورى الأثمان وباشمهندس الديوان ، وعمل رسوماتها اللازمة وتقدير نفقاتها الموافقة ، وجعل لذلك لوائح/واستمارات نشرت بينهم جعلت قدوة لهم فى الأعمال ، ثم قسمت أراضى الوقف الواسعة الخربة كالتى فى جهة السيدة زينب وخلافها على الراغبين يبنون فيها منازل وحوانيت وغير ذلك بحكر يقرر عليهم يدفعونه كل سنة للأوقاف ، وقرر فى الإستمارة أن الآخذ بالحكر يدفع لخزينة الأوقاف حكر عشر سنين تبرعا منه بحيث لا يحسبها فى المستقبل ، ثم يدفع الحكر سنويا ، فأنشىء من ذلك مساكن كثيرة كانت مطرحا للزبل والعفونات والأقذار ، فبعد أن كانت تجلب المضار للناس صارت نافعة تجلب ريعا كثيرا للوقف وتبدلت سيّآتها حسنات ، واستعين بذلك على التنظيم الجارى فى المدن بالأوامر الخديوية لتوسعة الشوارع والحارات وتقويمها ، وتجديد ما يلزم منها لتكون شوارع المدينة ومبانيها كافية صالحة لأحوالها الراهنة ، من اتساع دائرة التجارة والثروة التى اكتسبها القطر ، إذ بذلك كثرت عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر ، فصار غير لائق بها

٥٣

بقاء الحالة القديمة على حالها من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها إذ كان الأزدحام بها يترتب عليه النصب والعطب والخطر والضرر، فصدرت الأوامر الخديوية لديوان الأشغال ونحن به بالنظر فى ذلك، وأن يعمل له قانون يأتى على المرام.

وكان قبل ذلك رسم القاهرة محوّلا على فرقة من المهندسين، تحت رياسة المرحوم محمود باشا الفلكى فرسموها على ما كانت عليه، وبناء على هذا الرسم كتبت الإشارة فوقه بعمل هذه التنظيمات الموجودة بالمدينة المشاهدة الآن مثل شارع محمد على وميدانه، وشوارع الأزبكية وميدانها، وما بعابدين من الشوراع ونحوها، وباب اللوق وغير ذلك مما هو بداخل المدينة وخارجها، وجرى العمل على ذلك فظهرت كل هذه المبانى الحسنة والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور والفرح والسرور، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح، ثم تبرع الخديوى إسماعيل باشا على الراغبين بمواضع كثيرة. فأنشؤا بها المبانى المشيدة والبساتين العديدة. وناهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها وأحاسن نورقها ونضرتها، وقد كانت أراضيها بين خلوات متسعة، وتلال مرتفعة، وبرك منخفضة، وغابات معترضة، ولم يكن بها صالح للزرع ومأهول بالناس إلا القليل، فأنعم بها الخديوى بلا مقابل رغبة فى العمارة والنظافة وحسن الهيئة، فكم زال بذلك عفونات وقاذورات، ومشاق وصعوبات، وزاد فى بهجة المدينة واكتسابها نورا على نور ما أحدثته شركة من الافرنج باذن من الخديو من نشر غاز التنوير بها فى سائر شوارعها وضواحيها، حتى ذهبت غياهب ظلامها والتحقت لياليها بأيامها.

ثم لأجل زيادة الأمن والتسهيل على الخاص والعام. صدر أمره بعمل القناطر الحديد، المعروفة بالكبرى، بين قصر النيل والجزيرة على هذا الوجه البديع، وعملت السكك المنتظمة فى بر الجيزة، وحفت بالأشجار وفرشت بالأحجار الدقيقة المختلطة بالرمل لمنع الأتربة وتسهيل المرور إلى العمائر والسرايات والبساتين المنشأة هناك التى تجل عن الوصف، كما فعل ذلك فى جميع الشوارع المستجدة بالمدينة وضواحيها بشركة

من الأفرنج أيضا بعمل وابور الماء الذى عم جميع جهات المدينة حتى تمتعت الأهالى بماء النيل بلا كبير ثمن ولا مشقة .

وكل ذلك غير الأعمال الجسيمة التى أجريت فى جهات القطر مثل ما تجدد بالإسكندرية ، مما بيناه فى الكلام عليها، وما تجدد بالسويس من عمل المينا والحوض والمحافظة وشركة الماء ، وما رسم فى المديريات من عمل الدواوين والجسور والقناطر والترع ، التى من أعظمها ترعة الإبراهيمية وترعة الإسماعيلية ، التى حفرت بالمقاولة . فهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أوامرها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك ضرورة تعلقها بديوان الأشغال . فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين علىّ مشغولا بالمصالح الميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا ، حتى لا أرى وقتا التفت فيه لأحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى إلا ليلا ، بل كنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار ولا سيما وأعمال القنال المالح كانت قد تمت ، وكان الخديوى قد صمم لتمامها على عمل مهرجان ، ودعا لذلك كثيرا من ملوك أوروبا وسلاطينها وعظمائها ، وهذه الحالة تستدعى استعداد السكك الحديد وعرباتها وتهيئة المدينة لدخولهم ، فكنت مع النظر فى أحوال تلك الدواوين مشغول الفكر دائم السفر فى مصالح هؤلاء المدعوين إلى أن انقضى جميع ذلك على أحسن حال ، وأحسن إلينا من طرف الخديوى بالنيشان المجيدى من الرتبة الأولى ، وأهدى إلينا من طرف قرال النيمسا نيشان (غرانقوردون) ، ومن طرف قرال فرنسا نيشان (كماندور) ، ومن دولة البروسيا نيشان (غرانقوردون) وغير ذلك من النياشين .

٥٤ وقد بقيت تلك المصالح تحت يدى إلى رمضان/سنة ثمان وثمانين ، ثم انفصلت عن ديوان السكة ، ثم عن المدارس والأشغال بعد أيام قلائل ، ثم عن الأوقاف بعد مضى قليل من شوّال من تلك السنة ، وكانت أسباب الانفصال أن ناظر المالية إذ ذاك وهو المرحوم إسماعيل باشا صديق كان قد رغب أن يضم إيراد السكة الحديدية إلى المالية ، وحصل الكلام بيننا فى ذلك ، فقلت له : لا مانع وإنما يكون الصرف على السكة الحديدية تابعا للمالية حينئذ ، ولا أكون مسئولا إلا بمجرد إدارتها بشرط أن يصدر أمر الخديوى

بذلك حتى لا يعود علىّ سؤال فيما عساه أن يحصل من الضرر ، فلم يوافق ذلك أغراضه ورمى فىّ بمارمى فترتب عليه ما ترتب ، لكنى لم أقم فى بيتى إلا نحو شهرين ثم صدرت الأوامر الخديوية فى يوم عيد الأضحى بجعلى ناظرا على ديوان المكاتب الأهلية ، وأمرت بتنظيم ديوانها وعمل رسومات لتجديد مكاتب فى مدن الأرياف وبلادها ، كل على حسبه وما يناسبه لعلم الخديوى أن مكاتب الأرياف غير مستوفية لدواعى الصحة ولا لشروط النجاح فى التعليم ، فرسمت ذلك وألحقت به تقريراً لبيان ما يلزم اتباعه فى جميع المكاتب بحسب الأهمية ، وكان الغرض عمل أنموذج فى كل جهة ليجرى البناء على مثله ، لكن عرضت عوارض أخرت ذلك .

وفى شهر ربيع الأول من سنة تسع وثمانين أحيل علىّ نظر الأوقاف ثانيا ، وبعد قليل أحيل علىّ نظر ديوان الأشغال، فلم يمض إلا يسير ، وتحوّلت نظارة هذه الدواوين على نجل الخديوى إسماعيل باشا دولتلو حسين كامل باشا ، فبقيت بمعيته بوظيفة مستشار . وفى جمادى الآخرة سنة تسعين انفصل ديوان الأشغال بنفسه تحت رياسة المشار إليه وجعلت وكيله ، وفى شهر شعبان من هذه السنة جعلت عضوا فى المجلس الخصوصى ، وبعد قليل انفصلت عن الخصوصى بسبب ما ألقاه إليه الواشون كاسماعيل باشا صديق وأضرابه من أن كتابنا (نخبة الفكر) الذى أمرنى بتأليفه فيما يتعلق بأمر النيل مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها ، فأقمت فى بيتى مع جريان الماهية علىّ من المالية .

ثم فى شهر صفر سنة إحدى وتسعين ، جعلت رئيس أشغال الهندسة بديوان الأشغال مذ كان هذا الديوان ملحقا بديوان الجهادية تحت نظارة دولتلو حسين باشا المشار إليه ، ولما انفصل ديوان الأشغال من ديوانه الجهادية ألحق بديوان الداخلية تحت نظارة نجله الأكرم الأكبر الجناب التوفيقى الخديوى الأفخر . وكان إذ ذاك ولىّ عهد الحكومة الخديوية المصرية .

وفى سنة اثنتين وتسعين ، جعلت مستشارا بمعيته فى ديوان الأشغال ، وفى شهر ذى القعدة من تلك السنة انفصل ديوان الأشغال بنفسه تحت نظارة دولتلو إبراهيم باشا نجل المرحوم أحمد باشا ، فبقيت بمعيته مستشارا بهذا الديوان ، وفى بكرة يوم الأضحى من سنة ثلاث وتسعين غدوت لملاقاة الخديوى إسماعيل باشا وتهنئته بالعيد الجديد على حسب العادة وكان بسراى عابدين ، وقد اجتمعت هناك جميع الأمراء والأعيان والمشايخ وأرباب التشريفات لتهنئته وتهنئة أنجاله على حسب العادة ، فقابلناه إثر صلاة العيد وهنأناه فأكرمنى إكراما زائدا ، وأنعم علىّ بنيشان مجيدى (غرانقوردون) .

وبقيت على هذا الحال إلى أن ظهر فى سنة ١٨٧٦ ميلادية قصور الحكومة عن أداء ما عليها لكثرة ما أصدرته من البونات وما أثقل كاهلها من الديون ذات الأرباح الكثيرة ، حتى أدّى ذلك إلى الحجز على أغلب أملاكها وإلى تداخل الدول الأجنبية فى أمورها ، وآل الأمر إلى تعيين لجنة من معتمدى الأجانب ذوى خبرة للنظر فى المالية وفروعها ، وجعل فى هذه اللجنة دولتلو رياض باشا من طرف الحكومة المصرية ، فكان هو الذى عليه المعول فى معرفة الحقائق ، وتم الأمر بتقرير هيئة للحكومة على أسلوب جديد ، فترتبت فى سنة ١٨٧٧ ميلادية هيئة نظارة يرأسها دولتلو نوبار باشا فكنت من رجالها على ديوانى الأوقاف والمعارف وصدر الدكريتو من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه . « أنى أريد عوضا عن الانفراد المتخذ الآن طريقا فى الحكومة المصرية ، أن تكون لهذه الهيئة إدارة عامة على المصالح » بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا بالاستعانة بمجلس النظار ، والاشتراك معهم فى تسيير المصالح ، وأن يكون أعضاء مجلس النظار كل منهم كفيلا بالآخر ، يتفاوضون فى جميع المهمات ويتداولون الرأى فيها ويقررون ما تستقر عليه أغلبية الآراء ، وتصدر قرارات المجلس على حسب الأغلبية وأقررها بالتصديق عليها ، ثم ينفذها النظار » . فجرى العمل بذلك وأخذت هيئة النظارة فى إدارة المصالح على هذا النمط ، وشرعت فى تسديد الديون من إيراد البلاد ومن قرضة استدانتها من بنك (روتشلد بلوندره) وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الانجليزى ، ورهنت فى ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم

٥٥ عنها للحكومة ، وكان مبلغ/ايرادها سنويا أربعمائة ألف وستة وعشرين ألف جنيه انجليزى ، وجعلت لإدارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين .

وفى تلك المدة صرفت ما فى وسعى فى توسيع دائرة المعارف فشرعت فى بناء بعض المدارس كمدرسة طنتدا ومدوسة المنصورة ، وفى تكثير عدد المكاتب وترتيب المدرسين وما يلزم للتعليم من أدوات وكتب ، واعتنيت بأمر الأوقاف ونشرت المعاونين للكشف عن الأماكن وبيان المتخرب منها والعامر ، وما يناسب استبداله وتجديده على حسب ما يعود بالمصلحة على الأوقاف وبيان الأصقاع ونحو ذلك ، وكان أكثر مكاتبها متعطلا ما بين دارس وفاقد ثمرة التعليم لعدم لياقة المعلمين للتعليم ، فوجهت الهمة نحوها حتى ظهرت بالتدريج النتيجة للمتعلمين وأهليهم .

ولما تمت دفاتر الأماكن والمكاتب التى بالمدن والقرى أخذت فى انجاز مقتضياتها على حسب نصوص وقفياتها مراعيا فى ذلك ما فيه المصلحة وما يقره المفتى ، وكانت هيئة النظارة مساعدة للمعارف والأشغال العمومية وكل ما فيه التقدم .

وقد اهتمت بتنظيم أمر الإيراد والمصرف ، وأبطلت من المغارم ما يبلغ نحو مليونين من الجنيهات ، ولكن ألجأتها ضرورة الأقتصاد إلى إلغاء بعض المصالح وقطع المرتبات الجارية على غير قانون كالانعامات ومرتبات الإشرافات ، وتنزيل عدد الجيش العسكرى إلى القدر الكافى لاحتياجات البلاد ، وبذلك أحيل كثير من ضباط العسكرية على المعاش فأساءت من هذه الإجراءات ونحوها كثير من الناس ، سيما ضباط العسكر ، وحصل اللغط بذم الهيئة والتنديد على أعمالها وكثر القال والقيل ، حتى تجمع كثير من ضباط العسكر حول المالية يطلبون متأخراتهم ، وجرت منهم أمور جاوزت حد الأدب فتشوشت الأفكار داخل القطر وخارجه ، واضطربت الأحوال ، ولم يزل الاضطراب يتزايد حتى جعل وسيلة للقول بعدم موافقة هيئة النظارة لحال البلد وانبنى على ذلك سقوطها .

وفى ١٨ من إبريل سنة ١٨٧٩ ميلادية صدر الأمر العالى لشريف باشا بترتيب هيئة نظارة تحت رياسته تنتخب من الوطنيين ، فرتبها وعملت لائحة لسداد الدين عرفت

باللائحة الوطنية جعلت أكثره فائدة لأصحاب الدين استمالة لهم ، فلم تنجح المقاصد وكتب القناصل بذلك إلى دولهم فلم يرتضوه ، وانتهى الحال بسقوط تلك النظارة .

وفى ٢٧ يولية ١٨٧٩ صدر الأمر السلطانى بانفصال الخديوى إسماعيل باشا عن سند الحكومة المصرية ، وأن يتولاها أكبر أنجاله الفخام ولىّ عهد الحكومة المصرية يومئذ ، الخديوى المعظم المبجل أفندينا محمد باشا توفيق الأول ، أبقاه الله تعالى موفقا للخير والسداد ، وسعادة البلاد والعباد ، فأخذ أيده الله بزمام الأحكام ، وقام بالأمر أتم القيام .

وفى سنة ١٨٨٠ صدر أمره الكريم إلى سعادة دولتلو رياض باشا بتشكيل نظارة تحت رياسته مقلدا هو نظارة الداخلية ، فكنت من رجال تلك الهيئة مقلدا بنظارة الأشغال العمومية ، وكان إذ ذاك فى الحكومة اثنان من طرفى دولتى فرنسا والانجليز يراقبان أمور المالية وهما (موسيو دوبلنيير) الفرنساوى (والمسيو نارنج) الانجليزى فجعل لهما الحق فى حضور جلسات هيئة النظارة ، وشرعت النظارة فى إدارة المصالح وسن القوانين العادلة وجعل الأموال الميرية على أقساط مقررة وأوسعت فى معاش المستخدمين وفى عددهم بمايلائم كل مصلحة . واهتمت بكل ما فيه التقدم كأمر التربية ومصالح الأشغال حتى بلغت ميزانية ديوان المعارف ضعف ما كانت عليه ، وبعد أن كان ديوان الأشغال قلما يضاف تارة إلى ديوان الداخلية وتارة إلى غيره وكانت جميع الأعمال ما عدا المقايسات يجريها المفتشون والمديريون ونحوهم فيعملون برجال العونة مبانى وترعا ومساقى على أغراضهم الخاصة بلا فائدة عامة حتى كثرت الخلجان وضاعت بسببها مزارع كثيرة وضاعت المصارف التى عليها مدار إصلاح الأرض ، فبعد ذلك صار ديوانا مستقلا ملحوظا بعين العناية وبلغت ميزانيته ستمائة ألف جنيه حيث أنه الأساس الأعظم للثروة ، فحينئذ تمكنت من اجراء ما يلزم اجراؤه لتحصيل المنافع العمومية ، وقسمت أعمال الديوان ثلاثة أقسام ، قسم للتحريرات والمحاسبة ، وقسم لعمل التصميمات لما يلزم تجديده من الأعمال ويتبعه فرقة مهندسين لعمل الرسومات والموازين ، وقسم يختص بأعمال القاهرة ونحوها

من مدن القطر ، وذلك غير الملحقات مثل قلم الزراعة وقلم المصلح ومصلحة الإنجرارية وقلم القضاء ، وقسمت مصلحة الهندسة خمسة أقسام لكل قسم مفتش ، وجعلت جميع أعمال الهندسة تحت إدارة وكيل الديوان . وانتشر المهندسون فى جميع أنحاء القطر لمعاينة ما به من مبان وترع وقناطر وغيرها ، فحرروا الدفاتر بالموجود من ذلك وما يلزم تجديده أو رمّه فى كل مديرية ، وأخذ الديوان فى إجراء الأعمال مقدما الأهم فالأهم .

٥٦ ولموافقة حال المالية والأهالى قسمت الأعمال على عدة سنين/فحصل رم كثير من القناطر والبرابخ وتقويتها بوضع الدبش أمامها فى الحفر التى يخلفها هدير الماء ، وأحضرت الأخشاب اللازمة لتقفيل القناطر عند الاقتضاء ، وجددت جملة من المبانى والقناطر النافعة ، منها بمديرية الشرقية قنطرة الزوامل على ترعة الإسماعيلية ، وقنطرة الشرقاوية على النيل ، والبولاقية وقنطرة أشمون وقنطرة كفر الحمام ، وهويسات الإسماعيلية ورصيف السويس ، وبلغ مصرف ذلك نحو اثنين وثلاثين ألف جنيه ، غير برابخ وقناطر أنشىء بعضها على ذمة الحكومة وبعضها على ذمة المنتفعين ، وأجريت عمارات فى المحافظات والمديريات صرف عليها نحو خمسين ألف جنيه ، وصار الابتداء فى بناء سلخانة القاهرة ، واسبتالية قصر العينى ، ومدرسة الطب ، وصارت المعاقدة مع مصلحة توزيع المياه بالقاهرة على إنشاء وابور يوصل الماء إلى مدينة حلوان وكانت مفتقرة إلى ذلك ، ونظمت الحمامات التى بها ورتبت لها المهمات اللازمة ، وجعل لها حكيم ومأمور ، وزيد فى القاهرة عدد فوانيس الغاز وصار تنظيم بعض شوارعها وفرشها بالزلط ، وعملت عدة مجارير فى الشوارع المهمة لأخذ مياه الأمطار وأوصل الماء إلى طريق الجيزة والجزيرة للرش وسقى الأشجار ، ونظم طريق شبرى وبنى بآخرها رصيف طوله نحو مائتين وخمسين مترا ، وجدد بالقاهرة ميادين وفساق ، وأنشئت جنينة الأنطكخانة ببولاق ، وبنى بالإسكندرية سراى البوسطة .

وجعلت التصرف فى أمر الرى للمهندسين خاصة فجعلوا لفتح القناطر وسدها أوقاتا بحسب الحاجة العمومية ، ومنع ما كان يحصل من الفتح والسد على حسب

الأغراض الخاصة ، ولم تزل الرغبة فى تركيب الوابورات على البحار والترع آخذة فى الزيادة ، وكثرت الوابورات جدا حتى بلغ عدد المركب منها فى الجهات البحرية ألفين وواحد وثمانين وابورا قوتها أربعة وعشرون ألفا وخمسمائة وواحد وثمانون حصانا بخاريا ، منها الثابت على النيل مائة وخمسة وأربعون فى قوة أربعة آلاف وسبعمائة وواحد وثمانين حصانا ، وعلى الخلجان مائتان وواحد فى قوة ثلاثة آلاف وثمانمائة وتسعة وستين حصانا ، وغير الثابت على النيل مائتان وستة وعشرون وابورا فى قوة ألفين ومائتين وسبعة ، وعلى الخلجان ألف وخمسمائة وابور وتسعة فى قوة ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وثمانية وتسعين حصانا . ولم تنته الرغبة إلى هذا الحد بل كثر طلب الرخص لتركيب وابورات مستجدة .

وإلى غاية سنة ٨٠ لم يكن قانون لتركيب تلك الوابورات ، وترتب على كثرتها حرمان كثير من الأهالى من الانتفاع بمياه تلك الترع سيما مع استحواذ أصحاب النفوذ على ترع لوابوراتهم إما لسقى زروعهم أو لبيع الماء لزرع غيرهم ، وكثر التشكى من ذلك فصار البحث فى هذه المسئلة لرفع تلك المظالم وعملت لائحة بخصوص الآلات الرافعة للماء امتنع بها الضرر وهى المستعملة إلى الآن وبها انتظم أمر الرى ،وبلغ مقدار الماء بمديرية القليوبية فى أعظم التحاريق نحو ثمانمائة ألف متر مكعب فى اليوم والليلة ، منها من الترع خاصة بعد توسعة الباسوسية ستمائة ألف متر ، وفى مديرية الشرقية ثلاثة ملايين ونصف ، وفى الدقهلية نحو أربعة ملايين ، وفى الغربية والمنوفية نحو ثمانية ملايين كل ذلك بعد تقفيل قناطر بحر الغرب وتحويل الماء إلى بحر الشرق .

وقد صار الاهتمام بتطهير الترع والخلجان بطريقة لا تمنع من سقى المزروعات بأن منع سد أفواه الترع عند التطهير وجعل ابتداؤه من آخر كل ترعة بعد تقسيمها ، وحوّل كثير من ترع الوجه البحرى من نيلى إلى صيفى فتمكنت بلادها من الزراعة الصيفية ، وعملت فى الأقاليم القبلية ترع وجسور لرى الجزائر وأعالى الحيضان ، وصار الاهتمام الزائد بأمر بلاد الفيوم وكان أكثرها قد تعطلت زراعتها لأن أحداث الجفلك هناك غير نظام الرى القديم ، وتبدل أكثر النصب القديمة المعدة لتقسيم الماء على البلاد ؛ فأحييت

النصب القديمة ، وعدلت الترع والمساقى ووجه إليها ما يلزم من ماء الإبراهيمية فزرع هناك نحو خمسة عشر ألف فدان صيفية وصارت أرضها رواتب ، وقل بها استعمال السواقى .

ولما كانت الإبراهيمية قد قطعت ترع بلاد المنية وحرمت أراضيها من الطمى الذى عليه مدار الخصوبة صار الاعتناء بهذه المسألة واستعملت الإبراهيمية فى ملء الحيضان وتكملتها مع ما يرد إليها من اليوسفى ، فحييت أرضها وأخصبت ، وزرع الأهالى بها نحو ثلاثة آلاف فدان من القصب الحلو ، بعد أن كان هذا الصنف والإبراهيمية مختصين بالدائرة السنية ، وزادت زراعة الذرة أضعاف ما كانت عليه ، وعملت فى المديريات قناطر وبرابخ كثيرة ما بين تجديد ورم ، وبلغت أعمال الحفر فى تلك السنة ما بين تجديد وتطهير اثنين وثلاثين مليونا ونصف مليون متر مكعب فى مائة وثلاثة وخمسين يوما ، وخص الشخص فى اليوم متر وتسعة أعشار متر وهو أكبر مما كان يعمل فى ٥٧ اليوم قبل ذلك بسبب أن الأعمال مشت / على قانون منتظم ، مع أن الأنفار الذين خصصوا على البلاد كانوا أقل من المخصص عليها فى السابق بنحو عشرة آلاف نفس ، وبلغ ماعمل فى السنة نصف ما قرر عمله فيها مع كثرة ما قرر بخلاف ما كان يعمل قبل، فإنه كان لايتجاوز خمسى ما كان يقرر عمله فى السنة وكان المؤمل زيادة انتظام العمل فى المستقبل .

ومما أوجب تخفيف العمل لائحة العونة التى ندب لها جملة من أعيان البلاد والحكام، وهى المتبعة إلى الآن ، من مقتضاها جعل العونة على كل من له قدرة على العمل مع الترخيص فى التخلص منها بدفع البدل ، فتخلص من العمل ثمانية وخمسون ألف نفس ، وتحصل منها فى السنة نحو ستة وثلاثين ألف جنيه وكان كل سنة يزيد . وتحسنت حالة الرى وكل ما يتحصل يصرف فى أعمال لازمة ، وكان تطهير رياح البحيرة سابقا يستعمل فيه نحو عشرين ألف نفس تجمع من سائر مديريات الوجه البحرى لقلة أنفار مديرية البحيرة ، ومع ما فى ذلك من الظلم والإجحاف كان لا يتحصل منه إلا على ثمانمائة ألف متر مكعب من الماء فى اليوم والليلة ، وكان المتحصل من وابورات العطف مثل ذلك بمصاريف باهظة والمتحصل من الجهتين كان غير كاف لزرع نصف ما يلزم زرعه

بهذه المديرية الواسعة مع أن المنصرف على ذلك سنويا نحو اثنين وعشرين ألف جنيه ، فلما رأينا ما عليه زراعة المديرية من الانحطاط والتأخر قدمنا لمجلس النظار مشروعا عن تركب وابورات بفم الخطاطبة وتحسين وابورات المحمودية لتخليص المديرية من هذا الضرر . وأنه وجد لهذا المشروع من يجريه وهو (المسيو داستون) المهندس وشركاؤه ، فبعد المذاكرة صار قبول هذا المشروع فصار التعاقد مع المهندس المذكور وشركائه على تجديد وابورات على فم ترعة الخطاطبة يتحصل منها يوميا مليون ونصف مليون متر مكعب من الماء ، وأن يزاد على وابورات العطف ما يلزم زيادته وما يلزم استعداده من القديم ليتحصل على إيراد مليون ونصف آخر ، وعملت الشروط اللازمة ومن ضمنها إتمام العمل فى سنة واحدة ، وأن لا يزيد المنصرف فى السنة عن أربعة وعشرين ألفا وسبعمائة وسبعة وثمانين جنيها ، وقدر فى العطف ثمن المليون أربعة وعشرون جنيها ، وفى ترعة الخطاطبة خمسة وعشرون ونصفا . فقامت تلك الشركة بذلك وبطلت السخرة وقل الاحتياج إلى التطهير ، وكانت الحكومة سابقا تكلف أرطة عسكرية بإحضار الدبش اللازم للمحافظة على جسور النيل ، فرأى ديوان الأشغال كثرة ما يصرف على ذلك فأبطل تلك الطريق وجعل توريد الدبش الكافى فى عهدة جماعة بشروط عقدها معهم ، وعمل للتسليم والتسلم استمارة وعين لهذه المصلحة مأمورين من المهندسين فسارت سيرا حسنا ، وبلغ مقدار ما أحضر إلى الجهات فى سنة ٨٠ ، مليونا وأربعمائة قنطار ، بمبلغ ثلثمائة وخمسة عشر ألف قرش ، باعتبار ثمن القنطار تسعة أنصاف فضة ، مع أن الذى استخرجته الأرطة وغيرها فى سنة ٧٩ ، كان مائة واثنين وخمسين ألفا وأربعمائة قنطار بمبلغ ثلثمائة وأربعة وخمسين ألفا وثمانمائة وخمسة عشر قرشا ، فانظر إلى الوفر البين مع التسهيل على الناس فضلا عن الحصول على دبش عظيم جيد .

وهكذا كانت جميع الأعمال قائمة على قدم السداد ، وكانت هيئة النظارة سائرة فى الطريق الجادة ناشرة ألوية العدل والتسوية بين القوىّ والضعيف ، والرفيع والوضيع فاستوجب ذلك إثارة الحقد فى صدور أرباب الأعراض ، فتقولوا على هذه الهيئة وطعنوا فيها ، واختلط كثير منهم بضباط العسكرية فأوغروا صدورهم وألقوا فى آذانهم أنهم

الأحق بتعديل القوانين والتصرف فى الحكومة . حيث أنهم أهل الوطن وأصحاب القوة وحسنوا لهم ما صنع بعضهم من الثورة السابقة التى لم يعاقبوا عليها فتعصبوا وتمكن منهم الغرور، وكان رئيسهم أحمد عرابى أحد أمراء الآلايات ، وقتئذ ، فاستمال سائرهم وعاقدهم على مضادة الحكومة ، وتقدم من رؤسائهم لمجلس النظار عرضحال يطلبون فيه تغيير ناظر الجهادية عثمان باشا رفقى وتشكيل مجلس نواب وغير ذلك مما يخرج عن حدود وظائفهم ، فانعقد لذلك مجلس النظار تحت رياسة الجناب الخديوى الأفخم ، وانحط الرأى على عقد مجلس من الأهليين وبعض أمراء العسكرية للنظر فى أمرهم ، والحكم فيهم بما تقتضيه قوانين الجهادية ، وتعهد ناظر الجهادية بأن لا ينجم عن ذلك خطر ولا ضرر ، فانعقد ذلك المجلس بقصر النيل وجلبوا إليه لمحاكمتهم ، فقام جمع من الضباط والعساكر وهجموا على قصر النيل ، وأهانوا من بالمجلس وأخذوا العرابى ومن معه بالقوة على حسب عهد كان بينهم ، فكان ذلك أول التظاهر بالعصيان والخروج عن طاعة الحكومة ، وشاعت هذه النازلة حتى وصل خبرها إلى البلاد الأجنبية ، فجمع الخديوى الأعظم النظار وأعيان الأمراء وتفاوضوا فى إطفاء هذه الفتنة ، فتقرر تغيير ناظر الجهادية وإجابة العسكر إلى مطلوبهم ، والإغضاء عما حصل منهم لما تبين من عدم/وجود قوة تحت يد الحكومة تردّ جماحهم ، فلم ينقطع الشرّ بل تمادوا على العصيان ، وحملهم الخوف على أنفسهم على شدة النفور وعدم قبول النصيحة ، وطمعوا فى أن يكونوا أصحاب الحل والعقد فى الحكومة ، وتأكد التحالف بينهم حتى بلغ بهم الأمر إلى أن هجموا على سراى عابدين ، ووجهوا إليها المدافع ، وطلبوا سقوط هيئة النظارة وترتيب مجلس النوّاب وزيادة عدد الجند إلى ثمانية عشر ألف عسكرى ، فحضر القناصل وأوصلوا الأمر إلى دولهم بواسطة التلغراف ، وبعد المخابرات أجيب العسكر إلى مطلوبهم وغيرت هيئة النظارة وصدر الأمر الخديوى إلى المرحوم شريف باشا بتشكيل هيئة تحت رياسته فشكلها ، وعقد مجلس النوّاب فشرع رجال المجلس فى تقرير لائحته الأساسية ، وبعد قليل طلبوا أن يكون لهم الحق فى نظر ميزانية الحكومة بشرط عدم الخروج عن المعاهدات الدولية وقانون التصفية ، فلم يجبهم المرحوم شريف باشا إلى ذلك فأصروا على الطلب

٥٨

وظاهرهم العسكر ، فاستعفى المرحوم شريف باشا وتغيرت هيئة النظارة ، وتشكلت هيئة جديدة تحت رياسة محمود باشا البارودى ، وجعل من رجالها أحمد عرابى على الجهادية والبحرية فلم تخمد بذلك نيران الفتن بل اشتعلت ، وانضم إلى الطائفة العرابية الخوارج ، كثير من أهل البلاد وأعيانها ما بين راغب وراهب .

وفى أثناء ذلك أتى إلى ميناء الإسكندرية مراكب حربية إنجليزية وفرنساوية وغيرها لتقرير الأمن واطفاء الفتنة ، وحضر إلى مصر درويش باشا مندوبا من طرف الدولة العلية لتسكين الفتنة فلم تحصل النتيجة ، وقام الخديوى الأفخم إلى الإسكندرية ولحقه درويش باشا ، وتداولت المخاطبات بين الدول وبينها وبين الباب العالى ، وتقرر عقد لجنة بالإستانة العلية للنظر فى هذه الحادثة ، وفى أثناء ذلك أطلقت على الإسكندرية المدافع من المراكب الانجليزية وقاومت العساكر المصرية سويعات ثم انهزموا ، وخرجوا من الإسكندرية بعد اشعالهم النار فيها ، وحثوا أهلها على الخروج فخرجوا هائمين على وجوههم كيوم المحشر وتفرقوا فى البلاد ، وحصل لهم من السلب والنهب وهتك الحريم ما يكل القلم عن حصره ، ودخل الإنجليز الثغر وتحصن العرابى ومن معه بطواب عملوها من تراب بكفر الدوار ، وسدوا المحمودية ليمنعوا وصول الماء إلى الإسكندرية وكثر المعدون لهم بالأنفس والأموال ما بين راغب وراهب ، وعم الخوف كل من لم يتشيع لهم وامتلأت الطوبخانة ممن تظاهر بمخالفتهم . وفى خلال تلك الأحوال كان قد تشكل بالقاهرة مجلس عرفى بأمر العرابى للنظر فى المصالح ، وكثيرا ما عقدوا مجالس للنظر فى مسائل تعرض من طرف العرابى وحزبه ، وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ندب إليه كثير من الأمراء والعلماء والروحانيين وأعيان البلد ، وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصالح فكنت ممن ندب إليه فعينت سفيرا إلى الإسكندرية مع جماعة من الوطنيين ، فلما وصلنا إلى الإسكندرية تكلمت فى عمل طريقة لما يوجب خمود نيران هذه الفتنة ، فأجاب الجناب الخديوى وصارت المكالمة فى هذا الشأن مع رؤساء الإنجليز ، لكن لم ينجح ذلك لمزيد نفرة العسكرية ، ولما خاف العرابى أن يتحوّل الإنجليز إلى جهة برزخ السويس تحول بأكثر عسكره إلى التل الكبير بالشرقية فتحصنوا هناك ووقع بينهم

وبين الإنجليز مناوشات انتهت بانهزام عرابى وقومه ، وسار الإنجليز إلى القاهرة وأسلم العرابى نفسه وقبض على من كان معه ومن اتهم بالتشيع له وسجن الجميع فى أضيق السجون .

وبعد أن حضر الخديوى الأفخم إلى القاهرة ، وهدأت الأمور عينت لجنة للتحقيق وأخرى للحكم على كل بقدر جنايته ، وتم الأمر بعقوبة البعض والعفو عن البعض ، وتبرئة البعض ولله عاقبة الأمور.

وأثر انهزام العرابيين تشكلت نظارة تحت رياسة المرحوم شريف باشا فى سنة ١٨٨٣ ميلادية فكنت من أعضائها على ديوان الأشغال العمومية ، فوجهت النظر نحو إتمام ما تقرر فى المدة السابقة .وفى هذا العام ، أعنى سنة ١٨٨٣ ميلادية ، نلت من لدن الحضرة الفخيمة الخديوية التوفيقية رتبة (روملى بيكلر بيك)وفيها أيضا كانت وابورات الخطاطبة غير كافية لاحتياجات أراضى المديرية ، فحصل تنقيح الشروط التى كانت قد عملت مع (مسيو داستون) على تجديد وابورات بفم ترعة الخطاطبة ولزيادة مقدار الماء إلى نحو خمسة ملايين متر مكعب بعد أن كان الوارد ثلاثة ملايين ، واتخذ الديوان طريق المقاولة فى المبانى على الأطلاق ، ورتب لمراقبة ذلك من يلزم من المهندسين لئلا تخرج الأعمال عما فى التعهدات ، وجعل لذلك استمارة يجرى العمل عليها ، ثم أخذ فى نقل جسور الترع الأصلية كى لا تنهال الأتربة فيها وليتمكن من تكرار العمل.

ولكثرة العمل صار تقسيمه على سنين وجعل بعضه يعمل بالمقاولات على وجه التجربة والبعض يعمل بأنفار العونة ، ثم وجهت الهمة/نحو مرمة عمارات جميع المديريات ٥٩ وتجديد ما هو لازم ، ورتبت كراكات المحمودية لاستدامة قطاعها وصار مد الترعة الإبراهيمية لسقى زرع مديرية بنى سويف ، وترتيب كراكات الإبراهيمية ، وبنيت الورشة لترميم الآلات وتجديدمايلزم ورتب لها مايلزم من الأدوات والصناع ، وصرف على تطهيرها فى هذه السنة ، نحو سبعة وعشرين ألف جنيه ، وبلغ إيرادها فى أشد التحاريق نحوا من أربعة ملايين متر مكعب من الماء ، ومثل ذلك صار فى ترعة الإسماعيلية وصرف

عليها نحو أربعة وعشرين ألف جنيه ، وكان بحر مويس يقل به الماء فى زمن الصيف لكثرة الرمال بفمه وحدوث الجزائر به وأمامه ولا ينفعه التطهير الجارى به كل سنة . فرتبت به كراكة بأدواتها وعمالها ، فزالت منه الرمال وكثر الماء فيه وفى فروعه .

واستقر الحال على استعمال الكراكات فى الأبحر الكبيرة كالشرقاوية والمنصورية ورياح الوسط ورياح المنوفية والغربية ، وأن يكون ذلك على التدريج ، وبذلك تخف التطهيرات الصيفية عن كاهل الأهالى وما يتحصل من البدلية ربما يوازى ما يصرف على الكراكات ولوازمها مع كثرة فوائد الكراكات جدا عن عمل الأنفار ، وأجريت فى تلك السنة أعمال متنوعة فيما يخص التطهيرات والمحافظة على كبرى قصر النيل وسد بوقير ، وأنشىء بالشرقية مدرسة الزقازيق وديوان المديرية وملحقاته .

وفى القاهرة جرى تبليط شوارع ومرمة أخرى ، وإنشاء مجارير ومرمات مبان وترتيب فوانيس غاز على حسب الحاجة ، وصار مشترى هراس بخارى وكناسات تجرها البهائم ، وتنظيم جنات وميادين . وبلغ مصرف أعمال القاهرة فى تلك السنة نحو خمسة وسبعين ألف جنيه .

وكذا جرت عمائر وأعمال متنوعة بمدينة الإسكندرية ، وفى الأقاليم البحرية والقبلية .

ففى مديرية الدقهلية قنطرة ترعة الساحل وكبرى معدنى على ترعة أم سلمة . وصار الشروع فى جعل ترعة الإيراد فى البحر الصغير مصرفاً لإحياء أراضى البحر الصغير ، وترعة مستجدة بين أطيان الدراكسة وميت سويد وحوشة ببحيرة الطبلية .

وفى الغربية صار الشروع فى عمل كبرى مدينة المحلة وقنطرة بسيون ، وحولت ترعة سليم الآخذة من الخضراوية من نيلية إلى صيفية .

وفى المنوفية كملت قناطر النعناعية ، وحوّلت ترعة الحمراء من نيلية إلى صيفية ، ونقلت جسور ترعة الساحل .

وفى البحيرة عملت حوشة جديدة على جزيرة الطيرية وتحويلة لجسر النيل بناحية النجيلة ، وأخرى وقاية من بتبيت ناحية الأخماس .

وفى القليوبية نقلت جسور ترعة كوم بتين وعملت مساطيح لترعتى القرطامية وأبى المنجى .

وفى مديرية بنى سويف بنيت القناطر السبعة فى جسر قشيشة وسحارات تحت بعض الترع لنفوذ المياه الحمراء إلى الحيضان ، وقناطر أخرى فى الجسور للصرف ، وعملت قنطرة بالحوض السلطانى .

وفى الفيوم قناطر بحر الغرق ، وسد فم بحر النزلة القديم وعملت به تحويلة لإيصاله بالبحر الأصلى .

وفى مديرية المنية عملت قناطر بالحيضان كحوض الطهنشاوى وحوض الجرنوس ، وكذا عمل فى مديريتى جرجا وقنا .

وإلى ذاك الوقت لم يكن بالمديريات محلات كافية لدواوين الإدارة والقضاء والضبط ونحو ذلك ، وكان الموجود منها مبنيا بالطوب النىء أو الدبش على غير نظام ، وكانت الحبوس حواصل مظلمة لا يدخلها النور إلا قليلا ، وكان أصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالأمتعة وداخلها يختنق بمجرد استنشاق هوائها ، ففطنت الحكومة الخديوية لذلك ، وصدر الأمر بإنشائها،فعمل ديوان الأشغال التصميات اللازمة ، وشرع فى بنائها على التدريج فبدأ بديوانى مديرية الشرقية والمنوفية ، وكذا لم يكن بالمديريات اسبتاليات داعية إلى الصحة بل كان بعضها محل ورشة ونحوها ، وأكثرها متهدم والسليم منها كمربط البهائم ، فعملت تصميات لتلك الأعمال على حسب أهمية

كل مديرية بالكبر أو الصغر، وتدرجت الأعمال على السنين فعملت اسبتاليتا المنصورة والغربية فى تلك السنة، وكذا الذبح كان فى الفضاء وجاريا على غير قانون، ومنافع الحكومة منه قليلة، فبنى مذبح المنصورة والغربية، وجعلت تلك المبانى أنموذجا لما يبنى فى سائر المديريات، وبنيت جملة شون للمصلح وقرقولات للعساكر وغير ذلك مما لا يسع المقام شرحه.

ولنذكر هنا بعض ملخص التقرير الذى عمل إذ ذاك بديوان الأشغال، وقدم لمجلس النظار بخصوص الرىّ واستيفاء أعمال سقى الزراعة الصيفية فى زمن التحاريق وإزالة صعوبة أعمال التطهير عن كاهل الأهالى، واتساع نطاق الزراعة والمحصولات، فمن أهم ذلك إتمام ما يلزم لعملية ترعتى الرمادى والإبراهيمية وترعة أخرى مهمة فى الأقاليم القبلية لإزالة غوائل الشراقى الذى يتوقع حصوله فى بعض السنين فإن ما يصرف فى أعمال تلك الترع أو فى ترتيب وابورات لتكميل رى الحيضان المرتفعة، ولو كان كثيرا فى نفسه لكنه قليل جدا فى جنب ما تخسره الأهالى والحكومة / عند حصول الشراقى. فقد كانت خسارة الحكومة وحدها سنة ١٨٧٧ ميلادية عندما كان النيل أقل من ١٧ ذراعا وهبط بسرعة، أكثر من مليون جنيه، ولا بد أن الأهالى كانوا بمثل ذلك أو أكثر فضلا عما قاسوه من الضنك والموت. وكثيرا ما يكون النيل أقل من اللازم فتتكرر الخسائر، فمن الضرورى تدارك ذلك باجراء تلك الأعمال للأمن على الأموال والأنفس.

ومن ذلك بناء القناطر اللازمة فى جسور الحيضان لتقل كمية الرديف السنوى وتقل أنفار العونة.

وفى الوجه البحرى بدلا عن المعالجة فى القناطر الخيرية وكثرة الصرف عليها مع طول المدة، بترتيب وابورات على شاطىء النيل كافية لسقى المزروعات. وقد صار البحث عما يلزم لكل مديرية من الوجه البحرى، فتبين أنه يكفى جميعها فى اليوم والليلة خمسة وعشرون مليون متر مكعب من الماء بما فى ذلك من مليون ونصف لمديرية الجيزة، وباعتبار أن الفدان يلزم له عشرون متراً مكعبا كل يوم، وأن إيراد النيل فى أشد

التحاريق هو ثمانية وثلاثون مليونا كل يوم ، يكون الباقى فى مجراه نحو ثلاثة عشر مليونا ، ومبلغ الخمسة والعشرين مليونا المذكور موزع على مديريات بحرى بحسب زمامها ، هكذا : لمديريتى القليوبية والشرقية خمسة ملايين ، منها ثلاثة ملايين وثلث من الوابورات التى توضع على الخليج المصرى والشرقاوية والباسوسية ، والباقى من النيل بواسطة الإسماعيلية وبحر مويس .

و لمديرية الدقهلية أربعة ملايين منها ثلاثة من الوابورات التى توضع على ترعة الساحل والبحر الصغير ، والباقى من النيل بواسطة ترعتى أم سلمة والمنصورية بعد تطهيرهما بالكراكات حسب المطلوب .

وللمنوفية والغربية عشرة ملايين منها سبعة بالآلات البخارية وهى أربعة طقومة : واحد برأس روضة البحرين ، وآخر خلف القرينين ، وثالث على ترعتى الساحل والخضراوية ، والرابع بقرب فم البحر الصعيدى ، والثلاثة الباقية من النيل بواسطة رياح الوسط .

ولمديرية البحيرة أربعة ملايين ونصف من الوابورات الراكبة على المحمودية وترعة الخطاطبة خلاف ما يأخذ من الرياح .

ولمديرية الجيزة مليون ونصف بطقمى آلات أحدهما يوضع على الشاطىء الأيسر للنيل لرىّ شرق أطفيح ، والآخر فى رأس المديرية القبلى قرب قنطرة جرزة .

وتقدم لديوان الأشغال من بعض الشركات المعتبرة طلب بتعهد إجراء تلك الأعمال، فبفرض معاملتها كنص شروط الخطاطبة ، وجعل مدة الالتزام خمسا وثلاثين سنة ، عملت حسبة فى الديوان فظهر أن ما يلزم دفعه كل سنة لتلك الشركة مائتان وسبعة وثمانون ألف جنيه مصرى موزعة على المديريات هكذا :

على مديرية الجيزة تسعة وثلاثون ألفا وثلثمائة جنيه . وعلى القليوبية والشرقية

تسعة وخمسون ألفا ومائة جنيه . وعلى الدقهلية ثمانية وثلاثون ألفا وستمائة وخمسون جنيها . وعلى المنوفية والغربية مائة ألف وثمانية جنيهات . وعلى البحيرة تسعة وأربعون ألفا .

وباعتبار أن المنزرع صيفيا مليون فدان فقط يخص الفدان ، سبعة وعشرون قرشا صاغا تقريبا ، بصرفه تستوفى الزراعة حقها من المياه بسهولة ، وإذااعتبر التوزيع بالنسبة لعموم الزمام يخص الفدان نحو عشرة قروش ، وذلك قليل جدا فى جنب ما تتحصل عليه البلاد من الفوائد التى منها :

أن رفع المياه بالآلات إلى مستو ثابت يضمن ثبات مقدار الكمية اللازمة للزراعة مهما بلغت درجة انحطاط النيل وذلك من أهمّ الأمور .

ومنها ، تنقيص التطهير الصيفى بمقدار مهمّ جدا .

ومنها ، أنه بواسطة الآلات تكون الأراضى المرتفعة والمنحطة تنال من الماء بقدر اللازم فقط .

ومنها ، أنه فضلا عن دوام استيفاء الكميات المقدرة من الماء فمن الممكن زيادة ارتفاع الماء فى الترع أو تنقيصه على حسب الحاجة ، فيتوفر على الناس ما ينفقونه فى سبيل رفع الماء بالسواقى ونحوها .

ومنها ، أنه بواسطة رفع سطح الماء بحسب الطلب يمكن تحويل جميع الترع النيلية الداخلية إلى صيفية بدون إجراء حفر فيها بحيث يتيسر استخدامها للزراعة الصيفية ، فيتمتع الأهالى بالزراعة الصيفية بعد حرمانهم منها .

وبالجملة فبجلب المياه إلى الترع بواسطة الآلات يصير مقدار تصرفها كافيا كافلا لاحتياجات الأراضى إذ لا توجد أرض إلا وربما مرتب على ترع نيلية أو صيفية .

وقد تكلمنا فى كتابنا « نخبة الفكر » على ما يتعلق بالقناطر الخيرية بأبسط عبارة فليراجع.[١]

ولم تزل هيئة هذه النظارة قائمة على قدم السداد ، جادة فيها فيه عمارية البلاد وراحة العباد ، إلى أن حدثت أمور أوجبت استعفاء النظارة ، وتشكلت نظارة أخرى تحت رياسة دولتلو نوبار باشا ، وذلك فى أواخر سنة ١٨٨٣ ميلادية ، واستمرت إلى منتصف شهر يولية سنة ١٨٨٨ ميلادية - توافق سنة ١٣٠٥ عربية - ثم استعفى وسقطت النظارة ، وبتاريخه صدر الأمر العالى الخديوى إلى الجناب المعظم ذى الدولة مصطفى باشا رياض بتشكيل نظارة تحت رياسته مقلدا حرسه الله مع ذلك / نظارة الداخلية والمالية ، ٦١ فجعلت من رجال هذه النظارة مقلدا أيضا نظارة ديوان المعارف ، وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان والله المستعان.

وكنت فى بلدتى مشغولا بزراعة بعض أرض لى هناك ، كان قد مضى علىّ نحو من ثلاثين سنة لم أتوّجه إليها بسبب كثرة أشغالى بمصالح الحكومة ، ومن طول المدة كانت آلت إلى التلف ، وصار أغلبها سباخا ، فلما طلبت لهذه الخدمة تركتها وأخذت فى تأدية ما فرض علىّ قياما بحق وطنى ، أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما فيه نفع العباد ، وأن يختم لنا وللمسلمين بالخير إنه سميع قريب مجيب الدعوات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ البرنبل ﴾ قرية من قسم اطفيح بمديرية الجيزة ، شرقى الكريمات إلى جهة الشمال ، وفى جنوب ناحية المسيد ، واقعة بين ترعة الحبشى والجبل ، وفى وسطها جامع بمنارة ومقام ولى اسمه على الطيورى ، يزعم الناس أنه من ذرية سيدى جعفر الطيار ، وأكثر أهلها مسلمون ، وفيها مصانع بكثرة ، ومعمل للنيلة ونخيل قليل ويزرع بها كثير من صنف النيلة ، وجبانتها فى سفح الجبل.

---

(١) راجع كتاب « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » تأليف على باشا مبارك . مطبعة وادى النيل ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ . ص ١٩٧ وما يليها .

ترجمة سيدى أويس القرنى رضى الله عنه

وفى شرقيها على قارة فى سفح الجبل مقام لسيدى أويس القرنى صاحب الكرامات الكثيرة والمناقب الشهيرة ، ومساكن خدمته بجواره من الجهة الجنوبية .

والصحيح أن قبره رضى الله عنه ليس فى هذه الجهة ولا فى غيرها من بلاد مصر ، ففى رحلة ابن بطوطة[1] ، أن قبره فى مقبرة دمشق ، بين باب الجابية والصغير ، وقيل ، أنه ببرية لا عمار فيها بين المدينة والشام . وقيل ، قتل بصفين مع علىّ رضى الله عنهما انتهى .

وفى كتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير :

أنه أويس بن عامر بن جزء بن مالك بن عمرو بن مسعدة بن عمرو بن سعد بن عصوان بن قرن بن ردمان بن ناجية بن مراد المرادى ثم القرنى الزاهد المشهور وهكذا نسبه ابن الكلبى ، أدرك النبى ﷺ ولم يره ، وسكن الكوفة وهو من كبار تابعيها . روى أبو نضرة عن أسير بن جابر قال : كان محدث يتحدث بالكوفة فإذا فرغ من حديثه تفرقوا ويبقى رهط فيهم رجل يتكلم بكلام لاأسمع أحدا يتكلم بكلامه فأحببته ، ثم فقدته ، فقلت لأصحابى : هل تعرفنون رجلا كان يجالسنا كذا وكذا ، فقال رجل من القوم : نعم أنا ذاك أويس القرنى ، قلت : أو تعرف منزله ؟ قال : نعم . فانطلقت معه حتى جئت حجرته فخرج إلىّ فقلت : ياأخى ماحبسك ؟ قال : العرى .

قال : وكان أصحابه يسخرون منه ويؤذونه ، قال : قلت : خذ هذا البرد فالبسه . قال : لا تفعل فإنهم يؤذونى . قال : فلم أزل حتى لبسه فخرج عليهم فقالوا من ترى خدع عن برده هذا فجاء فوضعه . وقال : قد ترى. فأتيت المجلس فقلت ما تريدون من هذا الرجل قد آذيتموه . الرجل يعرى مرة ويكسى مرة وأخذتهم بلسانى . فقضى أن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فيهم رجل ممن كان يسخر بأويس ،

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، طبعة بيروت سنة ١٩٦٠ ، ص ٩٨ .

فقال عمر : هل ههنا أحد من القرنيين؟ فجاء ذلك الرجل. فقال عمر : إن رسول الله ﷺ قد قال : « إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم ، وقد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا مثل الدينار أو الدرهم ، فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم . » فأقبل ذلك الرجل حتى دخل عليه قبل أن يأتى أهله؟ فقال أويس : ما هذه بعادتك ، فقال : سمعت عمر يقول كذا وكذا فاسنغفر لى ، قال : لا أفعل حتى تجعل لى عليك أنك لا تسخر بى ولا تذكر قول عمر لأحد فاستغفرله .

وروى أن عمر قال له لما وفد من اليمن : سمعت رسول ﷺ يقول : « يأتى عليكم أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لى فاستغفر له . انتهى باختصار ، انظر أسد الغابة[1] .

وفى البرنبل هذه يعمل له مولد كل سنة فى مبادى زيادة النيل ، تهرع إليه الزوار من البحيرة والصعيد ويكون فيه بيع وشراء لكنه ليس على هيئة غيره من الموالد وذلك أنه عند الميعاد السنوى يأتون إليه يوم الأربعاء فيمكثون هناك أربعة أيام مشتغلين بالأذكار وقراءة القرآن واللعب بالخيل وخلافها ، ويذبحون الذبائح بكثرة ويطعمون الطعام ، وفى اليوم الرابع ينصرفون ثم يرجعون يوم الأربعاء فيفعلون كذلك ، وفى اليوم الرابع ينصرفون وهكذا حتى يمضى ثلاثون يوما .

وفى جهات الصعيد يعمل موالد بكثرة لمشاهير من أكابر الأولياء مثل مولد سيدى على الروبى فى مدينة الفيوم كل سنة فى نصف شعبان ، ومولد الشلقامى فى ناحية آبة الوقف ، ومولد الشيخ عبد اللطيف فى ناحية القايات ، ومولد البهنسا لغراء وكلها تعمل قبل زيادة النيل ، ومولد سيدى محمد الفرغلى فى بندر بوتيج من إقليم أسيوط ، ومولد

---

(١) أسد الغابة ، طبعة المعارف جـ ١ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

سيدى أبى القاسم ببندر طحطا ، ومولد سيدى كمال الدين عبد الظاهر فى مدينة إخميم ، ومولد سيدى عبد الحيم القنائى بمدينة قنا من أول شعبان إلى نصفه ، ومولد أبى عمرة فى مدينة جرجا وغيرهم/رضى الله عنهم أجمعين وأغلب هذه الموالد يستمر ثمانية أيام ومنها ما يستمر نصف شهر ، وأكثرها يشتمل على متاجر تجلب من المدن الكبيرة حتى القاهرة ، وتباع فيها أصناف الحيوانات مثل مولد سيدى أحمد البدوى . وفى شرقى مقام سيدى أويس على نحو مائة وثمانين مترا يوجد فى الجبل حجر صلب به أثر قدم يزعم الناس أنه أثر المصطفى ﷺ وتزوره السياحون كثيرا . ٦٢

﴿ بيرنيس ﴾ مدينة قديمة كانت على البحر الأحمر بينها وبين القصير القديم المسمى ميوهورمو س ألف وثمانمائة غلوة ، كما فى الهيريل ، وفى بعض العبارات أن بينهما خمسين فرسخا . وهو غير القصير الجديد المسمى عند العرب الجديدة وهو فى جنوب القديم بقليل ، وبين بيرنيس ومدينة قفط التى الجانب الشرقى للنيل مائتان وثمانية وخمسون ميلا رومانيا وهى تسعة وخمسون فرسخا .

وقال بلين : إن بين قفط وبيرنيس مسافة اثنى عشر يوما .

وقال ابيفان : إن بيرنيس فى محاذاة جزيرة أسوان والذى وضع هذه المدينة هو بطليموس فيلودولفوس وسماها باسم والدته ، ورتب فيها محافظة بقيت إلى زمن الرومانيين ، ولم تزل آخذة فى العظم وكثرت فيها المتاجر إلى زمن مديد . اهـ مترجما من كتاب استرابون . وقال هو وبلين أيضا : إنها لم تكن مينا للسفن بل كانت فى آخر خليج أطلق عليه الرومانيون اسم طارنوس تدخل فيه السفن ، وبعد تفريغها ترجع إلى ميناء بعيدة عنها تسمى عند الرومانيين مينا قيوسهر موس باسم مدينة كانت هناك وكانت عندها مدينة أخرى تعرف بالمدينة البحرية وكانت تلك الميناء أقرب إلى مدينة قفط من بيرنيس ، وهذا هو السبب فى عدم جعل المينا عليها ، وسمى ديودور الصقلى هذه المينا بمينا الزهرة .

وذكر هو واسترابون وغيرهما أن المينا كانت بقرب الجبل الأحمر الذى هو على مسافة ستة عشر فرسخا من القصير ، فكانت المينا فى جنوبه على نحو فرسخ ونصف ،

وكان فى المينا عمارة متسعة بعيدة عن البحر بنحو فرسخين ، بينها وبين البحر ثلاث جزائر منها اثنتان أرضها متسعة منبسطة قليلة الزرع ، وكان فيهما زمن الرومانيين شجر الزيتون ، والثالثة عظيمة الارتفاع قليلة السعة .

وظن بعضهم أن مدينة بيرنيس هى القصير القديم ، وأن اسم القصير مأخوذ من اسم قوص لأنها فى أوّل طريقها ، وترد إليها بضائعها ثم تنتشر فى الجهات ، لكن قد علمت أن بين بيرنيس والقصير مسافة .

وفى خطط انطونان أن مدينة بيرنيس فى موازاة مدينة أسوان ، وقسم الطريق الموصلة إليها إلى اثنى عشر يوما ، وجعل طولها مائتى ألف خطوة وثمانيا وخمسين ألف خطوة ، وجعلها غيره مائتى ألف واحدى وسبعين ألف خطوة . وفى مؤلفات بلين أن هذا البعد مائتان وثمانية وخمسون ميلا .

وذكر بعضهم أن أقرب بعد بين قوص والبحر الأحمر أربعون ساعة بسير الجمل ، وقدر الساعة ألفان وأربعون توازة ، عبارة عن ألفين وخمسمائة استادة مصرية أو مقدونية .

وعلى ما اعتبره بلين من أن الميل ثمان غلوات يكون ذلك عبارة عن مائتين وخمسين ميلا ، واستنتج من ذلك أن مدينة بيرنيس هى مدينة القصير وحرره .

وفى صحراء بيرنيس يوجد معدن النحاس ومعدن الزمرد وغيرهما ، وهى صحراء عيذاب ، وسيأتى الكلام عليها فى حرف الصاد مبسوطا ، وكذا فى حرف العين يأتى الكلام على عيذاب ، وعلى الطريق الموصلة من النيل إلى تلك الجهات .

ومما ينبغى التنبه له أن تلك المعادن لم يكن الاهتداء إليها قاصراً على الأجيال القريبة منا ، بل كانت مستعملة فى الأعصر الخالية القديمة ، فكانت تستخرج زمن الفراعنة قبل المسيح بألفى سنة ، ووجد (جانبوليون) فى إحدى المغارات التى هناك وفى

مدينة سابوت القديمة كتابة قرأها فإذا من مضمونها : أنه فى سنة اثنتين وثلاثين أو ثنتين وأربعين من مدة الملك الرابع من العائلة الرابعة والعشرين ، كان النحاس يستخرج من معادن تلك الصحراء وهى صحراء عيذاب .

وقال جانبوليون أيضا: أنه قرأ على صخور صحرائها اسم ميرنيشيس ولقبه ، وهو فرعون مصر قبل المسيح بألفين وخمسمائة سنة ، وهو الملك السابع من العائلة الرابعة ، وكذلك رأى اسم أمين أمها واسم داريوس وجمشيد واكزرسيس. انتهى .

ترجمة بلين

فائدة بلين المذكورة :

قال فى قاموس الجغرافية الفرنجى : هو عالم طبيعى ولد سنة ثلاث وعشرين بعد الميلاد ، وخدم أوّلا فى العسكرية ، ثم فى المجالس واشتغل كثيرا بالعلوم ، وفى سنة ثمان وستين وعمره خمس وأربعون سنة ، دخل فى الخدامات الميرية ، وجعل حاكم أسبانية ، وكان يألفه القيصر وسباسيان ، والقيصر تيتوس ، ولما هاج جبل النار المسمى ويزوف، فى سنة تسع وسبعين ذهب لملاحظة أحواله فاختنق من روائحه الكبريتية ومات .

وله مؤلفات منها : تاريخ رومة ، وتاريخ الجرمانيين ، وكتاب فى الطبيعة يشتمل على سبعة وثلاثين بابا ، كل باب فى فن ، مثل ، الفلك والحوادث الجوية والأرض ، والجغرافية ، والحيوانات والنباتات ، والزراعة والحكمة وغير ذلك .

ترجمة جانبوليون

٦٣ وأما جانبوليون فهو عالم فرنساوى مشهور بمعرفة الخط القديم المصرى ، ولد سنة ألف وسبعمائة وتسعين ميلادية ، واجتهد من نفسه فى حل رموز ذلك الخط ، وفى سنة ألف وثمانمائة وتسع وعشرين ساح فى بلاد مصر ومات بعد رجوعه منها سنة إحدى وثلاثين ، وله كتاب يتعلق بمصر تكلم فيه على الفراعنة وجغرافية مصر القديمة ، والديانة المصرية ،

ولسان المصريين القديم وكتابتهم ، وألف آجرومية وقاموسا فى لسان المصريين ، وقد جعل له أهل بلده تمثالا لبقاء ذكره ، وبعد موته تمم أخوه تآليفه وطبعها .

ترجمة ابيغان

وأما ابيغان فهو راهب من رهبان الكنيسة الرومية ، ولد سنة ٣١٠ من الميلاد فى بلاد فلسطين من أرض الشام ، ومات سنة ٤٠٣ وأصله يهودى ، ولتقليده رهبان صحراء الصعيد انعزل عن بلده وأنشأ بصحرائها ديرا أقام به ثم أخذ منه وجعل أسقفاً سنة٣٦٧ . وكان عالماً بالإنجيل وباللغة العربية ، والسريانية ، والمصرية ، واللاتينية ، والغريقية ، وسافر إلى القدس وحلب والقسطنطينية ، وله عند النصارى مولد فى ١٢ من شهر مايه الأفرنجى ، وله مؤلفات منها : رسالة فى أقيسة اليهود وموازينهم وكتب دينية .

﴿ البساتين ويقال لها بساتين الوزير ﴾ قرية بمديرية الجيزة بسفح جبل المقطم ، بينها وبين قبة الإمام الشافعى نحو فرسخ وأبنيتها بالدبش والحجر ، ومنازلها ما بين دور ودورين ، وبها مسجد عامر ، وبجهتها البحرية مقام يقال له مقام سيدى مفتاح ، وبها نخيل وأشجار سنط وأثل وغير ذلك ، ويزرع بأطيانها أنواع الخضراوات مثل القرع والباذنجان والعجور ، وأغلب اكتساب أهلها من صناعة قطع الأحجار ، مثل أهالى حلوان ، ومنهم من يكتسب من الزراعة .

قال المقريزى[1]: هذه البساتين فى الجهة القبلية من بركة الحبش وهى قرية فيها عدة مساكن وبساتين بكثرة ، وبها جامع تقام فيه الجمعة ، وعرفت بالوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن محمد المغربى ، وبنو المغربى أصلهم من البصرة وصاروا إلى بغداد ، وكان أبو الحسن على بن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد ، فنسب به إلى المغرب وولد ابنه الحسين بن على ببغداد ، فتقلد أعمالا كثيرة منها

(١) الخطط المقريزية ، المرجع السابق ، مج ٣ ، ص ٥٣ .

تدبير محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر الدولة ببغداد ، وكان خال ولده على وهو أبو على هرون بن عبد العزيز الأوارجى الذى مدحه أبو الطيب المتنبى من أصحاب أبى بكر محمد بن رائق ، فلما لحق ابن رائق ما لحقه بالموصل صار الحسين بن على بن المغربى إلى الشام ولقى الأخشيد وأقام عنده ، وصار ابنه أبو الحسن على بن الحسين ببغداد ، فأنفذ الإخشيد غلامه فاتكا المجنون ، فحمله ومن يليه إلى مصر ، ثم خرج ابن المغربى من مصر إلى حلب ، ولحق به سائر أهله ونزلوا عند سيف الدولة أبى الحسن على بن عبد الله ابن حمدان مدة حياته ، وتخصص به الحسين بن على بن محمد المغربى ومدحه أبو نصر بن نباتة .

وتخصص أيضا على بن الحسين بسعد الدولة بن حمدان ، ومدحه أبو العباس النامى ، ثم شجر بينه وبين ابن حمدان ما شجر ، ففارقه وصار إلى بكجور بالرقة ، فحسن له مكاتبة العزيز بالله نزار والتحيز إليه ، فلما وردت على العزيز مكاتبة بكجور قبله واستدعاه وخرج من الرقة يريد دمشق فوافاه عبد العزيز بولاية دمشق وخلفه ، فتسلمها وخرج لمحاربة ابن حمدان بحلب بمشورة على بن المغربى فلم يتم له أمر ، وتأخر عنه من كاتبه ، فقال لابن المغربى : غررتنى فيما أشرت به علىّ وتنكر له ، ففرّ منه إلى الرقة وكانت بين بكجور وبين ابن حمدان خطوب آلت إلى قتل ابن مكجور ومسير ابن حمدان إلى الرقة ، ففرّ ابن المغربى منها إلى الكوفة ، وكاتب العزيز بالله يستأذنه فى القدوم فأذن له ، وقدم إلى مصر فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة .

وقد أطال المقريزى فى الكلام عليه وعلى تقلبه فى البلاد ، مصر ودمشق وحلب وبغداد وغيرها . إلى أن قال : إنه مات مسموماً بمدينة ميافارقين ، لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ، وكان مولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة . وكان أسمر شديد السمرة بساطاً عالماً بليغاً مترسلاً متقناً فى كثير من العلوم الدينية والأدبية والنحوية مشاراً إليه فى قوة الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبديهة عظيم القدر ، صاحب سياسة وتدبير وحيل كثيرة وأمور عظام ، دوّخ الممالك وقلب الدول وسمع

الحديث وروى وصنف عدة تصانيف ، وكان ملولاً حقوداً لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده ، ولا يخفى عوده ، ولا ترجى وعوده ، وله رأى يزين له العقوق ويبغض إليه رعاية الحقوق ، كأنه من كبره قد ركب الفلك واستولى على ذات الحبك . إلى آخر ما قال فانظره .

وقال السخاوى فى كتابه ، (تحفة الأحباب وبغية الطلاب) : إنه كان بين بنى المغربى وبين أبى نصر وزير الحاكم نفس ، فسعى عليهم عند الحاكم فأمر بضرب أعناقهم فقتل ستة منهم ، وهم والد الوزير المغربى وأخواه وثلاثة من أهل بيته ، واستتر أبو القاسم الوزير ابن المغربى وهرب إلى الرملة ، وحسن لصاحبها الخروج على الحاكم ونزع يده من طاعته ، وأحضروا أبا الفتوح بن الحسن بن الحسينى من مكة ، وأقاموه خليفة وقبلوا الأرض بين يديه وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالراشد بأمر الله ، فعند ذلك صعد الوزير ابن المغربى المنبر وخطب خطبة بليغة ، وحرّض فيها على قتال الحاكم وافتتح بقوله عز وجل : ﴿ طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض ـ (وجعل يشير بيده جهة مصر) ـ وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يُذَبِّحُ أبناءهم[١] ﴾ الآيات . فلما بلغ الحاكم ذلك أزعجه ازعاجا عظيما ، وسير إلى بنى الخزرج وبذل لهم المال الجزيل وخوفهم العاقبة ، فمالوا إليه بعد خطب طويل ، وكتب إلى ابن المغربى الوزير واسترضاه وبنى على قتلاهم الذين قتلهم من أهله ست قباب فهى تعرف الآن بالسبع قباب ، والظاهر أنه كان إلى جانبهم قبة أخرى ، وقيل إن القبة السابعة هى قبة الأطفيحى صاحب القناطر والسبيل . انتهى .

٦٤

وفى شرقى البساتين بئر يقال لها بئر الدرج ـ لها درج ينزل بها إليها ـ عملها الحاكم بأمر الله ، وفى شرقى البئر قبور النصارى وبعدها إلى جهة الجبل قبور اليهود .

---

(١) سورة القصص ، الآيات ١ ــ ٣ .

﴿ بسطة ﴾ ويقال لها بوبسطيس وبوباسط ، وهى مدينة كانت ذات شهرة وفخامة فى الأحقاب الخالية ، وقد عدمت ولم يبق منها إلا تلال تعرف بتلال بسطة شاهقة الارتفاع ، وتُذْكر كثيرًا فى كتب الأقباط والجغرافيين . وهى مقر العائلة الثانية والعشرين من الفراعنة ، وعدد ملوكها تسعة أولهم سيزونكيس وهو المسمى فى التوراة سيزاك ، وكان فى زمن سليمان عليه السلام .

وقال اتيين البيزنتى : إن كلمة بسطة من أسماء القط ، الذى هو الحيوان المعروف ، وتوقف فى ذلك كترمير لما رأى أن الصورة المرسومة على ميدالية هذه المدينة صورة طائر لا صورة قط .

وفى كتاب هيرودوط أن ملوك مصر كان لهم إعتناء زائد بهذه المدينة .

وقد رفع سيزوستريس أرض مساكنها كما رفع أرض غيرها بالأسرى الذين حفر بهم الخلجان وأقام بهم الجسور ، وبقيت معتنى بها إلى استيلاء الحبشة على أرض مصر فرفع ملكهم سبقون أرضها زيادة .

قال : وكان بوسطها معبد شهير للمقدسة بوياسطيس المسماة عند اليونان ديان ، ارتفاع دهليزه عشرة أرجى ، (خمسة أقدام ونصف فرنساوى) مزين بتماثيل ارتفاعها ستة أذرع ، ويحيط به سور متين تكتنفه أشجار عالية من الداخل والخارج ، وهو مربع استادة من كل جهة ، ويحيط به الماء إلا عند مدخله ، وعلى جانبى المدخل ترعتان سعة كل مائة قدم ، تتجه كل منها إلى جهة وتحفها أشجار ، ولما ارتفعت أرض المدينة وبقى هو على أصله صار من يدور حوله يكشفه جميعه ، والطريق الموصلة إليه تقطع الميدان إلى جهة الشرق فتوصل إلى معبد مرقورا ، وطولها ثلاث غلوات فى سعة أربع بليترات ، وهى مبلطة ويحفها الشجر من الجانبين وفى داخل المعبد تمثال المقدسة المذكورة .

قال بعض شراح هيرودوط : أن هذه المقدسة كانت بكرا وكانت النساء يفزعن

إليها عند الولادة وينادينها ، ويزعمن أنها تحضر إذا نوديت ، وكان المصريون يعتبرونها رمزا للقمر .

ومرقورا عند المصريين هوتوت ، ويعتبرونه المخترع للعلوم ، ويسميه اليونان هرميس أيضا ، ويطلقون هذا الاسم أيضا على أنوبيس لما رأوه من تشابههما ، وكانوا يحترمون الكلب لزعمهم أنه إشارة للمقدس أنوبيس لما له من التنبه والحرص والاستعداد لتمييز العدو من الحبيب فكان احترامه لصفاته لا لذاته .

مطلب أعياد المصريين سابقا

وقال هيرودوط أيضا : إنه كان للمصريين فى السنة أعياد كثيرة :

أولها : وهو أشهرها ، عيد مدينة بوباسط برسم المقدسة ديان .

وثانيها : عيد مدينة يوزريس (بوصير) برسم المقدسة إزيس ، وفى هذه المدينة ـ أى مدينة بوصير ـ معبد كبير يسمى باليونانية دميتير .

وثالثها : عيد مدينة صا الحجر باسم المقدسة منيروه .

ورابعها : عيد مدينة عين شمس برسم الشمس .

وخامسها : عيد مدينة بوطو برسم المقدسة لاطون .

وسادسها : عيد مدينة بابرميس برسم المقدس مرس .

وكانت العادة أن يذهبوا إلى بوباسط من طريق البحر ، وتختلط النساء مع الرجال فى المراكب ، وكل مركب تشتمل على الرقص والمغنى وضرب الناى والتصفيق ونحو ذلك ، وعند كل مرسى يحصل ازدحام وشتم وسب حتى تكشف النساء عن عوارتهن ،

وتجتمع الناس فى بوباسط ويقيمون بها الأيام المعتادة ، ويقربون هناك القرابين ، ويكثرون من شرب نبيذ العنب ، حتى يستهلك من هذا الصنف فى تلك الأيام أكثر مما يستهلك فى جميع السنة ، إذ يجتمع هناك من النساء والرجال نحو سبعمائة ألف نفس غير الأطفال .

ويجتمع فى بوصير أيضا خلق كثير ، وعادتهم بعد تقريب القرابين أن يظهروا علامات الحزن ويلطموا خدودهم/ولا يبينوا سبب ذلك ، ويمتاز اليونانيون القاطنون بمصر عن غيرهم بشدة الحزن ، فإنهم يقطعون جباههم بسيوفهم .

٦٥

وفى مدينة صا الحجر تذبح القرابين فى ليلة مخصوصة ، وكل منهم يوقد عند بيته قنديلا ، وهو وعاء فيه فتيلة تملأ زيتا وملحا ، فيستمر مسرجا طول الليل ، ويسمى هذا العيد عيد القناديل ، ومن لم يحضر الموسم من المصريين يوقد القناديل على بيته تلك الليلة فيعم ذلك كثيراً من بلاد مصر .

ويكتفى فى مدينة عين شمس ومدينة بوطو بتقريب القرابين ، وكذلك فى مدينة بابرميس . ولكن متى مالت الشمس إلى الغروب يجتمع بعض القسيسين حول تمثال المقدس ،ويقف بعض آخر على باب المعبد أمامهم نحو ألف رجل بأيديهم نبابيت ، والتمثال فى خزانة من خشب مذهب ، والعادة أن ينقل ليلة المولد إلى خزانة أخرى فيضعه القسيسون الذين حوله على عربة بأربع عجلات ، ويشرعون فى جره فيمتعهم القسيسون الواقفون على الباب ، فيأتى أرباب النبابيت ويمنعون المانعين ويساعدون الأولين على جره ، فتحصل من ذلك مضاربة وشجوج وجراحات ، وأنكر المصريون حصول شىء من المضاربة والجراح .

قال المقريزى فى رسالته على قبائل العرب:« إن بسطة من جملة المدن التى أعطيت للعرب الذين كانوا موجودين عند فتح مصر» .

وفى دفاتر التعداد هى وكفورها معدودة من إقليم قليوب ، وهى بعيدة عن النيل بسبعة

فراسخ وعلى بعد نصف فرسخ من الشاطىء الأيمن لخليج أبى المنجا وهو فرع الطينة المسمى الآن مصرف أبى الأخضر. وكانت هذه المدينة مرتفعة على تلول من قوالب الطين، وفى وقت دخول الفرنساوية وجد بها بعض آثار أبنية مصرية قديمة من أحجار صلبة عليها نقوش قديمة.

وامتداد تل بسطة من جميع الجهات متفاوت من ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ متر، وفى وسطها حوض جسيم كان فى وسط المعبد القديم.

وقال المقريزى فى الخطط عند الكلام على من ولى من مصر: إن خط بسطة يحتوى على تسع وثلاثين بلدة. وقال إنها تعرف فى دفاتر التعداد بتل بسطة، واستمر لها هذا الاسم إلى الآن. وعادة الأهالى المجاورة من مدة قديمة إلى الآن أخذ سباخها واستخراج ما فيها من الطوب والأحجار لمبانيهم. وسكة الحديد المارة من قليوب إلى الزقازيق تمر قريبا منها على بعد قليل على الجهة اليمنى للذاهب من مصر.

﴿ بسيون ﴾ قرية كبيرة من بلاد الغربية بمركز كفر الزيات واقعة قبلى فرع القطى الخارج من ترعة الباجورية وشرقى ترعة السلمونية، وأبنيتها بالآجر واللبن، وبها جامع الشيخ البسيونى وضريحه به مشهور، ويعمل له مولد كل سنه بعد مولد سيدى أحمد البدوى، وجامع الشيخ الأنصارى وضريحه شهير أيضا.

وبها جملة زوايا وأضرحة، وثلاث جنات مشتملة على كثيرة من الثمار والفواكه، ومعمل فراريج.

ومنها يوسف المراسى ترقى إلى رتبة قائمقام، ومحمد أفندى خلف رئيس مجلس كفر الزيات. وأغلب أهلها مسلمون وعدتهم ذكورا وإناثا أربعة آلاف نفس، وزمامها ألفان وسبعمائة وأربعون فدانا، ورى أرضها من النيل، ولها سوق كل يوم اثنين وشهرتها فى زرع القطن وغيره، وكان لها شهرة فى نسج الملاآت البسيونية ثم بطل ذلك.

وبجوارها قرية صغيرة تعرف بمنشأة بسيون بها منزل مشيد لعمدتها عبد الملك أحد أقباطها ، وجنينه لخليل أبى موسى من أهاليها.

ومن هذه البلدة نشأ أحمد أفندى دقلة ، تربى فى المدارس وسافر إلى بلاد أوروبا ، فتعلم بها العلوم الرياضية وحضر إلى مصر سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف ، وكان معيدا لدروس المرحوم بيومى أفندى فى مدرسة المهندسخانة ، وبقى على ذلك مدة ثم تعين معلما بها يدرس الجبر وعلم الأدروليك ، (يعنى تحرك المائعات وعمل الترع والقناطر والجسور) ، ثم جعل وكيل المدرسة مع توظيفه باعطاء الدروس ، وأكثر المهندسين الموجودين الآن تلقوا عنه ، وفى سنة ست وستين انتقل إلى قلم الهندسة ، وفى سنة سبع وستين عند طلب المرحوم عباس باشا عمل ترعة المجيدية تعين لمباشرة عمل الخرطة المثلثية بمديرية البحيرة فبقى مدة وعزل عن الخدامة وبقى ببيته إلى أن مات سنة ثلاث وسبعين ، وكان حسن الإلقاء يجتهد فى التعليم ويحث على الفهم ، وكان من أعظم المهندسين ، غير أنه كان يميل إلى الشرب ، وقد بلغ إلى رتبة بيكباشى .

﴿ بشبيش ﴾ قرية من مديرية الغربية من أعمال المحلة ، وهى بكسر الباء الموحدة فشين فموحدة فتحتية فشين معجمة .

ترجمة العالم الفاضل الشيخ عبد الله البشبيشى الشافعى

وإليها ينسب كما فى الضوء اللامع[1] : عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز الجمال ، العذرى البشبيشى الشافعى ، ولد سنة اثنتين وستين وسبعمائة وأخذ الفقه عن ابن الملقن ، والعربية عن الغمارى ، واختص به ولازمه ، وبرع فى الفقه والعربية واللغة وكذا الوراقة وتكسب بها ، وكتب الخط الجيد ونسخ به كثيرا ، و ناب فى الحسبة عن التقى

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق . جـ ٥ ، ص ٧ .

المقريزى ، وصنف كتابا فى المعرب وآخر فى قضاة مصر ، وآخر فى شواهد العربية بسط فيه الكلام .

٦٦ قال الحافظ بن حجر : سمعت من فوائده كثيرا ، وكان ربما جازف فى نقله ، وذكره المقريزى فى عقوده وحكى عنه ، ومات بالإسكندرية فى ذى القعدة سنة عشرين وثمانمائة رحمه الله تعالى . انتهى .

ترجمة الإمام الشيخ أحمد البشبيشى الشافعى

ونشأ منها كما فى خلاصة الأثر[١] : الشيخ أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن شمس الدين بن على البشبيشى الشافعى الحجة النقال ، كان متضلعا من الفنون ، قوى الحافظة ، له تصرف وتدقيق ، ولد ببشبيش سنة إحدى وأربعين وألف ، وحفظ بها القرآن وقرأ بالمحلة ، ثم رحل إلى مصر وقرأ بالروايات على الشيخ سلطان المزاحى ، ولازمه فى الفنون سنين ، ولازم الشبراملسى وغيره وتصدر للتدريس بالأزهر ، وحج وأقام بمكة يدرس ثم توجه إلى مصر ، ثم إلى بلدة فأدركه بها الحمام سنة ست وتسعين وألف انتهى .

ترجمة إمام المحققين الشيخ عبد الرؤف البشبيشى الشافعى

وينسب إليها كما فى الجبرتى[٢] : إمام المحققين ، وشيخ الشيوخ عبد الرؤف بن محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن على البشبيشى الشافعى ، خاتمة محققى العلماء ، وواسطة عقد نظام الأولياء العظماء ، ولد ببشبيش من أعمال المحلة الكبرى ، واشتغل على علمائها بعد أن حفظ القرآن ، ولازم العارف بالله الشيخ على المحلى ، الشهير

---

(١) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، للمحبى المطبعة الوهبية بمصر ، ١٢٨٤ هـ . جـ ١ ، ص ٢٣٨ .

(٢) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ١ ص ١٦٢ .

بالأقرع ، فى فنون من العلوم ، واجتهد وأتقن وتفنن وتفرد ، وتردد على الشيخ العارف حسن البدوى وغيره من صوفية عصره ، وتأدب بهم واكتسى من أنوارهم ، ثم ارتحل إلى القاهرة سنة إحدى وثمانين وألف ، وأخذ عن الشيخ محمد بن منصور الأطفيحى والشيخ خليل اللقانى ، والزرقانى ، وشمس الدين محمد بن قاسم البقرى وغيرهم .

واشتهر علمه وفضله ودرس وأفاد وانتفع به أهل عصره من الطبقة الثانية ، وتلقوا عنه المعقول والمنقول ، ولازم عمه الشهاب فى الكتب التى كان يقرؤها . مع كمال العزلة والإنقطاع إلى الله ، وكان الغالب عليه الجلوس فى حارة الحنابلة وفوق سطح الجامع ، حتى كان يظن من لا يعرف حاله أنه بليد لا يعرف شيئا إلى أن توجه عمه إلى الديار الحجازية حاجا سنة أربع وتسعين وألف ، وجاور هناك فأرسل إليه بأن يقرأ موضعه ، فتقدم وجلس وتصدر لتقرير العلوم الدقيقة ، والنحو ، والمعانى ، والفقه ، ففتح الله له باب الفيض فكان يأتى بالمعانى الغريبة فى العبارات العجيبة ، وتقريره أشهى من الماء العذب عند الظمآن ، وانتفع به غالب مدرسى الأزهر وغالب علماء القطر الشامى ، ولم يزل على قدم الإفادة وملازمة الإفتاء والتدريس والإملاء حتى توفى فى منتصف رجب سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف . انتهى .

﴿ بشواى الرمان ﴾ قرية كبيرة من بلاد الفيوم بقسم العجميين ، غربى أبى كساة وبحرى أبى جنشو ، وأبنيتها باللبن والآجر ، وبها نخيل وبساتين قليلة ، ولها سوق جمعى ، ولها شهرة بعمل الجبن الضأن ونسج الصوف الرفيع مثل نزلة شكيتة ، وقنبشة ، وسرسنا ، ولهم معرفة تامة بتربية النحل واستخراج عسله ، وأشهر منها فى ذلك ناحية العتامنة والمزارعة الواقعة قبلى جردوا وغربى مطول البحرية .

﴿ بصرى ﴾ بضم أوّله ، قرية من قسم أبنوب الحمام بمديرية سيوط ، على شاطىء النيل الشرقى . وبقربها ناحية الوسطى فى مقابلة الحمراء التى هى موردة أسيوط لكنها مائلة إلى جهة قبلى ، وبجوارها أيضا ناحية أولاد سراج شرقى الوسطى ، وبقربها

ترعة بصرى ، وعند فمها ورشة جبل المرمر ، يعنى محل ورود العربات والتشغيل ، وفى بحريها دير بصرى قريب منها وحوله نخيل وأشجار سنط .

وبين الدير ومحل قطع الرخام واد يقال له الأسيوطى ، يسار فيه نحو ساعة ونصف فى الجبل ثم بعده واد آخر أعلى منه ، مسافته أكثر من ساعة ، وبعده جبل الرخام ، وهو قطعة فى وسط الجبل منحصرة مرتفعة ليس لها طريق إلا هذه ، وطولها ثلاثون ذراعا بالمعمارى فى مثلها ، ورخامها مغطى بطبقة من الحجر سمكها نحو مترين وتحته قدر متر رخام ليس بجيد ، ثم ما تحته رخام جيد ، وهو عبارة عن طبقات . أكبر ما يمكن استخراجه منها طول مترين وسمك متر واحد ومنه ما هو أحمر وما هو أصفر وليس به سوس ، وقد أنعم به العزيز المرحوم محمد على ، على المرحوم سليم باشا السلحدار .

﴿ البصراط ﴾ قرية قديمة من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس ، على الجانب الغربى للبحر الصغير ، بينها وبين الجمالية ألف قصبة ، وبها جامع كبير على شط البحر الصغير له منارة وشعائر مقامة ، وسوقها كل يوم خميس ، وتكسب أهلها من صيد السمك وزرع الأرز والحبوب ، وأطيانها متصلة ببحيرة المالح .

ترجمة حضرة حافظ باشا

ومن هذه القرية نشأ الأمير الجليل حضرة حافظ باشا ، دخل أول أمره مدرسة المحاسبة ، فتعلم بها وخرج منها بالإمتحان فى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف وتوّظف كاتبا فى بعض الدواوين ، ثم انتقل إلى دائرة سر عسكر المرحوم العزيز إبراهيم باشا ، ثم جعل كاتبا فى معيته بالأوردى المنصور بالشام سنة اثنتين وخمسين ، وبعد رجوعه تقلد نظارة زراعة انبهس من الغربية ، ثم جعل باشكاتب مصالح قصر العينى ، ثم جعل باشكاتب الخزينة السر عسكرية ، ثم مأمور المصالح السنية بالإسكندرية ، ثم جعل وكيل الدائرة الإسماعيلية فى عهد المرحوم سعيد باشا سنة ثلاث وسبعين ، وأنعم عليه برتبة ميرالاى وبقى بها إلى أن صار/ناظرها فى سنة تسع وسبعين ، وأحسن إليه برتبة

ميرميران ، وفى سنة اثنتين وثمانين جعل ناظر المالية ، وأحسن إليه برتبة روم ايلى ، ثم انتقل إلى نظارة الدائرة السنية ، ثم انتقل إلى رياسة مجلس الأحكام ثم إلى نظارة الدائرة السنية ثانيا .

﴿ بقيرة ﴾ قرية صغيرة من مديرية الغربية ، بمركز مليج على الشاطىء الغربى للبحر الشرقى ، وبلصقها من الجهة البحرية فم ترعة الساحل ، وفى مقابلتها شرقى البحر المذكور منية العطار ، وفى قبليها على نحو نصف ساعة قرية مسجد الخضر ، وفم ترعة الخضراوية بجوار مسجد الخضر من الجهة البحرية . وبين البقيرة وفم الخضراوية بحرى منشأة مسجد الخضر ، فم قديم متسع يقال له فم بحر الغمرى ، نسبة إلى ذى ضريح على شاطئه أمام ناحية اصطنها الواقعة بحرى مسجد الخضر ، على شاطىء الخضراوية الغربى .

والبحر المذكور يمر شرقى اصطنها ، وقرية قبالة ، وقرية استليم وطاشبرى ثم تضيع آثاره . والظاهر أنه كان داخلا فى مديرية الغربية ، ويمر غربى منية غزال وقرية استناواى وعزبة طوخ ، وشرقى شبشير الجميز وهى بلدة كبيرة بحرى طنتدا على شاطىءفرع سمنود الغربى ، وبحرى قرية الراشيدية ، ثم يمر بناحية سجين وتضيع آثاره هناك أيضا ، لكن يظهر أنه كان يصل إلى ناحية نشيل ، الواقعة بحرى سجين بثلثى ساعة ، وإلى ناحية نمرة ثم يصب فى بحيرة البرلس شرقى قرية الوزرية ، ومنشأة مسجد الخضر بها كنيسة وجميع أهلها نصارى .

﴿ بلاق ﴾ مدينة كانت تسمى قديما بكلمة فيلة القبطية ، بكسر الفاء وسكون الياء ،واقعة فى جزيرة تعرف عند الاثينيين باسم فيلة أيضا ، فهو فى الأصل اسم لكل من المدينة والجزيرة ، وهو مأخوذ من اسمها القبطى وهو لفظ فيلاخ بفاء فى أوله وخاء معجمة فى آخره ، وفيلاق بفاء وقاف ، وهو مركب من كلمة فى ، التى معناها الشم ، ولاخ أولاق ، التى معناها النهاية ، ثم سماها الإسلام بيلاق بموحدة فى أوله فتحتية فلام فألف فقاف ،

وغلط من قال بلاق بلا ياء تحتية أو يلاق بلا موحدة أو ويلاق بواو بدل الموحدة هكذا فيما يوثق به من الكتب الإفرنجية .

وقد عبر المقريزى فى خططه بكلمة بلاق بلا مثناة تحتية بين الموحدة واللام ، وقال[١]: إنها أجل حصن للمسلمين ، وهى جزيرة تقرب من الجنادل محيط بها النيل ، فيها بلد كبير يسكنه خلق كثير من الناس ، وبها نخل عظيم ومنبر فى جامع ، وإليها تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من أسوان ، وبينها وبين القرية التى تعرف بالقصر ، وهى أول بلد النوبة ميل واحد وبينها وبين أسوان أربعة أميال ، ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل فى البحر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك وبالقصر مسلحة وباب إلى بلد النوبة ، انتهى .

وفى كتب الإفرنج أنها هى حد مصر من الجهة الجنوبية الفاصل بينها وبين أرض النوبة ، وهى خلف الشلال على الشاطىء الأيمن للنيل وبعدها عنه ميريامتر ، وعن مدينة القاهرة مائة ميريامتر ، وبعد أسوان من الشلال ٦٠٠٠ متر ، وطول هذه المدينة من الجنوب إلى الشمال لا يزيد عن ٣٨٤ مترا ، وعرضها الأكبر ١٣٠ مترا ومحيطها ٩٠٠ متر تقريبا ، ومن سار حولها قطعها فى أقل من ربع ساعة .

وقد عين الفرنساوية موضعها الجغرافى وكتبوه على حيطان معبدها الجنوبى ووجدوا طولها ١٦″ ٢٤′ ٣٠° من خط نصف نهار مدينة باريس ، وعرضها ٥٤″ ١′ ٢٤° .

واعتمد الأقدمون أنها فى المنطقة الحارة إلا أنه تحقق الآن أنها بعيدة عن دائرة الانقلاب بأربعة وعشرين فرسخا ، وقد حصل وجودها فيها قبل الآن بخمسة آلاف سنة ، ثم انتقلت عنها بسبب ميل منطقة البروج ، وسترجع إليها فى الأزمان المستقبلة وهى محوطة بسور من جميع الجهات ليقيها من تأثير مياه النيل .

---

(١) الخطط المقريزية ، المرجع السابق ، مج ١ ، ص ٣٥١ .

وقال (استرابون) فى كتابه الذى ألفه بعد سياحته إلى جزيرة فيلة : « إن هذه المدينة موضوعة فوق الشلال الأخير بقليل وليست أقل من مدينة ايليفنتينة فى الاتساع ، بل كانتا متماثلتين وكان سكانها مصريين ونوبيين ، وكان فيهما هياكل قديمة من أبنية الفراعنة كانوا يعبدون فيها طيراً يسمونه الباشق ، ولكنه لم ير فيه مشابهة لشىء من طيور الباشق اليونانية ولا المصرية ، بل كان أكبر منها جسما ، وصفاته تخالف صفات الباشق بكثير ، وقد أخبروا بأنه مولود فى ايتوبيا فإذا مات أحضروا منها باشقا غيره وأن الطير الذى رآه بها كان مشرفا على الهلاك من المرض » .

وذكر أنه لما رحل من أسوان إلى فيلة سافر فى عربات هو ومن كان معه فساروا مسافة مائة غلوة يونانية فى وسط سهل مستو ، وكانوا يرون فى طول الطريق على اليمين واليسار كثيرا من صخور مستديرة مصنوعة من الحجر الأسود الصلد الذى كان أهل فيلة يصنعون منه الأجران ، وكانت موضوعة على قواعد من الحجر أعظم منها سعة وضخامة مسندة إليها صخرة ثالثة ، ويرى فى بعض الأماكن بعضها/متفرقا عن بعض وأن أكبرها ٦٨ لا ينقص عرضه عن ١٢ قدما وعرض أصغرها يزيد عن نصف ذلك ، وكان القصد منها الرمز لصورة هرمس المثلث ، ولم تتغير حالة هذه الطريق إلى زمن الفرنساوية إلا أن الرمال المنسوفة بالرياح حصل منها تغيير للصورة الأصلية بردم بعض الصخور وارتفاع بعض مواضع من الطريق .

ومن الغرائب أنه لم يتكلم على الحائط القاطع لهذه الطريق فى جملة نقط منها ، وهو مبنى من اللبن المستعمل فى مبان كثيرة من هذا النوع فى الأزمان القديمة للمصريين ، وسمك هذا الحائط على ما ذكر فى خطط مصر للفرنساوية متران ، وكان الباقى من ارتفاعها ٤ أمتار ، وهى قديمة من أعمال الفراعنة ، ولعلها كانت لحفظ هذ الموضع من سطوات أهل النوبة والعرب القاطنين بضواحيها فى صحراء البحر الأحمر ، فكانت حصنا لحفظ الجزيرة والمارين فى الطريق إليها أو منها إلى داخل وادى النيل

وذكر أيضا أنه وصل إلى جزيرة عدى إلى الجانب الآخر فى مركب صغير يسمى باللغة القبطية بكتون ، كان مصنوعا من عيدان الحسك شبيها بالحصير فعدى بسهولة ، وإن كانت أقدام من عليها فى الماء، ولم يكن فيها غير دكة واحدة للجلوس ، وكان الراكب العادى لتلك المعادى يخشى من الغرق إذا كان حملها خفيفا فإذا كان ثقيلا أمن من ذلك .

وقيل إن معبودى المصريين أوزريس وإزيس كانا إذا ماتا يدفنان فى جزيرة وسط النيل ، وهى الحد بين مصر وايثوبيا أمام مدينة فيلة ، وكانوا يسمون تلك الجبانة بالغيط أو الخلاء المقدس ، واستدل القائلون بذلك بتشييد المصريين هياكل فى تلك الجزيرة ، وهى قبر أوزريس الذى كان يحترمه جميع القسيسين المصريين ، وكان بدائر حيطانه ٣٦٠ قارورة تملؤها القسيسون خدمة هذا المحل لبناً حليباً فى يوم افتتاح السنة ، ويصرخون عند ذلك صرخات وينادون باسم هذين المعبودين ، ومن ثم لم يكن لأحد من غير القسيسين حق دخول تلك الجزيرة ، ولم يكن لأهل الصعيد يمين وثيق إلا الحلف باوزريس المدفون فى جزيرة فيلة .

وفى أراضى هذه المدينة كثير من آثار ميان عتيقة ما بين مصرية وررومنية وعربية ، وهى تشهد بقدم هذه الجزيرة وما كان لها من الأهمية عند المصريين ومن عقبهم على تخت الديار المصرية . ومن أمعن نظره فى الصور المرسومة على جدران تلك الأبنية استدل على أن الديار المصرية توالت عليها عدة أديان ، ورأى أثر الديانة العتيقة وأثر الديانة الوثنية التى أعقبتها ، ثم أثر الديانة العيسوية والديانة المحمدية .

ويفهم من الكتابة المرقومة على جدران المبانى كيف تتعاقب الأعصار وتذهب الأجيال ، فهذه الجزيرة إن كانت صغيرة السعة لم يكن بها محل إلا وبه أثر يخبر عن تقادم الزمان وتعاقب الحدثان .

وذكر بعضهم ما كانت عليه فى سنة ١٢١٣ فقال : إن من وقف فى النهاية الجنوبية

للجزيرة على أعلى صخرة رأى جميع الجزيرة وما فيها من المبانى الباقية ، ويرى على يمينه معبدا منعزلا عن المبانى ، وفى مقابلته مسلات قائمة وطريق مزينة بأعمدة كثيرة شاهقة قائمة أمام معبد أكبر من الأول ، ويكون فى مواجهة أكبر عمارات الجزيرة ، وحول ذلك أخصاص لا يزيد ارتفاع الواحد منها عن قامة الإنسان ، وهى مساكن البربر الذين عقبوا سكانها الأول ، وجميع تلك العمارات من الحجر الصلد فى غاية الإحكام والهندسة ، من مداميك ضخمة كباقى العمارات المصرية ومن سافر ناظرًا إلى العمارات الجنوبية رأى سلسلة من الأعمدة بعضها قائم وبعضها ملقى على الأرض ، وفى أمامها مسلتان صغيرتان إحداهما قائمة والأخرى ملقاة ، وعلى أحادهما أسماء كثير من السياحين والأحبار الذين وردوا هذه البقعة ، وفيها أسماء ملوك البطالسة وكثير من الرومانيين وغيرهم .

وعدد الأعمدة محاذاة الرصيف اثنان وثلاثون من الجهة البحرية إلى المعبد ، وفى الطريق قطع كثيرة من الحجارة والأعمدة وفى مقابلة هذا الصف صف آخر ، والاثنان يحدّان الطريق الموصلة إلى باب المعبد الشاهق ، وبجانبه برجان عظيمان على عادة الأبواب المصرية ، وعرضهما فى الجهة العليا أقل منه فى السفلى وهما مرتفعان عن الباب ، ولم يعثر على مثل ذلك إلا فى عمارات المصريين ، ولعلهما فى الأصل للمدافعة ، وبداخلهما سلم موصل إلى السطح يدل على أنهما كانا محل رصد يرصد منه القسيسون النجوم ، وهذا ليس ببعيد فى بلد جميع أسرار ديانته أمور فلكية ، وعرض الباب ٣٩ مترا وارتفاعه ثمانية عشر مترا وهو أكبر عمارات هذه الجزيرة ، وإن كان فى غيرها ما هو أكبر منه ، وعلى جدران الباب نقوش ورسوم وأمامه مسلات وصور سباع ملقاة على الأرض قطعا قطعا ، وبعضها مدفون فى الأرض .

وفوق الحيطان أسماء بعض عساكر الرومانيين وأسماء بعض من سكن هذا المحل من النصارى ، ثم إن تاريخ وقعة دخول الفرنساوية أرض/مصر مكتوب هناك وبجواره أيضا بيان العرض والطول الذى عينه الفرنساوية لهذه الجزيرة حين دخولهم إياها بعد طردهم المماليك . وهناك بيان أسماء كثير من ضباطهم وعساكرهم .

وبعد هذا الباب باب آخر أصغر منه ، وكان الدهليز الفاصل بينهما مزينا بأعمدة أكثرها ملقى على الأرض قطعا . وعلى جميع جدرانه الكتابة والرسوم والنقوش ، ثم إن أمام المعبد الكبير بايا مثل الأول تقريبا .

والمعبد المذكور مقفل من جميع جهاته ، ولا يدخله النور إلا من الباب ، والسطح وأعمدته وحيطانه مشحونة بالنقوش المختلفة وأغلبها لم تغيره الأزمان ، وفيه محلات عديدة مظلمة لا بد للداخل فيها من استصحاب مصباح ليرى النقوش والكتابة ، وفى داخله بعد مجاوزة ثلاث محلات الخلوة المقدسة ، على جدرانها نقوش فى غاية الحسن ، وفيها قبلة منحوتة من حجر واحد ، عظيمة الأبعاد تدل هيئتها وما عليها من الرسوم على أنها كانت محل البلشق المعبود فى هذه الجزيرة .

ثم اعلم أنه طالما كانت فيلة ميدانا للحروب بين الفراعنة وملوك النوبة ، وكانوا يتنازعونها لتكون حد مملكتهم . وأما فى عصر الرومان فكانت جزءا من الصعيد الأقصى على ما هو الحق ، وكانت مستقر جنود رومانية المحافظين ، وقيل كانوا آلايا كاملا ، وكان فيها كثير من النخيل ، وكانت قبل ذلك عامرة آهلة ذات أوثان كثيرة وبرابى ، أى هياكل قديمة ، وكنيستين إحداهما لمارية العذراء والأخرى للبطرك مارى أناطاس ، وكانت ذات بيوت محكمة البناء ، وقد غلط من قال إنها إقليم مروة لا جزيرة وسط النيل ، ولما دخلها الفرنساوية كان أغلب مبانيها متخربا مهدوما ، وكانت منقسمة إلى قريتين أهلها فى غاية الفاقة ، وكان بالجزيرة بعض نخيل كالموجود بها الآن ، وكان يزرع فى بعض أرضها الخالية عن الصخور حبوب قليلة .

وبسبب ما حصل الآن من الهمة فى حفظ الآثار القديمة ، وازدياد علائق الألفة بين الدولة الأوروباوية ومصر ، ازداد عدد السياحين المترددين على الديار المصرية وأغلبهم يقصد الصعيد الأعلى ليشاهد الآثار القديمة ، وآخر محطة يصلون إليها هذه الجزيرة ، والمتوجه إليها من أسوان يسير فى البر إلى دير قيس ، ثم يصل إلى الجزيرة بواسطة السفن ، ووقت التحاريق يمكن المسافر أن يصلها من القرية المعروفة بالشلال .

واتضح الآن من الاستكشافات الجديدة أن المعبد الموجود فى الجهة الجنوبية من الجزيرة، الذى تكلمنا عليه، أقدم معبد، فإنه من زمن نيكتانيبو الثانى ولم يبق منه الآن إلا بعض أعمدة انتهى.

ومع شهرة هذه المدينة لم يطل المقريزى الكلام عليها فى خططه وقد سبق ذكر عبارته فيها.

ترجمة الشيخ المقريزى صاحب الخطط

(فائدة) فى كتاب أبى المحاسن المسمى «بالمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»[١] الذى تكلم فيه على تراجم مشاهير الرجال من ابتداء سنة ست وخمسين وخمسمائة هجرية وجعله تكملة لكتاب صلاح الدين الصفدى ابن ايبك.

أن المقريزى هو: الشيخ أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد، الشيخ الإمام العالم البارع، عمدة المؤرخين، وعين المحدثين، تقى الدين المقريزى، البعلبكى الأصل، المصرى المولد والدار والوفاة.

مولده بعد سنة ستين وسبعمائة بسنيات، ونشأ بالقاهرة، وتفقه على مذهب الحنفية وهو مذهب جده العلامة شمس الدين محمد بن الصانع، ثم تحوّل شافعيا بعد مدة طويلة لسبب من الأسباب ذكره لى، وسمع الكثير من الشيخ برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد النسائى[٢]، ومن ناصر الدين محمد بن على الحريرى[٣]، والشيخ برهان الدين الآمدى، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى، والحافظ زين الدين

(١) المنهل الصافى، تحقيق د. محمد محمد أمين مركز تحقيق التراث، ١٩٨٥ جـ١ ص ٤١٥.
(٢) هكذا فى الأصل وفى المنهل الصافى (الشامى).
(٣) هكذا فى الأصل وفى المنهل (الحراوى).

العراقى ، والهيثمى ، وسمع بمكة من ابن سكر والنشاورى ، وله إجازة من الشيخ شهاب الدين الأذرعى ، والشيخ بهاء الدين أبى البقاء ، والشيخ جمال الدين الإسنوى ، وغيرهم .

وتفقه وبرع ، وصنف التصانيف المفيدة النافعة الجامعة لكل علم . وكان ضابطا مؤرخا متقننا ، محدثا معظما فى الدول .

ولى حسبة القاهرة غير مرّة ، وأول ولايته من قبل الملك الظاهر برقوق فى الحادى والعشرين من شهر رجب سنة إحدى وثمانمائة عوضا عن شمس الدين محمد البخانسى ، ثم عزل بالقاضى بدر الدين العنتابى فى سادس عشر ذى الحجة من السنة ، ثم وليها عنه أيضا ، وولى عدة وظائف دينية . وعرض عليه قضاء دمشق فى أوائل دولة الناصر ، أعنى زمن دولة الناصر فرج ، فأبى أن يقبل ذلك .

وكان إماما وكتب الكثير بخطه ، وانتقى أشياء ، وحصل الفوائد ، واشتهر ذكره فى حياته وبعد موته فى التاريخ وغيره ، حتى صار يضرب به المثل ، وكان له محاسن شتى ومحاضرة جيدة إلى الغاية لا سيما فى ذكر السلف من العلماء والملوك ، وكان منقطعا فى داره ملازما للعبادة والخلوة ، قل أن يتردد إلى أحد إلا لضرورة ، إلا أنه كان كثير التعصب على الحنفية وغيرهم لميله إلى مذهب الظاهر .

٧٠ وقال أبو المحاسن : وقرأت عليه كثيرا من مصنفاته ، وكان يرجع إلى قولى / فيما أذكره له من الصواب ، ويغير ما كتبه أولا فى مصنفاته ، وأجاز لى جميع ما يجوز له وعنه روايته من إجازة وتصنيف وغيره ، وسمعت عليه كتاب فضل الخيل للحافظ شرف الدين الدمياطى بكماله فى عدة مجالس بقراءة الحافظ قطب الدين محمد الحضرى[1] ، بسماعه من الحراوى ، بسماعه من المصنف ، وأخذت عنه ، وانتفعت به واستفدت منه

(١) هكذا فى الأصل وفى المنهل الصافى (الخضيرى) .

وكان كثير الكتابة والتصنيف ، وصنف كتبا كثيرة من ذلك: إمتاع الأسماع فيما للنبى ﷺ من الحفدة والاتباع ، فى ست مجلدات ، رأيته وطالعته وهو كتاب نفيس ، وحدث به فى مكة، قال لى مؤلفه رحمه الله: سألت الله تعالى أن يكتب من هذا الكتاب نسخة بمكة وأن أحدث به ، فوقع ذلك بمجاورتى ولله الحمد .

وله كتاب الخبر عن البشر ، ذكر فيه القبائل لأجل نسب النبى ﷺ ، فى أربع مجلدات ، وعمل له مقدمة فى مجلد . وكتاب السلوك فى معرفة دول الملوك ، فى عدة مجلدات ، تشتمل على ذكر ما وقع من الحوادث إلى يوم وفاته ، وذيلت عليه فى حياته من سنة أربعين وثمانمائة وسميته حوادث الدهور فى مبادى[1] الأيام والشهور ، ولم ألتزم فيه ترتيبه . وله تاريخه الكبير المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين إليها ، ذكر لى رحمه الله قال : ولو كمل هذا التاريخ على ما أختاره لتجاوز الثمانين مجلدا . وكتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، ذكر فيه من مات بعد مولده إلى يوم وفاته ، ثلاثة مجلدات . وكتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، فى عدة مجلدات ، وهو فى غاية الحسن . وكتاب نحل عبر النحل ، وكتاب تجريد التوحيد ، وكتاب مجمع الفوائد ومنبع العوائد ، كمل منه نحو الثمانين مجلدا كالتذكرة . وكتاب شذور العقود ، وكتاب ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى ، وكتاب الأوزان والأكيال الشرعية ، وكتاب[2] إزالة التعب والعناء فى معرفة الحال فى الفناء ، وكتاب التنازع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم . وكتاب حصول الأنعام والسير[3] فى سؤال خاتمة الخير ، وكتاب المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية ، وكتاب البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب ،

---

(١) هكذا فى الأصل وفى المنهل المرجع السابق جـ١ ص ٤١٨ مدى .

(٢) هكذا فى الأصل وفى المنهل المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٩ . «كتاب إزالة التعب والعنى فى معرفة الحال فى الغنى» .

(٣) هكذا فى الأصل وفى المنهل المرجع السابق جـ١ ص ٤١٩ المير .

وكتاب الإلمام فى أخبار[1] من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، وكتاب الطرق الغربية أخبار دار حضرموت النجيبية[2]، وكتاب فى معرفة ما يجب لأهل البيت من الحق على من عداهم، وكتاب فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، وكتاب عقد الجواهر فى الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، وكتاب إتعاظ الحنفاء بأخبار أئمة الخلفاء، وله تصانيف أخر.

ولم يزل ضابطا حافظا للوقائع والتاريخ إلى أن توفى يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وثمانمائة، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من القاهرة، رحمه الله تعالى.

والمقريزى بفتح الميم نسبة إلى المقريز محلة ببعلبك انتهى.

﴿ بلبيس ﴾ هى بفتح الباء وكسرها كما فى كتاب مراصد الإطلاع، وفى خطط المقريزى عن أبى عبيد البكرى، أنها بفتح الموحدتين بينهما لام ساكنة وهو موضع قريب من مصر انتهى. ولكن الذى فى القاموس أنها مضمومة الأول وقد يفتح، فإنه قال بلبيس كفرنيق وقد يفتح أوله بلدة بمصر انتهى.

وقال النابلسى[3]: بعد أن حكى الضم ويقال: إن بيس بحذف الباء الأولى واللام، اسم امرأة من الملوك نزلت هناك فسميت بها، فيكون بل بفتح الباء حرف اضراب انتهى.

وكانت تسمى قديما فلبيس أو فلابيس، وهى مدينة أشهر بلاد الشرقية خصوصا فى الأعصر الماضية، وكانت قاعدة خط الحوف وكرسيه ومحل إقامة حاكمه، وفيها مقدار عظيم من النخيل والأشجار، ويمر بوسطها خليج مقتطع من النيل وقت فيضانه يسمى بحر أبى المنجى، يروى جميع أرض الخط.

---

(١) هكذا فى الأصل وفى المنهل المرجع السابق جـ١ ص ٤١٩ تأخر.

(٢) هكذا فى الأصل وفى المنهل المرجع السابق جـ١ ص ٤١٩ العجيبة.

(٣) عبد الغنى النابلسى صاحب كتاب الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز تقديم وإعداد د. أحمد هريدى، مركز تحقيق التراث، ١٩٨٢. ص ١٧٨.

وقال المقريزى : إنها سميت فى التوراة أرض حاشان ، وفيها نزل يعقوب لما قدم على ابنه يوسف عليهما السلام فأنزله بأرض حاشان، وهى بلبيس إلى العلاقمة ، من أجل مواشيهم .

وقال ابن سعيد : إن واليها يصل حكمه إلى الواردة التى هى آخر حد مصر ، وإليها تنتهى المعاملة بفضة السواد ، والناس يتعاملون بالفلوس بعدها إلى العريش ، وهى أول الشام وقيل هى آخر مصر .

وذكر ابن خرداذية فى كتاب المسالك والممالك ، أن بين بلبيس وفسطاط مصر أربعة وعشرين ميلا .

وذكر الواقدى ، أن المقوقس زوّج ابنته ارمانوسة من قسطنطين بن هرقل ، وجهزها بأموالها وجواريها وغلمانها وحشمها لتسير إليه حتى يبنى بها فى مدينة قيسارية وهم محاصرون بها . فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها ويعث حاجبها الكبير فى ألفى فارس إلى الفرما ليحفظ الطريق ، ولا يدع أحدا من الروم ولا غيرهم يعبر إلى مصر ، وبعث المقوقس رسله إلى أطراف بلاده مما يلى الشام أن لا يتركوا أحدا يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدثوا بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب فى قلوب عساكره ، فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية وسار عمرو بن العاص إلى مصر نزل على بلبيس وبها أرمانوسة بنت المقوقس فقاتل من/بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وأسر ثلاث آلاف ، وانهزم من بقى إلى المقوقس ، وأخذت ارمانوسة وجميع ما لها وسائر ما كان للقبط فى بلبيس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير إليه ابنته ارمانوسة مكرمة فى جميع مالها مع قيس بن أبى العاص السهمى فسر بقدومها ، ثم سار عمرو إلى القصر . ولم تزل من مدائن مصر الكبار ، حتى نزل مرى ملك الإفرنج فأخذها عنوة بعد حصار طويل ، وقتل منها آلافا ، ولها أخبار كثيرة ، وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر بعد سنة ٨٠٦ هجرية بعد ما أدركناها ، وبها عمارة كثيرة وفيها عدة بساتين وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية .

٧١

وقال المقريزى أيضا : إن ناصر الدين العباسى أنشأ بها مدرسة عظيمة . قال : وفى زمننا هذا قد تهدمت .

وقال ابن حوقل : بين الفسطاط والرملة إحدى عشرة مرحلة ونصف موزعة هكذا : من رملة إلى لبنا نصف مرحلة ، وإلى أردود مرحلة ، وإلى غزة مرحلة ، وإلى الرفح مرحلة ، وإلى العريش مرحلة ، وإلى واردة مرحلة ، وإلى البكارة مرحلة ، وإلى الفرما مرحلة ، وإلى جرجير مرحلة ، وإلى فاقوس مرحلة ، وإلى بلبيس مرحلة ، وإلى الفسطاط مرحلة ، وبعضهم جعل المرحلة ثلاثين ميلا ، وبعضهم جعلها أربعة وعشرين ميلا ، وبعض الجغرافيين جعل بين بلبيس والفسطاط عشرة فراسخ .

وفى كتاب كترمير ، نقلا عن بعض من كتب على بلبيس ، أن بين القاهرة وبلبيس أربع عشر ساعة ، وأهلها نحو خمسين ألف نفس وبقربها يجرى نهر ذمكلاوة .

وذكر المقريزى وغيره ، أن بقربها قرية تسمى حيفة ، على نحو يومين من الفسطاط ، كانت محطة للقوافل القاصدة مكة ، وبئر تعرف ببئر بيدا .

وفى تاريخ بطارقة الإسكندرية أن بقرب بلبيس تلا مرتفعا وقريتين إحداهما تسمى سامة والأخرى تسمى جرابى يسكنها العرب .

وقال حسن بن إبراهيم : إن أرض فاقوس تمتد من جرابى إلى الصالحية ، وكانت بلبيس فى مبدأ الأمر أسقفية مستقلة كأسقفية المنصورة ثم ألحقت بأسقفية دمياط ، وقد غلط من قال : إن بلبيس محل مدينة بيلوزة أو محل مدينة كانت تسمى فربيط ، وإنما كانت فى بعض الأزمان من خط فربيط ، بدليل أن المقريزى فى تعداده لبلاد مصر ذكر أن فى خط فربيط خمس عشرة قرية غير الكفور ومن ضمنها بلبيس ، وقال : إن فربيط وفاقوس وبسطة وسدير وغيرها قد أعطيت إقطاعات للعرب الذين فتحت مصر على أيديهم ، وفربيط هى هربيط . وفى زمن النصرانية كانت كرسى إقليم فربطوس .

وفى خطط المقريزى أيضا ، أن قرية سدير بمديرية الشرقية وكانت من ضمن خط ترابية ، الذى سماه بطليموس خط العرب ، الذى عدد قراه ٢٨ منها سدير والحماة وفاقوس ، وكانت سدير فى رأس وادى طوميلات .

وفى كتاب السلوك للمقريزى ، أن الملك الظاهر بيبرس العلائى البندقدارى بنى بها قرية سماها بالظاهرية ، وطوميلات الذى اشتهر به هذا الوادى علم على قبيلة من قبائل العرب .

وقد تكلم حسن بن إبراهيم على قرية تسمى الكراع بقرب قرية العباسة وقرية سدير .

وقال أبو صلاح : إن خليج القاهرة ينتهى إلى سدير هذه بالقرب من العباسة ، وهى قرية من مديرية الشرقية ، وكانت عليه قنطرة ، ومن هناك كان ينقل القمح فى البر وتشحن به المراكب ويوجه إلى مكة والحجاز .

وقال ابن الوردى : إن أهل القلزم كانوا يستقون الماء من بئر سدير الواقعة فى وسط الرمل .

وفى خطط المقريزى عن ابن المأمون ، أن بلاد الشرقية كان لا يصل إليها الماء إلا من الردوسى ومن الصماصيم ومن المواضع البعيدة ، فكان أكثرها يشرق فى أكثر السنين ، فتضرر المزارعون إلى أبى المنجى اليهودى وكان مشارفاً لأعمال تلك الجهات ، وسألوه فى فتح ترعة يصل الماء منها فى ابتدائه إليهم ، فابتدأ فى حفر خليج أبى المنجى فى يوم الثلاثاء ثالث شعبان سنة ست وخمسمائة ، وقبل الشروع فى حفره ركب الأفضل بن أمير الجيوش ضحى ، وصحبته القائد أبو عبد الله البطائحى وجميع أخوته والعساكر تحاذيه فى البر ، وجمعت شيوخ البلدان وأولادهم وركبوا فى البحر ومعهم حزم البوص فسيروها فى البحر وتبعوها فى المراكب إلى أن رماها الموج إلى الموضع الذى حفروا فيه ذلك الخليج ، وأقام

الحفر فيه سنتين وكل سنة تتبين الفائدة فيه ، ويتضاعف من ارتفاع البلاد وخصوبتها ما يهون الغرامة عليه ، ولما عرض على الأفضل جملة ما أنفق فيه استعظمه وقال: غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبى المنجى . فغير الاسم ودعى بالبحر الأفضلى فلم يتم ذلك ولم يعرف إلا بأبى المنجى .

مبحث أبو المنجا

ثم جرت بين أبى المنجى وأبى الليث صاحب الديوان بسبب ما أنفق ، خطوب أدت إلى سجن أبى المنجى عدة سنين ، ثم نفى إلى الإسكندرية بعد أن كادت نفسه تتلف ، ولما طال اعتقاله بالإسكندرية فى مكان بمفرده مضيقا عليه ، تحيل بكتب مصحف بخطه ، ووضع عليه اسمه وبعث إلى السوق ليبيعه ، فبلغ الأمر الخليفة فأحضره ، وقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : طلب الخلاص بالقتل ، فأدب وخلى سبيله .

٧٢ وفى خلافة الآمر / بأحكام الله جعل لفتحه يوما كيوم فتح خليج القاهرة ، وأمر ببناء قنطرة متسعة تكون من بحرى السد ، ومازال يوم فتح هذا البحر يوماً مشهوداً إلى أن زالت الدولة الفاطمية ، فلما استولى بنو أيوب من بعدهم أجروا الحال فيه على ما كان عليه ، وكان يركب له السلطان ، ولما لم يركب إليه الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين بنفسه ، ركب إليه أخوه شرف الدين يعقوب الطواشى ، وبدت فى هذا اليوم من مخايل القبط وخمورهم ، ومنكراتهم ما لا مزيد عليه ، واختلطت النساء بالرجال ، ولما رفع الأمر إلى السلطان أرسل حاجبه ففرق منهم من وجده ، ثم عادوا بعد عوده .

وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة باشر العزيز كسره وزاد النيل فيه إصبعا ، وهى الإصبع الثامنة عشر من ثمانية عشر ذراعا ، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى» قال : وقد تلاشى فى زمننا الإجتماع فى يوم فتح سد أبى المنجى . وقل الاحتفال به لشغل الناس بِهَمِّ المعيشة .

وفى المقريزى أيضا ، أن فى سنة ٧٣١ أمر السلطان محمد بن قلاوون بعمل جسر شيبين ، وسبب ذلك أن مديرية الشرقية كان لها جملة جسور فى طول بحر أبى المنجى ، وكان خط شيبين ومرصفا ونحوهما فى غالب السنين لا يتم ريها بسبب علو أرضها ، فاشتكى الأمير بشتك من تشريق أغلب أراضيه ، فركب السلطان من القلعة ومعه جملة مهندسين وذهب يكشف الحال بنفسه ، وكان له معرفة بالعمارات ورأى سديد ، فلما عاين الأراضى أمر بعمل جسر أوله شيبين القصر وآخره بنها العسل ، وجمع لذلك اثنى عشرة ألف رجل ومائتى عربة ، فعمله وعمل به قناطر فعند فتح قنال أبى المنجى تمتلىء الحيضان ويمنعها الجسر فترتفع المياه حتى تروى الأراضى العالية .

وقال كترمير : إن خليج أبى المنجى هو بحر الطينة ، بدليل أن بحر الطينة المذكور على رأى هيرودوط ، وديودور الصقلى واسترابون ، وبطليموس كان أحد الخلجان الثلاثة المجتمعة فى محل افتراق النيل ، وكان الضلع الثالث من المثلث فى جهة الشرق ، وبسبب أن النيل يجلب فى وقت الفيضان كثيرا من الطمى ، وميله إلى الغرب أكثر من ميله إلى الشرق ، حصل مع الزمن ردم فمه ، والظاهر أن هذا كان هو السبب فى تشكى أهل الشرقية ، ولعل أبا المنجى طهره أو عدله ، ويدل لذلك أيضا قول خليل الظاهرى إن خليج أبى المنجى يصب فى البحر .

وما ذكرناه من أن النيل يميل عن جهة الشرق إلى جهة الغرب لا شبهة فيه بدليل ما ذكره المقريزى فى تخطيط موضع الفسطاط ، أن قصر الشمع كان مطلا على النيل ، والمراكب ترسو على بابه الغربى المعروف بباب الحديد ، ولما استولى المسلمون على الحصن ركب المقوقس المراكب من بابه الغربى وعدى إلى جزيرة الروضة المواجهة له ، وكان للنيل مقياس فى أحد زوايا القصر ، وكان موجودا إلى سنة عشرين وثمانمائة انتهى .

والظاهر أن بحر أبى المنجى محل الفرع الذى كان يصل إلى مدينة بيلوزة (الطينة) ويصب فى البحر المالح حيث تزحزح النيل كثيرا من المشرق إلى المغرب .

وقال كترمير أيضا فى الكلام على السلطان قلاوون : إنه بعد إنقضاء الحروب سنة ستمائة واثنتين وثمانين من الهجرة اشتغل السلطان بأمر البلاد ، وكانت مديرية البحيرة قد خربت عن آخرها وأمحلت أرضها وأضحت سهولا ترعى فيها العرب بعد أن كانت فى غاية من العمارية ، وكانت أرضها أخصب الأراضى، وقد ذكر له بعض جلسائه أن خراب تلك البلاد ومحل أرضها سببه قلة الماء بها ، وأن هناك خليجا قديما فى محل يعرف بالطيرية ردمته الرمال ، ولو حصلت الهمة فى حفره عادت إليها عماريتها وخصوبة أرضها ، لكن يلزم له كثرة الرجال والشغالين ليتم حفره قبل مجىء النيل عليه ، لأنه إذا حفر بعضه وبقى البعض ردم النيل ما حفر ، وليس فى أهل تلك المديرية كفاية لذلك ، فصغا السلطان لقوله ووقع منه موقع القبول ، وكتب فى الحال لحكام كافة المديريات البحرية بجمع الأنفار والأبقار ، ووعد بأنه يحضر فى العمل بنفسه وجيشه للمساعدة ، وبعد قليل سار إليه مع أولاده والملك المنصور وأمير حماة وأمراء البلد والعساكر ، وكان قيامه فى الخامس من المحرم ووصوله إلى محل العمل فى الثامن منه ، وقسم الخليج على الأمراء وجعل لنفسه قسما معهم فاجتهد كل منهم فى حصته بخدمه ومماليكه ، وجلبوا رجالا بالأجرة وتنافسوا للتقدم، وكان السلطان يطوف بنفسه ويقف عند كل قسم ويشجعهم بالهدايا والعطايا ويطعم رجال قسمه ، ومن زيادة اهتمامه بتنجيز العمل اشتغل معهم بنفسه وأولاده ومماليكه حتى حمل قفة التراب على كتفه ، وكانوا لأجل النشاط يستعملون فى كل قسم آلات الطرب ، كالمزيكات والمغانى وغيرها ، فتم العمل فى عشرة أيام ، فكان خليجا طوله ستة آلاف قصبة وستمائة وعرضه من ثلاث قصبات إلى أربع أو أكثر على حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها ، وفى اليوم الحادى والعشرين من المحرم قام السلطان بعساكره .

وحصل لبلاد البحيرة من الفوائد بسبب هذا العمل الناجح مالا يحصى ، وأخصبت أرضها بعد محلها الذى/سببه حرمانها من ماء النيل ، وحدثت فى تلك الجهات بلاد كثيرة بسبب ذلك . ٧٣

وفى خطط المقريزى أيضا فى باب نزول العرب بريف مصر ما نصه ، قال الكندى:

وفى ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر نُقلت قيس إلى مصر فى سنة تسع ومائة ، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من فهم وعدوان ، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتا فأذن له فى لحاق ثلاثة آلاف منهم ، وتحويل ديوانهم إلى مصر على أن لا ينزلهم بالفسطاط ، فعرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه . ويقال إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال : ما أرى لقيس فيها حظا إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان ، فكتب إلى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وأنى قدمت مصر ولم أرلهم حظا إلا أبياتا من فهم وفيها كورة ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحىّ من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام أنت وذاك ، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى سليم فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم فاشتروا إبلا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم بشراء الخيول فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب ، وليس عليهم مؤنة فى علف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة من أهل بيت فصاربلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس،حتى إذا كان زمن مروان بن محمد ، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر ، مالت إليه قيس ، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم .

وفى سنة ثمان وسبعين ومائة ، كشف اسحق بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الخراج ، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا ، فبعث إليهم الجيوش وحاربهم ، فقتل من الجيش جماعة ، فكتب إلى أمير المؤمنين هرون الرشيد يخبره بذلك ، فعقد لهرثمة بن أعين فى جيش عظيم ؛ وبعث به

إلى مصر فنزل الحوف ، وتلقاه أهله بالطاعة ، وأذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله . ثم إن أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر ، وذلك أنه بعث بمسّاحين يمسحون عليهم أراضى زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم فعسكروا وساروا إلى الفسطاط ، فخرج عليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر ، فى شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، فالتقى معهم فى رمضان فانهزم عنه الجند فى ثانى عشره ، وبقى فى نحو المائتين فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة ، وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة ، وبعث الليث إلى الفسطاط بثمانين رأسا من رؤس القيسية ورجع إلى الفسطاط ، وعاد أهل الحوف إلى منازلهم ومنعوا الخراج ، فخرج الليث إلى أمير المؤمنين هرون الرشيد فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث معه. وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصى ، فولاه الخراج وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها .

وفى ولاية الحسين بن جميل ، امتنع أهل الحوف من أداء الخراج فبعث أمير المؤمنين هرون الرشيد يحيى بن معاذ فى أمرهم ، فنزل بلبيس فى شوّال سنة إحدى وتسعين ومائة وصرف الحسين بن جميل عن إمارة مصر فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وولى مالك بن دلهم ، وفرغ يحيى بن معاذ من أمر الحوف وقدم الفسطاط فى جمادى الآخرة ، فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج إليه فكتب إلى أهل الحوف أن أقدموا حتى أوصى بكم مالك بن دلهم ، وأدخل بينكم وبينه فى أمر خراجكم ، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد أعدّ لهم القيود ، فأمر بالأبواب فأخذت ، ثم دعا بالحديد فقيدهم ، وتوجه بهم فى النصف من رجب منها .

وفى إمارة عيسى بن يزيد الجلودى على مصر ، ظلم صالح بن شيرزاد ، عامل الخراج ، الناس وزاد عليهم فى خراجهم فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا ،

فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم ، فنزل بلبيس وحاربهم فنجا من المعركة بنفسه ، وذلك فى صفر سنة أربع عشرة ومائتين ، فعزل عيسى عن مصر ، وولى عمير بن الوليد التميمى فاستعد لحرب أهل الحوف ، وسار فى جيوشه فى ربيع الآخرة فزحفوا عليه واقتتلوا فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا ، فتبعهم عمير فى/طائفة من أصحابه فعطف ٧٤ عليه كمين لأهل الحوف فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر . فولى عيسى الجلودى ثانياً وسار إليهم فلقيهم بمنية مطر ، فكانت بينهم موقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط وأحرق ما ثقل عليه من رحله وخندق على الفسطاط وذلك فى رجب .

وقدم أبو اسحق بن الرشيد من العراق فنزل الحوف وأرسل إلى أهله فامتنعوا من طاعته ، فقاتلهم فى شعبان ودخل وقد ظفر بعدة من وجوههم إلى الفسطاط فى شوّال ، ثم عاد إلى العراق فى المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجمع من الأسارى ، فلما كان فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت إلى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، فسخط على عيسى بن منصور الرافقى ، وكان على إمارة مصر ، وأمر بحل لوائه ، وأخذه بلباس البياض عقوبة له . وقال : لم يكن هذا الحدث إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون ، وكتمتنى الخبر العظيم ، حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد .

موت الملك العزيز بالله والبيعة لابنه الحاكم

فى سنة ست وثمانين وثلثمائة ، توفى بمدينة بلبيس الملك العزيز بالله أبو النصر نزار ابن المعز لدين الله أبى تميم معدّ ، فى الثامن والعشرين من شهر رمضان ، من مرض طويل بالقولنج ، فحمل إلى القاهرة ودفن بتربة القصر مع آبائه ، وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة وعشرين يوما ، وكانت مدة خلافته بعد أبيه إحدى وعشرين سنة

وخمسة أشهر ونصف . وبعد موته بويع بالخلافة فى هذه المدينة أيضا ابنه الحاكم بأمر الله ، وكان ذلك بعد الظهر من يوم الثلاثاء العشرين من رمضان ، وسار إلى القاهرة فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة ، والعزيز فى قبة على ناقة بين يده ، ودخل القصر قبل صلاة المغرب وأخذ فى جهاز أبيه .

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصناً من لبن .

وفى سنة أربع وستين وخمسمائة ، تمكن الإفرنج من ديار مصر ، وحكموا فى القاهرة ، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم ، وتيقنوا أنه لا حامى للبلاد من أجل ضعف الدولة ، وانكشفت لهم عورات الناس ، فجمع مرى ملك الإفرنج بالساحل جموعا واستجد قوما قوى بهم عساكره ، وسار إلى القاهرة من بلبيس بعد أن أخذها وقتل كثير من أهلها .

وفى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، مات صلاح الدين ، وتولى ابنه السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ، وقد كان ينوب عن والده بمصر ، وهو مقيم بدار الوزارة من القاهرة ، فحصل بينه وبين أخيه الأفضل فشل أوجب سيره من مصر لمحاربته وحصره بدمشق ، فدخل بينهما العادل أبو بكر حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دخل ، فلم يتم ذلك ، وتوحش ما بينهما ، وخرج العزيز ثانيا إلى دمشق ، فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه ، وعاد خائفا ، فسار إليه الأفضل والعادل حتى نزلا بلبيس فجرت أمور آلت إلى الصلح ، وأقام العادل مع العزيز بمصر وعاد الأفضل إلى مملكته بدمشق . ولما تولى ابنه الملك المنصور ناصر الدين محمد ، وعمره تسع سنين ، قام بأمور الدولة بهاء الدين قرقوش الأزدى الأنابك ، فاختلف عليه أمر الدولة ، وكاتبوا الملك الأفضل ، فقدم من صرخد فى خامس ربيع الأول ، فاستولى على الأمور ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم ، ثم سار به من القاهرة فى ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمه العادل بعدما قبض على عدة من الأمراء ، فجرت بينه وبين عمه حروب كثيرة آلت

إلى عود الأفضل إلى مصر بمكيدة دبرها عليه العادل ، وخرج العادل فى أثره وواقعه على بلبيس فكسره فى سادس ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة،والتجأ إلى القاهرة وطلب الصلح ، فعوضه العادل صرخد ودخل إلى القاهرة ، وخلعه فى يوم الجمعة حادى عشر شوّال ، وتسلطن هوباسم الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب .

وفى القرن السابع فما قبله وكانت هذه المدينة كما فى المقريزى ، من مراكز الطير التى كانت تحمل البطائق إلى الملوك كناحية بيسوس وقطيا وغيرهما ، على ما بيناه فى الكلام على أبراج الحمام عند ذكر منية عقبة .

ترجمة فخر الدين محمد بن فضل الله

وقال المقريزى أيضا : إن ناظر الجيش فخر الدين محمد بن فضل الله ، بنى ببلبيس مارستانا ، وفعل بها وبغيرها أنواعا كثيرة من الخير ، كبناء المساجد وحياض الماء المسبلة فى الطرقات .

قال : وكان أوّلا نصرانيا وكان متألها فى نصرانيته ، ثم أكره على الإسلام فامتنع ، وهم بقتل نفسه وتغيب أياما ثم أسلم وحسن إسلامه ، وأبعد النصارى ولم يقرب أحدا منهم ، وحج غير مرة وتصدّق فى آخر عمره مدة فى كل شهر ثلاثة آلاف درهم نقرة ، وزار القدس مرارا ، وأحرم مرة من القدس بالحج وسار إلى مكة محرما ، وكان إذا خدمه أحد مرة واحدة صار صاحبه طول عمره ، وكان كثير الإحسان لا يزال فى قضاء حوائج الناس مع عصبية شديدة لأصحابه ، وانتفع به خلق كثيرون / لوجاهته عند السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . وكان أوّلا كاتب المماليك السلطانية ثم ولى نظر الجيش ، ثم صارت المملكة كلها له من أمور الجيش والأموال وغيرها ، إلى أن غضب عليه السلطان وصادره على أربعمائة ألف درهم ، ثم رضى عنه وأمر بإعادة ما أخذه منه فامتنع ، وقال : أنا خرجت عنها للسلطان فليبن بها جامعا ، فبنى بها الجامع الجديد الناصرى ، وكان موته

٧٥

سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وله من العمر ما ينيف على سبعين سنة ، وترك موجودا عظيما إلى الغاية . وقال السلطان لما بلغه جوابه:لعنه الله خمس عشرة سنة ما يدعنى أعمل ما أريد ، وأوصى للسلطان بأربعمائة ألف دهم نقرة ، فأخذ من تركته أكثر من ألف درهم ، ومن حين موته كثر تسلط الملك الناصر على أموال الناس ، انتهى .

وفى حوادث سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة من تاريخ ابن إياس[1] ، أن السلطان طومان باى لما تحقق وصول ابن عثمان إلى بلبيس رسم بحرق الشون التى فى بلبيس وما حولها ، حتى الشون التى فى الخانقاه ، فحرقوا أشياء كثيرة من التبن والدريس والقمح والشعير والفول وغير ذلك ، لئلا ينهبه عساكر ابن عثمان لخيوله فتقوى عساكره على القتال ، وصار العرب يقطعون رؤس العثمانية الذين يظفرون بهم فى الطرقات فيرسلها السلطان إلى المدينة وهو يومئذ فى وطاقه جهة المطرية ، انتهى .

وفى الجبرتى فى حوادث سنة تسع عشرة ومائتين وألف[2] ، أن أمراء المماليك لما صار خروجهم من مصر واجلاؤهم منها واستيلاء عساكر الأرنؤد وعاثت المماليك فى البلاد بالفساد ، ومعهم طوائف العرب ـ كما ذكرنا فى عدة مواضع من هذا الكتاب كالوايلى وغيره ـ ذهبت طائفة منهم إلى بلبيس فحاصرهم بها كاشف الشرقية يومين ثم تغلبوا عليه ، ونقبوا عليه الحيطان ، وقتلوا من معه ، وأخذوه أسيرا ومعه اثنان من كبار العسكر ، ثم نهبوا البلد وقتلوا من أهلها نحو المائتين وحضر أبو طويلة ، شيخ العائذ ، عند الأمراء وكلمهم على ترك النهب ، وقال لهم : هذه الزروعات غالبها للعرب ، والذى زرعه الفلاح فى بلاد الشرق شركة مع العرب ، مع أن هبود العرب الواصلين معهم ليس لهم رأس مال فى ذلك ، فكفوهم وامنعوهم ويأتيكم كفايتكم ، وأما النهب فإنه يذهب

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور . لابن إياس تحقيق د. محمد مصطفى ، مركز تحقيق التراث جـ ٥ ص ١٤٢ .

(٢) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق جـ ٣ ، ص ٣١١ .

هدرا . فلما سمع كبار العرب المصاحبين لهم من المنادى وغيرهم قوله ، هبود العرب ، اغتاظوا منه وكادوا يقتلونه ، ووقع بين العرب مناقشة واختلاف وفشل فوق الفشل الحاصل مع الحكام والمماليك ، ولم يزدد الأمر على البلاد إلا شدة ، وانتهى الفساد إلى خراب البلاد، انتهى .

ومن جميع ما تقدم يعلم أن بلبيس من المدن المعتبرة قديما ، نزلتها الملوك ونشأت منها الأكابر والأفاضل .

ترجمة عماد الدين محمد بن اسحق البلبيسى

ففى حسن المحاضرة للسيوطى[١] ، أن منها عماد الدين محمد بن اسحق بن محمد ابن المرتضى البلبيسى الشافعى ، كان من حفاظ المذهب ، أخذ عن ابن الرفعة وغيره ، وولى قضاء الإسكندرية ، مات بالطاعون ، فى شعبان سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقد قارب السبعين .

ترجمة القاضى مجد الدين الكنانى

ومنها القاضى مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن على بن موسى الكنانى البلبيسى ، تخرج بمغلطاى والتركمانى ، ومهر فى الفقه والفرائض وشارك فى الأدب ، وله تأليف فى الفرائض ، واختصر الأنساب للرشاطى ، وولى قضاء الحنفية فى القاهرة ، مات فى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانمائة[٢] .

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٢٨ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٢ ــ جـ ٢ ، ص ١٨٥ .

ترجمة الشيخ محمد بن على المعروف بابن النحاس

وفى الضوء اللامع للسخاوى[١]، أنه ولد بها الشيخ محمد بن على بن محمد البلبيسى المكى الشافعى المعروف بابن النحاس ، قدم مع أبويه إلى مكة رضيعا فأرضعته السيدة زينب بنت القاضى أبى الفضل النويرى ، فلما ترعرع لزم خدمتها وخدمة زوجها ، ثم نال دنيا بالتجارة وغيرها ، واستفاد عقارا ونقدا وعروضا ، ومات سنة سبع وستين وثمانمائة بمكة ودفن بالمعلاة ، وسمع من الزين المراغى والقاضى عبد الرحمن الزرندى ، ورقية ابنة مزروع بالمدينة ، ومن مخدومته زينب وزوجها الجمال بمكة، انتهى .

ترجمة الشيخ محمد المعروف بابن البيشى

وفيه أيضا[٢]، أن منها الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن أبى العباس البلبيسى قاضيها الشافعى ، يعرف بابن البيشى بموحدة مكسورة بعدها تحتانية ثم معجمة ، ولد بلبيس ونشأ بها ، وكان المجد إسماعيل البلبيسى قاضى الحنفية بمصر قريبه من جهة النساء ، فانتقل عنده بالقاهرة فجوّد بعض القرآن وحفظ العمدة والمنهاج والألفية وغيرها على قريبه المجد وغيره ، وأجازوه ، وبحث جميع المنهاج على الأبناسى وغيره ، وحج مع أبيه صغيرا وكان يستحضر أكثر الروضة والحاوى ، وكتب بخطه الحسن أشياء ، وناب فى القضاء ببلده عن جماعة ، بل اقتصر القاياتى أيام قضائه عليه فى الشرقية جميعها إجلالا له . وكان إماما عالما فقيها غاية فى التواضع وطرح التكلف ، مات سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة ، ولم يخلف فى الشرقية مثله، انتهى .

---

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ ٩ ، ص ٨ .
(٢) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ ٩ ، ص ٢٨ .

ترجمة الشمس البلبيسى

وفيه أيضا[١]، أن منها الشيخ محمد بن محمد الشمس البلبيسى القاهرى الشافعى ، ولد ببلبيس ونشأ بالقاهرة فى كنف أبيه ، جاور بالأزهر واشتغل بالفقه ونحوه عند ابن قاسم وابن شولة وتعب فى تربيته وسافر معه لمكة وبيت المقدس وغيرهما واسترزق من الكتابة والتعليم فى بيت ابن علبية ونزل فى سعيد/السعداء والبيبرسية ٧٦ وغيرهما ، وتغير خاطر أبيه منه قليلا ثم تراجع ، وما مات إلا وهو يدعو له ، وجاور بعد موت أبيه بمكة ثم عاد وأسكنه الاستادار فى المسجد الذى جدده بالخشابين . وجعل له إمامته والقيام به ، انتهى .

ولم يذكر تاريخ وفاته وإنما ذكر أن ولادته كانت سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة .

ترجمة الشيخ محمد الحملى

قال[٢] : وولد بها أيضا الشيخ محمد بن محمد الحملى البلبيسى القاهرى الشافعى ، وبعد أن حفظ القرآن حفظ العمدة والتبريزى والجرجانية وربع المنهاج على فقيه بلده البرهان الفاقوسى ، وخطب أشهرا بجامع بلده ثم صحب الشيخ الغمرى وتلقن منه ، ولقى ابن رسلان وتهذب بهديه ، وأخذ عن الشهاب الزواوى وآخرين ، وسافر لمكة والمدينة وبيت المقدس والخليل والمحلة ، وتكسب بالنساخة وقيد على البخارى والشفاء من الحواشى النافعة ما يدل لفضله ، واختصر تفسير البيضاوى مع زيادات وكتب على المنهاج إلى الزكاة ، وامتدح النبى ﷺ بقصيدة ، وكان فاضلا دينا جيد الفهم ، بديع التصوّر ، صحيح العقيدة ، خبيراً بالأمور متين التحرى والعفة ، حسن العشرة نير

---

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ ٩ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ ٩ ، ص ٦٠ .

الهيئة ، مات فى ربيع الأول سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، ودفن بجوار أبيه بتربة سعيد السعداء ، رحمه الله تعالى انتهى .

مطلب مزار الشيخ سعدون ومن معه

وفى رحلة سيدى عبد الغنى النابلسى[١] ، رحمه الله ، من الشام إلى مصر .

قال : وصلنا بلدة بلبيس ، فنزلنا هناك فى زاوية عمرت قبل نحو سنتين من تاريخ نزولنا بها على قبر الولى الصالح الشيخ داود الغجرى ، بفتح الغين المعجمة وفتح الجيم وكسر الراء وياء النسبة ، وعليه قبة لطيفة وعمارة شريفة ، وهناك مسجد وماء جار بدولاب الدواب من بئر هناك . (قلت) : ـ وقد خرب الآن وتعطل وصار المكان مملوءًا بالرمال ـ وبالقرب منه قبر الشيخ سعدون السطوحى ، ويقال إنه يجتمع مع سيدى أحمد البدوى فى النسب ، وهذا المزار مشهور به ، وله به مولدان كل سنة بعد عيد الفطر بخمسة أيام وفى عاشوراء ، وكانا مشهورين جامعين يأتيهما الناس من كل مكان ، وقد قل اجتماع الناس بهما الآن .

قال سيدى عبد الغنى : وبالقرب منه قبر الشيخ سعدون الجنزى ، بفتح الجيم وسكون النون ثم زاى وياء النسبة ، وهو رجل من أولياء الله تعالى الصالحين ، له قبة وعليه عمارة . وهناك أيضا قبر الشيخ عبد الله نمرقنه ، بنون فى أوّله يقولها بعضهم مفتوحة وبعضهم مكسورة ثم ميم ساكنة وراء وقاف مكسورة أو مفتوحة ثم نون مفتوحة مشددة فى آخرها هاء ساكنة ، وهو رجل من المغازين وهو الذى فتح البلاد ولم يزل يجاهد فى الكفار

---

(١) الحقيقة والمجاز ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

حتى قتل وقطعت رجلاه ، وبعد أن قطعت رجلاه أخذ عظم رجله فضرب به رجلا فقتله ، وعظم رجله الآخر فضرب به رجلا فقتله . وعلى قبره عمارة .

قال وقد قلنا من النظام فى ذلك المقام :

سقى الله وادى النيل فيه فسبحوا — وحفرات ماء جوفهنّ فسيح
ويا حبذا بلبيس والنخل راكع — صفوفا بها ابان أقبل ريح
كقامات غيد رافعات كفوفها — لنحو السما والطل ثَمّ يسيح
زمان الشتا حيث البخار كأنه — دخان به فاحت مهامه فيح
إذا سار فيه القوم غشى ركابهم — وتمحقه شمس الضحى فتريح
وتلك التلال الغرّ بين مياهه — وغدرانه عنها البلال تزيح
فتمشى بها الأقدام فوق صراطها — إلى حيث شاءت والغرام صحيح
بلاد بها مصر الشريفة قد زهت — على ما سواها والمقال صحيح
غلال زجنات من النخل زخرفت — بكل قوام ماس وهو رجيح

(قلت) : وهذا المشهد مشهور يقصده الناس للزيارة والتبرك به .

وهذه المدينة إلى الآن عامرة وبها سوق فيه حوانيت كثيرة مشتملة على أصناف من البضائع والحرف ، وبها جملة معاصر لزيت الشبرنج ، وأغلب مبانيها بالطوب الأحمر ، وفيها أربعة مساجد جامعة . أحدها جامع السلطان العزيز ، ويقال له الجامع الكبير ، وبه منارة مرتفعة .

وبه مقام العارف بالله تعالى ذى الكرمات الباهرة والنفحات الظاهرة ، السيد مصطفى المنسى السعدونى ، نسبة إلى سيدى سعدون السطوحى ، المدفون بمشهده الشهير خارج بلبيس فى البر الشرقى للترعة الحلوة الإسماعيلية ، مع سعدون الجنزى وغيره كما تقدم ، وإلى سعدون السطوحى ينسب هذا المشهد .

ترجمة الشيخ مصطفى المنسى

٧٧ ولد السيد المنسى المذكور ببلبيس / ونشأ بها هو ووالده وعائلتهم جميعا ، وأخذ طريق الخلوتية عن الولى الكامل شيخ الإسلام ، والجامع الأزهر ، العارف بالله تعالى الشيخ عبد الله الشرقاوى بسنده فى هذا الطريق إلى السيد الحفنى رضى الله عنهم جميعا ، فتربى فى حجر شيخه الشيخ الشرقاوى ورعايته ، حتى بلغ من الكمال منتهاه ، وأذنه بالتلقين وتربية المريدين ، فأقام ببلده يرشد الخلق ويقضى حوائج العباد ، ساعيا فى مرضاة الله تعالى وكان ذا همة عالية وهيبة تامة ، تهابه الحكام وتقضى حوائجه جميعها ، يدون أن يختلط بهم وأن يكون لهم عنده منزلة فكان لا يألف إلا الفقراء ولا يعتنى إلا المساكين ، ويقضى حاجة المضطر كائنة ما كانت ، وبالغة ما بلغت ولو عند أشدّ الحكام ، وكانت كراماته شهيرة جدا لا ينكرها أحد من أهل عصره ، خصوصا من كان كثير الاجتماع به والملازمة له من المطلعين على أحواله .

توفى ، رحمه الله تعالى ، فى ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية ، ودفن بالجامع الكبير ـ فإنه كان بإزاء بيته ـ وكان رضى الله عنه ناظرا فى مصالحه قائما بشعائره وجميع ما يلزم لعمارته لله تعالى ، فإنه كان قد انقطع إيراده ولم يكن له إيراد يصرف عليه منه حتى لاحظ الشيخ رحمه الله ، ولم يزل عامرا إلى الآن بنظر أولاد الشيخ وأتباعه ، وهو أعمر مساجد البلد ، وعليه من النور والجلال ما يبهر العقل ولا ينكره أحد ، سيما بعد أن دفن فيه الشيخ رحمه الله رحمة واسعة .

والثانى : جامع السادات ، وهو جامع المأمون .

والثالث ، جامع السويقة ، وهو جامع الناصر ، ولكل منهما منارة .

والرابع : جامع المقرقع ، وله أوقاف يصرف عليه منها ، من حوانيت ودور وغيره ، وهو الآن معطل الشعائر خراب .

وقد عد المقريزى فى المحاريب التى وضعها الصحابة ، رضى الله عنهم ، فى قرى مصر محرابا بمدينة بلبيس ، ولعله هو محراب الجامع الكبير .

وبها جملة زوايا للصلاة أيضا ، وحمام غير منتظم ، بل هو قذر ، وأنوال لنسج الأقمشة البلدية ، وأرباب حرف ، وتجار قطن ، من الدول المتحابة والأهالى ، وجملة أضرحة مثل : مقام سيدى سعدون السطوحى ، والجنزى - شرقى ترعة الإسماعيلية ، له مولدان كل سنة كما تقدم ، يجتمع فيه من أهالى المديرية - ومقام سيدى محمد الصادق ، وأمير الجيش ، وأبى المظلوم وغير ذلك ، وبها جملة من النخيل والأشجار المتنوعة . وبها مكاتب أهلية لتعليم القرآن والكتابة .

والترعة الإسماعيلية تمر فى شرقيها بمسافة نحو ألف متر ، وعليها هناك هويس ، وفى غربيها على نحو ألف وخمسمائة متر فرع الشيبينى ، وغربى ذلك الفرع محطة السكة الحديد ، وكان فى السابق بجوارها من الجهة الغربية بحر يقال له بحر أبى قوام ، وكان له أرصفة بالطوب الأحمر والمونة ، وكان على شاطئه حمام بعض آثاره باقية إلى الآن ، وقد صار ذلك البحر الآن أرض مزارع وصار بينه وبينها نحو مائتى متر .

مطلب الأشجار الكابلية

وبها ثلاثة أشجار كابلية ، لا توجد إلا فى بلاد الهند ، واحدة بجنينة الشيخ عمر حرش القاضى ، واثنتان فى محل يقال له حمرة الحلبى ، إحداهما بجوار الساقية من الجهة القبلية ، وهى خلفة ، والأخرى فى قبليها بمسافة خمسة عشر مترا ، ومحيط هذه الشجرة متر ، والتى بقرب الساقية محيطها أربعة أعشار متر ، والتى بجنينة الشيخ عمر محيطها ستة أعشار متر ، وجميعها له شبه بشجر النبق ، وفروعها تشبه الصفصاف ، ولها شوك يشبه شوك الليمون ، ولون ورقها يشبه لون ورق النيلة ، لكنه فى الاستدارة مثل ورق النبق ، وبه نعومة وثمرها يشبه التفاح ، ولكنه على هيئة البلح الطويل ، ويرطب مثل البلح ، وبه مادة سكرية ، وأكثر وجوده فى شهر برمهات ، وقد يستديم مثل الليمون

وأهل البلد يقولون إنه كان فى المحل ـ أى محل حمرة الحلبى ـ كنيسة حيث وجد به بعض آثار من المبانى تدل على ذلك، وبحرى الساقية التى بجوار الشجرة أثر مبان تشبه القبور، ولكنها متداخلة.

وزمام أطيانها ألفان وستمائة واثنان وعشرون فدانا وثلثا فدان، وتعداد أهاليها ذكورا وإناثا خمسة آلاف وستمائة وثمان وستون نفسا، ولها سوق كل يوم خميس، يباع فيه المواشى وكافة الأصناف.

وفى غربى مدينة بلبيس **قرية منية حمل** على نحو ثلاثة آلاف متر ويفصلها عنها البحر الشيبينى والسكة الحديدية، وفى منية حمل المذكورة من الجهة الغربية قطعة حجر عظيمة، مبنية صلبة جدا لا تكاد تؤثر فيها المعاول، ويقال إنها فى الأصل باب من أبواب مدينة بلبيس. فعلى هذا تكون منية حمل من جملة بلبيس، وبهذا البلد ـ أعنى منية حمل ـ جامع عظيم محكم الوضع، فى وسط البلد، ليس بها غيره، ومئذنة مرتفعة جدا، بناه الظاهر بيبرس البندقدارى، ولم يزل هذا البناء موجودا إلى الآن، وبها من الأضرحة ضريح الشيخ سالم المجاهد بالقرافة، وضريح الشيخ محمد السقيم، وضريح سيدى على المزين، وضريح سيدى على الغيطى، وضريح سيدى محمد أبى شريف.

ترجمة الشيخ أحمد الحملاوى

وإليها ينسب الشيخ أحمد الحملاوى بن محمد بن أحمد، ولد بها سنة ١٢٧٣ وتربى فى حجر والده، وقرأ القرآن بها، وقدم إلى الأزهر/سنة ١٢٨٨ فحفظ المتون، وجوّد القرآن الشريف، وتلقى كثيرا من العلوم الشرعية والأدبية عن أفاضل عصره، ثم دخل مدرسة دار العلوم، وتلقى الفنون المقررة قراءتها فيها. وسيأتى باقى الكلام عليها فى المنيات. ٧٨

وفى قبلى بلبيس على بعد ثلاثة آلاف متر، **ناحية الزريبة**، على حافة الترعة

الإسماعيلية من البر الغربى ، وهى واقعة بأرض رمال وبها مسجد عامر ، ومكاتب لتعليم القرآن والكتابة ، ومعاصر لاستخراج الزيت ، وطواحين حناء ، وبها منزل مشيد لعمدتها أحمد مصطفى ، وبستان ذو فواكه بجوار السكة من جهة الشمال ، وبها مجلسان للدعاوى والمشيخة . ويكثر فيها زراعة شجر الحناء ، وبها نخيل وأنواع من الأشجار ، وبها وابور لعمدتها المذكور . وزمام أطيانها ثمانمائة واثنان وثلاثون فدانا وكسر ، وعدد أهلها ألف ومائة وأربع وستون نفسا ، وأكثر تكسبهم من الزراعة .

مطلب ترجمة الشيخ أحمد عمار وولده حضرة محمد أفندى صالح

وكان بها من العلماء الفاضل المحقق الشيخ أحمد عمار ، نائب محكمة الإسماعيلية سابقا ، توفى سنة ١٣٠٢ ، وهو من عائلة تعرف بالصوالحة من الأشراف .

وأكبر أنجاله حضرة محمد أفندى صالح ، ولد فى ٥ من ذى القعدة سنة ١٢٧٢ ، وبعد أن حفظ القرآن الشريف حضر إلى الجامع الأزهر وتلقى كتب الفقه فى مذهب الشافعى ، وكتب اللغة العربية ، وغيرها من العلوم الجارى تدريسها بالجامع المذكور ، ثم دخل مدرسة دار العلوم ، واشتغل بتحصيل علومها بجد ونشاط ، فتلقى بها الأدبيات ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والتاريخ ، وغير ذلك مما هو مقرر تحصيله بتلك المدرسة ، وبعد أن تم دروسه بها ترقى بوظيفة مدرس بالمدارس الأميرية ، ولم يزل ينتقل من وظيفة إلى أرقى منها حتى صار الآن مفتشا بنظارة المعارف العمومية .

﴿ بلتان ﴾ بلدة من مديرية القليوبية بمركز طوخ الملق ، فى شمال العبادلة بنحو ألف وخمسمائة متر ، وفى شرقى دجوة بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، وأبنيتها ريفية ، وبها ثلاثة مساجد ، وكثير من أبراج الحمام ، ونخيل قليل ، وبساتين ذوات فواكه ، وبها ضريح ولى يسمى أبا جميل ، يعمل له مولد كل سنة ، وبجوارها ضريح امرأة صالحة يقال لها ست الرجال البيضاء ، ويمر بقربها سكة الحديد ، ولها شهرة بزرع الأرز والقطن ، ويزرع فيها القمح ونحوه ، وأكثر أهلها مسلمون .

ونشأ منها جملة من العلماء الأفاضل مثل العلامة الشيخ حسن والعلامة الشيخ مصطفى ، والعلامة الشيخ عبده ، والعلامة الشيخ عيسى ، وكلهم شافعيون انتفع بهم من أهل الأزهر وغيرهم من لا يحصيه إلا الله .

ترجمة أحمد أفندى طائل

ومن هذه البلدة نشأ أحمد أفندى طائل ، تربى بالمدارس ثم سافر إلى أوروبا ، فتعلم بها العلوم الرياضية ، وحضر منها إلى مصر سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف ، فجعل معيدًا لدروس المرحوم بيومى أفندى ، بمدرسة المهندسخانة ، ثم جعل معلما مستقلا فى العلوم الميكانيكية - أى جر الأثقال - وفى الجبر. وفى سنة ثمان وخمسين جعل مهندس الركاب العالى ، وفى هذه الوظيفة أقيمت عليه قضية اتهم فيها بأخذ الرشوة لصرف الشغالة قبل استيفاء العمل ، فعزل من الوظيفة ، وحكم عليه بالليمان ، فألحق بليمان الترسانة بالإسكندرية ، وبعد سنة ونصف عفى عنه فى عفو عمومى ، وتعين معاونا بديوان المدارس مدة نظر المرحوم أدهم باشا . وفى سنة ست وستين افتتح المرحوم عباس باشا مدرسة السودان ، فأرسل إليها مع من أرسل مثل المرحوم رفاعة بيك ، وبيومى أفندى ، ومصطفى بيك السبكى الحكيم ، وغيرهم .

وفى أول حكم المرحوم سعيد باشا رجع إلى الديار المصرية وكان مصابا بالحمى ، ولم تفارقه مدة السفر إلى أن دخل بولاق فأقام ليلتين ومات . وكان قصير القامة ، صغير الجسم ، كثير الفهم ، لا يبالى بأكثر الأمور له جرأة على الأمراء وإقدام ، وكان محبا للتلامذة يرغب فى تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم .

وترقى من أهلها أيضا محمد أفندى عصمت وكيل مديرية بنى سويف سابقا .

﴿ بلقاس ﴾ قرية كبيرة من مديرية الغربية بمركز شربين ، على شاطىء الرياح

من جهتى غربها وشمالها ، وبها أربعة مساجد بغير منارات ، وأربعة منازل مشيدة ، وخمسة بساتين ، وأضرحة لبعض الصالحين ، كسيدى مصباح ، والشيخ تقى الدين الحسينى ، والشيخ أبى عامر . ولها سوق كل يوم أحد ، وتعداد أهلها سبعة آلاف وثمانمائة نفس ، ومعمور زمامها خمسون ألف فدان ، وغير المعمور ينيف على ستين ألف فدان ، ومقدار سكنها ثمانية وأربعون فدانا ، وريّ أرضها من النيل ، وبها بعض سواق لمزروعات الصيف . وتكسب أهلها من زراعة القطن وباقى الحبوب ، وبها مقبرتان لأموات المسلمين . ومقبرة للنصارى ، وعندها أربعة طرق ، منها ما يوصل إلى ناحية المعصرة فى قدر ساعة ، وما يوصل إلى دميرة فى ساعة ونصف ، وما يوصل إلى بهوت فى ساعة ، والرابع إلى كفر الجرائدة فى ساعتين . وأطيان هذه البلده متصلة ببرية البرلس .

مطلب برية البرلس

وهى برية واسعة يبلغ زمامها نحو خمسمائة ألف فدان ، وبحيرة البرلس واقعة فى داخلها ، وكانت تلك /البرية إلى سنة ستين بعد المائتين والألف معدة لرعى الجاموس والبقر الجفال . وهى محددة بحدود أربع ، فحدها الغربى : ناحية أبى بكار وعزبة عمر ، التى عوضت ناحية السعدة بعد إنعدامها وناحية شباس الملح . وحدها البحرى : ينتهى إلى كوم أبى فصادة وجزيرة المحروقة وكوم الخبير وكوم الخنزيرى وناحية المعصرة . والحد الشرقى : ينتهى إلى أطيان ناحية منية أبى غالب وكفورها وناحية بسنديلة . والحد القبلى : إلى معمور أطيان بلقاس وناحية المعصرة وكفر الجرائدة وبيلة والكفر الغربى ، وكفور زاوية سيدى غازى ، وكوم أم سن ، وكوم شلمة ، وكوم تيرة ، وكوم العرب ، وكوم إسماعيل ، وكوم شباس الملح .

٧٩

وفى هذا الفضاء العظيم كانت تجتمع تصافى مياه البلاد المجاورة له فى الأيام السابقة فيتكوّن منها بحيرة عظيمة الامتداد طولا وعرضا ، تتخللها جزائر كثيرة العدد بعضها كبير وبعضها صغير ، وكان بتلك الجزائر حشائش ومراع بكثرة ، وبعد نزول المياه

و نقصها كانت تلك البرك تتناقص وينكشف جزء عظيم من جوانبها فتنبت به المراعى الحسنة الجمة ، فكانت الجواميس والبقر الأهلى ترتع فيه من جميع البلاد المجاورة ، وأما البقر والجاموس الجفال (المتوحش الذى ليس له ملاك) فكانت تأوى وسط البرية البعيدة عن طروق الناس لها ، وكان الرعاة يقيمون فى البرية فى أخصاص من البوص والبردى ونحوه ، والمواشى سائبة فى البرية ليلا ونهارا ، وكل راع قد جعل لمواشيه اسما عوّدها عليه ، يناديها به ـ لنحو الحلب ـ فتأتى إليه فى تايته (محل إقامته). فإذا حضرت أرسل عليها أولادها ، وقد كان أمسكها عنده ، لتحن عليها فترضع منها ما يمكنها منه ثم يحلبها ، وفى كل تاية توجد قصع كبيرة تسع القصعة لبن نحو عشر جاموسات ، فيملؤها ويتركها مملوءة يومين بليلتين فيتربى على وجه اللبن ما يسمى بالقشطة ، فيكشطه ويجمعه فى قصعة أو برميل ، ويضرب باليد حتى يخرج زبده، ويمتاز من غيره . فيجعل الزبد قوالب ويحفر فى الأرض السبخة حفرة مربعة الشكل ، مدلوكة الباطن دلكا شديدًا، فيجعل فيها اللبن المخرج زبده ، ثم توضع الزبدة فتعوم فى وسطه ، ويكتسب الجميع من الأرض ملوحة تصلحه وتمنعه من التغير . وأما الجبن فيعمل من الرائب الذى أخذت القشطة من على وجهه ، وطريق عمله ، أن يضعوه فى قدور كبيرة من النحاس ، واسعة الأفواه ضيقة الأسافل ، ويوقدوا عليه النار حتى يجمد ويعصر منه ماء أصفر ، فينشل الجبن من هذا الماء الماصر ويوضع فى أوعية متخذة من نبات الأرض صغيرة تسمى البواقيط فيصفو من بقية مائه ويزداد جمودا ، ويجمع الماء الماصر منه ويجعل فى حفائر كالأول ويوضع فيها الجبن فيكتسب من ملوحة الأرض. وفى أوان عمله تحضر له تجار كل جهة فيشترونه منهم .

وكان الرعاة لا يعرفون الأقة ولا الرطل ، بل يبيعون السمن بمعيار عندهم من أوانى الفخار ، ويبيعون الجبن بالشيلة ، وهى وزن حجر معروف عندهم يوجد فى كل تاية .

وأما البقر الجفال فكان كثيرا فى داخل البرية ، ولم ينقطع إلا بعد سنة ستين ،

وكان الرعاة يصطادونه بالرصاص ، وكانت تلد فى الهيش وتخفى ولدها فيه إلى أن يكبر فيرعى مع أمه ، وفى وقت احتراق المياه العذبة وغلبة المياه المالحة على البرك والخلجان كانت تنحاز تلك المواشى الجفالة ، وتنضم إلى أماكن تعرفها ، فى مائها عذوبة بحيث يمكن شربها ، فكان الرعاة يكمنون لها عند تلك المياه ويصطادونها كثيرا ، ثم إن هذه البرية كانت منقسمة إلى أنحاء متعددة كبرية بيلة ، وبرية بلقاس ، وبرية المعصرة ، وبرية كفور الزاوية ، ونحو ذلك ، فكان كل قطعة منها تسمى باسم ماقاربها من القرى ، وكانت المواشى التى تسرح فيها كثيرة جدا حتى قيل إنه كان لرجل يسمى النشاوى من أهالى بيلة جملة تايات ولد له فى تاية منها فى سنة واحدة مائة بكرية . وآخر يقال له أبو دومة من عرب البرلس ، كان له بقر لا يحصى عدده ولا يعرف ما يؤخذ منه لكثرته .

والآن بسبب كثرة الزراعة الصيفية فى أرض الروضة وغيرها ، امتنع دخول المياه فى هذه البرية فجفت أرضها وانقطعت منها الحشائش ، وكثير منها دخل الزمامات وأعطى منه أباعد للأعيان .

وها نحن الآن بمقتضى أمر كريم من الخديوى إسماعيل باشا شارعون فى عمل تصميم لإجراء عمليات فيها لإصلاحها ، وجلب الخصب لها بحيث يتأتى الانتفاع بها بالزرع والمرعى .

﴿ بلقس ﴾ قرية كبيرة من مديرية القليوبية بمركز شبرى الخيمة شرقى ترعة الشرقاوية بنحو ربع ساعة ، وبحرى بهتيم بنحو ساعة ، وشرقى ناحية كوم اشفين بنحو ربع ساعة ، وبها جامع بمئذنة معمور تقام به الجمعة وزوايا للصلاة ومنزل مشيد البناء معد للضيوف لعمدتها السيد إسماعيل أبى الذهب .

وكان بها معمل لصناعة النيلة آثاره باقية إلى الآن ، وبها معمل دجاج وجنائن ونخيل ، ورى أطيانها من الشرقاوية والبولاقية والخليج المصرى ، وفى زمن الفاطميين قد وقفها طلائع بن رزيك ، على أن يكون ثلثاها على الأشراف من بنى سيدنا الإمام

٨٠ الحسن ، وبنى/سيدنا الإمام الحسين ابنى الإمام على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، وسبعة قراريط منها على أشراف المدينة النبوية ، وجعل فيها قيراطا على بنى معصوم .

ترجمة الصالح طلائع بن زريك

وطلائع بن رزيك ، هو أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . قدم فى أول أمره إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، بأرض النجف من العراق فى جماعة من الفقراء ، وكان من الشيعة الإمامية ، وإمام مشهد على ، رضى الله عنه ، يومئذ السيد بن معصوم ، فزار طلائع وأصحابه وباتوا هنالك ، فرأى ابن معصوم فى منامه على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وهو يقول : « قد ورد عليك أربعون فقيرا ، من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا ، قل له اذهب فقد وليناك مصر » . فلما أصبح أمر أن ينادى من فيكم طلائع بن رزيك فليقم إلى السيد بن معصوم ، فجاء طلائع وسلم عليه ، فقص عليه مارأى،فسار حينئذ إلى مصر ، وترقى فى الخدم حتى ولى منية ابن خصيب . وبعد قتل الخليفة الظافر خلع عليه خلع الوزارة ، ونعت بالملك الصالح نصير الدين ، وكانت وفاته يوم الاثنين تاسع عشر رمضان سنة ٥٥٦ ، وانظر تمام ترجمته فى خطط المقريزى فى ضمن ترجمة الصالح[١] .

وفى الجبرتى من حوادث سنة ١٢١٩ ، كانت عساكر الأرنؤد والعثمانية تحارب المماليك القائمين فى الجهات ، وعدى سليمان بيك الخزندار من الغرب إلى جهة طرا بمن معه يريد المرور من خلف الجبل ، ليلتحقوا بجماعتهم فى بلاد الشرقية ، فوقف لهم العسكر وضربوا عليهم بالمدافع الكثيرة ، واستمر الضرب من فجر يوم الجمعة إلى العصر ، ونفذ بمن معه ولم يقتلوا منه إلا مملوكا واحدا حضروا برأسه إلى تحت القلعة ، ورجع الكثير من الأرنؤد وغيرهم ودخلوا المدينة ، واستمر من بقى منهم ببهتيم وبلقس ومصطرد ، وأخرجوا أهل تلك القرى منها ونهبوها ، واستولوا على ما فيها من غلال وأشياء ، وكرنكوا فيها

(١) خطط المقريزى ، المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٤٤٤ .

ونقبوا الحيطان لرمى بنادق الرصاص من النقوب وهم مستترون فى داخلها ، ونصبوا خيامهم فى أسطحة الدور ، وجعلوا المتاريس فى خارج البلدة وعليها المدافع فلا يخرجون إلى خارج ولا يبرزون إلى ميدان الحرب ، وكل من قرب منهم من الخيالة المقاتلين رموا عليه بالمدافع والرصاص ومنعوا عن أنفسهم ، واستمروا على ذلك وحصل لهذه البلاد وما جاورها ما لا خير فيه ، انتهى .

﴿ بلقينة ﴾ قرية من مديرية الغربية بمركز سمنود ، موضوعة بشمال السكة الحديد الموصلة إلى دمياط ، غربى المحلة الكبرى بنحو أربعة آلاف متر ، وشرقى ناحية دار البقر القبلية بنحو ألفى متر ، بناؤها باللبن وبوسطها جامع بمنارة مقام الشعائر وبعض أهلها أرباب صنائع .

وفى خطط المقريزى ، أنه وقع فى هذه القرية فى صفر سنة تسع ومائتين محاربة بين على بن عبد العزيز الجروى ، حاكم تنيس والحوف الشرقى من قبل الخليفة المأمون ، وبين أهل الحوف ، وقد كان أهل الحوف كتبوا إلى عبد الله بن السرى يستمدونه عليه فأمدهم بأخيه ، فالتقيا هناك - إلى آخر ما هو مبسوط فى الكلام على تنيس .

وفى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وقف هذه القرية الأمير سيف الدين منجك اليوسفى مدة وزارته مع عدة أوقاف آخر على جامعه ، الذى أنشأه خارج باب الوزير ، وكانت هذه القرية مرصدة برسم الحاشية ، فقومت بخمسة وعشرين ألف دينار ، فاشتراها من بيت المال وجعلها وقفا على هذه الجهة . وهى قرية ذات اعتبار ومنشأ للأفاضل .

ترجمة الشيخ صالح بن أحمد المعروف بالبلقينى

فقد ذكر المحبى فى خلاصة[١] الأثر ، أنه نشأ منها الشيخ صالح بن أحمد ، الإمام المعروف بالبلقينى المصرى ، شيخ المحيا بالقاهرة ، وابن شيخه الشهاب العارف بالله تعالى علامة المحققين. كان من كبار العلماء والزهاد وله القدم الراسخة فى التصوف وفقه الشافعى والمعقولات بأسرها ، أخذ عن أبيه وغيره ، وشاع أمره وقصده الناس للتلقى عنه ، وكان يقرأ شرح القطب وحواشيه من المنطق ، ولم يزل فى إفادة واجتهاد بالعبادة إلى أن توفى ، وكانت وفاته بمصر فى إحدى الجمادين بين سنة خمس عشرة بعد الألف ، عن نحو ثمانين سنة ، والبلقينى بضم أوله نسبة لبلقينة من غربية مصر، انتهى .

ترجمة سراج الدين البلقينى رضى الله عنه

وليس المترجم بأول من نشأ منها بل سبقه من هو أشهر منه ، فقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة[٢] أن منها شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، أبا حفص عمر بن رسلان بن نصر بن صالح الكنانى ، مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة ، ولد فى ثانى عشر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وأخذ الفقه عن ابن عدلان والتقى السبكى ، والنحو عن أبى حيان ، وبرع فى الفقه والحديث والأصول وانتهت إليه رياسة المذهب والإفتاء ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وله ترجيحات فى المذهب خلاف ترجيحات النووى ، وله اختيارات خارجة عن المذهب ، وأفتى بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة . وقال : إنه خارج عن مذهب الإمام الشافعى. وله تصانيف فى الفقه والحديث والتفسير منها : حواشى الروضة ، وشرح البخارى ، وشرح الترمذى ، وحواشى الكشاف./وولى تدريس ٨١

(١) خلاصة الأثر ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ٣٢٩

الخشابية وغيرها ، وتدريس التفسير بالجامع الطولونى ، وكان البهاء بن عقيل يقول : هو أحق الناس بالفتوى فى زمانه ، مات فى عاشر ذى القعدة سنة خمس وثمانمائة ،

قال السيوطى : وقد سمعت ولده ، شيخنا قاضى القضاة علم الدين يقول : ذكر الشيخ كمال الدين الدميرى ، أن بعض الأولياء قال له :إنه رأى قائلا يقول إن الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الأمة من يجدد لها دينها ، بدئت بعمر وختمت بعمر . ثم قال : ومن اللطائف أن المبعوثين على رؤس القرون مصريون عمر بن عبد العزيز فى الأولى ، والشافعى فى الثانية ، وابن دقيق العيد فى السابعة ، والبلقينى فى الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر .

وقال الحافظ بن حجر يرثى البلقينى بقصيدة ، وضمنها رثاء الحافظ أبى الفضل العراقى أولها :

يا عين جودى لفقد البحر بالمطر وانرى الدموع ولا تبقى ولا تذرى

وهى قصيدة طويلة مذكورة بتمامها فى حسن المحاضرة فارجع إليها إن شئت .

ترجمة العلامة الشيخ صالح بن عمر بن رسلان

وقد ترجم السخاوى فى الضوء اللامع[1] ابنه صالحا فقال : هو صالح بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح القاضى علم الدين أبو التقا ، ابن شيخ الإسلام السراج أبى حفص الكنانى العسقلانى ، البلقينى الأصل القاهرى الشافعى ، وأول من سكن بلقينة من أصوله صالح الأعلى . ولد فى ليلة الاثنين الثالث عشر من جمادى الأولى سنة إحدى تسعين وسبعمائة بالقاهرة ، ونشأ بها فى كنف والده ، فحفظ القرآن والعمدة وألفية النحو ومنهاج الأصول والتدريب لأبيه إلى النفقات . وصلى بالناس التراويح بمدرسة أبيه وعرض بعض محافيظه عليه وعلى الزين العراقى وغيرهما ، وكان متقللا من الدنيا ، غاية

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٣١٢ .

فى الذكاء وسرعة الحفظ ، لازم الاشتغال فى الفقه وأصوله والنحو والحديث ، وانتفع فى ذلك كله بأخيه وأخذ عن المجد البرماوى ، والشمس العراقى ، والعز بن جماعة وعن الشمس الشطنوفى . وحج سنة أربع عشرة،ولقى الحافظ الجمال ابن ظهيرة ، وغيره . ودخل دمياط فما دونها ، ولم يزل ملازما لأخيه حتى تقدم وأذن له فى الإفتاء والتدريس ، وخطب بالمشهد الحسينى وبغيره ، وقرأ البخارى عند الأمير إينال الصصلائى ، وألبسه يوم الختم خلعه وعاونه حتى استقر فى توقيع الدست كما وقع لأخويه . وناب فى القضاء عن أخيه بدمنهور وأنشده بعض أهل الأدب عقب عمله ميعادا بالنحرارية :

وعظ الأنام إمامنا الحبر الذى سكب العلوم كبحر فضل طافح

فشفى القلوب بعلمه وبوعظه والوعظ لا يشفى سوى من صالح

ودرس الفقه وهو شاب بالمدرسة الملكية ، ثم رغب له أخوه عن درسى التفسير والميعاد بالبرقوقية فى سنة إحدى وعشرين ، وعمل فيها إذ ذاك اجلاسا حافلا ارتفع ذكره به ، وكذا نوه أخوه بذكره فى مناظرات الهروى ، وقدمه أخوه أيضا لخطبة العيد بالسلطان الظاهر ططر حين سافر معه ، وبرز صاحب الترجمة لتلقيه من قطيا فوجد أخاه متعنفاً جداً وصادف إرسال السلطان يأمره أن يتجشم المشقة فى الخطبة لكونه أول عيد من سلطنته وإلا فليعين من يصلح فكان هو الصالح ، فخطب حينئذ بالسلطان والعسكر ، فأعجبهم جهورية صوته ، واستقر فى أنفسهم أنه عالم ، ولذلك لما مات أخوه استقر عوضه فى تدريس الخشابية والنظر عليها ، وحضر عنده الكبار من شيوخه وغيرهم ، واستمر فيها حتى مات . ورام الظاهر إخراجها عنه مرة بعد أخرى ، بل رام إخراجه من مصر جملة فما مكنه الله من ذلك كله . ثم استقر بعد صرف شيخه الولى العراقى فى قضاء الشافعية بالديار المصرية ، فى سادس ذى الحجة سنة ست وعشرين ، فأقام سنة وأكثر من شهر ثم صرف ، وتكرر عوده لذلك وصرفه ، حتى كانت مدة ولايته فى مجموع المرار ، وهى سبعة ، ثلاث عشرة سنة ونصف سنة ، وعقد الميعاد بمدرسة والده ، وتدريس الحديث بالقانبهية ، والميعاد والإفتاء بالحسينية ، والفقه بالشريفية بمصر مع نظرها ونظر الخانقاه البيبرسية وجامع الحاكم .

وكان إماما فقيها عالما ، قوى الحافظة سريع الإدراك ، طلق العبارة فصيحا ، يتحاشى عدم الإعراب فى مخاطباته بحيث لا يضبط عليه فى ذلك شاذة ولا فاذة . وكان القاياتى يقول : إنه تخطى الناس بحفظ التدريب ، وصنف تفسيرا وشرحا على البخارى لم يكمله ، وأفرد فتاوى أبيه والمهم من فتاوى نفسه ، والتقط حواشى أخيه على الروضة ، بل جمع من حواشى أبيه وأخيه عليها ، وأفرد كلا من ترجمته وترجمة والده ، وله القول المفيد فى اشتراط الترتيب بين كلمتى التوحيد والخطب والتذكرة وغير ذلك واستمر على جلالته وعلو مكانته/حتى مات بعد أن توعك قليلا ، فى يوم الأربعاء خامس ٨٢ رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ، وصلى عليه بجامع الحاكم فى محضر جمّ تقدمهم ابن الشحنة القاضى الحنفى ، ودفن بجوار والده بمدرسته الشهيرة وأقاموا على قبره أياما يقرؤن ، انتهى .

﴿ البلاص ﴾ قرية صغيرة من قسم قنا فى غربى النيل فى مقابلة قفط ، وفيها مساجد ونخيل وأشجار ، وأكثر أهلها مسلمون ، وإليها تنسب الجرار البلاصى المنتفع بها ، فى جميع بلاد مصر ، لعملها فيها بكثرة ، فيأخذون طينتها من محل مخصوص محصور بين الملق والجبل الغربى ، فينزل المطر على قطعة طفلية من الجبل ، فينحل منها طينة طفلية تختلط بطين الملق فيكون صالحا لهذا العمل . وكل صاحب دولاب له قطعة من تلك الأرض لايتعداها ، بأصول جارية بينهم ، فيعملون تلك الجرار ونحوها ويتجرون بها فى بلاد مصر ، أعلاها وأسفلها .

وبقرب تلك القرية قرية تسمى دير البلاص ، وقرية تسمى طوخ ، يتبعها كفر يقال له نجع أبى بلال ، وفى جميعها دواليب لعمل البلاص ، ولكن أشهرها فى ذلك ناحية البلاص ، وعلى كل دولاب شىء مقرر من المال يدفعه ربه لجانب الديوان كل سنة .

ونقل (كترمير) عن كتاب السلوك[1] أن مما كان يؤخذ من الأهالى لجانب

---

(١) السلوك للمقريزى ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة سنة ١٩٥٧ جـ١ ، ص ٦٦٤ ، حاشية ٢ .

الديوان أموالا تسمى زكاة الدولبة ، كانت تؤخذ من أرباب الأموال ، ومن مات أخذت من ورثته ، ثم أبطلها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى العلائى[١].

قال : والدولبة مأخوذة من الدولاب ، وهو الطارة والحلقة من ساقية أو طاحونة أو معصرة أو حلاجة أو آلة غزل أو نسج، أو فيخورة أو منكاب .

قال فى كشف الظنون : بنكابات دورية معمولة بالدواليب ا هـ ـ وهى الساعات الرملية لمعرفة الأوقات ونحوها ـ والدولبة إدارة حركة الدولاب ، فيقال دولب المطبخ للسكر أداره . فزكاة الدولبة هى ما يخصص على الدواليب والآلات التى فيها الحركة الدولابية .

وفى الخريدة لعماد الدين الأصفهانى :

وطابقها الدولاب فى حسن رمزه مطابقة الشكل الملائم للشكـل

ويطلق الدولاب أيضا على حركة عسكرية مستوية. ففى بعض كتب الفنون الحربية يقرأ بند الدولاب ، وضرب دولاب اليمين ودولاب الشمال . وفى القاموس الدولاب بالضم ويفتح ، شكل كالناعورة يستقى به الماء معرب ، والناعورة الساقية ، وقد يطلق الدولاب على البستان الذى يسقى بذلك وعلى روضة فى البستان . قال فخر الدين الرازى فى تاريخه : « كنا نتمشى فى دولاب بستان البقلى » . وقال جلال الدين بن أبى السرور ، فى تاريخ مصر : « جلس فى القصر الذى فى الدولاب » . وفى تاريخ الجبرتى ، المخبأة بالدواليب والخزانات ، انتهى .

﴿ البلينة ﴾ فى خلاصة الأثر أنها بضم الباء الموحدة وسكون اللام وبعدها مثناة تحتية فنون فهاء تأنيث، والنسبة إليها بلينى ، ونسب إليها فى الطالع السعيد بقوله البلينائى ، وعليه تكون بألف بدل الهاء . وهى قرية كبيرة من قسم برديس بمديرية جرجا

(١) نهاية الأرب للنويرى ، تحقيق د. الباز العرينى ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٩٢ ، جـ ٣١ ، ص ٩ .

على الشاطىء الغربى للنيل ، ذات أبنية متوسطة وبها جوامع ، أحدها بمنارة ، وهى مشهورة بكثرة النخل وكذلك القرى التابعة لها ، المساة ساحل البلينا ، فإن عدة نخليلها تقرب من خمس وسبعين ألف نخلة . ويزرع بأرضها قصب السكر بكثرة وبها عصارات ، وكانت سابقا فى عهدة سليم باشا السلحدار ، وبنى فيها دارا وعصارة ، وله فى غربيها بستان صغير . وكانت أرضها تشرق كثيرا فعملت لها ترعة الحمران سنة خمس وسبعين ومائتين وألف هجرية ، وجعل لها سحارة تحت ترعة الكسرة وترعة الزرزورية ، فصارت مأمونة الريّ وحصل لأهلها زيادة الفائدة . ويعمل بها قفف وزنابيل من الخوص وحصر من الحلفاء بكثرة ، ويجلب إلى المحروسة وغيرها .

ويقابلها فى شرقى البحر ناحية مزاتة التابعة لشرقى أولاد يحيى - ويأتى الكلام على لفظ سلاح دار ونحوه ، مثل دوادار فى عدة مواضع مثل سرياقوس والصالحية .

وفى خطط المقريزى ، أن تحت البلينا ديرا كبيرا يعرف بدير أبى ميساس ، ويقال أبو ميسيس واسمه موسى وكان راهبا من أهل البلينا ، وله عندهم شهرة وهم ينذرون له ويزعمون فيه مزاعم . ولم يبق بعد هذا الدير - يعنى فى الصعيد - إلا أديرة بحاجر إسنا ونقادة قليلة العمارة ، انتهى .

ترجمة العلامة الشيخ قاسم بن عبد الله

وفى الطالع السعيد[1] أن من علماء البلينا قاسم بن عبد الله بن مهدى بن يونس مولى الأنصار يكنى أبا الظاهر ، روى عن أبى مصعب بن أحمد بن أبى بكر وعن محمد بن مهدى . قال ابن يونس : قدم علينا الفسطاط فسمعته ولم يحصل لى عنه غير حديث واحد . قال : وكان من أجلة أهل بلده وأهل النعم ، وكانت كتبه جيادا ، وتوفى ببلده يوم

(١) الطالع السعيد ، الجامع أسماء نجباء الصعيد للأدفوى قاسم، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ٤٦٨

الاثنين لثمان عشرة خلت من شوّال سنة أربع وثمانمائة . ذكره ابن عدى قال : وكان بعض الشيوخ يضعفه ، قال : وهو عندى لا بأس به .

٨٣ والبلينا فى أول البر الغربى من عمل قوص ليس قبلها من العمل/إلا برديس .

ترجمة العلامة محمد بن مهدى البلينائى

ثم قال[1] :ومن علمائها أيضا محمد بن مهدى بن يونس البلينائى . سمع وحدث وروى عنه ابن أخيه قاسم المذكور . ذكره ابن يونس بن محمد بن نصير المنعوت بالكمال ، ويعرف بابن الحسام القوصى ، كان فقيها مشاركا فى النحو ، قرأ على أبى الطيب ، وتولى الحكم بدشنا وفاو وعيذاب والمرج وأعمالها . وأقام بالقاهرة مدة ، وأقام بالمدرسة الشمسية بقوص وتوفى بالمرج حاكما بها فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

ترجمة العلامة الشيخ مسعود بن محمد الأنصارى

ومن علمائها أيضا[2] مسعود بن محمد بن يوسف بن صاعد الأنصارى الخزرجى البلينائى ، اشتغل بالفقه والأدب ، وله قصائد فى المدح النبوى ، توفى فى حدود العشرين وسبعمائة ، ومن كلامه :

اغضض الطرف واللسان اكففنه وكذا السمع صنه حين تصوم
ليس من ضيع الثلاثة عندى بحقوق الصيام حقا يقوم

انتهى .

﴿ بنايوس ﴾ قرية من مركز القنيات بمديرية الشرقية ، غربى الزقازيق إلى جهة بحرى بنحو ألف وخمسمائة متر ، واقعة على البر البحرى لبحر بهنباى ، وبها مجلسان

(١) الطالع السعيد ، المرجع السابق . ص ٦٣٤ .
(٢) الطالع السعيد ، المرجع السابق . ص ٦٤٧ .

للدعاوى والمشيخة ، ومسجد بمنارة وزوايا عامرة بالصلاة ، ومكاتب أهلية ، وبها ضريح ولى الله الشيخ عطية البندارى ، يزار ويعمل له مولد كل سنة ثمانية أيام ، وتنصب فيه الخيام وتذبح الذبائح ويكون البيع والشراء ، وتجعل هناك قيساريات بدكاكين بعضها ثابت وبعضها ينقل ، وأهلها يتسوقون سوق الزقازيق . وأطيانها ألف وتسعة وخمسون فدانا وكسر ، وأهلها ألف وتسعمائة وسبع وثمانون نفسا .

﴿ بنب ﴾ قرية من مديرية الغربية .

ترجمة العلامة الحسن بن اسماعيل البنبى

وإليها ينسب كما فى الضوء اللامع للسخاوى[1] ، الحسن بن اسماعيل البدر البنبى ، ثم القاهرى الشافعى ، والد البدر محمد ، قرأ على السراج البلقينى بعض تصانيفه ، ووصفه بالفاضل العالم وأجاز له ، وأرخ ذلك فى صفر سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، وكانت وفاته بعد سنة إحدى وثمانمائة ، رحمه الله تعالى .

ترجمة العلامة محمد بن الحسن البنبى

وأما ولده البدر فهو ، محمد[2] بن الحسن بن إسماعيل البدر بن البدر البنبى القاهرى الشافعى ، ولد فى ذى الحجة سنة إحدى وثمانمائة ، ونشأ فحفظ القرآن وغيره واشتغل كثيرا ، وأخذ عن خاله البدر بن الأمانة ، والشمس البرماوى ، والولى العراقى ولازمه وكتب عنه ، وكذا سمع على الشهاب الواسطى ، وابن الجزرى ، والكمال بن خير والفوّى ، واستحضر الفقه وشارك فى غيره ، وبرع فى الشروط بحيث أنه عمل فيها مصنفا حافلا ونزل فى صوفية الأشرفية وغيرها . ولكنه ضيع نفسه حتى أن خاله البدر امتنع من

---

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ٩٦ .
(٢) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ٧ ، ٩٦ .

قبوله بعد ملازمته له زمنا وجلوسه عنده للتكسب بالشهادة لشهرته بالتجوز فى شهادة الزور ، وأدى ذلك إلى أن بنجز شيخ الإسلام الحافظ بن حجر مرسوما لشهود المراكز والنواب ونحوهم بالمنع من مرافقته وقبوله إلا ثالث ثلاثة .

ثم بواسطة انتمائه للكمال بن البارزى ، خصوصا بعد رجوعه من دمشق أول سلطنة الظاهر ، واستئذانه إياه فى عوده لتحمل الشهادة ، أعاده بل ولاطفه لأجل مخدومه بقوله : « كن من أمة أحمد ولا تكن من أمة صالح » . فأجابه بقوله : « شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ » . ومع انتمائه للمشار إليه لم ترتفع رأسه واستمر مشهور الأمر بالوقائع الشنيعة حتى آل أمره إلى المشى فى تزويره فى تركة البهاء بن حجى والدسبط الكمال الذى رقاه وحج معه ، وكان رد أله ، فطلبه الأمير أزبك الظاهرى صهر الكمال حتى ظفر به وضربه ضربا مؤلما ، وقبل ذلك رام التزوير على وكيل بيت المال الشرفى الأنصارى فبادر لإعلام الأشرف اينال بذلك ، فألزم نقيب الجيش بتحصيله فاختفى ، إلى أن سكنت الفتنة، وأحواله غير خفية . وبالجملة كان فاضلا لكنه ضيع نفسه .

قال السخاوى[١] : وقد كثر اجتماعى به اتفاقا وسمعت من فوائده وحكاياته ونوادره ، ومات فى سنة خمس وستين وثمانمائة، عفا الله عنه .

ترجمة العلامة الشيخ داود بن سليمان أبى الجود

وينسب إليها أيضا كما فى الضوء اللامع[٢]، داود بن سليمان بن حسن بن عبيد الله أبى زيادة أبو الجود بن أبى ربيع البنبى ، ثم القاهرى المالكى البرهانى ويعرف بأبى الجود ، ولد فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، أو قبلها بقليل ، ببنب من الغربية ، بالقرب من جزيرة بنى نصر ونشأ بها فحفظ القرآن والعمدة والرسالة والمختصر وألفية ابن مالك ، ثم انتقل إلى القاهرة فلازم الاشتغال فى الفقه والفرائض والعربية وغيرها .

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ٧ ، ٢١٩ .
(٢) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ٢١١ .

ومن شيوخه فى الفقه الشهاب الصنهاجى ، والجمال الأقفهسى ، وقاسم بن سعيد العقبانى المغربى ، والزين عبادة وغيرهم ، وأخذ العربية عن قارىء الهداية، والفرائض عن الشمس العراقى ، وأصول الفقه عن القايانى ، وحج فى سنة ثلاث وثلاثين ، وصحب بعض الخلفاء بمقام البرهان إبراهيم الدسوقى فاختص به ونسب لذلك برهانيا . وبرع فى الفرائض وشارك فى ظواهر العربية وغيرها . وتصدى للتدريس والافتاء وانتفع به الطلبة خصوصا فى/الفرائض ، بحيث أخذ عنه جمع من الأكابر ، وأملى على مجموع الكلائى ٨٤ شرحا مطولا فيه فوائد ، وكذا كتب على الرسالة شرحا ، ودرس بالمنكوتمرية والبرقوقية للمالكية وبغيرها ، وخطب ببعض الجوامع ، وولى مشيخة الصوفية بمسجد علم دار بدرب ابن سنقر بالقرب من باب البرقية ، واعتمدت فتياه فى الكف عن قتل سعد الدين بن بكير القبطى ، مع قيام قاضى المالكية وغيره فى قتله ، لكن بمعاونة العز قاضى الحنابلة حمية لقريبه أبى سهل بن عمار ، وعانى تحصيل الكتب ، وكان خيرا دينا مأمونا متواضعا متوددا كريما مشار إليه بالصلاح على طريقة السلف ـ يعقد القاف مشوبة بالكاف ـ مات فى ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثمانمائة وذلك بمنزله بالقرب من رحبة العيد ، ودفن بباب النصر رحمه الله تعالى ، انتهى .

﴿ بنبان ﴾ قرية من مديرية إسنا ، هى رأس قسم على الشاطىء الغربى للنيل بين إسنا وأسوان، وهى إلى أسوان أقرب وتجاهها فى البر الآخر ناحية دراو .

وفى بنبان مساجد عامرة ونخيل كثير، وأغلب أهلها أشراف مشهورون بالجعافرة ، لهم كرم وشهامة وفيهم يسار ويقتنون جياد الخيل والإبل .

ترجمة الشيخ عبد الرحيم المخزومى البنبانى

وقد نشأ منها من العلماء كما فى الطالع السعيد[1] الشيخ عبد الرحيم بن محمد بن عبد

(١) الطالع السعيد ، المرجع السابق ، ص ٣١١ وفيه البمبانى بدلا من البنبانى .

الرحيم بن على المخزومى التقى البنبانى الخطيب ، خطيب بنبان . كان فاضلا نحويا أديبا شاعرا ، قرأ النحو والأدب على الشمس الرومى ، وكان لطيفا خفيف الروح منطرحا . توفى بأسوان سنة خمس أو ست وسبعمائة .

ومن كلامه فى قصيدة يمدح بها والى قوص طقصباى ويشكو فيها حال أسوان :

لعلا جنابك كل أمر يرفع وإليك حقا كل خطب يرجع
ما كان يفعله الشنجاجى سالفا فى مصر فى أسوان حقا يصنع

وبنبان قرية من قرى أسوان.وأصله من إسنا ، وولد بأسوان ونشأ بها وأقام ببنبان ، انتهى .

﴿ بنجا ﴾ قرية قديمة من قسم طهطا بمديرية جرجا ، واقعة غربى النيل بنحو ساعة ، وبحرى طهطا بأقل من ساعة ، وأكثر منازلها على تلول عالية ، قد أخذ كثير منها الآن فى تسبيخ الأراضى . وأبنيتها من الآجر واللبن ، وأكثر منازلها على دورين ، وفى وسط جهتها الغربية تل مرتفع عن أعلى بيت فيها ، بحيث يكشف صاعده ما جاوره من بيوتها ، وفيها مضايف لعموم الناس ، وفى دار عمدتها محمود بن أحمد الشيمى منظرة مشيدة ينزل فيها الحكام . وفيها نحو ثمانية مساجد بعضها عامر وبعضها متخرب ، وجملة أرحية يديرها البقر والجاموس والأبل والخيل ، وفيها نخيل كثير .

وكان فيها داران للديوان ، كانت تنزل بإحداهما الكشاف زمن العز ، وفى زمن العزيز محمد على كانت تنزل بالأخرى حكام الجهات مثل ، ناظر القسم وحاكم الخط . وقد كانت رأس قسم مدة ، ثم صار بيع الدارين للأهالى زمن المرحوم سعيد باشا ، من ضمن ما بيع من أملاك الديوان فى جميع البلاد . وبنت الأهالى فيها أبنية ومصاطب ، كما أنه كان فى بحريها على أكثر من مائة قصبة تل مرتفع أكثر من قصبة ، وسعته نحو ثلاثة أفدنة ، باعه الديوان لعمدتها أحمد الشيمى فى ذلك التاريخ ، فجعله بستانا مشتملا على كثير من النخيل والأثل وبعض أشجار الفواكه ، وقد كان ذلك التل مقبرة يظهر أنها من

قبل الإسلام ، ذهبت أمواتها فى أخذ السباخ ، لأن أهالى هذه البلدة والبلاد المجاورة لها كانوا يأخذون منه السباخ حتى ساوى أرض المزارع .

وكان لهذه البلدة سور محيط بها فيه مزاغل لضرب الرصاص فى جميع دائره ، وكان بناؤه من اللبن وله أربعة أبواب كبار عليها أبواب من خشب النخل كانوا يتحصنون به من غارات الأعداء ، لأنها كثيرا ما كانت تقصدها الأعداء ، فكان يتحزب عليها الألوف المؤلفة من بلاد الصوامعة.لأن بلاد تلك الجهة كانت فرقتين على طرفى نقيض، صوامعة ووناتنة ، كما كانت سعد وحرام فى الجهات البحرية . وكانت لا تنقطع شرورهم وحراباتهم وتخريبهم للبلاد بالسلب والقتل . وكانت تلك البلدة متوسطة بين بلاد الصوامعة – مع أنها من حزب الوناتنة – فكانت تتحصن بهذا السور من هجومهم عليها ، وكان يقع ذلك كثيرا ، وتحصل لهم الإعانة والنصرة . فقد وقع لها سنة نيف وخمسين بعد المائتين والألف أن هجموا عليها وقت العصر فى زمن النيل ، وأرادوا إحراقها وأوقدوا النار بالفعل فى حد أطرافها ، فقام أهل البلد قومة واحدة فانكسر العدو سريعا ووقع فيهم القتل . فكان من وجد مقتولا نحو السبعة عشر غير من مات فى البحر ، ووجد فيهم واحد حيا ، وقد حضر حاكم الجهة فسأله عن كيفية مجيئهم فأخبر أنهم أهالى أربعة عشر بلدا جاؤا لإحراقها ونهبها وقتل أهلها ليستريحوا منها ، حيث أنها معترضة بين بلادهم . ثم أنهم جعلوهم فى حفرة وأهالوا عليهم التراب كدفن البهائم بلا غسل ولا صلاة ولا توجيه إلى القبلة ، لاعتقاد أنهم لعصيانهم لا يغسلون ولا يصلى عليهم ، مع أن الحكم الشرعى ليس كذلك . نعم إن كانوا مستحلين لذلك كانوا كفارا فلا يغسلون ولا يصلى عليهم ولا يستقبل بهم القبلة .

٨٥

وقد هدم ذلك السور وزالت معالمه بالمرة للإستغناء عنه بمجىء العائلة المحمدية ، حيث حصل بها الأمن وانحسمت مواد الفساد ، واستوى القوى والضعيف والوضيع والشريف ، واشتغلت الناس بأمور المعيشة ، وكثرت الخيرات فخاف الناس على أموالهم ومناصبهم . وقد كانوا قبل ذلك لفقرهم وبطالتهم ملحقين بالبهائم ، لا يخافون على

أعمارهم فضلا عن أموالهم. ولما صدرت الأوامر السنية بجمع البندق ونزعه من أيدى الأهالى سدا لأبواب الفتن، خصص على تلك البلدة من البندق بعدد ما بسورها من المزاغل، فشق ذلك عليهم حتى اشتروا جملة بنادق فوق ما عندهم وفوا بها ماطلب منهم.

وفيها عدة من أضرحة الصالحين، مثل السماطين وهم جماعة فى ساحة منخفضة فى غربيها يعتقدهم أهل البلد اعتقادا زائدا، وكانو يعملون لهم ليلة كل سنة يجتمع فيها كثير من أرباب الأشائر ومشايخ الطرق والخيالة، وقد تركت الآن. وفى وسطها فضاء متسع نحو خمسة أفدنة فيه آثار تدل على أنه كان به البلد القديمة. من ذلك أنه بالحفر فيه ظهرت آبار كثيرة متقاربة ذات أبنية متينة وماء كثير عذب، وظهرت أيضا أبنية من الطوب الكبير المضروب ما بين لبن ومحرق، وأوانى فخار كثيرة متقنة الصنعة على هيئة الأوانى الصينى. وينتصب فيه السوق كل يوم اثنين ويصلى فيه العيدان، وفيه للخطبة منبر من اللبن ملتصق بظهر ضريح الشيخ المجذوب. وعدة أهلها أكثر من أربعة آلاف نفس وأكثرهم مسلمون، وللأقباط كنيسة فى جهتها الشرقية أحدثت أوائل حكم الخديوى إسماعيل من طرف ذى ثروة من أهاليها يسمى منهرى شنودة. وفيها معمل دجاج عماله من قرية أدفا الواقعة غربى سوهاج إلى الشمال. وفيها جزارون بكثرة ونجارون وأنوال كثيرة لنسج ثياب الصوف. وبها كثير من خلايا النحل - وهذه الحرف الثلاثة خاصة بالنصارى - وفيها أيضا فيخورة صنّاعها من أهل طهطا، وفيها عدة مدافن لأموات المسلمين متفرقة فى نواحيها وفى خلالها.

ولأولاد الشيمى فى شمالها الشرقى جنينة فيها قليل من الفواكه. وزمامها نحو ثلاثة آلاف فدان غير الأباعد. وتكسب أهلها من الزرع المعتاد سيما الذرة الصيفى فلهم فيها اجتهاد زائد بحيث لا يساويهم فى إجادة زرعها إلا القليل ويزرع الستة أشخاص - ويسمون بالشدة - خمسة أفدنة يسقونها بالشادوف على عين غير مبنية بل مطوية بلبشة من الجريد. فإن سلم الزرع من الآفة ومنعت الموانع الموجبة لعطشها جاء محصول الخمسة أفدنة نحو تسعين معشرة، يأخذ صاحب الأرض إردبا أو أكثر فى كراء العين،

ويخرج منها أجرة الحرث والتسبيخ ، ثم يأخذ ربع الباقى فى حصة أرضه ، ثم يقسم الباقى على الشدة ، فينوب الواحد منهم نحو عشر معشرات ـ والمعشرة أردب إلا سدسا ـ ولهم معرفة تامة بالفلاحة ، بفتح الفاء ، كما فى القاموس ، وهى حرث الأرض .

والعادة عند أكثر فلاحى مصر أو جميعهم ، أن يجعل الغيط عند الحرث مراجع ، ويسمونها مراجع البقر ـ واحدها مرجع ـ وهو مساحة مقدرة طولا فقط ، ويختلف عرضه بسبب سعة الغيط ، فيجعلون طول المرجع عشر قصبات ثم يقطعونه دهايب يخط بالمحرات معتدلا ، وعرض الدهيبة قصبتان فى طول المرجع ، وإنما أضيف المرجع للبقر لأن حكمته الرفق ببهيمة الحرث ، والبقر هو الغالب فى إثارة الأرض ، لأن طول الخط يورثها الضعف والهزال . فجعلوا لها ذلك لتستريح عقب كل خط ، لأن الحرات ينزع المحرات فى رأس المرجع ويدير البقر ثم يغرزه فى الأرض ويسوق البقر إلى الرأس الآخر وهكذا فيحصل لها بذلك نشاط،كما يفعل مثل ذلك كل ذى عمل ، حتى المسافر يجعل سيره محطات وفراسخ ، والمؤلف يجعل كتابه أبوابا وفصولا .

ونقل (كترمير) عن كتاب السلوك للمقريزى ، أن المرجع قياس من الأقيسة ، استعمل فى البلاد الغربية من بلاد الإسلام،وكان طوله خمس خطوات وخمس أثمان خطوة وذلك عبارة عن ثمانية أذرع وثلث ، اهـ .

وهذا ليس هو مرجع الفلاحة المصرية . وقال أيضا : والمرجع يذكر كثيرا فى كتاب الزراعة لابن العوام وفيه ، أن الأرض السهلة يحفر المرجع منها ثلاثة رجال فى يوم واحد اهـ .

قلت : مراد بالحفر قلب الأرض لتنقية الزرع من الحشائش ، ويكون ذلك بالفأس المنساة بالطورية ، ويسمى ذلك الحفر عزقا ، بالعين المهملة والزاى والقاف .

وفى موضع آخر من كتاب الزراعة : المرجع الذى هو ثلاثون باعا ، وفى موضع يبذر فى أرض اشبيليا فى المرجع من الأرض من ثلث قدح إلى ثلثين .

وقال أيضا : ويبذر فى المرجع نحو من قدح واحد ، اهـ .

وأما الدهيبة ففائدتها راجعة للبذر، فيستعين بها الباذر على اتقانه وموازنته ، فيبذر فيها على حسب الأرض ، فإن الأراضى تختلف فى طلب البذر قلة وكثرة ، فقد يحتاج الفدان إلى نصف أردب من القمح أو أكثر وذلك فى الأرض الزرقاء ، وقد يكتفى بويبة كما فى بعض أراضى الجزائر ، وللباذر فى حال بذره خطوات متوازنة / ويبذر بيده اليمنى بقوة ٨٦ متوازنة ، فيكون بذره فى نصف عرض الدهيبة ثم يرجع فيها فيبذر النصف الآخر ، وذلك بعد تشقيق الأرض تشقيقا غليظا واسعا ـ ويسمى برشا وبراشا ـ وبعد البذر تشقق ثانية لتغطية البذر تشقيقا بليغا بحيث تنحل الأرض وتتقلب طبقة من وجهها ـ ويسمى ذلك رداورداد ـ وقد يكتفى فى الحرث وإثارة الأرض بتشقيقها مرة واحدة مبالغا فيها بعد بذرها بلاطا ـ ويسمى ذلك أخذا بالسكة ـ وذلك إذا كانت الأرض سهلة صفراء الطينة ، وأكثر ما يكون ذلك فى زرع الشعير والعدس ونحوهما ، أما البرسيم ونحوه فالغالب زرعه من غير إثارة للأرض ، بل يبذر حبه بعد نزول الماء عن الأرض قبل جفافها ، ثم يغطى بآلة من الخشب ـ تسمى لوحا ـ ويسمى ذلك تلويقا ، وإذا طال مكث الماء على الأرض إلى نصف شهر بابه فأكثر ، صح زرع الفول والقمح لوقا بلا إثارة للأرض بل يكون ذلك فى الفول أجود وأكثر متحصلاً .

ثم إنه يمر الآن فى وسط هذه البلدة فرع من تلغراف الوجه القبلى المار فى الحاجر الغربى ، يتفرغ عند نزل القاضى من بلاد الهلة على جسر كوم بدر ، مشرقا إلى أن يشق بنجا فيستقيم مقبلا إلى أن يرد المحطة فى مدينة طهطا .

ومن حوادث هذه البلدة أنه فى أوائل نزول أحمد باشا طاهر حاكما على الصعيد قبل سنة ١٢٤٠ ، كان بها عمدة مشهور يدعي حسن بن أبى زيد ، كان كريما شجاعا مقداماً ، ووقعت له عدة شدائد منها ، أنه فى هذا التاريخ حصل تشاجر فى سوق هذه البلدة بين بعض الأهالى والعساكر ، فتطاول الأهالى على العساكر وضربوهم ، ثم تغلب

العساكر عليهم ، ففر الأهالى ، وأمسك العسكر بعضا من فقراء نساء البلد وأخذوهن إلى طهطا محل إقامة الكاشف ، فخاف الأهالى العار وخرجوا عليهم وأطلقوا منهم النساء ، ثم أخبر العساكر الكاشف بما حصل وهوّلوا له الواقعة ، ونسبوا أمر ذلك إلى العمدة المذكور ، وهو فى الواقع برىء ، فامتلأ منه الكاشف غيظا ، ورفع الشكاية إلى أحمد باشا ، وكبّر عنده الجريمة وأفهمه أنه رأس الفساد غليظ القلب غير منقاد إلى الأحكام ، فأضمر له الباشا السوء وأهدر دمه ، لما وقع فى قلبه من صدق الخبر ، وكان من عادته أنه إذا أراد إنسانا بسوء أغار عليه وقتله ، فأحس ذلك العمدة بتوعده ، ففر من البلد بأبنائه الكبار وبقى كذلك مدة ، حتى لقيه بعض أصحابه من العساكر ، فحذره من الرجوع ، وقال له عما قليل تحصل الإغارة على بلدتك لأجلك، فلم يمض إلا يسير حتى أرسل إليها الباشا أرطة من العبيد فأغاروا عليها ليلا ، وأحاطوا بها إلى الصباح ، وحضر الباشا صبيحتها ، ودخل العبيد البلد فجمعوا كافة أهلها ذكورا وإناثا خارج البلد ، وجرى فيهم الزجر على إحضار ذلك العمدة ، وكان كثير من الناس مختفيا فى مطامير تحت الأرض ، ففتن بعضهم على بعض فأخرجوا من المطامير وفيهم جماعة من مشايخها ، فأمر الباشا بالتنشين على بعض المشايخ وأقاربهم فقتل منهم بالرصاص اثنين ، وكان عازما على قتل كثير منهم إن لم يحضروا ذلك العمدة ، فأغاثهم الله بالعسكرى الذى كان قد اجتمع به فى غيبته ، فأخبر الباشا أنه رآه فى أقصى الصعيد وأن أهل البلد لا يعرفون مكانه ، فعفا عن بقية الناس وخلى سبيلهم ورحل عنها بعساكره . وبقى العمدة هاربا مدة أشهر وليس فى منزله إلا النساء والأطفال ، ثم إن أكبر أولاده عبد الرحمن خاف على الأموال والعيال ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فأخذ كفنه على رأسه وسافر إلى أحمد باشا ، ودخل عليه فى بلاد ملوى ، فقبله وأمره أن يعمر فى البلد مكان أبيه ، ثم بعد مدة سافر أبوه أيضا بكفنه إلى الباشا ولم يتوسط إليه إلا بقدمه وكاتبه ، فلما دخل عليه عرفه وعفا عنه وعرف أنه كان متهما بالباطل وأعطاه الآمان ، وكف عنه أذى الحكام . ثم بعد ذلك بقليل جعل حاكم خط فأقام كذلك أربع سنين وكان متجافيا عن الظلم حسن السلوك ، إلا أن أولاده لم يسيروا بسيره بل تطاولوا على أهل البلد وأسرفوا فى أذاهم ، حتى حمل ذلك

أهل البلد على أن تحزبوا على قتله ، ودبروا ذلك سرا فعملوا حيلة بأن قطعوا جسرا من الجسور التى فى محافظته فى أيام ركوب النيل للأراضى ، وأنهوا إليه خبر القطع فخرج إليه فارسا مسرعا ، وكانوا قد كمنوا له بالسلاح فضربوه بالرصاص فقتل نهار سنة خمس وأربعين ولم يعلم قاتله .

وكان إذ ذاك حاكم تلك الأقاليم شريف باشا الكبير ، وكان عنده بمنزلة ، فأمر بنفى نصف أهل البلد وهدم بيوتهم وحرث مكانها ، فنفوا مدة . ثم ظهر قاتله فصلب فيه اثنان ورجع باقيهم إلى محله . واستمر ابنه عمدة على البلد ، وكان غليظ القلب لا ينقاد لأصاغر الحكام فكرهوه ، وتسبب عن ذلك أخذه فى التقهقر وظهور غيره شيئا فشيئا ، إلى أن صار عمدّها الآن أولاد الشيمى ، فصار بيتهم من البيوت المشهورة ، وبنوا أبنية مشيدة وملكوا أملاكا كثيرة ، ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾[1] ، وهذا العمدة هو حسن بن أبى زيد بن حسين بن محمد بن على مرتين .

ترجمة الشيخ هارون

والآن ابن ابنه الشيخ هارون بن عبد الرازق بن حسن المالكى مقيم بالأزهر ٨٧ للإفادة والاستفادة ، أخذ عن شيخ/المالكية الشيخ محمد عليش ، أكبر المتمسكين بسنة النبى ﷺ ، وعن الشيخ أحمد منة الله المالكى ، وعن الشيخ أحمد أبى السعود المالكى الإسماعيلى ، قطب زمانه ، وعن الشيخ منصور كساب العدوى ، والشيخ محمد قطة العدوى المالكيين ، وعن الشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الانبابى ، والشيخ محمد الخضرى الشافعيين ، وأخذ بعض البخارى عن الشيخ إبراهيم السقاء الشافعى ، وعن الشيخ على محمد فرغلى الأنصارى بطهطا ، وعن جم غفير من مشاهير الأزهر فى وقته ، رضى الله عنهم ، كما أخبر هو عن نفسه ، وهو الآن من جملة المعلمين بالمدارس الملكية .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٤٠ .

ويتبع هذه القرية كفر صغير فى قبليها فوق الجسر الذاهب إلى طهطا ، فيه ضريح ولى يسمى بالشيخ عامر ، يقال إنه من ذرية أبى الحجاج الأقصرى الشهير . وكفر صغير أيضا فى بحريها فى داخل نخليها ، يسمى السبائكة ، يزعم سكانه أنهم من ذرية سيدى أبى مدين التلمسانى ، رئيس الأربعين الذين أتوا من بلاد المغرب .

ويتفرع منها أربعة جسور ، هذا وجسر يصل إلى ترعة شطورة بعد مروره على قرية عرب بخواج ، وهى قرية صغيرة فيها نخيل ومساجد ، وفيها مقابر نصارى بنجا والبلاد المجاورة لها . وجسر يصل إلى الجبل الغربى تقطعه الترعة السوهاجية ، وفوق السوهاجية بالشاطىء الشرقى فى بحرى هذا الجسر قرية بنى حرب ، وهى قرية صغيرة حسنة البناء كثيرة النخيل ، وأهلها أكثر من ألف نفس أكثرهم مسلمون . والجسر الرابع يخرج منها مبحرا فيمر على نجع الشيخ أحمد ، وهى قرية تشبه بنى حرب ، وفيه بيت عمدتها أحمد سلامة ، مشهور بالكرم ، ثم على قرية المدمر .

وبواسطة تلك الجسور تجد طرق بنجا مستعملة دائما ، لا فرق بين زمن النيل وغيره ، فلذا فى أيام النيل يكون بها كثير من الغرباء والطوائف مثل الحلب والتتر والأحمدية ، ويتفرع منها فى غير أيام النيل عدة طرق منها ما يوصل إلى قرية الوقات فى بحريها ، وهى قرية صغيرة ، ثم إلى عزبة مشطا ، ثم إلى طما ، ومنها ما يوصل إلى قرية الشيخ زين الدين فى شرقيها ، وهى قرية صغيرة بينها وبين النيل أقل من ساعة وفيها نخيل كثير ، وفيها منظرة حسنة للشيخ محمد زين الدين . وللمذكور ولدان من علماء المسلمين ، لهم درس دائم فى جامع الشيخ زين الدين الذى سميت القرية باسمه ، وهو جامع قديم ، وقد جدده لطيف باشا سنة ١٢٨٩ .

وفيها نصارى كثيرون فى حارات مخصوصة ، يشبهون نصارى البنادر ، منهم كتبة وصيارفة ، وفى جنوبها الغربى كنيسة إفرنجية . وفيها أنوال لنسج الصوف ، وربما نسجت فيها ملاآت القطن المصبوغ ، وفيها معمل دجاج . وتكسب أهلها من الزرع كما جاورها من البلاد مثل قرية السوالم فى قبليها ، وقرية شطورة فى بحريها ، وهى قرية على شاطىء

النيل الغربى ـ وقيل إنه أكلها مرارا ثم تباعد عنها الآن ـ وهى أصغر من بنجا وأغلب أبنيتها من الطين ، وجدد فيها الآن بناء الآجر واللبن ، ونخيلها كثير ومساجدها عامرة ويزرع فى أطيانها البطيخ والدخان والذرة النيلية . وفى بحريها قرية العتامنة ، ثم قرية مشطا .

ومن عوائد تلك القرى ككثير من البلاد المجاورة لها ، أن يلبس أغلب الرجال قلانس من صوف أبيض تسمى باللبدة تصنع فى بندر طهطا والغنائم وطما ـ وصنعة الغنائم أجود وأرغب عندهم ـ فيتخيرون الصوف الأبيض الناعم ويندفونه ثم يفرمونه كفرم الدخان المشروب ، ثم يصنعونه بالصابون ، فيديم الصانع دلكه بالصابون حتى يتلبد ويصير بالهيئة المطلوبة ، ويتنافسون فى تحسينها وتقويتها ـ حتى قيل إن بعض اللبدات يقف الرجل عليها ولا تنثنى ـ وبعضها يجعل صنوبرى الشكل ، والأغلب ما يكون أعلاه كأسفله فى السعة أو أضيق قليلا . ومنهم من يتعمم بالبلين ـ بشد اللام ـ وهو ما ينسج من غزل الصوف الأبيض الغليظ ، وقد يكون فيه خطوط سود ، ويجعل عرضه نحو ثلث ذراع فى طول نحو خمسة أذرع ، ويكون نسجه مسترخياووزنه أكثر من نصف رطل ، ويجعلون للعمامة قبلة ، ويجعلونها ذات اعوجاج ، لها زاويتان عن اليمين وعن الشمال ، وقد قل ذلك اليوم ، وكاد لا يوجد . ويلبسون ثياب الصوف بجميع ألوانه زعابيط ودفافى ، إلا الأبيض فلا يجعل زعبوطا إلا مصبوغا بالنيلة ونحوها . ومنهم من يلبس تحت الصوف ثوب قطن أو كتان فيكون الصوف دثارا والقطن شعارا . ومنهم من يلبس الصوف منفردا وهم الفقراء ، بل فقراء النساء ربما لبسن الصوف منفردا.فقد قيل إن نساء ناحية شطورة كن قبل زمن العزيز محمد على لشدة فقرهن يلبسن زعابيط كهيئة زعابيط الرجال ، فكانت لا تميز ملبوسها من ملبوس زوجها إلا بالرزة ، وهى الخرزة التى تجعلها فى جيبها والعروة التى تدخل فيها .

ومؤنتهم فى الغالب الذرة والشعير وقليل القمح ، ويخلطون الذرة بقليل من الحلبة

يرونها مصلحة لها ، فيخلط على الويبة الذرة نحو نصف صاع من الحلبة . ومن أفخرفطوراتهم القدوسية وتسمى بالسكسكية ، وقد سبق وصفها فى الكلام على أم دومة[١] .

ويطبخون فى قدور النحاس وأبرمة الهمر ، وهى أوانى / على هيئة القدور ٨٨ الصغيرة ، تتخذ من الطين المخلوط بالهمر ، وهو نوع من الحجر ناعم يسحق ويخلط به الطين فيكون هو النصف أو أكثر . وكذا يأكلون فى أوانى من الهمر تسمى المراجيس ، ويستعملون كثيرا من أنواع الفخار ، مثل الطواجن والمواجير والزبادى والقلل والكيزان ـ التى تسمى عندهم المناطيل ـ يشربون فيها ، ويعجنون فى القعاديات ـ وهى مواجير كبيرة تسع الواحدة ويبة عجين وأكثر ـ وكانوا فى السابق يستعملون النحاس قليلا .

وبالجملة فأغلب ما يستعمله أهل تلك البلاد وغيرها من بلاد القطر ، من ملبوس وغيره ، كان من مصنوعاتهم من منسوج الكتان والقطن الغليظ ونحو ذلك ، وكان الوارد من البلاد الأجنبية قليلا .

ولما جاءت العائلة المحمدية وحصلت الألفة بين مصر والبلاد الأجنبية ، تواردت الأشياء من تلك الجهات ، وكثرت فى مصر الخيرات والبركات ، فلبس أهل مصر الملابس الفاخرة ، فلبست نساء الأكابر الطرابيش عليها أقراص الذهب وعصائب الحرير المحلاوى ، وملآت الحرير والثياب الحرير الإسكندرانى الذى ينسج من الحرير الغليظ فى ناحية ادكو ، وبعضهم يلبس ثياب المقصب ورقائق الحرير ، بعد أن كن يلبسن على رؤسهن البرانس القطن المرصعة بالودع . وصار الرجال يلبسون الجوخ والقطانى ، ويتعممون بالشاش الرفيع ، وكان استعمال التلى قليلا فكثر ـ وهو خيط الفضة ـ تجعله نساء الصعيد فى الثياب ، فيجعلن فى الثوب من مثقال فأقل إلى ثلاثين مثقالا ، فتخيط به المرأة جيب درعها نحو إصبعين من كل جهة ، وتجعل الجيب مستطيلا يبلغ سرتها ،

---

(١) انظر الخطط التوفيقية ط ٢ ، مركز تحقيق التراث ١٩٩٠ ، جـ ٨ ،ص ٢٧٢ .

ولا تكتفى بذلك بل تجعل التلى طرازا تحت الجيب حتى يحازى الطراز فرجها ، وتجعله فى هيئة شجرة أو قرصا قدر الرغيف ، وتجعل على كتفيها كذلك ، وتطرز به خياطات الدرع ، وكذلك يجعلن فى ضفائر رؤسهن فروع الحرير الأحمر المضفورة ، فتجعل ضفائر رأسها نحو عشر ضفائر ، وتجعل فى كل ضفيرة فرعا فيه ثلاث خيوط مضفورة وترخيه من خلفها فيبلغ كعبيها ، وربما خرجت كذلك ، لتستقى من البئر أومن البحر ، لأن عادة أكثر البلاد أن الاستقاء على النساء ، فيخرج كثير من النساء متبرجات بزينتهن ، ويعدون استقاء الرجل عيبا وهذا فى غير الأكابر . وأما الأكابر فلا تخرج نساؤهم بل لهم خادم سقاء من الرجال ، لكن لا يتحرجون من دخوله ، بل يدخلون البيوت من غير استئذان ، وكذلك باقى الخدمة لا سيما النصرانى ، فيدخل بيت بدويه فى أى وقت من غير استئذان ، بل يعدون الاحتجاب منه عيبا ، احتقارا له كالعبد المملوك .

﴿ بنها ﴾ مدينة هى رأس مديرية القليوبية على الشاطىء الشرقى لبحر دمياط ، فى غربى آثار مدينة اتريب ، ويقال لها بنها العسل لما سيأتى . وبها ديوان المديرية ، والمجلس ، والضابطية ، وحكيم باشا ، وباشمهندس ، والمحكمة الشرعية . وبها سوق دائم وحوانيت مشحونة بالمتاجر فى الشارع الموصل لديوان المديرية والمحطة . وبها وكائل ومساجد عامرة أحدها بمنارة . وفيها أبنية مشيدة ، وفى بحريها سراى المرحوم سعيد باشا التى بناها عباس باشا لنفسه ، وهى التى استشهد فيها ، ثم اشتراها سعيد باشا ، وهى الآن فى ملك ورثته . وبجوار السراى محل كان معدا لنزول المسافرين ، والآن بنى به الخديوى إسماعيل المدرسة الأهلية لتعليم الأطفال اللغات والرياضة والخط والقرآن ، وفيها نحو مائتين من أولاد الأهالى ، يصرف عليهم من الإحسانات الخديوية مع ما هو مفروض على أهالى الأغنياء منهم جريا على قوانين المكاتب الأهلية . وعندها محطة حافلة للسكة الحديد على الفرع الطوالى وفرع الزقازيق . وعندها أيضا كبرى حديد موضوع على البحر يمر عليه وابور السكة الموصل إلى الإسكندرية . وبها أرحية تديرها جيوأنات ، ووابورات لحلج القطن والطحين لجماعة من الدول المتحابة ، وبها معاصر للزيت لبعض أهاليها .

وسوقها العمومى كل يوم أحد ، وفيها أرباب حرف كثيرة وتجار ، ويزرع فى أرضها الذرة الطويلة بكثرة والقطن قليلا ، وأكثر أهلها مسلمون ويسكنها بعض الإفرنج .

والظاهر أن هذه البلدة عامرة من قبل الإسلام ، لما اشتهر أنه عليه الصلاة والسلام لما أهدى إليه المقوقس هديته التى من ضمنها شىء من عسل بنها ، قال : « بارك الله فى عسل بنها » ، وهى إلى الآن فيها بقايا خلايا النحل وكذلك القرى القريبة منها مثل مرصفا وكفر النصارى . وعسل تلك الجهة مشهور بصدق الحلاوة وجودة اللون .

وكثير من قراها التى إلى جهة النيل مثل ، أجهور ، والعمار ، وسيفة ، وكفر منصور فيها شجر البرتقال والتين البرشومى والخوخ والليمون بكثرة ، حتى إن زرع غير الأشجار بها قليل . كما أن ناحية بيسوس وأبى الغيط ونحوها تكثر من زرع البطيخ والشمام ، والقرى التى تجاور مصر من بلادها تكثر من زرع الخضر ، وقصب السكر .

ومع جودة أرض تلك البلاد هى قليلة الماء لعلوها ، ولذا ترى عناية الجناب الخديوى عملت الطرق فى تكثير مائها على الوجه الذى يكون به نفعها وتقر به عيون أهلها ، كما هى عوائده السنية .

حادثة الشيخ سليمان البنهاوى

وفى / الجبرتى من حوادث سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف[1] ، أن رجلا ظهر بناحية بنها العسل يعرف بالشيخ سليمان ادعى الولاية وأقام مدة فى عشة بالغيط ، فاعتقد فيه الناس السلوك والجذب ، واجتمع عليه الكثير من أهل القرى والبلدان ونصبوا له خيمة وصاروا يجتمعون عليه ويعظمونه ويحتفلون به لاعتقادهم ولايته وصلاحه ، واستمر على ذلك مدة حتى أقبلت عليه الدنيا وكثر جمعه ، وتواردت عليه النذور والهدايا ، وصار

٨٠

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٦٧ .

يكتب إلى النواحى أوراقا يستدعى منهم القمح والدقيق ويرسلها مع المريدين ، يقول فيها : الذى نعلم به أهل القرية الفلانية حال وصول الورقة إليكم تدفعون لحاملها خمسة أرادب قمحا أو أقل أو أكثر ، برسم طعام الفقراء ، وكراء الطريق المعين ثلاثون رغيفا أو نحو ذلك ، فلا يتأخرون عن إرسال المطلوب فى الحال. وصار أولاده وأتباعه ينادون فى تلك النواحى بقولهم : لا ظلم اليوم ، ولا تعطوا الظلمة شيئا من المظالم التى يطلبونها منكم ، ومن أتى إليكم فاقتلوه . فكان كلما ورد أحد من العساكر المعينين إلى تلك النواحى لطلب الكلف والفرضة المجعوله عليهم ، طردوه وفزعوا عليه وإن عاند قتلوه ، فثقل أمره على الكشاف والعساكر . وصار له عدة خيام وأخصاص ، واجتمع لديه من المردان نحو مائة وستين أمرد ، وغالبهم أولاد مشايخ بلاد ، وكان إذا بلغه أن البلد الفلانية فيها غلام وسيم الصورة أرسل بطلبه فيحضرونه إليه فى الحال ، ولو كان ابن عظيم البلدة ، حتى صاروا يأتون إليه من غير طلب ، واجتمع عنده الكثير من جنس المردان وكذلك ذوو اللحى ، وعمل للمردان عقودا من الخرز الملوّن فى أعناقهم وأقراطا فى آذانهم .

ثم إن رجلا من فقهاء الأزهر من أهالى بنها ، يقال له الشيخ عبد الله البنهاوى ادّعى دعوى على أطيان مستأجرة من أراضى بنها أنها كانت لأسلافه ، وأن الملتزمين بالقرية استولوا عليها من غير حق لهم فيها ، وتخاصم مع الملتزمين ومشايخ البلد ، وانعقد بسببه مجالس،ولم يحصل منها شىء سوى التشنيع عليه من المشايخ الأزهرية والسيد عمر النقيب. ثم بعد ذلك كتب عرضحال ورفع أمره إلى كتخدا بيك والباشا ، فأمر الباشا بعقد مجلس بسببه ، وأمر بحضور السيد عمر والمشايخ فعقدوا المجلس وحضر المشايخ ولم يظهر له حق فأخبروا الباشا أنه غير محق . ثم سافر إلى بلده وذهب إلى الشيخ سليمان المذكور ، ومدح له مصر وحسّن له الحضور إليها وأغراه على ذلك . وقال له : متى وصلت اجتمع عليك المشايخ وأهالى البلد من عمد وتجار وصناع وغيرهم ، ويكون على يدك الفتوح ويكون لك صيت عظيم. فحينئذ أطاع شياطينه وحضر إلى مصر برجاله وغلمانه ومعهم الطبول والكاسات ، ودخلوا المدينة على حين غفلة وبأيديهم

الفراقل يفرقعون بها فرقعة متتابعة ، ومازالوا على ذلك إلى أن دخلوا المشهد الحسينى وجلسوا بالمسجد يذكرون ، ودخلوا بيت السيد عمر مكرم وهم يفرقعون ، وأقاموا بالمسجد إلى العصر. فدعاهم إنسان من الأجناد يقال له إسماعيل كاشف أبو مناخير ، وكان له فى الشيخ المذكور اعتقاد فذهبوا معه إلى المنزل فعشاهم وباتوا عنده. ولما طلع النهار ركب الشيخ بغلة الجندى وذهب بطائفته إلى ضريح الإمام الشافعى ، وجلس بالمسجد مع أتباعه يذكرون ، فبلغ خبره كتخدا بيك فكتب تذكرة وأرسلها إلى السيد عمر بطلب الشيخ المذكور للتبرك به وأكد فى الطلب ، وكان قصده أن يفتك به ، فعلم السيد عمر ما يريد فأرسل إليه يقول له : إن كنت من أهل الكرامة فأظهر كرامتك وإلا فاذهب وتغيب . وكان صالح أغاقوج لما بلغه خبره ركب فى عساكره وذهب إلى مقام الإمام الشافعى ، وأراد القبض عليه ، فخوّفه الحاضرون وقالوا له لا ينبغى التعرّض له فى ذلك المكان فإذا خرج فدونك وإياه ، فعند ذلك خرج ينتظره بقصر شويكار فتباطأ الشيخ إلى قريب العصر ، ثم خرج من الباب القبلى وتفرّق عنه الكثير من المجتمعين عليه ، فذهب إلى مقام الليث بن سعد ، ثم سار من ناحية الجبل وذهب أتباعه وغلمانه إلى بيت إسماعيل كاشف الذى باتوا به. ولما وصل إلى ناحية الصحراء لحقه الحاج سعودى الجناوى مختفيا وبلغه رسالة السيد عمر ورجع إليه فوجد كتخدا بيك وصالح أغا حضرا إلى السيد عمر يسألانه عنه فأخبرهما أنه ذهب ولم تلحقه المراسيل ، فاغتاظ الكتخدا ، وقال : نرسل إلى كاشف القليوبية بالقبض عليه وانصرفوا. وقصدت العساكر بيت إسماعيل كاشف المذكور فقبضوا على الغلمان وأخذوهم إلى دورهم ولم ينج منهم إلا من كان بعيدا أو هرب ، وتفرقت أتباعه ذوات اللحى. وأما الشيخ فسار من طريق الصحراء حتى وصل إلى بهتيم ، وذهب إلى نوب ، فعرف بمكانه الشيخ عبد الله البنهاوى ، الذى كان أغراه على الحضور إلى مصر ، ولما سقط فى يده تبرأ منه . وذهب إلى الكتخدا وطلب له أمانا وأخبره أنه مختف فى ضريح الإمام الشافعى فأعطاه أمانا / وذهب به إليه وأحضره ٩٠ من نوب ، فلما حضر عند الكتخدا قال له : أرخ لحيتك واترك ما أنت عليه ، وأقم ببلدك وأعطيك طينا تزرعه ، ولا تتعرض لأحد ولا أحد يتعرّض لك ، والشيخ ساكت لا يتكلم

وصحبته أربعة من تلامذته هم الذين يخاطبون الكتخدا أو يكلمونه . ثم أمر أشخاصا من العساكر بأخذه ، فأخذوه وذهبوا به إلى بولاق وأنزلوه فى مركب وانحدروا به ، ثم غابوا حصة وانقلبوا راجعين ، وبعد ذلك تبين أنهم قتلوه وألقوه فى البحر وقتلوا من كان معه إلا واحدا ألقى بنفسه فى البحر وسبح فى الماء وطلع البر وهرب وانقضى أمره ، انتهى .

﴿ بنهو ﴾ بموحدة فنون فهاء فواو ، قرية صغيرة من قسم طحطا بمديرية جرجا ، قبلى بندر طحطا بأقل من ساعة فى داخل حوض بنهو وبنى عمار . وأكثر أهلها مسلمون وفيهم كرم وبشاشة ، ولهم مضايف حسنة ، ولهم اعتناء بالصلاة والأذان والأذكار ، فلذا يوجد بها أربعة مساجد عامرة نظيفة ، ويصلون الجمعة فى واحد منها وهو أقدمها ، وفوق بعض دورها أبراج حمام ونخيلها كثير حولها وفى داخل المنازل . ويتسوّقون من سوق طحطا يوم الخميس . وعدة أهلها ذكورا وإناثا نحو الألفين ، وتكسبهم من الفلاحة .

وفى غربيها بنحو ربع ساعة قرية بنى عمار على الجسر الخارج من طحطا المعروف بجسر بنى عمار ، وهى أصغر من بنهو وأوصافها كأوصافها . وغربى بنى عمار بأقل من ساعة قرية عنيبس على جسر عنيبس . وغربى عنيبس بأقل من ساعة ناحية نزة تفصل بينهما ترعة السوهاجية .

﴿ بنود ﴾ قرية من قسم قنا ، كانت قديما رأس قسم ، وأغلب أبنيتها من الآجر ، وبها جامع بمنارة ، وأبراج حمام ، ولها سوق يجتمع فيه خلق كثيرون . وهى على الشاطىء الشرقى من النيل ، وناحية الخربة فى بحريها على نحو ساعتين ، وتجاهها فى الغرب ناحية البلاص المشهورة بعمل جرار الفخار ، وكذا دير البلاص الواقع فى غربيها إلى بحرى ، على نحو نصف ساعة ، وناحية الزوايدة بحرى طوخ ، فإن جميع الجرار المنتشرة فى القطر من هذه البلاد ، ويصنعون أيضا أوانى من الفخار مثل المناقد والقلل والقسوط وغيرها من الأوانى المستعملة فى الأرياف ، وقد تكلمنا على تلك الصنعة وطينتها فى الكلام على ناحية البلاص ، وبهذه القرية شجر المقل بكثرة ـ كقرية الدير ـ وفيها جناين وفى قرية طوخ أيضا جنينة لعمدتها متسعة ذات فواكه .

﴿ بنوفر ﴾ قرية من مديرية الغربية بمركز كفر الزيات، موضوعة بجوار الشاطىء الشرقى لبحر رشيد، غربى كفر الزيات بنحو ثلاثة أرباع ساعة، فى مقابلة كفر مجاهد الذى على الشط الغربى للبحر، وأبنيتها كمعتاد الأرياف، وبها جامع من غير منارة. وبها جملة من النخيل، وتكسب أهلها من الزرع.

ترجمة الشيخ محمد البنوفرى المالكى

وينسب إليها كما فى ذيل الطبقات للشعرانى، الإمام الصالح، الورع الزاهد الخاشع الناسك، الشيخ محمد البنوفرى المالكى. رضى الله عنه. قال: صحبته سنين عديدة فرأيته على قدم عظيم فى هضم النفس وكثرة التواضع والتورع فى اللقمة، لا يأكل لأحد طعاما إلا إن علم منه كثرة الورع فى كسبه، وله تهجد عظيم فى الليل وحال مع الله عز وجل. وكان العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن الأجهورى يحبه ويبالغ فى محبته وفى الثناء عليه، ويصفه بالزهد والورع والخوف من الله عز وجل. أخذ العلم عن جماعة من العلماء، كالشيخ ناصر الدين اللقانى، والشيخ عبد الرحمن الأجهورى، والشيخ فتح الدين الدميرى، والشيخ نور الدين الديلمى وغيرهم، فأحبوه وأجازوه بالإفتاء والتدريس. ولم يزل مكبا على الاشتغال بالعلم والعمل، غير ملتفت إلى شىء من أمور الدنيا، طارحا للتكليف محبا للخمول، كارها للشهرة، يلبس ما وجد ويأكل ما وجد، لا يكاد يعرف أحد أنه من العلماء. وسمعته مرات يقول: والله ما أرى جميع ما تعلمته من العلم إلا حجة علىّ يوم القيامة لعدم العمل والإخلاص فيه وما سمعته قط يذكر أحدا بغيبة لا عدوا ولا صديقا، فأسأل الله تعالى أن يزيد من فضله وينفعنا ببركاته أمين.

ترجمة السيد مصطفى البنوفرى الحنفى

وإليها ينسب أيضا كما فى الجبرتى[1]، العلامة الفقيه السيد مصطفى بن أحمد بن محمد البنوفرى الحنفى، أخذ الفقه عن والده، وعن السيد محمد بن أبى السعود،

(١) تاريخ الجبرتى، المرجع السابق، جـ٢، ١٠٦.

والشيخ محمد الدلجى ، وحضر المعقول على الشيخ عيسى البراوى وغيره ، ودرس فى محل والده بالقرب من رواق الشوام ، إلا أنه لم يكن له حظ فى الطلبة ، فكان يأتى الجامع كل يوم ويجلس وحده ساعة ثم يقوم ويذهب إلى بيته بسويقة العزى ، وكان لا يعرف التصنع وفيه جذب ، ويعود المرضى كثيرا الأغنياء والفقراء ، توفى سنة تسع وتسعين ومائة ،انتهى .

﴿ بنويط ﴾ قرية قديمة فى مديرية جرجا بقسم سوهاج ، على تلول عالية قبلى طحطا ، بنحو ساعة ، وغربى ناحية المراغة كذلك ، وشرقى ناحية جهينة كذلك ، وبها كوهر جلة وأخذت منها الأهالى سباخا بكثرة ، ولم تزل تأخذ منها إلى الآن . وأكثر أهلها / مسلمون ، وبها مساجد عامرة ونخيلها حولها ، ويخرج منها جسر يمتد إلى جهتى الغرب والشرق ، فالشرقى يتصل بناحية المراغة ، والغربى يتصل بناحية جهينة . وفى مديرية أسيوط بقسم منفلوط قرية تسمى بلوط ، فى حوض المحرق غربى ناحية القوصية إلى جهة قبلى . وفى كتب الفرنساوية ترجمة بلفظ بلويت ، بلام بعد الباء الموحدة وتاء مثناة فى آخره ، ولا يعرف من هذا الاسم بلدة فى الديار المصرية ، فلعله محرف عن بنويط ، بنون بعد الباء وطاء فى آخره ، أو عن بلوط لأن لغتهم لا تفرق بين الطاء والتاء . ٩١

﴿ بنى أحمد ﴾ قرية بقسم منية ابن خصيب فى قبليها بنحو ساعة ، فيها أبنية مشيدة ، وفيها بيت مشهور كان منه ناظر قسم ، ومنه آخر فى مجلس شورى النواب بمصر المحروسة ، وفيها مساجد عامرة وبساتين ، وأكثر أهلها مسلمون .

ترجمة الشيخ أحمد الأحمدى الصعيدى

وقد نشأ منها الشيخ أحمد الصعيدى المترجم فى خلاصة الأثر[1] ، بأنه أحمد

(١) خلاصة الأثر ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣٧٢ .

الأحمدى الصعيدى ، من بنى أحمد قرية من أعمال المنية ، كان ماشيا على طريق القوم بكثرة العبادة ، محبا للفقراء والعلماء ، صوفيا زاهدا ، عمت امداداته واشتهر صيته ، وكان يحج سنة ويترك أخرى ، مع إدامته لخشونة عيشه ، وكان ربما لبس الخيش وكان كثيراً ما ينشد :

اقنع بلقمة وشربة ماء ولبس الخيش   قل لقلبك ملوك الأرض راحوا بيش

وكان كثير الفكر والذكر والصلاة على النبى ﷺ ، وكانت وفاته سنة سبع بعد الألف كما فى طبقات المناوى ، وقيل سنة عشر بعد الألف، انتهى .

﴿ بنى حسن ﴾ كانت تعرف قديما ببسيوس أو تميدوس ، وفى خطط أنتونان أن بعْد هذه المدينة عن مدينة أنصنا ثمانية أميال رومانية ، وقد قيس هذا القدر على الخرطة فوجد قدره بالمتر ١١٨٢٢ ووقع على بنى حسن القديمة .

ويوجد فيها آثار عتيقة كثيرة ، ومغارات عديدة فى الجبل عليها كتابة قديمة ، وكان للرومانيين فيها فرقة من العساكر الخيالة ، وهى الآن خراب ، وفى قبليها بلدة بنى حسن ، المعمورة الآن ، وتسمى بنى حسن الشروق ، وهى فى شرق البحر الأعظم ، بحرى الشيخ تمى قريبة من الجبل ، وهى على ثلاث قرى ودورها مبنية باللبن ، وبها نخيل بكثرة وبعض أهلها نصارى .

ومن كان فى مدينة أنصنا وقصد المغارات يمر أولا على بنى حسن القديمة ، ثم يدخل فى الجبل من فجوة عرضها نحو عشرين مترا فى واد تجرى فيه السيول إلى النيل فى أوقات الأمطار بسرعة شديدة ، بسبب ارتفاع الجبل فى هذه المواضع إلى مائتى قدم فأكثر . وبين بنى حسن ونزلة نوير سبعة وديان من هذا القبيل نشأ من جريان السيول فيها ردم أغلب أرض الزراعة وخراب جملة من القرى ترى آثارها إلى الآن .

وتلك المغارات بعضها قريب من بعض وأبوابها فى مستوى واحد تقريبا ، وهى

ثلاثون مغارة، منها خمس عشرة لم تتغير كتابتها ونقوشها والباقى تلف ما عليه من الكتابة. وهذه المغارات مرتبة مع الانتظام التام، فيها أعمدة من أنواع مختلفة بعضها يشابه الطرق المستعملة الآن بيننا فى العمارات التى ينسبها المعماريون والمؤلفون إلى الأروام.

وحيث أن الكتابات والنقوش التى على تلك الأعمدة وغيرها من العمارات تدل دلالة واضحة على أنها من أعمال المصريين، كان ذلك دليلاً على أن الأروام أخذت طرق العمارة عن المصريين، كما أخذت كثيرا من المعارف، ثم أن النقوش التى على جدران المغارات باقية على ألوانها الأصلية ما بين أصفر وأزرق وأحمر، كأنها وضعت بالأمس، وهى كثيرة جدا دالة على أمور مختلفة من أمور المصريين فى الأزمان السابقة، فمنها ما هو متعلق بوصف أحوال الزراعة وآلاتها وكيفياتها، ومنها ما هو متعلق بالصيد من النهر وبالقنص فى البر، وبعضها فى ألعاب المسارعة والرقص والمباسطة، وبعضها فى الصنائع والحرف .ونقل جميع هذه الكتابات يحتاج إلى مجلدات.

وفى هذه المغارات عدة قبور مشهور منها اثنان، الأول قبر امزامينها والثانى قبر نمهو طيب، وبالقرب من هذه البلدة على الشاطىء الأيسر من النيل خراب ممتد فى سعة عظيمة فى مقابلة المغارة الكبرى، يعرف بين الأهالى بالعنبجى أو العننج وهو بين كوم الزهير ومنشأة وابيس، وطوله قريب من ٥٠٠٠ متر، وبه كثير من الطوب والحجر. ويعرف هذا الخراب فى بعض الجهات بمدينة داود، وأحد التلال الموجودة فى جهة الشمال يسمى بكوم بنى داود، وجميع هذه الإشارات تدل على أنه كان فى هذا الموضع مدينة عظيمة يغلب على الظن أنها مدينة تيودوزو بوليس وهى من ضمن المدن التى كانت مشهورة فى الأقاليم الوسطى.

وحيث أن هذا الاسم رومى ومعناه مدينة تيودوز فلا مانع أن هذا القيصر وضع اسمه على مدينة قديمة من مدن مصر، كما فعل ذلك أركاديوس بن ديوتوز الأكبر فإنه سمى الأقاليم / الوسطى باسمه أركاديا. ٩٢

ويعلم من خطط الرومانيين أنه كان فى هذا الموضع أو قريبا منه مدينة تسمى ايزوى ، وكان فيها عساكر للمحافظة ، ويحقق ذلك المعبد المصرى الذى فى القرية المعروفة بالبربى البعيدة عن الخراب بقدر ستة آلاف متر من الجهة الغربية ، وحول هذا الموضع تلال وآثار قديمة وهى: كوم بنشها ، والحاج سليمان ، ونهالة ، وكوم نواجة ، وكوم مسمار ، والكوم الأحمر ، وصنعاء العجوز ، وفى بحرى بنى حسن بنحو ساعة ناحية المظاهرة .

ويقابل بنى حسن فى البر الغربى قرية البربى عند ترعة السبخة ، وقرية بوقرقاص ، وهى قرية أغلب أهلها نصارى ، ولهم شهرة فى نسج الصوف ويعملون جبة الصوف من نحو نصف رطل . وترعة الابراهيمية والسكة الحديد من غربيها ، وبها كنيسة وأبراج حمام ونخيل .

﴿ بنى حميل ﴾ قرية من قسم برديس بمديرية جرجا ، فى وسط حوض برديس شرقى العربات المدفونة بنحو ساعة ، والبحر فى شرقيها بنحو ساعة أيضا ، وفيها بستان لحميد بيك أبو ستيت ، فيه أنواع كثيرة من الفواكه .

ترجمة شيخ العرب أبى ستيت

وأبو ستيت هذا فلاح ترقى فى مدة الخديوى إسماعيل حتى كان مدير جرجا ثم قنا ، وبلغت مزروعاته نحو سبعة آلاف فدان ، ونخيله نحو مائة فدان فى عدة بلاد . ومنزله يشبه منازل مصر، فى كفر غربى برديس يقال له السنباط ، له فيه مضائف وجامع ومكتب وهما عامران بالمجاورين من فقراء البلدان يقرؤن القرآن ويطلبون العلم ، ولهم جراية ومرتبات يصرفها عليهم من ماله حسبة ، ومع ذلك فقد اشتهر عنه الغدر وقتل النفس واتهم هو وابنه أحمد فى قتل رجل ، ورفعت الشكاية فيهما للخديوى إسماعيل فقبض عليهما وسجنا نحو سنتين لتحقيق القضية ، ثم حكم عليهما بالنفى إلى السودان مدة حياتهما ، فنفيا إليه فى شهر جمادى الأولى من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وتسعين .

بالناحية المذكورة جامع بمئذنة بناه أبو ستيت بيك المذكور، وجبانتها مشهورة بالأولياء تأتى إليها الزوار من قاصى البلدان.

﴿ بنى سويف ﴾ هى مدينة كبيرة بالصعيد الأدنى رأس مديرية بنى سويف، واقعة قبلى بوش بنحو ساعة ونصف على الشاطىء الغربى من النيل، ذات أبنية وقصور مشيدة وقيساريات وفنادق، وبها حمام أنشأه حسن بيك أبو نشانين بالشركة مع حسن أفندى نامه، وكيل تلك المديرية سابقا، رسمه الأمير محمد بيك عبد الرحمن مفتش الهندسة. وبها جوامع عامرة أشهرها جامع البحر وهو جامع قديم مبنى بالحجر الدستور، وبها مقام الشيخة حورية ويعمل لها ليلة كل سنة. وكان بها قشلاق كبير بنى مدة العزيز محمد على يشتمل على أربعمائة أودة كان معداً لإقامة العساكر والباش بزوك، وكان به محلات نفيسة مشرفة على البحر كان ينزل فيها العزيز وشريف باشا وأحمد باشا طاهر. ثم هدمه المرحوم سعيد باشا وعمل محله السراى الموجودة الآن، وجعل أمامها ميدانا للعسكر وبنى به ديوان المديرية. وكان بها أيضا فوريقة للأقمشة جعل فى محلها الآن المدرسة ومسكن المدير. وبها مجلس الاستئناف والمجلس المحلى والمحكمة الشرعية ومحل حكيم باشا، وبها اسبتالية داخل البلد، وبها محل باشمهندس وبيوت مستخدمى المديرية.

وفى جهتها البحرية محطة سكة الحديد، وبها بستان بحرى الفوريقة للميرى. وسوقها العمومى يوم الثلاثاء، ويقابلها فى شرقى البحر ناحية بياض النصارى بجوار الجبل، وهى جملة كفور.

وجبانة بنى سويف فى الجبل بقرب تلك الناحية، تشيع إليها الجنائز فى المراكب. ومحجر المرمر فى ذلك الجبل قبلى ناحية بياض فى مقابلة الناحية المعروفة بالمليحية، وبين بياض ومحطة الورشة نحو ساعتين، ومن المحطة إلى محل قطع المرمر مسافة اثنتى عشرة ساعة، والطريق إليه معتدلة تمشى عليها العربات الحاملة للرخام، وفيها آبار ماء، وتلك

الطريق توصل إلى دير المقدس أنطوان المعروف بديربوش ، ويتوصل إليه أيضا من جهة اطفيح ، ومن جهة دير الميمون ، وذلك الدير قريب من البحر الأحمر .

والمرمر المستخرج من ذلك الجبل يوجد به كثير من السوس وتؤثر فيه العوارض الجوية ، وهو على ألوان ، فبعضه معرق وأغلب لونه الصفرة والخضرة ، وهو أقل جودة مما يستخرج من محجر أسيوط ، الذى أنعم به العزيز محمد على ، على سليم باشا السلحدار .

ويعلم مما ذكره أنطونان فى خططه ، أن مدينة بنى سويف هى فى محل مدينة سينى ، وأن البعد الذى كان بين سينى وبين أزيو ـ التى هى الزواية ـ عشرون ميلا ، كما أن هذا القدر بعينه كان بين سينى وتاكونا ، وهو عبارة عن تسعة وعشرين ألف متر وخمسمائة متر .

ويظهر أن مدينة سينى حدثت بعد خراب مدينة هيركليوبوليس ، فلعلها كانت فى الأصل موردة لها ثم خلفتها بعد خرابها ، كما حصل ذلك لمدن كثيرة كمدينة أبولونو بوليس فإنها كانت موردة لمدينة أبيدوس، ثم صارت مدينة سينى كلما انحطت هيركليوبوليس / تأخذ هى فى الزيادة حتى كانت رأس المديرية . ولفظ سينى ربما دل على ذلك لأن معناه الجديدة ولم يكن بالقرب منها إلا مدينة هيركليوبوليس ، انتهى . ٩٣

وفى الضوء اللامع[1] للسخاوى ، أن هذه القرية كانت تعرف قديما ببنمسوية ثم اشتهرت ببنى سويف ، وبعد أن كان ينسب إليها بالبنمساوى ، بكسر الموحدة والنون وسكون الميم ثم مهملة ، صار يقال فى النسبة إليها السويفى .

---

(١) الضوء اللامع ، المرجع السابق ، جـ٨ ، ص ٧٣.

ترجمة الشيخ محمد محب الدين السويفى

وإليها ينسب الشيخ محمد بن عبد الكافى بن عبد الله بن أبى العباس أحمد بن على بن محمد محب الدين الأنصارى العبادى البنمساوى القاهرى ، ويعرف كأبيه بالسويفى ، ولد تقريبا سنة سبعين وسبعمائة بالقاهرة ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن والعمدة والتنبيه ، ودخل الإسكندرية والصعيد وغيرهما ، وحدث بالكثير وسمع منه الأئمة ،وكان عالى الهمة صبورا . مات بالقاهرة فى ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين ، انتهى .

ترجمة أنطونان قيصر الروم

(فائدة) أنطونان المار ذكره يلقب بالصالح ، وهو من قياصرة الروم ، جلس على تخت القيصرية بعد أدريان سنة مائة وثمان وثلاثين ميلادية ، واشتغل باصلاح حال الرعية ، وبنى ما تهدم فى الحروب من المدن والضياع ، وردع المفسدين من الحكام فى الولايات ، ومنع التعدى على النصارى وظلمهم ، ومات سنة مائة وإحدى وستين ، وحزنت عليه الرعايا . وبنت السيناتو عمودا رفعته لبقاء ذكره موجوداً إلى الآن .

وإليه تنسب خطط مقدر فيها أبعاد البلدان ، يعتمد عليه فى الجغرافية القديمة ، والظاهر أنه عمل بأمره ، لا أنه عمله بنفسه ، انتهى . « من قاموس الجغرافية الإفرنجى » .

ترجمة مصطفى بيك السراج

ومن مدينة بنى سويف هذه ، المرحوم مصطفى بك السراج ، ولد بها سنة ألف ومائتين وتسع وثلاثين هجرية ، وكان أبوه انكشاريا وأمه سويفية . ودخل مكتب الديوان بها ، وأخذ منها إلى مدرسة الألسن سنة اثنتين وخمسين فأقام بها ست سنين ، ثم جعل معلم جغرافية بتلك المدرسة ، ثم أخذ إلى المعية السنية بوظيفة مترجم فرنساوى فأقام سنة . ثم

جعل مترجم قلم أفرنجى بضبطية المحروسة فى سنة ستين . ثم تعين معلم تركى فى البلاد السودانية بالمكتب الذى أنشىء هناك تحت نظر المرحوم رفاعة بيك الطهطاوى ، فأقام كذلك سنتين ثم عاد إلى مصر ، فجعل مترجم بمجلس تجارة الإسكندرية ، فأقام بهذه الوظيفة عشر سنين ثم جعل رئيس ذلك المجلس ، ثم تشرف بالرتبة الرابعة من سنة اثنتين وسبعين إلى سنة تسع وسبعين ، وأحيل عليه فى خلال ذلك تصفية تركة المرحوم محمد على باشا الصغير ، ثم أحيل عليه أيضا فى آخر تلك المدة تصفية تركة المرحوم سعيد باشا ، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة . وفى ربيع الأول سنة ثمانين جعل ترجمان أول فى محافظة الإسكندرية وأنعم عليه بالرتبة الثانية . وفى أوائل سنة اثنتين وثمانين جعل رئيس المجلس الابتدائى بالإسكندرية . وفى أثناء تلك السنة تعين لتحقيق دعوى الكنت دوبيسون الفرنساوى ، وأحيلت عليه أيضا دعوى سد أبى قير ، ورياسة مجلس الإسكندرية ، ورياسة كومسيون تفتيش المطبوعات ، ورياسة كومسيون تعديل ديوان الأهالى مع الأجانب بالإسكندرية . ثم توفى إلى رحمة الله تعالى فى أثناء سنة أربع وثمانين ومائتين وألف .

﴿ بنى صبورة ﴾ بلدة قديمة من مديرية جرجا بمركز المنشأة ، واقعة قبلى سوهاج بنحو ساعة ، فيها أبنية فاخرة ،ومساجد عامرة ، وأكثر أهلها أغنياء وعدتهم أكثر من أربعة آلاف نفس .

ترجمة محمد بيك أبو حمادى

ومنها محمد بيك أبو حمادى ، له سهرة من زمن العزيز محمد على ، وهو فلاح أخذ فى الترقى من زمن المرحوم سعيد باشا إلى أن صار فى زمن الخديوى إسماعيل من أعضاء مجلس الاستئناف بأسيوط ثم مدير جرجا . وابنه أحمد كان وكيل مديرية جرجا ، ثم توفيا إلى رحمة الله تعالى . وقد جعل منهم ناظر قسم وحاكم خط . ومنهم ابنه همام رئيس المجلس المحلى بجرجا. ولهم أبنية تشبه قصر المديرية الذى بسوهاج ، ولهم جامع عامر رتب فيه شيخا لتدريس العلم لتلامذة يأتون من بلاد كثيرة ، وجعل لهم مرتبات من ماله

حسبة لله تعالى ، وله بستان غربى البحر الأعظم فى مقابلة أخميم إلى قبلى ، فيه جميع الفواكه ، وله جنينة فى أخميم كذلك وكانت وفاة ذلك البيك سنة تسع وثمانين ومائتين وألف .

﴿ بنى عبيد ﴾ اسم مشترك بين قريتين ، إحداهما قرية من قسم منية ابن خصيب ، وكانت سابقا رأس قسم وهى فى حوض الطهتشاوى على الشاطىء الغربى من الإبراهيمية ، بين المنية وملوى ، وبها قليل من النخيل وجامع عظيم بناه عمدتها المرحوم حسن أبو سليمان .

ترجمة حسن أبى سليمان

وكان شيخاً كريما له شهرة فى جميع بلاد الصعيد صاحب خير وذين ، تألفه الفقراء والمساكين فى أسفاره ومضايفه . ويقال إنه لما سافر إلى الحج الشريف أمر مناديا : يا من يريد الحج . فحج معه خلق كثير على طرفه . وبلغت مزروعاته نحو اثنى عشر ألف فدان وعند موته ترك أربعة آلاف فدان ، ولم يترك ذرية . وكان محترما عند الأمراء والحكام ، متنحيا عن الوظائف / الميرية . أقام ابن أخيه موسى بكفر الفقاعى وهو عمدة بنى عبيد ، ٩٤ وبنى بذلك الكفر منزلا يشبه منازل مصر وهو محترم أيضا .

والثانية : قرية من مديرية الدقهلية بمركز نوسا الغيط ، فى شرق منية عجلان بنحو أربعة آلاف وخمسمائة متر ، وفى الجنوب الشرقى لناحية منية سويد بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، وبها زاوية للصلاة .

﴿ بنى عدى ﴾ بلدة كبيرة من قسم منفلوط بمديرية أسيوط بحافة بساط الجبل ، غربى منفلوط إلى جهة قبلى . وهى ثلاث قرى : القبلية والوسطى والبحرية ، وأبنيتها بالآجر واللبن ، وبها جوامع كثيرة كلها عامرة وفى بعضها تقرأ دروس العلم ، وبها أثر قصر كان بناه لاظ أوغلى مدة إقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية أسوان ، وبها

جنان ونخيل فى الجهة القبلية . وأكثر أهلها مسلمون وتكسبهم من الزرع والتجارة ، فمنهم من يتجر فى الغنم ، ومنهم من يتجر فى الغلال ، يتسوقون ذلك من الصعيد الأعلى ويوجهونه إلى مصر . وكثير منهم محترفون بمصر وبولاق ، فمنهم شيخ ساحل بولاق ، ومنهم البوابون بالخانات ، وتجار الدخان والنشوق وغيره ، وقل أن توجد حرفة شريفة أو وضيعة إلا وفيها ناس منها ، ومنهم من يتجر فى محصولات الواحات مثل التمر والأرز والنيلة ، بسبب أن منها طريقا إلى الواحات مسافتها ثلاثة أيام ، فتنزل عليها محصولاتها كثيرا ، ثم توجه إلى القاهرة وغيرها ، لا سيما التمر بأنواعه مثل العجوة ، التى توضع فى مقاطف طويلة من الخوص تسمى العجول ، والتمر الناشف .

وكان لأهلها فى السابق ككثير من بلاد منفلوط شهرة بأكل الخلد ، ويسمونه زغلول الغيط ، ولهم مهارة فى صيده وفى صنعة طبخه ، فيجعلون منه محمرا ومشويا وطواجن ، ويقدمونه للضيوف فيحسبونه حماما ، ومنهم من يبيعه . وذلك جائز عند المالكية إذالم يصل إلى النجاسات ، وإلا فلا يجوز أكله كفأر البيوت . وأما العرسة فلا تؤكل لما قيل أن أكلها يورث العمى .والخلد بتثليث الخاء المعجمة وسكون اللام ، هو فار الغيط كما فى كتب اللغة .

وفى هذه البلدة تنسج أحرمة الصوف الأسود فتشبه فى الجودة أحرمة بلاد المغرب ، وكذا ينسج بها ثياب الصوف الجيدة ذات الصفاقة مع الرقة ، وأكثر من يغزله عندهم النساء ـ كما هو العادة القديمة أن الغزل للنساء والخياطة للرجال .

وهكذا تجد فى أهل هذه البلدة نوعا من التمسك بعوائد العرب ، فإنهم قوم كرام ، ذو همم علية وذكاء وفطنة وفصاحة ، قيل إنهم من قبيلة بنى عدى القبيلة المشهورة القرشية .

وقد وقع لهم مع الفرنسيس حروب كما فى الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٣[1] وحاصلها : أنه فى زمن انتشار الفرنسيس فى البلاد القبلية من مصر وضربهم الأموال والكلف على أهالى تلك البلاد امتنع أهالى بنى عدى من دفع المال ، ورأوا فى أنفسهم الكثرة والقوة فحضرت إليهم جملة من عساكر الفرنسيس وضربوهم فخرجوا عليهم وقاتلوهم ، فركب عليهم الفرنسيس تلا عاليا وضربوا عليهم بالمدافع فأتلفوهم وأحرقوا جرونهم ، ثم هجموا عليهم وأسرفوا فى قتلهم ونهبوهم وأخذوا شيئا كثيرا وأموالاً عظيمة وودائع كثيرة كانت عندهم .

وهى أيضا مشهورة بالعلماء من قديم الزمان ، والجامع الأزهر دائماً لا يخلو منهم ، ولا ينقص المجاورون منهم به عن نحو الثلاثين ، ومنهم شيخ رواق الصعائدة غالبا ، ومنهم المدرسون والمؤلفون قديما وحديثا .

ترجمة العلامة الشيخ على العدوى المنسفيسى

وأجلهم الإمام الهمام شيخ مشايخ الإسلام وعالم العلماء الأعلام ، إمام المحققين وعمدة المدققين ، الشيخ على بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكى ، ولدببنى عدى ـ كما أخبر عن نفسه ـ سنة اثنتى عشرة ومائة وألف ، ويقال له أيضا المنسفيسى لأن أصوله من منسفيس قرية من مديرية المنية . قدم إلى مصر وحضر دروس المشايخ كالشيخ عبد الوهاب الملوى ، والشيخ شلبى البرلسى ، والشيخ سالم النفراوى ، والشيخ عبد الله المغربى ، والشيخ إبراهيم شعيب المالكى ، والشيخ الحفنى والسيد البليدى ، وآخرين . وأخذ الطريقة الأحمدية عن الشيخ على بن محمد الشناوى ، ودرس بالأزهر وغيره ، وكان يحكى عن نفسه أنه طالما كان يبيت بالجوع فى مبدأ اشتغاله بالعلم ، وكان لا يقدر

---

(١) انظر تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ٢ ـــ ٧٠ حوادث سنة ١٢١٣ .

على ثمن الورق ومع ذلك إن وجد شيئا تصدق به ، ورأى غير واحد من الصالحين النبى ﷺ فى المنام يأمره بالحضور عليه .

وقال العلامة الشيخ محمد الأمير : لقد سمعت شيخنا العفيفى فى مرض موته يقول : الشيخ الصعيدى ناج والذى يحضر عليه ناج . وشهد له بالصلاح والمعرفة أكثر من النصف من أهل عصره .

وله مؤلفات دالة على فضله منها : حاشية على الخرشى أربع مجلدات كبار ، وحاشية على أبى الحسن مجلدان ، وحاشية على ابن تركى ، وأخرى على الزرقانى ـ وكلها فى مذهب مالك ـ وحاشية على شرح الهدهدى فى علم التوحيد ، وحاشيتان على عبد السلام على الجوهرة كبرى وصغرى ، وحاشية على الأخضرى / على السلم فى المنطق ، وحاشية على شرح شيخ الإسلام على ألفية المصطلح للعراقى ، وغير ذلك .

٩٥

وكان علماء المالكية قبل ظهور المترجم لا يعرفون الحواشى على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أوّل من خدم كتب مذهبهم بالحواشى ، وله أيضا شرح على خطبة كتاب إمداد الفتاح على نور الإيضاح ، فى مذهب الحنفية للشيخ الشرنبلالى .

وكان رحمه الله شديد الشكيمة فى الدين ، يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وإقامة الشريعة ، ويحب الاجتهاد فى طلب العلم ، ويكره سفاسف الأمور ، وينهى عن شرب الدخان ويمنع من شربه بحضرته وبحضرة أهل العلم تعظيما لهم ، وكان إذا دخل منزلا من منازل الأمراء ورأى من يشرب الدخان نهاه عن شربه فينتهى فى الحال ، وشاع عنه ذلك حتى ترك شربه بحضرته ، ودخل يوما على على بيك فى أيام إمارته لقضاء حاجة عنده فأخبروه قبل وصول الشيخ إلى مجلسه فرفع الشبك من يده وأمر بإخفائه من وجهه . ولما مات على بيك واشتغل محمد بيك أبو الذهب بإمارة مصر كان يعظمه ويحبه ولا يرد شفاعته ، وكان كل من تعسرت عليه حاجته ذهب إلى الشيخ وأنهى إليه قصته فيكتبها مع غيرها فى قائمة حتى تمتلأ الورقة ثم يذهب إلى الأمير بعد نحو يومين ، وبعد الجلوس

يخرجها من جيبه ويقص ما فيها ويأمره بقضاء جميعه والأمير لا يخالفه ولا ينقبض منه ، ولما بنى ذلك الأمير مدرسته تعين المترجم للتدريس بها داخل القبة على الكرسى ، وابتدأ بها البخارى وحضره كبار المدرسين مع إدامة الدرس بالأزهر وغيره ، وكان يقرأ فى مسجد الغريب عند باب البرقية فى وظيفة جعلها له عبد الرحمن كتخدا ، ووظيفة بعد الجمعة بجامع مرزة ببولاق ، وكان على قدم السلف فى التقوى والاشتغال وشرف النفس ولا يركب إلا الحمار . ويواسى أهله وأقاربه ، ويرسل إلى فقرائهم الصلات حتى الطرح للنساء والمداسات ، ولم يزل على الإقراء والإفادة حتى تمرض أياما قليلة بجراح فى ظهره ، وتوفى عاشر رجب سنة ١١٨٩ ، ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى ، انتهى جبرتى[١] .

ترجمة الشيخ محمد عبادة

وفيه أيضا[٢] : أن من علمائها أحد الأئمة الأعلام وأوحد فضلاء الأنام ، الشيخ محمد ابن عبادة بن برى المالكى ، ينتهى نسبه إلى ابن صالح المدفون بالعلوة فى بنى عدى ، قدم مصر سنة أربع وستين ومائة وألف ، وجاور بالأزهر وحفظ المتون ، ثم حضر على شيوخ الوقت مثل الشيخ على العدوى المذكور ، والشيخ عمر الطحلاوى ، والشيخ خليل ، والشيخ البيلى ، وأخذ المعقولات عن شيخه الشيخ على العدوى وغيره ، ولازمه ملازمة كلية ، وانتسب إليه حساً ومعنى ، وصار من نجباء تلامذته ، ودرس الكتب الكبار فى الفقه والمعقول ، ونوه الشيخ بفضله وأمر الطلبة بالأخذ عنه ، وصار له باع طويل فى العلوم وفصاحة فى التقرير والتحرير وقوة استحضار ، ثم تصدى للتأليف فألف حاشية على شرح الشذور لابن هشام ، وحاشية على مولد النبى عليه الصلاة والسلام للغيطى ،

---

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .
(٢) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٦١ .

وحاشية على مولد ابن حجر ، وحاشية على شرح ابن جماعة فى مصطلح الحديث ، وحاشية على جمع الجوامع فى الأصول ، وحاشية على السعد فى العلوم الثلاثة ، وحاشية على شرح أبى الحسن فى الفقه ، وحاشية على شرح العلامة الخرشى فى الفقه أيضا ، وكتب على الرسالة العضدية وعلى آداب البحث والاستعارات ، ولم يزل يملى ويفيد ويحرر ويجيد ، حتى وافاه الحمام فى أواخر جمادى الثانية من سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف ، ودفن بقرافة المجاورين عليه رحمة الله .

ترجمة العارف بالله تعالى أبى البركات سيدى أحمد الدردير

ومن علمائها أبو البركات الشيخ أحمد الدردير ، وقد ترجمه الجبرتى أيضا بقوله[1] :

هو القطب الكبير والإمام الشهير العالم ، العلامة شيخ أهل الإسلام وبركة الأنام ، الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن أبى حامد العدوى المالكى الأزهرى الخلوتى الشهير بالدردير ـ وسبب تلقيبه بذلك هو أن قبيلة من العرب نزلت ببلدهم كان كبيرهم يلقب بالدردير فولد جده عند نزول هذه القبيلة فلقب بذلك ، فهو لقبه ولقب جده من قبله . ولد ببنى عدى ـ كما أخبر عن نفسه ـ سنة سبع وعشرين ومائة وألف وحفظ القرآن وجوّده وحبب إليه طلب العلم ، فورد الأزهر وحضر دروس العلماء وسمع الأولية عن الشيخ محمد الدفرى بشرطه ، وسمع الحديث على كل من الشيخ محمد الصباغ وشمس الدين الحفنى ، وتفقه على الشيخ على الصعيدى ولازمه فى جل دروسه حتى أنجب ، وتلقن الذكر وطريق الخلوتية من الشيخ الحفنى وصار من أكبر خلفائه ، وحضر بعض دروس الشيخ الملوى والجوهرى وغيرهما ، ولكن جل اعتماده على الشيخين الحفنى والصعيدى ، وأفتى فى حياة شيوخه مع كمال الزهد والعفة .

---

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١٥٧ .

وتصدى للتأليف ، فألف : شرح مختصر خليل واقتصر فيه على الراجح من الأقوال ، ومتنًا فى فقه المذهب سماه « أقرب المسالك لمذهب مالك » ، وشرحه بشرح جليل ، ربما كان أجل من شرحه لمتن سيدى خليل ، ورسالة فى متشابهات القرآن ، ونظم الخريدة / السنية فى التوحيد وشرحها ، ورسالة فى المعانى والبيان ، ورسالة أفرد فيها طريقة حفص ، ورسالة فى المولد الشريف ، ورسالة فى الاستعارات ، وأخرى على آداب البحث ، ورسالة جعلها شرحا على رسالة قاضى مصر عبد الله أفندى المعروف بطرطر زاده ، فى قوله تعالى: ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾[1] الآية ، وله غير ذلك . ٩٦

ولما توفى الشيخ الصعيدى تعين المترجم شيخا على المالكية ، ومفتيا وناظرا على وقف الصعائدة ، وشيخا على طائفة الرواق ، ولم يزل على ذلك حتى توفى فى سادس شهر ربيع الأول من سنة إحدى ومائتين وألف ، ودفن بزاويته التى أنشأها بخط الكعكيين بجوار ضريح سيدى يحيى بن عقب ، وقد أنشأها بعد عودته من الحج فى سنة تسع وتسعين ومائة وألف . ومن غريب ما اتفق له أن تاريخ موته جمل جملة « رضى الله عنه » .

ومما اتفق له كما فى الجبرتى أيضا[2] ، أنه كان بطنتدا لزيارة سيدى أحمد البدوى فى وقت المولد المعروف بالشرنبابلية ، وكان ذلك فى منتصف جمادى الثانية من سنة مائتين وألف ، وكان هناك على جارى العادة كاشف المنوفية والغربية فعسفوا بالناس وجعلوا على كل جمل يباع فى المولد نصف ريال فرانسة ، وأخذوا جمال الأشراف وكان ذلك أواخر أيام المولد ، فذهبوا إلى الشيخ الدردير وشكوا إليه ما حل بهم ، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب إليه فامتنعوا ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة ، فلما وصل إلى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر إليه ـ والشيخ راكب على بغلته ـ فكلمه ووبخه وقال أنتم ما تخافون من الله ، وفى أثناء كلام الشيخ مع كتخدا الكاشف هجم على

(١) سورة الأنعام ، آية ١٥٨ .
(٢) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١١١ .

الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت ، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وقبضوا على سيدى أحمد الصاوى تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت ، وهاجت الناس ووقع النهب فى الخيام وفى البلد ، ونهبت عدة دكاكين وأسرع الشيخ فى الرجوع إلى محله وراق الحال بعد ذلك ، وركب كاشف المنوفية وهو من جماعة إبراهيم بيك الكبير وحضر إلى كاشف الغربية ، فحضر به عند الشيخ وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان وانفض المولد ورجع الناس إلى أوطانهم ، فلما استقر الشيخ بمنزله بالقاهرة حضر إليه إبراهيم بيك الوالى وأخذ بخاطره وكذلك إبراهيم بيك الكبير وكتخدا الجاويشية ، انتهى .

ترجمة الشيخ أحمد البيلى العدوى المالكى

ومن علمائها الإمام الفاضل الشيخ أحمد بن موسى بن أحمد بن محمد البيلى العدوى المالكى ، ولد سنة إحدى وأربعين ومائة وألف . لازم الشيخ عليا الصعيدى ملازمة كلية ، وكان له قريحة جيدة وحافظة غريبة ، يملى فى تقريره خلاصة ما ذكره أرباب الحواشى، والطلبة يكتبون ذلك بين يديه ، وقد خرج من تقاريره على عدة كتب كان يقرؤها حتى صارت مجلدات ، ودرس فى حياة شيخه سنين . وكان له علم بتنزيل الأوفاق، والوفق المثينى والعددى والحرفى وطريق لتنزيله بالتطويق والمربعات وغير ذلك .

ولما توفى الشيخ أحمد الدردير ولى مشيخة رواق الصعائدة ، وله مؤلفات منها : مسائل كل صلاة بطلت على الإمام بطلت على المأموم إلخ ، توفى رحمه الله فى سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة انتهى ، جبرتى[1] .

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٦٣ .

ترجمة الشيخ أحمد كبوه

ومنهم الشيخ أحمد كابوه شيخ رواق الصعائدة، من سنة ست وستين من القرن الثالث عشر إلى أن توفى سنة أربع وثمانين، ولم يشتغل فى مدة عمره إلا بالتعلم فى صغره والتعليم فى كبره، درس مختصر الشيخ خليل فى مذهب مالك -بعد المغرب- نحو عشرين مرة، كل مرة فى سنتين، وكذا شرح الخرشى عليه - فى الغداة - فكان هذا دأبه دائما.

ترجمة الشيخ عبد الله القاضى

ومن علمائها الشيخ عبد الله القاضى، ولد بها سنة إحدى وثمانين من القرن الثانى عشر، وجاور بالأزهر حتى أتقن فنونه، وتصدر للتدريس وتولى مشيخة رواق الصعائدة سنة اثنتين وخمسين، ثم آلت إليه مشيخة المالكية فقام بالوظيفتين إلى أن توفى سنة سبع وخمسين ومائتين، وكانت له دراية تامة بلغة العرب وأشعارهم وأساليب كلامهم، ومن أشياخه الشيخ محمد الأمير الكبير وطبقته.

ترجمة الشيخ محمد الحداد العدوى

ومن علمائها العالم الكبير والعلامة الشهير الشيخ محمد الحداد المالكى العدوى الخلوتى الأزهرى، ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢١٨ هجرية بها، وتربى بين أبويه إلى أن حفظ القرآن على يد رجل من كبار الصالحين يقال له الشيخ عبد الرحمن جعفر، ثم حضر إلى مصر وأقام بها لطلب العلم الشريف مدة حتى فتح الله عليه، وقرأ جميع الكتب التى تقرأ بالجامع الأزهر، وأخذ طريق الخلوتية عن الأستاذ الشهير السيد محمد فتح الله اليمديسى المتلقى عن الشيخ الصاوى المالكى، المدفون بالبقيع، المتلقى عن القطب الشهير الشيخ أحمد الدردير المالكى الخلوتى الحفنى رضى الله عنه، وسنده مشهور، وأذنه شيخه الشيخ

فتح الله بالتلقين والإرشاد ، ثم توجه إلى ناحية الواحات الداخلة بمديرية أسيوط لأنه كان لوالده رحمه الله بها نخيل وعقار وغير ذلك ، فأقام بها نحو عشر سنين ونشر الطريقة بها وقرأ العلوم كذلك حتى تمكنت / عقائد الدين وفروعه من قلوب أهلها واشتغلوا بأوراد الطريق ثم حضر إلى الجامع الأزهر واشتغل بقراءة العلوم من معقول ومنقول مع الاشتغال بالطريق مع أولاده، فكان يشتغل نهارا بالعلم وليلا بالأوراد والذكر. وقد تلقى غير طريقة الخلوتية من الطرق بعضها عن أبي العباس الخضر وبعضها عن غيره بسند كل المتصل.

٩٧

وأما مشايخه فى العلم فمنهم : العلامة الشيخ مصطفى البولاقى المالكى ، والعلامة الشيخ خضارى المالكى ، والعالم العامل الكبير الشيخ مصطفى المبلط الشافعى ، رحمه الله ، وشيخ الإسلام الشيخ إبراهيم البيجورى الشافعى ، والشيخ حمد محمد كابوه العدوى المالكى وغيرهم من أكابر العلماء.

وقد أجازه مشايخه الأعلام بقراءة العلم وتدريسه ، واشتغل بذلك مع الجد والاجتهاد إلى أن توفى ، رحمة الله تعالى ، ليلة السبت ٢٦ جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف هجرية ، ودفن بالقرافة الكبرى قريبا من زاوية شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى الشافعى ، ومقامه مشهور هناك عليه سحائب الرحمة والرضوان.

ترجمة العلامة الشيخ محمد قطة العدوى

ومن علمائها ، الفاضل المحقق الشيخ محمد ابن الشيخ عبد الرحمن قطة المالكى . الذى آلت إليه بعد تصحيح كتب قلم الترجمة وظيفة رياسة تصحيح المطبوعات العقلية والنقلية والأدبية بمطبعة بولاق ، وشهرته فى تصحيح الكتب لا تحتاج إلى دليل ، وتوفى رحمه الله ، سنة إحدى وثمانين عقب حج مبرور ، ودفن ببستان العلماء . وهو ابن الإمام

الجهبذ الشهير الشيخ عبد الرحمن قطة العدوى المالكى، قرين مفتى السادة المالكية الشيخ محمد الأمير الكبير.

ترجمة العلامة الشيخ منصور كساب العدوى

ومنها العلامة الشيخ منصور كساب، كان حلالا للمشكلات، درس فى الأزهر الكتب الكثيرة وأفاد وأجاد، وله تقريرات على شرح الأشمونى وحاشية الصبان على ألفية ابن مالك، ورسالة فى الأشكال المنطقية. توفى، رحمه الله، قبيل سنة ١٣٨٠ ودفن ببستان العلماء بقرافة المجاورين.

وبالجملة فهى مع كونها بلدة ريفية منبع لجهابذة العلماء من عدة أجيال إلى الآن.

وفى القاموس الجهبذ بالكسر الناقد الخبير، اهـ. ويطلق على صراف النقود بحسب الأصل، ثم أطلق على من يقف على غوامض الأمور ودقائقها، وهى كلمة فارسية معناها ناقد، ويقال فيها كهبذ بالكاف. قاله، دساسى.

﴿ بنى عياض ﴾ هذه القرية من مركز العلاقمة بمديرية الشرقية، موقعها قبلى ناحية أبى كبير، إلى جهة الشرق على بعد خمسمائة متر، وهى فى الجهة الغربية من بحر فاقوس، ويجاورها من الجهة البحرية الجزيرة الواصلة إلى ناحية أبى كبير وهى جزيرة رمال فاسدة، وأبنية البلد باللبن الرملى، وبها مساجد ومكاتب أهلية ونخيل بكثرة، وبجوارها من الجهة الغربية دار للدائرة السنية لمهات ومواشى الشفلك. وهى مشهورة بعمل البرم العياضى والطواجن التى يطبخ فيها السمك، وبضفر الخوص. وزمامها ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون فدانا وكسر، وعدد أهلها ثلاثة آلاف واثنتان وعشرون نفسا وتكسبهم من الزراعة.

﴿ بنى محمد ﴾ هذه بلدة كبيرة من مديرية أسيوط بقسم أبنوب الحمام فى شرقى النيل، بينها وبين أسيوط نحو ثلاث ساعات، وهى تشتمل على ثلاث قرى متلاصقة، وبها

مساجد عامرة وكنائس ومكاتب للمسلمين والنصارى ، ونخيل وبساتين ، ولها سوق كل يوم خميس . وعمدتها عبد الوهاب كان ناظر قسم أسيوط مدة الخديوى إسماعيل باشا وقبلها.وعدة أهلها أكثر من عشرة آلاف نفس وتكسبهم من الزرع ومنهم من ينسج الصوف ، وأكثرهم أصحاب ثروة لخصوبة أرضهم وكثرة متحصلها ، وفيهم الكرم والشجاعة وعلوة الهمة .

وفى كتاب البيان والإعراب عمن بأرض مصر من الأعراب للمقريزى : أن بنى محمد من ولد حسان بن ثابت بن المنذر بن حزام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار أبى الوليد الأنصارى رضى الله عنه ، نسبة إلى الأنصار، والأنصار قبيل عظيم من قبائل الأزد ، قيل لهم الأنصار من أجل أنهم نصروا رسول الله ﷺ وهم الأوس والخزرج ابنا حارثة ، وهو العنقاء بن عمرو وهو مزيقيا بن عامر ، وهو ماء السماء بن حارثة ، وهو الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، هكذا تقول الأنصار .

وقال ابن الكلبى وغيره : عمرو مزيقيا بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد ، انتهى .

﴿ بنى مزار ﴾ هى بلدة غربى النيل بقدر ألف متر ومائة ، وفى غربى الترعة الإبراهيمية بقدر خمسين متر ، وفى الشمال الشرقى للقيس بنحو ألفين وخمسمائة متر ، وفى الجنوب الشرقى لقرية طنبو بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة متر ، وكانت فى الأصل رأس المديرية وهى الآن رأس قسم من مديرية المنية . وبها قاض ، وكان بها فى مدة العزيز محمد على قشلاق للعساكر وإقامة الحاكم ، وشونة غلال للميرى / وكان بها سابقا طرخانة ٩٨ نيلة ، وفى قبليها تلال كبيرة هى آثار بلد يقال لها العنبس من المدن القديمة ، والعنبس الجديدة الآن شرقى تلك التلول . ومبانى ناحية بنى مزار من الآجر واللبن ، وحاراتها ضيقة ، وفى بحريها على نحو ثلثى ساعة قرية بوجرج ، وعلى نحو ساعتين مدينة البهنسا ، ويقابلها على الشاطىء الشرقى للنيل ناحية بنى صامت .

ومن أهالى بنى مزار طائفة أشراف يقال لهم أولاد أبى الليل ، وفى كل سنة يعملون ليلة لوالدهم يجتمع فيها خلق كثير . وفى شرقيها ترعة جديدة لرى سواحل بنى مزار وغيرها ، وكان حفرها سنة ١٢٥٥ . ولها سوق جمعى ، وفيها للدائرة السنية ديوان تفتيش زراعته خمسة عشر ألف فدان ، يزرع منها كل سنة نحو ستة آلاف فدان قصبا ، ويزرع الباقى قطنا وحبوبا .

مطلب فوريقة بنى مزار

وفيها فوريقة إنجليزية لعصر القصب وعمل السكر ، يتحصل منها كل يوم من السكر الأبيض الحب ستمائة قنطار ، ومن السكر الأحمر مائتان وخمسون قنطارا من النمرة (٢) ويتحصل منها فى السنة ثلاثة وستون ألف قنطار سكرا أبيض حبا ، وستة وعشرون ألفا ومائتان وخمسون قنطارا سكرا أحمر . ولا يستخرج بها السبيرتو بل ينقل العسل منها إلى فوريقة مفاغة لاستخراج ذلك منه .

بجوار الفوريقة ديوان التفتيش والمخازن اللازمة للآلات وحفظ السكر ، ومساكن المستخدمين من المهندسين الأوروباويين وغيرهم ، ووابور النور اللازم لإدارة حركة الفوريقة ليلا ، يدخل نوره فى جميع العنابر والمحلات ، وهكذا كل فوريقة ، لأنها تدور ليلا ونهارا ، من ابتداء مدة العصر إلى انتهائها نحو ثلاثة شهور أو أربعة .

وهناك محطة للسكة الحديد يتفرع منها فرع يمر فوق الإبراهيمية بواسطة كبرى من الخشب ، حتى يمر بوسط الفوريقة ويذهب مغربا قدر ألف متر ، ويتفرع منه فرع إلى آخر التفتيش فى الجهة الجنوبية ، وعلى الفرع المتجه إلى الغرب بعد مروره قدر مائتين وخمسين مترا من الفرع الأول ، فرع آخر يتجه إلى الشمال فيتلاقى مع الفرع المار فى غربى بوجرج من تفتيس آبة الوقف وطوله إلى نهاية التفتيش البحرية سبعة آلاف متر ، وطول فرع تفتيش آبة المتلاقى مع هذا الجسر الموصل إلى آبة أربعة آلاف متر ، وطول فرع آبة

الآخر المار فى شرقى الفوريقة إلى أن يتلاقى مع الفرع المار فى غربى بوجرج أربعة آلاف متر أيضا ، ثم يمتد فرع بنى مزار المتجه إلى الغرب حتى يتلاقى مع جسر الحوشة ، وطوله ألفان ومائتان وخمسون مترا ، ثم على الفرع المتجه إلى الشمال المار فى غربى بوجرج بعد مفارقة الفرع المتلاقى مع فرع تفتيش آبة بقدر ألفى متر ، وفرع آخر متجه إلى الغرب ومتلاق مع جنابيه جسر الحوشة وطوله ألف وخمسمائة متر.

ومنها عبد السميع بيك قائمقام ، كان حكيما بالاسبتالية العمومية.

﴿بنى هلال﴾ قرية من مديرية جرجا بقسم سوهاج على الجانب الغربى للنيل ، فى جنوب قرية صوامعة أبى هننش ، وفى شمال ناحية المراغة بقليل ، وفيها مساجد ونخيل ، وتزرع فى أرضها الذرة الطويلة كثيرا والبصل والمقاثىء - سيما العجور الكبير الذى يقال له الحرش - وعندها أرض قحلة ينبت فيها الهيش والحلفاء ، فلذا ينسج فيها وفى كفورها حصر الحلفاء ، وتعمل بها الحبال التى يقتت بها القمح والشعير بعد حصاده ، والشبك الذى يحمل فيه التبن إلى المنازل بعد تذريته . وليس لها سوق ولا عليها طريق فلذا تجد فى طباع أهلها الغلظة والتوحش.

والظاهر أن أصلهم من عرب بنى هلال كما يدل له كلام المقريزى فى رسالته البيان والإعراب ، قال : فأما بنو هلال فإنهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ابن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس غيلان ، - ويقال قيس ابن عيلان ، بالمهملة - بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وبنو هلال بطن من بنى عامر ، وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها إلى عيذاب وبأخميم منهم بنو قرة ، وبساقية قلتة منهم بنو عمرو ، انتهى.

وساقية قلتة قريبة من هذه القرية فإنها فى شرقى النيل فى جنوبها الشرقى ، وكل هذه البلاد قديما كان يقال لها بلاد إخميم.

﴿بهبيط﴾ بلدة قديمة فى شمال سمنود على نحو ثمانية آلاف وستمائة متر بقرب ترعة الثعبانية التى فمها من فرع دمياط ، وكان فى تلولها وقت أن دخل الفرنساوية أرض مصر سور مربع الشكل ، طوله ثلثمائة واثنان وستون مترا ، فى عرض مائتين وأحد وأربعين مترا ، وكان بناؤه من اللبن والطين ، وله خمسة أبواب اثنان فى الجنوب وواحد فى الشمال واثنان فى الحائط الغربى ، والظاهر أنه كان سور البلد القديمة وفى داخله ساحة طولها ثمانون مترا فى عرض خمسين ، كان بها قطع من الأعمدة والحجارة الكبيرة تدل على أنه كان فى هذا الموضع معبد كبير ، وبعض هذه الحجارة كبير جدا طوله ثلاثة أمتار وأربعة أعشار متر وعرضه متر/ وأربعة أعشار ، فى سمك سبعة أعشار متر. ٩٩

وعلى تلك الآثار كتابة هيروجليفية ، ويظهر من الصور التى وجدت هناك أن المقدسة إزيس كانت هى المقدس فى هذه البلدة ، وأنها فى محل المدينة القديمة التى يسميها الرومانيون إزيس أو پيدوم ، وبعضهم يسميها إزوم - يعنى مدينة إزيس - ويقال إنه كان فى الوجه البحرى من هذا الاسم ثلاث مدن إحداها هذه ، وكان بكل منها معبد للمقدسة إزيس.

﴿بهتيم﴾ قرية من مديرية القليوبية بضواحى مصر ، فى جنوب ناحية بلقس بنحو أربعة آلاف متر ، وفى شمال ناحية الأميرية بنحو ثلاثة آلاف ومائتى متر ، وبها جامع.

﴿بهجورة﴾ قرية كبيرة من قسم فرشوط بمديرية قنا ، واقعة فى حوض بهجورة ، شرقى فرشوط على ثلثى ساعة ، والبحر فى شرقيها على نحو ساعة ، وفيها مسجد به منارة ، وكنيسة للأقباط ، وأبراج حمام وعصارات قصب ، وعدد وافر من النخيل والأشجار ذات الفواكه لبعض كبرائها والمستخدمين من أقباطها ، ويتحصل منها كل سنة مقدار عظيم من عسل القصب والسكر الخام.

ويتبع هذه البلدة عدة نجوع منها نجع أبى حمادى فوق الشط الغربى للنيل ، فى شرقى بهجورة على نحو ربع ساعة تجاه ناحية القصر والصياد ، فيه للميرى أبراج حمام بكثرة وعدد وافر من النخيل وبساتين ذات فواكه ، وسوق دائم بحوانيت قليلة وقهاو . وفيه أبنية جيدة ومساجد عامرة ، أحدها تبع الدائرة السنية له منارة وأرضه مبلطة ، وله مطهرة حسنة ، وسقوفه من جريد النخل وخشبه .

مطلب تفتيش أبى حمادى

وهناك ديوان تفتيش لزراعة الدائرة ، وعمارة كبيرة فيها مساكن المستخدمين ، وفيها فوريقة لعصر القصب وعمل السكر للدائرة السنية ، مثل فوريقة المنية والروضة ، والمخازن اللازمة . وأطيان هذا التفتيش اثنان وثلاثون ألف فدان ، منها فى أبى حمادى عشرون ألفا ، وفى القصر والصياد ثمانية آلاف ، وفى بخانس أربعة آلاف ، يزرع منها قصبا نحو أحد عشر فدان والباقى يزرع حبوبا ، ويسقى قصبها بواسطة الوابورات المركبة على النيل فى البر الغربى والشرقى ، والرىّ المعتاد للأطيان يكون بفيضان النيل ، ولأطيان البر الغربى ترعتان ترعة الصافنة فمها بقرب ناحية الشيخ سليم ، وترعة أبى حمار فمها عند كلح أبى زيط ، وينقل القصب إلى الفوريقات من زرع أب حمادى بواسطة الأبل ، ومن زراعة القصر والصياد وبخانس بواسطة صنادل تجرّها وابورات بخارية بحرية مخصصة لذلك التفتيش .

﴿ بهرمس ﴾ قرية بقسم أول بمديرية الجيزة ، غربى القناطر الخيرية على بعد نصف ساعة ، وهى بلدة صغيرة بناؤها من الطوب الأحمر واللبن ، وفيها مساجد ومضايف ونخيل قليل ، وبنى بها عمدتها عبد الواحد أفندى أبو إسماعيل وأقاربه أبنية مشيدة ، والمذكور كان رئيس مجلس الجيزة ، وابنه يوسف أغا تولى وظيفة ناظر قسم بالمديرية ثم ترتب عليه ذنب فألحق بالجهادية نفراً عسكريا ، ثم عفى عنه ولزم بيته وكل ذلك فى زمن الخديوى إسماعيل .

ومن البلدة المذكورة محمد أفندى بكر ، دخل مدرسة قصر العينى فى ابتداء أمره ، ثم نقل إلى مدرسة المهندسخانة ، ثم إلى مدرسة العمليات إلى أن صار باشمهندس الدقهلية .

﴿ بهواش ﴾ قرية من مديرية المنوفية بمركز أشمون جريس ، بحرى ترعة النعناعية ، وأغلب بنائها بالطوب الأحمر ، وبها جامع قديم له منارة مقام الشعار ، وجملة زوايا ومقام الشيخ على السطوحى ، وبها أيضا معمل فراريج وعندها قنطرة بثلاث عيون على ترعة النعناعية ، ورى أرضها منها ومن الشنشورية ، وأهلها مسلمون وتكسبهم من الزراعة وغيرها .

ترجمة عمر أفندى منصور

ومن هذه القرية نشأ عمر أفندى منصور باشكاتب دائرة الحضرة الخديوية التوفيقية ، دخل أول أمره مدرسة المحاسبة وتعلم بها ، ثم خرج إلى الوظائف بالامتحان سنة ألف ومائتين وأربع وخمسين ، وتنقل فى جهات فى حرفة الكتابة ، ثم جعل باشكاتب مدرسة قوله سنة سبعين ، وبعد عوده منها جعل رئيس قلم قضايا بالأوقاف سنة ثمان وسبعين ، ثم جعل رئيس قلم عسكرية بديوان الجهادية ، ثم جعل باشكاتب دائرة المرحوم عباس باشا ، ثم استخدم فى ديوان المالية ، ثم انتقل إلى دائرة الحضرة الخديوية التوفيقية وهو بها إلى الآن . انتهى .

﴿ بهوت ﴾ بضم الموحدة والهاء وسكون الواو وفى آخره مثناة فوقية ، قرية من مديرية الغربية بمركز المحلة الكبرى .

ترجمة الشيخ محمد البهوتى

وإليها ينسب الشيخ محمد البهوتى المترجم فى خلاصة الأثر[١] : بأنه محمد بن أحمد بن على البهوتى الحنبلى الشهير بالخلوتى المصرى العالم العلم ، إمام المعقول والمنقول ، المفتى المدرس . ولد بمصر وبها نشأ ، وأخذ الفقه عن عبد الرحمن البهوتى الحنبلى ، ولازم الشيخ منصور البهوتى الحنبلى ، وتخرج بالغنيمى ، واختص بعده بالنور الشبراملسى ولازمه ، وكان يجرى بينهما فى الدرس محاورات ونكات دقيقة ، وكان الشبراملسى / ١٠٠ لا يخاطبه إلا بغاية التعظيم لفضله وكونه رفيقه فى الطلب . وكتب كثيرا من التحريرات منها : تحريراته على الاقناع وعلى المنتهى . جردت بعد موته فبلغت حاشية الاقناع اثنتى عشرة كراسة . وحاشية المنتهى أربعين كراسة ومن شعره :

سمحت بعد قولها لفؤادى ذب أسى يا فؤاده وتفتت
ونجا القلب من حبائل هجر نصبتها لصيده ثم حلت

وقوله :

كأن الدهر فى خفض الأعالى وفى رفع الأسافلة اللئام
فقيه عنده الأخبار صحت بتفضيل السجود على القيام

وكانت وفاته بمصر سنة ثمان وثمانين وألف ، انتهى .

ترجمة الشيخ عبد الرحمن البهوتى الحنبلى والشيخ منصور

وأما شيخه عبد الرحمن البهوتى الحنبلى فقال فى الخلاصة[٢] : إنه كان موجودا فى الأحياء فى سنة أربعين وألف ، وهو عبد الرحمن بن يوسف بن على زين الدين ، ابن القاضى جمال الدين بن نور الدين المصرى ، خاتمة المحققين ، ولد بمصر وبها نشأ ، وقرأ

---

(١) خلاصة الأثر ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٣٩٠ .

(٢) خلاصة الأثر ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٥ .

الكتب الستة وغيرها ، ومن مشايخه الجمال يوسف بن القاضى زكريا ، والشمس الشامى صاحب السيرة . ومن مشايخه فى فقه مذهبه ، والده وجده ، والتقىّ الفتوحى الحنبلى صاحب منتهى الإرادات . وفى فقه مالك ، الشيخ الجيزى والدميرى والحطاب . وفى فقه أبى حنيفة ، شمس الدين البرهمتوشى والسلمى ، وابن غانم المقدسى . وفى فقه الشافعى ، الخطيب الشربينى والعلقمى .

وعنه أخذ جمع،منهم : منصور البهوتى بن يونس ين صلاح الدين بن حسن بن أحمد بن على بن إدريس الحنبلى ، شيخ الحنابلة بمصر ، الذائع الصيت البالغ الشهرة ، كان ورعا متبحرا فى العلوم الدنية ، ورحل الناس إليه من الآفاق ، أخذ عن جمع منهم : الجمال يوسف البهوتى ، والشيخ عبد الرحمن البهوتى المترجم ، وأخذ عنه الشيخ محمد ومحمد بن أبى السرور البهوتيان وغيرهما .

ومن مؤلفاته : شرح الإقناع ثلاثة أجزاء ، وحاشية على الإقناع ، وشرح على منتهى الإرادات ، وحاشية على المنتهى ، وغير ذلك .

وكان شيخا له مكارم دارة ، وفى كل ليلة جمعة يجعل ضيافة ويدعو جماعته من المقادسة ، وإذا مرض منهم أحد أخذه إلى بيته ومرضه إلى أن يشفى ، وتأتيه الصدقات فيفرقها على طلبة مجلسه ، وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين وألف بمصر ، ودفن فى تربة المجاورين . انتهى .

ترجمة الشيخ صالح البهوتى

وينسب إليها أيضا ، كما فى الجبرتى[١] ، الإمام الفقيه الفرضى الحيسوب صالح بن

(١) تاريخ الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧١ .

حسن بن أحمد بن على البهوتى الحنبلى ، أخذ عن أشياخ وقته ، وكان عمدة فى مذهبه وفى المعقول والمنقول والحديث ، وله عدة تصانيف وحواش وتعليقات وتقييدات مفيدة ، متداولة بأيدى الطلبة . أخذ عن الشيخ منصور البهوتى الحنبلى ، والشيخ محمد الخلوتى ، وأخذ الفرائض عن الشيخ سلطان المزاحى والشيخ محمد الدلجمونى ، وهو من مشايخ الشيخ عبد الله الشبراوى ، وله ألفية فى الفرائض، ونظم الكافى . توفى يوم الجمعة ثامن ربيع الأوّل سنة إحدى وعشرين ومائة وألف، انتهى .

(تم الجزء التاسع ويليه الجزء العاشر أوله البهنسا)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ١٩٩٣/٥٠٦٨

I.S.B.N. 977-01—3412- 0

